تَفْسِيرُ ابْنِ عَطِيَّة

المُحَرَّرُ الوَجِيزُ

مختار

فِي تَفْسِيرِ الكِتَابِ العَزِيزِ

للإمامِ أبي مُحَمَّد عبد الحقّ بن عَطِيَّة الأندلُسِيّ

□ **تفسير ابن عطية المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**
تأليف : الإمام أبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي
تحقيق : مجموعة من الباحثين - بإشراف إدارة الشؤون الإسلامية
الطبعة المحققة الأولى : ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

قياس القطع : ١٧ × ٢٤

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية
بتمويل الإدارة العامة للأوقاف
دولة قطر
ص.ب ٤٢٢ الدوحة
البريد الإلكتروني : turathuna@islam.gov.qa





تفسير ابن عطيّة

المحرّر الوجيز

في تفسير الكتاب العزيز

للإمام أبي محمّد عبد الحقّ بن عطيّة الأندلسيّ

تحقيق

مجموعة من الباحثين

بإشراف

إدارة الشّؤون الإسلاميّة

الجزء الرّابع

من تفسير الآية ٥٠ من الأنعام حتّى الآية ٥٩ من التّوبة

إصدارات

وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة

إدارة الشّؤون الإسلاميّة

بتمويل الإدارة العامّة للأوقاف

دولة قطر



قوله عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾.

هذا من الردِّ على القائلين: لولا أنزل عليه آية، والطالبين[١] أن ينزل ملك، أو تكون له جنة أو أكثر[٢]، أو نحو هذا، والمعنى: لستُ بهذه الصفات فيلزمَني أن أجيبكم باقتراحاتكم.

وقوله: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ يحتمل معنيين:

أظهرهما: أن يريد أنه بشر لا شيء عنده من خزائن الله ولا من قدرته ولا يعلم شيئاً مما غيِّب عنه.

والآخر: أنه ليس بإله، فكأنه قال: لا أقول لكم إني أتصف بأوصاف إله في أن عندي خزائنه وأني أعلم الغيب، وهذا هو قول الطبري[٣].

وتعطي قوة اللفظ في هذه الآية أن الملك أفضل من البشر، وليس ذلك بلازم من هذا الموضع، وإنما الذي يلزم منه أن الملك أعظم موقعاً في نفوسهم وأقرب إلى الله، والتفضيل يعطيه المعنى عطاء خفيّاً وهو ظاهرٌ من آيات أخر، وهي مسألةُ خلافٍ، و﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ يريد القرآن وسائر ما يأتي به الملك، أي: وفي ذلك عبر وآية لمن تأمل ونظر.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى﴾ أي: قل لهم: إنه لا يستوي الناظر المفكر في الآيات مع الـمُعرِض الكافر المهمل للنظر، فالأعمى والبصير مثالان للمؤمن والكافر، أي: ففكروا أنتم وانظروا وجاء الأمر بالفكرة في عبارة العرض والتحضيض.

---

(١) في الحمزوية: «الظالمين».

(٢) في فيض الله والسليمانية ونور العثمانية ولالاليه: «أو كنز».

(٣) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٣٧١) وانظر: الهداية لمكي (٣/ ٢٠٢٩).

و﴿أَنذِرْ﴾ عطف على ﴿قُلْ﴾ والنبي ﷺ مأمورٌ بإنذار جميع الخلائق، وإنما وقع التحضيض هنا بحسب المعنى الذي قصد، وذلك أن فيما تقدم من الآيات نوعاً من اليأْس في الأغلب عن هؤلاء الكفرة الذين قد قال فيهم أيضاً: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، [يس: ١٠]، فكأنه قيل له هنا: قل لهؤلاء الكفرة المعرضين: كذا ودعهم ورأيهم لأنفسهم، وأنذر بالقرآن هؤلاء الآخرين الذين هم مظنة الإيمان وأهل للانتفاع، ولم يرد أنه لا ينذر سواهم، بل الإنذار العام ثابت مستقر.

والضمير في ﴿بِهِ﴾ عائد على ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾، و﴿يَخَافُونَ﴾ على بابها في الخوف، أي: الذين يخافون ما تحققوه من أن يحشروا ويستعدون لذلك، وربَّ متحقِّقٍ لشيء مَـخوف وهو لقلة النظر والحزم لا يخافه ولا يستعد له.

قال القاضي أبو محمد: وقال الطبري: وقيل: ﴿يَخَافُونَ﴾ هنا بمعنى: يعلمون[1]، وهذا غير لازم.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يعم بنفس اللفظ كل مؤمن بالبعث من مسلم ويهودي ونصراني.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يحتمل معنيين:

فإن جعلناه داخلاً في الخوف في موضع نصب على الحال، أي: يخافون أن يحشروا في حال من لا ولي له ولا شفيع، فهي مختصَّةٌ بالمؤمنين المسلمين، ولأن اليهود والنصارى يزعمون أن لهم شفعاء وأنهم أبناء الله ونحو هذا من الأباطيل.

وإن جعلنا قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ إخباراً من الله تعالى عن صفة الحال يومئذ، فهي عامة للمسلمين وأهل الكتاب.

و﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ترجٍّ على حسب ما يرى البشر ويعطيه نظرهم.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٣٧٣).

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

المراد بـ﴿الَّذِينَ﴾ ضعفة المؤمنين في ذلك الوقت في أمور الدنيا: بلال، وعمار، وابن أم عبد، ومَرثدٌ الغنوي، وخبَّاب، وصهيب، وصُبيح، وذو الشمالين، والمقداد ونحوهم[١]. وسبب الآية: أن الكفار قال بعضهم للنبي ﷺ: نحن لشرفنا وأقدارنا لا يمكننا أن نختلط بهؤلاء، فلو طردتهم لاتبعناك وجالسناك، وَرَدَ في ذلك حديث عن ابن مسعود[٢].

وقيل: إنما قال هذه المقالة أبو طالب على جهة النصح للنبي ﷺ، قال له: لو أزلت هؤلاء لاتبعك أشراف قومك. وروي أن ملأ قريش اجتمعوا إلى أبي طالب في ذلك[٣].

وظاهر الأمر أنهم أرادوا بذلك الخديعة، فصوب هذا الرأي من أبي طالب عمر ابن الخطاب وغيره من المؤمنين فنزلت الآية[٤].

---

(١) أما صبيح، فقد ذكر في الإصابة (٣/ ٣٢٧) بعض الموالي بهذا الاسم، أشهرهم: مولى أبي العاص بن أمية، خرج إلى بدر، فمرض، ثم شهد المشاهد بعدها، وأما ذو الشمالين فاسمه كما في الإصابة (٢/ ٣٤٥): عمير ابن عبد عمرو الخزاعي، حليف بني زهرة، شهد بدراً واستشهد بها، والباقون تقدم التعريف بهم.

(٢) أخرجه الطبري (١٣٢٥٥-١٣٢٥٦) من طريق أشعث ـ وهو ابن سوار ـ عن كردوس بن العباس الثعلبي عن ابن مسعود قال: مرّ الملأ من قريش بالنبيّ ﷺ، وعنده صهيب وعمار وبلال وخبّاب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ هؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك! فلعلك إن طردتهم أن نتّبعك! فنزلت هذه الآية: ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه وكذلك فتنا بعضهم ببعض، إلى آخر الآية، وقد رواه عن أشعث بهذا الإسناد: أبو زبيد عبثر بن القاسم، عند الطبري، وأسباط عند أحمد (٣٩٨٥) ورواه جرير ـ وهو ابن عبد الحميد ـ عن أشعث به وقال: عن عبد الله. ورواه حفص ابن غياث عن أشعث به وقال: عن ابن عباس، هكذا وقع عند الطبري، وكردوس لم يوثق.

(٣) هذا الأثر أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٩/ ٢٦٢-٢٦٣) من طريق ابن جريج، عن عكرمة من قوله بلفظ مطول.

(٤) أخرجه الطبري (١٣٢٨٣) من طريق عطية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال ابن عباس: إن بعض الكفار إنما طلب أن يؤخر هؤلاء عن الصف الأول في الصلاة، ويكونون هم موضعهم، ويؤمنون إذا طرد هؤلاء من الصف الأول، فنزلت الآية[١].

وأسند الطبري إلى خباب بن الأرتِّ أن الأقرع بن حابس ومن شابهه من أشراف العرب قالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا منك مجلساً لا يخالطنا فيه العبيد والحلفاء [يعرف به فضلنا][٢]، واكتب لنا كتاباً، فهمّ النبي ﷺ بذلك فنزلت هذه الآية[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا تأويلٌ بعيدٌ في نزول الآية؛ لأن الآية مكية وهؤلاء الأشراف لم يفدوا إلا في المدينة، وقد يمكن أن يقع هذا القول منهم، ولكنه إن كان وقع فبعد نزول الآية بمدة، اللهم إلا أن تكون الآية مدنية.

قال خباب رضي الله عنه: ثم نزلت: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ الآية [الأنعام: ٥٤] فكنا نأتي فيقول لنا: «سلام عليكم» ونقعد معه، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية [الكهف: ٢٨] فكان يقعد معنا، فإذا بلغ الوقت الذي يقوم فيه قمنا وتركناه حتى يقوم.

و﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن: المراد به: صلاة مكة التي كانت مرتين في اليوم بكرة وعشياً[٤]/ . [٢/ ٨٥]

وقيل: بل قوله: ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ عبارة عن استمرار الفعل وأن الزمن معمور به، كما تقول: الحمد لله بكرة وأصيلاً، فإنما تريد الحمد لله في كل وقت.

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٢٦٣-٢٦٤) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سقط من المطبوع.

(٣) ضعيف، أخرجه الطبري (١٣٢٥٨-١٣٢٥٩)، وابن أبي حاتم (٧٣٣١) قال ابن كثير: وهذا حديث غريب فإن هذه الآية مكية والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر. اهـ.

(٤) الهداية لمكي (٣/ ٢٠٣٦)، وتفسير ابن أبي زمنين (٢/ ٧٠).

والمراد على هذا التأويل: قيل: هو الصلوات الخمس، قاله ابن عباس[١]، وإبراهيم النخعي[٢]، وقيل: الدعاء وذكر الله واللفظة على وجهها.

وقال بعض القصاص: إنه الاجتماع إليهم غدوة وعشيّاً، فأنكر ذلك ابنُ المسيب وعبدُ الرحمن بن أبي عمرة[٣] وغيرهما وقالوا: إنما الآية في الصلوات في الجماعة[٤].

وقيل: قراءة القرآن وتعلمه قاله أبو جعفر، ذكره الطبري.

وقيل: العبادة، قاله الضحاك[٥].

وقرأ أبو عبد الرحمن، ومالك بن دينار، والحسن، ونصر بن عاصم، وابن عامر: ﴿بالغُدوة والعشي﴾[٦].

وروي عن أبي عبد الرحمن: (بالغدوِّ) بغير هاء.

وقرأ ابن أبي عبلة: (بالغَدَوات والعَشِيَّاتِ) بألف فيهما على الجمع[٧].

و«غُدوة»: معرفة لأنها جعلت علماً لوقت من ذلك اليوم بعينه، وجاز إدخال الألف

---

(١) أخرجه الطبري (١٣٢٦٦) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٣٨٢و٣٨٣)، ومعاني القرآن للنحاس (٤/ ٢٣٠).

(٣) عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري المدني القاص، روى عن: أبيه ـ وله صحبة ـ وعن عثمان، وأبي هريرة، وروى عنه: إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، وشريك بن أبي نمر، وثقه محمد بن سعد، توفي بعيد المئة. تاريخ الإسلام (٧/ ١٤٩).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٣٨٣ و٣٨٤)، والهداية لمكي (٣/ ٢٠٣٦).

(٥) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٣٨٦)، والهداية لمكي (٣/ ٢٠٣٦).

(٦) وهي سبعية متواترة، انظر عزوها لابن عامر في التيسير (ص: ١٠٣)، وللباقين في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٩٣).

(٧) وهما شاذتان، انظر عزو الأولى في البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٥٢١)، والثانية في الشواذ للكرماني (ص: ١٦٨).

واللام عليها، كما حكى أبو زيد: لقيته فينة ـ غير مصروف ـ والفينةَ بعد الفينة[١]، فألحقوا لام المعرفة ما استعمل معرفة، وحملاً على ما حكاه الخليل أنه يقال: لقيته اليوم غدوة، منوناً، ولأن فيها مع تعيين اليوم إمكان تقدير معنى الشياع، ذكره أبو علي الفارسي[٢].

و﴿وَجْهَهُۥ﴾ في هذا الموضع معناه: جهةَ التزلف إليه، كما تقول: خرج فلان في وجه كذا، أي: في مقصد وجهة.

و﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ معناه: لم تكلف شيئاً غير دعائهم فتقدِّمَ أنت وتؤخر، ويظهر أن يكون الضمير في ﴿حِسَابِهِم﴾ و﴿عَلَيْهِم﴾ للكفار الذين أرادوا طرد المؤمنين، أي: ما عليك منهم آمنوا ولا كفروا[٣] فتطرد هؤلاء رعياً لذلك، والضمير في (تطردهم) عائد على الضعفة من المؤمنين، ويؤيد هذا التأويل أن ما بعد الفاء أبداً سبب ما قبلها، وذلك لا يبين إذا كانت الضمائر كلها للمؤمنين.

وحكى الطبري أن الحساب هنا إنما هو في رزق الدنيا، أي: لا ترزقهم ولا يرزقونك[٤].

قال القاضي أبو محمد: فعلى هذا تجيء الضمائر كلها للمؤمنين، وذكره المهدوي، وذكر عن الحسن أنه من حساب عملهم[٥] كما قال الجمهور.

و﴿مِنْ﴾ الأولى للتبعيض، والثانية زائدة مؤكِّدة.

وقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب النفي في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ﴾، وقوله: ﴿فَتَكُونَ﴾ جواب النهي في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾.

---

(١) نقله عنه الأزهري في تهذيب اللغة (١٥/ ٣٤٣)، وابن سيده في المحكم والمحيط الأعظم (١٠/ ٤٩٨).

(٢) الحجة لأبي علي الفارسي (٣/ ٣١٩).

(٣) في المطبوع: «أو كفروا».

(٤) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٣٨٨).

(٥) انظر: التحصيل (٢/ ٥٩٠)، والنكت والعيون للماوردي (٢/ ١١٨).

و﴿مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ معناه: الذين يضعون الشيء غير مواضعه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ الآية، ﴿فَتَنَّا﴾ معناه: في هذه الآية: ابتلينا، فابتلاء المؤمنين بالمشركين هو ما يَلْقون منهم من الأذى، وابتلاء المشركين بالمؤمنين هو أن يرى الرجل الشريف من المشركين قوماً لا شرف لهم قد عظمهم هذا الدين وجعل لهم عند نبيه قدراً ومنزلة.

والإشارة بـ(ذلك) إلى ما ذكر من طلبهم أن يطرد الضعفة، و﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ معناه: ليصير بحكم القدر أمرهم إلى أن يقولوا، فهي لام الصيرورة، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] أي: ليصير مآله أن يكون لهم عدوًّا، وقول المشركين على هذا التأويل: ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ هو على جهة الاستخفاف والهزء.

ويحتمل الكلام معنى آخر، وهو أن تكون اللام في ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ على بابها في لام «كي» وتكون المقالة منهم استفهاماً لأنفسهم ومباحثة لها، وتكون سببَ إيمانِ مَن سبق إيمانه منهم.

فمعنى الآية على هذا التأويل: وكذلك ابتلينا أشراف الكفار بضعفاء المؤمنين ليتعجبوا في نفوسهم من ذلك ويكون سبب نظر لمن هدي.

قال القاضي أبو محمد: والتأويل الأول أسبق[1]، والثاني يتخرج.

و﴿مَنَّ﴾ على كلا التأويلين إنما هي على معتقد المؤمنين، أي: هؤلاء منّ الله عليهم بزعمهم أن دينهم منة.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ أي: يا أيها المستخفون ـ أو المتعجبون على التأويل الآخر ـ ليس الأمر أمر استخفاف ولا تعجب، فالله أعلم بمن يشكر نعمته

(١) في السليمانية: «أقيس»، بدل: «أسبق».

وبالمواضع التي ينبغي أن يوضع فيها، فجاء إعلامهم بذلك في لفظ التقرير[١] إذ ذلك بيِّن لا تمكنهم فيه معاندة.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

قال جمهور المفسرين: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يراد بهم القوم الذين كان عُرِض طردهم فنهى الله عز وجل عن طردهم، وشفع ذلك بأن أمر بأن يسلِّم النبي ﷺ عليهم ويؤنسهم.

وقال عكرمة وعبد الرحمن[٢] بن زيد: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يراد بهم القوم من المؤمنين الذين صوبوا رأي أبي طالب في طرد الضعفة، فأمر الله نبيَّه أن يسلِّم عليهم ويعلمهم أن الله يغفر لهم مع توبتهم من ذلك السوء وغيره.

وأسند الطبري عن ماهان[٣] أنه قال: نزلت الآية في قوم من المؤمنين استفتوا النبي ﷺ في ذنوب سلفت منهم، فنزلت الآية بسببهم[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهي على هذا تعم جميع المؤمنين دون أن تشير إلى فرقة.

وقال الفضيل بن عياض: قال قوم للنبي ﷺ: إنّا قد أصبنا ذنوباً فاستغفر لنا، فأعرض عنهم، فنزلت الآية[٥].

وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعم آيات القرآن وأيضاً علامات النبوة كلها، و﴿سَلَٰمٌ

---

(١) في الأصل والمطبوع والحمزوية ونور العثمانية ونجيبويه ولالاليه: «التقدير».
(٢) في لالاليه ونور العثمانية: «عبد الله»، والمثبت هو الصواب. انظر: تفسير الطبري (١١/ ٣٩١).
(٣) ماهان الحنفي أبو سالم الأعور الكوفي، ويقال له: المسبح، روى عن: ابن عباس، وغيره، وعنه: عمار الدهني، وجعفر بن أبي المغيرة، وطلحة بن الأعلم، وجماعة، قال فضيل بن غزوان: كان لا يفتر من التسبيح، قتله الحجاج سنة (٨٣هـ)، وتاريخ الإسلام (٦/ ١٩٣).
(٤) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٣٩١).
(٥) لم أجده مسنداً، وانظر: الهداية لمكي (٣/ ٢٠٣٤).

عَلَيْكُمْ ﴾ ابتداءٌ، والتقدير: سلامٌ ثابتٌ أو واجبٌ عليكم، والمعنى: أمنة لكم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، وقيل: المعنى: إن الله يسلم عليكم.

قال القاضي أبو محمد: وهذا معنى لا يقتضيه لفظ الآية حكاه المهدوي(١)، ولفظه لفظ الخبر وهو في معنى الدعاء، وهذا من المواضع التي جاز فيها الابتداء بالنكرة إذ قد تخصصت.

و﴿ كَتَبَ ﴾ بمعنى: أوجب، والله تعالى لا يجب عليه شيء عقلاً، إلا إذا أَعْلَمنا أنه قد حتم بشيءٍ ما فذلك / الشيء واجب. [٢/ ٨٦]

وفي: أين هذا الكتاب اختلافٌ: قيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: في كتاب غيره، لقوله ﷺ في «صحيح البخاري»: «إن الله تعالى كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»(٢).

وقرأ عاصم، وابن عامر: ﴿أَنَّهُۥ﴾ بفتح الهمزة في الأولى والثانية، فـ﴿أَنَّهُۥ﴾ الأولى بدل من ﴿ٱلرَّحْمَةَ﴾ و(أنه) الثانية خبر ابتداءٍ مضمرٍ(٣)، تقديره: فأمره أنه غفور رحيم، هذا مذهب سيبويه، وقال أبو حاتم: ﴿ فَأَنَّهُۥ﴾ ابتداء، ولا يجوز هذا عند سيبويه(٤).

وقال النحاس: هي عطف على الأولى وتكرير لها؛ لطول الكلام(٥)، قال أبو علي: ذلك لا يجوز؛ لأن ﴿مَنْ﴾ لا يخلو أن تكون موصولة بمعنى الذي فتحتاج إلى خبر، أو تكون شرطية فتحتاج إلى جواب، وإذا جعلنا ﴿ فَأَنَّهُۥ﴾ تكريراً للأولى وعطفاً عليها بقي المبتدأ بلا خبر، أو الشرط بلا جواب(٦).

---

(١) انظر: التحصيل (٢/ ٥٩٠).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في الأصل: «لمضمر»، وفي السليمانية: «محذوف».

(٤) الكتاب ٣/ ١٣٤ وما بعدها.

(٥) إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٩)، وانظر فيه الخلاف بين سيبويه وأبي حاتم والأخفش.

(٦) الحجة للفارسي (٣/ ٣١٢).

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿إنه﴾ بكسر الهمزة في الأولى والثانية، وهذا على جهة التفسير للرحمة في الأولى والقطع فيها، وفي الثانية: إما في موضع الخبر أو موضع جواب الشرط، وحكم ما بعد الفاء إنما هو الابتداء.

وقرأ نافع بفتح الأولى وكسر الثانية[1]، وهذا على أنْ أَبدل من ﴿ٱلرَّحۡمَةَ﴾ واستأنف بعد الفاء.

وقرأت فرقة بكسر الأولى وفتح الثانية، حكاه الزهراوي عن الأعرج[2]، وأظنه وهماً، لأن سيبويه حكاه عن الأعرج مثل قراءة نافع.

وقال أبو عمرو الداني: قراءة الأعرج ضدُّ قراءة نافع[3].

و«الجهالة» في هذا الموضع تعم التي تضاد العلم والتي تشبَّه بها، وذلك أن المتعمِّد لفعل الشيء الذي قد نهي عنه تسمى[4] معصيته تلك جهالة، إذ قد فعل ما يفعله الذي لم يتقدم له علم.

قال مجاهد: من الجهالة أن لا يعلم حلالاً من حرام، ومن جهالته أن يركب الأمر[5].

ومن هذا الذي لا يضاد العلم قول النبي ﷺ في استعاذته: «أو أجهل أو يجهل عليّ»[6]، ومنه قول الشاعر:

---

(١) وكلها سبعية، انظر: السبعة (ص: ٢٥٨)، والتيسير (ص: ١٠٣).

(٢) وهي شاذة، انظر إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٢).

(٣) انظر قول سيبويه في الكتاب (٣/ ١٣٤)، وقول الداني في البحر المحيط (٤/ ٥٢٨).

(٤) في المطبوع: «تشمل».

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٣٩٣)

(٦) منقطع، أخرجه الطيالسي في مسنده (١٧١٢)، والحميدي في مسنده (٣٠٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٩٢٠٠)، وأحمد في مسنده (٦/ ٣١٨-٣٢١ رقم ٢٦٧٠٤-٢٦٧٢٩)، وعبد بن حميد في مسنده (١٥٣٦)، وأبو داود (٥٠٩٤)، والترمذي (٣٤٢٧)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، والنسائي (٥٤٨٦-٥٥٣٩)، وفي الكبرى (٧٨٦٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٠٠) وغيرهم من طرق عن الشعبي عن أم سلمة رضي الله عنها. وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: حديث صحيح =

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا[١] [الوافر]

والجهالة المشبهة ليست بعذر في الشرع جملةً، والجهالة الحقيقية يعذَر بها في بعض ما يخف من الذنوب ولا يعذر بها في كبيرة.

و«التوبة»: الرجوع، وصحتها مشروطة باستدامة الإصلاح بعدها في الشيء الذي تيب منه.

والإشارة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدم من النهي عن طرد المؤمنين وبيان فساد منزع العارضين[٢] لذلك.

و«تفصيل الآيات»: تبيينها وشرحها وإظهارها.

واللام في قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ متعلقة بفعل مضمر تقديره: ولتستبين سبيل المجرمين فصَّلناها.

وقرأ نافع: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالتاء، أي: النبي ﷺ، ﴿سَبِيلَ﴾ بالنصب حكاه مكي في «المشكل» له[٣].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص عن عاصم: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ برفع «السبيل» وتأنيثها، وقرأ عاصم في رواية أبي بكرٍ وحمزةُ والكسائي: ﴿وَلِيَسْتَبِينَ سَبِيلُ﴾ برفع «السبيل» وتذكيرها[٤].

= على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وربما توهَّم متوهم أن الشعبي لم يسمع من أم سلمة وليس كذلك فإنه دخل على عائشة وأم سلمة جميعا ثم أكثر الرواية عنهما جميعاً. وقال الحافظ في نتائج الأفكار (١/ ١٥٩-١٦١): وقد خالف ذلك في علوم الحديث له، فقال: لم يسمع الشعبي من عائشة. وقال ابن المديني في العلل: لم يسمع الشعبي من أم سلمة. قال الحافظ: وعلى هذا فالحديث منقطع. وروي عن الشعبي عن ميمونة رضي الله عنها، ولا يصح. اهـ.

(١) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة: ألا هبِّي، انظر عزوه له في جمهرة أشعار العرب (ص: ٨٧)، وشرح المعلقات التسع (ص: ٣٤٧)، وعيون الأخبار (٢/ ٢١٠)، والعقد الفريد (٥/ ٣٤٤).

(٢) في السليمانية: «المعارضين» بدل: «العارضين».

(٣) مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٢٥٤) وفي المطبوع: «ولِيَسْتَبِينَ» (بالياء المثناة من تحت).

(٤) وكلها سبعية، انظر: السبعة في القراءات (ص: ٢٥٨)، والتيسير (ص: ١٠٣).

وعرب الحجاز تؤنث السبيل، وتميم وأهل نجد يذكِّرونها[١].

وخص ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ لأنهم الذين أثاروا ما تقدم من الأقوال، وهم أهم في هذا الموضع لأنها آيات رد عليهم، وأيضاً فتبيين سبيلهم يتضمن بيان سبيل المؤمنين، وتأول ابن زيد أن قوله: ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يُعنى به الآمرون بطرد المؤمنين الضعفة[٢].

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يجاهرهم بالتبري مما هم فيه.

و﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ هو بتأويل المصدر، التقدير: عن عبادة، ثم حذف الجارُّ فتسلط الفعل ثم وضع ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ موضع المصدر، وعبر عن الأصنام بـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ على زعم الكفار حين أنزلوها منزلةَ مَن يعقل، و﴿تَدْعُونَ﴾ معناه: تعبدون، ويحتمل أن يريد: تدعون في أموركم، وذلك من معنى العبادة واعتقادها آلهة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ بفتح اللام.

وقرأ يحيى بن وثاب وأبو عبد الرحمن السلمي وطلحة بن مصرف: (ضلِلت) بكسرها[٣]، وهما لغتان.

و﴿إِذًا﴾ في هذا الموضع متوسطة وما بعدها معتمد على ما قبلها فهي غير عاملة إلا أنها تتضمن معنى الشرط فهي بتقدير: إن فعلت ذلك.

---

(١) انظر: معاني القرآن للأخفش (٢/ ٦٤)، وتفسير الثعلبي (٦/ ٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٣٩٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٠٢)، وفي الحمزوية والمطبوع وفيض الله والسليمانية: «الآمرين».

(٣) وهي شاذة، انظر عزوها ليحيى وطلحة في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٣)، وللسلمي في البحر المحيط (٤/ ٥٣٠).

و«أَهْواء»: جمع هوى، وهو الإرادة والمحبة في الـمُرْدِيات من الأمور، هذا غالب استعمال الهوى، وقد تقدم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ الآية، هذه الآية تماد في إيضاح مباينته لهم، والمعنى: قل إني على أمرٍ بيِّن فحذف الموصوف، ثم دخلت هاء المبالغة، كقوله عز وجل: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤].

ويصح أن تكون الهاء في ﴿بَيِّنَةٍ﴾ مجردة للتأنيث، ويكون بمعنى البيان، كما قال: ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

والمراد بالآية: إني أيها المكذبون في اعتقادي ويقيني وما حصل في نفسي من العلم على بينة من ربي.

﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ الضمير ﴿بِهِۦ﴾ عائد على ﴿بَيِّنَةٍ﴾ في تقدير هاء المبالغة، أو على البيان التي هي ﴿بَيِّنَةٍ﴾ بمعناه في التأويل الآخر، أو على الرب، وقيل: على القرآن، وهو وإن لم يتقدم له ذكرٌ جلي فإنه بعض البيان الذي منه حصل الاعتقاد واليقين للنبي ﷺ، فيصح عود الضمير عليه.

قال القاضي أبو محمد: وللنبي ﷺ أمور أخر غير القرآن وقع له العلم أيضاً من جهتها، كتكليم الحجارة له، ورؤيته للملك قبل الوحي وغير ذلك.

وقال بعض المفسرين: الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائدٌ على ﴿مَا﴾ والمراد بها: الآيات المقترحة على ما قال بعض المفسرين.

وقيل: المراد بها العذاب. وهذا يترجح بوجهين:

أحدهما: من جهة المعنى، وذلك أن قوله: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ / يتضمن أنكم [٢/ ٨٧] واقعتم ما تستوجبون به العذاب إلا أنه ليس عندي.

والآخر: من جهة اللفظ، وهو الاستعجال الذي لم يأت في القرآن استعجالهم إلا للعذاب لأن اقتراحهم للآيات لم يكن باستعجال.

وقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: القضاء والإنفاذ ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يخبر به، والمعنى: يقص القَصَص الحق، وهذه قراءة ابن كثير وعاصم ونافع وابن عباس.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وابن عامر: ﴿يقضي الحق﴾[(١)] أي: ينفذه، وتُرجح هذه القراءة بقوله: ﴿ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ لأن الفصل مناسب للقضاء، وقد جاء أيضاً الفصل والتفصيل مع القصص.

وفي مصحف عبد الله بن مسعود: (وهو أسرع الفاصلين)[(٢)].

قال أبو عمرو الداني: وقرأ عبد الله وأبيّ ويحيى ابن وثاب وإبراهيم النخعي وطلحة والأعمش: (يقضي بالحق) بزيادة باء الجر.

وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير: (يقضي الحق وهو خير الفاصلين)[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ الآية، المعنى: لو كان عندي الآيات المقترحة، أو العذاب على التأويل الآخر ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: لوقع الانفصال وتم التنازع لظهور الآية المقترحة، أو: لنزل العذاب بحسب التأويلين.

وحكى الزهراوي: أن المعنى: لقامت القيامة، ورواه النقاش عن عكرمة، وقال بعض الناس: معنى ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: لذبح الموت[(٤)].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قولٌ ضعيفٌ جدّاً؛ لأن قائله سمع هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [مريم: ٣٩] وذبح الموت هنا لائق، فنقله

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٠٤)، والسبعة (ص: ٢٥٩)، وانظر النسبة لابن عباس في تفسير الطبري (١١/ ٣٩٩).

(٢) وهي قراءة شاذة، انظرها في تفسير الطبري (١١/ ٣٩٨)، والهداية لمكي (٣/ ٢٠٤٢).

(٣) وهما شاذتان، انظر الأولى لابن مسعود في معاني القرآن للفراء (١/ ٣٣٨)، وكتاب المصاحف (١/ ١٧٦)، وللباقين مع الثانية في البحر المحيط (٤/ ٥٣١)، دون ذكر الداني.

(٤) انظر عزو القول الأول لعكرمة مع القول الثاني في تفسير الطبري (٢١/ ٢٦٧)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٦٥).

إلى هذا الموضع دون شَبَه، وأسند الطبري هذا القول إلى ابن جريج غير مقيد بهذه السورة[١]، والظن بابن جريج أنه إنما فسر الذي في يوم الحسرة.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يتضمن الوعيد والتهديد.

قوله عز وجل: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠﴾.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ﴾ جمع مَفْتَح، وهذه استعارةُ عبارةٍ عن التوصل إلى الغيوب، كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيَّب عن الإنسان، ولو كان جمع مفتاح لقال: مفاتيح، ويظهر أيضاً أن ﴿مَفَاتِحُ﴾ جمع مفتح بفتح الميم، أي: مواضع تفتح عن المغيبات، ويؤيد هذا قول السدي وغيره: ﴿مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾: خزائن الغيب[٢]، فأمَّا مفتح بالكسر فهو بمعنى مفتاح، قال الزهراوي: ومِفتح أفصح[٣].

وقال ابن عباس وغيره: الإشارة بـ﴿مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ هي إلى الخمسة التي في آخر سورة لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٤٣] الآية[٤]، لأنها تعم جميع الأشياء التي لم توجد بعد.

ثم قوَّى البيان بقوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ تنبيهاً على أعظم المخلوقات

(١) تفسير الطبري (١١/ ٣٨٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٠١)، في لالاليه: «الطبري»، بدل: «السدي» مع الإشارة إلى النسخة الأخرى في هامشه.

(٣) نقله عنه في تفسير البحر المحيط (٤/ ٥٣٥).

(٤) منقطع، أخرجه الطبري (١٣٣٠٧) من طريق عطاء الخرساني، عن ابن عباس، ولم يسمع منه كما قال أحمد، وانظر: جامع التحصيل (٥٢٢).

المجاورة للبشر، وقوله: ﴿مِن وَرَقَةٍ﴾ على حقيقته في ورق النباتات، و﴿مِن﴾ زائدة، و﴿إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ يريد على الإطلاق، وقبل السقوط ومعه وبعده، ﴿وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ يريد في أشد حال التغيب، وهذا كله وإن كان داخلاً في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ عند من رآها في الخمس وغيرها، ففيه البيان والإيضاح والتنبيه على مواضع العبر، أي: إذا كانت هذه المحقورات معلومة فغيرها من الجلائل أحرى.

﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ﴾ عطف على اللفظ.

وقرأ الحسن وعبد الله بن أبي إسحاق: (ولا رطبٌ ولا يابسٌ) بالرفع[١] عطفاً على الموضع في ﴿وَرَقَةٍ﴾ لأن التقدير: وما تسقط ورقة.

و﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ قيل: يعني كتاباً على الحقيقة، ووجه الفائدة فيه امتحان ما يكتبه الحفظة، وذلك أنه روي أن الحفظة يرفعون ما كتبوه ويعارضونه بهذا الكتاب المشار إليه ليتحققوا صحة ما كتبوه[٢].

وقيل: المراد بقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾ علم الله[٣] عز وجل المحيط بكل شيء.

وحكى النقاش عن جعفر بن محمد قولاً: أن «الورقة» يراد بها: السقط من أولاد بني آدم، و«الحبة» يراد بها: الذي ليس بسقط، و«الرطب» يراد به: الحي، و«اليابس» يراد به: الميت[٤]، وهذا قول جارٍ على طريقة الرموز، ولا يصح عن جعفر بن محمد رضي الله عنه، ولا ينبغي أن يُلتفت إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ﴾ الآية، فيها إيضاح الآيات

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٤٣)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٣).
(٢) ضعيف، أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧٣٧٣) من طريق رجل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) في المطبوع: «على الله»، وهو خطأ.
(٤) انظر: تفسير السمعاني (٢/ ١١١).

المنصوبة للنظر، وفيها ضرب مثل للبعث من القبور، لأن هذا أيضاً إماتة وبعث على نحوٍ مّا، والتوفي هو استيفاء عدد، قال الشاعر:

إِنَّ بَنِي الأَدْرَم لَيْسُوا مِنْ أَحَدْ ... وَلَا تَوَفَّاهُمْ قُرَيْشٌ فِي الْعَدَدْ[١] [الرجز]

وصارت اللفظة عرفاً في الموت، وهي في النوم على بعض التجوُّز.

و﴿جَرَحْتُم﴾ معناه: كسبتم، ومنه جوارح الصيد، أي: كواسبه، ومنه: جوارح البدن؛ لأنها كواسب النفس، ويحتمل أن يكون ﴿جَرَحْتُم﴾ هنا من الجرح، كأن الذنب جَرح في الدِّين، والعرب تقول: «جرح اللسان كجرح اليد»[٢].

وروي عن ابن مسعود أو سلمان ـ شك ابن دينار ـ أنه قال: إن هذه الذنوب جراحات فمنها شوىً ومنها مقتلة، ألا وإن الشرك بالله مقتلة[٣].

و﴿يَبْعَثُكُمْ﴾ يريد الإيقاظ، والضمير في ﴿فِيهِ﴾ عائد على النهار، قاله مجاهد وقتادة والسدي[٤].

وذكر النوم مع الليل واليقظة مع النهار بحسب الأغلب، وإن كان النوم يقع بالنهار واليقظة بالليل فنادر، ويحتمل أن يعود الضمير على التوفِّي، أي: يوقظكم في التوفي أي في خلاله وتضاعيفه، قاله عبد الله بن كثير[٥].

وقيل: يعود على الليل، وهذا قلِق في اللفظ، وهو في المعنى نحو من الذي قبله.

---

(١) البيت لمنظور الزّبيريّ كما في مجاز القرآن (٢/ ١٣٢)، وسماه في تهذيب اللغة (٥/ ٢٤٨) الوبري قال: أي: لا تجعلهم تمام عددهم.

(٢) أصله: «وجرح اللسان كجرح اليد»، وهو عجز بيت لامرئ القيس، انظر: البيان والتبيين (١/ ١٤٤)، والمعاني الكبير (٢/ ٨٢٣).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٠٧)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٠٦).

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٠٨).

وقرأ طلحة بن مصرف وأبو رجاء: (ليقضي أجلاً مسمًّى)(١).

والمراد بالأجل: آجال بني آدم.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يريد بالبعث والنشور.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ أي: يُعْلمكم إعلام توقيف ومحاسبة.

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ / وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾. [٢/ ٨٨]

﴿الْقَاهِرُ﴾ إن أُخذ منه صفةُ فعلٍ ـ أي: مُظهر القهر بالصواعق والرياح والعذاب ـ فيصح أن يجعل ﴿فَوْقَ﴾ ظرفية للجهة؛ لأن هذه الأشياء إنما تعاهدها العباد من فوقهم، وإن أخذ ﴿الْقَاهِرُ﴾ صفة ذات بمعنى القدرة والاستيلاء فـ﴿فَوْقَ﴾ لا يجوز أن تكون للجهة، وإنما هي لعلو القدْر والشأن، على حد ما تقول: الياقوت فوق الحديد(٢).

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ﴾ معناه: يبثهم فيكم، و﴿حَفَظَةً﴾ جمع حافظ، مثل: كاتب وكتبة، والمراد بذلك: الملائكة الموكلون بكتْب الأعمال، وروي أنهم الملائكة الذين قال فيهم النبي ﷺ: «تتعاقب فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكة بالنهار»(٣) وقاله السدي وقتادة(٤).

وقال بعض المفسرين: ﴿حَفَظَةً﴾: يحفظون الإنسان من كل شيء حتى يأتي أجله، والأول أظهر.

وكلهم غير حمزة قرأ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ على تأنيث لفظ الجمع، كقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٤٣)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٣).

(٢) تقدم أن مذهب السلف إثبات صفات الله تعالى كما جاءت دون تعطيل ولا تمثيل.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٠٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٠٦).

وقرأ حمزة: ﴿توفَّاه رسلنا﴾[١]، وحجته: أن التأنيث غير حقيقي[٢]، وظاهر الفعل أنه ماض كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ [يوسف: ٣٠]، ويحتمل أن يكون بمعنى: تتوفاه، فتكون العلامة مؤنثة، وأمال حمزة من حيث خط المصحف بغير ألف، فكأنها إنما كتبت على الإمالة.

وقرأ الأعمش: (يتوفاه رسلنا) بزيادة ياء في أوله والتذكير[٣].

وقوله تعالى: ﴿رُسُلُنَا﴾ يريد به على ما ذكر ابن عباس وجميع أهل التأويل: ملائكةً مقترنين بملك الموت يعاونونه ويأتمرون له[٤].

وقرأ جمهور الناس: ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾ بالتشديد.

وقرأ الأعرج: (يُفْرِطون) بالتخفيف[٥]، ومعناه: يجاوزون الحد مما أمروا به.

قال أبو الفتح: فكما أن المعنى في قراءة العامة: لا يقصِّرون، فكذلك هو في هذه: لا يزيدون على ما أمروا به.

ورجع اللفظ في قوله: ﴿رُدُّوٓاْ﴾ من الخطاب إلى الغيبة، والضمير في ﴿رُدُّوٓاْ﴾ عائد على المتقدم ذكرهم، ويظهر أن يعود على العباد فهو إعلام برد الكل، وجاءت المخاطبة بالكاف في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ تقريباً للموعظة من نفوس السامعين، و﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ لفظ عام لأنواع الولاية التي تكون بين الله وبين عبيده من الرّزق والنصرة والمحاسبة والملك وغير ذلك.

---

(١) كلاهما سبعية متواترة، انظر: التيسير (ص: ١٠٤)، والسبعة في القراءات (ص: ٢٥٩)، وإمالة حمزة على قاعدته في ذوات الياء.

(٢) الحجة لأبي علي الفارسي (٣/ ٣٢١).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظرها في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٤).

(٤) منقطع، أخرجه الطبري (١٣٣٢٥-١٣٣٢٩) من طريق الحسن بن عبيد الله بن عروة النخعي عن إبراهيم النخعي، عن ابن عباس، وإبراهيم النخعي لم يسمع من أحد من الصحابة قاله ابن المديني كما في جامع التحصيل (١٣)، وأخرجه ابن جرير (١٣٣٢٦-١٣٣٣٠) من طريق الحسن بن عبيد الله ابن عروة عن ابن عباس وفي السليمانية: «وجماعة من أهل التأويل»، بدل: «جميع أهل التأويل».

(٥) وهي قراءة شاذة، انظرها مع توجيهها في المحتسب (١/ ٢٢٣).

وقوله: ﴿ٱلْحَقِّ﴾ نعت لـ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾، ومعناه: الذي ليس بباطل ولا مجاز.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن والأعمش: (الحقَّ) بالنصب[١]، وهو على المدح، ويصح على المصدر.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ ابتداء كلام مضمنه التنبيه وهز نفس السامع، و﴿ٱلْحُكْمُ﴾ تعريفه للجنس، أي: جميع أنواع التصرفات في العباد.

و﴿أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ متوجِّه على أن الله عز وجل حسابه لعبيده صادر عن علمه بهم فلا يحتاج في ذلك إلى إعداد ولا تكلف، سبحانه لا رب غيره، وقيل لعلي بن أبي طالب: كيف يحاسب الله العباد في حال واحدة؟ قال: كما يرزقهم في حال واحدة في الدنيا[٢].

قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

هذا تمادٍ في توبيخ العادلين بالله الأوثانَ، وتوقيفِهم على سوء الفعل في عبادتهم الأصنام وتركهم الذي ينجي من المهلكات ويلجأ إليه في الشدائد، و﴿مَن﴾ استفهام رفع بالابتداء.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ فيهما بتشديد الجيم وفتح النون.

وقرأ أبو عمرو في رواية علي بن نصر عنه، وحميد بن قيس، ويعقوب: ﴿ينْجيكم﴾ فيهما بتخفيف الجيم وسكون النون.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر بالتشديد في الأولى والتخفيف في

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظرها في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٤).

(٢) لم أقف عليه مسنداً.

الثانية[١]، فجمعوا بين التعدية بالألف والتعدية بالتضعيف، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٧].

و﴿ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يراد به شدائدهما[٢]، فهو لفظ عام يستغرق ما كان من الشدائد بظلمة حقيقية وما كان بغير ظلمة، والعرب تقول: عام أسود، ويوم مظلم، ويوم ذو كواكب، ونحو هذا، يريدون به الشدة.

قال قتادة: المعنى: من كُرب البر والبحر، وقاله الزجّاج[٣].

و﴿تَدْعُونَهُۥ﴾ في موضع الحال، و﴿تَضَرُّعًا﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾، والتضرع: صفة بادية على الإنسان، و(خُفْيةً) معناه: الاختفاء والسر، فكأن نسق القول: تدعونه جهراً وسرّاً، هذه العبارة بمعان زائدة.

وقرأ الجميع غير عاصم: ﴿وَخُفْيَةً﴾ بضم الخاء، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿خِفية﴾ بكسر الخاء[٤].

وقرأ الأعمش: (وخِيفة)[٥] من الخوف.

وقرأ الحجازيون وأهل الشام: ﴿أنجيتنا﴾، وقرأ الكوفيون: ﴿أَنجَىٰنَا﴾ على ذكر الغائب، وأمال حمزة والكسائي الجيم[٦].

---

(١) القراءتان الأولى والثالثة سبعيتان، في التيسير (ص: ١٠٣)، والثانية عشرية ليعقوب في النشر (٢/ ٢٩٢)، وانظر قراءة حميد في البحر المحيط (٤/ ٥٤٢)، ورواية علي في السبعة (ص: ٢٥٩).

(٢) في المطبوع: «شدائدها».

(٣) معاني القرآن للزجاج (٢/ ٢٥٨)، وانظر قول قتادة في تفسير الطبري (٢١/ ٤١٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٠٨).

(٤) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٠٣)، والسبعة في القراءات (ص: ٢٥٩).

(٥) وهي قراءة شاذة، انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٥).

(٦) على قاعدتهما وهما سبعيتان، وأبو عمرو مع الأولين، انظر: التيسير (ص: ١٠٣)، والسبعة في القراءات (ص: ٢٥٩).

و﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: على الحقيقة، والشكر على الحقيقة يتضمن الإيمان.

وحكى الطبري في قوله: ﴿ظُلُمَٰتِ﴾ أنه ضلال الطرق في الظلمات ونحوه[(١)].

وحكى المهدوي أنه ظلام الليل والغيم والبحر[(٢)].

قال القاضي أبو محمد: وهذا التخصيص كله لا وجه له، وإنما هو لفظ عام لأنواع الشدائد في المعنى، وخص لفظ «الظلمات» بالذكر لـمَا تقرَّر في النفوس من هول الظلمة.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ الآية، سبق في المجادلة إلى الجواب، إذ لا محيد عنه، و(من كلِّ كرب) لفظ عام أيضاً ليتضح العموم الذي في الظلمات، ويصح أن يتأول من قوله: ﴿وَمِن كُلِّ كَرۡبٍ﴾ تخصيص الظلمات قبل، ونص عليها لهولها، وعطف في هذا الموضع بـ﴿ثُمَّ﴾ للمهلة التي تبيِّن قبح فعلهم، أي: ثم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققكم له أنتم تشركون!

[٢/ ٨٩] قوله عز وجل: / ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

هذا إخبار يتضمن الوعيد، والأظهر من نسق الآيات أن هذا الخطاب للكفار الذين تقدم ذكرهم وهو مذهب الطبري، وقال أبيّ بن كعب وأبو العالية وجماعة معهما: هي للمؤمنين وهم المراد[(٣)].

قال أبي بن كعب: هي أربع خلال، وكلهن عذاب، وكلهن واقع قبل يوم القيامة، فمضت اثنتان بعد وفاة[(٤)] رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة، ثم لُبِسوا شيعاً وأذيق

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤١٥)، وفي المطبوع: «الطريق»، بدل: «الطرق».

(٢) انظر: التحصيل (٢/ ٦٠٤)، وفي المطبوع: «السُّدي»، بدل: «المهدوي».

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٢١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٠٩).

(٤) سقطت من المطبوع والأصل.

بعضهم بأس بعض، واثنتان واقعتان لا محالة: الخسف والرجم[١].

وقال الحسن بن أبي الحسن: بعضها للكفار وبعضها للمؤمنين: «بعثُ العذاب من فوقُ ومن تحتُ» للكفار، وسائرها للمؤمنين[٢]، وهذا الاختلاف إنما هو بحسب ما يظهر من أن الآية تتناول معانيها المشركين والمؤمنين.

وروي من حديث جابر وخالد الخزاعي[٣] أن رسول الله ﷺ لما نزلت: ﴿أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»[٤]، فلما نزلت: ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ قال: أعوذ بوجهك، فلما نزلت: ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ﴾ قال: «هذه أهون»، أو: «هذه أيسر»[٥]، فاحتج بهذا من قال: إنها نزلت في المؤمنين.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٧٦٠٣)، ونعيم بن حماد في الفتن (١٧١٧)، وأحمد في مسنده (٥/ ١٣٤ رقم ٢١٢٢٧)، والطبري (١٣٣٨٠)، وابن أبي حاتم (٧٣٩٨)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٥٣)، والضياء في المختارة (١١٤٩) من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس البكري، عن أبي العالية رفيع بن مهران عن أبي بن كعب به، وأبو جعفر الرازي ضعيف ولكن تابعه ابن المبارك كما عند الطبري (١٣٣٦١) وعليه فالخبر جيد من أجل الربيع بن أنس البكري فإنه صدوق، وقوله: «فمضت اثنتان»، إلى آخره من قول رفيع (يعني أبا العالية)، فإن أبي بن كعب لم يتأخر إلى زمن الفتنة. ذكر ذلك الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٨٩)، والحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٢٩٢) ثم قال: وأُعل أيضاً بأنه مخالف لحديث جابر وغيره. وأجيب بأن طريق الجمع: أن الإعاذة المذكورة في حديث جابر وغيره مقيدة بزمان مخصوص، وهو وجود الصحابة والقرون الفاضلة، وأما بعد ذلك فيجوز وقوع ذلك فيهم. اهـ.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٣٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣١٠)، وفي الحمزوية: «وبعضها»، بدل: «سائرها».

(٣) خالد الخزاعيّ، والد نافع، قيل: اسم والده نافع، كان من أصحاب الشجرة، وحديثه في الكوفيين. الإصابة (٢/ ٢٢٠).

(٤) في فيض الله والسليمانية «برحمتك» بدل: «وجهك»، في الموضعين.

(٥) حديث جابر أخرجه البخاري (٤٦٢٨)، وحديث خالد أخرجه الطبري في تفسيره (١٣٣٦٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٣٣٣)، والطبراني في الكبير (٤١١٤) من طريق أبي مالك الأشجعي، عن نافع بن خالد الخزاعي، عن أبيه: أنّ النبي ﷺ صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود، فقال: =

وقال الطبري: وغير ممتنعٍ أن يكون النبي ﷺ تعوذ لأمته من هذه الأشياء التي تُوعِّد بها الكفار، وهوَّن الثالثة لأنها بالمعنى هي التي دعا بها فمنع[١]، حسب حديث «الموطأ» وغيره[٢].

وقد قال ابن مسعود: إنها أسوأ الثلاث[٣]، وهذا عندي على جهة الإغلاظ في الموعظة، والحقُّ أنها أيسرها كما قال ﷺ.

و﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ لفظٌ عامٌّ للمنطبقَيْن على الإنسان.

وقال السدي عن أبي مالك: ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾: الرجم، ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾: الخسف، وقاله سعيد بن جبير ومجاهد[٤].

= «قد كانت صلاة رغبة ورهبة، فسألت الله فيها ثلاثاً، فأعطاني اثنتين وبقي واحدة، سألت الله أن لا يصيبكم بعذاب أصاب به مَن قبلكم، فأعطانيها. وسألت الله أن لا يسلِّط عليكم عدوّاً يستبيح بيضتكم، فأعطانيها. وسألته أن لا يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض، فمنعنيها». قال أبو مالك: فقلت له: أبوك سمع هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم، سمعته يحدث بها القوم أنه سمعها مِن في رسول الله ﷺ. قال الحافظ في الإصابة (٢/ ٢٥٧): رجاله ثقات.

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٣١) وانظر: الموطأ (١/ ٦١٢).

(٢) إسناده جيد، هذا الحديث أخرجه أحمد (٥/ ١٠٩)، والترمذي (٢١٧٥)، والنسائي في الكبرى (١٦٣٨)، والطبراني في الكبير (٣٦٢١ - ٣٦٢٣ - ٣٦٢٤)، وابن حبان في صحيحه (٧٢٣٦) بإسناد جيد، من حديث خباب بن الأرت بلفظ: أنه راقب رسول الله ﷺ الليلة كلها حتى كان مع الفجر، فلما سلم رسول الله ﷺ من صلاته جاءه خباب فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت نحوها! فقال رسول الله ﷺ: «أجل إنها صلاة رغب ورهب سألت ربي عز وجل فيها ثلاث خصال فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت ربي عز وجل أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا فأعطانيها، وسألت ربي عز وجل أن لا يظهر علينا عدوا من غيرنا فأعطانيها، وسألت ربي أن لا يلبسنا شيعا فمنعنيها».

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ٢٩٧) من طريق ابن زيد عن ابن مسعود، فذكره بلفظ مطول، وسنده منقطع.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤١٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣١٠)، والهداية لمكي (٣/ ٢٠٥٣)، وتفسير الثعلبي (٤/ ١٥٦).

وقال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾: ولاة الجَور، ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾: سَفِلة السوء، وخدمة السوء[١].

قال القاضي أبو محمد: وهذه كلها أمثلة لا أنها هي المقصود، إذ هذه وغيرها من القحوط والغرق وغير ذلك داخل في عموم اللفظ.

و﴿يَلۡبِسَكُمۡ﴾ على قراءة السبعة[٢] معناه: يخلطكم ﴿شِيَعٗا﴾ فرقاً يتشيع بعضها لبعض، واللبس: الخلط، وقال المفسرون: هو افتراق الأهواء، والقتال بين الأمة.

وقرأ أبو عبد الله المدني: (يُلبسكم) بضم الياء[٣]، من ألبس، فهو على هذا استعارة من اللباس، فالمعنى: أو يلبسكم الفتنة شيعاً.

و﴿شِيَعٗا﴾ منصوب على الحال [أي: متشيعين، ويحتمل أن يكون ﴿شِيَعٗا﴾ مفعولاً، كأن الناس يلبس بعضهم بعضاً][٤]، وقد قال الشاعر:

لَبِسْتُ أُنَاساً فَأَفْنَيْتُهم[٥] .... [المتقارب]

فهذه عبارة عن الخلطة والمقاساة، وإلباسِ[٦] القتل وما أشبهه من المكاره.

و(يذيق) استعارة، إذ هي من أجل حواس الاختبار، وهي استعارة مستعملة في كثير من كلام العرب وفي القرآن.

---

(١) أخرجه الطبري (١٣٣٤٩)، وابن أبي حاتم (٧٤٠٠-٧٤٠٧) بإسناد صحيح عن عامر بن عبد الرحمن عن ابن عباس رضي الله عنهما به. وعامر بن عبد الرحمن هو اليحصبي ذكروه بغير جرح أو تعديل، وذكره ابن حبان في الثقات، وتابعه علي بن أبي طلحة كما عند الطبري (١٣٣٥٠)، وابن أبي حاتم (٧٤٠٨).

(٢) في نور العثمانية والأصل والمطبوع: «الستة»، وهو خطأ، بل هي قراءة العشرة كلهم.

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٤)، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي (٣/ ٢٠٥٥).

(٤) سقط من المطبوع، وكذا من الأصل من «وشيعاً» الثانية.

(٥) البيت للنابغة كما في الأغاني (٥/ ١١)، وقد تقدم في تفسير الآية (١٨٧) من سورة البقرة.

(٦) كذا ضبطت في المطبوع، وكتبت في سائر النسخ: «الباس».

وقرأ الأعمش: (ونذيق) بنون الجماعة[١]، وهي نون العظمة في جهة الله عز وجل، وتقول: أذقت فلاناً العلقم، وتريد كراهية شيء صنعته به ونحو هذا.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ﴾ الآية، استرجاع لهم، وإن كان لفظها لفظ تعجيب للنبي ﷺ، فمضمنها أن هذه الآيات والدلائل إنما هي لاستصرافهم عن طريق غيهم.

والفقه: الفهم، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائدٌ على القرآن الذي فيه جاء تصريف الآيات، قاله السدي[٢] وهذا هو الظاهر، وقيل: يعود على النبي ﷺ، وهذا بعيد؛ لقرب مخاطبته بعد ذلك بالكاف في قوله: ﴿قَوۡمُكَ﴾.

ويحتمل أن يعود الضمير على الوعيد الذي تضمنته الآية ونحا إليه الطبري[٣].

وقرأ ابن أبي عبلة: (وكذَّبتْ به قومك) بزيادة تاء[٤].

و﴿بِوَكِيلٍ﴾ معناه: بمدفوع إلى أخذكم بالإيمان والهدى، و«الوكيل» بمعنى: الحفيظ والمحاسب[٥]، وهذا كان قبل نزول الجهاد والأمر بالقتال ثم نسخ.

وقيل: لا نسخ في هذا، إذ هو خبر.

قال القاضي أبو محمد: والنسخ فيه متوجه، لأن اللازم من اللفظ ليس[٦] الآن، وليس فيه أنه لا يكون في المستأنف.

وقوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞ﴾ أي: غاية يعرف عندها صدقه من كذبه.

﴿وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ تهديدٌ محضٌ ووعيدٌ.

---

(١) وهي قراءة شاذة، عزاها له في البحر المحيط (٤/ ٥٤٤)، وانظر: الشواذ للكرماني (ص: ١٦٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٣٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣١٣)، والهداية لمكي (٣/ ٢٠٥٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٣٤).

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: تفسير الثعلبي (٤/ ١٥٦).

(٥) سقطت «المحاسب» من الأصل والمطبوع ونجيبويه.

(٦) سقطت من الأصل، وفي السليمانية وفيض الله ونجيبويه: «لست»، وفي لالاليه: «ليست».

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

لفظ هذا الخطاب مجرد[١] للنبي ﷺ وحده، واختلف في معناه:

فقيل: إن المؤمنين داخلون في الخطاب معه.

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو الصحيح؛ لأنَّ علة النهي وهي سماع الخوض في آيات الله تشملهم وإياه.

وقيل: بل المعنى أيضاً إنما أُريد به النبي ﷺ وحده، لأن قيامه عن المشركين كان يشق عليهم وفراقه لهم على مغاضبة[٢]، وإن لم يكن المؤمنون عندهم كذلك، فأمر النبي ﷺ أن ينابذهم بالقيام عنهم إذا استهزؤوا وخاضوا؛ ليتأدبوا بذلك ويدعوا الخوض والاستهزاء، وهذا التأويل يتركب على كلام ابن جريج يرحمه الله[٣].

و«الخوض»: أصله في الماء، ثم يستعمل بعد في غمرات الأشياء التي هي مجاهل تشبيها بغمرات الماء، و(إمَّا) شرط، وتلزمها النون الثقيلة في الأغلب، وقد لا تلزم، كما قال الشاعر:

إِمَّـا يُصِبْـكَ عَـدُوٌّ فِي مُنَـاوَأَةٍ[٤] .... [البسيط]

إلى غير ذلك من الأمثلة.

---

(١) في المطبوع: محرر.

(٢) في السليمانية: «مغاضبته»، وفي الأصل ونجيبويه: «معارضة».

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٣٦ و٤٤٠)، وفي المطبوع: «بن جرير».

(٤) تتمته: يوماً فقد كنت تستعلي وتنتصر البيت، وهو لأعشى باهلة يرثي المنتشر بن وهب الباهلي. انظر عزوه له في الأصمعيات (ص: ٩٠)، والمخصص (٥/ ١١٨)، والكامل للمبرد (٤/ ٥٦)، ومختارات ابن الشجري (١/ ٨)، وأمالي اليزيدي (١/ ٣): قال: ويقال: إنها للدعجاء أخت المنتشر. وفي لالاليه ونجيبويه: «مبارأة».

وقرأ ابن عامر وحده: ﴿يُنَسِّيَنَّكَ﴾ بتشديد السين وفتح النون[1] والمعنى واحد، إلا أن التشديد أكثر مبالغة، و«الذِّكرى» و«الذِّكر» واحد في المعنى، وإنما هو تأنيث لفظي، ووصفهم هنا بـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ متمكن لأنهم وضعوا الشيء في غير موضعه.

[٢/ ٩٠] و(أَعْـرِضْ) في هذه الآية بمعنى / المفارقة، على حقيقة الإعراض وأكمل وجوهه، ويدل على ذلك ﴿فَلَا تَقْعُدْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم﴾ الآية، المراد بـ﴿يَتَّقُونَ﴾ هم المؤمنون، والضمير في ﴿حِسَابِهِم﴾ عائدٌ على ﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾، ومن قال: إن المؤمنين داخلون في قوله: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ قال: إن النبي ﷺ داخل في هذا القصد بـ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

والمعنى عندهم على ما روي: أن المؤمنين قالوا لما نزلت ﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، قالوا: إذا كنا لا نقرب[2] المشركين ولا نسمع أقوالهم فما يمكننا طواف ولا قضاء عبادة في الحرم، فنزلت لذلك: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد: فالإباحة في هذا هي في القدْر الذي يحتاج إليه من التصرف بين المشركين في عبادة ونحوها، وقال بعض من يقول: إن النبي ﷺ داخل في: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وإن المؤمنين داخلون في الخطاب الأول: إن هذه الآية الأخيرة ليست إباحة بوجه، وإنما معناها: لا تقعدوا معهم ولا تقربوهم حتى تسمعوا استهزاءهم وخوضهم، وليس نهيكم عن القعود؛ لأن عليكم شيئاً من حسابهم وإنما هو ذكرى لكم، ويحتمل المعنى أن يكون لهم لعلهم إذا جانبتموهم يتقون بالإمساك عن الاستهزاء.

وأما من قال: إن الخطاب الأول هو مجرد للنبي ﷺ لثقل مفارقته مغضباً على الكفار، فإنه قال في هذه الآية الثانية: إنها مختصة بالمؤمنين، ومعناها الإباحة، فكأنه قال: فلا تقعد معهم يا محمد، وأما المؤمنون فلا شيء عليهم من حسابهم، فإن قعدوا فليذكروهم لعلهم يتقون الله في ترك ما هم فيه.

---

(١) وهي سبعية، انظر: التيسير (ص: ١٠٣)، والسبعة في القراءات (ص: ٢٦٠).

(٢) في الحمزوية: «نعرف»، وكأنها في الأصل ونجيبويه: «نضرب»

قال القاضي أبو محمد: وهـذا القول أشار إليـه النقاش[١]، ولم يوضحه، وفيه عندي نظر.

وقال قائل هذه المقالة: إن هذه الإباحة للمؤمنين نسخت بآية النساء؛ قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء: ١٤٠] وكذلك أيضاً من قال أولاً: إن الإباحة كانت بحسب العبادات، يقول: إن هذه الآية التي في النساء ناسخة لذلك؛ إذ هي مدنية، والإشارة بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ﴾ إليها بنفسها فتأمله، وإلا فيجب أن يكون الناسخ غيرَها.

و﴿ذِكْرَىٰ﴾ على هذا القول يحتمل أن يكون: ذكِّروهم ذكرى، ويحتمل: ولكن أعرضوا متى[٢] أعرضتم في غير وقت العبادة ذكرى، و﴿ذِكْرَىٰ﴾ على كل قول يحتمل أن تكون في موضع نصب بإضمار فعل أو رفع بإضمار مبتدأ.

وينبغي للمؤمن أن يمتثل حكم هذه الآية مع الملحدين وأهل الجدال والخوض فيه.

وحكى الطبري عن أبي جعفر أنه قال: «لا تجالسوا أهل الخصومات فإنهم الذين يخوضون في آيات الله»[٣].

قوله عز وجل: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

هذا أمر بالمتاركة[٤]، وكان ذلك بحسب قلة تُبَّاع الإسلام حينئذ، قال قتادة: ثم

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في الأصل: «حتى»، وسقط من الحمزوية ما بين ذكرى وذكرى.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٣٧).

(٤) في الحمزوية: «كان ذلك المراد بالمتاركة».

نسخ ذلك وما جرى مجراه بالقتال، وقال مجاهد: الآية إنما هي للتهديد والوعيد فهي كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١][١]، وليس فيها نسخ لأنها متضمنة خبراً وهو التهديد.

وقوله: ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ يريد: إذ يعتقدون أن لا بعث فهم يتصرفون بشهواتهم تصرف اللاعب اللاهي، ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم، من الغرور: وهو الإطماع بما لا يتحصل فاغتروا بنعم الله ورزقه وإمهاله، وطمعُهم ذلك فيما لا يتحصَّل من رحمته.

قال القاضي أبو محمد: ويتخرج في (غرَّتهم) هنا وجه آخر من الغَـرِّ[٢] بفتح الغين؛ أي: ملأت أفواههم وأشبعتهم، ومنه قول الشاعر:

[الطويل] وَلَمَّـا الْتَـقَـيْنَـا بِـالحُنيـةِ غَرَّنِـي بِمَعْرُوفِهِ حَتَّـى خَرَجْتُ أَفُوقُ[٣]

ومنه: غر الطائر فرخه، ولا يتجه هذا المعنى في تفسير غَرَّ في كل موضع.

وأضاف «الدين» إليهم على معنى أنهم جعلوا اللعب واللهو ديناً، ويحتمل أن يكون المعنى: اتخذوا دينهم الذي كان ينبغي لهم لعباً ولهواً، والضمير في ﴿بِهِۦٓ﴾ عائد على «الدِّين»، وقيل: على القرآن[٤].

و﴿أَن تُبْسَلَ﴾ في موضع المفعول، أي: لئلا تبسل، أو: كراهية أن تبسل، ومعناه: تُسْلَم، قاله الحسن وعكرمة، وقال قتادة: تحبس وتُرتَهن، وقال ابن عباس: تفضح[٥]، وقال الكلبي وابن زيد: تُجزى[٦].

---

(١) انظر القولين في تفسير الطبري (٢١/ ٤٤١) تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣١٧).

(٢) في الأصل ونجيبويه ولالاليه: «الغرور».

(٣) البيت لبشار يهجو يزيد بن مزيد كما في الأغاني (٣/ ٢١٠)، وذكر له قصة، وفي المطبوع: «بالحلية».

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٤٢)، والهداية لمكي (٣/ ٢٠٦٣)، وفي الأصل: «الذين»، وهو خطأ.

(٥) أخرجه الطبري (١٣٤١٤)، وابن أبي حاتم (٧٤٥٣) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) انظر الأقوال كلها في تفسير الطبري (٢١/ ٤٤٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣١٨)، وتفسير السمعاني (٢/ ١١٦).

وهذه كلها متقاربة بالمعنى، ومنه قول الشَّنْفَـرَى[١]:

هُنَالِـكَ لَا أَرْجُـو حَيَـاةً تَسُـرُّنِي سَمِيرَ اللَّيَالي مُبْسَلا بِالْجَرَائِـرِ[٢] [الطويل]

وقال بعض الناس: هو مأخوذ من البَسْل، أي: من الحرام، كما قال الشاعر:

بَكَرَتْ تَلُومُكَ بَعْدَ وَهْنٍ فِي النَّدَى بَسْـلٌ عَلَيْكِ مَلَامَتِـي وَعِتَابِي[٣] [الكامل]

قال القاضي أبو محمد: وهذا بعيدٌ.

و﴿نَفْسُۢ﴾ تدل على الجنس، ومعنى الآية: وذكِّر بالقرآن والدين وادع إليه؛ لئلا تبسل نفس التارك للإيمان بما كسبت من الكفر وآثرتْه من رفض الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في موضع الحال، و﴿مِن﴾ لابتداء الغاية، ويجوز أن تكون زائدة و﴿دُونِ﴾ ظرف مكان، وهي لفظة تقال باشتراك، وهي ـ في هذه الآية ـ الدالة على زوال من أضيفت إليه من نازلة القول، كما في المثل: وأُمِرَّ دُونَ عُبَيْدَةَ الوَذَمُ[٤].

و«الولي» و«الشفيع»: هما طريقا الحماية والغوث في جميع الأمور، ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ أي: وإن تُعْطِ كل فدية، ـ وإن عظمت ـ فتجعلها عدلاً لها لا يقبل منها.

وحكى الطبري عن قائل: إن المعنى ﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾ من العدل المضاد للجور، ورد عليه وضعّفه بالإجماع على أن توبة الكافر مقبولة[٥].

---

(١) الشنفري هو الشاعر المشهور صاحب لامية العرب، وهو رجل من الأزد، انظر خبره مفصلاً في الأغاني (١٠/ ١٨٣).

(٢) انظر عزوه له في مجاز القرآن (١/ ١٩٥)، والمفضّليات (ص: ١٩٧)، والحيوان (٦/ ٤٥٠)، والأغاني (١٠/ ١٨٨)، والحماسة (ص ١٨٨).

(٣) البيت لضَمْرَة بن ضَمْرَةَ النهشلي كما في الفاضل للمبرد (١/ ٢٥)، والأمالي للقالي (٢/ ٢٨٣)، وأمثال العرب (١/ ١٢).

(٤) هذا المثل أصله: عجز بيت لطرفة كما في المعاني الكبير (٢/ ٨١٢)، والوَذَم: سَيْرٌ يشدُّ به أذن الدلو.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٤٧ و٤٤٨).

قال القاضي أبو محمد: ولا يلزم هذا الرد؛ لأن الأمر إنما هو يوم القيامة، ولا تقبل فيه توبة ولا عمل، والقول نصٌّ لأبي عبيدة[(١)]، والعدل في اللغة: مماثل الشيء من غير جنسه،/ وقيل: العِدل بالكسر: المثل، والعَدل بالفتح: القيمة. [٢/ ٩١]

و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الجنس المدلول عليه بقوله: ﴿تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾، و﴿أُبْسِلُواْ﴾ معناه: أُسلموا بما اجترحوه من الكفر، و«الحميم»: الماء الحار، ومنه الحمَّام والحَمَّة، ومنه قول أبي ذؤيب:

[الكامل] .... إِلَا الْحَمِيمَ فَإِنَّهُ يَتَبَضَّعُ[(٢)]

و﴿أَلِيمٌۢ﴾: فعيل بمعنى مُفْعِل[(٣)] أي: مؤلم.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

المعنى: قل في احتجاجك: أنطيع رأيكم في أن ندعو من دون الله؟! والدعاء يعم العبادة وغيرها؛ لأن من جعل شيئاً موضع دعائه فإياه يعبد وعليه يتكل[(٤)].

﴿مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ يعني: الأصنام؛ إذ هي جمادات حجارة وخشب ونحوه، وضرر الأصنام في الدين لا يفهمه الكفار، فلذلك قال: ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إنما الضرر الذي يفهمونه من نزول المكاره الدنياوية.

و(نُردُّ على أعقابِنا) تشبيه، وذلك أن المردود على العقب هو أن يكون الإنسان

---

(١) انظر: مجاز القرآن (١/ ١٩٥).

(٢) صدره: تأبى بدرتها إذا ما استغضبت، انظر عزوه له في العين (١/ ٣١٣)، والأمالي للقالي (٢/ ٢٢١)، والمعاني الكبير (١/ ١١).

(٣) في الحمزوية والسليمانية: «مفعول».

(٤) في الحمزوية والسليمانية: «يتوكل».

يمشي قُدماً وهي المشية الجيدة، فيُردُّ يمشي القهقرى، وهي المشية الدنية، فاستعمل المثل بها فيمن رجع من خير إلى شر، ووقعت في هذه الآية في تمثيل الراجع من الهدى إلى عبادة الأصنام، و﴿هَدَىٰنَا﴾ بمعنى: أرشدنا.

وقال الطبري وغيره: الرد على العقب يستعمل فيمن أمل أمراً فخاب أمله[١].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول قلق.

وقوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ الآية، الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف تقديره: ردّاً كردِّ الذي، و﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾ استفعلته[٢] بمعنى: استدعت هواه وأمالته، قال أبو عبيدة: ويحتمل هَوِيَّه، وهو جِدُّه وركوب رأسه في النزوع إليهم، والهَويُّ من هوى يهوي يستعمل في السقوط من علو إلى أسفل، ومنه قول الشاعر:

هَوَى ابْنِي مِنْ ذُرَى شَرَفٍ فَزَلَّتْ رِجْلُهُ وَيَدُهْ[٣] [مجزوء الوافر]

وهذا المعنى لا مدخل له في هذه الآية إلا أن تتأول اللفظة بمعنى: ألقته الشياطين في هوة، وقد ذهب إليه أبو علي، وقال: هو[٤] بمعنى: أهوى، كما أن استزلَّ بمعنى: أَزل[٥].

قال القاضي أبو محمد: والتحرير أن العرب تقول: هوى الرجل، وأهواه غيره واستهواه، بمعنى: طلب منه أن يهوي هو، أو طلب منه أن يَهوَى شيئاً، ويستعمل الهَويُّ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٥٠).

(٢) في السليمانية «استعفلته» بدل: «استفعلته».

(٣) البيت في الحماسة بشرح التبريزي (ص: ٣٧١) وهو مركب من شطري بيتين، من سبعة أبيات بلا نسبة.

(٤) المثبت من السليمانية، وأشار لها في هامش لالاليه.

(٥) الحجة لأبي علي الفارسي (٣/ ٣٢٥).

أيضاً في ركوب الرأس في النزوع إلى الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ومنه قول شاعر الجن:

[السريع] تَهْـوِي إِلَـى مَكَّـةَ تَبْغِـي الْهُـدَى ... مَـا مُؤْمِـنُ الْجِـنِّ كأَنْجَاسِـهَا[١]

وهذا المعنى هو الذي يليق بالآية.

وقرأ الجمهور من الناس: ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

وقرأ الحسن: (استهوته الشياطون)[٢].

قال بعض الناس: هو لحنٌ، وليس كذلك، بل هو شاذٌّ قبيحٌ، وإنما هو محمولٌ على قولهم: سِنونَ وأَرَضونَ، إلا أن هذه في جمعٍ مسلَّمٍ و(شياطون) في جمع مكسَّر، فهذا موضع الشذوذ.

وقرأ حمزة: ﴿استهواه الشياطين﴾ وأمال ﴿ استهواه﴾ [٣].

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي والأعمش وطلحة: (استهويه الشيطان) بالياء وإفراد (الشيطان)[٤]، وذكر الكسائي أنها كذلك في مصحف ابن مسعود[٥].

وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يحكم بأن ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾ إنما هو بمعنى: استدعت هَوِيَّه الذي

---

(١) ورد هذا البيت ضمن عدة مقطوعات في قصة رَئِيِّ سواد بن قارب وإسلامه، أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال (ص ٢٥٦)، والمعجم الكبير (٧/ ٩٢)، وأعلام النبوة (١/ ١٨٦) والمستدرك (٣/ ٦٠٩)، وقصته كاملة في السيرة النبوية (٢/ ٣٦).

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: تفسير الثعلبي (٤/ ١٥٩)، والهداية لمكي (٣/ ٢٠٦٤)، وتقدمت في البقرة.

(٣) على قاعدته، وهي سبعية أيضاً، انظر: السبعة في القراءات (ص: ٢٦٠)، والتيسير (ص: ١٠٣).

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ١٦٢) إلا أنه ضبطها بالتاء والإفراد حيث قال: وقرأ السلمي والأعمش وطلحة: (اسْتَهْوَتْهُ) الشيطان بالتاء وإفراد (الشيطان).

(٥) انظر عزوها لابن مسعود في كتاب المصاحف (ص: ١٧٦)، وتفسير الثعلبي (٤/ ١٥٩)، ومع الأعمش في مختصر الشواذ (ص: ٤٤).

هو الجِد في النزوع[١]، و﴿حَيْرَانَ﴾ في موضع الحال ومؤنثه: حيرى، فهو لا ينصرف في معرفة ولا نكرة، ومعناه: ضالّاً متحيراً وهو حال من الضمير في ﴿اسْتَهْوَتْهُ﴾ والعامل فيه ﴿اسْتَهْوَتْهُ﴾ ويجوز أن يكون من (الذي)، والعامل فيه الرد[٢] المقدر بعد الكاف.

وقوله ﴿اسْتَهْوَتْهُ﴾ يقتضي أنه كان على طريق فاستدعته منه.

قال القاضي أبو محمد: فسياق هذا المثل، كأنه قال: أيصلح أن يكون بعد الهدى نعبد الأصنام، فيكونَ ذلك منا ارتداداً على العقب، فيكونَ كرجل على طريق واضح فاستهوته عنه الشياطين فخرج عنه إلى دعوتهم فبقي حائراً؟

وقوله: ﴿لَهُ أَصْحَابٌ﴾ يحتمل أن يريد: له أصحاب على الطريق الذي خرج منه، فيشبَّه بالأصحاب على هذا المؤمنون الذين يَدْعون مَن ارتد إلى الرجوع إلى الهدى، وهذا تأويل مجاهد[٣] وابن عباس[٤]، ويحتمل أن يريد: له أصحاب ـ أي: من الشياطين الدعاة أولاً ـ يدعونه إلى الهدى بزعمهم، وإنما[٥] يوهمونه، فيشبَّه بالأصحاب على هذا الكفرةُ الذين يثبتون من ارتد عن الإسلام على ارتداده، وروي هذا التأويل عن ابن عباس أيضاً[٦].

و﴿ائْتِنَا﴾ من الإتيان بمعنى المجيء، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: (إلى الهدى بيِّناً)[٧].

---

(١) في الحمزوية: «الشروع».

(٢) زيادة من فيض الله والسليمانية ونور العثمانية ولالاليه.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٥٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٢١).

(٤) أخرجه الطبري (١٣٤٢٩)، وابن أبي حاتم (٧٤٧٥) من طريق عطية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) في نور العثمانية وفيض الله: «وبما»، وفي السليمانية ولالاليه: «ومما».

(٦) أخرجه الطبري (١٣٤٢٣)، وابن أبي حاتم (٧٤٧٣) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) في فيض الله: «يتنا» بدل: «بينا»، وفي السليمانية: «بتنا»، والمثبت هو الموافق لما في تفسير القرطبي (٧/ ١٨).

وهذه تؤيد تأويل من تأول ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ حقيقة إخباراً من الله، وحكى مكي وغيره أن المراد بـ(الذي) في هذه الآية عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وبـ«الأصحاب»: أبوه وأمه[١].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيفٌ؛ لأن في الصحيح أن عائشة رضي الله عنها لما سمعت قول قائل: إن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ [الأحقاف: ١٧] نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قالت: كذبوا والله، ما نزل فينا من القرآن شيء إلا براءتي[٢].

قال القاضي أبو محمد: حدثني أبي رضي الله عنه قال: سمعت الفقيه الإمام العالم أبا عبد الله[٣] المعروف بالنحوي المجاور بمكة يقول: من نازع أحداً من الملحدة فإنما ينبغي أن يرد عليه وينازعه بالقرآن والحديث فيكون كمن يدعو إلى الهدى بقوله: ﴿ٱئْتِنَا﴾ ومن ينازعهم بالجدل ويحلق عليهم به فكأنه بعد عن الطريق الواضح أكثر ليرد هذا الزائغ فهو يخاف عليه أن يضل.

قال القاضي أبو محمد: وهذا انتزاعٌ حسنٌ جدّاً.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الآية، من قال إن «الأصحاب» هم من الشياطين المستهزئين وتأول إلى الهدى بزعمهم قال: إن قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ ردٌّ عليهم في زعمهم فليس ما زعموه صحيحاً وليس بهدى / [٢/ ٩٢] بل هو نفسه كفر وضلال، وإنما الهدى هدى الله وهو الإيمان.

ومن قال: إن «الأصحاب» هم على الطريق المدعو إليها، وإن المؤمنين الداعين للمرتدين شبهوا بهم وإن ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ هو هدى على حقيقته، يجيء على قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ بمعنى أن دعاء الأصحاب وإن كان إلى هدى فليس بنفس دعائهم تقع الهداية وإنما يهتدي بذلك الدعاء من هداه الله تعالى بهداه.

---

(١) انظر: الهداية لمكي (٣/ ٢٠٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٢٧)، و«والله» ليست في الأصل ولا المطبوع.

(٣) في الأصل: «عبد الله»، دون كنية، و«العالم» زيادة من فيض الله والسليمانية.

و(أُمرنا لنُسلِمَ) اللام لام كي، ومعها «أن» مقدرة، ويقدر مفعول لـ(أُمرنا) مضمر تقديره: وأمرنا بالإخلاص أو بالإيمان ونحو هذا، فتقدير الجملة كلها: وأمرنا بالإخلاص لأنْ نسلم، ومذهب سيبويه في هذه أن ﴿لِنُسْلِمَ﴾ هو موضع المفعول، وأن قولك: أمرت لأقوم، وأمرت أن أقوم، يجريان سواء، ومثله قول الشاعر:

أُرِيدُ لأَنْسَى ذِكْرَهَا[١]...... .... [الطويل]

إلى غير ذلك من الأمثلة، و(نسلم) يعم الدين والاستسلام.

قوله عز وجل: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٧٢ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٧٣﴾.

﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ﴾ يتجه أن يكون بتأويل: وإقامة، فهو عطف على المفعول المقدر في ﴿وَأُمِرۡنَا﴾، وقيل: بل هو معطوف على قوله: ﴿لِنُسۡلِمَ﴾ تقديره: لأنْ نسلم وَأَنْ أَقِيمُوا.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول الزجاج[٢]، واللفظ يمانعه؛ وذلك أن قوله: «لأن نسلم» معرب، وقوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ﴾ مبني، وعطف المبني على المعرب لا يجوز؛ لأن العطف يقتضي التشريك في العامل، اللهم إلا أن تجعل العطف في (أن) وحدها وذلك قلق.

وإنما يتخرج على أن يقدر قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ﴾ بمعنى: لنقيم، ثم خرجت بلفظ الأمر لما في ذلك من جزالة اللفظ، فجاز العطف على أن يلغى حكم اللفظ ويعول على المعنى، ويشبه هذا من جهةٍ مّا ما حكاه يونس عن العرب: [ادخُلوا الأولُ فالأولُ، برفع

---

(١) تتمته كما سيأتي للمصنف:

.... فكأنما تمثَّلُ لي ليلى بكل سبيل

وهو لكثير عزة كما في الأغاني (٤/ ٢٦٢)، وتقدم في تفسير الآية (١٨٧) من سورة البقرة، وفي المطبوع ولالاليه ونجيبويه: «أردت..».

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٦٣).

لفظ الأول، فإنما هو بأن يقدر: «ادخلوا»، بمعنى: ليدخل الأول، وإلا فليس يجوز إلا]: ادخلوا الأولَ فالأولَ بالنصب(١).

وقال الزجّاج أيضاً: يحتمل أن يكون ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا﴾ معطوفاً على ﴿ائْتِنَا﴾(٢).

قال القاضي أبو محمد: وفيه بعدٌ.

والضمير في قوله: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ عائدٌ على (رب العالمين) و(هو) ابتداء وما بعده خبره، وهو لفظُ خبر يتضمن التنبيه والتخويف.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ الآية، ﴿خَلَقَ﴾: ابتدع وأخرج من العدم إلى الوجود، و﴿بِالْحَقِّ﴾: أي: لم يخلقها باطلاً بغير معنى، بل لمعان مفيدة ولحقائق بيِّنة منها ما يحسه البشر من الاستدلال بها على الصانع ونزول الأرزاق وغير ذلك.

وقيل: المعنى: بأنْ حق له أن يفعل ذلك.

وقيل: ﴿بِالْحَقِّ﴾ معناه: بكلامه في قوله للمخلوقات: ﴿كُن﴾، وفي قوله: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصّلت: ١١].

قال القاضي أبو محمد: وتحرير القول: أن المخلوقات إنما إيجادها بالقدرة لا بالكلام، واقتران «كُنْ» بحالة إيجاد المخلوق فائدته: إظهار العزة والعظمة ونفوذ الأوامر وإعلان القصد.

ومثال ذلك في الشاهد: أن يضرب إنسان شيئاً فيكسره، ويقول في حال الكسر بلسانه: انكسر، فإن ذلك إنفاذُ عزم وإظهار قصد، ولله المثل الأعلى، لا تشبيه ولا حرف ولا صوت ولا تغير، أمره واحدةٌ كلمح البصر.

فكأن معنى الآية على هذا القول: وهو الذي خلق السماوات والأرض بقوله: «كن» المقترنة بالقدرة التي بها يقع إيجاد المخلوق بعد عدمه، فعبر عن ذلك: بـ(الحق).

---

(١) نقله مكي في مشكل إعراب القرآن (٢/ ٧٣٧)، وما بين المعكوفتين سقط من الأصل.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٦٣).

و(يومَ يقولُ) نصب على الظرف، وهو متعلق بمعمولِ فعلٍ مضمر، تقديره: واذكر الخلق والإعادة يوم، وتحتمل الآية مع هذا أن يكون معناها: واذكر الإعادة يوم يقول الله للأجساد كن معادة، ثم يحتمل أن يتم الكلام هنا، ثم يبدأ بإخبار أنه يكون قولُه الحقُّ الذي كان في الدنيا إخباراً بالإعادة، ويحتمل أن يكون تمام الكلام في قوله ﴿فَيَكُونُ﴾، ويكون ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ ابتداء وخبراً، وعلى الاحتمال[1] الذي قبلُ فـ﴿قَوْلُهُ﴾ فاعل.

قال الزجّاج قوله: ﴿وَيَوْمَ﴾ معطوف على الضمير من قوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ فالتقدير هنا على هذا القول: واتقوا العقاب أو الأهوال والشدائد يوم، وقيل: إن الكلام معطوف على قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والتقدير على هذا: وهو الذي خلق السماوات والأرض والمعادات إلى الحشر يوم، ولا يجوز أن تعمل هذه الأفعال ـ لا تقديرك: «اذكر» ولا «اتقوا» ولا «خَلَق» ـ في (يوم) لأن أسماء الزمان إذا بنيت مع الأفعال فلا يجوز أن تنصب إلا على الظرف، ولا يجوز أن يتعلق (يَوْمَ) بقوله: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ لأن المصدر لا يعمل فيما تقدمه[2].

وقد أطلق قوم أن العامل «اذكر» أو «خلق».

ويحتمل أن يريد بـ﴿يَقُولُ﴾ معنى الـمُضي، كأنه قال: وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق يوم يقول، بمعنى: قال لها: ﴿كُن﴾ فـ(يوم) ظرف معطوف على موضع: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ إذ هو في موضع نصب، ويجيء تمام الكلام في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾، ويجيء: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ ابتداء وخبراً.

ويحتمل أن يتم الكلام في ﴿كُن﴾، ويبتدأ ﴿فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ وتكون ﴿فَيَكُونُ﴾ تامة بمعنى: يظهر، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفة للقول، و﴿قَوْلُهُ﴾ فاعل.

وقرأ الحسن: (قُوله) بضم القاف[3].

﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ ابتداء وخبر.

---

(١) في المطبوع: «وخبر أو على الاحتمال».

(٢) في المطبوع: «نقدمه».

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٤٤).

﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾: ﴿يَوۡمَ﴾ بدل من الأولى على أنَّ ﴿يَقُولُ﴾ مستقبلٌ، لا على تقدير مضيه، وقيل: بل متعلق بما تضمن ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ من معنى الفعل، أو بتقدير: ثابتٌ أو مستقر يومَ.

و﴿فِي ٱلصُّورِۚ﴾ قال أبو عبيدة: هو جمع صورة[١]، فالمعنى: يوم تعاد العوالم، وقال الجمهور: هو الصور القرن الذي قال النبي ﷺ: «إنه ينفخ فيه للصعق ثم للبعث»[٢]، ورجحه الطبري بقول النبي ﷺ: «إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينظر متى يؤمر فينفخ»[٣].

---

(١) انظر: مجاز القرآن (١/ ١٩٦).

(٢) جاءت أحاديث كثيرة تدل على أن الصور هو القرن الذي يُنفخ فيه، أصحها ما أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٦٢ رقم ٦٥٠٧)، وأبو داود (٤٧٤٢)، والترمذي (٢٤٣٠)، والنسائي في الكبرى (١١٢٥٠-١١٣٩٢)، والطبري (١٨/ ١٢١)، وابن أبي حاتم (١٦٦١٩)، وابن حبان في صحيحه (٧٣١٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٦٠٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٤) من طريق: سليمان التيمي، عن أسلم العجلي، عن بشر بن شغاف، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أعرابياً سأل النبي ﷺ ما الصور؟ قال: قرن ينفخ فيه، قال الترمذي: هذا حديث حسن، وقد روى غير واحد عن سليمان التيمي، ولا نعرفه إلا من حديثه. اهـ، وقال ابن حبان: هذا الخبر مشهور بعبد الله بن سلام، وذكر أبو يعلى ـ يعني شيخه في الإسناد ـ: عبد الله بن عمرو.

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٠٨٤)، وابن حبان في صحيحه (٨٢٣)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٦٠٣) من طريق: جرير بن عبد الحميد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري، وأخرجه جماعة من طريق سفيان عن الأعمش عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري، منهم عبد الرزاق في التفسير (٢٦٤٢) ومن طريقه أحمد (١٨/ ٢٢٨) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١٣٠)، والثوري أثبت وأعلم بحديث الأعمش من جرير، وأخرجه النسائي (٦/ ٣١٦) وغيره من طريق: موسى ابن أعين، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً، وفي الباب عن عبد الله بن عباس، وأنس بن مالك، وزيد بن أرقم وغيرهم، قال الحافظ في فتح الباري (١١/ ٣٦٨): اشتهر أن صاحب الصور إسرافيل، ونقل فيه الحليمي الإجماع، ووقع التصريح به في حديث وهب بن منبه المذكور ـ يعني من قوله ـ وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي، وفي حديث أبي هريرة عند ابن مردويه، وكذا في حديث الصور الطويل الذي أخرجه عبد بن حميد والطبري وأبو يعلى في =

وقرأ الحسن: (في الصُّوَرِ) بفتح الواو[١]، وهذه تؤيد التأويل الأول، وحكاها عمرو بن عبيد عن عياض[٢].

﴿عَـٰلِمُ﴾ رفع بإضمار مبتدأ، وقيل: نعت لـ﴿ٱلَّذِىٓ﴾.

وقرأ الحسن والأعمش: (عالم) بالخفض على النعت للضمير الذي في (له)، أو على البدل منه من قوله: (له الملكُ)، وقد رويت عن عاصم[٣].

وقيل: ارتفع ﴿عَـٰلِمُ﴾ بفعل مضمر من لفظ الفعل المبني للمفعول تقديره: ينفخ فيه عالم، وهذا على ما أنشد سيبويه:

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ وَآخر مِمَّنْ طَوَّحَتْهُ الطَّوَائِحُ[٤] [الطويل]

/ التقدير: يبكيه ضارع، وحكى الطبري هذا التأويل الذي يشبه «ليبك يزيد» عن ابن عباس[٥]. [٢/ ٩٣]

ونظيرها من القرآن قراءة من قرأ: (زُيِّن لكثيرٍ من المشركين قتلُ أولادِهم شركاؤُهم) [الأنعام: ١٣٧] بضم الزاي ورفع «الشركاء»[٦].

= الكبير والطبراني في الطوالات وعلي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية والبيهقي في البعث من حديث أبي هريرة، ومداره على إسماعيل بن رافع، واضطرب في سنده مع ضعفه. اهـ.

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٤٤).

(٢) انظر: معاني القرآن للنحاس (٢/ ٤٤٨)، وعياض هذا لم أعرفه.

(٣) وهي شاذة، عزاها للثلاثة النحاس في إعراب القرآن (٢/ ١٧)، ولعاصم وعصمة عن أبي عمرو الهذلي في الكامل (ص: ٥٤٢).

(٤) البيت لنهشل بن حري يرثي أخاه يزيد كما في مجاز القرآن (١/ ٣٤٨)، وتفسير الطبري (١٧/ ٨٦)، وفي الكتاب لسيبويه (١/ ٢٨٨) عن بعضهم أنها للحارث بن نهيك، وفي شرح أبيات سيبويه (١/ ٧٦) عن سيبويه أنه للحارث بن ضرار النهشلي، وذكر في: خزانة الأدب (١/ ٣١٠) أنه ينسب للبيد الصحابي ولمزرد أخي الشماخ ولضرار النهشلي وللحارث بن نهيك النهشلي وللمهلهل.

(٥) تفسير الطبري (١١/ ٤٦٤)، وسقط «الطبري» من المطبوع.

(٦) وهي قراءة شاذة قرأ بها السلمي، كما في المحتسب (١/ ٢٢٩)، وستأتي في محلها.

وروي عن عبد الوارث عن أبي عمرو: (يوم ننفخ في الصور) بنون العظمة[١].

و﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ معناه: ما غاب عنا وما حضر، وهذا يعم جميع الموجودات.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

العامل في (إذ) فعل مضمر تقديره: واذكر أو قُصَّ.

قال الطبري: نبه الله تعالى محمداً ﷺ على الاقتداء بإبراهيم في محاجته قومه إذ كانوا أهل أصنام وكان قوم محمد أهل أصنام[٢].

قال القاضي أبو محمد: وليس يلزم هذا من لفظ الآية، أمَا إن جميع ما يجيء من مثل هذا عُرضة للاقتداء.

وقرأ السبعة وجمهور الناس: ﴿ءَازَرَ﴾ بفتح الهمزة التي قبل الألف وفتح الزاي والراء، قال السدي وابن إسحاق وسعيد بن عبد العزيز[٣]: هو اسم أبي إبراهيم[٤].

قال القاضي أبو محمد: وقد ثبت أن اسمه تارَح[٥]، فله على هذا القول اسمان، كيعقوب وإسرائيل، وهو في الإعراب على هذا بدل من «الأب» المضاف إلى الضمير[٦] في موضع خفض، وهو اسم علم.

---

(١) وهي قراءة شاذة، نقلها الهذلي في الكامل (ص: ٥٤٢) عن القرشي عن عبد الوارث. وفي فيض الله «معمر» بدل: «عمرو»، وهو خطأ.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٦٥).

(٣) هو أبو محمد، ويقال: أبو عبد العزيز، سعيد بن عبد العزيز التنوخي، الدمشقي، الإمام، عالم أهل دمشق في عصره، ومفتيهم بعد الأوزاعي، قرأ القرآن على: ابن عامر، وقرأ عليه: الوليد بن مسلم، وأبو مسهر، توفي سنة (١٦٧هـ)، تاريخ الإسلام (١٠/ ٢١٦).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٦٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٢٤)، والهداية لمكي (٣/ ٢٠٧٣).

(٥) في السليمانية: «تارخ» بدل: «تارح».

(٦) «إلى الضمير» ليست في المطبوع.

وقال مجاهد: بل هو اسم صنم[١]، وهو في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: أتتخذ آزر أتتخذ أصناماً[٢].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا ضعف.

وقال بعضهم: بل هو صفة، ومعناه هو: المعوج المخطئ.

قال القاضي أبو محمد: ويعترض هذا بأن ﴿ءَازَرَ﴾ إذا كان صفة فهو نكرة، ولا يجوز أن تنعت[٣] المعرفة بالنكرة، ويوجه ذلك على تحامُل بأن يقال: أريدت[٤] فيه الألف واللام وإن لم يلفظ بها، وإلى هذا أشار الزجّاج؛ لأنه قدر ذلك: فقال لأبيه المخطئ[٥]، وبأن يقال: إن ذلك مقطوع منصوب بفعل تقديره: أذم المعوج أو المخطئ، وإلا تبقى فيه الصفة بهذه الحال.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيفٌ.

وقيل: نصبه على الحال، كأنه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه وهو في حال عوج وخطأ.

وقرأ أُبي بن كعب وابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم بضم الراء على النداء[٦]، ويصح مع هذا أن يكون ﴿آزرُ﴾ اسم أبي إبراهيم، ويصح أن يكون بمعنى المعوج والمخطئ.

وقال الضحاك: ﴿آزرُ﴾ بمعنى: شيخ[٧]. ولا يصح مع هذه القراءة أن يكون ﴿آزرُ﴾ صفة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٦٦)، والنكت والعيون للماوردي (٢/ ١٣٤)، والهداية لمكي (٣/ ٢٠٧٣)

(٢) سقطت «أتتخذ آزر» من الأصل، وهي في لالاليه ونجيبويه مؤخرة عن «أتتخذ أصناما».

(٣) تحرفت في المطبوع إلى : «تنبعث».

(٤) تحرفت في المطبوع إلى : «زيدت».

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٦٥).

(٦) وهي قراءة عشرية، قرأ بها يعقوب كما في النشر (٢/ ٢٩٣)، وانظر باقي القراء في: المحتسب (١/ ٢٢٩).

(٧) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٧)، والهداية لمكي (٣/ ٢٠٧٤)، وفي المطبوع: «شيء»، بدل: «شيخ».

وفي مصحف أبيٍّ: (يا آزر) بثبوت حرف النداء (أتخذت أصناماً) بالفعل الماضي[١].

وقرأ ابن عباس فيما روي عنه أيضاً: (أَأَزْراً تتخذ) بألف الاستفهام وفتح الهمزة من (أَزْر) وسكون الزاي، ونصب الراء وتنوينها، وإسقاط ألف الاستفهام من ﴿أَتَتَّخِذُ﴾[٢].

ومعنى هذه القراءة: عضداً وقوة ومظاهرة على الله تعالى تتخذ، وهو من نحو قوله تعالى: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ [طه: ٣١].

وقرأ أبو إسماعيل رجل من أهل الشام بكسر الهمزة من هذا الترتيب، ذكرها أبو الفتح[٣]، ومعناها: أنها مبدلة من واو، كوسادة وإسادة، فكأنه قال: أوِزْراً ومأثماً تتخذ أصناماً؟ ونصبه على هذا بفعل مضمر، ورويت أيضاً عن ابن عباس[٤].

وقرأ الأعمش: (إِزْراً تتخذ) بكسر الهمزة وسكون الزاي دون ألف توقيف[٥].

و﴿أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ مفعولان، وذكر أن آزر أبا إبراهيم كان نجاراً محسناً ومهندساً، وكان نمرود يتعلق بالهندسة والنجارة[٦] والنجوم فحظي عنده آزر لذلك، وكان على خطة عمل الأصنام تعمل بأمره وتدبيره، ويطبع هو في الصنم بختم معلوم عنده، وحينئذ يعبد ذلك الصنم، فلما نشأ إبراهيم ابنه على الصفة التي تأتي بعدُ كان أبوه يكلفه بيعها، فكان إبراهيم ينادي عليها: من يشتري ما يضره ولا ينفعه؟ ويستخف بها ويجعلها في

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي (٣/ ٢٠٧٥)، ومعاني القرآن للنحاس (٢/ ٤٤٨).

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٢٣).

(٣) في المطبوع: «أبو الفتوح»، وهي قراءة شاذة، انظرها في المحتسب (١/ ٢٢٣)، وأبو إسماعيل لم أعرفه إلا أن يكون هو ابن أبي عبلة.

(٤) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي (٣/ ٢٠٧٤).

(٥) وهي قراءة شاذة، انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٥٦٢).

(٦) «النجارة» زيادة من السليمانية.

الماء منكوسة، ويقول: اشربي، فلما شهر أمره بذلك وأخذ في الدعاء إلى الله تعالى قال لأبيه هذه المقالة، و﴿أَرَىٰكَ﴾ في هذا الموضع يشترك فيها البصر والقلب لأنها رؤية قلب ومعرفته، وهي متركبة على رؤية بصر.

و﴿مُّبِينٍ﴾ بمعنى: واضحٍ ظاهر، وهو من أبان الشيءُ: إذا ظهر، ليس بالفعل المتعدي المنقول من بان يَبين.

قال القاضي أبو محمد: ويصح أن يكون المنقولَ، ويكون المفعولُ[1] مقدراً تقديره: في ضلال مبينٍ كفرَكم، وقيل: كان آزر رجلاً من أهل كُوثا من سواد الكوفة، قال النقاش: وبها ولد إبراهيم عليه السلام، وقيل: كان من أهل حران[2].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية، المتقدمة تقضي[3] بهداية إبراهيم عليه السلام والإشارة هنا بـ(ذلك) هي إلى تلك الهداية، أي: وكما هديناه إلى الدعاء إلى الله وإنكارِ الكفر أريناه ملكوت، و﴿نُرِيٓ﴾ لفظها الاستقبال ومعناها المضي، وحكى المهدوي أن المعنى: وكما هديناك يا محمد فكذلك نري إبراهيم[4].

قال القاضي أبو محمد: وهذا بعيدٌ؛ إذ اللفظ لا يعطيه.

و﴿نُرِيٓ﴾ هنا متعدية إلى مفعولين لا غير، فهي إما من رؤية البصر، وإما من أرى التي هي بمعنى عرَّف، ولو كانت من أرى بمعنى أَعْلَمَ وجعلنا أعلم منقولةً من عَلِم التي تتعدى إلى مفعولين، لوجب أن تتعدى أرى إلى ثلاثة مفاعيل[5] وليس كذلك، ولا يصح أن يقال: إن الثالث محذوف؛ لأنه لا يجوز حذفه إذ هو الخبر في الجملة التي يدخل عليها عَلِمتُ في هذا الموضع، وإنما هي من عَلِم بمعنى عَرَف، ثم نقلت

---

(١) في الأصل: «المنقول»، وكذا لالاليه، مع الإشارة في هامشها للمثبت، وعليها علامة صح.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٥٦٢)، بلا نسبة.

(٣) في المطبوع والسليمانية: «تقتضي».

(٤) انظر: التحصيل (٢/ ٦٠٩)، والبحر المحيط لأبي حيان (٤/ ١٧٠).

(٥) في فيض الله والسليمانية ولالاليه: «مفعولين»، وهي بمعناها.

بالهمزة[(١)] فتعدت إلى مفعولين، ثم جعلت أرى بمنزلتها في هذه الحال.

وهذه الرؤية قيل: هي رؤية البصر، وروي في ذلك أن الله عز وجل فرَج لإبراهيم السماوات والأرضين حتى رأى ببصره الملكوت الأعلى والملكوت الأسفل، فإن صح هذا المنقول ففيه تخصيص لإبراهيم عليه السلام بما لم يدركه غيره، قبله ولا بعده، وهذا هو قول مجاهد، قال: تفرجت له السماوات والأرضون فرأى مكانه في الجنة، وبه قال سعيد بن جبير[(٢)]، وسلمان الفارسي[(٣)].

[٢/ ٩٤] وقيل: هي رؤية بصر في ظاهر الملكوت، وقع له معها من الاعتبار / ورؤية القلب ما لم يقع لأحد من أهل زمنه الذين بعث إليهم، قاله ابن عباس وغيره[(٤)]، ففي هذا تخصيص ما على جهة التقييد بأهل زمنه.

وقيل: هي رؤية قلب رأى بها ملكوت السماوات والأرض بفكرته ونظره، وذلك ولا بدَّ متركب على ما تقدم من رؤيته ببصره وإدراكه في الجملة بحواسه.

قال القاضي أبو محمد: وهذان القولان الأخيران يناسبان الآية؛ لأن الغاية التي نصبت له إنما هي أن يؤمن ويكونَ من جملة موقنين كثيرةٍ[(٥)]، والإشارة لا محالة إلى من قبله من الأنبياء والمؤمنين وبعده، واليقين يقع له ولغيره بالرؤية في

---

(١) تحرفت في المطبوع إلى: «الهمزة».

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٧٢).

(٣) أخرجه الطبري (١٣٤٥٢) من طريق: أبي معاوية، عن عاصم عن أبي عثمان عن سلمان الفارسي بلفظ: لما رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، رأى عبداً على فاحشة، فدعا عليه، فهلك. ثم رأى آخر على فاحشة، فدعا عليه فهلك. ثم رأى آخر على فاحشة، فدعا عليه فهلك. فقال: أنزلوا عبدِي لا يُهْلِك عبادِي. عاصم هو الأحول، وأبو عثمان هو النهدي، والإسناد ظاهره السلامة.

(٤) أخرجه الطبري (١٣٤٤١)، وابن أبي حاتم (٧٤٩٨) من طريق علي بن أبي طلحة، والطبري (١٣٤٤٣)، وابن أبي حاتم (٧٤٩٩) من طريق: عطية العوفي كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) في المطبوع: «كثرة».

ظاهر الملكوت والاستدلال به على الصانع والخالق لا إله إلا هو.

و﴿مَلَكُوتَ﴾ بناء مبالغة، كجبروت ورهبوت ورحموت، وقال عكرمة: هو ملكوتي باليونانية أو بالنبطية[١]، وقرأ: (ملكوث) بالثاء مثلثة[٢].

وقرأ أبو السمال: «ملْكوت» بإسكان اللام[٣]، وهي لغة.

و﴿مَلَكُوتَ﴾ بمعنى: الملك، والعرب تقول: لفلان ملكوت اليمن؛ أي: ملكه، واللام في ﴿لِيَكُونَ﴾ متعلقة بفعل مؤخر تقديره: وليكون من الموقنين أريناه[٤].

والموقن: العالم بالشيء علماً لا يمكن أن يطرأ له فيه شك.

وقال الضحاك ومجاهد أيضاً: إن الإشارة هاهنا بـ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هي إلى الكواكب والقمر والشمس، وهذا راجعٌ وداخلٌ فيما قدمناه من أنها رؤية بصر في ظاهر الملكوت.

وروي عن ابن عباس في تفسير: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ قال: جلَّى له الأمورَ سرَّها وعلانيتها فلم يخْفَ عليه شيء من أعمال الخلائق، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب، قال الله تعالى: إنك لا تستطيع هذا، فرده لا يرى أعمالهم[٥].

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٧١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٢٦).

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لعكرمة في مختصر الشواذ (ص: ٤٤).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي (٣/ ٢٠٧٦).

(٤) في الحمزوية: «لما لدينا».

(٥) أخرجه الطبري (٩/ ٣٥٣)، وابن أبي حاتم (٧٤٩٩-٧٥٠٧) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما به.

هذه الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾ رابطة جملةَ ما بعدها بما قبلها، وهي ترجح أن المراد بـ«الملكوت»: هو هذا التفصيل الذي في هذه الآية.

و«جن الليل»: ستر وغطى بظلامه، ويقال: أَجَنَّ، والأول أكثر، ويشبه أن يكون الجِن والمِجَن والجنة والجَنَن ـ وهو القبر ـ مشتقة من جن إذا ستر.

ولفظ هذه القصة يحتمل أن تكون وقعت له في حال صباه وقبل بلوغه، كما ذهب إليه ابن عباس، فإنه قال: رأى كوكباً فعبده[1].

وقال ناس كثير: إن النازلة قبل البلوغ والتكليف، ويحتمل أن تكون وقعت له بعد بلوغه وكونه مكلفاً، وحكى الطبري هذا عن فرقة، وقالت: إنه استفهم على جهة التوقيف بغير ألف، قال: وهذا كقول الشاعر:

[الطويل] رَفَوْنِي وقَالُوا يَا خُوَيلِدُ لَمْ تُرَعْ فَقُلْتُ وأَنْكَرْتُ الوُجُوهَ هُمُ هُمُ[2]

يريد: أهم هم، وكما قال الآخر:

[الطويل] لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنْ كُنْتَ دَارِياً شُعَيْثُ بْنُ سَهْمٍ أَمْ شُعَيْثُ بْنُ مِنْقَرِ[3]

يريد: أشعيث.

---

(١) هذا الأثر أخرجه ابن جرير الطبري (٩/ ٣٥٦)، وابن أبي حاتم (٧٥١١-٧٥١٧-٧٥٢٠) في تفسيريهما، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦١٢) من طريق أبي صالح، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما فذكره.

(٢) البيت لأبي خراش الهذلي كما في العين (٨/ ٢٨١)، والمعاني الكبير (٢/ ٩٠٢)، والعقد الفريد (١/ ١٣٣)، وتهذيب اللغة (١٥/ ١٧٥)، وفي الحمزوية ولالاليه: «رقوني»، وهو تصحيف من قعنب لما سأل الأصمعيَّ عنها، وفسرها، فقال الأصمعي: يصحف ويفسر التصحيف! خزانة الأدب (١/ ٤٤٢).

(٣) البيت للأسود بن يعفر التميمي كما في الكتاب لسيبويه (٣/ ١٧٤)، ونسبه المبرد في الكامل (٢/ ١٨١) للَّعين المنقري، وعزاه في تفسير الطبري (١١/ ٤٨٤) لأوس، وهو ابن حجر، وشعيث حي من بني منقر من تميم، والشاعر يشكك في نسبتها لهم.

قال القاضي أبو محمد: والبيت الأول لا حجة فيه عندي.

وقد حكي أن نمرود[١] جبار ذلك الزمن رأى له منجموه أن مولوداً يولد في سنة كذا في عمله يكون خراب الملك على يديه، فجعل يتبع الحبالى ويوكل بهن حراساً، فمن وضعت أنثى تركت، ومن وضعت ذكراً حمل إلى الملك فذبحه، وأن أم إبراهيم حملت به، وكانت شابَّة قوية، فسترت حملها، فلما قربت ولادتها بعثت تارَح أبا إبراهيم إلى سفر وتحيلت لمضيه إليه، ثم خرجت هي إلى غار فولدت فيه إبراهيم وتركته في الغار وقد هيأت عليه، وكانت تفتقده فتجده يتغذى بأن يمصَّ أصابعه فيخرج له منها عسل وسمن ونحو هذا، وحكي: بل كان يغذوه ملك، وحكي: بل كانت تأتيه بألبان النساء اللاتي ذبح أبناؤهن.

فشب إبراهيم أضعاف ما يشب غيره، والملك في خلال ذلك يحس بولادته ويشدد في طلبه، فمكث في الغار عشرة أعوام، وقيل: خمس عشرة سنة، وأنه نظر أول ما عقل من الغار فرأى الكوكب وجرت قصة الآية.

قال القاضي أبو محمد: وجلبتُ هذا القَصَص بغاية الاختصار في اللفظ، وقصدت استيفاء المعاني التي تخص الآية، ويضعف عندي أن تكون هذه القصة في الغار؛ لقوله تعالى في آخرها: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ وهي ألفاظ تقتضي محاجة وردّاً على قوم، وحاله في الغار بعيدة عن مثل هذا، اللهم إلا أن يتأول في ذلك أنه قالها بينه وبين نفسه، أي: قال في نفسه معنى؛ العبارة عنه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، وهذا كما قال الشاعر:

ثُـمَّ انْـثَـنَى وقَـالَ في التَّـفْـكِيـرِ ... إنَّ الْحَيَـاةَ الْيَـوْمَ في الْكُـرُورِ[٢] [الرجز]

قال القاضي أبو محمد: ومع هذا فالمخاطبة تبعده، ولو قال: يا قوم إني بريء من الإشراك، لصح هذا التأويل وقَوِي.

---

(١) في فيض الله: «نمروذ» بدل: «نمرود»، وكلاهما مروي.

(٢) البيت للعجاج في صفة ثور كما في الحجة للفارسي (١/ ٣٤٢).

فإن قلنا بأنه وقعت له القصة في الغار في حال الصبوة وعدم التكليف على ما ذهب إليه بعض المفسرين ويحتِمله اللفظ، فذلك ينقسم على وجهين:

إما أن يجعل قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ تصميماً واعتقاداً، وهذا باطلٌ؛ لأنَّ التصميم على الكفر لم يقع من الأنبياء صلوات الله عليهم.

وإما أن يجعله تعريضاً للنظر والاستدلال، كأنه قال: هذا المنير البهي ربي إن عضدت ذلك الدلائل، ويجيء إبراهيم عليه السلام كما قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: مهمَل المعتقَد.

وإن قلنا بأن القصة وقعت له في حال كبره[١] وهو مكلف، فلا يجوز أن يقول: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ مصمماً ولا معرِّضاً للنظر؛ لأنها رتبة جهل أو شك وهو عليه السلام منزه معصوم من ذلك كله، فلم يبق إلا أن يقولها على جهة التقرير لقومه والتوبيخ لهم وإقامة الحجة عليهم في عبادة الأصنام، كأنه قال لهم: أهذا المنير ربي؟ أو هذا ربي؟ وهو يريد: على زعمكم، كما قال الله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ فإنما المعنى: على زعمكم.

ثم عرَض إبراهيم عليهم من حركته وأفوله أمارة الحدوث[٢]، وأنه لا يصلح أن يكون ربّاً، ثم في آخر أعظم منه وأحرى[٣] كذلك، ثم في الشمس كذلك، فكأنه يقول: / فإذا بان في هذه المنيرات الرفيعة أنها لا تصلح للربوبية فأصنامكم التي هي خشب وحجارة أحرى أن يَبين ذلك فيها، ويعضد عندي هذا التأويل قولُه: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾. [٢/ ٩٥]

ومثل لهم بهذه الأمور؛ لأنهم كانوا أصحاب علمَيْ نجوم ونظر في الأفلاك، وهذا الأمر كله إنما[٤] وقع في ليلة واحدة: رأى الكوكب ـ وهو الزهرة في قول قتادة،

---

(١) في الأصل والمطبوع: «كفره».

(٢) في فيض الله: «الحدث» بدل: «الحدوث»، وفي السليمانية: «الحديث».

(٣) في فيض الله ونور العثمانية والسليمانية: «وأخرى» بدل: «وأحرى».

(٤) في السليمانية: «مما» بدل «إنما».

وقال السدي: هو المشتري ـ جانحاً للغروب، فلما أفل بزغ القمر، وهو أول طلوعه، فسرى الليل أجمع، فلما بزغت الشمس زال ضوء القمر قبلها لانتشار الصباح وخفي نوره ودنا أيضاً من مغربه، فسمي ذلك أفولاً لقربه من الأفول التام على تجوُّز في التسمية، ثم بزغت الشمس على ذلك.

وهذا الترتيب يستقيم في الليلة الخامسة عشرة من الشهر إلى ليلة عشرين، وليس يترتب في ليلة واحدة ـ كما أجمع أهل التفسير ـ إلا في هذه الليالي، وبذلك التجوُّز في أفول القمر.

و«أفل» في كلام العرب معناه: غاب، يقال: أين أفلت عنا يا فلان؟ وقيل: معناه: ذهب.

قال القاضي أبو محمد: وهذا خلافٌ في عبارة فقط، وقال ذو الرمة:

مَصَابِيحُ لَيْسَـتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودُهَا نُجُومٌ وَلَا بِالآفِلَاتِ الدَّوَالِكِ[١] [الطويل]

وقال: ﴿ٱلۡأَفِلِينَ﴾، فجمع بالياء والنون، لمَّا قصَد قصْدَ الأربابِ ونحو ذلك، وعلى هذا يخرج قوله في الشمس: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، فذكَّر الإشارة إليها لـمَّا قصَد قصْدَ[٢] ربه.

وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص: ﴿رَءَا﴾، بفتح الراء والهمزة، وقرأ نافع بين الفتح والكسر، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وابن عامر وحمزة والكسائي بكسرهما، وقرأ أبو عمرو بن العلاء بفتح الراء وكسر الهمزة[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾ الآية، البزوغ في هذه الأنوار: أول الطلوع، وقد تقدم القول فيما تدعو إليه ألفاظ الآية، وكون هذا الترتيب في ليلة واحدة

(١) انظر عزوه له في الأزمنة لقطرب (ص: ١٧)، ومجاز القرآن (١/ ١٩٩)، وتفسير الثعلبي (٦/ ١٢٠).
(٢) تكررت «قصد» في أكثر النسخ هنا وكذلك في بداية المقطع التالي، فالأولى فعل، والثانية مصدر.
(٣) السبعة في القراءات (ص: ٢٦٠)، وكذا التيسير (ص: ١٠٣)، إلا قالون وهشاماً فكابن كثير، والمراد بالكسر الإضجاع.

من[١] التجوُّز في أفول القمر؛ لأن أفوله لو قدرناه مغيبَه في المغرب لكان ذلك بعد بزوغ الشمس.

وجميع ما قلناه يعطيه الاعتبار، و﴿يَهۡدِنِي﴾ يرشدْني، وهذا اللفظ يؤيد قول من قال: النازلة في حال الصغر، والقوم الضالون: عبدة المخلوقات، كالأصنام وغيرهما، وإن كان الضلال أعم من هذا فهذا هو المقصود في هذا الموضع.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠﴾.

لما قصَدَ قَصْدَ ربه قال: ﴿هَٰذَا﴾، فذكَّر، أي: هذا المرئيُّ أو المنير ونحو هذا، فلما أفلت الشمس[٢] لم يبق شيء يمثِّل لهم به، فظهرت حجته وقوي بذلك على منابذتهم والتبري من إشراكهم.

وقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ يؤيد قول من قال: النازلة في حال الكبر والتكليف.

و﴿وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾ أي: أقبلتُ بقصدي وعبادتي وتوحيدي وإيماني وغير ذلك مما يعمه المعنى المعبر عنه بـ﴿وَجۡهِيَ﴾.

و﴿فَطَرَ﴾ معناه: ابتدع في أجرام.

و﴿حَنِيفٗا﴾ معناه: مستقيماً، والحنف: الميل في كلام العرب، وأصله في الأشخاص، وهو في المعاني مستعار، فالمعوج في الأجرام أحنف على الحقيقة، أي: مائل، والمستقيم فيها أحنف على تجوُّز، كأنه مال عن كل جهة إلى القوام.

---

(١) في المطبوع: «مع».
(٢) «الشمس» سقطت من المطبوع.

و(حاجَّه) فاعله[١] من الحجة، قال: أتراجعوني في الحجة في توحيد الله.

وقرأت فرقة: (أتحاجونني) بإظهار النونين[٢] وهو الأصل.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي﴾ بإدغام النون الأولى في الثانية، وقرأ نافع وابن عامر: ﴿أتحاجوني﴾ بحذف النون الواحدة[٣]، فقيل: هي الثانية، وقيل: هي الأولى، ويدل على ذلك أنها بقيت مكسورة.

قال أبو علي الفارسي: ولا يجوز أن تحذف الأولى لأنها للإعراب، وإنما حذفت الثانية التي هي توطئة لياء المتكلم كما حذفت في «ليتي»[٤]، وفي قول الشاعر:

.... يَسُوءُ الْفَالِيَاتِ إِذَا فَلَيْنِي[٥] [الوافر]

وكسرت بعد ذلك الأولى الباقية لمجاورتها للياء.

و(قد هدانِ) أي: قد أرشدني إلى معرفته وتوحيده، وأمال الكسائي ﴿هَدَىٰنِ﴾[٦]، والإمالة في ذلك حسنة، وإذا جازت الإمالة في غزا ودعا وهما من ذوات الواو فهي في ﴿هَدَىٰنِ﴾ التي هي من ذوات الياء أجوز وأحسن[٧].

وحكي أن الكفار قالوا لإبراهيم عليه السلام: خَفْ أن تصيبك آلهتنا ببرص، أو

---

(١) في فيض الله والسليمانية: «مفاعلة» بدل: «فاعله».

(٢) وهي قراءة شاذة، عزاها الكرماني في شواذ القراءات (ص: ١٦٦) لعيسى بن عمر.

(٣) وهما سبعيتان، انظر: السبعة في القراءات (ص: ٢٦١)، وكذا التيسير (ص: ١٠٤) إلا أن لهشام تخفيف النون وتشديدها.

(٤) الحجة لأبي علي الفارسي (٣/ ٣٣٤).

(٥) عجز بيت، صدره: تراه كالثَّغَام يُعَلُّ مِسْكاً، وهو لعمرو بن معدي كرب كما في معاني القرآن للفراء (٣/ ٣٥)، والكتاب لسيبويه (٣/ ٥٢٠)، ومجاز القرآن (١/ ٣٥٢)، والصحاح الجوهري (٦/ ٣٠٧)، وتهذيب اللغة (٥/ ١٨٥)، ونسبه ابن عادل في اللباب (٩/ ٥٥٠)، والسمين في الدر المصون (١/ ٢١٣٠) لعمر بن أبي ربيعة، ولعله سبق قلم منهما والله أعلم، وفي المطبوع: «الغاليات».

(٦) على قاعدته في ذلك، وهي مستثناة لحمزة، انظر: التيسير (ص: ٤٨).

(٧) الحجة لأبي علي الفارسي (٣/ ٣٣٥).

داء لإذايتك لها وتنقُّصك، فقال لهم: لست أخاف الذي تشركون به؛ لأنه لا قدرة له ولا غناء عنده، و(ما) في هذا الموضع بمعنى الذي، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يحتمل أن يعود على الله عز وجل، فيكون على هذا في قوله: ﴿تُشْرِكُونَ﴾ ضمير عائد على (ما)، تقدير الكلام: ولا أخاف الأصنام التي تشركونها بالله في الربوبية، ويحتمل أن يعود الضمير على (ما) فلا يحتاج إلى غيره، كأن التقدير: ما تشركون بسببه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ استثناء ليس من الأول، و﴿شَيْـًٔا﴾ منصوب بـ﴿يَشَآءَ﴾، ولما كانت قوة الكلام أنه لا يخاف ضرّاً، استثنى مشيئة ربه تعالى في أن يريده بضر[(١)].

و﴿عِلْمًا﴾ نصب على التمييز، وهو مصدر بمعنى الفاعل، كما تقول العرب: تصبَّب زيد عرقاً، المعنى: تصبب عرقُ زيد، فكذلك المعنى هنا: وسع علمُ ربي كل شيء. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ توقيف وتنبيه وإظهار لموضع التقصير منهم.

قوله عز وجل: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ / نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)﴾. [٢/ ٩٦]

هذه الآية إلى ﴿تَعْلَمُونَ﴾ هي كلها من قول إبراهيم عليه السلام لقومه، وهي حجته القاطعة لهم، المعنى: وكيف أخاف الأصنام التي لا خطب لها وهي حجارة وخشب إذا أنا نبذتها ولم أعظمها، ولا تخافون أنتم الله عز وجل وقد أشركتم به في الربوبية أشياء لم ينزل بها عليكم حجة، والسلطان: الحجة، ثم استفهم على جهة التقرير: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ [مني ومنكم][(٢)] ﴿أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ أي: من لم يشرك بالقادر العالم أحق أن يأمن؟!

---

(١) في الحمزوية: «في أنه يزيد نصراً».

(٢) ساقط من المطبوع.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء، و﴿يَلْبِسُوٓاْ﴾ معناه: يخلطوا.

و«الظلم» في هذه الآية: الشرك، تظاهرت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ وعن جماعة من الصحابة: أنه لما نزلت هذه الآية أشفق أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك كما قال لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»[١].

وروي أن عمر بن الخطاب قرأ في المصحف، فلما أتى عليها عظُمت عليه، فلبس رداءه ومر إلى أُبيّ بن كعب، فقال: يا أبا المنذر، وسأله عنها، فقال له: إنه الشرك يا أمير المؤمنين، فسُرِّي عن عمر[٢]، وجرى لزيد بن صوحان[٣] مع سلمان نحو مما جرى لعمر مع أُبيّ بن كعب رضي الله عنهم[٤].

وقرأ مجاهد: (ولم يلبسوا إيمانهم بشرك)، وقرأ عكرمة: (يُلبسوا) بضم الياء[٥].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) في إسناديه مقال، أخرجه الطبري في تفسيره (١٣٤٩٣-١٣٤٩٤-١٣٤٩٥) من طريق علي بن زيد بن جدعان تارة عن المسيب عن عمر رضي الله عنه، وتارة عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن عمر فذكره، وعلي بن زيد بن جدعان ضعيف.
وقد أخرجه الطبري (١٣٤٩٦-١٣٤٩٧) من طريق عمرو بن سالم قال: قرأ عمر بن الخطاب هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، فقال عمر: قد أفلح من لم يلبس إيمانه بظلم! فقال أبيّ: يا أمير المؤمنين، ذاك الشرك! وعمرو بن سالم أبو عثمان الأنصاري قاضي مرو رأى ابن عباس وابن عمر، وروى عن أبي بن كعب مرسلاً، ووثقه أبو داود، ولم يصرح بسماعه من عمر.

(٣) زيد بن صوحان العبدي أخو صعصعة، يقال: له وفادة على النبي ﷺ، وسمع من عمر، وعلي، روى عنه أبو وائل، والعيزار بن حريث. وكان صواماً قواماً، قتل يوم الجمل. تاريخ الإسلام (٣/ ٥٠٩).

(٤) ضعيف، أخرجه الطبري (١٣٤٨٦) من طريق أبي الأشعر العبدي عن أبيه، عن زيد بن صوحان عن سلمان الفارسي، وأبو الأشعر وأبوه لا يعرفان. تاريخ الإسلام (٣/ ٥٠٨).

(٥) وهما شاذتان، انظرهما في البحر المحيط في التفسير (٤/ ٥٧١)، قال في الأول: ولعل ذلك تفسير معنى؛ إذ هي قراءة تخالف السواد.

و﴿ٱلۡأَمۡنُ﴾: رفع بالابتداء وخبره في المجرور، والجملة خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي: راشدون، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: المراد بهذه الآية: إبراهيم خاصة[١].

وقال عكرمة: نزلت في مهاجري أصحاب محمد ﷺ خاصة، وقالت فرقة: هي من قول إبراهيم لقومه فهي من الحجة التي أوتيها، وقال ابن جريج: هي من قول قوم إبراهيم، ويجيء هذا من الحجة أيضاً أن أقروا بالحق وهم قد ظلموا في الإشراك، وقال ابن إسحاق وابن زيد وغيرهما: بل ذلك قول من الله عز وجل ابتداء حكم فصل عام لوقت محاجة إبراهيم وغيره ولكل مؤمن تقدم أو تأخر[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو البيِّن الفصيح الذي يرتبط به معنى الآية ويحسُن رصفها، وهو خبر من الله تعالى.

و(تلك) إشارة إلى هذه الحجة المتقدمة وهي رفع بالابتداء، و﴿حُجَّتُنَآ﴾ خبره و﴿ءَاتَيۡنَٰهَآ﴾ في موضع الحال، ويجوز أن تكون ﴿حُجَّتُنَآ﴾ بدلاً من (تلك) و﴿ءَاتَيۡنَٰهَآ﴾ خبرَ (تلك) و﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ مفعول بـ﴿ءَاتَيۡنَٰهَآ﴾ والضمير مفعول أيضاً بـ(آتَيْنَا) مقدم و﴿عَلَىٰ﴾ متعلقة بقوله: ﴿حُجَّتُنَآ﴾ وفي ذلك فصل كثير، ويجوز أن تتعلق ﴿عَلَىٰ﴾ بـ﴿ءَاتَيۡنَٰهَآ﴾ على المعنى، إذ المعنى: أظهرناها لإبراهيم على قومه، ونحو هذا.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿نرفع درجاتِ مَن نشاء﴾ بإضافة «الدرجات» إلى ﴿مَن﴾، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالتنوين[٣].

---

(١) ضعيف، أخرجه الطبري (١٣٥١١)، وابن أبي حاتم (٧٥٤٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٦) من طريق زياد بن علاقة، عن زياد بن حرملة، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وإسناده ضعيف لجهالة زياد بن حرملة.

(٢) انظر أقوال هؤلاء في تفسير الطبري (١١/ ٤٩٣، ٥٠٥، ٥٠٣)، وبعضهم في تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٣٢).

(٣) بالتنوين زيادة من السليمانية، وهما سَبْعيَّتان، انظر: التيسير (ص: ١٠٣)، وفي المطبوع في الثانية: «وقرأ عامر وعاصم».

قال القاضي أبو محمد: وهما مأخذان من الكلام، والمعنى المقصود بهما واحد، و﴿دَرَجَٰتٍ﴾ على قراءة مَن نون نصبٌ على الظرف.

و﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ صفتان تليق بهذا الموضع؛ إذ هو موضع مشيئة واختيار، فيحتاج ذلك إلى العلم والإحكام، والدرجات أصلها في الأجسام، ثم تستعمل في المراتب والمنازل المعنوية.

قوله عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا﴾ عطف على ﴿ءَاتَيْنَٰهَا﴾، و﴿إِسْحَٰقَ﴾ ابنه من سارة.

و(يعقوب) هو ابن إسحاق، و﴿كُلًّا﴾ و(نوحاً) منصوبان على المفعول مقدمان على الفعل، وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ لقدمه[1] ﷺ.

وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ المعنى: وهدينا من ذريته، والضمير في ﴿ذُرِّيَّتِهِۦ﴾؛ قال الزجّاج: جائز أن يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾[2]، ويعترض هذا بذكر لوط عليه السلام، وهو ليس من ذرية إبراهيم بل هو ابن أخيه، وقيل: ابن أخته، ويتخرج ذلك عند من يرى الخال أباً.

وقيل: يعود الضمير على (نوح) وهذا هو الجيد[3].

و﴿دَاوُۥدَ﴾ يقال: هو ابن إيشى و(سليمان) ابنه، و(أيوب) هو فيما يقال: أيوب ابن موص بن[4] رازح بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم، و(يوسف) هو ابن يعقوب بن

---

(١) في الأصل ونجيبويه: «لقومه».

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج (٢/ ٢٦٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٥٠٧).

(٤) «موص بن» ليست في المطبوع.

إسحاق، و(موسى) و(هارون) هما ابنا عمران بن يصهر بن قاهث[١] بن لاوي بن يعقوب.

ونصبُ ﴿دَاوُۥدَ﴾ يحتمل أن يكون بـ(وَهَبْنا) ويحتمل أن يكون بـ﴿هَدَيْنَا﴾، وهذه الأسماء كلها فيها العجمةُ والتعريف، فهي غير مصروفة، و«مُوسى» عند سيبويه وزنه مُفْعَل، فَعَلى هذا ينصرف في النكرة، وقيل: وزنه فُعْلَى، فعلى هذا لا ينصرف في معرفة ولا نكرة[٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وعد من الله عز وجل لمن أحسن في عمله، وترغيب في الإحسان.

و(زكريا) فيما يقال هو زكريا ابن آذن[٣] بن بركنا.

و(عيسى) ابن مريم بنت عمران ابن ياشهم بن أمون بن حزقيا.

و(إلياس) هو ابن نسي[٤] بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: إدريس هو إلياس[٥].

ورد ذلك الطبري وغيره بأن إدريس هو جد نوح، تظاهرت بذلك الروايات[٦].

---

(١) في فيض الله: «ناهث».

(٢) انظر الخلاف في وزن «موسى» وصرفه في المخصص (٤/ ٤٨٦)، وتهذيب اللغة (٤/ ٣٤٦)، وسر صناعة الإعراب (١/ ٤٢٨).

(٣) في السليمانية: «أدد».

(٤) في المطبوع: «نسمي».

(٥) في إسناده جهالة، أخرجه عبد بن حميد في تفسيره ـ كما في تغليق التعليق (٤/ ٩) ـ، والطبري (١٣٥١٥)، وابن أبي حاتم (٧٥٥٦) من طريق أبي إسحاق السبيعي، عن عبيدة بن ربيعة، عن ابن مسعود رضي الله عنه، بنحوه، وفي لفظ بزيادة: «ويعقوب هو إسرائيل»، وعبيدة فيه جهالة، وقد علقه البخاري في صحيحه بصيغة التمريض في كتاب الأنبياء، باب ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ...﴾، وحسنه الحافظ في فتح الباري (٦/ ٣٧٣)، والسيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥١٩).

(٦) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٥١٠).

و(زكرياء)؛ قرأته طائفة بالمد، وقرأته طائفة بالقصر: (زكريا)[١].

وقرأ ابن عامر ـ باختلاف عنه ـ، والحسن وقتادة بتسهيل الهمزة من (الياس)[٢].

وفي هذه الآية: أن عيسى عليه السلام من ذرية نوح أو إبراهيم، بحسب الاختلاف في عود الضمير من ﴿ذُرِّيَّتِهِۦ﴾، وهو ابن ابنته، وبهذا يستدل في الأحباس على أن ولد البنت من الذرية.

و(إسماعيل) هو أكبر ولدي إبراهيم عليه السلام وهو من هاجر.

و(اليسع) قال زيد بن أسلم: هو يوشع بن نون[٣]، وقال غيره: هو اليسع بن أخطوب ابن العجوز[٤].

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿واللَّيْسَع﴾[٥] كأن الألف / واللام دخلت على فيعَل. [٢/ ٩٧]

قال أبو علي الفارسي: فالألف واللام في (اليسع) زائدة لا تؤثِّر معنى تعريف؛ لأنها ليست للعهد كالرجل والغلام، ولا للجنس كالإنسان والبهائم، ولا صفةً غالبة كالعباس والحارث؛ لأن ذلك يلزم عليه أن يكون (اليسع) فعلاً، وحينئذٍ يجري صفة، وإذا كان فعلاً وجب أن يلزمه الفاعل ووجب أن يحكى إذ هي جملة، ولو كان كذلك لم يجز لحاق اللام له، إذ اللام لا تدخل على الفعل، فلم يبق إلا أن تكون الألف واللام زائدة كما هي زائدة في قولهم: الخمسة العَشَر درهماً، وفي قول الشاعر:

---

(١) وهم حفص عن عاصم وحمزة والكسائي، والأولى للباقين، فهما سبعيتان، كما تقدم في آل عمران.

(٢) وهي شاذة، في هذا الموضع من قراءة الحسن وقتادة كما في الكامل للهذلي (ص: ٣٨١)، وسيأتي ما لابن عامر في «الذاريات».

(٣) انظر: الهداية لمكي (٣/ ٢٠٩٣).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٥١٠).

(٥) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٠٤)، والسبعة في القراءات (ص: ٢٦٢).

[الرجز] يَا لَيْتَ أُمَّ الْعَمْرِ كَانَتْ صَاحِبِي[١] ....

بالعين غير منقوطة، وفي قوله:

[الطويل] وَجَدْنَا الْوَلِيـدَ بْنَ الْيَزِيـدَ مُبَارَكاً شَـدِيداً بِأَعْبَاءِ الْخِلافَةِ كَاهِلُهْ[٢]

قال: وأما (الليسع) فالألف واللام فيه بمنزلتها في الحارث والعباس؛ لأنه من أبنية الصفات، لكنه بمنزلة (اليسع) في أنه خارج عما هي عليه الأسماء الأعجمية، إذ لم يجئ فيها شيء هو على هذا الوزن كما لم يجىء منها شيء فيه لام تعريف، فهما من الأسماء الأعجمية إلا أنهما مخالفان للأسماء الأعجمية فيما ذكر[٣].

قال القاضي أبو محمد: وأما «اليزيد» فإنه لـمَّا سمي به أزيل منه معنى الفعل وأفردت فيه الاسمية فحصل علماً[٤]، وزيدت فيه الألف واللام لا لتعريف، وقال الطبري: دخلت الألف واللام إتباعاً لِلَفظ «الوليد»[٥].

و(يونس) هو ابن متّى، ويقال: يونُس ويونَس ويونِس، وكذلك: يوسُف ويوسَف ويوسِف.

وبكسر النون من (يونِس) والسين من (يوسِف) قرأ الحسن وابن مصرف وابن وثاب وعيسى بن عمر والأعمش في جميع القرآن[٦].

[و﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ معناه: عالَـمي زمانهم][٧].

---

(١) أنشده ابن الأعرابي كما في سر صناعة الإعراب (١/ ٣٦٦) والأمالي للقالي (٣/ ٣٧) وأبو زيد كما في المحكم (٨/ ٦٠٧)، قال في المخصص (٣/ ٢٧٩): ورواه ابن السكيت «أمَّ الغَمر» بالغين وهذا لا شاهد فيه، وسقط هذا البيت والتعليق عليه من نجيبويه.

(٢) البيت للرمّاح بن ميادة كما في المحكم (٩/ ٨٦)، وسر صناعة الإعراب (٢/ ٤٥١)، ونسبه الزمخشري للأخطل في الفائق (٣/ ٢٨٨).

(٣) الحجة لأبي علي الفارسي (٣/ ٣٤٥).

(٤) في المطبوع: «فحصل فيه العلمية»، وفي السليمانية: «فجعل علماً».

(٥) تفسير الطبري (١١/ ٥١١).

(٦) وهي قراءة شاذة، انظر: إعراب القرآن للنحاس (١/ ٢٥٠)، وقد تقدم التنبيه عليه.

(٧) سقط من الأصل.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

والمعنى: وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعات، فـ (مِن) للتبعيض، والمراد: من آمن منهم نبيّاً كان أو غير نبي، ويدخل عيسى عليه السلام في ضمير قوله: ﴿وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ﴾ ولهذا قال محمد بن كعب: الخال أب والخالة أم[1].

و(اجتبيناهم) معناه: تخيرناهم وأرشدناهم وضممناهم إلى خاصتنا، وأرشدناهم إلى الإيمان والفوز برضى الله تعالى، قال مجاهد: معناه: أخلصناهم[2].

و«الذرية»: الأبناء، ويُطلق على جميع البشر ذرية لأنهم أبناء، وقال قوم: إن الذرية تقع على الآباء لقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]، يراد به نوع البشر.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ﴾ الآية، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى النعمة في قوله: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾، وإضافة (الهدى) إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ إضافة ملك.

و(حبِطَ) معناه: تلف وذهب لسوءٍ غلب عليه، و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من تقدم ذكره.

و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ يراد به الصحف والتوراة والإنجيل والزبور.

و(الحكم) يراد به: اللب والفطنة والفقه في دين الله.

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٢٤٠) ولفظه: «الخال والد والعم والد».

(٢) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٥١٣) تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٣٦) معاني القرآن للنحاس (٢/ ٤٥٥).

و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى كفار قريش المحادِّين[١] لرسول الله ﷺ، وإلى كل كافر في ذلك العصر، قاله قتادة وابن عباس[٢] والسدي وغيرهم[٣].

و﴿قَوۡمًا﴾ يراد به مؤمنو أهل المدينة، قاله ابن عباس[٤] وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم[٥]، فالآية على هذا التأويل وإن كان القصد في نزولها هذين الصنفين فهي تعم الكفرة والمؤمنين إلى يوم القيامة.

وقال قتادة أيضاً والحسن بن أبي الحسن: المراد بـ«القوم» من تقدم ذكره من الأنبياء والمؤمنين، وقال أبو رجاء: المراد الملائكة[٦].

والباء في ﴿بِهَا﴾ متعلقة بقوله: ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾ والباء في قوله: ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾ زائدة للتأكيد.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ الآية، الظاهر في الإشارة، بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أنها إلى المذكورين قبل من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين المهديين، ومعنى الاقتداء: اتباع الأثر في القول والفعل والسيرة، وإنما يصح اقتداؤه بجميعهم في العقود والإيمان والتوحيد الذي ليس بينهم فيه اختلاف، وأما أعمال الشرائع فمختلفة، وقد قال عز وجل: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ [المائدة: ٤٨]، ويحتمل أن تكون الإشارة بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَوۡمًا﴾.

---

(١) في الحمزوية: «المجادلين»، وفي المطبوع: «المعادين».

(٢) أخرجه الطبري (١٣٥٢٥) من طريق عطية العوفي، وابن أبي حاتم (٧٥٧١) من طريق علي بن أبي طلحة، كلاهما عن ابن عباس.

(٣) انظر قولي قتادة والسدي في تفسير الطبري (١١/ ٥١٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٣٨)، والهداية لمكي (٣/ ٢٠٩٥).

(٤) أخرجه الطبري (١٣٥٢٦)، وابن أبي حاتم (٧٥٧٤) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٥١٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٣٨)، والهداية لمكي (٣/ ٢٠٩٥).

(٦) انظر القولين في تفسير الطبري (١١/ ٥١٧)، وتفسير السمعاني (٢/ ١٢٤)، والهداية لمكي (٣/ ٢٠٩٥).

قال القاضي أبو محمد: وذلك يترتب على بعض التأويلات في المراد بالقوم ويقلق على بعضها.

قال القاضي ابن الباقلاني: واختلف الناس هل كان رسول الله ﷺ قبل مبعثه متعبَّداً بشرعِ مَن كان قبله؟: فقالت طائفة: كان متعبداً، واختلف بشرع من؟:

فقالت فرقة: بشرع إبراهيم، وفرقة: بشرع موسى، وفرقة: بشرع عيسى، وقالت طائفة بالوقف في ذلك، وقالت طائفة: لم يكن متعبداً بشرع من كان قبله، وهو الذي يترجح[1].

قال القاضي أبو محمد: ولا يحمل كلام القاضي على أنه لم يكن متعبداً بشرع من كان قبله في توحيد ولا معتقد، لأنَّا نجد شرعنا ينبئ أن الكفار الذين كانوا قبل النبي ﷺ كأبويه ﷺ وغيرهما في النار، ولا يدخل الله تعالى أحداً النار إلا بترك ما كلف، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وغير ذلك.

وقاعدة المتكلمين: أن العقل لا يوجب ولا يكلف وإنما يوجب الشرع.

فالوجه في هذا أن يقال: إنَّ آدم عليه السلام فمن بعده دعا إلى توحيد الله دعاء عامّاً، واستمرَّ ذلك على العالَم، فواجب على الآدمي البالغ أن يبحث على الشرع الآمر بتوحيد الله تعالى، وينظر في الأدلة المنصوبة على ذلك بحسب إيجاب الشرع النظرَ فيها، ويؤمن ولا يعبد غير الله، فمن فرضناه لم يجد سبيلاً إلى العلم بشرعٍ آمرٍ[2] بتوحيد الله، وهو / مع ذلك لم يكفر ولا عبد صنما بل تخلى، فأولئك أهل الفترات الذين أطلق عليهم أهل العلم أنهم في الجنة، وهم بمنزلة الأطفال والمجانين، ومن قصر في النظر والبحث فعبد صنماً وكفر فهذا تارك للواجب عليه مستوجب العقاب بالنار، فالنبي ﷺ قبل المبعث ومن كان معه من الناس وقبله مخاطبون على ألسنة الأنبياء قبل بتوحيد الله عز وجل، وغير مخاطبين بفروع شرائعهم؛ إذ هي مختلفة وإذ لم يَدْعهم إليها نبي. [٢/ ٩٨]

(١) انظر قول الباقلاني (الأخير) والأقوال الأخرى في: التلخيص في أصول الفقه للجويني (٢/ ٢٥٨-٢٥٩)، والبحر المحيط للزركشي (٨/ ٣٩-٤١).

(٢) في المطبوع: «آخر».

وأما بعد مبعث النبي ﷺ فهل هو وأمته مخاطبون بشرع من تقدَّم؟ فقالت فرقة: لسنا مخاطبين بشيء من ذلك، وقالت فرقة: نحن مخاطبون بشرع من قبلنا.

قال القاضي أبو محمد: ومن قال من هذه الطائفة: إن محمَّداً ﷺ وأمته مخاطبون بكل شرائع من تقدم على الإطلاق، فقد أحال؛ لأن أحكام الشرائع تأتي مختلفة، وإنما يتحدق[1] قول من قال منها: إنّا متعبدون بما صح نقله من شرائع من قبلنا ولم تختلف فيه الشرائع وبالآخِر مما اختلفت فيه؛ لأنه الناسخ المتقدم، ويُرتبط[2] في صحة نقل ذلك إلى ما وقع في القرآن في حديث رسول الله ﷺ من حكاية أحكام سالفة، كقوله تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ ﴾ [ص: ٤٤]، وكقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه: ١٤] وكحكاية تزويج شعيب ابنته لموسى عليهما السلام، وكحديث النبي ﷺ في قضية سليمان بين المرأتين في الولد[3]، ونحو ذلك.

ولا يقتضي قولُهم أكثر من جواز أن يتعبد بذلك، وأما وجوب أن يتعبد فغير لازم بوجه[4]، ولا تعلق عندي أشبه في ذلك من أن يقال: إن النبي ﷺ شَرَع لأمته أن يصلي الناس صلاته إذا ذكرها، ثم مثَّل في ذلك لا على طريق التعليل بقوله عز وجل لموسى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه: ١٤][5] فننقل نحن هذا إلى غير ذلك من النوازل، ونقول: إنه كما شرع عندنا ذلك المثال في نسيان الصلاة كذلك نشرع هذه الأمثلة كلها.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قياس ضعيف، ولو ذكر النبي ﷺ قوله تعالى:

---

(١) في الحمزوية: «ينحذف»، وفي نور العثمانية والمطبوع: «يتخذون»، وفي السليمانية وفيض الله: «يتحذق»، وهي في لالاليه غير واضحة.

(٢) في المطبوع: «ويرتكز».

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٠) من حديث أبي هريرة، وفي الحمزوية وفيض الله ولالاليه: «قصة».

(٤) زيادة من نور العثمانية والسليمانية وفيض الله.

(٥) أخرجه البخاري (٥٩٧) ومسلم (٦٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (٦٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ على جهة التعليل لكانت الحجة به قوية، ولا يصح أن يقال: يصح عندنا نقل ما في الشرائع من جهة من أسلم منهم كعبد الله بن سلام وغيره صحة نقلها، وكذلك ما شرعه الحواريون لا سبيل إلى صحة شرع عيسى عليه السلام له.

وقرأ ابن كثير وأهل مكة ونافع وأبو عمرو وأهل المدينة وعاصم: ﴿ٱقۡتَدِهۡ﴾ بهاء السكت ثابتة في الوقف والوصل، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿اقتدِ قُل﴾ بحذف الهاء في الوصل وإثباتها في الوقف، وهذا هو القياس، وهي تشبه ألف الوصل في أنها تقطع في الابتداء وتوصل غير مبتدأ بها، فكذلك هذه تثبت في الوقف وتحذف في الوصل.

وقرأ ابن عامر: ﴿اقتدهِ﴾ بكسر الهاء دون بلوغ الياء.

قال ابن مجاهد: وهذا غلطٌ لأنها هاء وقف لا تعرب على حال.

قال أبو علي: ووجه ذلك أن تكون ضمير المصدر، كأنه قال: اقتد الاقتداء[١].

وقرأ ابن ذكوان على هذه: ﴿اقتدهِ﴾ بإشباع الياء بعد الهاء[٢].

وقالت فرقة: إن كسر الهاء إنما هو في هاء السكت، كما قد تسكَّن هاء الضمير أحياناً.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، ولا تجوز عليه القراءة بإشباع الياء.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ الآية، المعنى: قل يا محمد لـهؤلاء الكفرة المعاندين: لا أسألكم على دعائي إياكم بالقرآن إلى عبادة الله وتوحيده أجرة أستكثر بها وأختص بدنياها، إنِ القرآنُ إلا موعظةٌ وذكرى ودعاء لجميع العالمين.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾.

---

(١) في الحجة لأبي علي الفارسي (٣/ ٣٥٣).

(٢) وكلها سبعية، انظر: السبعة في القراءات (ص: ٢٦٢)، والتيسير (ص: ١٠٤)، وفي السليمانية: «ابن كثير»، بدل: «ابن ذكوان».

الضمير في ﴿قَدْرِهِۦٓ﴾، و﴿قَالُوا۟﴾ قيل: يراد به العرب، قاله مجاهد وغيره، وقيل: يراد به بنو إسرائيل، قاله ابن عباس[١]، وقيل: رجل مخصوص منهم يقال له: مالك بن الصيف، قاله سعيد بن جبير، وقيل: في فنحاص، قاله السدي[٢].

و﴿قَدْرِهِۦٓ﴾ هو من توفية القدر والمنزلة، فهي عامة يدخل تحتها من لم يعرف ومن لم يعظم وغير ذلك، غير أن تعليله بقولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يقضي بأنهم جهلوا ولم يعرفوا الله حق معرفته إذ أحالوا عليه بعثة الرسل، و﴿حَقَّ﴾ نصب على المصدر[٣].

ومن قال: إن المراد كفار العرب، فيجيء الاحتجاج عليهم بقوله: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ احتجاجاً بأمر مشهور منقولٍ بكافةِ قومٍ لم تكن العرب مكذِّبة لهم، ومن قال: إن المراد بنو إسرائيل، فيجيء الاحتجاج عليهم مستقيماً؛ لأنهم يلتزمون صحة نزول الكتاب على موسى عليه السلام.

وروي أن مالك بن الصيف كان سميناً، فجاء يخاصم النبي ﷺ بزعمه فقال له رسول الله ﷺ: «أَنشُدكَ الله ألست تقرأ فيما أنزل على موسى: إن الله يبغض الحبر السمين؟»، فغضب وقال: ﴿والله مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[٤].

والآية على قول من قال: نزلت في قول بني إسرائيل، تلزم أن تكون مدنية، وكذلك حكى النقاش أنها مدنية[٥].

وقرأ الحسن وعيسى الثقفي وغيرهما: (ومَا قَدَّرُوا) بتشديد الدال (اللهَ حَقَّ قدَره)

---

(١) أخرجه الطبري (١٣٥٤٠)، وابن أبي حاتم (٧٥٩١-٧٥٩٣) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر الأقوال كلها في تفسير الطبري (١١/ ٥٢١)، وما بعدها.

(٣) في المطبوع: «المقدر».

(٤) مرسل، أخرجه الطبري (١٣٥٣٥)، وابن أبي حاتم (٧٥٩٧) عن سعيد بن جبير مرسلاً، وقد أخرجه الطبري (١٣٥٣٦) عن عكرمة مرسلاً.

(٥) البحر المحيط (٤/ ٥٨٠).

بفتح الدال[١]، وقرأ الجمهور في الأول بالتخفيف، وفي الثاني بإسكانه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية، أمره الله تعالى أن يستفهم على جهة التقرير على موضع الحجة، والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراة، و(نوراً) و(هدى) اسمان في موضع الحال بمعنى نيِّراً وهادياً، فإن جعلناه حالاً من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ فالعامل فيه ﴿أَنزَلَ﴾ وإن جعلناه حالاً من الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ فالعامل فيه ﴿جَآءَ﴾.

وقرأ جمهور الناس: / ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ﴾ بالتاء من فوق في [٢/ ٩٩] الأفعال الثلاثة، فمن رأى أن الاحتجاج على بني إسرائيل استقامت له هذه القراءة، وتناسقت مع قوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾، ومن رأى أن الاحتجاج إنما هو على كفار العرب فيضطر في هذه القراءة ـ إذ لا يمكن دفعها ـ[٢] إلى أن يقول: إنه خرج من مخاطبة قريش في استفهامهم وتقريرهم إلى مخاطبة بني إسرائيل بتوبيخهم وتوبيخ[٣] أفعالهم.

قال القاضي أبو محمد: وهذا مع بُعده أسهل من دفع القراءة، فكأنه على هذا التأويل قال لقريش: من أنزل الكتاب على موسى؟ ثم اعترض على بني إسرائيل فقال لهم خلال الكلام: تجعلونه أنتم يا بني إسرائيل قراطيس.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا ويُخفُونَ كَثِيراً﴾ بالياء في الأفعال الثلاثة[٤]، فمن رأى الاحتجاج على قريش رآه إخباراً من الله عز وجل بما فعلته اليهود في الكتاب، ويحتمل أن يكون الإخبار بذلك لقريش أو للنبي ﷺ وحده، وما أخبر به النبي ﷺ في القرآن فأمته متلقية ذلك.

---

(١) وهما شاذتان، عزا لهما الأولى ابن خالويه في مختصر الشواذ (ص: ٤٤)، وزاد أبا نوفل، وعزا الثانية لهم الكرماني في شواذ القراءات (ص: ١٧٢).

(٢) في المطبوع: «رفعها».

(٣) في السليمانية وفيض الله: «وبقبح»، وفي نجيبويه ولالاليه: «تقبيح».

(٤) والجمهور بالتاء، وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٠٤).

و﴿قَرَاطِيسَ﴾ جمع قرطاس، أي: بَطائق وأوراقاً، والمعنى: يجعلونه ذا قراطيس من حيث يكتب فيها، وتوبيخهم بالإبداء والإخفاء هو على إخفائهم آيات محمد ﷺ، والإخبار بنبوته، وجميع ما عليهم فيه حجة.

وقوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾؛ قال مجاهد وغيره: هي مخاطبة للعرب[١].

فالمعنى على هذا: قصد ذكر منة الله عليهم بذلك؛ أي: علِّمتم يا معشر العرب من الهدايات والتوحيد والإرشاد إلى الحق ما لم تكونوا عالمين به ولا آباؤكم.

قال القاضي أبو محمد: وقوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾ يصلح على هذا المعنى لمخاطبة من انتفع بالتعليم ومن لم ينتفع به، ويصح الامتنان بتعليم الصنفين، وليس مِن شرطِ مَن علِّم أن يَعْلَم ولا بدَّ، أما إن التعليم الكامل هو الذي يقع معه التعلم.

وقالت فرقة: بل هي مخاطبة لبني إسرائيل، والمعنى على هذا يترتب على وجهين:

أحدهما: أن يقصد به الامتنان عليهم وعلى آبائهم بأن عُلِّموا من دين الله وهداياته ما لم يكونوا عالمين به؛ لأن آباء المخاطبين من بني إسرائيل كانوا علِّموا أيضاً وعلم بعضهم، وليس ذلك في آباء العرب.

والوجه الآخر: أن يكون المقصود ذمهم؛ أي: وعلِّمتم أنتم وآباؤكم ما لم تَعْلموه بعد التعليم ولا انتفعتم به لإعراضكم وضلالكم.

ثم أمره تعالى بالمبادرة إلى موضع الحجة، أي: قل لهم: الله هو الذي أنزل الكتاب على موسى، ويحتمل أن يكون المعنى: فإن جهلوا أو تحيروا أو سألوا أو نحو هذا فقل: «الله»، ثم أمره بترك من كفر وأعرض، وهذه آية منسوخة بآية القتال إن تُؤوِّلت موادعة، وقد يحتمل أن لا يدخلها نسخ إذا جعلت تتضمن تهديداً ووعيداً مجرداً من موادعة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢١/ ٥٢٧).

و«الخوض»: الذهاب فيما لا تُسبر حقائقه، وأصله في الماء، ثم يستعمل في المعاني المشكلة الملتبسة، و﴿يَلْعَبُونَ﴾ في موضع الحال.

قوله عز وجل: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله: (هذا) إشارة إلى القرآن، و﴿مُبَارَكٌ﴾ صفة له، و﴿مُّصَدِّقُ﴾ كذلك، وحذف التنوين من ﴿مُّصَدِّقُ﴾ للإضافة وهي إضافة غير محضة لم يتعرف بها ﴿مُّصَدِّقُ﴾ ولذلك ساغ أن يكون وصفاً لنكرة، و﴿ٱلَّذِى﴾ في موضع المفعول، والعامل فيه مصدق.

ولا يصلح أن يكون ﴿مُّصَدِّقُ﴾ مع حذف التنوين منه يتسلط على ﴿ٱلَّذِى﴾، ويقدر حذف التنوين للالتقاء، وإنما جاء ذلك شاذّاً في الشعر في قوله:

[المتقارب]

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتِبٍ ... وَلَا ذَاكِرِ اللهَ إِلَّا قَلِيلا[1]

ولا يقاس عليه.

و﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هي حال التوراة والإنجيل؛ لأن ما تقدَّم فهو بين يدي ما تأخر.

وقالت فرقة: ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ القيامة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا غير صحيح؛ لأن القرآن هو بين يدي القيامة.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أنت يا محمد.

وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿ولينذر﴾ بالياء[2]، أي: القرآن بمواعظه وأوامره، واللام في (لِتُنذِر) متعلقة بفعل متأخر تقديره: ولتنذر أم القرى، ومَن حولها أنزلناه.

و﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكة سميت بذلك لوجوه أربعة:

منها: أنها منشأ الدين والشرع، ومنها: ما روي أن الأرض منها دحيت، ومنها:

---

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي كما تقدم في تفسير الآية (١٦٩) من سورة البقرة.

(٢) زيادة من السليمانية، وهي في لالاليه ملحقة في الهامش، والقراءتان سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٠٤).

أنها وسط الأرض وكالنقطة للقرى، ومنها: ما لحق عن الشرع من أنها قبلة كل قرية[١]، فهي لهذا كله أمٌّ وسائر القرى بنات، وتقدير الآية: لتنذر أهل أم القرى.

و(من حولها) يريد أهل سائر الأرض، و﴿حَوْلَهَا﴾ ظرفٌ العاملُ فيه فعل مضمر تقديره: ومن استقر حولها، ثم ابتدأ تبارك وتعالى مدح قومٍ، وصفهم وأخبر عنهم أنهم يؤمنون بالآخرة والبعث والنشور، ويُؤْمِنُونَ بالقرآن ويصدقون بحقيقته، ثم قوَّى عز وجل مدحهم بأنهم يحافظون على صلاتهم التي هي قاعدة العبادات وأم الطاعات.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن وأبو بكر عن عاصم: (صلواتهم) بالجمع[٢].

ومن قرأ بالإفراد فإنه مفرد يدل على الجميع، وإذا انضافت «الصلاة» إلى ضمير لم تكتب إلا بالألف، ولا تكتب في المصحف بواو إلا إذا لم تنضف إلى ضمير[٣].

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

هذه ألفاظ عامة، فكلُّ مَن واقَعَ شيئاً مما يدخل تحت هذه الألفاظ فهو داخلٌ في الظلم الذي قد عظمه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم، وقال قتادة وغيره: / المراد بهذه الآيات: مسيلمة، والأسود العنسي[٤]، وذكروا رؤية النبي ﷺ للسوارين[٥]. [٢/ ١٠٠]

---

(١) في السليمانية وفيض الله: «فرقة».

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها للحسن في الشواذ للكرماني (ص: ١٧٢)، ولرواية حسين الجعفي عن شعبة فيه، وفي الكامل (ص: ٥٤٤)، وزاد روايته عن أبي عمرو أيضاً، وليست من طرق التيسير.

(٣) انظر: المقنع للداني (ص: ٦٠).

(٤) هو عبهلة بن كعب، الأسود أول من ارتد بعد حجة الوداع، وكان شعباذاً يريهم الأعاجيب، ويسبي قلوب من يستمع منطقه، فوثب هو ومذحج بنجران إلى أن صار إلى صنعاء فأخذها، حتى صفا له ملك اليمن. تاريخ الإسلام (٣/ ١٥).

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٦٢١)، ومسلم (٢٢٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال السدي: المراد بها: عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري[١]، وكان يكتب للنبي ﷺ الوحي، وكان أخا عثمان بن عفان من الرضاعة فلما نزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]، [فقال ﷺ لابن أبي سرح: «اكتبها»][٢]، فقال عبد الله بن سعد من تلقاء نفسه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فقال له رسول الله ﷺ: «اكتبها فهكذا أنزلت»، فتوهم عبد الله ولحق بمكة مرتدّاً، وقال: أنا أنزل مثل ما أنزل الله[٣].

وروي عنه أيضاً أن النبي ﷺ ربما أملى عليه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فبدلها هو: «والله سميع عليم»، فقال النبي ﷺ: «ذلك سواء» ونحو هذا[٤].

وقال عكرمة: أولها في مسيلمة، والآخِر في عبد الله بن سعد بن أبي سرح[٥].

وذكر الزهراوي والمهدوي أن الآية نزلت في النضر بن الحارث؛ لأنه عارض القرآن بقوله: والزارعات زرعاً والخابزات خبزاً، إلى غير ذلك من السخافات[٦].

قال القاضي أبو محمد: فخصَّص المتأولون في هذه الآيات ذكر قوم قد يمكن أن كانوا أسباب نزولها، ثم هي إلى يوم القيامة تتناول مَن تعرض شيئاً من معانيها كطليحة

---

(١) القرشيّ من عامر بن لؤيّ، يكنى أبا يحيى، وكان أخا عثمان من الرضاعة، أسلم وكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثم ارتد، وأهدر دمه في فتح مكة، فأمنه عثمان، وأمّره على مصر، وله مواقف محمودة في الفتوح، ثم اعتزل الفتنة، وتوفي سنة (٣٦هـ)، الإصابة (٤/ ٩٤).

(٢) زيادة من السليمانية.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٥٣٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٤٦ و١٣٤٧)، وأسباب النزول للواحدي (ص ١٤٨).

(٤) مرسل، أخرجه الطبري (١٣٥٥٦)، وابن أبي حاتم (٧٦٢٦) عن السدي مرسلاً.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٥٣٣).

(٦) انظر: التحصيل (٢/ ٦٢٥)، ومثله في النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٤٤) عن عكرمة.

الأسدي[١] والمختار بن أبي عبيد[٢] وسواهما.

وقرأ الجمهور: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ﴾ بتخفيف النون، وقرأ أبو حيوة: (سأُنَـزِّل) بفتح النون وتشديد الزاي[٣].

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ الآية، جواب (لو) محذوف تقديره: لرأيت عجباً، أو هولاً ونحو هذا، وحذفُ هذا الجواب أبلغ من نصه؛ لأنَّ السامعَ إذا لم يُنص له الجواب يترك مع غاية تخيله، و﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ لفظ عام لمن واقع ما تقدم ذكره وغير ذلك من أنواع الظلم الذي هو كفر.

و«الغمرات» جمع غمرة، وهي المصيبة المبهمة المذهلة، وهي مشبَّهة بغمرة الماء، ومنه قول الشاعر:

وَلَا يُـنْجِـي مِـنَ الْـغَمَـرَاتِ إِلا بَرَاكَـاءُ الـقِـتَـالِ أَوِ الـفِـرَارُ[٤] [الوافر]

و(الملائكة) ملائكة قبض الروح.

و﴿بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن مدها بالمكروه، كما قال تعالى حكاية عن ابني آدم: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى﴾ [المائدة: ٢٨].

وهذا المكروه هو لا محالة أوائلُ عذابٍ وأماراته، قال ابن عباس: يضربون وجوههم

---

(١) طليحة بن خويلد بن نوفل الأسدي، أسلم سنة تسع، ثم ارتد وتنبأ بنجد وحارب المسلمين، ثم انهزم، فلما توفي الصديق تاب وحسن إسلامه وشهد القادسية، وكان طليحة يعد بألف فارس لشجاعته وشدته، واستشهد بنهاوند. تاريخ الإسلام (٣/ ٢٣٠).

(٢) المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب، الذي خرج بالكوفة، وتتبع قتلة الحسين يقتلهم، وقال النبي ﷺ: «يكون في ثقيف كذاب ومبير» فكان أحدهما المختار، كذب على الله وادعى أن الوحي يأتيه، والآخر: الحجاج، قتل سنة (٦٧هـ). تاريخ الإسلام (٥/ ٢٢٦).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ١٨٤).

(٤) البيت لبشر بن أبي خازم كما في الاختيارين للأخفش (١/ ٩٦)، والأغاني (١٥/ ٩٢)، والمفضليات (١/ ٦١)، والصحاح (٤/ ٢٦١)، وتهذيب اللغة (٣/ ٣٧٣)، وبَراكاءُ القتال: شدته، أو ساحة الحرب، أو حيث يبتركون، أي: يجثون على ركبهم.

وأدبارهم[١]، وأما البسط لمجرد قبض النفس فإنه يشترك فيه الصالحون والكفرة، وقيل: إن المراد بسط الأيدي في جهنم، والغمرات كذلك، لكنهم لا يقضى عليهم فيموتوا.

وقوله: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ حكاية لـمَا تقوله الملائكة، والتقدير: يقولون: أخرجوا أنفسكم، ويحتمل قول الملائكة ذلك أن يريدوا: فأخرجوا أنفسكم من هذه المصائب والمحن وخلصوها إن كان ما زعمتموه حقّاً في الدنيا، وفي ذلك توبيخ وتوقيف على سالف فعلهم القبيح، قال الحسن: هذا التوبيخ على هذا الوجه هو في جهنم[٢].

ويحتمل أن يكون ذلك على معنى الزجر والإهانة، كما يقول الرجل لمن يقهره بنفسه على أمر ما: افعل كذا، لذلك[٣] الأمر الذي هو يتناوله بنفسه منه على جهة الإهانة وإدخال الرعب عليه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ الآية، هذه حكاية عن قول الملائكة للكفرة عند قبض أرواحهم، و﴿ٱلْهُونِ﴾: الهوان، ومنه قول ذي الأصبع:

إِلَـيْـكَ عَـنِّـي فَـمَـا أُمِّـي بِـرَاعِـيَـةٍ تَرْعَى الْمَخَاضَ وَلَا أُغْضِي عَلَى الْهُونِ[٤] [البسيط]

وقرأ عبد الله بن مسعود وعكرمة: (عذاب الهَوَان) بالألف[٥].

وقوله تعالى: ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ لفظ جامع لكل نوع من الكفر، ولكنه يظهر منه ومن قوله: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ الإنحاءُ على مَن قرب ذكره من هؤلاء الذين ادعوا الوحي وأن ينزلوا مثل ما أنزل الله، فإنها أفعال بيِّن فيها قولُ غير الحق على الله، وبُيِّن فيها الاستكبار.

---

(١) أخرجه الطبري (١٣٥٦٣)، وابن أبي حاتم (٧٦٣٥) من طريق علي بن أبي طلحة، وأخرجه الطبري (١٣٥٦٤) من طريق عطية العوفي كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: النكت والعيون للماوردي (٢/ ١٤٥).

(٣) في السليمانية: «افعل ذلك لذلك»، وفي لالاليه: «كذلك لذلك»، وفي الأصل: «افعل كذلك الأمر».

(٤) عزاه له تفسير الطبري (١١/ ٥٤٢)، وتفسير الماوردى (٢/ ١٤٥).

(٥) وهي قراءة شاذة، تابعه عليها في البحر المحيط (٤/ ٥٨٦).

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

هذه حكاية عمَّا يقال لهم بعد قبض أرواحهم، فإما عند خروجها من الأجساد، وإما يوم القيامة، كل ذلك محتمل، و﴿فُرَادَىٰ﴾ معناه: فرداً فرداً، والألف في آخره ألف تأنيث، ومنه قول الشاعر:

[الطويل] تَـرَى النُّعَرَاتِ الـزُّرْقَ تَحْـتَ لَـبَانِهِ ... فُـرَادَى وَمَثْنَى أَصْعَقَتْهَا صَوَاهِلُهْ[1]

وقرأ أبو حيوة: (فرادىً) منوناً على وزن فعال[2]، وهي لغة تميم.

و﴿فُرَادَىٰ﴾ قيل: هو جمع فرَد بفتح الراء، وقيل: جمع فرْد بإسكان الراء.

والمقصد في الآية توقيف الكفار على انفرادهم وقلة النصير، واحتياجهم إلى الله عز وجل بفقد الخول والشفعاء، فيكون قوله: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تشبيهاً بالانفراد الأول في وقت الخلقة، ويتوجه معنى آخر وهو أن يتضمن قوله: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ زيادة معان على الانفراد، كأنه قال: ولقد جئتمونا فرادى وبأحوال كذا، والإشارة على هذا بقوله ﴿كَمَا﴾ هي إلى ما قاله النبي ﷺ في صفة من يحشر أنهم يحشرون حفاة عراة غرلاً[3].

و﴿خَوَّلْنَاكُمْ﴾ معناه: أعطيناكم، وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد بيت زهير:

[الطويل] هُنَالِكَ إِنْ يُسْـتَخْوَلُوا الْمَالَ يُخوِلُوا ... وَإِن يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا[4]

---

(١) البيت لتميم بن أُبي بن مقبل كما في تفسير الطبري (٧/ ٥٤٣)، والصحاح للجوهري (٢/ ٨٣٢)، وإصلاح المنطق (ص: ١٥٣)، وتهذيب اللغة (٢/ ٢٠٦)، والحيوان (٧/ ١٣٧)، والنُّعَرَةُ مثال الهُمَزَة: ذباب ضخم، وفي المطبوع وبعض النسخ: «أضعفتها».

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها له في الهداية لمكي (٣/ ٢١٠٧)، والشواذ للكرماني (ص: ١٧٢).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم (٢٨٥٩) من حديث عائشة.

(٤) انظر عزوه له مع إنشاد أبي عمرو في مجاز القرآن (٢/ ١٨٨)، وتفسير الطبري (١١/ ٥٤٦)، وغيرهما.

و﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡ﴾ إشارة إلى الدنيا؛ لأنهم يتركون ذلك موجوداً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ﴾ الآية، توقيف على الخطأ في عبادة الأصنام وتعظيمها.

قال الطبري: وروي أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث؛ لأنه قال: سوف تشفع لي اللات والعزى(١).

قال القاضي أبو محمد: ومن كان من العرب يعتقد أنها تشفع وتقرِّب إلى الله زلفى ويرى(٢) شركتها بهذا الوجه، فمخاطبته بالآية متمكن وهكذا كان الأكثر، ومن كان منهم لا يقر بإله غيرها فليس هو في هذه الآية.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر، وحمزة: ﴿بينُكم﴾ بالرفع.

وقرأ نافع والكسائي: ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ بالنصب(٣)، أما الرفع فعلى وجوه:

أُولاها: أنه الظرف استعمل اسماً وأسند إليه الفعل، كما قد استعملوه اسماً في قوله تعالى: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصّلت: ٥] وكقولهم فيما حكى سيبويه: أحمر بين العينين(٤)، ورجح هذا القول أبو علي الفارسي(٥).

والوجه الآخر: أن بعض المفسرين منهم الزهراوي والمهدوي وأبو الفتح وسواهم حكوا أنَّ البيْن في اللغة / يقال على الافتراق وعلى الوصل، فكأنه قال: لقد تقطع وصلكم(٦). [٢/ ١٠١]

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٥٤٧).

(٢) زاد في السليمانية هنا: «زلفتها إلى الله».

(٣) وهما سبعيتان، إلا أن حفصاً روى النصب، انظر: التيسير (ص: ١٠٥)، والسبعة في القراءات (ص: ٢٦٣).

(٤) الكتاب لسيبويه (١/ ١٩٥).

(٥) الحجة لأبي علي الفارسي (٣/ ٣٥٨).

(٦) المحتسب (٢/ ١٩٠)، والتحصيل (٢/ ٦٣٧).

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا عندي اعتراض؛ لأن ذلك لم يرو مسموعاً عن العرب، وإنما انتزع من الآية، والآية محتملة.

قال الخليل في «العين»: والبين: الوصل، لقوله عز وجل: ﴿لَقَد تَقَطَّع بينُكم﴾ فعلل سوق اللفظة بالآية[١]، والآية معرضة لغير ذلك، أمَا إن أبا الفتح قوَّى أن البين: الوصل، قال: وقد أتقن ذلك بعض المحدثين بقوله: قد أَنصف البينُ من البين[٢].

والوجه الثالث من وجوه الرفع: أن يكون البين على أصله في الفرقة من بان يبين: إذا بعد، ويكون في قوله: ﴿تَّقَطَّعَ﴾ تجوُّز على نحو ما يقال في الأمر البعيد في المسافة: تقطعت الفجاج بين كذا وكذا، عبارة عن بُعد ذلك، ويكون المقصد: لقد تقطعت المسافة بينكم لطولها فعبر عن ذلك بـ«البين» الذي هو الفرقة.

وأما وجه قراءة النصب: فأن يكون ظرفاً، ويكون الفعل مستنداً إلى شيء محذوف تقديره: لقد تقطع الاتصال ـ أو الارتباط ـ بينكم، أو نحو هذا.

قال القاضي أبو محمد: وهذا وجه واضحٌ وعليه فسره الناس: مجاهدٌ والسدي وغيرهما[٣]. وجه آخر يراه أبو الحسن الأخفش، وهو أن يكون الفعل مسنداً إلى الظرف ويبقى الظرف على حال نصبه وهو في النية مرفوع، ومثل هذا عنده قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن: ١١].

وقرأ ابن مسعود ومجاهد والأعمش: (تقطع ما بينكم) بزيادة (ما)[٤].

و(ضَلَّ) معناه: تلف وذهب.

---

(١) العين (٨/ ٣٨٠).

(٢) ولفظه في المحتسب (٢/ ١٩٠): ونظر بعض المولَّدين إلى حديث بين فقال: انتصَرَ البينُ من البَين... واشتَفَتِ العينُ مِنَ العَينِ.

(٣) تفسير الطبري (١١/ ٥٤٨و٥٤٩).

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لابن مسعود في معاني القرآن للفراء (١/ ٣٤٥)، والمصاحف (١/ ١٧٦)، وتفسير الثعلبي (٤/ ١٧١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٤٧)، والحجة لابن خالويه (١/ ١٤٥)، وللباقين في البحر المحيط (٤/ ٥٨٩).

و﴿مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يريد دعواهم أنها تشفع وتشارك الله في الألوهية.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

هذا ابتداء تنبيه على العبرة والنظر، ويتصل المعنى بما قبله؛ لأن القصد: إن الله، لا هذه الأصنام.

وقال مجاهد وأبو مالك: هذه إشارة إلى الشق الذي في حبة البر ونواة التمر.

قال القاضي أبو محمد: والعبرة على هذا القول مخصوصة في بعض الحب وبعض النوى، وليس لذلك وجه.

وقال الضحاك وقتادة والسدي وغيرهم: هذه إشارة إلى فعل الله في أن يشقَّ جميع الحب عن جميع النبات الذي يكون منه، ويشق النوى عن جميع الأشجار الكائنة عنه.

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو الظاهر الذي يعطي العبرة التامة، فسبحان الخلَّاق العليم.

وقال الضحاك: ﴿فَالِقُ﴾ بمعنى: خالق.

وقال السدي وأبو مالك: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ إشارة إلى إخراج النبات الأخضر والشجر الأخضر من الحب اليابس والنوى اليابس، فكأنه جعل الخضرة والنضارة حياة واليبس موتاً، و(مخرجُ الميتِ من الحيِّ) إشارة إلى إخراج الحب اليابس من النبات والشجر[1].

وقال ابن عباس وغيره: بل ذلك كله إشارة إلى إخراج الإنسان الحي من النطفة

(١) انظر هذه الأقوال الأربعة كلها في تفسير الطبري (١١/ ٥٥١-٥٥٣)، وبعضها في تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٥١).

الميتة وإخراج النطفة الميتة من الإنسان الحي[١]، وكذلك سائر الحيوان والطير من البيض والحوت وجميع الحيوان.

قال القاضي أبو محمد: وهذا القول أرجح، وإنما تعلق قائلو القول الأول بتناسب تأويلهم مع قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ وهما على هذا التأويل الراجح معنيان متباينان فيهما معتبر.

وقال الحسن: المعنى: يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن[٢].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ ابتداء وخبر متضمن التنبيه.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: تُصرفون وتُصدُّون.

و﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ أي: شاقُّه ومُظْهِره، والفلق: الصبح.

وقرأ الجمهور: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ بكسر الهمزة.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن وعيسى ابن عمر وأبو رجاء: (فالق الأصباح) بفتح الهمزة[٣] جمع صبح.

وقرأت فرقة: (فالقُ الإصباحَ) بحذف التنوين من (فَالِقُ) لالتقاء الساكنين، ونصب (الإصباحَ) بـ(فَالِقُ) كأنه أراد: فالقٌ الإصباحَ، بتنوين القاف، وهذه قراءة شاذة[٤]، وإنما جوز سيبويه مثل هذا في الشعر وأنشد عليه:

فَأَلْفَيْتُهُ غير مُسْتَعْتِبٍ ... ولا ذَاكِرِ اللهَ إِلَّا قَلِيلا[٥] [المتقارب]

---

(١) أخرجه الطبري (١٣٥٩٤) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧٦٥٨) من طريق السدي عمن حدثه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٣٠٧ و٣٠٨ و٢٠/ ٨٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٢٧)، والهداية لمكي (٩/ ٥٦٧٥).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: تفسير الطبري (١١/ ٥٥٦)، والهداية لمكي (٣/ ٢١١٢)، ومختصر الشواذ (ص: ٤٥).

(٤) وبها قرأ إبراهيم النخعي، انظر: الهداية لمكي (٣/ ٢١١٢).

(٥) الكتاب لسيبويه (١/ ١٦٩)، والبيت لأبي الأسود الدؤلي تقدم الاستشهاد به والتعليق عليه مراراً.

وحكى النحاس[١] عن المبرد جواز ذلك في الكلام[٢].

وقرأ أبو حيوة وإبراهيم النخعي ويحيى بن وثاب: (فلَق الإصباحَ) بفعل ماض[٣].

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر: ﴿وجاعلُ الليلِ﴾.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ﴾[٤]، وهذا لـمَّـا كان ﴿فَالِقُ﴾ بمعنى الماضي فكأن اللفظ: فلق الإصباح وجعل، ويؤيد ذلك نصب ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ و(القمر).

وقرأ الجمهور: ﴿سَكَنًا﴾، وروي عن يعقوب: (ساكِناً).

قال أبو عمرو الداني: ولا يصح ذلك عنه[٥]، ونصبه بفعل مضمر إذا قرأنا: ﴿وجاعلُ﴾ لأنه بمعنى المضي، وتقدير الفعل المضمر: وجاعلُ الليلِ يجعلُه سكناً، وهذا مثل قولك: هذا معطي زيدٍ أمسِ درهماً، والذي حكاه أبو علي في هذا أنه ينتصب بما في الكلام من معنى معطي.

قرأ أبو حيوة: (والشمسِ والقمرِ) بالخفض[٦] عطفاً على لفظ: ﴿الليلِ﴾.

و﴿حُسۡبَانًا﴾ جمع حساب، كشهبان في جمع شهاب، أي: تجري بحساب، هذا

---

(١) في السليمانية وفيض الله: «النقاش»، ولعلها أصوب فالنحاس لم يذكر ذلك في إعراب القرآن ولا معانيه، ولم ينقله عنه تابعو المؤلف.

(٢) انظر كلام المبرد في هذا الباب في «المقتضب» (٢/ ٣١٢) فما بعدها.

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: تفسير الثعلبي (٤/ ١٧٢)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٣).

(٤) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٠٥).

(٥) وهي شاذة، عزاها لرواية رويس عنه القرطبي (٧/ ٤٥)، وليست من طرق النشر، وانظر قول الداني في البحر المحيط (٤/ ٥٩٤).

(٦) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها له في الكامل للهذلي (ص: ٥٤٤)، والشواذ للكرماني (ص: ١٧٣)، وزاد يزيد بن قطيب السكوني.

قول ابن عباس[١] والسدي وقتادة ومجاهد[٢]، وقال مجاهد في «صحيح البخاري»: المراد: حسبان كحسبان الرحى[٣]، وهو الدولاب والعود الذي عليه دورانه.

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

هذه المخاطبة تعم المؤمنين والكافرين، فالحجة بها على الكافرين قائمة، والعبرة بها للمؤمنين ممكنة متعرضة، و﴿جَعَلَ﴾ هنا بمعنى خلق؛ لدخولها على مفعول واحد، وقد يمكن أن تكون بمعنى صيَّر، ويقدر المفعول الثاني في ﴿لِتَهْتَدُوا۟﴾ لأنه يقدر: وهو الذي جعل لكم النجوم هداية.

و﴿فِى ظُلُمَٰتِ﴾ هي هاهنا على حقيقتها في ظلمة الليل بقرينة النجوم التي لا تكون إلا بالليل، ويصح أن تكون الظلمات هاهنا الشدائد في المواضع التي يتفق أن يهتدى فيها بالشمس، وذَكَر الله تعالى النجوم في ثلاث منافع[٤]، وهي قوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]،/ وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، فالواجب أن يعتقد أن ما عدا هذه الوجوه[٥] من قول أهل التأثير باطل واختلاق على الله وكفر به. [٢/ ١٠٢]

---

(١) أخرجه الطبري (١٣٦٠٥)، وابن أبي حاتم (٧٦٧٧) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٥٥٨ و٥٥٩).

(٣) ذكره البخاري معلقاً في كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر، قال مجاهد: كحسبان الرحى، قال الحافظ في فتح الباري (٦/ ٢٩٨): وصله الفريابي في تفسيره من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) في السليمانية وفيض الله: «مواضع».

(٥) في المطبوع: «هذا الوجه».

و﴿فَصَّلْنَا﴾ معناه: بيَّنا وقسمنا، و﴿ٱلْآيَـٰتِ﴾: الدلائل، و﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تخصيص لهم بالذكر، وتنبيه منهم لتحصيلهم الآيات المفصَّلة المنصوبة، وغيرهم تمر عليهم الآيات وهم معرِضون عنها.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ الآية، الإنشاء: ابتداء فعل الشيء، و﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يريد آدم عليه السلام.

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ بفتح القاف على أنه موضع استقرار، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿فمستقِر﴾ بكسر القاف[1] على أنه اسم فاعل.

وأجمعوا على فتح الدال من (مستودع) بأن يقدر: موضع استيداع، وأن يقدر أيضاً مفعولاً، ولا يصح ذلك في (مستقَر) لأن استقر لا يتعدى فيبنى منه مفعول.

أما إنه روى هارون الأعور عن أبي عمرو: (ومستودِع) بكسر الدال[2].

فمن قرأ: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ على أنها موضع استقرار وموضع استيداع علَّقها بمجرور تقديره: فلكم مستقَر ومستودَع.

ومن قرأ: ﴿فمستقِرٌّ ومستودَعٌ﴾ على اسم الفاعل في (مستقِر) واسم المفعول في (مستودَع) علَّقها بمجرور تقديره: فمنكم مستقِر ومستودَع.

واضطرب المتأولون في معنى هذا الاستقرار والاستيداع:

فقال الجمهور: مستقَر في الرحم ومستودَع في ظهور الآباء حتى يقضي الله بخروجهم، وقال ابن عون[3]: مشيت إلى منزل إبراهيم النخعي وهو مريض، فقالوا:

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٠٥)، والسبعة في القراءات (ص: ٢٦٣).

(٢) وهي قراءة شاذة، تابعه عليها في البحر المحيط (٤/ ٥٩٦)، وقد نقل كافة المؤلفين في القراءات الاتفاق على الفتح فيها.

(٣) هو عبد الله بن عون بن أرطبان، أبو عون المزني مولاهم البصري، الحافظ أحد الأئمة الأعلام، روى عن سعيد بن جبير وأبي وائل وخلق سواهم، وعنه حماد بن زيد وخلق كثير، وقال ابن معين: ثقة في كل شيء، توفي سنة (١٥١هـ). تاريخ الإسلام (٩/ ٤٦٠).

قد توفِّي، فأخبرني بعضهم أن عبد الرحمن بن الأسود[١] سأله عن (مستقر ومستودع)، فقال: مستقَر في الرحم ومستودَع في الصلب.

وقال الحسن بن أبي الحسن: مستقَر في القبور ومستودَع في الدنيا[٢].

وقال ابن عباس: المستقر الأرض، والمستودع عند الرحمن[٣].

وقال ابن جبير: المستودع في الصلب والمستقر في الآخرة[٤].

والذي يقتضيه النظر أن ابن آدم هو مستودَع في ظهر أبيه وليس بمستقِر فيه استقراراً مطلقاً؛ لأنه ينتقل لا محالة، ثم ينتقل إلى الرحم، ثم ينتقل إلى الدنيا، ثم ينتقل إلى القبر، ثم ينتقل إلى المحشر، ثم ينتقل إلى الجنة أو النار فيستقر في أحدهما استقراراً مطلقاً، وليس فيها مستودع لأنه لا نُقلة له بعد، وهو في كل رتبة متوسطة بين هذين الطرفين مستقِر بالإضافة إلى التي قبلها ومستودَع بالإضافة إلى التي بعدها؛ لأن لفظ الوديعة يقتضي فيها نُقلة ولا بدَّ.

و﴿يَفْقَهُونَ﴾ معناه: يفهمون، وقد تقدم تفسير مثل هذا آنفاً.

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

---

(١) عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد بن قيس، أبو حفص النخعي الكوفي، يروي عن: أبيه، وعمه علقمة ابن قيس، وعائشة، وابن الزبير، وعنه: الأعمش، وإسماعيل بن خالد، ومحمد بن إسحاق، وكان فقيهاً عابداً ثقة فاضلاً، توفي سنة (٩٨هـ). تاريخ الإسلام (٦/ ٤١٢).

(٢) انظر قول ابن عون في تفسير الطبري (١١/ ٥٦٩) وقول الحسن فيه (١١/ ٥٧١).

(٣) أخرجه الطبري (١٣٦٢٢) من طريق: يحيى بن يمان، عن سفيان، عن المغيرة، عن أبي الجبر بن تميم بن حذلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأبو الجبر فيه جهالة، وفي المطبوع: «الرحم»، بدل «الرحمن».

(٤) انظر قول ابن جبير في تفسير الطبري (١١/ ٥٦٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٥٦)، ووقع في لالاليه: «ابن جريج»، وهو خطأ، وفي هامشه «ابن عباس أيضاً وابن جبير»، وفي الحمزوية: «في الدنيا»، بدل «الصلب».

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في هذا الموضع السحاب، وكل ما أظلك فهو سماء، و﴿مَآءً﴾ أصله مَوَه، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فجاء: ماه، فبدلت الهاء بالهمزة لجلَد الهمزة؛ لأن الألف والهاء ضعيفان مهموسان.

وقوله: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال بعض المفسرين: أي: مما ينبت، وحسن إطلاق العموم في ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ لأنَّ ذكر النبات قبله قد قيَّد المقصد.

وقال الطبري: والمراد بـ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ ما ينمو من جميع الحيوانات والنبات والمعادن وغير ذلك، لأن ذلك كله يتغذى وينمو بنزول الماء من السماء[١].

والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ يعود على النبات، وفي الثاني يعود على الخضر.

و﴿خَضِرًا﴾ بمعنى: أخضر، ومنه قوله ﷺ: «الدنيا خضرة حلوة»[٢] بمعنى: خضراء.

قال القاضي أبو محمد: وكأن[٣] ﴿خَضِرًا﴾ إنما يأتي أبداً لمعنى النضارة وليس للَّون فيه مدخل، وأخضر إنما تمكُّنه في اللون، وهو في النضارة تجوُّز.

وقوله: ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ يعم جميع السنابل وما شاكلها، كالصنوبر والرمان وغيرها من جميع النبات.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾ تقديره: ونخرج من النخل ﴿مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ ابتداءٌ خبره مقدم، والجملة في موضع المفعول بـ﴿نُّخْرِجُ﴾ والطلع: أول ما يخرج من النخلة في أكمامه، و﴿قِنْوَانٌ﴾ جمع قِنْو: وهو العذق بكسر العين وهي الكِبَاسة، والعرجون عوده الذي فيه ينتظم التمر.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٥٧٣)، ولفظة: «قال الطبري» ليست في الأصل.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (١٤٦٥)، ومسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري، واللفظ لمسلم.

(٣) في المطبوع: «وكان».

قرأ الأعرج: (قَنْوان) بفتح القاف[١]، وقال أبو الفتح: ينبغي أن يكون اسماً للجمع غير مكسر؛ لأن فَعلان ليس من أمثلة الجمع، قال المهدوي: وروي عن الأعرج ضم القاف[٢]، وذلك على أنه جمع قنو بضم القاف، قال الفراء: وهي لغة قيس وأهل الحجاز، والكسر أشهر في العرب، وقِنْو يثنى قِنْوان ويجمع قِنْوان[٣] منصرفة النون.

و﴿دَانِيَةٌ﴾ معناه: قريبة من المتناول، قاله ابن عباس[٤] والبراء بن عازب[٥] والضحاك[٦]، وقيل: قريبة بعضها من بعض.

وقرأ الجمهور: ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ بنصب جنات عطفاً على قوله: ﴿نَبَاتَ﴾، وقرأ الأعمش ومحمد بن أبي ليلى[٧]، ورويت عن أبي بكر عن عاصم: (وجناتٌ) بالرفع[٨] على تقدير: ولكم جنات، أو نحو هذا، وقال الطبري: وهو عطف على ﴿قِنْوَانٌ﴾[٩].

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها له مع توجيهها في المحتسب (١/ ٢٢٣)، وانظر أيضاً مختصر الشواذ (ص: ٤٤).

(٢) وهي قراءة شاذة، انظرها في التحصيل (٢/ ٦٣١)، وتفسير الثعلبي (٤/ ١٧٤).

(٣) سقط من المطبوع: «ويجمع قنوان».

(٤) أخرجه الطبري (١٣٦٦٢)، وابن أبي حاتم (٧٧٠٥) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه الطبري (١٣٦٦٥- ١٣٦٦٦)، وابن أبي حاتم (٧٧٠٩) من طريق: سفيان، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب رضي الله عنهما. ورجاله ثقات.

(٦) تفسير الطبري (١١/ ٥٧٦).

(٧) هو محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى أبو عبد الرحمن الأنصاري الكوفي قاضي الكوفة وفقيهها وعالمها ومقرئها في زمانه، كان فقيهاً صدوقاً صاحب سنة جائز الحديث قارئاً عالماً بالقرآن، توفي سنة ١٤٨هـ. تاريخ الإسلام (٩/ ٢٧٥).

(٨) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لهم في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٤)، وهي رواية الشموني وابن غالب ومحمد بن إبراهيم عن الأعشى، وحسين وأبي الأسباط عن ابن أبي حمّاد عن أبي بكر عن عاصم، كما في جامع البيان (٣/ ١٠٥٦)، وليست من طرق النشر.

(٩) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٥٧٧).

قال القاضي أبو محمد: وقوله ضعيف.

و(الزيتون والرمان) بالنصب إجماعاً عطفاً على قوله: ﴿حَبًّا﴾.

و﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ قال قتادة: معناه: تتشابه في الورق[1] وتتباين في الثمر، وقال الطبري: جائز أن تتشابه في الثمر وتتباين في الطعم، ويحتمل أن يريد: تتشابه في الطعم وتتباين في المنظر، وهذه الأحوال موجودة بالاعتبار في أنواع الثمرات.

وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾ وهو نظرُ بصرٍ تتركب[2] عليه فكرةُ قلبٍ.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم: ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ بفتح الثاء والميم، وهو جمع ثمرة كبقرة وبقر وشجرة وشجر.

وقرأ يحيى بن وثاب ومجاهد: ﴿إلى ثُمُره﴾ / بضم الثاء والميم[3]، قالا: وهي أصناف المال[4]. [٢/ ١٠٣]

قال القاضي أبو محمد: كأن المعنى: انظروا إلى الأموال التي تتحصل منه، وهي قراءة حمزة والكسائي، قال أبو علي: والأحسن فيه أن يكون جمع ثمرة، كخشبة وخشب وأكمة وأكم[5]، ومنه قول الشاعر:

.... تَـرَى الأُكْمَ فِيه سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ[6] [الطويل]

---

(١) في المطبوع والأصل: «اللون»، والمثبت هو الموافق لما في تفسير الطبري (١١/ ٥٧٨)، انظره فيه مع قول الطبري الآتي.

(٢) في الحمزوية ولالاليه: «متركب»، وفي المطبوع: «يترتب»، وفي الأصل: «ثم كتب».

(٣) أبعد النجعة، فهما سبعيتان وبالثانية قرأ حمزة والكسائي انظر: التيسير (ص: ١٠٥)، وانظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٤).

(٤) انظر قراءة ابن وثاب وقوله من رواية الأعمش عنه في تفسير الطبري (١١/ ٥٧٩)، وانظر: إتحاف فضلاء البشر (ص: ٢٧٠).

(٥) الحجة لأبي علي الفارسي (٣/ ٣٦٦).

(٦) لزيد الخيل، وصدره بجمعٍ تَضلُّ البُلْق في حَجَراته، تقدم في تفسير الآيات ٣٤، ٥٦، ٧٤ من سورة البقرة.

نظيره في المعتل: لابة ولوب وناقة ونوق وساحة وسوح، ويجوز أن يكون جمع جمع، فتقول: ثمرة وثمار وثمر، مثل حمار وحمر.

وقرأت فرقة: (إلى ثُمْره) بضم الثاء وإسكان الميم[١] كأنها ذهبت إلى طلب الخفة في تسكين الميم، والثمر في اللغة: جنى الشجرِ وما يطلع، وإن سمي الشجر ثماراً فتجوُّز.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيَنْعِهِۦ﴾ بفتح الياء، وهو مصدر ينَع يينِع إذا نضج، يقال: ينع وأينع، وبالنضج فسر ابن عباس هذه الآية[٢]، ومنه قول الحجاج: إني لأرى رؤوساً قد أينعت[٣]، وقد يستعمل ينع بمعنى: استقل واخضر ناضراً، ومنه قول الشاعر:

[المديد] فِـي قِـبَـابٍ حَـوْلَ دَسْـكَـرَةٍ ... حَـوْلَـهَـا الزَّيْـتُـونُ قَـدْ يَنَعَـا[٤]

وقيل في (ينعه): إنه جمع يانع مثل تاجر وتجر وراكب وركب، ذكره الطبري[٥].

وقرأ ابن محيصن وقتادة والضحاك: (ويُنعه) بضم الياء[٦]، أي: نضجه.

وقرأ ابن أبي عبلة واليماني: (ويانعه)[٧].

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمۡ لَأَيَٰتٍ﴾ إيجاب تنبيه وتذكير، وتقدم تفسير مثله.

---

(١) وهي قراءة شاذة، روي أن الأعمش كان يقرأ بها، انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٤).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣٧٦٣-١٣٦٧٤-١٣٦٧٩) من طرق يقوي بعضها بعضا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: معاني القرآن للنحاس (٢/ ٤٦٥)، وكتاب العين (٥/ ١٠٥)، والبيان والتبيين (١/ ٣٦٦).

(٤) قال الزجاج في معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٢٧٧) والمبرد في الكامل (١/ ٣٠١): قال أبو عبيدة: هذا الشعر ليزيد بن معاوية أو للأحوص، زاد في لسان العرب (٨/ ٤١٥) أو عبد الرحمن بن حسان، وفي نفح الطيب (١/ ٦٦٤) أنه لعدي بن زيد يصف صنعاء.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٥٨٠).

(٦) وهي قراءة شاذة، انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٤)، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي (٣/ ٢١١٨).

(٧) وهي قراءة شاذة، انظر: تفسير الطبري (١١/ ٥٨٠)، وتفسير الثعلبي (٤/ ١٧٥)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٤).

قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

(جَعَلوا) بمعنى: صيروا، و﴿ٱلْجِنَّ﴾ مفعول و﴿شُرَكَآءَ﴾ مفعول ثان مقدم. ويصح أن يكون قوله: ﴿شُرَكَآءَ﴾ مفعولاً أولاً و﴿لِلَّهِ﴾ في موضع المفعول الثاني، و﴿ٱلْجِنَّ﴾ بدل من قوله: ﴿شُرَكَآءَ﴾.

وهذه الآية مشيرة إلى العادلين بالله والقائلين: إن الجن تعلم الغيب العابدين للجن، وكانت طوائف من العرب تفعل ذلك وتستجير بجن الأودية في أسفارها ونحو هذا.

أما الذين خرقوا البنين، فاليهود في ذكر عزير، والنصارى في ذكر المسيح، وأما ذاكرو البنات فالعرب الذين قالوا للملائكة: بنات الله، فكأن الضمير في (جَعَلوا) و(خَرَقوا) لجميع الكفار، إذ فعل بعضهم هذا وبعضهم هذا، وبنحو هذا فسر السدي وابن زيد[1].

وقرأ شعيب بن أبي حمزة: (شركاء الجنِّ) بخفض النون.

وقرأ يزيد بن قطيب وأبو حيوة: (الجنِّ) و(الجنُّ) بالخفض والرفع[2] على تقدير: هم الجن.

وقرأ الجمهور: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ بفتح اللام على معنى: وهو خلقهم.

وفي مصحف عبد الله بن مسعود: (وهو خلقهم)[3].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٦١)، والنكت والعيون للماوردي (٢/ ١٥٠).

(٢) وهما شاذتان، تابعه في البحر المحيط (٤/ ٦٠٣)، وعزا في مختصر الشواذ (ص: ٤٥) لأبي حيوة الرفع، ولأبي البرهسم الجر.

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٥).

والضمير في (خلَقهم) يحتمل العودة على الجاعلين ويحتملها على المجعولين.

وقرأ يحيى بن يعمر: (وخلْقهم) بسكون اللام[١] عطفاً على ﴿ٱلْجِنَّ﴾ أي: جعلوا خلْقهم الذي ينحتونه أصناماً شركاء لله.

وقرأ السبعة سوى نافع: ﴿وَخَرَقُواْ﴾ بتخفيف للراء، وهو بمعنى: اختلقوا وافتروا.

وقرأ نافع: ﴿وخرَّقوا﴾ بتشديد الراء[٢] على المبالغة.

وقرأ ابن عمر وابن عباس: (وحرَّفوا) بالفاء[٣] من التحريف كذا قال أبو الفتح، قال أبو عمرو الداني قرأ ابن عباس: (حرفوا) خفيفة الراء، وابن عمر: (حرَّفوا) مشددة الراء[٤].

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نصٌّ على قبح تقحُّمهم الـمَجهلة وافترائهم الباطل على عمى.

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ أي: تنزه عن وصفهم الفاسد المستحيل عليه تبارك وتعالى.

و﴿بَدِيعُ﴾ بمعنى: مبدع ومخترع وخالق، فهو بناء اسم فاعل كما جاء: سميع بمعنى مُسمع.

و﴿أَنَّىٰ﴾ بمعنى: كيف ومن أين، فهي استفهام في معنى التوقيف والتقرير.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلَمْ تَكُن﴾ بالتاء على تأنيث علامة الفعل.

وقرأ إبراهيم النخعي بالياء على تذكيرها[٥]، وتذكير كان وأخواتها مع تأنيث اسمها

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٢٤)، ومختصر الشواذ لابن خالويه (ص: ٤٥)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٥).

(٢) وهما سبعيتان، انظر: السبعة في القراءات (ص: ٢٦٤)، والتيسير (ص: ١٠٥).

(٣) «بالفاء»: زيادة من السليمانية وفيض الله ونجيبويه ولالاليه، وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٤٥)، والمحتسب (١/ ٢٢٤).

(٤) انظر قول ابن جني بالمعنى في المحتسب (١/ ٢٢٤)، وما ذكره الداني في البحر المحيط في التفسير (٤/ ٦٠٣)، مقتصراً عليه.

(٥) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٤٥)، وزاد: يحيى.

أسهل من ذلك في سائر الأفعال، فقولك: كان في الدار هند، أسوغ من: قام في الدار هند، وحسَّن القراءة الفصل بالظرف الذي هو الخبر، ويتجه في القراءة المذكورة أن يكون في (يَكُن) ضمير اسم الله تعالى، وتكون الجملة التي هي ﴿لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ خبر «كان»، ويتجه أن يكون في (يكن) ضمير أمر وشأن، وتكون الجملة بعده تفسيراً له وخبراً.

وهذه الآية رد على الكفار بقياس الغائب على الشاهد.

وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لفظٌ عامٌّ لكلِّ ما يجوز أن يدخل تحته، ولا يجوز أن يدخل تحته صفات الله تعالى وكلامه، فليس هو عموماً مخصصاً على ما ذهب إليه قوم؛ لأن العموم المخصص هو أن يتناول العموم شيئاً ثم يخرجه التخصيص، وهذا لم يتناول قط هذه التي ذكرناها، وإنما هذا بمنزلة قول الإنسان: قتلت كل فارس وأفحمت كل خصم، فلم يدخل القائل قط في هذا العموم الظاهر من لفظه.

وأما قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهذا عموم على الإطلاق؛ لأن الله عز وجل يعلم كل شيء لا رب غيره ولا معبود سواه.

ولما تقررت الحجج وبانت الوحدانية جاء قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الآية، تتضمن تقريراً وحكماً إخلاصاً وأمراً بالعبادة وإعلاماً بأنه حفيظ رقيب على كل فعل وقول وفي هذا الإعلام تخويف وتحذير.

قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

أجمع أهل السنة على أن الله تعالى يُرى يوم القيامة، يراه المؤمنون، وقاله ابن وهب عن مالك بن أنس[1].

---

(١) انظر قول مالك برواية أشهب في: اعتقاد أهل السنة للالكائي (٣/ ٤٦٨)، ونسبته لجمهور أهل السنة في الفصل في الملل (٣/ ٢).

والوجه أن يبين جواز ذلك عقلاً، ثم يستند إلى ورود السمع بوقوع ذلك الجائز، واختصار تبيين ذلك: أن يعتبر بعلمنا بالله عز وجل، فمن حيث جاز أن نعلمه لا في مكان [ولا متحيزاً ولا مقابلا][١] ولم يتعلق علمنا بأكثر من الوجود، / جاز أن نراه غير مقابل ولا محاذًى ولا مكيفاً ولا محدوداً. [٢/ ١٠٤]

وكان الإمام أبو عبد الله النحوي يقول: مسألة العلم حلقت لحى المعتزلة.

ثم ورد الشرع بذلك، وهو قوله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] وتعدية النظر بـ«إلى» إنما هو في كلام العرب لمعنى الرؤية، لا لمعنى الانتظار على ما ذهبت إليه المعتزلة[٢]، وذُكر هذا المذهب لمالك فقال: فأين هم عن قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]؟[٣].

قال القاضي أبو محمد: فقال بدليل الخطاب، ذكره النقاش، ومنه قول النبي ﷺ، فيما صح عنه وتواتر وكثر نقله: «إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر»[٤] ونحوه من الأحاديث على اختلاف ترتيب ألفاظها.

وذهبت المعتزلة إلى المنع من جواز رؤية الله تعالى يوم القيامة واستحالة ذلك بآراء مجردة، وتمسكوا بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

وانفصل أهل السنة عن تمسكهم بأن الآية مخصوصة في الدنيا، ورؤية الآخرة ثابتة بأخبارها، وانفصال آخر، وهو أن يفرق بين معنى الإدراك ومعنى الرؤية، ونقول: إنه عز وجل تراه الأبصار ولا تدركه، وذلك الإدراك يتضمن الإحاطة بالشيء والوصول

---

(١) في المطبوع: «ولا متميزاً ولا متقابلًا».

(٢) ممن قال بذلك من المعتزلة أبو هاشم الجبائي، انظر قوله في: الفصل في الملل لابن حزم (٣/ ٣).

(٣) انظر قول مالك في: اعتقاد أهل السنة للالكائي (٣/ ٤٦٨).

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنهما.

إلى أعماقه وحوزه من جميع جهاته، وذلك كله محال في أوصاف الله عز وجل[١].

والرؤية لا تفتقر إلى أن يحيط الرائي بالمرئي ويبلغ غايته، وعلى هذا التأويل يترتب العكس في قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ ويحسُن معناه، ونحو هذا روي عن ابن عباس[٢] وقتادة وعطية العوفي، فرقوا بين الرؤية والإدراك.

وأمَّا الطبري رحمه الله ففرق بين الرؤية والإدراك، واحتج بقول بني إسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، فقال: إنهم رأوهم ولم يدركوهم[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله خطأ؛ لأن هذا الإدْراك ليس بإدراك البصر بل هو مستعار منه أو باشتراك.

قال: وقال بعضهم: إن المؤمنين يرون الله تعالى بحاسة سادسة تخلق يوم القيامة[٤]، وتبقى هذه الآية في منع الإدراك بالأبصار عامة سليمة، قال: وقال بعضهم: إن هذه الآية مخصوصة في الكافرين، أي: إنه لا تدركه أبصارهم؛ لأنهم محجوبون عنه.

قال القاضي أبو محمد: وهذه الأقوال كلها ضعيفة ودعاوى ولا تستند إلى قرآن ولا حديث.

و﴿ٱللَّطِيفُ﴾ المتلطِّف في خلقه واختراعه وإتقانه، وبخلقه وعباده، و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ المختبر لباطن أمورهم وظاهرها.

و«البصائر»: جمع بصيرة وهي ما يتفق عن تحصيل العقل للأشياء المنظور فيها،

---

(١) انظر احتجاج المعتزلة بهذه الآية وردود أهل السنة عليها في: الفصل في الملل لابن حزم (٣/ ٢-٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٣٦٩٤) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١٢/ ١٤)، وتفسير الثعلبي (٢٠/ ٨٨)، والهداية لمكي (٢٢/ ٧٨٧٨).

(٤) نسب ابن حزم هذا القول لبعض القائلين برؤية الله في الآخرة ولم يسمهم، انظر نقله للقول في: الفصل في الملل (٣/ ٢).

بالاعتبار، فكأنه قال: قد جاءكم في القرآن والآيات طرائق إبصار الحق والـمُعِينة عليه، والبصيرة للقلب مستعارة من إبصار العين، والبصيرة أيضاً هي المعتقد المحصل في قول الشاعر:

[الكامل] رَاحُـوا بَصَائِرُهُـمْ عَلَـى أَكْتَافِهِمْ وَبَصِيرَتِي يَعْـدُو بِهَا عَتَدٌ وَأى[١]

وقال بعض الناس في هذا البيت: البصيرة طريقة الدم، والشاعر إنما يصف جماعة مشوا به في طلب دم ففتروا فجعلوا الأمر وراء ظهورهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ و(مَنْ عميَ) عبارة مستعارة فيمن اهتدى ومن ضل.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ كان في أول الأمر وقبل ظهور الإسلام، ثم بعد ذلك كان رسول الله ﷺ حفيظاً على العالم آخذاً لهم بالإسلام والسيف.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ الآية، الكاف في قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ في موضع نصب بـ﴿نُصَرِّفُ﴾ أي: ومثل ما بينا البصائر وغير ذلك نصرف الآيات، أي: نرددها ونوضحها.

وقرأت طائفة: (ولْيقولوا دَرَسْتَ) بسكون اللام[٢] على جهة الأمر، ويتضمن[٣] التوبيخ والوعيد، وقرأ الجمهور: ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ بكسر اللام على أنها لام كي وهي على هذا لام الصيرورة، كقوله: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] [أي: لما صار أمرهم][٤] إلى ذلك.

---

(١) البيت للأسعر الجعفي كما في تفسير الثعلبي (٣/ ٢٧٥)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٩٧)، ومجاز القرآن (١/ ٢٣٨)، والأصمعيات (ص ١٤١) والعَتَدُ: الفرس التَّام الخَلْق السريع الوثبة المعد للجري ليس فيه اضطراب ولا رخاوة، والوَأى بواو مفتوحة بعدها مدٌّ هو الفرس السريع المقتدر الخلق. يقول: إنهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خلفهم، وفي الحمزوية: «تغدوا بها غدواتي».

(٢) وهي قراءة شاذة، قال النحاس في معاني القرآن (٢/ ٤٦٩): حكاها أبو العباس.

(٣) في السليمانية وفيض الله ولالاليه: «الذي يتضمن».

(٤) ساقط من الأصل.

وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿دَرَسْتَ﴾ أي: يا محمد درست في الكتب القديمة ما تجيبنا به.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿دَارَسْتَ﴾ أي: أنت يا محمد دارست غيرك في هذه الأشياء، أي: قارأته وناظرته، وهذا إشارة منهم إلى سلمان وغيره من الأعاجم واليهود.

وقرأ ابن عامر وجماعة من غير السبعة: ﴿درَسَتْ﴾ بإسناد الفعل إلى الآيات[١]، كأنهم أشاروا إلى أنها ترددت على أسماعهم حتى بليت في نفوسهم وامحت.

قال أبو علي: واللام في ﴿لِيَقُولُوا۟﴾ على هذه القراءة بمعنى: لئلا يقولوا؛ أي: صرِّفت الآيات وأحكمت لئلا يقولوا: هذه الأساطير قديمة قد بليت[٢] وتكررت على الأسماع، واللام على سائر القراءات لام الصيرورة[٣].

وقرأت فرقة: (دارسَتْ) كأنهم أرادوا: دارسَتْكَ يا محمد؛ أي: الجماعة المشار إليها قبل من سلمان واليهود وغيرهم.

وقرأت فرقة: (درُست) بضم الراء، وكأنها في معنى: دَرَستْ، أي: بليت.

وقرأ قتادة: (دُرِست) بضم الدال وكسر الراء وهي قراءة ابن عباس بخلاف عنه ورويت عن الحسن.

قال أبو الفتح: في (دُرِسَتْ) ضمير الآيات، ويحتمل أن يراد: عَفيت وتُنوسيت.

وقرأ أبي بن كعب: (دَرَس)، وهي في مصحف عبد الله[٤].

قال المهدوي: وفي بعض مصاحف عبد الله أيضاً: (دَرَسْنَ)، ورويت عن الحسن[٥].

---

(١) وكلها سبعية، انظر: السبعة في القراءات (ص: ٢٦٤)، والتيسير (ص: ١٠٥).

(٢) في الحمزوية: «تليت».

(٣) الحجة لأبي علي الفارسي (٣/ ٣٧٥).

(٤) انظر هاتين القراءتين الشاذتين مع التوجيه في المحتسب (١/ ٢٢٥)، والثانية في المصاحف (١/ ١٧٦)، وتفسير الطبري (١٢/ ٣٠).

(٥) انظر عزوها لابن مسعود في تفسير الطبري (١٢/ ٣٠)، والمحتسب (١/ ٢٢٥)، والتحصيل (٢/ ٦٥١) ولم أجد من نسبها للحسن.

وقرأت فرقة: (درَّس)، بتشديد الراء على المبالغة في «درس»[١].

وهذه الثلاثة الأخيرة مخالفة لخط المصحف.

واللام في قوله: ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ وفي قوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ متعلقان بفعل متأخر تقديره: صرفناها.

وقرأ أُبيّ بن كعب وابن مسعود والأعمش: (ولتبيِّنه) بالتاء[٢] على مخاطبة النبي ﷺ.

وقرأه فرقة: (وليبينه) بياء[٣]، أي: الله تعالى.

وذهب بعض الكوفيين إلى أن «لا» مضمرة بعد «أن» المقدرة في قوله: ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ فتقدير الكلام عندهم: وأن لا يقولوا، كما أضمروها في قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قلق، ولا يجيز البصريون إضمار «لا» في موضع من المواضع[٤].

[٢/ ١٠٥] / قوله عزوجل: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ١٠٧ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨﴾.

هذان أمران للنبي ﷺ مضمنهما الاقتصار على اتباع الوحي وموادعة الكفار. وذلك كان في أول الإسلام ثم نسخ الإعراض عنهم بالقتال والسَّوق إلى الدين طوعاً أو كرهاً، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْ﴾ في ظاهرها رد على المعتزلة القائلين:

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٢٠٠)، وفي المطبوع: «درّسن» في الموضعين.

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٤٥)، و«الأعمش» زيادة من السليمانية وفيض الله ونجيبويه ولالاليه.

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٤٥).

(٤) انظر مذهبهم في معاني القرآن للنحاس (٢/ ٢٤٤)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٠٧).

إنه ليس عند الله لطف يؤمن به الكافر، وإن الكافر والإنسان في الجملة يخلق أفعاله، وهي متضمنة أن إشراكهم وغيره وقف على مشيئة الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ كان في أول الإسلام، وكذلك قوله ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية، مخاطبة للمؤمنين والنبي ﷺ، وقال ابن عباس: وسببها: أن كفار قريش قالوا لأبي طالب: إما أن ينتهي محمد وأصحابه عن سب آلهتنا والغض منها، وإما أن نسُبّ إلهه ونهجوه، فنزلت الآية[١].

وحكمها على كل حال باقٍ في الأمة، فمتى كان الكافر في منعة وخيف أن يسب الإسلام أو النبي ﷺ والله عز وجل فلا يحل للمسلم أن يسب دينهم ولا صلبانهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك أو نحوه.

وعبر عن الأصنام وهي لا تعقل بـ﴿الَّذِينَ﴾ وذلك على معتقد الكفرة فيها، وفي هذه الآية ضرب من الموادعة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿عَدْوًا﴾ بفتح العين وسكون الدال نصب على المصدر.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن وأبو رجاء وقتادة ويعقوب وسلام وعبد الله بن يزيد: (عُدُوّاً) بضم العين والدال وتشديد الواو[٢]، وهذا أيضاً نصب على المصدر وهو من الاعتداء.

وقرأ بعض المكيين: (عَدُوًّا) بفتح العين وضم الدال[٣] نصب على الحال، أي: في حال عداوة الله، وهو لفظ مفرد يدل على الجمع.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بيان لمعنى الاعتداء المتقدم.

---

(١) أخرجه الطبري (١٣٧٣٨)، وابن أبي حاتم (٧٧٦٠) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٢٦)، وفي الأصل والمطبوع ونجيبويه: «عبد الله بن زيد».

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لهم في مختصر الشواذ (ص: ٤٥)، وفي المطبوع: «الكوفيين»، وهو خطأ، والمثبت هو الموافق للمصدر.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ إشارة إلى ما زين الله لهؤلاء عبدة الأصنام من التمسك بأصنامهم والذب عنها، وتزيين الله عمل الأمم هو ما يخلقه ويخترعه في النفوس من المحبة للخير أوالشر والاتباع لطرقه، وتزيين الشيطان هو بما يقذفه[١] في النفوس من الوسوسة وخطرات السوء.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم﴾ يتضمن وعداً جميلاً للمحسنين ووعيداً ثقيلاً للمسيئين.

قوله عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟﴾ عائد على المشركين المتقدم ذكرهم، و﴿جَهْدَ﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه (أقسموا) على مذهب سيبويه لأنه في معناه، وعلى مذهب أبي العباس المبرد فعل من لفظه[٢].

واللام في قوله: ﴿لَئِن﴾ لام موطئة للقسم مؤذنة به، وأما اللام المتلقية للقسم فهي قوله: ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ﴾.

و﴿ءَايَةٌ﴾ يريد: علامة، وحكي أن الكفار لما نزلت: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] أقسموا حينئذ أنها إن نزلت آمنوا، فنزلت هذه الآية[٣].

وحكي أنهم اقترحوا أن يعود الصفا ذهباً وأقسموا على ذلك، فقام رسول الله ﷺ

---

(١) في السليمانية: «يقرره».

(٢) انظر هذا الخلاف في تفسير البحر المحيط (٤/ ٦١٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣٩).

يدعو في ذلك، فجاءه جبريل فقال له: إن شئت أصبح ذهباً، فإن لم يؤمنوا هلكوا عن آخرهم معاجلة كما فعل بالأمم إذا لم تؤمن بالآيات المقترحة، وإن شئت أخروا حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله ﷺ: «بل حتى يتوب تائبهم»، ونزلت هذه الآية[١].

وقرأ ابن مصرف: (لَيُؤْمَنَنْ) بفتح الميم والنون وبالنون الخفيفة[٢].

ثم قال تعالى: قل لهم يا محمد على جهة الرد والتخطئة[٣]: إنما الآيات بيد الله وعنده، ليست عندي فتُقترح عليّ.

ثم قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ فاختلف المتأولون في من المخاطب بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ ومن المستفهم بـ(ما) التي يعود عليها الضمير الفاعل في ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾: فقال مجاهد وابن زيد: المخاطب بذلك الكفار، وقال الفراء وغيره: المخاطب بها المؤمنون[٤].

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ معناه: وما يعلمكم وما يدريكم؟!

وقرأ قوم: ﴿يُشْعِرْكُمْ﴾ بسكون الراء[٥]، وهي على التخفيف، ويحسنها أن الخروج من كسرة إلى ضمة ثقيلٌ[٦].

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطبري (١٣٧٤٦) من طريق ضعيف عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً مرفوعاً، ولكن جاء عند أحمد في مسنده (١/ ٢٤٢ رقم ٢١٦٦) من طريق: سفيان عن سلمة بن كهيل عن عمران بن الحكم عن ابن عباس، قال الحافظ في تعجيل المنفعة (٢/ ٨١): كذا وقع والصواب: عمران بن الحارث أبو الحكم كما في صحيح مسلم. اهـ. وهذا قال فيه أبو حاتم: صالح الحديث.

(٢) وهي شاذة، انظر عزوها له في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٧)، وسقط من نور العثمانية: «والنون»، وزاد في السليمانية: «الأولى».

(٣) في الحمزوية والسليمانية وفيض الله: «المخاطبة»، وفي المطبوع: «التغطية».

(٤) انظر القول الأول في تفسير الطبري (٢٢/ ٤٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٦٨)، وقول الفراء في معاني القرآن له (٢/ ٢١).

(٥) وهي سبعية: أحد وجهين في التيسير (ص: ٧٣) لأبي عمرو ثانيهما الاختلاس.

(٦) زيادة من السليمانية وفيض الله.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية داود الإيادي[(١)]: ﴿إنها﴾ بكسر الألف[(٢)] على القطع واستئناف الإخبار.

فمن قرأ: ﴿تؤمنون﴾ بالتاء ـ وهي قراءة ابن عامر وحمزة ـ استقامت له المخاطبة أولاً وآخِراً للكفار.

ومن قرأ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالياء، وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو والكسائي[(٣)]، فيحتمل أن يخاطب أولاً وآخراً المؤمنين، ويحتمل أن يخاطب بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ الكفار ثم يستأنف الإخبار عنهم للمؤمنين.

ومفعول ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ الثاني محذوف، ويختلف تقديره بحسب كل تأويل.

وقرأ نافع وعاصم في رواية حفص وحمزة والكسائي وابن عامر: ﴿أَنَّهَآ﴾ بفتح الألف، فمنهم من جعلها «أن» التي تدخل على الجمل وتأتي بعد الأفعال كعلمت وظننت، وأعمل فيها ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾، والتزم بعضهم أن ﴿لَا﴾ زائدة في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وأنّ معنى الكلام: وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون أو تؤمنون، فزيدت ﴿لَا﴾ كما زيدت في قوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥] لأن المعنى: وحرام على قرية مهلكة رجوعهم، وكما جاءت / زائدة في قول الشاعر: [٢/ ١٠٦]

[الطويل]
أَبَى جُودُهُ لا البُخْلَ وَاسْتَعْجَلَتْ بِهِ نَعَمْ مِنْ فَتىً لا يَمْنَعُ الجُودَ قَاتِلَهْ[(٤)]

---

(١) كذا في جميع النسخ، وتابعه في البحر المحيط (٤/ ٦١٤)، والصواب: داود الأودي كما في السبعة لابن مجاهد (ص: ٢٦٥)، والحجة للفارسي (٣/ ٣٧٦)، داود بن عمرو الأودي الشامي عامل مدينة واسط، روى عن عبد الله بن أبي زكريا ومكحول وعنه هشيم وغيره، وثقه ابن معين، وقال أبو زرعة: لا بأس به، توفي بعد (١٣٠هـ). تاريخ الإسلام (٨/ ٤١٣).

(٢) وهي سبعية وكذلك فتحها، انظر: التيسير (ص: ١٠٦)، والسبعة لابن مجاهد (ص: ٢٦٥).

(٣) وعاصم كذلك، والباقون بالتاء، وهما سبعيتان أيضاً، انظر: التيسير (ص: ١٠٦).

(٤) استشهد بهذا البيت بلا نسبة تفسير الطبري (١٢/ ٣٢٤)، والخصائص (٢/ ٢٨٥)، والحجة للفارسي (١/ ١٦٩)، وغيرها.

قال الزجاج: أراد: أبى جوده البخل، وكما جاءت زائدة في قول الشاعر:

أفَعنْك لا بَرْقٌ كأنَّ وَميضَهُ غَابٌ تَسَنَّمَهُ ضِرَامٌ مُثْقَبُ[١] [الكامل]

ودعا إلى التزام هذا حفظ المعنى؛ لأنها لو لم تكن زائدة لعاد الكلام عذراً للكفار وفسد المراد بالآية، وضعّف الزجّاج وغيره زيادة ﴿لَا﴾ وقال: هذا غلط[٢].

ومنهم من جعل ﴿أَنَّهَآ﴾ بمعنى: لعلها، وحكاها سيبويه عن الخليل[٣]، وهو تأويل لا يحتاج معه إلى تقدير زيادة ﴿لَا﴾.

وحكى الكسائي أنه كذلك في مصحف أبي بن كعب: (وما أدراكم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون[٤])، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

قُلْتُ لِشَيْبَانَ ادْنُ مِنْ لِقَائِهِ أَنَّا نُغَذِّي القَوْمَ مِنْ شِوَائِهِ[٥] [الرجز]

فهذه كلها بمعنى: «لعل»، وضعّف أبو علي هذا بأن التوقع الذي فيه لا يناسب الآية بعد، التي حكمت بأنهم لا يؤمنون، وترجَّحَ عنده في الآية أن تكون (أنَّ) على بابها، وأن يكون المعنى: قل إنما الآيات عند الله؛ لأنها إذا جاءت لا يؤمنون، فهو لا يأتي بها لإصرارهم على كفرهم، وتكون الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩][٦] أي: بالآيات المقترحة.

قال القاضي أبو محمد: ويترتب على هذا التأويل أن تكون (ما) نافية، وقد أبى

---

(١) البيت لساعدة بن جؤية الهذلي كما في تهذيب اللغة (٣/ ١٣٧)، والصاحبي (ص: ١٢١)، وفي الحمزوية والمطبوع: «أفمنك».

(٢) انظر كلامه على هذا البيت والبيت الذي قبله في معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٣٢٣).

(٣) الكتاب لسيبويه (٣/ ١٢٣).

(٤) وهي قراءة شاذة، انظرها في معاني القرآن للفراء (١/ ٣٥٠)، ومعاني القرآن للنحاس (٢/ ٤٧٤).

(٥) الرجز لأبي النجم العجليّ كما في الكتاب لسيبويه (٣/ ١١٦)، والمعاني الكبير (١/ ٣٦٣)، وتفسير الطبري (١٢/ ٤٣).

(٦) انظر: الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٣٨٠).

ذلك أبو علي فتأمل، وترجح عنده أيضاً أن تكون ﴿لَا﴾ زائدة، وبسط شواهده في ذلك [في كتاب «الحجة»][١].

وحكى بعض المفسرين أن في آخر الآية حذفاً يستغنى به عن زيادة ﴿لَا﴾، وعن تأويلها بمعنى: «لعل» وتقديره عندهم: أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قولٌ ضعيفٌ لا يعضده لفظ الآية ولا يقتضيه، وتحتمل الآية أن يكون المعنى يتضمن الإخبار أنهم لا يؤمنون، وقيل لهم: وما يشعركم بهذه الحقيقة؟ أي: لا سبيل إلى شعوركم بها وهي حق في نفسها وهم لا يؤمنون أن لو جاءت. و(ما) استفهام على هذا التأويل.

وفي مصحف ابن مسعود: (وما يشعركم إذا جاءتهم أنهم يؤمنون)[٢] بسقوط ﴿أَنَّهَآ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ المعنى على ما قالت فرقة: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في النار وفي لهيبها في الآخرة لما لم يؤمنوا في الدنيا، ثم استأنف على هذا: ونَذَرهم في الدنيا في طُغْيناهم يَعْمهون.

وقالت فرقة: إنما المراد بالتقليب: التحويل عن الحق والهدى، والترك في الضلالة والكفر، ومعنى الآية: أن هؤلاء الذين أقسموا أنهم يؤمنون إن جاءت آية، نحن نقلب أفئدتهم وأبصارهم أن لو جاءت فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا أول مرة بما دعوا إليه من عبادة الله، فأخبر الله تعالى على هذا التأويل بصورة فعله بهم.

وقرأ أبو رجاء: (يذرهم) بالياء ورويت عن عاصم.

وقرأ إبراهيم النخعي: (ويقلب)، و(يذرهم) بالياء[٣] فيهما كناية عن الله تبارك وتعالى.

---

(١) زيادة من السليمانية وفيض الله، انظر: الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٣٨١).

(٢) في المطبوع: «إذا جاءت لا يؤمنون»، وانظر عزوها له في معاني القرآن للفراء (١/ ٣٥٠)، والهداية لمكي (٣/ ٢١٤٨).

(٣) وهما شاذتان، انظر عزوهما في تفسير الثعلبي (٤/ ١٨١)، إلا عاصماً فالخلاف عنه إنما هو في حرف الأعراف.

وقرأ أيضاً فيما روى عنه مغيرة[1]: (وتَقلَّب) بفتح التاء واللام بمعنى: وتتقلب أفئدتهم وأبصارهم بالرفع فيهما، (ويذرْهم) بالياء وجزم الراء[2].

وقالت فرقة: قوله: ﴿كَمَا﴾ في هذه الآية إنما هي بمعنى المجازاة؛ أي: لما لم يؤمنوا أول مرة نجازيهم بأن نقلب أفئدتهم عن الهدى ونطبع على قلوبهم، فكأنه قال: ونحن نقلب أفئدتهم وأبصارهم جزاء لما لم يؤمنوا أول مرة بما دعوا إليه من الشرع، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يحتمل أن يعود على الله عز وجل أو على القرآن أو على النبي ﷺ.

و(نَذَرُهم) معناه: نتركهم.

وقرأ الأعمش والهمداني: (ويذرْهم) بالياء وجزم الراء[3] على وجه التخفيف.

و«الطغيان»: التخبط في الشر والإفراط فيما يتناوله المرء، و«العمه»[4]: التردد والحيرة.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

أخبر الله عز وجل في هذه الآية أنه لو أتى بجميع ما اقترحوه من إنزال الملائكة وإحياء موتى سلفهم، حسبما كان من اقتراح بعضهم أن يحشر قصي وغيره، فيخبر بصدق محمد، أو يجمع عليهم كل شيء يعقل أن يحشر عليهم، ما آمنوا إلا بالمشيئة

---

(١) هو المغيرة بن مقسم، أبو هاشم الضبي الكوفي الأعمى، روى القراءة عن عاصم بن أبي النجود وروى عن إبراهيم النخعي وأكثر روايته عنه، عرض عليه حمزة وأخذ عنه جرير بن عبد الحميد، توفي سنة (١٣٣هـ). غاية النهاية (٢/ ٣٠٦).

(٢) وهي قراءة شاذة، تابعه عليها في البحر المحيط (٤/ ٦١٨).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٢٧)، وفيه الهمذاني، بالذال، وهو عيسى بن عمر غير الثقفي وسيأتي في سورة الأعراف.

(٤) في المطبوع: «العمى».

واللطف الذي يخلقه ويخترعه في نفس من شاء لا رب غيره، وهذا يتضمن الرد على المعتزلة في قولهم بالآيات التي تَضطر الكفار إلى الإيمان.

وقال ابن جريج: نزلت هذه الآية في المستهزئين[١].

قال القاضي أبو محمد: وهذا لا يثبت إلا بسند.

وقرأ نافع وابن عامر وغيرهما: ﴿قِبَلاً﴾ بكسر القاف وفتح الباء، ومعناه: مواجهة ومعاينة قاله ابن عباس وغيره، ونصبه على الحال، وقال المبرد: المعنى: ناحية، كما تقول: لي قِبل فلان دين.

قال القاضي أبو محمد: فنصبه على هذا هو على الظرف.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وغيرهم: ﴿قُبُلًا﴾ بضم القاف وضم الباء.

وكذلك قرأ ابن كثير وأبو عمرو هنا وقرأ: ﴿الْعَذابُ قِبَلاً﴾، مكسورة القاف[٢].

واختلف في معناه:

فقال عبد الله بن يزيد[٣] ومجاهد وابن زيد: (قبُل) جمع قبيل[٤]، أي: صنفاً صنفاً ونوعاً نوعاً، كما يجمع قضيب على قضب وغيره.

وقال الفراء والزجّاج: هو جمع قبيل: وهو الكفيل؛ أي: وحشرنا عليهم كل شيء كفلاء بصدق محمد، وذكره الفارسي وضعفه[٥].

وقال بعضهم: (قُبل) بالضم بمعنى (قِبل) بكسر القاف، أي: مواجهة، كما تقول:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٤٧).

(٢) الكهف: ٥٥، وكلها سبعية انظر: السبعة في القراءات (ص: ٢٦٦)، والتيسير (ص: ١٠٦)، وسيأتي حرف الكهف في موضعه.

(٣) في: نور العثمانية والمطبوع: «ابن زيد»، وكذا في لالاليه وفي هامشه: «ابن يزيد»، وهو الموافق للطبري، وتقدم التعريف به.

(٤) انظر قول مجاهد وعبد الله في تفسير الطبري (١٢/ ٤٩)، وقول ابن زيد في البحر المحيط (٤/ ٦٢٢)، وفي السليمانية: «أبو يزيد».

(٥) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ٢٢) ومعاني القرآن للزجاج (٢/ ٢٨٣)، والحجة للفارسي (٣/ ٣٨٥).

قبل ودبر، ومنه قوله تعالى: ﴿قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ [يوسف: ٢٦] ومنه قراءة ابن عمر: (لقُبُل عدتهن) [الطلاق: ١][1] أي: لاستقبالها ومواجهتها في الزمن.

وقرأ الحسن وأبو رجاء وأبو حيوة: (قُبْلاً) بضم / القاف وسكون الباء، وذلك [٢/ ١٠٧] على جهة التخفيف، وقرأ طلحة بن مصرف: (قَبْلاً) بفتح القاف وإسكان الباء، وقرأ أبيّ والأعمش: (قَبِيلاً) بفتح القاف وكسر الباء وزيادة ياء[2]، والنصب في هذا كله على الحال.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ الضمير عائد إلى الكفار المتقدم ذكرهم، والمعنى: يجهلون أن الآية تقتضي إيمانهم ولا بدَّ، فيقتضي اللفظ أن الأقل لا يجهل، فكان فيهم من يعتقد أن الآية لو جاءت لم يؤمن إلا أن يشاء الله له ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ الآية، تتضمن تسلية النبي ﷺ وعرض القدرة[3] عليه، أي: إن هذا الذي امتحنت به يا محمد من الأعداء قد امتحن به غيرك من الأنبياء ليبتلي الله أولي العزم منهم.

و﴿عَدُوًّا﴾ مفرد في معنى الجمع، ونصبه على المفعول الأول لـ﴿جَعَلْنَا﴾ والمفعول الثاني في قوله: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾، و﴿شَيَٰطِينَ﴾ بدل من قوله: ﴿عَدُوًّا﴾، ويصح أن يكون المفعول الأول: ﴿شَيَٰطِينَ﴾ والثاني: ﴿عَدُوًّا﴾.

وقوله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ يريد به المتمردين من النوعين الذين هم من شيم السوء كالشياطين، وهذا قول جماعة من المفسرين، ويؤيده حديث أبي ذر أنه صلى يوماً فقال له رسول الله ﷺ: «تعوَّذْ يا أبا ذر من شياطين الجن والإنس»، قال

---

(١) وهي قراءة شاذة، سيأتي الكلام عليها هناك.

(٢) ثلاث قراءات شاذة، انظر قراءة الحسن في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٨)، وقراءة طلحة في الشواذ للكرماني (ص: ١٧٧)، وقراءة أبي في تفسير الثعلبي (٤/ ١٨١)، والباقين في البحر المحيط (٤/ ٦٢٢).

(٣) في الحمزوية والمطبوع ولالاليه: «القدوة».

وإن من الإنس لشياطين؟ قال: «نعم»[(١)].

قال السدي وعكرمة: المراد بـ«الشياطين»: الموكلون بالإنس، والشياطين الموكلون بمؤمني الجن، وزعما أن للجن شياطين موكلين بغوايتهم، وأنهم يوحون إلى شياطين الإنس بالشر والوسوسة يتعلمها بعضهم من بعض، قالا: ولا شياطين من الإنس[(٢)].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قولٌ لا يستند إلى خبر ولا إلى نظر.

و﴿يُوحِي﴾ معناه: يلقيه في اختفاء، فهو كالمناجاة والسِّرار.

و﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ معناه: محسَّنه ومزيَّنه بالأباطيل، قاله عكرمة ومجاهد[(٣)]، و«الزخرفة» أكثر ذلك إنما يستعمل في الشر والباطل.

---

(١) طرقه واهية، أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٤٨٠)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٣٢)، وأحمد في مسنده (٥/ ١٧٨- ١٧٩ رقم ٢١٥٤٦-٢١٥٥٢)، والنسائي (٥٥٠٧) وفي الكبرى (٧٨٩١)، والبزار في مسنده (٤٠٣٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٢٩٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٧/ ٩٧) من طريق عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي، عن أبي عمر الشامي، عن عبيد بن الخشخاش، عن أبي ذر مرفوعاً، بألفاظ مطولة ومختصرة، وهذا إسناد ضعيف لجهالة عبيد بن الخشخاش، ولضعف أبي عمر الدمشقي، قال الدارقطني: المسعودي عن أبي عمر الدمشقي متروك، وأخرجه ابن حبان في المجروحين (٣/ ١٢٩)، وابن عدي في الكامل (٧/ ٢٤٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٨)، والبيهقي في السنن (٩/ ٤) من طريق يحيى بن سعيد السعيدي، عن ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن أبي ذر، وهذا إسناد ضعيف لضعف يحيى بن سعيد، قال ابن حبان: شيخ يروي عن ابن جريج المقلوبات وعن غيره من الثقات الملزقات لا يحل الاحتجاج به إذا انفرد. اهـ، وله طرق كثيرة لا تسلم من ضعف، ذكرها ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٢٠) وقال: فهذه طرق لهذا الحديث ومجموعها يفيد قوته وصحته، وفي الباب عن أبي أمامة رضي الله عنه أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٦٥ رقم ٢٢٢٨٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٧٧٨٦)، والطبراني في الكبير (٧٨٧١) من طريق علي بن يزيد الألهاني عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعاً، وسنده ضعيف من أجل الألهاني.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٥١ و٥٢)، والنكت والعيون للماوردي (٢/ ١٥٨)، والهداية لمكي (٣/ ٢١٥٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٥٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٧٢).

و﴿غُرُورًا﴾ نصب على المصدر، ومعناه: أنهم يغرون به المضللين ويوهمون لهم أنهم على شيء، والأمر بخلاف، والضمير في قوله: ﴿فَعَلُوهُ﴾ عائدٌ على اعتقادهم العداوة، ويحتمل على الوحي الذي تضمنته ﴿يُوحِى﴾.

وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ لفظٌ يتضمن الأمر بالموادعة منسوخ بآيات القتال، قال قتادة: كل (ذَرْ) في كتاب الله فهو منسوخٌ بالقتال.

و﴿يَفْتَرُونَ﴾ معناه: يختلقون[1] ويشتقون، وهو من الفِرْية[2] تشبيهاً بفري الأديم.

قوله عز وجل: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ معناه: لتميل، يقال: صغى يصغى، وأصلها: يَصغي بكسر الغين لكن رده حرف الحلق إلى الفتح، ويقال: صغى يصغو وأصغى يصغي وصَغِي يَصغى.

و﴿أَفْـِٔدَةُ﴾ جمع فؤاد، و«يقترفون» معناه: يواقعون ويجترحون، وهي مستعملة أكثر ذلك في الشر والذنوب ونحوه، والقراء على كسر اللام في الثلاثة الأفعال على أنها لام كي، فإما أن تكون معطوفة على ﴿غُرُورًا﴾، وإما أن تكون متعلقة بفعل مؤخر تقديره: فعلوا ذلك، أو: جعلنا ذلك، فهي لام صيرورة قاله الزجّاج[3].

ولا يحتمل أن تكون هذه اللامات على هذه القراءة لام الأمر وضمنها الوعيد، وتبقى الألف[4] في (لتصغى) على نحو ما جاء من ذلك في قول الشاعر:

---

(١) في المطبوع ونجيبويه: «يختلفون».

(٢) تحرف في المطبوع إلى: «الفرقة».

(٣) انظر كلام الزجاج على هذه الآية في معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٢٨٤).

(٤) في المطبوع: «الياء».

[الوافر] أَلَـمْ يَأتيـكَ........................ ....[1]

إلى غير ذلك مما قد قرئ به.

قال أبو الفتح: قرأها الحسن بالتسكين في الثلاثة، وهي لام «كي» وهي معطوفة على قوله: ﴿غُرُورًا﴾ التقدير: لأجل الغرور ولتصغَى، وإسكان هذه اللام شاذ في الاستعمال قوي في القياس.

قال القاضي أبو محمد: ويظهر أن تحمل قراءة الحسن بسكون اللامات الثلاثة على أنها لام الأمر المضمن الوعيد والتهديد، والخط على هذه القراءة: (ولْتَصْغَ) ذكر أبو عمرو الداني أن تسكينه في اللامات الثلاثة، وكذلك قال أبو الفتح، وذُكِر أن الحسن إنما يسكن اللامين الثانية والثالثة[2].

قال القاضي أبو محمد: وذلك يخالفه خط المصحف في: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ﴾.

قال القاضي أبو محمد: ويتخرج[3] أن يسكن اللام في (وَلْتَصْغى) على ما ذكرناه في قراءة الجماعة.

قال أبو عمرو: وقراءة الحسن إنما هي (لَتَصْغِي) بكسر الغين[4]، وقراءة إبراهيم النخعي: (لَتُصغِي) بضم التاء وكسر الغين من أصغى يصغي، وكذلك قرأ الجراح بن عبد الله[5].

---

(١) تمامه:

ألـم يأتيـك والأنبـاءُ تنمِـي بـما لاقـت لبـونُ بنـي زيـادِ

وهو لقيس بن زهير كما تقدم في تفسير الآية ١٠١ من سورة النساء.

(٢) هكذا وردت العبارة في جميع النسخ، وفيها تخليط، والذي في المحتسب (١/ ٢٢٧) عن الحسن تسكين الثلاث، ووافقه مختصر الشواذ (ص: ٤٦)، والشواذ للكرماني (ص: ١٧٧)، والذي نقل عنه الداني تسكين الأخيرين، ومثله في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٨).

(٣) في المطبوع: «ويتحصل».

(٤) انظر ما قاله الداني في: البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٦٢٦)، وهي قراءة شاذة.

(٥) وهي شاذة عزاها للنخعي الكرماني في شواذ القراءات (ص: ٧٧) على وجهين بفتح الياء وحذفها وللجراح في البحر المحيط (٤/ ٦٢٦).

وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ﴾ نصب بـ﴿أَبْتَغِى﴾، و﴿حَكَمًا﴾ نصب على البيان والتمييز، و﴿مُفَصَّلًا﴾ معناه: مزال الإشكال قد فصلت آياته.

وهذه الآية وإن كان معناها يعم في أن الله لا يبتغَى سواه حكماً في كلِّ شيء وفي كل قضية، فإنّا نحتاج في رصف[1] الكلام واتساق المعاني أن ننظر إلى قضية فيما تقدم تكون سبباً إلى قوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ فهي والله أعلم حكمه عليهم بأنهم لا يؤمنون ولو بعث إليهم كل الآيات، وحكمه بأنْ جعل للأنبياء أعداء من الجن والإنس.

و﴿حَكَمًا﴾ أبلغ من حاكم، إذ هي صيغة للعدل من الحكام، والحاكم جارٍ على الفعل فقد يقال للجائر، و﴿حَكَمًا﴾ نصب على البيان أو الحال.

وبهذه الآية خاصمت الخوارج عليّاً رضي الله عنه في تكفيره بالتحكيم، ولا حجة لها؛ لأن الله تعالى حكَّم في الصيد وبين الزوجين، فتحكيم المؤمنين من حكمه تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يتضمن الإشهاد بمؤمنيهم، والطعن والتنبيه على مشركيهم وحسدتهم.

وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم: ﴿مُنَزَّلٌ﴾ بالتشديد، والباقون بالتخفيف[2].

و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أولاً هو القرآن، وثانياً اسم جنس التوراة والإنجيل والزبور والصحف، ووصفه أهل الكتاب بالعلم عموم بمعنى الخصوص، وإنما يريد علماءهم / وأحبارهم. [٢/ ١٠٨]

وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ تثبيت ومبالغة وطعن على الممترين.

قوله عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

(تَمَّتْ) في هذا الموضع بمعنى: استمرت وصحت في الأزل، ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾،

---

(١) في نجيبويه والمطبوع: «وصف».

(٢) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٠٦)، والسبعة في القراءات (١/ ٢٦٦).

وليس بتمام من نقص، ومثله ما وقع في كتاب «السيرة» من قولهم: وتم حمزة على إسلامه في الحديث مع أبي جهل[(١)]، والكلمات: ما نزل على عباده.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿كَلِمَةُ﴾ بالإفراد هنا وفي يونس في الموضعين وفي حم المؤمن، وقرأ نافع وابن عامر جميع ذلك: ﴿كلمات﴾ بالجمع، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو هنا فقط: ﴿كلماتُ﴾ بالجمع[(٢)].

وذهب الطبري إلى أنه القرآن، كما يقال: كلمة فلان، في قصيدة الشعر والخطبة البليغة[(٣)].

قال القاضي أبو محمد: وهذا عندي بعيد معترض، وإنما القصد: العبارة عن نفوذ قوله تعالى: ﴿صِدْقًا﴾ فيما تضمنه من خبر و(عدلاً) فيما تضمنه من حكم، وهما مصدران في موضع الحال، قال الطبري: نُصبا على التمييز، وهذا غير صواب.

و﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ معناه: في معانيها، بأن يبين أحد أن خبره بخلاف ما أخبر به، أو[(٤)] يبين أن أمره لا ينفذ، والمثال من هذا: أن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾ إلى ﴿ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣]، فقال المنافقون بعد ذلك للنبي ﷺ وللمؤمنين: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡ﴾، فقال الله لنبيه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُ﴾ [الفتح: ١٥]، أي[(٥)]: في قوله: ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا﴾ لأن مضمنه الخبر بأن لا يباح لهم خروج، وأما الألفاظ فقد

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٢١٢)، عن رجل من أسلم فذكره، وأخرجه الطبري في التاريخ (١/ ٥٤٨) من طريق ابن إسحاق.

(٢) وكلها سبعية، انظر: التيسير (ص: ١٠٦)، وستأتي المواضع الأخرى في محلها.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٦٢).

(٤) في السليمانية: «أي».

(٥) تحرف في المطبوع إلى: «أو».

بدلتها بنو إسرائيل وغيرتها، هذا مذهب جماعة من العلماء، وروي عن ابن عباس أنهم إنما بدلوا بالتأويل[١]، والأول أرجح.

وفي حرف أبي بن كعب: (لا مبدل لكلمات الله)[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، المعنى: فامض يا محمد لما أُمرت به وانفُذ لرسالتك فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك، وذكر ﴿أَكْثَرَ﴾ لأن أهل الأرض حينئذ كان أكثرهم كافرين، ولم يكن المؤمنون إلا قلة، وقال ابن عباس: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ هنا الدنيا[٣].

وحكي أن سبب هذه الآية: أن المشركين جادلوا رسول الله ﷺ في أمر الذبائح، وقالوا: تأكل ما تقتل وتترك ما قتل الله؟، فنزلت الآية[٤]، ووصفهم عز وجل بأنهم إنما يقتدون بظنونهم ويتبعون تخرصهم، والخرص الحَزْر والظن.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَضِلُّ﴾ بفتح الياء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: (يُضِلُّ) بضم الياء، ورواه أحمد بن أبي شريح[٥] عن الكسائي[٦].

و﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن يَضِلُّ﴾ في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: يعلم من،

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) وهي قراءة شاذة، تابعه عليها في البحر المحيط (٤/ ٦٢٩).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٨١٨-٢٨١٩)، وابن ماجه (٣١٧٣)، والنسائي (٤٤٣٧)، وفي الكبرى (٤٥١١-١١١٠٦)، والطبراني في الكبير (١١٦١٤-١٢٢٩٥)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٢٦-٢٥٧-٢٦٠)، والبيهقي في السنن (٩/ ٢٤٠-٢٤١) وغيرهم من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، وهو صحيح بمجموعها.

(٥) لعل الصواب أنه أحمد بن أبي سريج الصباح النهشلي، أبو جعفر الرازي البغدادي، قرأ القرآن على أبي الحسن الكسائي، وأقرأه، وسمع: شعيب بن حرب، وابن علية، ووكيعاً، وجماعة، وقال النسائي: ثقة. تاريخ الإسلام (١٨/ ١٥٥).

(٦) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٤٦)، والمحتسب (١/ ٢٢٨)، والبحر المحيط (٤/ ٦٣٠).

وقيل: في موضع رفع، كأنه قال: أيٌّ يضل عن سبيله، ذكره أبو الفتح، وضعفه أبو علي[١].
قيل: في موضع خفض بإضمار باء الجر، كأنه قال: بمن يضل عن سبيله، وهذا ضعيف.

قال أبو الفتح: هذا هو المراد، فحذفت باء الجر، ووصل ﴿أَعْلَمُ﴾ بنفسه، قال: ولا يجوز أن يكون ﴿أَعْلَمُ﴾ مضافاً إلى ﴿مَن﴾ لأن أفعل التفضيل بعض ما يضاف إليه.

وهذه الآية خبر في ضمنه وعيد للضالين ووعد للمهتدين.

قوله عز وجل: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

القصد بهذه الآية النهي عما ذبح للنصب وغيرها، وعن الميتة وأنواعها، فجاءت العبارة أمراً بما يضاد ما قصد النهي عنه، ولا قصد في الآية إلى ما نسي فيه المؤمن التسمية أو تعمدها بالترك.

وقال عطاء: هذه الآية أمر بذكر اسم الله على الشراب والطعام والذبح وكل مطعوم[٢].

وقوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم بأحكامه وأوامره آخذين، فإن الإيمان بها يتضمن ويقتضي الأخذ بها والانقياد لها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ﴾ الآية، (ما): استفهام يتضمن التقرير، وتقدير هذا الكلام: وأي شيء لكم في أن لا تأكلوا؟ فـ(أن) في موضع خفض بتقدير حرف الجر، ويصح أن تكون في موضع نصب على أن لا يقدر حرف جر، ويكون

---

(١) انظر المحتسب (١/ ٢٢٨) وسيأتي باقي كلامه، وانظر كلام أبي علي الفارسي على هذه الآية في الحجة (٣/ ٣٩٢).
(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٦٧).

الناصب معنى الفعل الذي في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ تقديره: ما يجعلكم؟

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ﴾ أي: قد بين لكم الحرام من الحلال وأزيل عنكم اللبس والشك.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿وقد فُصِّل لكم ما حُرّم عليكم﴾ على بناء الفعل للمفعول في الفعلين.

وقرأ نافع وحفص عن عاصم: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ على بناء الفعل للفاعل في الفعلين.

وقرأ أبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي: ﴿وقد فَصَّل﴾ [على إسناد الفعل إلى الفاعل ﴿لكم ما حُرِّم﴾][١] على بناء الفعل إلى المفعول[٢].

وقرأ عطية العوفي: (وقد فَصَل) [على بناء الفعل للفاعل وفتح الصاد وتخفيفها، (ما حُرِّم)][٣] على بناء الفعل للمفعول[٤]، والمعنى: قد فصل الحرام من الحلال وانتزعه بالتبيين.

و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ﴾ يريد بها: من جميع ما حرم كالميتة وغيرها، وهي في موضع نصب بالاستثناء، والاستثناء منقطع.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ يريد الكفرة المحادين المجادلين في المطاعم بما ذكرناه من قولهم: تأكلون ما تذبحون ولا تأكلون ما ذبح الله.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿لَيَضلون﴾ بفتح الياء على معنى إسناد الضلال إليهم في هذه السورة وفي يونس: ﴿ربَّنا ليَضلوا﴾ [٨٨]، وفي سورة إبراهيم: ﴿أنداداً

---

(١) ساقط من الأصل ونجيبويه.

(٢) وكلها سبعية، انظر: السبعة في القراءات (ص: ٢٦٧)، والتيسير (ص: ١٠٦).

(٣) ساقط من الأصل ونجيبويه.

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٤٦)، والمحتسب (١/ ٢٢٧).

ليَضِلُّوا﴾[٣٠]، وفي الحج: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيَضِلَّ﴾[٩]، وفي لقمان: ﴿لِيَضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾[٦]، وفي الزمر: ﴿أَندَاداً لِيَضِلَّ﴾ [٨]، وقرأ نافع وابن عامر كذلك في هذه وفي يونس وفي الأربعة التي بعد هذه[١] يضمان الياء على معنى إسناد إضلال غيرهم إليهم، وهذه أبلغ في ذمهم؛ لأن كل مضل ضالٌّ وليس كل ضال مضلّاً.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي في المواضع الستة: ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾ بضم الياء[٢] على معنى إسناد إضلال غيرهم إليهم.

[٢/ ١٠٩] ثم بين عز وجل في ضلالهم أنه على أقبح الوجوه، وأنه بالهوى لا بالنظر والتأمل / .

و﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ معناه: في غير نظر، فإن لمن يَضِلُّ بنظرٍ ما بعضُ عذر لا ينفع في أنه اجتهد.

ثم توعدهم تعالى بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

هذا نهي عام من طرفيه؛ لأن ﴿ٱلْإِثْمَ﴾ يعم الأحكام والنسب اللاحقة للعصاة عن جميع المعاصي، والظاهر والباطن يستوفيان جميع المعاصي.

وقد ذهب المتأولون إلى أن الآية من ذلك في مخصَّص، فقال السدي: «ظاهره»: الزنا الشهير الذي كانت العرب تفعله، و(باطنه): اتخاذ الأخدان[٣].

وقال سعيد بن جبير: «الظاهر»: ما نصَّ الله على تحريمه من النساء بقوله: ﴿ حُرِّمَتْ

---

(١) في السليمانية وفيض الله: «هذين».

(٢) وكلها سبعية، انظر: السبعة في القراءات (ص: ٢٦٧)، والتيسير (ص: ١٠٦)، وسقط «عاصم» من لالاليه.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٧٤)، والنكت والعيون للماوردي (٢/ ١٦١)، وتفسير الثعلبي (٤/ ١٨٥)، وفي المطبوع: «الأخذان».

عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ الآية [النساء: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ الآية [النساء: ٢٢]، و«الباطن»: الزنا

وقال ابن زيد: «الظاهر»: التعري، و«الباطن»: الزنا(١).

قال القاضي أبو محمد: يريد التعري الذي كانت العرب تفعله في طوافها.

قال قوم: الظاهر: الأعمال، والباطن: المعتقد.

قال القاضي أبو محمد: وهذا حسن؛ لأنه عام.

ثم توعد تعالى كسبة الإثم بالمجازاة على ما اكتسبوه من ذلك وتحملوا ثقله، و«الاقتراف»: الاكتساب.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

المقصد بهذه الآية النهي عن الميتة؛ إذ هي جواب لقول المشركين: تتركون ما قتل الله؟ والنهي أيضاً عما ذبح للأنصاب، ومع ذلك فلفظها يعم ما تركت التسمية عليه من ذبائح الإسلام، وبهذا العموم تعلق محمد بن سيرين وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة(٢) وعبد الله بن عمر ونافع وعبد الله بن يزيد الخَطْمي والشعبي وغيرهم فيما تركت التسمية عليه نسياناً أو عمداً لم يؤكل(٣).

---

(١) انظر القولين في تفسير الطبري (٢٢/ ٧٤)، والنكت والعيون للماوردي (٢/ ١٦١)، وتفسير الثعلبي (٤/ ١٨٥).

(٢) عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة القرشي المخزومي، ولد بأرض الحبشة، وله رؤية وشرف، وكان من أقرأ أهل المدينة لكتاب الله وأقومهم به، قرأ على أبي بن كعب، روى عنه: ابنه الحارث، وأبو جعفر مولاه، توفي سنة (٧٦هـ). تاريخ الإسلام (٥/ ٤٦٨).

(٣) انظر قول نافع وابن سيرين والشعبي في: التمهيد (٢٢/ ٣٠٢)، وانظر قول عبد الله بن يزيد الخطمي في: تفسير الطبري (١٢/ ٨٤)، وانظر قول عبد الله بن عمر وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة في: تفسير القرطبي (٧/ ٧٥)، وعبد الله بن يزيد تقدم في سورة النساء.

وقالت طائفة عظيمة من أهل العلم: يؤكل ما ذبح ولم يسم عليه نسياناً، ولا يؤكل ما لم يسم عليه عمداً، وهذا قول الجمهور(١).

وحكى الزهراوي عن مالك بن أنس أنه قال: تؤكل الذبيحة التي تركت التسمية عليها عمداً أو نسياناً، وعن ربيعة أيضاً(٢)، قال عبد الوهَّاب: التسمية سنَّة، فإذا تركها الذابح ناسياً أكلت الذبيحة في قول مالك وأصحابه، وإذا تركها عمداً فقال مالك: لا تؤكل، فحمل بعض أصحابه قوله: لا تؤكل، على التحريم، وحمله بعضهم على الكراهة(٣)، وقال أشهب: تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمداً إلا أن يكون مستخفّاً، وقال نحوه الطبريُّ(٤).

وذبائح أهل الكتاب عند جمهور العلماء في حكم ما ذكر اسم الله عليه من حيث لهم دين وتشرُّع(٥)، وقال قوم: نسخ من هذه الآية ذبائح أهل الكتاب، قاله عكرمة والحسن ابن أبي الحسن(٦).

والضمير في (إنَّهُ) من قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ عائدٌ على الأكل الذي تضمنه الفعل في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟﴾، ويحتمل أن يعود على ترك الذكر الذي يتضمنه قوله: ﴿لَمْ يُذْكَرِ﴾، و«الفسق»: الخروج عن الطاعة، هذا عُرفه في الشرع.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ الآية، قال عكرمة: عنى بالشياطين في هذه الآية مردة الإنس من مجوس فارس(٧)، وذلك أنهم كانوا يوالون قريشاً على عداوة

(١) انظر نسبة القول للجمهور في التمهيد (٢٢/ ٣٠١).

(٢) انظر ما حكاه الزهراوي عن مالك في: تفسير القرطبي (٧/ ٧٥)، وانظر ما نسب لربيعة في: المغني (٩/ ٣١٠).

(٣) انظر قول عبد الوهاب في: المعونة (١/ ٤٦٠).

(٤) تفسير الطبري (٢٢/ ٨٥ و٨٨) وانظر قول أشهب في: مواهب الجليل (٤/ ٣٢٩).

(٥) انظر الإجماع على إباحة ذبائحهم ما لم يذكروا عليها غير اسم الله في: الإقناع (٢/ ٥٩٦).

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٨٧).

(٧) انظر: المصدر السابق (١٢/ ٧٧).

النبي ﷺ، فخاطبوهم منبهين على الحجة التي ذكرناها في أمر الذبائح من قولهم: تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟! فذلك من مخاطبتهم هو الوحي[(١)] الذي عنى، و«الأولياء»: قريش، و«المجادلة»: هي تلك الحجة.

وقال ابن عباس وعبد الله بن كثير: بل ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾: الجن[(٢)]، واللفظة على وجهها، وكفرة الجن أولياء لكفرة قريش، ووحيهم إليهم كان بالوسوسة حتى ألهموهم لتلك الحجة، أو على ألسنة الكهان.

وقال أبو زُميل[(٣)]: كنت عند ابن عباس، فجاءه رجلٌ فقال: إن أبا إسحاق ـ يعني المختار ـ زعم أنه أوحي إليه الليلة، فقال ابن عباس: صدق، فنفرتُ، فقال ابن عباس: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾[(٤)].

ثم نهى الله عز وجل عن طاعتهم بلفظ يتضمن الوعيد، وعرض أصعب مثال في أن يشبه المؤمن بمشرك، وحكى الطبري عن ابن عباس قولا: إن الذين جادلوا بتلك الحجة هم قوم من اليهود[(٥)].

---

(١) تحرف في المطبوع إلى: «الحي»، وفيه: «والأولياء قرائن»، بدل «قريش» وهو تحريف أيضاً.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣٨٠٨) من طريق عطاء الخراساني عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعطاء لم يسمع من ابن عباس كما قاله الإمام أحمد. انظر: جامع التحصيل (٥٢٢).

(٣) هو سماك بن الوليد الحنفي أبو زميل اليمامي، نزل الكوفة، وروى عن ابن عباس، وابن عمر، ومالك ابن مرثد. وعنه عكرمة بن عمار، والأوزاعي، ومسعر، وشعبة، وغيرهم. وثقه أحمد وغيره، من الطبقة الثانية عشرة، تاريخ الإسلام (٧/ ٣٧٦).

(٤) لا بأس به، أخرجه الطبري (١٣٨٣٢) من طريق أبي حذيفة قال، حدثنا عكرمة، عن أبي زميل سماك ابن الوليد، عن ابن عباس به. وأبو حذيفة هو موسى بن مسعود، وعكرمة هو ابن عمار، والإسناد لا بأس به.

(٥) في إسناده مقال، أخرجه الطبري (١٣٨٢٥) من طريق عمران بن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعطاء بن السائب اختلط، ولا يدرى هل سمع منه عمران بن عيينة، قبل الاختلاط، أو بعده، ولكن عمران كوفي، ورواية البصريين عن عطاء بعد الاختلاط لأنه قدم عليهم في آخر عمره.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّ اليهود لا تأكل الميتة، أما إن ذلك يتجه منهم على جهة المغالطة كأنهم يحتجون عن العرب.

قوله عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

تقدم في هذه الآية السالفة ذكر قوم مؤمنين أمروا بترك ظاهر الإثم وباطنه وغير ذلك، وذكر قوم كافرين يضلون بأهوائهم وغير ذلك، فمثَّل الله عز وجل في الطائفتين بأن شبه الذين آمنوا بعد كفرهم بأموات أحيوا، هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما[١]، وشبه الكافرين وحيرة جهلهم بقوم في ظلمات يترددون فيها ولا يمكنهم الخروج منها؛ ليبين عز وجل الفرق بين الطائفتين والبون بين المنزلتين.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَوَمَن﴾ بفتح الواو، فهي ألف استفهام دخلت على واو عطف جملة على جملة، و(من) بمعنى الذي.

وقرأ طلحة بن مصرف: (أفمن) بالفاء[٢]، والمعنى قريب من معنى الواو.

والفاء في قوله: ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ عاطفة، و﴿نُورًا﴾ أمكنُ ما يُعنَى[٣] به الإيمان. و﴿يَمْشِى بِهِۦ﴾ يراد به جميع التصرف في الأفعال والأقوال.

قال أبو علي: ويحتمل أن يراد النور الذي يؤتاه المؤمنون يوم القيامة[٤].

و﴿فِى ٱلنَّاسِ﴾ متعلق بـ﴿يَمْشِى﴾، ويصح أن يتعلق بـ﴿كَانَ مَيْتًا﴾[٥].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٩٠ و٩١)، ومعاني القرآن للنحاس (٢/ ٤٨٣)، وتفسير الثعلبي (٤/ ١٨٦).

(٢) لم أجدها، وهي تخالف مصاحف المسلمين، فلعلها وهم منه أو من ناقلها.

(٣) في المطبوع: «يقي»، مع التنبيه على النسخة الأخرى في الهامش.

(٤) انظر: الحجة للفارسي (٣/ ٣٩٩).

(٥) في السليمانية وفيض الله: «بخارج منها».

وقوله تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ﴾ بمنزلة: كمن هو.

والكاف في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾ / متعلقة بمحذوف يدل ظاهر الكلام عليه، [٢/ ١١٠] تقديره: وكما أحيينا المؤمنين وجعلنا لهم نوراً كذلك زين للكافرين، ويحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ﴾ أي: كهذه الحال هو التزيين.

وقرأ نافع وحده: ﴿ميِّتاً﴾ بكسر الياء وشدها، وقرأ الباقون: ﴿ميْتاً﴾ بسكون الياء[١].

قال أبو علي: التخفيف كالتشديد، والياء المحذوفة هي الثانية المنقلبة عن واو أعلت بالحذف كما أعلت بالقلب[٢].

وقالت طائفة: إن هذه الألفاظ التي مثَّل بها وإن كانت تعم كل مؤمن وكل كافر، فإنما نزلت في مخصوصين، فقال الضحاك: المؤمن الذي كان ميتاً فأحيي عمر بن الخطاب[٣].

وحكى المهدوي عن بعضهم أنه حمزة بن عبد المطلب[٤]، وقال عكرمة: عمار ابن ياسر[٥]، وقال الزجاج: جاء في التفسير أنه يُعنى به النبي ﷺ[٦].

قال القاضي أبو محمد: واتفقوا على أن الذي في الظلمات أبو جهل بن هشام، وإلى حاله وحال أمثاله هي الإشارة والتشبيه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ وهذه الآية

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٠٦)، والسبعة في القراءات (ص: ٢٦٨).

(٢) انظر: الحجة للفارسي (٣/ ٣٩٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٨٩)، والهداية لمكي (٣/ ٢١٧٢).

(٤) انظر: التحصيل للمهدوي (٢/ ٦٦٥) وحكاه الواحدي في أسباب النزول (ص: ١٥٠) والثعلبي في التفسير (٤/ ١٨٦) عن ابن عباس.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٩٠)، والهداية لمكي (٣/ ٢١٧٢).

(٦) انظر: معاني القرآن للزجاج (٢/ ٢٨٨)، والهداية لمكي (٣/ ٢١٧٢).

تتضمن إنذاراً بفساد حال الكفرة المتقدم ذكرهم؛ لأنه مقتضى حال من تقدمهم من نظرائهم.

وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في المستهزئين[١].

قال القاضي أبو محمد: يعني أن التمثيل لهم.

و﴿جَعَلْنَا﴾ في هذه الآية بمعنى: صيَّرنا، فهي تتعدى إلى مفعولين، الأول: ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ والثاني: ﴿أَكَابِرَ﴾، وفي الكلام على هذا تقديم وتأخير، تقديره: وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر، وقدم الأهم إذ لعلة كبرهم[٢] أجرموا، ويصح أن يكون المفعول الأول: ﴿أَكَابِرَ﴾ و﴿مُجْرِمِيهَا﴾ مضاف، والمفعول الثاني قوله: ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾، و﴿لِيَمْكُرُوا﴾ نصب بلام الصيرورة.

و«الأكابر» جمع أكبر كما الأفاضل جمع أفضل، ويقال: أكابرة، كما يقال: أحمر وأحامرة، ومنه قول الشاعر:

[الكامل] إنَّ الأحَامِرَة الثَّلاثَةَ أَتْلَفَتْ مَالي وكُنْتُ بِهِنّ قِدْماً مُولَعاً[٣]

يريد: الخمر واللحم والزعفران.

و«المكر»: التخيل بالباطل والخديعة ونحوهما، وقوله: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يريد: لرجوع وبال ذلك عليهم، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ما يعلمون، وهي لفظة مأخوذة من الشعار، وهو الشيء الذي يلي البدن، فكأن الذي لا يشعر نفي عنه أن يعلم علمَ حس، وفي ذلك مبالغة في صفة جهله؛ إذ البهائم تعلم علوم الحس، وأما هذه الآية فإنما نفي فيها الشعور في نازلة مخصوصة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٩٤).

(٢) في الحمزوية: «لقلة كبيرهم».

(٣) البيت للأعشى كما في الفاضل (ص: ٢١)، ومقاييس اللغة (٢/ ١٠١)، وأساس البلاغة (١/ ٢١٢)، وقد فسر الثلاثة في البيت الذي بعده بقوله:

الخمر واللحم السمين وأطلي بالزعفران فلن أزال مبقعا

وفي نجيبويه ولالاليه: «أهلكت» بدل: «أتلفت».

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

هذه الآية آية ذم للكفار وتوعد لهم، يقول: وإذا جاءتهم علامة، ودليل على صحة الشرع، تشططوا وتسحبوا، وقالوا: إنما يفلق لنا البحر، إنما يحيي لنا الموتى، ونحو ذلك، فرد الله عز وجل عليهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: فيمن اصطفاه وانتخبه، لا فيمن كفر وجعل يتشطط على الله.

قال الزجاج: قال بعضهم: الأبلغ في تصديق الرسل أن لا يكونوا قبل المبعث مطاعين في قومهم، و﴿أَعۡلَمُ﴾ معلق العمل، والعامل في ﴿حَيۡثُ﴾ فعل تقديره: يعلم حيث.

ثم توعد تعالى بأن هؤلاء المجرمين الأكابر في الدنيا سيصيبهم عند الله صغار وذلة، و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ متعلقة بـ﴿سَيُصِيبُ﴾، ويصح أن تتعلق بـ﴿صَغَارٌ﴾ لأنه مصدر، قال الزجّاج: التقدير: صغار ثابت عند الله[1]، قال أبو علي: وهو متعلق بـ﴿صَغَارٌ﴾ دون تقدير: ثابتٌ، ولا شيء غيره[2].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ الآية، (مَن): أداة شرط، و﴿يَشۡرَحۡ﴾ جواب الشرط.

والآية نص في أن الله عز وجل يريد هدى المؤمن وضلال الكافر، وهذا عند جميع أهل السنة بالإرادة القديمة التي هي صفة ذاته تبارك وتعالى.

---

(١) انظر كلام الزجاج هذا والذي قبله في معاني القرآن وإعرابه له (٢/ ٢٨٩).
(٢) لعله في الإغفال الذي يستدرك فيه غالباً على الزجاج، وكلامه الآتي في الحجة هو على الآية الثانية.

و«الهدى» في هذه الآية هو خلق الإيمان في القلب واختراعه، و«شرح الصدر» هو تسهيل الإيمان وتحبيبه وإعداد القلب لقبوله وتحصيله.

و«الهدى» لفظة مشتركة تأتي بمعنى الدعاء، كقوله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]. وتأتي بمعنى إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق والأعمال المفضية إليها، كقوله تعالى: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٥] وغير ذلك.

إلا أنها في هذه الآية، وفي قوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِيۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وفي قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] ونحوها لا يتجه حملها إلا على خلق الإيمان واختراعه، إذ الوجوه الأُخر من الهدى تدفعها قرائن الكلام مما قبل وبعد.

وقوله: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ﴾ ألفاظ مستعارة هاهنا؛ إذ «الشرح»: التوسعة والبسط في الأجسام، وإذا كان الجِرم مشروحاً موسعاً كان معدّاً ليحل فيه، فشبه توطئة القلب وتنويره وإعداده للقبول بالشرح والتوسيع، وشبه قبوله وتحصيله للإيمان بالحلول في الجرم المشروح.

و«الصدر» عبارة عن القلب وهو المقصود؛ إذ الإيمان من خصاله، وكذلك «الإسلام» عبارة عن الإيمان إذ الإسلام أعم منه، وإنما المقصود هنا الإيمان فقط بدليل قرينة الشرح والهدى، ولكنه عبر بالإسلام إذ هو أعم، وإذ من الهدى[(١)] حُب الأعمال وامتثال العبادات.

وفي ﴿يَشْرَحْ﴾ ضمير عائد على المَهْديِّ[(٢)]، قال: وعوده على الله عز وجل أبين[(٣)].

---

(١) في الحمزوية: «وآكد من الهدى»، وفي المطبوع: «وأدنى الهدى».

(٢) في الحمزوية، والمطبوع: «الهدى».

(٣) فاعل «قال» هو أبو علي المذكور في أول الكلام، انظر كلامه في الحجة للقراء السبعة (٣/ ٤٠٢).

قال القاضي أبو محمد: والقول بأن الضمير عائد على الـمَهْدي[١] قول يتركب عليه مذهب القدرية في خلق الأفعال، وينبغي أن يعتقد ضعفه، وأن الضمير إنما هو عائد على اسم الله عز وجل، فإن هذا يعضده اللفظ والمعنى.

وروي عن النبي ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية، قالوا: يا رسول الله، كيف يشرح الصدر؟ قال: «إذا نزل النور في القلب انشرح له الصدر / وانفسح»، قالوا: وهل لذلك علامة يا رسول الله؟ قال: «نعم: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل الفوت»[٢]. [٢/ ١١١]

والقول في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ كالقول في قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾.

وقوله: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ ألفاظ مستعارة تضاد شرح الصدر للإسلام، و﴿يَجْعَلْ﴾ في هذا الموضع تكون بمعنى: يحكم له بهذا الحكم، كما تقول: هذا يجعل البصرة مصراً، أي: يحكم لها بحكمها.

قال القاضي أبو محمد: وهذا المعنى يقرب من صيَّر، وحكاه أبو علي الفارسي، وقال أيضا: يصح أن يكون (جعل) بمعنى سمى، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩] أي: سمَّوهم، قال: وهذه الآية تحتمل هذا المعنى[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا الوجه يضعف في هذه الآية.

---

(١) في المطبوع: «الهدى».

(٢) في صحته نظر، أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٢/ ٦٤)، والطبري (١٣٨٥٢-١٣٨٥٣-١٣٨٥٤)، وابن أبي حاتم (٧٨٧٢-٧٨٧٣) من طريق عمرو بن مرة، عن أبي جعفر عبد الله بن المسور بن عون ابن جعفر بن أبي طالب مرسلاً عن النبي ﷺ، وأبو جعفر هذا متروك، بل كذاب، وقد اختلف على عمرو بن مرة على أكثر من وجه، ذكر هذه الأوجه الدارقطني في العلل (٥/ ١٨٩) ورجح الرواية المرسلة، وللحديث طرق أخرى لا يخلو واحد منها من مقال، وبعضها شديد، وفي بعضها انقطاع، وقد استوعب طرقه وألفاظه ابن كثير في التفسير (٣/ ٣٣٦) وقال: فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً.

(٣) هذا كله من بقية كلام الفارسي في الحجة (٣/ ٤٠٥).

وقرأ جمهور الناس والسبعة سوى ابن كثير: ﴿ضَيِّقًا﴾ بكسر الياء وتشديدها، وقرأ ابن كثير: ﴿ضيقاً﴾ بسكون الياء، وكذلك قرأ في الفرقان[١].

قال أبو علي: وهما بمنزلة الميّت والميت[٢].

قال الطبري: وبمنزلة الهيّن والليّن والهين واللين، قال: ويصح أن يكون الضيق مصدراً من قولك: ضاق والأمر يضيق ضَيقاً وضِيقاً، وحكي عن الكسائي أنه قال: «الضِّيق» بشد الضاد وكسرها في الأجرام والمعاش، و«الضَّيق» بفتح الضاد: في الأمور والمعاني[٣].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿حَرَجًا﴾ بفتح الراء.

وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿حرِجاً﴾ بكسرها[٤].

قال أبو علي: فمن فتح الراء كان وصفاً بالمصدر، كما تقول: رجل قَمِنٌ بكذا وحَرىً بكذا ودَنَف، ومن كسر الراء فهو كدنِف وقمِن وفرِق[٥].

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأها يوماً بفتح الراء، فقرأها له بعض الصحابة بكسر الراء، فقال: ابغوني رجلاً من كنانة وليكن راعياً[٦] من بني مدلج، فلما جاءه قال له: يا فتى، ما الحَرَجة عندكم؟ قال: الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية، قال عمر: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير[٧].

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: كأن هذا الضَّيِّقَ الصدر يحاول

---

(١) الآية: (١٤) وهما سبعيتان، انظر التيسير (ص: ١٠٦).

(٢) الحجة لأبي علي الفارسي (٣/ ٤٠٠).

(٣) انظر كلام الطبري، ونقله عن الكسائي في التفسير (١٢/ ١٠٧).

(٤) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٠٦)، والسبعة في القراءات (ص: ٢٦٨).

(٥) الحجة لأبي علي الفارسي (٣/ ٤٠١).

(٦) في السليمانية ونور العثمانية: «واعياً».

(٧) ضعيف، أخرجه الطبري (١٣٨٦٢) من طريق عبد الله بن عمار رجل من أهل اليمن، عن أبي الصلت الثقفي عن عمر رضي الله عنه فذكره. وهذا إسناد ضعيف، لجهالة عبد الله بن عمار اليمامي.

الصعود في السماء متى حاول الإيمان أو فكر فيه، ويجد صعوبته عليه كصعوبة الصعود في السماء، قال بهذا التأويل ابن جريج وعطاء الخراساني والسدي، وقال ابن جبير: المعنى: لا يجد مسلكاً إلا صُعُداً[١] من شدة التضايق[٢].

وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿يَصَّعَّدُ﴾ بإدغام التاء من يتصعد في الصاد.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿يصَّاعد﴾ بإدغام التاء من يتصاعد في السماء.

وقرأ ابن كثير وحده: ﴿يَصْعد﴾[٣].

وقرأ ابن مسعود والأعمش وابن مصرف: (يتصعد) بزيادة تاء.

و﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يريد به من سفل إلى علو[٤] في الهواء، قال أبو علي[٥]: ولم يرد السماء الُمظلة بعينها، وإنما هو كما قال سيبويه: والقيدود: الطويل في غير سماء[٦]، يريد في غير ارتفاع صعداً، قال: ومن هذا قوله عز وجل: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] أي: في وجهة الجو.

قال القاضي أبو محمد: وهذا على غيرِ مَن تأول تقلب الوجه أنه الدعاء إلى الله عز وجل في الهداية إلى قبلة، فإن مع الدعاء يستقيم أن يقلب وجهه في السماء المظلة حسب عادة الداعين، إذ قد ألِفوا مجيء النعم والآلاء من تلك الجهة، وتحتمل الآية أن يكون التشبيه بالصاعد في عقبة كؤود كأنه يصعد بها في الهواء.

و﴿يَصْعَدَ﴾ معناه: يعلو، و﴿يَصَّعَّدُ﴾ معناه: يتكلف من ذلك ما يشق عليه، ومنه

---

(١) في لالاليه: «صعوداً»، وأشار إلى النسخة الأخرى في هامشه.
(٢) انظر القولين في تفسير الطبري (٢٢/ ١٠٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٨٥).
(٣) وكلها سبعية متواترة، انظر: التيسير (ص: ١٠٦)، والسبعة في القراءات (ص: ٢٦٨).
(٤) في الأصل: «من علو إلى سفل».
(٥) في الحجة (٣/ ٤٠٥).
(٦) الكتاب (٤/ ٣٦٥).

قول عمر بن الخطاب: «ما تصعَّدني شيء كما تصعَّدني خطبة النكاح»[١]، إلى غير ذلك من الشواهد، و﴿يصَّاعد﴾ في المعنى مثل ﴿يصَّعَّد﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: وكما كان هذا كله من الهدى والضلال بإرادة الله عز وجل ومشيئته كذلك يجعل الله الرجس.

قال أهل اللغة: «الرِّجس» يأتي بمعنى العذاب، ويأتي بمعنى النجس.

وحكى الطبري عن مجاهد أنه قال: ﴿ٱلرِّجْسَ﴾ كل ما لا خير فيه[٢]، وقال بعض الكوفيين: الرجس والنجس لغتان بمعنى[٣]، و﴿يَجْعَلُ﴾ في هذا الموضع يحسن أن تكون بمعنى يلقي، كما تقول: جعلت متاعك بعضه على بعض، وكما قال عز وجل: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٣٧].

قال القاضي أبو محمد: وهذا المعنى في «جعل» حكاه أبو علي الفارسي، ويحسن أن تكون ﴿يَجْعَلُ﴾ في هذه الآية بمعنى: يصيِّر، ويكون المفعول[٤] الثاني في ضمن ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، كأنه قال: قرين الذين، أو: لزيم الذين، ونحو ذلك.

قوله عز وجل: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢٧)﴾.

(هذا) إشارة إلى القرآن والشرع الذي جاء به محمد ﷺ، قاله ابن عباس[٥]، و«الصراط»: الطريق، وإضافة الصراط إلى الرب على جهة أنه من عنده وبأمره.

---

(١) منقطع، أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث (٣/ ٣٨٧) من طريق حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عمر رضي الله عنه، ورواية عروة عن عمر مرسلة كما قال أبو حاتم وأبو زرعة، انظر: جامع التحصيل (٥١٥).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ١١١)

(٣) انظر قول مجاهد وبعض الكوفيين في تفسير الطبري (١٢/ ١١١).

(٤) في الأصل وفيض الله: «الفعل».

(٥) أخرجه الطبري (١٣٨٨٣) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس قال: قوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾، يعني به الإسلام.

و﴿مُسْتَقِيمًا﴾حال مؤكِّدة، وليست كالحال في قولك: جاء زيد راكباً، بل هذه المؤكدة تتضمن المعنى المقصود، و﴿فَصَّلْنَا﴾ معناه: بينا وأوضحنا.

وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: للمؤمنين الذين يُعِدُّون أنفسهم للنظر ويسلكون طريق الاهتداء، والضمير في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ عائد على القوم المتذكِّرين.

و﴿السَّلَامِ﴾ يتجه فيه معنيان:

أحدهما: أن ﴿السَّلَامِ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل، فأضاف الدار إليه إذ هي ملكه وخلقه.

والثاني: أنه المصدر بمعنى السلامة، كما تقول: السلام عليك، وكقوله عز وجل: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠].

وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يريد: في الآخرة بعد الحشر، و﴿وَلِيُّهُم﴾ أي: ولي الإنعام عليهم، و﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب ما كانوا يقدمون من الخير ويفعلون من الطاعة والبر.

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا / اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩)﴾. [٢/ ١١٢]

و﴿يَوْمَ﴾ نصبٌ بفعلٍ مضمر تقديره: واذكر يوم، ويحتمل أن يكون العامل ﴿وَلِيُّهُم﴾ والعطف على موضع قوله: ﴿بِمَا كَانُوا﴾.

والضمير في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ عائدٌ على الطائفتين الذين يجعل الله الرجس عليهم، وهم جميع الكفار جنّاً وإنساً، والذين لهم دار السلام جنّاً وإنساً، ويدل على ذلك التأكيد العام بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالنون[1]، وكلٌّ متجه.

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٠٧)، والسبعة في القراءات (ص: ٢٦٩).

ثم ذكر عز وجل ما يقال للجن الكفرة، وفي الكلام فعل مضمر يدل عليه ظاهر الكلام تقديره: نقول: يا معشر الجن.

وقوله: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم﴾ معناه: أفرطْتم[١].

و﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ يريد: في إضلالهم وإغوائهم، قاله ابن عباس[٢] ومجاهد وقتادة[٣].

وقال الكفار من الإنس ـ وهم أولياء الجن الموبَّخين ـ على جهة الاعتذار عن الجن: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: انتفع.

قال القاضي أبو محمد: وذلك في وجوه كثيرة، حكى الطبري وغيره أن الإنس كانت تستعيذ بالجن في الأودية ومواضع الخوف، وكانت الجن تتعظم على الإنس وتسودها كما يفعل الرئي[٤] بالكاهن والمجير بالمستجير؛ إذ كان العربي إذا نزل وادياً ينادي: يا رب الوادي إني أستجير بك هذه الليلة، ثم يرى أن سلامته إنما هي بحفظ جني ذلك الوادي فهذا استمتاع بعضهم ببعض[٥].

قال القاضي أبو محمد: وهذا مثال في الاستمتاع ولو تُتبع لتبينَّتْ له وجوهٌ أُخر كلها دنياوية.

وبلوغ الأجل المؤجل، قال السدي: هو الموت الذي انتهى الكل منهم إليه[٦]، وقيل: هو الحشر، وقيل: هو الغاية التي انتهى جميعهم إليها من الاستمتاع، كأنهم أشاروا إلى أن ذلك بقدرك وقضائك؛ إذ لكل كتاب أجل.

---

(١) في المطبوع: «فرطتم».

(٢) أخرجه الطبري (١٣٨٨٥)، وابن أبي حاتم (٧٨٩٠) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ١١٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٨٧).

(٤) كتبت في الأصل: «الربي»، وفي المطبوع: «العربي».

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ١١٦).

(٦) انظر: المصدر السابق (١٢/ ١١٧).

وقرأ الحسن: (وبلِّغنا أجلنا) بكسر اللام مشددة[١].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ الآية، إخبار من الله عز وجل عما يقول لهم يوم القيامة إثر كلامهم المتقدم، وجاء الفعل بلفظ الماضي، وهو في الحقيقة مستقبل؛ لصحة وقوعه، وهذا كثير في القرآن وفصيح الكلام.

و﴿مَثْوَىٰكُمْ﴾ أي: موضع ثوابكم، كمقامكم الذي هو موضع الإقامة، هذا قول الزجّاج وغيره[٢].

قال أبو علي في «الإغفال»: المثوى عندي مصدر لا موضع، وذلك لعمله في الحال التي هي ﴿خَٰلِدِينَ﴾ والموضع ليس فيه معنى فعل فيكون عاملاً، والتقدير: النار ذات ثوابكم، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قالت فرقة: ﴿مَا﴾ بمعنى: «مَن»، فالمراد: إلا من شاء ممن آمن في الدنيا بعد أن كان من هؤلاء الكفرة[٣].

قال القاضي أبو محمد: ولما كان هؤلاء صنفاً ساغت في العبارة عنهم ﴿مَا﴾.

وقال الفراء: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى: سوى، والمراد: سوى ما يشاء من زيادة في العذاب، ونحا إليه الزجّاج، وقال الطبري: إن المستثنى هي المدة التي بين حشرهم إلى دخولهم النار[٤].

قال القاضي أبو محمد: وساغ هذا من حيث العبارة بقوله: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ لا تخص بصيغتها مستقبل الزمان دون غيره.

وقال الطبري عن ابن عباس إنه كان يتأول[٥] في هذا الاستثناء: أنه مبلَغ حال هؤلاء في علم الله، ثم أسند إليه أنه قال: إن هذه الآية آية[٦] لا ينبغي لأحد أن

---

(١) وهي شاذة، انظر عزوها له في الشواذ للكرماني (ص: ١٧٨).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٩١).

(٣) الإغفال للفارسي (٢/ ٢١٣).

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٩١)، وتفسير الطبري (١٢/ ١١٨).

(٥) في المطبوع: «يتناول».

(٦) «آية» ليست في نور العثمانية

يحكم على الله في خلقه لا ينزلهم جنة ولا ناراً[١].

قال القاضي أبو محمد: والإجماع على التخليد الأبدي في الكفار[٢]، ولا يصح هذا عن ابن عباس رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد: ويتجه عندي في هذا الاستثناء أن يكون مخاطبة للنبي ﷺ وأمته، وليس مما يقال يوم القيامة، والمستثنى هو من كان من الكفرة يومئذ يؤمن في علم الله كأنه لما أخبرهم أنه يقال[٣] للكفار: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ استثنى لهم من يمكن أن يؤمن ممن يرونه يومئذ كافراً، وتقع ﴿مَا﴾ على صفةِ مَن يعقل، ويؤيد هذا التأويلَ اتصال قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: بمن يمكن أن يؤمن منهم.

و﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ صفتان مناسبتان لهذه الآية؛ لأن تخليد هؤلاء الكفرة في النار فعل صادر عن حكمة وعلم بمواقع الأشياء.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي﴾ قال قتادة: ﴿نُوَلِّي﴾ معناه: نجعل بعضهم ولي بعض في الكفر والظلم[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا التأويل يؤيده ما تقدم من ذكر الجن والإنس واستمتاع بعضهم ببعض.

وقال قتادة أيضاً: معنى ﴿نُوَلِّي﴾: نتبع بعضهم بعضاً في دخول النار، أي: نجعل بعضهم يلي بعضاً، وقال ابن زيد: معناه: نسلط بعض الظالمين على بعض ونجعلهم أولياء النقمة منهم[٥].

قال القاضي أبو محمد: وهذا التأويل لا تؤيده ألفاظ الآية المتقدمة، أَمَا إنه حفظ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣٨٩٢) بالإسناد المتقدم.

(٢) انظر حكاية الإجماع على ذلك في: شرح النووي على مسلم (١٧/ ٨٣).

(٣) في المطبوع: «قال».

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٨٨).

(٥) انظر القولين في تفسير الطبري (١٢/ ١١٩)، والأول منهما في تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٨٨).

في استعمال الصحابة والتابعين من ذلك ما روي: أن عبد الله بن الزبير لما بلغه أن عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد الأشدق، صعد المنبر فقال: إن فم الذُّبَّان[١] قتل لطيم الشيطان، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[٢].

قوله عز وجل: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ داخل في القول يوم الحشر، والضمير في ﴿مِّنكُمْ﴾ قال ابن جريج وغيره: عمم بظاهره الطائفتين، والمراد الواحدة تجوُّزاً، وهذا موجود في كلام العرب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وذلك إنما يخرج من الأجاج، وقال الضحاك: الضمير عائد على الطائفتين، وفي الجن رسل منهم[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف.

وقال ابن عباس: الضمير عائد على الطائفتين، ولكن رسل الجن هم رسلُ رسلِ[٤] الإنس، فهم رسل الله بواسطة إذ هم رسل رسله، وهم النذر[٥].

و﴿يَقُصُّونَ﴾ من القصص.

وقرأ عبد الرحمن الأعرج: (ألم تكن تأتيكم) بالتاء[٦] على تأنيث لفظ «الرسل».

---

(١) في فيض الله: «الزبان»، وفي السليمانية: «الزمان» وكلاهما تحريف.

(٢) الاشتقاق (١/ ٧٩)، والبيان والتبيين (١/ ٢١٠)، ولفظهم: «إن أبا ذبان...» إلخ، وأبو الذبان هو عبد الملك بن مروان بن الحكم.

(٣) انظر القولين في تفسير الطبري (١٢/ ١٢١)، والنكت والعيون للماوردي (٢/ ١٧٠).

(٤) «رسل» الثانية سقطت من الأصل والمطبوع.

(٥) منقطع، أخرجه الطبري في التفسير (١٣٨٩٧) من طريق ابن جريج، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولم يسمع منه.

(٦) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها له في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٣٢)، والشواذ للكرماني (ص: ١٧٨).

وقولهم: ﴿شَهِدۡنَا﴾ إقرار منهم بالكفر واعتراف، أي: شهدنا على أنفسنا بالتقصير.

[٢/ ١١٣] وقوله: / ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ التفاتة فصيحة تضمنت أن كفرهم كان بأذمِّ الوجوه لهم، وهو الاغترار الذي لا يواقعه عاقل.

ويحتمل (غرَّتْهُمُ) أن يكون بمعنى: أشبعتهم وأطغتهم[١] بحلوائها كما يقال: غر الطائرُ فرخَه.

وقوله: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ تَظْهَر ما[٢] بيْنه وبين ما في القرآن من الآيات التي تقتضي إنكار المشركين الإشراكَ مناقضةٌ، والجمع بينهما هو: إما بأنها طوائف، وإما طائفة واحدة في مواطن شتى، وإما أن يريد سبحانه بقوله هاهنا: (شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ)، شهادة الأيدي والأرجل والجلود بعد إنكارهم بالألسنة.

قال القاضي أبو محمد: واللفظ هاهنا يبعد من هذا.

وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن﴾ الآية، ﴿ذَٰلِكَ﴾ يصح أن يكون في موضع رفع على الابتداء، والخبر محذوف تقديره: ذلك الأمر، ويصح أن يكون في موضع نصب بتقدير: فعلنا، و﴿أَن﴾ مفعول من أجله، و﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾ المدن، والمراد: أهل القرى.

و﴿بِظُلۡمٍ﴾ يتوجه فيه معنيان، أحدهما: أن الله عز وجل لم يكن ليهلك المدن دون نذارة، فيكون ظلماً لهم إذا لم ينذرهم، والله ليس بظلام للعبيد، والآخر: أن الله عز وجل لم يهلك أهل القرى بظلم إذ ظلموا دون أن ينذرهم، وهذا هو البيِّن القويّ. وذكر الطبري رحمه الله التأويلين[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ﴾ الآية، إخبار من الله عز وجل أن المؤمنين

---

(١) في المطبوع: «أطمعتهم»، وفي الأصل: «أطعمتهم».
(٢) زيادة من السليمانية.
(٣) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ١٢٤).

في الآخرة على درجات من التفاضل بحسب أعمالهم وتفضُّل الله عليهم، والمشركين أيضاً على درجات من العذاب.

قال القاضي أبو محمد: ولكن كل مؤمن قد رضي بما أعطي غاية الرضا.

وقرأت الجماعة سوى ابن عامر: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ على لفظ كل، وقرأ ابن عامر وحده: ﴿ تعملون ﴾ على المخاطبة بالتاء[١].

قوله عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ صفة ذات الله عز وجل لأنه تبارك وتعالى لا يفتقر إلى شيء من جهة من الجهات، ثم تليت هذه الصفة بقوله: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ فأردف الاستغناء بالتفضل، وهذا أجمل تناسق، ثم عقب بهذه الألفاظ المضمنة الوعيد المحذِّرة من بطش الله عز وجل في التعجيل بذلك، وأما مع المهلة ومرور الجديدين، فكذلك عادة الله في الخلق، وأما «الاستخلاف» فكما أوجد الله تعالى هذا العالم الآدمي بالنشأة من ذرية قوم متقدمين أصلهم آدم عليه السلام.

وقرأت الجماعة: ﴿ذُرِّيَّةِ﴾ بضم الذال وشد الراء المكسورة، وقرأ زيد بن ثابت بكسر الذال وكذلك في سورة آل عمران[٢].

وحكى أبو حاتم عن أبان بن عثمان أنه قرأ: (ذرية) بفتح الذال وتخفيف الراء المكسورة، وحكى عنه أبو الزناد أنه قرأ على المنبر: (ذَرْية) بفتح الذال وسكون الراء، على وزن فعلة، قال: فسألته، فقال: أقرأنيها زيد بن ثابت[٣].

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسر (ص: ١٠٧).

(٢) كما تقدم، وهي قراءة شاذة، انظر: تفسير الثعلبي (٤/ ١٩٢)، والهداية لمكي (٣/ ٢١٩١).

(٣) وهي شاذة، وانظر نسبتها له في: تفسير الثعلبي (٤/ ١٩٢)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٣٢)، والهداية لمكي (٣/ ٢١٩١).

و﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ﴾ للتبعيض، وذهب الطبري إلى أنها بمعنى قولك: أخذت من ثوبي ديناراً، بمعنى: عنه وعوضَه[١].

و﴿تُوعَدُونَ﴾: مأخوذ من الوعيد بقرينة: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾، والإشارة إلى هذا الوعيد المتقدم خصوصاً، وأما أن يكون العموم مطلقاً فذلك يتضمن إنفاذ الوعيد، والعقائد ترد ذلك، و﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ معناه: بناجين هرباً، أي: يعجزون طالبهم.

ثم أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يتوعدهم بقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ﴾ أي: فسترون عاقبة عملكم الفاسد، وصيغة افْعَل هاهنا بمعنى الوعيد والتهديد.

و﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ معناه: على حالكم وطريقتكم.

وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿على مكاناتكم﴾ بجمع المكانة في كل القرآن، وقرأ الجميع بالإفراد في كل القرآن[٢].

و﴿مَن﴾ يتوجه أن يكون بمعنى الذي، فتكون في موضع نصب بـ﴿تَعْلَمُونَ﴾، ويتوجه أن يكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداء والخبر في قوله: ﴿تَكُونُ لَهُۥ﴾.

و﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: مآل الآخرة، ويحتمل أن يراد مآل الدنيا بالنصر والظهور، ففي الآية إعلام بغيب، ثم جزم الحكم بـ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا ينجح سعيهم.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿من يكون له عاقبة﴾ بالياء هاهنا، وفي القصص على تذكير معنى العاقبة[٣].

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ١٢٦).

(٢) وهما سبعيتان، انظر: التيسير للداني (ص: ١٠٧).

(٣) والباقون بالتاء، وهما سبعيتان، انظر: التيسير للداني (ص: ١٠٧)، والسبعة لابن مجاهد (ص: ٢٧٠).

قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾.

الضمير في (جَعَلُوا) عائد على كفار العرب العادلين بربهم الأوثان، الذين تقدم الرد عليهم من أول السورة.

و﴿ذَرَأَ﴾: معناه: خلق وأنشأ وبث في الأرض، يقال: ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءاً وذروءاً، أي: خلقهم، وقوله: «وجعلوا من كذا وكذا نصيباً» يتضمن بقاء نصيب آخر ليس بداخل في حكم الأول، فبيَّنه بقوله: «فَقالُوا هذا لله وَهذا لِشُرَكائِهم»، ثم اعترضهم أثناء القول بأن ذلك منهم زعم وتقَوُّل، والزعم في كثير كلام العرب أقرب إلى غير اليقين والحق.

يقال: «زَعْمٌ» بفتح الزاي وبه قرأت الجماعة، [و«زُعمٌ» بضمها، وبه قرأ الكسائي وحده في هذه الآية، و«زِعم» بالكسر، ولا أحفظ أحداً قرأ بها][1].

و﴿ٱلْحَرْثِ﴾ في هذه الآية يريد به: الزرع والأشجار وما يكون من الأرض.

وقوله: ﴿لِشُرَكَآئِنَا﴾ يريد به الأصنام والأوثان، وسمَّوهم شركاء على معتقدهم فيهم أنهم يساهمونهم في الخير والشر ويَكْسِبونهم ذلك.

وسبب نزول هذه الآية: أن العرب كانت تجعل من غلّاتها وزروعها وثمارها ومن أنعامها جزءاً تسميه لله وجزءاً تسميه لأصنامها، وكانت عادتها التحفِّي والاهتبال بنصيب الأصنام أكثر منها بنصيب الله، إذ كانوا يعتقدون أن الأصنام بها فقر وليس ذلك بالله، فكانوا إذا جمعوا الزرع فهبت الريح فحملت من الذي لله إلى الذي لشركائهم أقروه، وإذا

---

(١) هكذا جاء في لالاليه ونور العثمانية، وهو الصواب، انظر: التيسير (ص: ١٠٧)، وفي الأصل ونجيبويه والمطبوع: «بضمها، وقرأ الكسائي وحده في هذه الآية: «زِعم» بكسر الزاي، ولا أحفظ أحداً قرأ به»، وفي السليمانية وفيض الله: «يقال: زعم وأزعم وقرأت الجماعة بالفتح، وقرأ الكسائي وحده في هذه الآية «وزعم» بكسر الزاي...» إلخ.

[٢/ ١١٤] حملت / من الذي لشركائهم إلى الذي لله[١] ردوه، وإذا تفجر من سقي ما جعلوا لله في نصيب شركائهم تركوه، وإن كان بالعكس سدوه، وإذا لم يصيبوا في نصيب شركائهم شيئا قالوا: لا بد للآلهة من نفقة، فيجعلون نصيب الله تعالى في ذلك، قال هذا المعنى ابن عباس[٢] ومجاهد والسدي وغيرهم[٣]؛ أنهم كانوا يفعلون هذا ونحوه من الفعل، وكذلك في الأنعام، وكانوا إذا أصابتهم السنة أكلوا نصيب الله وتحاموا نصيب شركائهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ﴾ الآية؛ قال جمهور المتأولين: إن المراد بقوله: ﴿فَلَا يَصِلُ﴾، وقوله: ﴿يَصِلُ﴾ ما قدمنا ذكره من حمايتهم نصيب آلهتهم في هبوب الريح وغير ذلك، وقال ابن زيد: إنما ذلك في أنهم كانوا إذا ذبحوا لله ذكروا آلهتهم على ذلك الذبح، وإذا ذبحوا لآلهتهم لم يذكروا الله، فكأنه قال: فلا يصل إلى ذكر الله، وقال: فهو يصل إلى ذكر شركائهم.

و(ما) في موضع رفع، كأنه قال: ساء الذي يحكمون، ولا يتجه عندي أن يجري هنا ﴿سَآءَ﴾ مجرى نعم وبئس لأن المفسر هنا مضمر ولا بد من إظهاره باتفاق من النحاة، وإنما اتجه أن تجري مجرى بئس في قوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ [الأعراف: ١٧٧]، لأن المفسر ظاهر في الكلام.

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

«الكثير» في هذه الآية يراد به من كان يئد من مشركي العرب، و«الشركاء» هاهنا: الشياطين الآمرون بذلك المزينون له، والحاملون عليه أيضاً من بني آدم، الناقلين له

---

(١) كذا في السليمانية، وأشار له في هامش لالاليه، وفي صلبها وفي سائر النسخ: إلى الله.

(٢) أخرجه الطبري (١٣٨٩٩، ١٣٩٠١، ١٣٩٠٠)، وابن أبي حاتم (٧٩١١-٧٩١٢-٧٩١٣) بأسانيد يقوي بعضُها بعضاً.

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ١٣٢-١٣٤).

عصراً بعد عصر، إذ كلهم مشتركون في قبح هذا الفعل وتِباعته[1] في الآخرة، ومقصد هذه الآية الذم للوأد والإنحاء على فَعَلته.

واختلفت القراءة، فقرأت الجماعة سوى ابن عامر: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ﴾ بفتح الزاي ﴿قَتْلَ﴾ بالنصب ﴿أَوْلَٰدِهِمْ﴾ بكسر الدال ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾، وهذه أبين قراءة.

وحكى سيبويه أنه [قرأت فرقة: (وكذلك زُين) بضم الزاي (قتلُ) بالرفع (أولادِهم) بكسر الدال (شركاؤُهم) بالرفع[2].

قال القاضي أبو محمد: وهي][3] قراءة أبي عبد الرحمن السلمي والحسن وأبي عبد الملك قاضي الجند[4] صاحب ابن عامر[5]، كأنه قال: زيَّنه شركاؤهم، قال سيبويه: وهذا كما قال الشاعر:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لِخُصومةٍ ومُخْتبطٌ مِمَّا تُطيحُ الطوَّائِحُ[6] [الطويل]

كأنه قال: يبكيه ضارع لخصومة.

وأجاز قطرب أن يكون «الشركاء» في هذه القراءة ارتفعوا بالقتل[7]، كأن المصدر أضيف إلى المفعول، ثم ذكر بعده الفاعل، كأنه قال: أنْ قَتَلَ أولادهم شركاؤهم، كما تقول: حبِّب إليّ ركوبُ الفرس زيدٌ، أي: أنْ ركب الفرسَ زيد.

---

(١) في المطبوع: «وتبعاته».
(٢) وهي قراءة شاذة، انظرها في الكتاب لسيبويه (١/ ٢٩٠).
(٣) ساقط من نور العثمانية.
(٤) أبو عبد الملك الشامي قاضي الجند، عرض على يحيى الذماري، وروى عنه أيوب بن تميم، وأبو عبيد، غاية النهاية (١/ ٦١٨).
(٥) عزاها للسلمي تفسير الثعلبي (٤/ ١٩٤)، وله وللحسن إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٩٨)، وللثالث جامع البيان (٣/ ١٠٦٥).
(٦) تقدم قريباً في تفسير الآية (٧٢) من هذه السورة.
(٧) المحتسب لابن جني (١/ ٢٣٠)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ٤٥)، وفي السليمانية: «الآية»، بدل «القراءة».

قال القاضي أبو محمد: والفصيح إذا أضيف مصدر إلى مفعول أن لا يذكر الفاعل، وأيضاً فالجمهور في هذه الآية على أن الشركاء مزيِّنون لا قاتلون، والتوجيه الذي ذكر سيبويه هو الصحيح، ومنه قوله عز وجل على قراءة من قرأ: ﴿يُسَبَّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ رِجالٌ﴾ [النور: ٣٦][1] بفتح الباء المشددة، أي: يسبّح رجال.

وقرأ ابن عامر: ﴿وكذلك زُين﴾ بضم الزاي ﴿قتلُ﴾ بالرفع ﴿أولادَهم﴾ بنصب الدال ﴿شركائهم﴾ بخفض «الشركاء»[2]، وهذه قراءة ضعيفة في استعمال العرب، وذلك أنه أضاف القتل إلى الفاعل وهو الشركاء، ثم فصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول، ورؤساء العربية لا يجيزون الفصل بالظروف في مثل هذا إلا في الشعر، كقوله:

[الوافر] كما خُطَّ الكِتَابُ بِكَفِّ يَوْماً ... يَهُودِيٍّ يُقارِبُ أَو يُزِيلُ[3]

فكيف بالمفعول في أفصح الكلام؟ ولكن وجهها على ضعفها أنها وردت شاذة في بيت أنشده أبو الحسن الأخفش[4] وهو:

[مجزوء الكامل] فَزَجَجْتُها بِمِزَجَّةٍ ... زجَّ الْقَلوصَ أَبي مَزادَة[5]

وفي بيت الطرماح وهو قوله:

[الطويل] يُطِفْنَ بِحُوزِيِّ المراتِعِ لم تَرُعْ ... بَواديهِ مِن قَرْعِ القِسِيَّ الكَنَائِنِ[6]

---

(١) على قراءة ابن عامر وشعبة عن عاصم، كما سيأتي في محله.

(٢) وهي سبعية متواترة، انظر: التيسير للداني (ص ١٠٧).

(٣) البيت لأبي حية النميري كما في الكتاب لسيبويه (١/ ١٧٩)، وعيار الشعر (ص: ٧١)، والموشح (ص: ٢٩٠)، وغيرها.

(٤) الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي (٣/ ٤١٣).

(٥) البيت لا يعرف قائله، وهو من شواهد الفراء، في معاني القرآن (٣/ ٢٧)، وابن جني في الخصائص (٢/ ٤٠٦)، والزَّج هنا: الطَّعن، والمِزَجَّة بكسر الميم: رمح قصير كالمزاريق، والقَلوص بفتح القاف: الناقة الفتية، وأبو مزادة كنية رجل.

(٦) انظر عزوه له في المعاني الكبير (٢/ ٧٢٠)، وتهذيب اللغة للأزهري (٥/ ١١٦)، والحُوزيّ: المتوحد، وهو الفحل من الإبل أو البقر، وهو في الخصائص برواية: «لم يُرَعْ بواديه».

و«الشركاء» على هذه القراءة هم الذين يتناولون وأد بنات الغير، فهم القاتلون، والصحيح من المعنى أنهم المزينون لا القاتلون، وذلك مضمن قراءة الجماعة.

وقرأ بعض أهل الشام ورويت عن ابن عامر: (زين) بكسر الزاي وسكون الياء[١] على الرتبة المتقدمة من الفصل بالمفعول.

وحكى الزهراوي أنه قرأت فرقة من أهل الشام: (وكذلك زين) بضم الزاي (قتل) بالرفع (أولادهم) بكسر الدال (شركائهم) بالخفض[٢]، والشركاء على هذه القراءة هم الأولاد الموءودون؛ لأنهم شركاء في النسب والمواريث، وكأن وصفهم بأنهم شركاء يتضمن حرمة لهم، وفيها بيان لفساد الفعل إذ هو قتل من له حرمة.

و﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾ معناه: ليهلكوهم، من الردى.

و(لِيَلْبِسوا) معناه: ليخلطوا، والجماعة على كسر الباء.

وقرأ إبراهيم النخعي: (وليلبَسوا) بفتح الباء[٣]، قال أبو الفتح: هي استعارة من اللباس، عبارة عن شدة المخالطة.

وهذان الفعلان يؤيدان أول قراءة في ترتيبنا في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ يقتضي أن لا شيء إلا بمشيئة الله عز وجل، وفيها رد على من قال بأن المرء يخلق أفعاله[٤].

وقوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ وعيد محض.

و﴿يَفۡتَرُونَ﴾ معناه: يختلقون من الكذب في تشرعهم بذلك، واعتقادهم أنها مباحات لهم.

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٦٥٨).

(٢) وهي قراءة شاذة، انظرها في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٣٣).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظرها مع توجيهها في المحتسب (١/ ٢٣١).

(٤) وهم القدرية، انظر قولهم في: العقيدة الواسطية ـ مع شرح الهراس ـ (ص: ٢٢٧).

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

هذه الآية تتضمن تعديد ما شرَعوه لأنفسهم والتزموه على جهة القربة كذباً منهم على الله وافتراء عليه، فوصف تعالى أنهم عمدوا إلى بعض أنعامهم وهي الإبل والبقر والغنم أو الإبل بانفرادها، وأما غيرها إذا انفرد فلا يقال له / : أنعام، وإلى بعض زروعهم وثمارهم، وسمي ذلك «حرث»[١] إذ عن الحرث يكون، وقالوا: هذه حجر، أي: حرام. [٢/ ١١٥]

وقرأ جمهور الناس: ﴿حِجْرٌ﴾ بكسر الحاء وسكون الجيم.

وقرأ قتادة والحسن والأعرج: (حُجْر) بضم الحاء وسكون الجيم[٢].

وقرأ ابن عباس وأبيّ وابن مسعود وابن الزبير والأعمش وعكرمة وعمرو بن دينار: (حرج) بكسر الحاء وتقديم الراء على الجيم وسكونها[٣].

فالأولى والثانية بمعنى التحجير وهو المنع والتحريم، والأخيرة من الحرج وهو التضييق والتحريم.

وكانت هذه الأنعام على ما قال ابن زيد محلَّلة للرجال محرمة على النساء[٤]، وقيل: كانت وقفاً لـمَطعَم سدنة بيوت الأصنام وخَدَمتها، حكاه المهدوي[٥]، فذلك المراد بقوله: ﴿مَن نَّشَآءُ﴾.

وقوله: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ أي: بتقولهم الذي هو أقرب إلى الباطل منه إلى الحق،

---

(١) هكذا كتبت في الأصل والمطبوع وجميع النسخ الخطية، على وجه الحكاية، والأولى أن تكون «حرثاً» بالنصب.

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: تفسير الثعلبي (٤/ ١٩٥)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٣٤)، والهداية لمكي (٣/ ٢١٩٩).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لهم في المحتسب (١/ ٢٣١)، وفي لالاليه: «والزبير»، دون «ابن».

(٤) تفسير الطبري (١٢/ ١٤٣).

(٥) التحصيل للمهدوي (٢/ ٦٧٢).

وزعمهم هنا هو في قولهم: ﴿حِجْرٌ﴾، وتحريمهم بذلك ما لم يحرم الله تعالى.

وقرأ ابن أبي عبلة: (بزَعَمهم) بفتح الزاي والعين[١]، وكذلك في الذي تقدم.

﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾: كانت للعرب سنن؛ إذا فعلت الناقة كذا وكذا من جودة النسل والمواصلة بين الإناث ونحوه حرم ظهورها فلم تركب، وإذا فعل الفحل كذا وكذا حرم ظهره، فعدد الله ذلك على جهة الرد عليهم إذ شرعوا ذلك برأيهم وكذبهم.

﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ قيل: كانت لهم سنة في أنعام ما أن لا يحج عليها، فكانت تركب في كل وجه إلا في الحج، فذلك قوله: ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾، هذا قول جماعة من المفسرين، ويروى ذلك عن أبي وائل[٢].

وقالت فرقة: بل ذلك في الذبائح، يريد أنهم جعلوا لآلهتهم منها نصيباً لا يذكرون الله على ذبحها.

وقوله: ﴿ٱفْتِرَآءً﴾ مصدر نصب على المفعول من أجله، أو على إضمار فعل تقديره: يفترون ذلك.

و﴿سَيَجْزِيهِم﴾: وعيد بمعارضة[٣] الآخرة.

والضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على اسم الله.

و﴿يَفْتَرُونَ﴾: أي: يكذبون ويختلفون.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)﴾.

هذه الآية تتضمن تعديد مذاهبهم الفاسدة، وكانت سنتهم في بعض الأنعام أن يحرِّموا ما ولدت على نسائهم ويخصصونه لذكورهم، والهاء في ﴿خَالِصَةٌ﴾ قيل: هي

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٦٥٥).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ١٤٤).

(٣) في المطبوع ونجيبويه: «بمقارضة».

للمبالغة كما هي في راوية[١] وغيرها، وهذا كما تقول: فلان خالصتي، وإن كان باب هاء المبالغة أن يلحق بناء مبالغة كعلامة ونسابة وبصيرة ونحوه، وقيل: هي لتأنيث الأنعام إذ ما في بطونها أنعام أيضاً، وقيل: هي على تأنيث لفظ ﴿مَا﴾ لأن ﴿مَا﴾ واقعة في هذا الموضع موقع قولك: جماعة وجملة.

وقرأ جمهور القراء والناس: ﴿خَالِصَةٌ﴾ بالرفع.

وقرأ عبد الله بن مسعود وابن جبير وابن أبي عبلة والأعمش: (خالص) دون هاء[٢] ورفع هاتين القراءتين على خبر الابتداء.

وقرأ ابن عباس بخلاف والأعرج وقتادة وسفيان بن حسين[٣]: (خالصةً) بالنصب[٤].

وقرأ سعيد بن جبير فيما ذكر أبو الفتح: (خالصاً)[٥].

ونصب هاتين القراءتين على الحال من الضمير الذي في قوله: ﴿فِى بُطُونِ﴾، وذلك أن تقدير الكلام: وقالوا: ما استقر هو في بطون هذه الأنعام، فحذف الفعل وحَمَل المجرورُ الضميرَ، والحال من الضمير، والعامل فيها معنى الاستقرار، قال أبو الفتح: ويصح أن يكون حالاً من ﴿مَا﴾ على مذهب أبي الحسن في إجازته تقديم الحال على العامل فيها.

وقرأ ابن عباس أيضا وأبو حيوة والزهري: (خالصه)[٦] بإضافة (خالص) إلى ضمير يعود على ﴿مَا﴾، ومعناه: ما خلص وخرج حيّاً.

---

(١) في المطبوع ونجيبويه والحمزوية ونور العثمانية والسليمانية: «رواية».

(٢) وهي قراءة شاذة، انظرها في المحتسب (١/ ٢٣٢)، وتفسير الثعلبي (٤/ ١٩٦)، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي (٣/ ٢٢٠٣).

(٣) سفيان بن حسين بن حسن الواسطي أبو محمد، الحافظ، روى عن الحسن وابن سيرين وإياس بن معاوية وآخرين، وعنه شعبة وهشيم وعباد بن العوام وجماعة، وثقه جماعة، واستشهد به البخاري، توفي بعد سنة: (١٥٠هـ). تاريخ الإسلام (٩/ ٤٠٦).

(٤) وهي قراءة شاذة، انظرها في المحتسب (١/ ٢٣٢)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٣٤)، وتفسير الثعلبي (٤/ ١٩٦).

(٥) وهي قراءة شاذة انظر مع التوجيه في المحتسب (١/ ٢٣٢).

(٦) وهي قراءة شاذة، انظرها في مختصر الشواذ (ص: ٤٦)، والمحتسب (١/ ٢٣٢).

والخبر على قراءة من نصب (خالصة) في قوله: ﴿لِّذُكُورِنَا﴾.

والمعنى المراد بـ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا فِى بُطُونِ﴾ قال السدي: هي الأجنة.

وقال ابن عباس[١] وقتادة والشعبي: هو اللبن، قال الطبري: واللفظ يعمهما[٢].

وقوله: ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ يدل على أن الهاء في ﴿خَالِصَةٌ﴾ للمبالغة، ولو كانت لتأنيث لقال: ومحرمة، و﴿أَزْوَٰجِنَا﴾ يريد به جماعة النساء التي هي معدة أن تكون أزواجاً، قاله مجاهد، وحكى الطبري عن ابن زيد أن المراد بـ﴿أَزْوَٰجِنَا﴾ البنات[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا يبعد تحليقه على المعنى.

وقوله: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾: كان من سنتهم أن ما خرج من الأجنة ميتاً من تلك الأنعام الموقوفة فهو حلال للرجال والنساء جميعاً، وكذلك ما مات من الأنعام الموقوفة نفسها.

وقرأ ابن كثير: ﴿وإن يكن﴾، بالياء ﴿ميتةٌ﴾، بالرفع، فلم يُلحق الفعلَ علامةَ التأنيث لما كان تأنيث الفاعل المسند إليه غير حقيقي، والمعنى: وإن وقع ميتة أو حدث ميتة.

وقرأ ابن عامر: ﴿وإن تكن﴾ بالتاء، ﴿ميتة﴾ بالرفع، فألحق الفعل علامة التأنيث لما كان الفاعل في اللفظ مؤنثاً، وأسند الفعل إلى الميتة كما فعل ابن كثير.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه: ﴿تكن﴾ بالتاء ﴿ميتة﴾ بالنصب، فأنث وإن كان المتقدم مذكراً لأنه حمله على المعنى.

---

(١) أخرجه الطبري (١٣٩٣٢-١٣٩٣٣)، وابن أبي حاتم (٧٩٣٥) من طريق أبي إسحاق السبيعي، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن ابن عباس رضي الله عنهما به، وفيه عنعنة أبي إسحاق وهو مدلس، وأخرجه الطبري (١٣٩٣٧)، وابن أبي حاتم (٧٩٣٣) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر القولين وقول الطبري في تفسير الطبري (١٢/ ١٤٨).

(٣) انظر القولين في تفسير الطبري (١٢/ ١٥٠).

قال القاضي أبو محمد: فالتقدير: وإن تكن النسمة أو نحوها ميتة.

وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: ﴿يَكُن﴾ بالياء ﴿مَّيۡتَةً﴾ بالنصب[1]، فذكَّروا الفعل لأنهم أسندوه إلى ضمير ما تقدم من قوله: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ وهو مذكر، وانتصبت الميتة على الخبر، قال أبو عمرو ابن العلاء: ويقوي هذه القراءة قوله: ﴿فَهُمۡ فِيهِ﴾، ولم يقل: فيها[2].

وقرأ يزيد بن القعقاع: ﴿وإن تكن ميّتة﴾ بالتشديد[3].

وقرأ عبد الله بن مسعود: (فهم فيه سواء)[4].

ثم أعقب تعالى بوعيدهم على ما وصفوا أنه من القربات إلى الله تعالى وشرعوه من الباطل والإفك.

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ أي: في عذابهم على ذلك، عَلِيمٌ بقليل ما تقوّلوه من ذلك وكثيره.

قوله عز وجل: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ / وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾. [٢/ ١١٦]

هذا لفظ يتضمن التشنيع بقبح فعلهم والتعجب من سوء حالهم في وأدهم البنات وحجرهم الأنعام والحرث.

قال عكرمة: وكان الوأد في ربيعة ومضر[5].

---

(١) وكلها سبعية، انظر: التيسير للداني (ص: ١٠٧)، والسبعة لابن مجاهد (ص: ٢٧٠).

(٢) انظر كلامه في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٣٤).

(٣) وهي قراءة عشرية، انظر: النشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٠).

(٤) وهي قراءة شاذة، تابعه عليها في البحر المحيط (٤/ ٦٦٢).

(٥) تفسير الطبري (١٢/ ١٥٤).

قال القاضي أبو محمد: وكان جمهور العرب لا يفعله، ثم إن فاعليه كان منهم من يفعله خوف العيلة والإقتار، وكان منهم من يفعله غيرةً مخافة السِّباء.

وقرأ ابن عامر وابن كثير: ﴿قتّلوا﴾ بتشديد التاء على المبالغة، وقرأ الباقون: ﴿قَتَلُوٓاْ﴾ بتخفيفها[١].

و﴿مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾: هي تلك الأنعام والغلات التي تُوقف بغير شرع ولا مثوبة في معاد، بل بالافتراء على الله والكذب و«قَدْ ضَلَّوا» إخبارٌ[٢] عنهم بالحيرة، وهو من التعجب بمنزلة قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾.

و(ما كانوا) يريد: في هذه الفعلة، ويحتمل أن يريد: وما كانوا قبل ضلالهم بهذه الفعلة مهتدين، ولكنهم زادوا بهذه الفعلة ضلالاً.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعۡرُوشَـٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَـٰتٍ﴾ الآية، هذا تنبيه على مواضع الاعتبار و﴿أَنشَأَ﴾ معناه: خلق واخترع، و«الجنة»: مأخوذة من جَنَّ إذا ستر.

و﴿مَّعۡرُوشَـٰتٍ﴾: قال ابن عباس: ذلك في ثمر العنب[٣]، ومنها ما عُرش وسمك، ومنها ما لم يعرش، وقال السدي: «المعروشات»: ما عرش كهيئة الكرم، وغيرُه: البساتين[٤].

وقيل: المعروش: هو ما يعترشه بنو آدم من أنواع الشجر، وغير المعروش: ما يحدث في الجبال والشَّعْراء[٥] ونحو ذلك. وقيل: المعروش: ما خلق بحائط، وغير المعروش: ما لم يخلق.

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسير للداني (ص: ١٠٧).

(٢) في الأصل ونجيبويه والحمزوية وفيض الله والسليمانية: «إخباراً».

(٣) منقطع، أخرجه الطبري (١٣٩٥٨) من طريق ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: قال: ما يعرش من الكروم و(غير معروشات)، قال: ما لا يعرش من الكرم، وعطاء الخراساني لم يسمع من ابن عباس شيئاً، قاله أحمد، وانظر: جامع التحصيل (٥٢٢).

(٤) تفسير الطبري (١٢/ ١٥٦).

(٥) في المطبوع: «الصحراء»، والشَّعراء: الشجر الكثير.

و﴿مُخْتَلِفًا﴾: نصب على الحال على تقدير حصول الاختلاف في ثمرها؛ لأنها حين الإنشاء لا ثمرة فيها، فهي حال مقدَّرة تجيء بعد الإنشاء.

و﴿مُتَشَٰبِهًا﴾: يريد: في المنظر، و(غير متشابه): في المطعم. قاله ابن جريج وغيره[١].

وقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ نصُّ الإباحة[٢]، وهو مضمن الإشارة إلى النعمة بذلك.

ويقرأ: ﴿من ثُمره﴾ بضم الثاء، وقد تقدم[٣].

﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾: قالت طائفة[٤] من أهل العلم: هي في الزكاة المفروضة، منهم ابن عباس وأنس بن مالك[٥] والحسن بن أبي الحسن وطاوس وجابر ابن زيد[٦] وسعيد بن المسيب وقتادة ومحمد ابن الحنفية والضحاك وزيد بن أسلم وابنه، وقاله مالك بن أنس[٧].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول معترض بأن السورة مكية، وهذه الآية على قول الجمهور غير مستثناة، وحكى الزجّاج أن هذه الآية قيل فيها: إنها نزلت بالمدينة[٨].

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ١٥٧).

(٢) في المطبوع: «نفس الإباحة».

(٣) انظر تفسير الآية (٩٩) من هذه السورة.

(٤) في الأصل ونجيبويه ونور العثمانية والحمزوية وفيض الله: «فقالت» وكذا لالاليه مع التنبيه في هامشها على المثبت.

(٥) أثر عبد الله بن عباس أخرجه الطبري (١٣٩٦٤-١٣٩٦٥)، وابن أبي حاتم (٧٩٥٢-٧٩٥٤) من طرق كثيرة، وهو صحيح.

وأما أثر أنس بن مالك فقد أخرجه الطبري (١٣٩٦٣)، وابن أبي حاتم (٧٩٥٣) من طريق عبد الصمد ابن عبد الوارث، عن يزيد بن درهم، عن أنس، ويزيد بن درهم أبو العلاء قد وثقه الفلاس، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال ابن عدي وذكر له هذا الأثر في الكامل (٧/ ٢٧٨): لا أعرف ليزيد بن درهم كثير رواية إلا مقاطيع عن التابعين وعن الصحابة.

(٦) في فيض الله وحاشية السليمانية: «جابر بن سعيد».

(٧) انظر قول مالك في: النوادر والزيادات (٢/ ١٠٨)، وانظر قول الباقين في: تفسير الطبري (١٢/ ١٥٨-١٦١).

(٨) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٩٧).

ومعترض أيضاً بأنه لا زكاة فيما ذكر من الرمان وجميع ما هو في معناه[(١)].

وقال ابن الحنفية أيضاً وعطاء ومجاهد وغيرهم من أهل العلم: بل قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ﴾ ندب إلى إعطاء حقوق من المال غير إعطاء[(٢)] الزكاة، والسنة أن يعطي الرجل من زرعه عند الحصاد وعند الذَّرْو وعند تكديسه في البيدر، فإذا صفا وكال أخرج من ذلك الزكاة[(٣)].

وقال الربيع بن أنس: «حقه»: إباحة لقط السنبل[(٤)].

وقالت طائفة: كان هذا حكم صدقات المسلمين حتى نزلت الزكاة المفروضة فنسختها.

وروي هذا عن ابن عباس[(٥)] وابن الحنفية وإبراهيم والحسن، وقال السدي: [الآية في][(٦)] هذه السورة مكية نسختها الزكاة، فقال له سفيان: عمن؟ قال: عن العلماء[(٧)].

قال القاضي أبو محمد: والنسخ غير مترتب في هذه الآية، لأن هذه الآية وآية الزكاة لا تتعارض، بل تنبني هذه على الندب وتلك على الفرض.

وقرأ ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي: ﴿حِصاده﴾ بكسر الحاء.

وقرأ عاصم وأبو عمرو وابن عامر: ﴿حَصَادِهِۦ﴾، بفتح الحاء[(٨)]، وهما لغتان في المصدر.

---

(١) انظر قول الشافعي في الحاوي للماوردي (٣/ ٢٣٤)، والباقين في المغني (٢/ ٢٩٦).

(٢) «إعطاء»: زيادة من السليمانية.

(٣) انظر قول محمد بن الحنفية في: تفسير القرطبي (٧/ ١٠٠)، وانظر قول الباقين في: تفسير الطبري (١٢/ ١٦٣).

(٤) تفسير الطبري (١٢/ ١٦٧).

(٥) أخرجه الطبري (١٣٩٧٢ -١٤٠٢٠-١٤٠٢١)، بإسناد حسن لغيره عن ابن عباس.

(٦) من المطبوع.

(٧) تفسير الطبري (١٢/ ١٦٨) وما بعدها، لكن فيه أن الذي سئل: عمن هذا التأويل؟ فأجاب: عن العلماء، هو إبراهيم وليس السدي.

(٨) وهما سبعيتان، انظر: التيسير للداني (ص: ١٠٧)، والسبعة لابن مجاهد (ص: ٢٧١)، وقوله: «بكسر الحاء»، زيادة من السليمانية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ الآية، من قال: إن الآية في الزكاة المفروضة، جعل هذا النهي عن الإسراف: إما للناس عن التمنع عن أدائها؛ لأن ذلك إسراف من الفعل، وقاله سعيد بن المسيب، وإما للولاة عن التشطط على الناس والإذاية لهم، فذلك إسراف من الفعل، وقاله ابن زيد[١].

ومن جعل الآية على جهة الندب إلى حقوق غير الزكاة ترتب له النهي عن الإسراف في تلك الحقوق؛ لما في ذلك من الإجحاف بالمال وإضاعته.

وروي أن الآية نزلت بسببٍ؛ لأن ثابت بن قيس بن شماس[٢] حصل غلة له فقال: والله لا جاءني اليوم واحد إلا أطعمته، فأمسى وليس عنده ثمرة، فنزلت هذه الآية[٣].

وقال أبو العالية: كانوا يعطون شيئاً عند الحصاد ثم تباروا فيه وأسرفوا، فنزلت الآية[٤].

ومن قال: إنها منسوخة، ترتب له النهي في وقت حكم الآية.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿حَمُولَةً﴾ عطف على: ﴿جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ﴾، التقدير: وأنشأنا من الأنعام حمولة، و«الحمولة»: ما تَحمل الأثقال من الإبل والبقر عند من عادته أن يحمل عليها،

---

(١) انظر القولين في تفسير الطبري (١٢/ ١٧٥)، والناسخ والمنسوخ للنحاس (ص: ٤٢٨).

(٢) ثابت بن قيس بن شمّاس بن زهير بن مالك الأنصاريّ الخزرجي، خطيب رسول الله ﷺ، استشهد يوم اليمامة. الإصابة (١/ ٥١١).

(٣) أخرجه الطبري (١٤٠٤٠) من طريق ابن جريج، عن ثابت بن قيس بن شماس فذكره، وهو منقطع.

(٤) تفسير الطبري (١٢/ ١٧٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٣٩٩)، والناسخ والمنسوخ للنحاس (ص: ٤٢٨).

والهاء في ﴿حَمُولَةً﴾ للمبالغة، وقال الطبري: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه[(١)].

و«الفرش»: ما لا يحمل ثقلاً كالغنم وصغار البقر والإبل، هذا هو المروي عن ابن مسعود وابن عباس[(٢)] والحسن وغيرهم[(٣)]، يقال له: الفرش والفريش، وذهب بعض الناس إلى أن تسميته فَرْشاً إنما هي لوطاءته، وأنه مما يُمتهن ويُتوطأ ويُتمكن من التصرف فيه إذ قرب جسمه من الأرض.

وروي عن ابن عباس أنه قال: الحمولة: الإبل والخيل والبغال والحمير، ذكره الطبري[(٤)].

قال القاضي أبو محمد: وهذا منه تفسير لنفس اللفظة لا من حيث هي في هذه الآية، ولا تدخل في الآية لغير الأنعام وإنما خصت بالذكر من جهةِ ما شَرَعت فيها العرب.

وقوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ نصٌّ إباحة وإزالة ما سنه الكفار من البحيرة / والسائبة [٢/ ١١٧] وغير ذلك.

ثم تابع النهي عن تلك السَّنن الآفكة بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ وهي جمع خطوة، أي: لا تمشوا في طرقه المضلّة.

وقد تقدم في سورة البقرة اختلاف القراء في ﴿خُطُوَٰتِ﴾[(٥)].

ومن شاذها قراءة علي رضي الله عنه والأعرج وعمرو بن عبيد: (خُطُؤات) بضم

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ١٨١).

(٢) أثر عبد الله بن مسعود أخرجه الطبري (١٤٠٤٧، ١٤٠٥٢، ١٤٠٥٣، ١٤٠٥٤)، وابن أبي حاتم (٧٩٧٤) بإسناد صحيح عنه.

وأما أثر عبد الله بن عباس فأخرجه أيضاً الطبري (١٤٠٤٨، ١٤٠٥٨، ١٤٠٥٧)، وابن أبي حاتم (٧٩٧٥) من طرق عنه.

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ١٧٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٠١)، ومعاني القرآن للنحاس (٢/ ٥٠٤).

(٤) أخرجه الطبري (١٤٠٥٨)، وابن أبي حاتم (٧٩٧٢) من طريق علي أبي بن طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٥) انظر تفسير الآية (١٦٨) من سورة البقرة.

الخاء والطاء وبالهمزة[١]، قال أبو الفتح: وذلك جمع خطأة من الخطأ.

ومن الشاذ قراءة أبي السمال: (خَطَوات) بالواو دون همزة[٢]، وهو جمع خطوة وهي ذرع ما بين قدمي الماشي.

ثم علل النهي عن ذلك بتقرير عداوة الشيطان لابن آدم.

وقوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ﴾ اختلف في نصبها؛ فقال الأخفش علي بن سليمان: بفعل مضمر تقديره: كلوا لحم ثمانية أزواج، فحذف الفعل والمضاف وأقيم المضاف إليه مقامه[٣]، وقيل: نصب على البدل من (ما) في قوله: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، وقيل: نصبت على الحال، وقيل: نصبت على البدل من قوله: ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾، وهذا أصوب الأقوال وأجراها مع معنى الآية، وقال الكسائي: نصبها ﴿أَنشَأَ﴾[٤].

و«الزوج»: الذكر، و«الزوج»: الأنثى، كل واحد منهما زوج صاحبه، وهي أربعة أنواع، فتجيء ثمانية أزواج، و﴿ٱلضَّأْنِ﴾ جمع ضائنة وضائن.

وقرأ طلحة بن مصرف وعيسى بن عمر والحسن: (من الضأَن) بفتح الهمزة[٥].

وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ﴾ بسكون العين، وهو جمع ماعز وماعزة.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿ومن المعَز﴾ بفتح العين[٦] فضأن ومعز كراكب وركب وتاجر وتجر، وضأَن ومعَز كخادم وخدم ونحوه.

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظرها مع توجيهها في المحتسب (١/ ٢٣٣).

(٢) انظرها في المحتسب لابن جني (١/ ٢٣٣).

(٣) معاني القرآن للأخفش (١/ ٢٥١).

(٤) إعراب القرآن النحاس (٢/ ٣٤).

(٥) وهي قراءة شاذة، انظرها في المحتسب (١/ ٢٣٤)، ومختصر الشواذ (ص: ٤٦)، وتفسير الثعلبي (٤/ ١٩٩).

(٦) وهما سبعيتان، انظر: التيسير للداني (ص: ١٠٨)، والسبعة لابن مجاهد (ص: ٢٧١).

وقرأ أبان بن عثمان: (من الضأن اثنان)[١] على الابتداء والخبرِ المقدم.

ويقال في جمع ماعز: معْز ومعَز ومعيز ومِعْزى وأُمعوز.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ هذا تقسيم على الكفار حتى يتبين كذبهم على الله، أي: لا بد أن يكون حرم الذكرين فيلزمكم تحريم جميع الذكور، أو الأنثيين فيلزمكم تحريم جميع الإناث، أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين فيلزمكم تحريم الجميع، وأنتم لم تلتزموا شيئاً مما يوجبه هذا التقسيم، وفي هذه السؤالات تقرير وتوبيخ.

ثم أَتبع تقريرهم وتقريعهم وتوبيخهم[٢] بقوله: ﴿نَبِّـُٔونِي﴾؛ أخبروني ﴿بِعِلْمٍ﴾؛ أي: من جهة نبوءة أو كتاب من كتب الله، ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

و﴿إِن﴾ شرط وجوابه في ﴿نَبِّـُٔونِي﴾، وجاز تقديم جواب هذا الشرط لما كانت «إِنْ» لا يظهر لها عمل في الماضي، ولو كانت ظاهرة العمل لـمَا جاز تقدم الجواب.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

القول في هذه الآية في المعنى وترتيب التقسيم كالقول المتقدم في قوله: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾، وكأنه قال: آنتم الذين تدَّعون أن الله حرم خصائص من هذه الأنعام لا يخلو تحريمه من أن يكون في الذَّكَرَيْنِ، أو في الأنثيين، أو فيما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ، لكنه لم يحرم لا هذا، ولا هذا فلم يبق إلا أنه لم يقع تحريم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا﴾ الآية، استفهام

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظرها في مختصر الشواذ (ص: ٤٦)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٠٠)، والهداية لمكي (٣/ ٢٢٢٠).

(٢) سقط: «تقريعهم» من المطبوع، و«توبيخهم» من لالاليه.

على جهة التوبيخ، إذ لم يبق لهم الادعاء المحال والتقوّل أنهم شاهدوا وصية الله لهم بهذا، و﴿شُهَدَآءَ﴾ جمع شهيد.

ثم تضمن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ذكر حال مفتري الكذب على الله وتقرير إفراط ظلمه، وقال السدي: كان الذين سيَّبوا وبحروا يقولون: الله أمرنا بهذا[1].

ثم بيّن تعالى سوء مقصدهم بالافتراء؛ لأنه لو افترى أحد فرية على الله لغير معنى لكان ظلماً عظيماً، فكيف إذا قصد بهما إضلال أمة؟ وقد يحتمل أن تكون اللام في ﴿لِيُضِلَّ﴾ لام صيرورة، ثم جزم الحكم ـ لا رب غيره ـ بأنه ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: لا يرشدهم، وهذا عموم في الظاهر، وقد تبين تخصيصه مما يقتضيه الشرع أن الله يهدي ظلَمة كثيرةً بالتوبة.

قوله عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾.

هذا أمر من الله عز وجل بأن يَشْرَع للناس جميعاً ويبين عن الله ما أوحي إليه، وهذه الآية نزلت بمكة ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت شيء محرم غير هذه الأشياء، ثم نزلت سورة المائدة بالمدينة وزِيد في المحرمات كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة، فإن هذه وإن كانت في حكم الميتة فكان في النظر احتمال أن تلحق بالمذكّيات؛ لأنها بأسباب وليست حتف الأنف، فلما بيَّن النص إلحاقها بالميتة كانت زيادة في المحرمات.

ثم نزل النص على لسان رسول الله ﷺ في تحريم الحمر[2] بوحي غير معجز، وبتحريم كل ذي ناب من السباع[3]، فهذه كلها زيادات في التحريم، ولفظة التحريم إذا

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ١٨٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٠٤).

(٢) في الأصل ونور العثمانية وفيض الله ونجيبويه ولالاليه: «الخمر»، وفي الحمزوية: «الخترير».

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٥٣٠)، ومسلم (١٩٣٢) عن أبي ثعلبة قال: نهى النبي ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السبع.

وردت على لسان رسول الله ﷺ، فإنها صالحة أن تنتهي بالشيء المذكور إلى غاية المنع والحظر[١]، وصالحة بحسب اللغة أن تقف دون الغاية في حيز الكراهية ونحوها.

فما اقترنت به قرينة التسليم من الصحابة المتأولين، وأجمع عليه الكل منهم، ولم تضطرب فيه ألفاظ الأحاديث، وأمضاه الناس على أذلاله[٢]، وجب بالشرع أن يكون تحريمه قد وصل الغاية من الحظر والمنع، ولحق بالخنزير والميتة، وهذه صفة تحريم الخمر.

وما اقترنت به قرينة اضطراب[٣] ألفاظ الحديث، واختلفت الأمة فيه مع علمهم بالأحاديث كقوله ﷺ: «كل ذي ناب من السباع حرام»[٤]، وقد روي عنه نهي رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع[٥]، ثم اختلفت الصحابة ومن بعدهم في تحريم ذلك، فجاز لهذه الوجوه لمن ينظر أن يحمل لفظ التحريم على / المنع الذي هو الكراهية ونحوها[٦]. [٢/ ١١٨]

وما اقترنت به قرينة التأويل، كتحريمه عليه السلام لحوم الحمر الإنسية، فتأول بعض الصحابة الحاضرين ذلك لأنها لم تخمَّس، وتأول بعضهم أن ذلك لئلا تفنى حَمولة الناس، وتأول بعضهم التحريم المحض[٧].

وثبت في الأمة الاختلاف في تحريم لحمها، فجائز لمن ينظر من العلماء أن يحمل لفظ التحريم بحسب اجتهاده وقياسه على كراهيةٍ أو نحوها.

---

(١) هذا هو مذهب الجمهور، انظر: البحر المحيط (٢/ ١٥٣).

(٢) أي: على وجوهه التي تصلح وتَسهُل وتتيسر، ووقع في الحمزوية: «ادلاله».

(٣) سقطت من المطبوع.

(٤) صحيح، أخرجه مالك في الموطأ (١٠٦٠)، ومن طريقه الشافعي في مسنده (١/ ٢٣٦)، والترمذي (١٤٧٩)، والنسائي (٤٣٢٤)، وابن ماجه (٣٢٣٣)، وابن حبان في صحيحه (٥٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦٩٦١)، ومسلم (١٤٠٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٦) وحملها على الكراهة هو مذهب مالك، والجمهورُ على خلافه، انظر شرح صحيح البخاري لابن بطال (٥/ ٤٣٧).

(٧) انظر هذه التأويلات في: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٥/ ٤٣٣-٤٣٦).

وروي عن ابن عامر أنه قرأ: (فيما أَوْحَى إليَّ) بفتح الهمزة والحاء[١].

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَطْعَمُهُۥٓ﴾، وقرأ أبو جعفر محمد بن علي: (يطّعمه) بتشديد الطاء وكسر العين[٢].

وقرأ محمد ابن الحنفية وعائشة وأصحاب عبد الله: (طَعِمَه) بفعل ماض[٣].

وقرأ نافع والكسائي وأبو عمرو وعاصم: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ بالياء ﴿مَيۡتَةً﴾ على تقدير: إلا أن يكون المطعوم.

وقرأ ابن كثير وحمزة وأبو عمرو أيضاً: ﴿إلا أن تكون﴾ بالتاء من فوق ﴿مَيۡتَةً﴾ على تقدير: إلا أن تكون المطعومة ميتة[٤].

وقرأ ابن عامر وحده ـ وذكرها مكي عن أبي جعفر ـ: ﴿إلا أن تكون﴾ بالتاء ﴿ميتةٌ﴾ بالرفع[٥] على أن تجعل ﴿تكونَ﴾ بمعنى تقع، ويحتاج على هذه القراءة أن يعطف ﴿أَوۡ دَمٗا﴾ على موضع ﴿أن تكون﴾؛ لأنها في موضع نصب بالاستثناء.

و«المسفوح»: الجاري الذي يسيل، وجعل الله هذا فرقاً بين القليل والكثير، والمنسفح[٦]: السائل من الدم والدمع ونحوه، ومنه قول الشاعر وهو طرفة:

[الوافر] إِذَا مَـا عَــادَهُ مِـنَّـا نِـسَـاءٌ ... سَـفَحْنَ الدَّمْعَ مِنْ بَعْدِ الرَّنِينِ[٧]

---

(١) وهي قراءة شاذة، من رواية ابن بكّار عن أيّوب عن يحيى عنه، كما في جامع البيان (٣/ ١٠٦٨)، وفي الحمزوية: «ابن عباس».

(٢) وهي قراءة شاذة، انظرها في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٣٧).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لعائشة في تفسير الثعلبي (٤/ ٢٠١)، ومعاني القرآن للنحاس (٢/ ٥٠٧)، ولم أجدها للباقين.

(٤) «ميتة»: زيادة من السليمانية.

(٥) وكلها سبعية، انظر: التيسير للداني (ص ١٠٨)، وانظر ما ذكره مكي في كتابه مشكل إعراب القرآن (١/ ٢٧٦).

(٦) في الحمزوية والمطبوع: «المسفوح»، وكتبت في الأصل: «المنفسح».

(٧) البيت لم أجده لطرفة، وقد عزاه تفسير الطبري (١٢/ ١٩٢)، ومختارات ابن الشجري (٢/ ٤٢) لعبيد بن الأبرص.

وقول امرئ القيس:

وإِنَّ شِفائي عَبْـرَةٌ إِنْ سَفَحْتُها[١] .... [الطويل]

فالدم المختلط باللحم والدم الخارجُ من مرق اللحم وما شاكل هذا حلال، والدم غير المسفوح هو هذا وهو معفوّ عنه، وقيل لأبي مجلز في القِدْر تعلوها الحمرة من الدم قال: إنما حرم الله المسفوح[٢]، وقالت نحوه عائشة[٣] وغيرها، وعليه إجماع العلماء[٤].

وقيل[٥]: الدم حرام لأنه إذا زايل فقد انسفح.

و«الرجس»: النتْن والحرام، يوصف بذلك الأجرام والمعاني، كما قال ﷺ: «دعوها فإنها منتنة»[٦] الحديث، فكذلك قيل في «الأزلام» و«الخمر»: رجس، والرجس أيضاً: العذاب، لغةٌ بمعنى الرجز.

وقوله: ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ يريد ذبائحهم التي كانوا يختصون بها أصنامهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ الآية، أباح الله فيها مع الضرورة ركوب المحظور دون بغي.

واختلف الناس فيم ذا: فقالت فرقة: دون أن يبغي الإنسان في أكله، فيأكل فوق ما

---

(١) وفي رواية أخرى: عبرة مهراقة، وعجزه: فهل عند رسمٍ دارسٍ من معوَّل، وهو من معلقة امرئ القيس، انظر عزوه له في جمهرة أشعار العرب (ص: ١١٦)، وشرح المعلقات التسع (ص: ١٢٥)، والأصول في النحو (٣/ ٢٢٨).

(٢) انظر قول أبي مجلز في تفسير الطبري (١٢/ ١٩٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٤٠٩٠) من طريق القاسم بن محمد، عن عائشة بلفظ: أنها كانت لا ترى بلحوم السباع بأساً، والحمرة والدم يكونان على القدر بأساً، وقرأت هذه الآية، وقال ابن كثير: صحيح غريب، انظر التفسير (٢/ ١٨٥).

(٤) انظر قول عائشة، وحكاية الإجماع على ما ذكره المؤلف من حكم الدماء في أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٧٩).

(٥) في لالاليه: «قليل».

(٦) البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

يقيم رمقه وينتهي إلى حد الشبع وفوقه، وقالت فرقة: بل دون أن يبغي في أن يكون سفره في قطع طريق أو قتل نفس، أو يكون تصرفه في معصية، فإن ذلك لا رخصة له، وأما من لم يكن بهذه الأحوال فاضطر فله أن يشبع ويتزود، وهذا مشهور قول مالك بن أنس رحمه الله[١]، وقال بالأول الذي هو الاقتصار على سد الرمق عبد الملك بن حبيب رحمه الله[٢].

وقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إباحةٌ تعطيها[٣] قوة اللفظ.

قوله عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

لما ذكر الله عز وجل ما حرم على أمة محمد ﷺ أعقب ذلك بذكر ما حرم على اليهود، لـمَا في ذلك من تكذيبهم في قولهم: إن الله لم يحرم علينا شيئاً وإنما حرمنا على أنفسنا ما حرمه إسرائيل على نفسه.

وقد تقدم القول في سورة البقرة في ﴿هَادُواْ﴾ ومعنى تسميتهم يهوداً.

و﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ يراد به الإبل والنعام والإوز، ونحوه من الحيوان الذي هو غير منفرج الأصابع وله ظفر.

وقال أبو زيد: المراد الإبل خاصة[٤]، وهذا ضعيف التخصيص.

وذكر النقاش عن ثعلب أن كل ما لا يصيد فهو ذو ظفر، وما يصيد فهو ذو مخلب[٥].

قال القاضي أبو محمد: وهذا غير مطرد لأن الأسد ذو ظفر.

---

(١) انظر: الاستذكار (٥/ ٣٠٧)، وهو قول سعيد ومجاهد كما في تفسير الطبري (٣/ ٣٢٣).

(٢) انظر قول ابن حبيب في: مواهب الجليل (٣/ ٣٠٢)، وهو قول عكرمة والحسن كما في الاستذكار (٥/ ٣٠٨).

(٣) في المطبوع: «تعظيمها»، وهو خطأ.

(٤) تفسير الطبري (١٢/ ٢٠٠)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٠١).

(٥) تفسير البحر المحيط (٤/ ٦٧٧).

وقرأ جمهور الناس: ﴿ظُفُرٍ﴾، بضم الظاء والفاء.

وقرأ الحسن والأعرج: (ظفْر)، بسكون الفاء.

وقرأ أبو السمال قعنب: (ظِفْر)، بكسر الظاء وسكون الفاء[(١)].

وأخبرنا الله عز وجل في هذه الآية بتحريم الشحوم على بني إسرائيل، وهي الثروب وشحم الكلى وما كان شحماً خالصاً خارجاً عن الاستثناء الذي في الآية.

واختلف العلماء في تحريم ذلك على المسلمين من ذبائح اليهود، فحكى ابن المنذر في «الإشراف» عن مالك وغيره منع أكل الشحم من ذبائح اليهود، وهو ظاهر لفظ «المدونة»[(٢)].

قال القاضي أبو محمد: وهذا على القول في قوله عز وجل: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥] بأنه المطعوم من ذبائحهم، وأما ما لا يحل لهم فلا تقع عليه ذكاة بل هو كالدم في ذبائح المسلمين.

وعلى هذا القول يجيء قول مالك رحمه الله في «المدونة» فيما ذبحه اليهودي مما لا يحل لهم كالجمل والأرنب: إنه لا يؤكل[(٣)].

وروي عن مالك رحمه الله كراهية الشحم من ذبائح أهل الكتاب دون تحريم[(٤)]، وأباح بعض الناس الشحم من ذبائح أهل الكتاب وذبحهم ما هو عليهم حرام إذا أمرهم بذلك مستنيباً[(٥)] أو نحوه[(٦)].

---

(١) وهما من الشاذ، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٤٧)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٠١)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٣٧).

(٢) المدونة (١/ ٥٤٤)، وما نسبه للإشراف غير موجود في المطبوع منه.

(٣) انظر: المدونة (١/ ٥٤٤).

(٤) انظر كراهية مالك لشحوم ذبيحة اليهودي في البيان والتحصيل (٣/ ٣٦٦).

(٥) في المطبوع: «مسلم»، وفي الحمزوية: «مستثنى».

(٦) هذا القول مروي عن مالك وروي عنه أيضاً خلافه، انظر بداية المجتهد (١/ ٤٥٠)، وانظر: الشرح الكبير على المقنع (١١/ ٦٢).

قال القاضي أبو محمد: وهذا على أن يجعل قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ يراد به الذبائح، فمتى وقع الذبح على صفته وقعت الإباحة، وهذا قول ضعيف لأنه جرد لفظة ﴿وَطَعَامُ﴾ من معنى أن تكون مطعوماً لأهل الكتاب، وخلصها لمعنى الذبح، وذلك حَرِج لا يتوجه.

وأما الطريف[1] فحرمه قوم وكرهه قوم وأباحه قوم، وخففه مالك في «المدونة» ثم رجع إلى منعه[2]، وقال ابن حبيب: ما كان محرماً عليهم وعلمنا ذلك من كتابنا فلا يحل لنا من ذبائحهم، وما لم نعلم تحريمه إلا من أقوالهم فهو غير محرم علينا من ذبائحهم[3].

وقوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ يريد: ما اختلط باللحم في الظهر والأجناب ونحوه، قال السدي وأبو صالح: الأليات مما حملت ظهورهما[4].

[٢/ ١١٩] ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ قيل[5]: هو جمع حَوِيَّة / على وزن فعيلة، فوزن «حوايا» على هذا: فعائل، كسفينة وسفائن، وقيل: هو جمع حاوية على وزن فاعلة، فـ«حوايا» على هذا: فواعل، كضاربة وضوارب، وقيل: جمع حاوياء، فوزنها على هذا أيضاً فواعل، كقاصعاء وقواصع.

وأما «الحوايا» على الوزن الأول فأصلها: حوايي [اجتمع ياءان فبدلت الياء الأولى همزة فجاء: حوائي][6] فقلب الياء الأخيرة ألفاً فانفتحت لذلك الهمزة ثم بدلت ياء، وأما على الوزنين الأخيرين فأصل «حوايا»: حواوي، وبدلت الواو الثانية همزة[7].

---

(١) في المطبوع: «الطريق»، وتكلف لها شرحاً في الهامش، والصواب «الطريفة» بالفاء وهي: فاسد الرئة من ذبيحة اليهود كما في مواهب الجليل نقلاً عن ابن عرفة (٤/ ٣١٨)، وانظر الأقوال الثلاثة فيها في التاج والإكليل (٣/ ٢١٣).

(٢) المدونة (١/ ٥٤٤).

(٣) انظر قول ابن حبيب في: تفسير القرطبي (٧/ ١٢٧)، وفي الحمزوية: «ابن عباس»، بدل: «ابن حبيب».

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ٤٢٥).

(٥) كذا في نور العثمانية، وفي المطبوع وسائر النسخ: «قال»، دون ذكر فاعلها.

(٦) زيادة من السليمانية وفيض الله ولالاليه.

(٧) في السليمانية وفيض الله: «فأصل حوايا حوايي وبدلت الياء الثانية همزة».

والحوية: ما تحوَّى في البطن واستدار وهي المصارين والحشوة ونحوهما.

وقال مجاهد وقتادة وابن عباس[1] والسدي وابن زيد: ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾: المباعر[2]، وقال بعضهم: هي المرابط[3] التي تكون فيها الأمعاء وهي بنات اللبن.

وقوله: ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يريد في سائر الشخص.

و﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ معطوف على ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ﴾ فهي في موضع نصب عطفاً على المنصوب بالاستثناء، وقال الكسائي: ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ معطوف على الظهور[4]، كأنه قال: إلا ما حملت ظهورهما أو حملت الحوايا، وقال بعض الناس: ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ معطوف على الشحوم.

قال القاضي أبو محمد: وعلى هذا تدخل ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ في التحريم، وهذا قول لا يعضده اللفظ ولا المعنى بل يدفعانه.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع، و﴿جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ يقتضي أن هذا التحريم إنما كان عقوبة لهم على ذنوبهم وبغيهم واستعصائهم على الأنبياء، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ إخبار يتضمن التعريض بكذبهم في قولهم: ما حرم الله علينا شيئاً وإنما اقتدينا بإسرائيل فيما حرم على نفسه، ويتضمن إدحاض قولهم ورده عليهم.

قوله عز وجل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾.

يريد: فإن كذَّبوك فيما أخبرت به أن الله حرمه عليهم وقالوا: لم يحرم الله علينا

(١) أخرجه الطبري (١٤١٠٩)، وابن أبي حاتم (٨٠٣٧) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٢٠٣)، وتفسير الماوردي (٢/ ١٨٤) وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ٤٥).

(٣) في السليمانية وفيض الله ولالاليه ونجيبويه: «المرابض».

(٤) معاني القرآن للنحاس (٢/ ٥١٢).

شيئاً وإنما حرمنا ما حرم إسرائيل على نفسه ـ قال السدي: وهذه كانت مقالتهم[١] ـ فقل يا محمد على جهة التعجب من حالهم، والتعظيم لفريتهم في تكذيبهم لك مع علمهم بحقيقة ما قلت: ربُّكم ذو رحمةٍ واسعةٍ؛ إذ لا يعاجلكم بالعقوبة مع شدة جُرمكم.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كما تقول عند رؤية معصية أو أمر مَبْغي[٢]: ما أحلم الله! وأنت تريد: لإمهاله على مثل ذلك، ففي قوله: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ قوة وصفهم بغاية الاجترام وشدة الطغيان.

ثم أعقب هذه المقالة بوعيد في قوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فكأنه قال: ولا تغتروا أيضاً بسعة رحمته، فإن له بأساً لا يرد عن المجرمين إما في الدنيا وإما في الآخرة.

وهذه الآية وما جانسها من آيات مكة مرتفع حكمه بالقتال.

وأخبر الله عز وجل نبيه عليه السلام: أن المشركين سيحتجون لصواب ما هم عليه من شركهم وتدينهم بتحريم تلك الأشياء بإمهال الله تعالى وتقريره حالهم، وأنه لو شاء غير ذلك لما تركهم على تلك الحال.

قال القاضي أبو محمد: وبيّن أن المشركين لا حجة لهم فيما ذكروه؛ لأنّا نحن نقول: إن الله عز وجل لو شاء ما أشركوا، ولكنه عز وجل شاء إشراكهم وأقدرهم على اكتساب الإشراك والمعاصي ومحبته والاشتغال به، ثم علق العقاب والثواب على تلك الأشياء والاكتسابات، وهو الذي تقتضيه ظواهر القرآن في قوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢، ٩٥]، ونحو ذلك، ويلزمهم على احتجاجهم أن تكون كل طريقة وكل نحلة صواباً، إذ كلها لو شاء الله لم تكن.

قال القاضي أبو محمد: وقال بعض المفسرين: إنما هذه المقالة من المشركين على جهة الاستهزاء، وهذا ضعيف، وتعلقت المعتزلة بهذه الآية فقالت: إن الله قد ذم

---

(١) حكاه الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٠٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤١٢)، والنحاس في معاني القرآن (٢/ ٥١٣).

(٢) في السليمانية ونور العثمانية ولالاليه: «منهي»، وفي فيض الله: «منعي».

لهم هذه المقالة وإنما ذمها لأن كفرهم ليس بمشيئة الله تعالى بل هو خلق لهم[١].

قال القاضي أبو محمد: وليس الأمر على ما قالوا، وإنما ذم الله تعالى ظن المشركين أن ما شاء الله لا يقع عليه عقاب، وأما أنه ذم قولهم: لو لا المشيئة لم نكفر، فلا.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ وفي الكلام حذف يدل عليه تناسق الكلام، كأنه قال: سيقول المشركون كذا وكذا، وليس في ذلك حجة لهم، ولا شيء يقتضي تكذيبك ولكن كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ بنحو هذه الشبهة من ظنهم أن ترك الله لهم دليل على رضاه بحالهم.

وفي قوله: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾ وعيد بيّن.

وليس في الآية رد منصوص على قولهم: لو «شاء الله ما أشركنا»، وإنما ترك الرد عليهم مقدراً في الكلام لوضوحه وبيانه.

وقوله: ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ معطوف على الضمير المرفوع في ﴿أَشۡرَكۡنَا﴾، والعطف على الضمير المرفوع لا يرده قياس، بخلاف المخفوض[٢]، لكن سيبويه قد قبَّح العطف على الضمير المرفوع[٣]، ووجه قبحه: أنه لما بني الفعل عليه[٤] صار كحرف من الفعل فقبح العطف عليه لشبهه بالحرف، وذلك كقولك: قمت وزيد، لأن تأكيده فيه يبين معنى الاسمية، ويذهب عنه شبه الحرف، وحسن عند سيبويه العطف في قوله: ﴿مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ لما طال الكلام بـ(لا)[٥]، فكأن معنى الاسمية اتضح، واقتضت (لا) ما يعطف بعدها.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ﴾ الآية، المعنى: قل يا محمد للكفرة:

---

(١) انظر استدلال المعتزلة بالآية في: تفسير السمعاني (٣/ ١٧١).

(٢) في المطبوع: «المنصوب».

(٣) الكتاب لسيبويه (٢/ ٣٧٨).

(٤) عليه ليست في المطبوع والأصل.

(٥) الكتاب لسيبويه (٢/ ١٧٩).

هل عندكم من علم من قبل الله تعالى فتبينوه حتى تقوم به الحجة؟

و﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ زائدة مؤكدة، وجازت[1] زيادتها لأن الاستفهام داخل في غير الواجب.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: لا شيء عندكم إلا الظن، وهو أكذب الحديث.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ على المخاطبة.

وقرأ إبراهيم النخعي وابن وثاب: (إن يتَّبعون) بالياء[2] حكاية عنهم.

[٢/ ١٢٠] قال القاضي أبو محمد: وهذه قراءة / شاذة يضعفها قوله: ﴿وَإِنْ أَنتُمْ﴾.

و﴿تَخْرُصُونَ﴾ معناه: تقدِّرون وتظنون وترجمون.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

ثم أعقب تعالى أمره نبيه ﷺ بتوقيف المشركين على موضع عجزهم بأمره إياه بأن يقول مبيناً مفصحاً ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ يريد: البالغة غاية المقصد في الأمر الذي يحتج فيه، ثم أعلم بأنه لو شاء لهدى العالم بأسره.

قال القاضي أبو محمد: وهذه الآية ترد على المعتزلة في قولهم: إن الهداية والإيمان إنما هي من عمل العبد لا من الله، فإن قالوا: معنى ﴿لَهَدَىٰكُمْ﴾ لاضطركم إلى الهدى، فسد ذلك بمعتقدهم أن الإيمان الذي يريد الله من عباده ويثيب عليه ليس الذي يضطر إليه العبد، وإنما هو عندهم الذي يقع من العبد وحده.

و﴿هَلُمَّ﴾ معناها هات؛ وهي حينئذ متعدية، وقد تكون بمعنى: أقبل؛ فهي حينئذ لا

---

(١) في الأصل والمطبوع: «وجاءت».

(٢) وهي شاذة، عزاها لهما الكرماني في الشواذ (ص: ١٧٠)، وفي أكثر النسخ: «النخعي وإبراهيم»، بالعطف، والتصحيح من المطبوع.

تتعدى، وبعض العرب يجعلها اسماً للفعل، كرويدك، فيخاطِبُ بها الواحدَ والجميع والمذكَّر والمؤنث على حد واحد، وبعض العرب يجعلها فعلاً فيركب عليها الضمائر، فيقول: هلم يا زيد، وهلموا أيها الناس، وهلمي يا هند، ونحو هذا، وذكر اللغتين أبو علي في «الإغفال»[١].

وقال أبو عبيدة: اللغة الأولى لأهل العالية واللغة الثانية لأهل نجد[٢].

وقال سيبويه والخليل: أصلها: هالُمَّ، وقال بعضهم: أصلها هالْـمُم[٣]، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين فجاء: هلمم، فحذف من قال: أصلها هالم، وأدغم من قال: أصلها هلمم على غير قياس.

ومعنى هذه الآية: قل هاتوا شهداءكم على تحريم الله ما زعمتم أنه حرمه.

ثم قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ أي: فإن افترى لهم أحد وزور شهادة أو خبراً عن نبوة ونحو ذلك فتجنب أنت ذلك ولا تشهد معهم.

وفي قوله: ﴿فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡ﴾ قوة وصف شهادتهم بنهاية الزور.

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ﴾ يريد: لا تنحط في شهوات الكفرة وتوافقهم على محابِّهم[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ عطف نعت على نعت، كما تقول جاءني زيد الكريم والعاقل، هذا مذهب عُظْم الناس.

وقال النقاش: نزلت في الدهرية من الزنادقة[٥].

﴿وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [أي: يجعلون][٦] أنداداً يسوونهم به، وإن كانت في الزنادقة فعدلهم غير هذا.

---

(١) الإغفال للفارسي (٢/ ٢٢١).

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة (١/ ٢٠٨).

(٣) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٢/ ٢٠١).

(٤) في المطبوع: «أقوالهم».

(٥) تفسير البحر المحيط (٤/ ٦٨٤).

(٦) زيادة من نجيبويه ولالاليه.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

هذا أمر من الله عز وجل لنبيه ﷺ أن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم الله بشرع الإسلام المبعوث به إلى الأسود والأحمر.

و﴿تَعَالَوْاْ﴾ معناه: أقبلوا، وأصله من العلو، فكأن الدعاء لما كان أمراً من الداعي استعمل فيه ترفيع المدعو، و(تعالى) هو مطاوع عالي، إذ تفاعل هو مطاوع فاعل.

و﴿أَتْلُ﴾ معناه: أسرد وأنص؛ من التلاوة التي هي إتْباع بعض الحروف بعضاً، و﴿مَا﴾ نصب بقوله: ﴿أَتْلُ﴾ وهي بمعنى الذي، وقال الزجّاج: يصح أن يكون قوله: ﴿أَتْلُ﴾ معلقاً عن العمل و﴿مَا﴾ نصب بـ﴿حَرَّمَ﴾[1].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قلق.

و(أن) في قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ﴾ يصح أن تكون في موضع رفع بالابتداء[2]، التقدير: الأمر أن، أو ذلك أن، ويصح أن تكون في موضع نصب على البدل من ﴿مَا﴾، قاله مكي وغيره[3].

قال القاضي أبو محمد: والمعنى يبطله فتأمله، ويصح أن يكون مفعولاً من أجله، التقدير: إرادَة أن لا تشركوا به شيئاً، إلا أن هذا التأويل يخرج ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ﴾ من المتلو ويجعله سبباً لتلاوة المحرمات.

و﴿تُشْرِكُواْ﴾: يصح أن يكون منصوباً بـ(أن)، ويتوجه أن يكون مجزوماً بالنهي وهو الصحيح في المعنى المقصود، و(أن) قد توصل بما نصبته، وقد توصل بالفعل المجزوم بالأمر والنهي.

---

(١) معاني القرآن للزجاج (٢/ ٣٠٣).

(٢) «بالابتداء» زيادة من المطبوع.

(٣) مشكل إعراب القرآن، لمكي (١/ ٢٧٧).

و﴿شَيۡـًٔا﴾ عام يراد به كل معبود من دون الله.

و﴿إِحۡسَٰنًا﴾ نصب على المصدر، وناصبه فعل مضمر من لفظه تقديره: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، والمحرمات تنفك من هذه المذكورات بالمعنى، وهي: الإشراك والعقوق وقرب الفواحش وقتل النفس.

وقال كعب الأحبار: هذه الآيات مفتتح التوراة: بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ إلى آخر الآية[١].

وقال ابن عباس: هذه الآيات هي المحكمات التي ذكرها الله في سورة آل عمران، اجتمعت عليها شرائع الخلق ولم تنسخ قط في ملة[٢].

وقد قيل: إنها العشر الكلمات المنزلة على موسى[٣].

وإن اعترض من قال: إن ﴿تُشۡرِكُواْ﴾ منصوب بـ(أن) بعطف المجزومات عليه، فذلك موجود كثير[٤] في كلام العرب، وأنشد الطبري حجة لذلك[٥]:

حَجَّ وَأَوْصَى بِسُلَيْمَى الأَعْبُدَا   أَنْ لا تَرَى وَلا تُكَلِّمْ أَحَدَا [الرجز]

وَلا يَزَلْ شَرَابُهَا مُبَرَّدَا[٦]

---

(١) انظر: تفسير مقاتل (١/ ١٥٧)، وفضائل القرآن للقاسم بن سلام (١/ ٢١٧) والأوائل للطبراني (١/ ٧١).

(٢) أخرجه الطبري (١٤١٥٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٨) من طريق أبي إسحاق السبيعي، عن عبد الله بن قيس، والحاكم أيضاً (٢/ ٣١٧) من طريق أبي إسحاق، عن عبد الله بن خليفة، عن ابن عباس به، وأبو إسحاق يدلس، وشيخه على الحالين مجهول.

(٣) انظر: تفسير مقاتل (١/ ٣١).

(٤) زيادة من السليمانية وفيض الله ولالاليه.

(٥) انظر: الطبري (١٢/ ٢١٦).

(٦) تفسير الطبري (١٢/ ٢١٦)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٠٣)، ومعاني القرآن للفراء (٢/ ٣٦)، ولم ينسبوه، والشطر الثالث أورد الفراء مكانه: «ولا تمش بفضاء بعداً». والشاهد فيها أن «لا» في قوله: «أن لا ترى» نافية ومع ذلك فقد عطف الشاعر عليها الفعل مجزوماً بلا الناهية في قوله: «ولا تُكَلّمْ» وفي قوله: «ولا يَزَلْ».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم﴾ الآية، نهي عن عادة العرب في وأد البنات، و«الولد» يعم الذكر والأنثى من البنين، و«الإملاق»: الفقر وعدم المال، قاله ابن عباس وغيره[(١)]، يقال: أملق الرجل، إذا افتقر[(٢)].

قال القاضي أبو محمد: ويشبه أن يكون معناه: أملق، أي: لم يبق له إلا الملق، كما قالوا: أترب، إذا لم يبق له إلا التراب، وأرمل إذا لم يبق له إلا الرمل، والـمَلَق: الحجارة السود، واحدته: مَلَقة.

وذكر منذر بن سعيد أن الإملاق الإنفاق[(٣)]، ويقال: أملق مالَه، بمعنى: أنفقه، وذكر أن علياً قال لامرأة: أملقي من مالك ما شئت[(٤)]. وذكر النقاش عن محمد بن نعيم الترمذي[(٥)] أنه السَّرَف في الإنفاق، وحكى أيضاً النقاش عن مؤرِّجٍ[(٦)] أنه قال: الإملاق: الجوع بلغة لخم[(٧)].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نهي عام عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي، و﴿ظَهَرَ﴾ و﴿بَطَنَ﴾ حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء / . [٢/ ١٢١]

---

(١) أخرجه الطبري (١٤١٣٥)، وابن أبي حاتم (٨٠٥٩) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٢١٧).

(٣) تفسير البحر المحيط (٤/ ٦٦٥).

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره (٧/ ١٣٢) عن علي، وذكره ابن الجزري في النهاية (٤/ ٤٥٨) من قول عبد الله بن عباس.

(٥) لم أجد ترجمة لهذا الاسم كما أورده المصنف، وقد نقل عنه في البحر المحيط (٤/ ٦٦٦) مثل ذلك.

(٦) مؤرج بن عمرو السدوسي البصري النحوي أبو فيد، أحد أئمة العربية واللغة، أخذ عن: أبي عمرو ابن العلاء، وشعبة، والخليل بن أحمد، سكن نيسابور وبث بها علومه، وأخذ عنه أهلها، وصنف غريب القرآن، توفي سنة: (٢٩٥هـ). تاريخ الإسلام (١٣/ ٤١٤).

(٧) لغات العرب الواردة في القرآن الكريم، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص: ٥).

وذهب بعض المفسرين إلى أن القصد بهذه الآية أشياء مخصَّصات، فقال السدي[(١)] وابن عباس: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ هو زنا الحوانيت الشهير، و(ما بَطَنَ) هو متخذات الأخدان[(٢)]، وكانوا يستقبحون الشهير وحده فحرم الله الجميع، وقال الضحاك: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ هو الخمر، و(ما بطن) هو الزنا، وقال مجاهد: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ هو نكاح حلائل الآباء ونحو ذلك، و(ما بطن) هو الزنا[(٣)]، إلى غير هذا من تخصيص لا تقوم عليه حجة، بل هو دعوى مجردة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ الآية متضمنة تحريم قتل النفس المسلمة والمعاهدة، ومعنى الآية: إِلَّا بِالْحَقِّ الذي يوجب قتلها، وقد بينته الشريعة وهو الكفر بالله، وقتل النفس، والزنا بعد الإحصان، والحرابة، وما تشعب من هذه، و﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى هذه المحرمات.

و«الوصية»: الأمر المؤكد المقرر، ومنه قول الأعشى[(٤)]:

أَجِدَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الإِلهِ حِينَ أَوْصَى وأَشْهَدَا[(٥)] [الطويل]

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ترج بالإضافة إلينا، أي: من سمع هذه الوصية ترجَّى وقوع أثر العقل بعدها، والـمَيْز بالمنافع والمضار في الدين.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)﴾.

هذا نهي عن القرب الذي يعم وجوه التصرف، وفيه سد الذريعة، ثم استثنى ما

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٢١٩)، والهداية لمكي (٣/ ٢١٦٨).

(٢) أخرجه الطبري (١٤١٤٢)، وابن أبي حاتم (٨٠٦٦) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس.

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٧٤)، والهداية لمكي (٤/ ٢٣٤٦)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٢٨).

(٤) في الأصل والمطبوع ونجيبويه والحمزوية: «الشاعر».

(٥) البيت لأعشى بني قيس يمدح رسول الله ﷺ انظر عزوه له في سيرة ابن هشام (١/ ٣٨٧)، ومقاييس اللغة (١/ ٣٦٥).

يحسن وهو التثمير والسعي في نمائه، قال مجاهد: ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: التجارة فيه[١]، ممن كان من الناظرين له مال يعيش به، فالأحسن إذا ثمر مال يتيم أن لا يأخذ منه نفقة ولا أجرة ولا غيرها، ومن كان من الناظرين لا مال له، ولا يتفق له نظرٌ إلا بأن ينفق على نفسه من ربح نظره وإلا دعته الضرورة إلى ترك مال اليتيم دون نظر، فالأحسن أن ينظر ويأكل بالمعروف، قاله ابن زيد[٢].

و«الأشُد»: جمع شَدٍّ وجمع شدة، وهو هنا: الحزم والنظر في الأمور وحسن التصرف فيها.

قال القاضي أبو محمد: وليس هذا بالأشد المقرون ببلوغ الأربعين، بل هذا يكون مع صغر السن في ناس كثير، وتلك الأشد هي التجارب والعقل المحنك، ولكن قد خلطهما المفسرون.

وقال ربيعة والشعبي ومالك فيما روي عنه وأبو حنيفة: «بلوغ الأشد»: البلوغ مع أن لا يثبت سَفَهٌ[٣].

وقال السدي: «الأشد»: ثلاثون سنة[٤].

وقالت فرقة: ثلاثة وثلاثون سنة[٥].

وحكى الزجاج عن فرقة: ثمانية عشرة سنة، وضعّفه ورجح البلوغ مع الرشد[٦].

وحكى النقاش أن «الأشد» هنا من خمسة عشر إلى ثلاثين، والفقه ما رجَّح الزجّاج،

---

(١) انظر: الطبري (١٢/ ٢٢١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤١٨)، ومعاني القرآن للنحاس (٢/ ٥١٧)، وتفسير الماوردي (٢/ ١٨٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٢٢٢).

(٣) انظر: تفسير الماوردي (٣/ ٢٤١). وانظر قول مالك في الأشد في: تفسير القرطبي (٥/ ٣٤).

(٤) حكاه عنه الطبري (١٢/ ٢٢٣).

(٥) ومنهم ابن عباس ومجاهد وقتادة. انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤١٩).

(٦) في معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ٤٤٢).

وهو قول مالك، [وقال مالك][١] رحمه الله: الرشد وزوال السفه مع البلوغ.

قال القاضي أبو محمد: وهذا أصح الأقوال وأليقها بهذا الموضع.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ الآية، أمر بالاعتدال في الأخذ والإعطاء. و(القسط): العدل.

وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ يقتضي أن هذه الأوامر إنما هي فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز، لا أنه مطالب بغاية العدل في نفس الشيء المتصرف فيه.

قال الطبري: لما كان الذي يعطي ناقصاً يتكلف في ذلك مشقة، والذي يعطي زائداً يتكلف أيضاً مثل ذلك، رفع الله عز وجل الأمر بالـمَعْدلة[٢] حتى لا يتكلف واحد منهما مشقة[٣].

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ يتضمن الشهادات والأحكام والتوسط بين الناس وغير ذلك، أي: ولو كان ميل الحق على قراباتكم.

وقوله: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يراد جميع ما عهده الله إلى عباده، ويحتمل أن يراد به جميع ذلك مع جميع ما انعقد بين إنسانين ويضاف ذلك العهد إلى الله من حيث قد أمر بحفظه والوفاء به.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ ترجّ بحَسَبنا.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿تذَّكّرون﴾ بتشديد الذال والكاف جميعاً، وكذلك: ﴿يذَّكَّرون﴾، و﴿يذّكّر الإنسان﴾ وما جرى من ذلك مشدداً كله.

---

(١) زيادة من السليمانية وفيض الله ونجيبويه ولالاليه، وانظر: تفسير القرطبي (٧/ ١٣٥)، وما نسبه للنقاش لم أقف عليه.

(٢) في المطبوع: «بالمعادلة».

(٣) قاله بمعناه. انظر تفسيره (٨/ ٨٦).

وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر كل ذلك بالتشديد، إلا قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [مريم: ٦٧] فإنهم خففوها.

وروى أبان وحفص عن عاصم: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ خفيفة الذال في كل القرآن[١].

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تذْكرون﴾ بتخفيف الذال إذا كان الفعل بالتاء، وإذا كان بالياء قرأه بالتشديد، وقرأ حمزة وحده في سورة الفرقان: ﴿لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذْكُرَ﴾ [٦٢] بسكون الذال وتخفيف الكاف، وقرأ ذلك الكسائي بتشديدهما وفتحهما[٢].

قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

الإشارة بـ﴿هَٰذَا﴾ هي إلى الشرع الذي جاء به محمد ﷺ بجملته، وقال الطبري: الإشارة هي إلى هذه الوصايا التي تقدمت من قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ﴾[٣].

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ بفتح الهمزة وتشديد النون ﴿صِرَٰطِى﴾ ساكن الياء.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿وإِنَّ﴾ بكسر الألف وتشديد النون[٤].

وقرأ عبد الله بن أبي إسحاق وابن عامر من السبعة: ﴿وَأَنْ﴾ بفتح الهمزة وسكون النون ﴿صراطيَ﴾ مفتوح الياء[٥].

فأما من فتح الألف فالمعنى عنده كأنه قال: ولأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، أي: اتبعوه لكونه كذا، وتكون الواو على هذا إنما عطفت جملة على جملة، ويصح غير هذا؛ أن يعطف على ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟﴾ وكأن المحرم من هذا اتباع السبل والتنكيب عن الصراط الأقوم.

(١) وكلها سبعية، انظر: التيسير للداني (ص: ١٠٧)، والسبعة لابن مجاهد (ص: ٢٧٢).
(٢) وسيأتي الكلام على حرفي مريم والفرقان في موضعيهما.
(٣) انظر: الطبري (١٢/ ٢٢٨).
(٤) وهي سبعية متواترة، انظر: التيسير (ص: ١٠٨).
(٥) انظر: التيسير (ص: ١٠٨)، وانظر قراءة ابن أبي إسحاق في معاني القرآن للنحاس (٢/ ٥١٨).

ومن قرأ بتخفيف النون عطف على قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ ومذهب سيبويه أنها المخففة من الثقيلة، وأن التقدير: وأنه هذا صراطي.

ومن قرأ بكسر الألف وتشديد النون فكأنه استأنف الكلام وقطعه من الأول(١).

وفي مصحف ابن مسعود: (وهذا صراطي) بحذف (أنَّ)(٢).

وقال ابن مسعود: إن الله جعل طريقاً صراطاً مستقيماً طرفه محمد / ﷺ وشرعه ونهايته الجنة، وتتشعب منه طرق، فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار(٣). [٢/ ١٢٢]

وقال أيضاً: خط لنا الرسول الله ﷺ يوماً خطّاً، فقال: «هذا سبيل الله»، ثم خط عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطوطاً فقال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها»، ثم قرأ هذه الآية(٤).

قال القاضي أبو محمد: وهذه الآية تعم أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد.

وتقدم القول في ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم﴾، وفي قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾.

ومن حيث كانت المحرمات الأُوَل لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله، جاءت العبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، والمحرمات الأُخر شهوات وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر، وركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل، وتلك درجة التقوى.

---

(١) الحجة لأبي علي الفارسي (٣/ ٤٣٦).

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: كتاب المصاحف (ص: ١٧٦).

(٣) أخرجه الطبري (١٤١٧٠) من طريق معمر بن راشد، عن أبان بن أبي عياش، عن ابن مسعود رضي الله عنه، بنحوه، وهو ضعيف لضعف أبان بن أبي عياش فإنه متروك.

(٤) في إسناده ضعف، أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥-٤٦٥)، والترمذي (٢٠٢)، والنسائي في الكبرى (١١١٠٩-١١١١٠)، والبزار (١٦٧٧-١٧١٨-١٨٦٥)، والدارمي (٢٠٢)، وابن حبان (٦-٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٣٩)، وغيرهم، من طريق: عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن عبد الله ابن مسعود به، وعاصم فيه ضعف.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ في هذه الآية إنما مهلتها في ترتيب القول الذي أمر به محمد ﷺ كأنه قال: ثم مما قضيناه أنا آتينا موسى الكتاب، ويدعو إلى ذلك أن موسى عليه السلام متقدم بالزمان على محمد ﷺ وتلاوته ما حرم الله.

و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة، و﴿تَمَامًا﴾ نصب على المصدر.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾؛ مختلَف في معناه:

فقالت فرقة: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ بمعنى الذين، و﴿أَحْسَنَ﴾ فعل ماض صلة الذين، وكأن الكلام: وآتينا موسى الكتاب تفصيلاً على المحسنين من أهل ملته وإتماماً للنعمة عندهم، هذا تأويل مجاهد[١].

وفي مصحف عبد الله: (تماماً على الذين أحسنوا)[٢]، فهذا يؤيد ذلك التأويل.

وقالت فرقة: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ غير موصولة، والمعنى: تماماً على ما أحسن هو من عبادة ربه والاضطلاع بأمور نبوته، يريد موسى عليه السلام، هذا تأويل الربيع وقتادة[٣].

وقالت فرقة: المعنى ﴿تَمَامًا﴾ أي: تفضلاً وإكمالاً على الذي أحسن الله فيه إلى عباده من النبوءات والنعم وغير ذلك، فـ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ أيضاً في هذا التأويل غير موصولة، وهذا تأويل ابن زيد[٤].

وقرأ يحيى بن يَعْمَرَ وابن أبي إسحاق: (تماماً على الذي أحسنُ) بضم النون[٥]،

---

(١) حكاه عنه الطبري (١٢/ ٢٣٣)، وانظر: معاني القرآن للنحاس (٢/ ٥١٩)، وتفسير الماوردي (٢/ ١٨٩).

(٢) وهي قراءة شاذة، انظرها في مختصر الشواذ (ص: ٤٧)، وتفسير الطبري (١٢/ ٢٣٤)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٠٥).

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٢٣٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٢٣).

(٤) راجع: تفسير الماوردي (٢/ ١٨٩)، وتفسير الطبري (١٢/ ٢٣٣).

(٥) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٣٤)، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي (٣/ ٢٢٤٧).

فجعلها صفَة تفضيلٍ ورفعها على خبر ابتداءٍ مضمرٍ تقديره: على الذي هو أحسن، وضعف أبو الفتح هذه القراءة لقبح حذف المبتدأ العائد[1].

وقال بعض نحويي الكوفة: يصح أن يكون ﴿أَحْسَنَ﴾ صفة لـ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ من حيث قارب المعرفة إذ لا تدخله الألف واللام، كما تقول العرب: مررت بالذي خيرٍ منك، ولا يجوز: بالذي عالمٍ[2]، وخطأ الزجاج هذا القول الكوفي[3].

و(تفصيلاً) يريد بياناً وتقسيماً.

و﴿لَّعَلَّهُم﴾ ترجٍّ بالإضافة إلى البشر.

و﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بالبعث الذي الإيمانُ به نهايةُ تصديق الأنبياء صلوات الله عليهم، إذ لا تلزمه العقول بذواتها، وإنما ثبت بالسمع مع تجويز العقل له.

قوله عز وجل: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

(هذا) إشارة إلى القرآن.

و﴿مُبَارَكٌ﴾ وصف بما فيه من التوسعات، وإزالة أحكام الجاهلية وتحريماتها، وجمع كلمة العرب، وصلة أيدي متبعيه، وفتح الله على المؤمنين[4] به، ومعناه: منمًّى خيره مكثَّر، والبركة: الزيادة والنمو.

و﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ دعاء إلى الدين.

---

(١) المحتسب (١/ ٢٣٤).

(٢) راجع معاني القرآن للفراء (٢/ ٣٧).

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٠٥).

(٤) في فيض الله: «الموقنين».

﴿ وَٱتَّقُواْ ﴾ الأظهر فيه أنه أمر بالتقوى العامة في جميع الأشياء، بقرينة قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾.

و﴿أَن﴾ من قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ في موضع نصب، والعامل فيه ﴿أَنزَلۡنَٰهُ ﴾، والتقدير: وهذا كتاب أنزلناه كراهيةَ أن، وهذا أصح الأقوال وأضبطها للمعنى المقصود.

وقيل: العامل في أَنْ قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ﴾، فكأنه قال: واتقوا أن تقولوا، وهذا تأويل يتخرج على معنى: واتقوا أن تقولوا كذا، لأنه لا حجة لكم فيه، ولكنْ يَعرِض فيه قلق لقوله أثناء ذلك: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾، وفي التأويل الأول يتسق نظم الآية.

و«الطائفتان»: اليهود والنصارى بإجماع من المتأولين، و«الدراسة»: القراءة والتعلم بها.

و(إنْ) في قوله: ﴿وَإِن كُنَّا ﴾ مخففة من الثقيلة، واللام في قوله: ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ لام توكيد، هذا مذهب البصريين، وحكى سيبويه عن بعض العرب أنهم يخففونها ويبقونها على عملها[(١)]، ومنه قراءة بعض أهل المدينة: ﴿وإنْ كلاًّ﴾[(٢)]، وأما المشهور فإنها إذا خففت ترجع حرف ابتداء لا تعمل.

وأما على مذهب الكوفيين فـ(إنْ) في هذه الآية بمعنى «ما» النافية، واللام بمعنى «إلا»، فكأنه قال: وما كنا عن دراستهم إلا غافلين[(٣)].

قال القاضي أبو محمد: معنى هذه الآية إزالة الحجة عن أيدي قريش وسائر العرب بأنهم لم يكن لهم كتاب، فكأنه قال: وهذا القرآن يا معشر العرب أنزل حجة عليكم لئلا تقولوا: إنما أنزلت التوراة والإنجيل بغير لساننا على غيرنا، ونحن لم نعرف ذلك، فهذا كتاب بلسانكم ومع رجل منكم.

---

(١) الكتاب لسيبويه (٣/ ١٥٢).

(٢) وهي قراءة متواترة، كما سيأتي في محله.

(٣) انظر هذه المسألة في مشكل إعراب القرآن، لمكي (١/ ٢٧٨).

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُواْ﴾ جملة معطوفة على الجملة الأولى، وهي في غرضها من الاحتجاج على الكفار، وقطع تعلقهم في الآخرة بأن الكتب إنما أنزلت على غيرهم، وأنهم غافلون عن الدراسة والنظر في الشرع وأنهم لو نزل عليهم كتاب لكانوا أسرع إلى الهدى من الناس كلهم، فقيل لهم: قد جاءكم بيان من الله وهدى ورحمة.

ولـمَّا تقرر أن البينة قد جاءت والحجة قد قامت حسُن بعد ذلك أن يقع التقرير بقوله: فَمَنْ أشدُّ ظُلْما مِمَّنْ كَذَّبَ بهذه الآيات البينات.

﴿وَصَدَفَ﴾ معناه: حاد وزاغ[1] وأعرض.

وقرأ يحيى بن وثاب وابن أبي عبلة: (كذب) بتخفيف الذال[2]، والجمهور: ﴿كَذَّبَ﴾ / بتشديد الذال. [٢/ ١٢٣]

و﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ﴾ وعيد.

وقرأت فرقة: ﴿يَصۡدِفُونَ﴾ بكسر الدال، وقرأت فرقة: (يصدُفون) بضم الدال[3].

قوله عز وجل: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

الضمير في ﴿يَنظُرُونَ﴾ هو للطائفة التي قيل لها قبل: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وهم العادلون بربهم من العرب الذين مضت أكثر آيات السورة في جدالهم.

و﴿يَنظُرُونَ﴾ معناه: ينتظرون، و﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ هنا يراد بها ملائكة الموت الذين يصحبون عزرائيل المخصوص بقبض الأرواح، قاله مجاهد وقتادة وابن جريج[4].

---

(١) في المطبوع: راغ.

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٣٤)، مختصر الشواذ (ص: ٤٧).

(٣) وهي قراءة شاذة، نقلها الكرماني في شواذ القراءات (ص: ١٨١)، عن الحسن.

(٤) تفسير الطبري (١٢/ ٢٤٥-٢٤٦)، تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٢٦)، وانظر: معاني القرآن للنحاس (٢/ ٥٢٢).

ويحتمل أن يريد الملائكة الذين يتصرفون في قيام الساعة.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿إلا أن يأتيهم﴾ بالياء، وقرأ الباقون: ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾ بالتاء من فوق[١].

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ قال الطبري: لموقف الحساب يوم القيامة، وأسند ذلك إلى قتادة وجماعة من المتأولين[٢].

وحكى الزجاج أن المراد بقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي: العذاب الذي يسلطه الله في الدنيا على من يشاء من عباده، كالصيحات والرجفات والخسف ونحوه[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا الكلام على كل تأويل فإنما هو بحذف مضاف تقديره: أمر ربك، أو بطش ربك، أو حساب ربك، وإلا فالإتيان المفهوم من اللغة مستحيل في حق الله تعالى، ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ [الحشر: ٢]، فهذا إتيان قد وقع وهو على المجاز وحذف المضاف[٤].

وقوله: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أما ظاهر اللفظ لو وقفنا معه فيقتضي أنه توعدهم بالشهير الفظيع من أشراط الساعة دون أن يخص من ذلك شرطاً، يريد بذلك الإبهام الذي يترك السامع مع أقوى تخيله، لكن لما قال بعد ذلك: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا﴾، وبينت الآثار الصحاح في البخاري ومسلم أن الآية التي معها هذا الشرط هي طلوع الشمس من المغرب[٥]، قَوِيَ أن الإشارة بقوله: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ إنما هي إلى طلوع الشمس من مغربها.

---

(١) وهي سبعية متواترة، انظر: التيسير للداني (ص: ١٠٨).

(٢) انظر: تفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٢٢)، وتفسير الطبري (١٢/ ٢٤٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٢٧)، وتفسير الماوردي (٢/ ١٩٠).

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٠٧).

(٤) تقدم أن مذهب السلف إثبات صفات الله تعالى كما جاءت دون تعطيل ولا تمثيل.

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣١١٩)، ومسلم (١٥٩) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وقال بهذا التأويل مجاهد وقتادة والسدي وغيرهم[(١)].

ويقوَى أيضاً أن تكون الإشارة إلى غرغرة الإنسان عند الموت أو ما يكون في مثابتها لمن لم يغرغر؛ ففي الحديث: أن توبة العبد تقبل ما لم يغرغر[(٢)]، وهذا إجماع[(٣)]؛ لأن مَن غرغر وعاين فهو في عداد الموتى، وكونُ المرء في هذه الحالة من آيات الله تعالى، وهذا على من يرى ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المتصرفين في قيام الساعة.

قال القاضي أبو محمد: فمقصد هذه الآية تهديد الكافرين بأحوالٍ لا يخلُون منها، كأنه قال: هل ينظرون مع إقامتهم على الكفر إلا الموت الذي لهم بعده أشد العذاب، والأخذاتُ المعهودة لله عز وجل، أو الآيات التي ترفع التوبة وتُعلم بقرب القيامة.

قال القاضي أبو محمد: ويصح أن يريد بقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ جميع ما يُقطع بوقوعه من أشراط الساعة، ثم خصص بعد ذلك بقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الآية التي ترتفع التوبة معها، وقد بينت الأحاديث أنها طلوع الشمس من مغربها[(٤)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٢٤٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٢٧)، وتفسير الماوردي (٢/ ١٩٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧) وابن ماجه (٤٢٥٣) وابن حبان (٦٢٨) والحاكم (٤/ ٢٨٦) من حديث عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن جبير بن نفير عن ابن عمر مرفوعاً، قال الترمذي: حسن غريب.اهـ، وعبد الرحمن له مناكير، وقد تفرد بهذا، وذكر هذا الحديث في ترجمته: ابن عدي في الكامل (٤/ ٢٨١) وتابعه الذهبي في الميزان على مسلم (٢/ ٥٥٢).

(٣) انظر حكاية الإجماع على ذلك في: شرح النووي (٢/ ٤٥).

(٤) من ذلك ما أخرجه الترمذي (٣٥٣٦)، والنسائي في الكبرى (١١١١٤) من حديث عاصم عن زر ابن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال المرادي.. وفيه: قال زر: فما برح يحدثني حتى حدثني أن الله جعل بالمغرب باباً مسيرة عرضه سبعون عاماً للتوبة لا يغلق ما لم تطلع الشمس من قبله، قال: وذلك قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾. ولم يصرح برفع هذا القدر، وأخرج الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٣) من طريق: جرير عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله من قوله، وأخرج الطبراني في الأوسط (٢/ ٢٩٤) من طريق: العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قوله أيضاً، وفي الباب عن أبي هريرة، وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهم.

وقرأ زهير الفرقبي: (يوم يأتي) بالرفع[١]، وهو على الابتداء، والخبر في الجملة التي هي ﴿لَا يَنفَعُ﴾ إلى آخر الآية، والعائد من الجملة محذوف لطول الكلام.

وقرأ ابن سيرين وعبد الله بن عمرو وأبو العالية: (لا تنفع) بتاء[٢]، وأنَّث «الإيمان» لما أضيف إلى مؤنث، أو لما نزِّل منزلة التوبة، وقال جمهور أهل التأويل كما تقدم: الآية التي لا تنفع التوبة من الشرك أو من المعاصي بعدها هي طلوع الشمس من المغرب.

وروي عن ابن مسعود أنها إحدى ثلاث: إما طلوع الشمس من مغربها، وإما خروج الدابة، وإما خروج يأجوج ومأجوج[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا فيه نظر؛ لأن الأحاديث ترده وتخصص الشمس، وروي في هذا الحديث أن الشمس تجري كل يوم حتى تسجد تحت العرش، وتستأذن فيؤذن لها في طلوع المشرق، وحتى إذا أراد الله عز وجل سد باب التوبة أمرها بالطلوع من مغربها[٤]، قال ابن مسعود وغيره عن النبي ﷺ: «فتطلع هي والقمر كالبعيرين القرينين»[٥]. ويقوى النظر أيضاً أن الغرغرة هي الآية التي ترفع معها التوبة.

وقوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ يريد جميع أعمال البر فرضها ونفلها، وهذا

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٣٦)، وفي السليمانية: «زهير القرشي»، وهو خطأ، وقد سبق التعريف به.

(٢) عزاها لابن سيرين وابن عمر في مختصر الشواذ (ص: ٤٧)، ولأبي العالية في المحتسب (١/ ٢٣٦)، ولم أجدها لابن عمرو.

(٣) أخرجه الطبري (١٤٢٤٤-١٤٢٤٥) من طريق القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن جده عبد الله بن مسعود، ولم يسمع منه، كما قاله أبو حاتم وانظر جامع التحصيل (٦٢٤).

(٤) تقدم حديث أبي ذر الذي أخرجه البخاري (٣١١٩)، ومسلم (١٥٩).

(٥) أخرجه الطبري (١٤٢٣٠-١٤٢٣١-١٤٢٣٢-١٤٢٣٣)، وابن أبي حاتم (٨١٤٢)، والطبراني في الكبير (٩٠١٩) من طريق أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفاً، وهو صحيح.

الفصل هو للعصاة المؤمنين كما أن[1] قوله: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ هو للكفار، والآية المشار إليها تقطع توبة الصنفين.

وقرأ أبو هريرة: (أو كسبت في إيمانها صالحاً)[2].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ الآية، تتضمن[3] الوعيد، أي: فسترون من يحق كلامه ويتضح ما أخبر به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قال ابن عباس[4] والضحاك وقتادة: المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اليهود والنصارى، أي: فرقوا دين إبراهيم الحنيفي[5]، وأضيف الدين[6] إليهم من حيث كان ينبغي أن يلتزموه، إذ هو دين الله الذي ألزمه العباد، فهو دين جميع الناس بهذا الوجه، ووصفهم بالشيع إذ كل طائفة منهم لها فِرَق واختلافات، ففي الآية حض لأمة محمد على الائتلاف وقلة الاختلاف.

وقال أبو الأحوص وأم سلمة زوج النبي ﷺ: الآية في أهل البدع والأهواء والفتن ومن جرى مجراهم من أمة محمد[7]، أي: فرقوا دين الإسلام.

---

(١) من المطبوع.

(٢) لم أجد من ذكر هذه القراءة غير ابن عطية، وهي قراءة شاذة، مخالفة للرسم.

(٣) في السليمانية وفيض الله ولالاليه: «لفظ يتضمن».

(٤) أخرجه الطبري (١٤٢٦١)، وابن أبي حاتم (٨١٥٣) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٢٦٩-٢٧٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٣٠)، وتفسير الماوردي (٢/ ١٩٢)، وفي الأصل: «دين الحنيفية».

(٦) في المطبوع: «الذين»، وهو خطأ.

(٧) أخرجه ابن منيع في مسنده كما في المطالب العالية (٣٦٠١)، وانظر قول أبي الأحوص في تفسير الطبري (١٢/ ٢٧٢)، وفي المطبوع: «الأحوص» بلا كنية، وترجم له في الهامش، والظاهر أنه خطأ.

وقرأ علي بن أبي طالب وحمزة والكسائي: ﴿فارقوا﴾[١]، ومعناه: تركوا.

ثم بيّن قولُه: ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أنهم فرقوه أيضاً، / و«الشيع»: جمع شيعة، وهي الفرقة على مقصدٍ مّا يتشايعون عليه. [٢/ ١٢٤]

وقوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ أي: لا تشفع لهم ولا لهم بك تعلق، وهذا على الإطلاق في الكفار، وعلى جهة المبالغة في العصاة والمتنطعين في الشرع، لأنهم لهم حظٌّ من تفريق الدين.

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية وعيد محض، والقرينة المتقدمة تقتضي أن أمرهم إلى الله فيه وعيد، كما أن القرينة في قوله: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥] تعطي أن في ذلك الأمر رجاء، كأنه قال: وأمره في إقبال وإلى خير.

وقرأ النخعي والأعمش وأبو صالح: (فَرَقوا) بتخفيف الراء[٢].

وقال السدي: هذه آية لم يؤمر فيها بقتال، وهي منسوخة بالقتال[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا كلام غير متقن، فإن الآية خبر لا يدخله نسخ، ولكنها تضمنت بالمعنى أمراً بموادعة، فيشبه أن يقال: إن النسخ وقع في ذلك المعنى الذي قد[٤] تقرر في آيات أخر.

وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الآية؛ قال أبو سعيد الخدري وعبد الله بن عمر: هذه الآية نزلت في الأعراب الذين آمنوا بعد الهجرة، فضاعف الله حسناتهم للحسنة عشر، وكان المهاجرون قد ضوعف لهم الحسنة سبع مئة[٥].

---

(١) وهي سبعية، وكذلك ﴿فَرَّقُوا۟﴾، وهي قراءة الجمهور، انظر: التيسير (ص: ١٠٨).

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٣٨)، ومختصر الشواذ (ص: ٤٧).

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٢٧٢).

(٤) زيادة من فيض الله والسليمانية.

(٥) أما أثر أبي سعيد الخدري فقد أخرجه الطبري (١٤٢٩٣) من طريق قتادة، عن أبي صديق الناجي =

قال القاضي أبو محمد: وهذا تأويل يحتاج إلى سند يقطع العذر.

وقالت فرقة: هذه الآية لجميع الأمة، أي: إن الله يضاعف الحسنة بعشرة، ثم بعد هذا المضمون قد يزيد ما يشاء، وقد يزيد أيضاً على بعض الأعمال كنفقة الجهاد.

وقال ابن مسعود ومجاهد والقاسم بن أبي بَزَّة[1] وغيرهم: الحسنة هاهنا: لا إله إلا الله، والسيئة: الكفر[2].

قال القاضي أبو محمد: وهذه هي الغاية من الطرفين.

وقالت فرقة: ذلك لفظ عام في جميع الحسنات والسيئات، وهذا هو الظاهر.

وأنَّث لفظ العشر لأن الأمثال هاهنا بالمعنى حسنات، ويحتمل أن الأمثال أنث لما أضيفت إلى مؤنث، وهو الضمير، كما قال الشاعر:

مَشَيْنَ كَمَا اهْتَزَّتْ رِمَاحٌ تَسَفَّهَتْ ... أَعَالِيَهَا مَرّ الرِّيَاحِ النَّوَاسِمِ[3] [الطويل]

فأنث.

= واسمه بكر بن عمرو، عن أبي سعيد الخدري به، وإسناده صحيح، وأما أثر عبد الله بن عمر فقد أخرجه الطبري (١٤٢٩٤)، وابن أبي حاتم (٨١٦٨) من طريق عطية العوفي، عن ابن عمر رضي الله عنه، والعوفي ضعيف.

(١) القاسم بن أبي بزة، أبو عبد الله، ويقال: أبو عاصم، مولى عبد الله ابن السائب بن صيفي المخزومي المكي، روى عن أبي الطفيل وسعيد بن جبير ومجاهد، وعنه حجاج بن أرطاة وشعبة ومسعر وآخرون، توفي سنة (١٢٤هـ). تاريخ الإسلام (٨/ ٢٠٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٤٢٧٢-١٤٢٧٣-١٤٢٧٤)، وابن أبي حاتم (٨١٦٥) في تفسيريهما من طريق جامع بن شداد، عن الأسود بن هلال، عن ابن مسعود، وإسناده صحيح، وانظر بقية الأقوال في: تفسير مجاهد (٢/ ٤٧٦)، وتفسير مقاتل (٢/ ٥٠٨)، وتفسير عبد الرزاق (٣/ ٨٦)، وتفسير الطبري (١٢/ ٢٧٦-٢٧٩)، ومعاني القرآن (٢/ ٥٢٤).

(٣) البيت لذي الرمة، كما في الكتاب لسيبويه (١/ ٥٢)، والكامل للمبرد (٢/ ١٠٥)، والصحاح للجوهري (٦/ ٢٢٣٤).

وقرأ الحسن وسعيد بن جبير وعيسى بن عمر والأعمش ويعقوب: ﴿فَلَهُۥ عَشْرٌ﴾ بالتنوين، ﴿أمثالُها﴾ بالرفع[١].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الأعمال ست: مُوْجِبة ومُوْجِبة، ومضعَّفة ومضعَّفة، ومِثْل ومِثْل؛ فلا إله إلا الله توجب الجنة، والشرك يوجب النار، ونفقة الجهاد تضعف سبع مئة ضعف، والنفقة على الأهل حسنتها بعشرة، والسيئة جزاؤها مثلها، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة مثلها»[٢].

وقوله تعالى: ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يوضع في جزائهم شيء في غير موضعه، وتقدير الآية: من جاء بالحسنة فله ثواب عشر أمثالها، والمماثلة بين الحسنة والثواب مترتبة إذا تدبرت.

وقال الطبري: قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الآية، يريد: من الذين فرقوا دينهم، أي: من جاء مؤمناً فله الجنة[٣].

قال القاضي أبو محمد: والقصد بالآية إلى العموم في جميع العالم أليق باللفظ، والله أعلم[٤].

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

هذا أمر من الله عز وجل أمر به نبيه ﷺ بالإعلان بشريعته والانتباه من سواها من أضاليلهم، ووصف الشريعة بما هي عليه من الحسن والفضل والاستقامة.

---

(١) وهي قراءة عشرية، قرأبها يعقوب كما في النشر (٢/ ٣٠١)، وانظر: تفسير الثعلبي (٤/ ٢١١)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٤٢).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤٢٩١) من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، مرسلًا.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١٠٧).

(٤) زيادة من السليمانية.

و﴿ هَدَىٰنِى ﴾ معناه: أرشدني بخَلْق الهدى في قلبي.

و«الرب»: المالك، ولفظه مصدر من قولك: ربَّه يربه، وإنما هو مثل عدلٍ ورضاً في أنه مصدر وصف به، وأصله: ذو الرب، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فقيل: الرب.

وقيل: «الصراط»: الطريق.

و﴿دِينًا﴾ منصوب بـ«هَدانِي» المقدر الذي يدل عليه ﴿هَدَىٰنِى﴾ الأول، وهذا الضمير إنما يصل وحده دون أن يحتاج إلى إضمار «إلى»، إذ «هدى» يصل بنفسه إلى مفعوله الثاني وبحرف الجر، فهو فعل متردد.

وقيل: نصَبَ ﴿دِينًا﴾ فعلٌ مضمر تقديره: عرَّفني ديناً، وقيل تقديره: فاتَّبعوا ديناً، أو فالزموا ديناً، وقيل: نصب على البدل من ﴿ صِرَٰطٍ ﴾ على الموضع، لأن تقديره: هداني ربي صراطاً مستقيماً.

و﴿قِيَمًا﴾ نعت للدين، ومعناه: مستقيماً معتدلاً.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ﴿قَيِّما﴾ بفتح القاف وكسر الياء وشدها، وأصله: قَيْوِم، عللت كتعليل سيد وميت.

وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿قِيَمًا﴾ بكسر القاف وفتح الياء على وزن فِعَل[1]، وكان الأصل أن يجيء فيه قِوَماً كعوض وحول، إلا أنه شذ كشذوذ قولهم: جياد، في جمع جواد، وثِيرَة في جمع ثور.

و﴿مِّلَّةَ ﴾ بدل من «الدين»، والملة: الشريعة، و﴿حَنِيفًا﴾ نصب على الحال من ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، والحنف في كلام العرب: الميل، فقد يكون الميل إلى فساد كحَنَف الرجل، وكقوله: (فمَنْ خافَ من مُوصٍ حَنَفاً) [البقرة: ١٨٢] على قراءة من قرأ بالحاء غير المنقوطة[2] ونحو ذلك.

---

(١) وكلاهما سبعية، انظر: التيسير للداني (ص: ١٠٨).

(٢) وهي قراءة شاذة، لم أجدها لغير ابن عطية، ولم يشر لها في محلها.

وقد يكون الحنف: الميل إلى الصلاح، كقوله ﷺ: «الحنيفية السمحة»[١]، و«الدين الحنيف» ونحوه.

وقال ابن قتيبة: الحنف الاستقامة[٢]، وإنما سمي الأحنف في الرجل على جهة التفاؤل له.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نفي للنقيصة عنه ﷺ.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ الآية، أمر من الله عز وجل أن يعلن بأن مقصده في صلاته وطاعته من ذبيحة وغيرها، وتصرُّفَه مدة حياته، وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته، إنما هو لله عز وجل وإرادةَ وجهه وطلب رضاه.

وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله عز وجل، ويحتمل أن يريد بهذه المقالة أن صلاته ونسكه وحياته وموته بيد الله عز وجل وله، يصرِّفه في جميع ذلك كيف شاء، وأنه قد هداه من ذلك إلى صراط مستقيم، ويكون قوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ / [على هذا التأويل راجعاً إلى قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ فقط أو راجعاً إلى القول الأول][٣]، وعلى هذا التأويل الأول يرجع على جميع ما ذكر من صلاة وغيرها، أي: أمرت بأن أقصد وجه الله عز وجل في ذلك وأن ألتزم العمل به. [٢/ ١٢٥]

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَنُسُكِي﴾ بضم السين، وقرأ أبو حيوة والحسن بإسكان السين[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٦)، وعبد بن حميد في المنتخب (٥٦٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٨٧) من طريق محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «الحنيفية السمحة»، وهو صحيح لغيره، وفي الباب عن عائشة، وجابر بن عبد الله، وأبي هريرة، وأبي أمامة.

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ولفظه: «الحنيف: المستقيم».

(٣) ساقط من الأصل، و«الأول» زيادة من الحمزوية ونجيبويه.

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لأبي حيوة والنخعي في الشواذ للكرماني (ص: ١٨٢)، وللحسن في إتحاف فضلاء البشر (ص: ٢٧٨).

وقالت فرقة: «النسك» في هذه الآية الذبائح.

قال القاضي أبو محمد: ويحسِّن تخصيص الذبيحة بالذكر في هذه الآية أنها نازلة قد تقدم ذكرها والجدل فيها في السورة.

وقالت فرقة: «النسك» في هذه الآية جميع أعمال الطاعات، من قولك: نسك فلان فهو ناسك: إذا تعبد.

وقرأ السبعة سوى نافع: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ بفتح الياء من (محيايَ)، وسكونها من (مماتي).

وقرأ نافع وحده: ﴿ومحيايْ﴾ بسكون الياء[١].

قال أبو علي الفارسي: وهي شاذة في القياس؛ لأنها جمعت بين ساكنين، وشاذة في الاستعمال، ووجهها أنه قد سمع من العرب: التقت حلقتا البطان، و: لفلان ثلثا المال[٢].

وروى أبو خليد[٣] عن نافع: (ومحيايِ) بكسر الياء.

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والجحدري: (ومَحييَّ)[٤]، وهذه لغة هذيل، ومنه قول أبي ذؤيب:

سَبَقوا هَوَيَّ وأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ   فتُصرِّعُوا ولِكُلِّ جَنْبٍ مَصرَعُ[٥]   [الكامل]

---

(١) وهما سبعيتان. انظر: التيسير للداني (ص ١٠٨).

(٢) الحجة لأبي علي الفارسي (٣/ ٤٤٠)، وفي السليمانية: «البطلان» بدل «البطان»، وهو خطأ.

(٣) هو عتبة بن حماد أبو خليد الحكمي الدمشقي القارئ. إمام جامع دمشق، حدث عن: الزبيدي، والأوزاعي، وابن ثوبان، وآخرين، وعنه: ابنه خليد، وسليمان بن أحمد الواسطي، ومحمد بن وهب ابن عطية. تاريخ الإسلام (١٣/ ٣٠٥).

(٤) وهما شاذتان، انظر عزو الأولى في الشواذ للكرماني (ص: ١٨٢)، والثانية في مختصر الشواذ (ص: ٤٧)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢١٢).

(٥) تقدم في أول سورة البقرة.

وقرأ عيسى بن عمر: (صلاتيَ ونسكيَ ومحيايَ ومماتيَ) بفتح الياء فيهن، وروي ذلك عن عاصم[١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأمة، وقال النقاش: من أهل مكة[٢].

قال القاضي أبو محمد: والمعنى واحد، بل الأول أعم وأحسن.

وقرأت فرقة: ﴿وأنا﴾ بإشباع الألف، وجمهور القراء على القراءة: ﴿وَأَنَا۠﴾ دون إشباع، وهذا كله في الوصل[٣].

قال القاضي أبو محمد: وترك الإشباع أحسن لأنها ألف وقف فإذا اتصل الكلام استغنى عنها لا سيما إذا وليتها همزة.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

حكى النقاش أنه روي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: ارجع يا محمد إلى ديننا واعبد آلهتنا واترك ما أنت عليه ونحن نتكفل لك بكل تِباعة تتوقعها في دنياك وآخرتك، فنزلت هذه الآية[٤]، وهي استفهام يقتضي التقرير والتوقيف والتوبيخ، و﴿أَبْغِى﴾ معناه: أطلب، فكأنه قال: أفيحسُن عندكم أن أطلب إلهاً غير الله الذي هو رب كل شيء؟ وما ذكرتم من كفالتكم لا يتم؛ لأن الأمر ليس كما تظنونه، وإنما كسب كل نفس من الشر والإثم عليها وحدها.

---

(١) انظر عزوها لعيسى بن عمر، ورواية الشموني في الشواذ للكرماني (ص: ١٨٢)، وللثاني عن شعبة في جامع البيان (٣/ ١٠٧٠).

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط (٤/ ٧٠٤).

(٣) وهما سبعيتان، والأولى لنافع، كما تقدم.

(٤) مثله في تفسير مقاتل (١/ ٣٨١)، وتفسير الماوردي (٢/ ١٩٦).

و(لا تَزِرُ): أي: لا تحمل، ﴿وَازِرَةٌ﴾: أي: حاملة حمل أخرى وثقلها، والوزر أصله: الثقل، ثم استعمل في الإثم لأنه ينقض الظهر تجوُّزاً واستعارة، يقال منه: وَزَر الرجل يزِر فهو وازر، ووزِر يَوْزَر فهو موزور.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ تهديد ووعيد.

﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ أي: فيعلمكم أن العقاب على الاعوجاج تبيين لموضع الحق.

وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يريد ـ على ما حكى بعض المتأولين ـ من أمري في قول بعضكم هو ساحر، وبعضكم: هو شاعر، وبعضكم: افتراه، وبعضكم: اكتتبه، ونحو هذا.

قال القاضي أبو محمد: وهذا التأويل يحسُن في هذا الموضع، وإن كان اللفظ يعم جميع أنواع الاختلافات من الأديان والملل والمذاهب وغير ذلك.

و﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: جمع خليفة أي يخلف بعضكم بعضاً.

قال القاضي أبو محمد: وهذا يتصور في جميع الأمم وسائر أصناف الناس، لأن من أتى خليفة لمن مضى، ولكنه يحسن في أمة محمد ﷺ أن يسمى أهلها بجملتهم خلائف للأمم، وليس لهم من يخلفهم إذ هم آخر الأمم وعليهم قيام الساعة.

وروى الحسن بن أبي الحسن أن النبي ﷺ قال: «توفُون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»، ويروى: «أنتم آخرها وأكرمها على الله»[١].

وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ لفظ عام في المال والقوة والجاه وجودة النفوس والأذهان وغير ذلك، وكل ذلك إنما هو ليختبر الله تعالى الخلق فيرى المحسن من المسيء.

ولما أخبر عز وجل بهذا، ففسح للناس ميدان العمل، وحضهم على الاستباق

(١) لم أقف على رواية الحسن، ولكن الحديث مشهور من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، مرفوعاً، أخرجه أحمد (٥/ ٣)، والترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، وغيرهم وإسناده جيد.

إلى الخير، توعّد ووعد تخويفاً منه وترجية، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾، وسرعة عقابه إما بأخذاته في الدنيا، وإما بعقاب الآخرة.

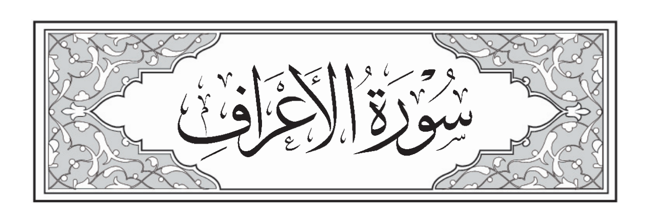
وحسن أن يوصف عقاب الآخرة بـ﴿سَرِيعُ﴾ لما كان متحقِّقاً مضمون الإتيان والوقوع، فكل آت يحكم عليه بالقرب ويوصف به.

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: ترجية لمن أذنب وأراد التوبة، وهذا في كتاب الله كثير: اقترانُ الوعيد بالوعد لطفاً من الله تعالى بعباده.

[كمل تفسير سورة الأنعام][1]

* * *

(١) زيادة من فيض الله والسليمانية، وفي لالاليه: «كمل السفر الثاني بعون الله وحسن توفيقه وصلى على سيدنا محمد»، وفي هامشه: «بلغ مقابلة».



بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الأعراف على بركة الله

وهي مكية كلها، قاله الضحاك وغيره[١].

وقال مقاتل: هي مكية إلا قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [١٦٣] إلى قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [١٧٢] فإن هذه الآيات مدنية[٢].

قوله عز وجل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿الٓمٓصٓ ① كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ③﴾.

تقدم القول في تفسير الحروف المقطعة التي في أوائل السور، وذكر اختلاف المتأولين فيها، ويختص هذا الموضع زائداً على تلك الأقوال بما قاله السدي: إن ﴿الٓمٓصٓ﴾ هجاء لاسم الله الذي هو المصور[٣]، وبقول زيد بن علي: إن معناه: أنا الله الفاصل[٤].

---

(١) وهو قول الحسن وعطاء وعكرمة، انظر: تفسير الماوردي (٢/ ١٩٨)، وتفسير البغوي (٢/ ١٤٧).

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان (٢/ ٢٧).

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٢٩١)، وتفسير: بن أبي حاتم (٥/ ١٤٣٧)، وتفسير الماوردي (٢/ ١٩٨)، وفي فيض الله: «حجاب» بدل «هجاء».

(٤) لم أقف عليه.

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ الآية، قال الفراء وغيره: ﴿كِتَٰبٌ﴾ رفع على الخبر للحروف[١]، كأنه قال: هذه الحروف كتاب أنزل إليك، ورد الزجّاج على هذا القول بما لا طائل فيه[٢].

[٢/ ١٢٦] وقال غيره: ﴿كِتَٰبٌ﴾ رفع على خبر ابتداء مضمر تقديره: / هذا الكتاب، و﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ في موضع الصفة لـ﴿كِتَٰبٌ﴾.

ثم نهى النبيَّ ﷺ أن يَبْـرَم أو يتضجر[٣] أو يستصحب من هذا الكتاب أو بسبب من أسبابه حرجاً، ولفظ النهي هو للحرج ومعناه للنبي ﷺ.

وأصل «الحرج»: الضيق، ومنه الحَرَجة: الشجر الملتف الذي قد تضايق، و«الحرج» هاهنا يعم الشك والخوف والهم وكلَّ ما يضيق الصدر، وبحسب سبب الحرج يفسر الحرج هاهنا، وتفسيره بالشك قلق.

والضمير في ﴿مِّنۡهُ﴾ عائد على «الكتاب»، أي: بسبب من أسبابه، و(من) هاهنا لابتداء الغاية، وقيل: يعود على التبليغ الذي يتضمنه معنى الآية، وقيل: على الإنذار[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا التخصيص كله لا وجه له، إذ اللفظ يعم جميع الجهات التي هي من سبب الكتاب ولأجله، وذلك يستغرق التبليغ والإنذار وتعرض المشركين وتكذيب المكذبين وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ اعتراض في أثناء الكلام، ولذلك قال بعض الناس إن فيه تقديماً وتأخيراً.

وقوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ اللام متعلقة بـ﴿أُنزِلَ﴾.

---

(١) معاني القرآن للفراء (٢/ ٣٩).

(٢) معاني القرآن للزجاج (٢/ ٣١٣)، وفي فيض الله «الحجاج» بدل «الزجاج».

(٣) في السليمانية ولالاليه: «أن يتبرم» بدل «أن يبرم»، و«يتضجر» زيادة من السليمانية.

(٤) في الأصل والحمزوية: «على الابتداء».

وقوله: ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾: معناه تذكرة وإرشاد، و(ذِكْرى) في موضع رفع عطفاً على قوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾، فالتقدير: هذه الحروف كتاب وذكرى، وقيل: رفعه على جهة العطف على صفة الكتاب، فالتقدير: هذه الحروف كتاب منزل إليك وذكرى، فهي عطف على «منزل» داخلة في صفة الكتاب، وقيل: (ذِكْرى) في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: لتنذر به وتذكِّر ذكرى للمؤمنين، وقيل: نصبها على المصدر، وقيل: (ذِكْرى) في موضع خفض عطفاً على قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ أي: لإنذارك وذكرى.

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ الآية، قال الطبري وحكاه: التقدير: قل اتبعوا، فحذف القول لدلالة الإنذار المتقدم الذكر عليه[١].

وقالت فرقة: قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ أمر يعم النبي ﷺ وأمته.

قال القاضي أبو محمد: والظاهر أن يكون أمراً لجميع الناس، أي: اتبعوا ملة الإسلام والقرآن.

وقرأ الجحدري: (ابتغوا أحسن[٢] ما أنزل)، من الابتغاء، وقرأ مجاهد: (ولا تبتغوا)[٣] من الابتغاء أيضاً.

وقوله: ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، يريد كل ما عُبد واتُّبع من دون الله، كالأصنام والأحبار والكهان والنار والكواكب وغير ذلك.

والضمير في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ راجع على ﴿رَّبِّكُمۡ﴾، هذا أظهر وجوهه وأبينها.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٢٩٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٣٨)، وتفسير السمرقندي (١/ ٥١٩)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢١٥).

(٢) زيادة من السليمانية.

(٣) وهما شاذتان، تابعه عليهما في البحر (٥/ ١٠)، وقد عزا الثانية في مختصر الشواذ (ص: ٤٧)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢١٥)، لمالك بن دينار والجحدري، وكذا في الشواذ للكرماني (ص: ١٨٣)، وزاد لمجاهد «ولا يبتغوا» بالياء، ولم يذكروا في الأولى شيئاً.

وقيل: يعود على قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ﴾، وقيل: يعود على الكتاب المتقدم الذكر.

و﴿قَلِيلًا﴾: نعت لمصدر نُصب بفعل مضمر، وقال مكي: هو منصوب بالفعل الذي بعده[(١)].

قال الفارسي: و﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ موصولة بالفعل وهي مصدرية[(٢)].

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿تذَّكَّرون﴾ بتشديد الذال والكاف.

وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال وتشديد الكاف.

وقرأ ابن عامر: ﴿يتذكرون﴾ بالياء كناية عن غيب[(٣)].

وروي عنه أنه قرأ: (تتذكرون) بتاءين[(٤)] على مخاطبة حاضرين.

قوله عز وجل: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾.

(كَمْ): في موضع رفع بالابتداء، والخبر: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾، ويصح أن يكون الخبر في قوله: ﴿فَجَآءَهَا﴾، و﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ صفةٌ، ويصح أن تكون في موضع نصب بفعل مقدر بعدها تقديره: وكم أهلكنا من قرية أهلكناها، وقدر الفعل بعدها ـ وهي خبرية ـ تشبيهاً لها بالاستفهامية في أن لها في كل حال صدر الكلام.

وقالت فرقة: المراد: وكم من أهل قرية، وحذف المضاف[(٥)] وأقام المضاف

---

(١) مشكل إعراب القرآن (١/ ٢٨١).

(٢) الحجة لأبي علي الفارسي (٣/ ٦).

(٣) وكلها سبعية، انظر: التيسير (ص: ١٠٩)، وفي السليمانية: «غائب» بدل «غيب».

(٤) انظر: السبعة لابن مجاهد (ص: ٢٧٨)، وليست من طرق التيسير.

(٥) زيادة من المطبوع.

إليه مقام المضاف، وقالت فرقة: إنما عبر بالقرية لأنها أعظم في العقوبة إذا هلك البشر وقريتهم، وقد بيَّن في آخر الآية بقوله: ﴿أَوْ هُمْ﴾ أن البشر داخلون في الهلاك، فالآية على هذا التأويل تتضمن هلاك القرية وأهلها جميعا، وعلى التأويل الأول تتضمن هلاك الأهل ولا معنى لذكر القرية، والمراد بالآية التكثير.

وقرأ ابن أبي عبلة: (وكم من قرية أهلكناهم فجاءهم بأسنا)[١].

وقوله: ﴿فَجَآءَهَا﴾ يقتضي ظاهره أن المجيء بعد الإهلاك، وذلك مستحيل، فلم يبق إلا أن يعدل عن ظاهر هذا التعقيب، فقيل: الفاء قد تجيء بمنزلة الواو ولا تعطي رتبة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف. وقيل: عبر عن إرادة الإهلاك بالإهلاك، قال مكي في «المشكل»: مثل قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ﴾[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا يحتج به في تأويل من قال: الفاء في هذه الآية لتعقيب القول.

وقيل: المعنى: أهلكناها بالخذلان وقلة التوفيق، فجاءها بأسنا بعد ذلك.

وقال الفراء ـ وحكاه الطبري ـ: إن الإهلاك هو مجيء البأس ومجيء البأس هو الإهلاك، فلما تلازما لم يبال أيهما قدم في الرتبة[٣]، وقيل: إن الفاء لترتيب القول فقط، فكأنه أخبر عن قرى كثيرة أنه أهلكها ثم قال: فكان من أمرها مجيء البأس.

و﴿ بَيَٰتًا ﴾: نصب على المصدر في موضع الحال، و﴿قَآئِلُونَ﴾ من القائلة، وإنما خص وقتي الدعة والسكون لأن مجيء العذاب فيهما أفظع وأهول لما فيه من البغت والفجأة.

و﴿أَوْ﴾ في هذا الموضع كما تقول: الناس في فلان صنفان: حامد أو ذام، فكأنه

---

(١) تابعه في البحر المحيط (٥/ ١١)، وهي مخالفة للرسم، فلعل الخطأ فيها ممن نقلها أو من رواها عنه.
(٢) النحل: ٩٨، وانظر: مشكل إعراب القرآن (١/ ٢٨٢)
(٣) انظر: معاني القرآن للفراء (١/ ٣٧١)، وتفسير الطبري (١٢/ ٣٠١).

قال جاءهم بأسنا فرقتين: بائتين أو قائلين، وهذا هو الذي يسمى اللف، وهو إجمال في اللفظ يفرقه ذهن المخاطب دون كلفة.

و«البأس»: العذاب، وقيل: المراد: أو وهم قائلون، فكره اجتماع حرفي العطف فحذفت الواو وهذا تكلف لأن معنى اللف باق.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ الآية، تَبيَّن في هذه الآية غايةَ البيان أن المراد في الآية قبلها أهل القرى، والدعوى في كلام العرب لمعنيين:

أحدهما: الدعاء، قال الخليل: تقول: اللهم أشركنا في صالح دعوى المسلمين[1]، ومنه قوله عز وجل: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٥]، ومنه قول الشاعر: / [٢/ ١٢٧]

[الطويل] وإِنْ مَذِلَتْ رِجْلِي دَعَوْتُكِ أَشْتَفِي بِدَعْوَاكِ مِـنْ مَذْلٍ بِهَـا فَيَهُونُ[2]

والثاني: الادعاء، فقال الطبري: هي في هذا الموضع بمعنى الدعاء[3].

قال القاضي أبو محمد: ويتوجه أن يكون أيضاً بمعنى الادعاء، لأن من ناله مكروه أو حزبه حادث فمن شأنه أن يدعو، كما ذهب إليه المفسرون في فعل هؤلاء المذكورين في هذه الآية، ومن شأنه أيضاً أن يدعي معاذير وأشياء تحسِّن حاله وتقيم حجته في زعمه، فيتجه أن يكون هؤلاء بحالِ مَن يدعي معاذير ونحوها.

فأخبر الله عنهم أنهم لم تكن لهم دعوى ثم استثنى من غير الأول، كأنه قال: لم يكن دعاءٌ أو ادعاء إلا الإقرارَ والاعتراف، أي: هذا كان بدل الدعاء أو الادعاء، وتحتمل الآية أن يكون المعنى: فما آلت دعواهم التي كانت في حال كفرهم إلا إلى اعتراف.

---

(١) انظر: معاني القرآن للنحاس (٣/ ١٠)، وتفسير البغوي (٢/ ١٤٨).

(٢) البيت لكثير، كما في نثر الدرر (٦/ ٢٥٨)، ونهاية الأرب في فنون الأدب (٣/ ١٢٥)، ومذلت: بمعنى خدرت.

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٣٠٣).

ونحو من الآية قول الشاعر:

وَقَدْ شَهِدَتْ قَيْسٌ فَمَا كَانَ نَصْرُهَا قُـتَـيْـبَـةَ إِلَّا عَضَّهَـا بِالأَبَـاهِـم[١] [الطويل]

واعترافهم وقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ هو في المدة بين ظهور العذاب إلى إتيانه على أنفسهم، وفي ذلك مهلة بحسب نوع العذاب تتسع لهذه المقالة وغيرها، وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «ما هلك قوم حتى يُعْذِروا من أنفسهم»[٢].

وفسر عبد الملك بن ميسرة[٣] هذا الحديث بهذه الآية[٤].

و﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، واسمها ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ وقيل بالعكس.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية وعيد من الله عز وجل لجميع العالم، أخبر أنه يسأل الأمم أجمع عما بلغ إليهم عنه وعن جميع أعمالهم، ويسأل النبيين عما بلَّغوا.

قال القاضي أبو محمد: وقد نفي السؤال في آيات، وذلك هو سؤال الاستفهام الحقيقي، وقد أثبت في آيات كهذه الآية، وهذا هو سؤال التقرير، فإن الله قد أحاط علما بكل ذلك قبل السؤال، فأما الأنبياء والمؤمنون فيعْقِبهم جوابهم رحمة وكرامة، وأما الكفار ومن نفذ عليه الوعيد من العصاة فيعقبهم جوابهم عذاباً وتوبيخاً، فمن أنكر منهم قص عليه بعلم.

---

(١) البيت للفرزدق كما تقدم في تفسير الآية (١١٩) من سورة آل عمران.

(٢) الأشبه موقوف، وهو مع ذلك منقطع، أخرجه الطبري (١٤٣٢٣) قال: حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن أبي سنان عن عبد الملك بن ميسرة الزراد، عن ابن مسعود، به مرفوعا، وابن أبي حاتم (٨٢١٢) من طريق: محمد بن عيسى الدامغاني، أنبأ جرير مثله لكن موقوف، وهو أشبه، وعبد الملك بن ميسرة الهلالي بن الزراد ثقة، ولكنه لم يدرك ابن مسعود، وعليه فالحديث منقطع.

(٣) عبد الملك بن ميسرة الهلالي العامري، أبو زيد الكوفي الزراد، عن ابن عمر، وأبي الطفيل، وزيد ابن وهب، وغيرهم. وعنه زيد بن أبي أنيسة ومسعر، وشعبة، وجماعة، توفي حوالي (١٢٠هـ). تاريخ الإسلام (٧/ ٤١٦).

(٤) تفسير الطبري (١٢/ ٣٠٤).

وقرأ ابن مسعود وابن عباس: (فلنسألن الذين أرسلنا[١] إليهم قبلك رسلنا ولنسألن المرسلين)[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ أي: فلنسْرُدن عليهم أعمالهم قصة قصة، ﴿بِعِلْمٍ﴾ أي: بحقيقة ويقين، قال ابن عباس: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون[٣].

قال القاضي أبو محمد: يشبه أن يكون الكلام هنا استعارة، إذ كل شيء فيه مقيد.

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ أي: ما كنا من لا يعلم جميع تصرفاتهم كالغائب عن الشيء الذي لا يعرف له حالاً.

قوله عز وجل: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾.

(الْوَزْنُ): مصدر وزن يزن، ورفعه بالابتداء، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبره.

و﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف منتصب بـ(الْوَزْنُ)، ويصح أن يكون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ خبر الابتداء، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ نعت لـ(الْوَزْنُ) والتقدير: الوزن الحق ثابت أو ظاهر يومئذ.

و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إشارة إلى يوم القيامة والفصل بين الخلائق.

واختلف الناس في معنى الوزن والموازين، فقالت فرقة: إن الله عز وجل أراد أن يعلم عباده أن الحساب والنظر يوم القيامة هو في غاية التحرير ونهاية العدل، فمثَّل لهم في ذلك بالوزن والميزان، إذ لا يعرف البشر أمراً أكثر تحريراً منه، فاستعير للعدل وتحرير النظر لفظة الوزن والميزان، كما استعار ذلك أبو طالب في قوله:

---

(١) في السليمانية: «أرسل» بدل« أرسلنا».

(٢) لم أجد من ذكر له هذه القراءة هنا غير المصنف، وإنما نسبوا له في سورة الزخرف الآية (٤٥) أنه قرأ: «وَاسأَلْ الَّذِينَ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ رُسُلنا»، كما سيأتي في محله، انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٦١١)، تفسير الثعلبي (٨/ ٣٣٧)، ومعاني القرآن للنحاس (٦/ ٣٦٧).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٢٢١) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

بِميـزَانِ قِسْـطٍ لا يَخِـسُّ شَـعِيرَةً ... لَهُ حَاكِمٌ مِنْ نَفْسِـهِ غَيْـرُ عَائِلِ[١] [الطويل]

وروي هذا القول عن مجاهد والضحاك وغيرهما[٢].

وكذلك استعير على قولهم الثقل والخفة لكثرة الحسنات وقلَّتها.

وقال جمهور الأمة: إن الله عز وجل أراد أن يعرض لعباده يوم القيامة تحرير النظر وغاية العدل بأمر قد عرفوه في الدنيا وعَهِدْته أفهامهم، فميزان القيامة له عمود وكفتان على هيئة موازين الدنيا[٣].

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام[٤].

وقالوا: هذا الذي اقتضاه لفظ القرآن ولم يرده نظر.

قال القاضي أبو محمد: وهذا القول أصح من الأول من ثلاث[٥] جهات:

أولها: أن ظواهر كتاب الله عز وجل تقتضيه، وحديث الرسول ﷺ ينطق به، من ذلك: قوله لبعض الصحابة وقد قال له: يا رسول الله أين أجدك في القيامة؟ فقال «اطلبني عند الحوض فإن لم تجدني فعند الميزان»[٦]، ولو لم يكن الميزان مرئيّاً محسوساً لما أحاله رسول الله ﷺ على الطلب عنده.

---

(١) تقدم في تفسير الآية (٣) من سورة النساء.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٣٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٤٠).

(٣) انظر: تفسير مقاتل (١/ ٣٨٤)، وتفسير الطبري (١٢/ ٢١١)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ١١)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢٠١).

(٤) ضعيف، أخرجه الطبري (١٤٣٣٣) من طريق عبد العزيز بن أبان الأموي، عن يوسف بن صهيب وموسى، عن بلال بن يحيى، عن حذيفة به، وإسناده ضعيف؛ من أجل عبد العزيز بن أبان فإنه متروك وكذبه بن معين وغيره.

(٥) «ثلاث»: من المطبوع.

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ١٧٨)، والترمذي (٢٤٣٣) من طريق حرب بن ميمون الأنصاري أبو الخطاب حدثنا النضر بن أنس بن مالك عن أبيه مرفوعاً، وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. اهـ.

وجهة أخرى: أن النظر في الميزان والوزن والثقل والخفة المقترنات بالحساب لا يَفسد شيء منه ولا تختلُّ صحته، وإذا كان الأمر كذلك فلم نخرج من حقيقة اللفظ إلى مجازه دون علة؟.

وجهة ثالثة: وهي أن القول في الميزان هو من عقائد الشرع الذي لم يعرف إلا سمعاً، وإن فتحنا فيه باب المجاز غمرتنا أقوال الملحدة والزنادقة في أن الميزان والصراط والجنة والنار والحشر ونحو ذلك إنما هي ألفاظ يراد بها غير الظاهر(١).

قال القاضي أبو محمد: فينبغي أن يجرى في هذه الألفاظ إلى حملها على حقائقها.

وأما الثقل والخفة فإن الآثار تظاهرت بأن صحائف الحسنات والسيئات توضع في كفتي الميزان، فيحدث الله في الجهة التي يريد ثقلا وخفة على نحو إحداثه ذلك في جسم رسول الله ﷺ في وقت نزول الوحي عليه، ففي الصحيح من حديث زيد بن ثابت أنه قال: كنت أكتب حتى نزلت: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥]، وفخذ رسول الله ﷺ على فخذي حتى كادت أن ترض فخذي(٢)، وفي الحديث أنه كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته بركت به عجزاً عن حمله(٣) لثقل الحادث فيه.

ولا بد لنا أن نعلم أن الثقل الحادث مع الحسنات إنما يتعلق بجسم، إذ العرض لا يقوم بالعَرَض، فجائز أن يحدث الثقل في الصحائف وهو أقربها إلى الظن، وجائز أن [يحدث في غير ذلك](٤) من الأجسام المجاورة لتلك الحال.

---

(١) انظر: فضائح الباطنية للغزالي (١/ ١٥٥)، وإيثار الحق لابن الوزير (١/ ١٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٣٢).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١١٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (٧/ ٥٣) من طريق علي بن المبارك الصنعاني ثنا زيد بن المبارك ثنا محمد بن ثور عن معمر عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها فلم تستطع أن تتحرك وتلت قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، وإسناده صحيح، لكن معمراً في حديثه عن هشام بن عروة اضطراب وأوهام كما قاله يحيى بن معين.

(٤) في الحمزوية: «يحدث الفعل في غير ذلك»، وفي المطبوع: «يحدث في ذلك».

وإلى حدوثه في الصحائف ذهب أبو المعالي[١].

ورويت في خبر الميزان آثار عن صحابة وتابعين في هيئته وطوله[٢] / وأحواله لم تصح بالإسناد، فلم نر للإطالة بها وجها. [٢/ ١٢٨]

وقال الحسن فيما روي عنه: بلغني أن لكل أحد يوم القيامة ميزاناً على حدة[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول مردود، الناس على خلافه، وإنما لكل أحد وزن يختص به والميزان واحد.

وروي عن مجاهد في قوله: ﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أن الموازين الحسناتُ نفسها[٤].

قال القاضي أبو محمد: وجمع لفظ الموازين إذ في الميزان موزونات كثيرة، فكأنه أراد التنبيه عليها بجمعه لفظ الميزان.

و﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ في اللغة: المدركون لبغيتهم، الناجحون في طلبهم، ومنه قول عبيد:

أَفْلِحْ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُبْلَغُ بالضَّـ ... ـعْفِ وَقَدْ يُخْدَعُ الأَرِيبُ[٥] [مخلع البسيط]

فأما قول الشاعر:

.... والْمُسْيُ وَالصُّبْحُ لا فَلاحَ مَعَهْ[٦] [المنسرح]

فقد قيل إنه بمعنى البقاء.

قال القاضي أبو محمد: والبقاء بلوغ بغية، فالمعنيان متقاربان، ووزن الله تعالى

---

(١) لم أقف على نسبة هذا القول لأبي المعالي.

(٢) في المطبوع: «في هيئة طوله».

(٣) انظر: تفسير السمعاني (٦/ ٢٧٣).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣١١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٤١).

(٥) في فيض الله والسليمانية ولالاليه: «لبيد» بدل «عبيد»، وهو خطأ، والبيت تقدم قريباً في تفسير الآية (٢٢) من سورة الأنعام.

(٦) البيت للأضبط ابن قريع السعدي كما تقدم في تفسير الآية (٧) من سورة البقرة.

أعمال العباد مع علمه بدقائق الأشياء وجلائلها نظيرُ كَتْبه أعمالهم في صحائفهم واستنساخه ذلك، ونظير استنطاقه جوارحهم بالشهادة عليهم إقامة للحجة وإيضاحاً، فقد تقرر في الشرع أن كلمة التوحيد ترجح ميزان مَن وُزنت في أعماله ولا بد.

فإن قال قائل: كيف تثقل موازين العصاة من المؤمنين بالتوحيد ويصح لهم حكم الفلاح ثم تدخل طائفة منهم النار وذلك شقاء لا محالة؟ فقالت طائفة: إنه توزن أعمالهم دون التوحيد فتخف الحسنات فيدخلون النار، ثم عند إخراجهم يوزن التوحيد فتثقل الحسنات فيدخلون الجنة، وأيضا فمعرفة العاصي أنه غير مخلد فلاح وإن تقدمه شقاء على جهة التأديب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ الآية، المعنى: من خفت كفة ميزان[١] حسناته فشالت، و[أولئك الذين][٢] خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، أي: بالهلاك[٣] والخلود في النار وتلك غاية الخسارة.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟﴾ أي: جزاء بذلك، كما تقول: أكرمتك بما أكرمتني.

و(ما) في هذا الموضع مصدرية.

و«الآيات» هنا: البراهين والأوامر والنواهي.

و﴿يَظْلِمُونَ﴾: أي: يضعونها في غير مواضعها بالكفر والتكذيب لها.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾.

الخطاب لجميع الناس، والمراد أن النوع بجملته ممكَّن في الأرض.

---

(١) زيادة من فيض الله والسليمانية.

(٢) زيادة من السليمانية.

(٣) في فيض الله والسليمانية: «الخذلان» بدل «الهلاك».

و«المعايش»: جمع معيشة، وهي لفظة تعم المأكول الذي يعاش به، والتحرُّف الذي يؤدي إليه.

وقرأ الجمهور: ﴿مَعَـٰيِشَ﴾ بكسر الياء دون همز.

وقرأ الأعرج وغيره: (معائش) بالهمز كمدائن وسفائن.

ورواه خارجة عن نافع، وروي عن ورش: (معايْش) بإسكان الياء[١].

فمن قرأ: ﴿مَعَـٰيِشَ﴾، بتصحيح الياء فهو الأصوب؛ لأنها جمع معيشة وزنها مفعلة، ويحتمل أن تكون مفعلة بضم العين، قالهما سيبويه[٢]، وقال الفراء: مفعلة بفتح العين[٣]. فالياء في معيشة أصلية، وأعلت معيشة لموافقتها الفعل الذي هو يعيش في الياء[٤]، أي: في المتحرك والساكن، وصححت ﴿مَعَـٰيِشَ﴾ في جمع التكسير لزوال الموافقة المذكورة في اللفظ، ولأن التكسير معنىً لا يكون في الفعل إنما تختص به الأسماء.

ومن قرأ: (معايْش)، فعلى التخفيف من ﴿مَعَـٰيِشَ﴾.

ومن قرأ: (معائش) فأعلها، فذلك غلط[٥]، وأما توجيهه فعلى تشبيه الأصل بالزائد لأن معيشة تشبه في اللفظ صحيفة، فكما يقال: صحائف، قيل: معائش، وإنما همزت ياء صحائف ونظائرها مما الياء فيه زائدة لأنها لا أصل لها في الحركة، وإنما وزنها فعيلة ساكنة، فلما اضطر إلى تحريكها في الجمع بدلت بأجلد منها.

و﴿قَلِيلًا﴾ نصب بـ﴿تَشۡكُرُونَ﴾، ويحتمل أن تكون ﴿مَّا﴾ زائدة؛ لأنها لا أصل

---

(١) وليستا من طرق التيسير، انظر عزو الأولى في مختصر الشواذ (ص: ٤٨)، والثانية في الهداية لمكي (٤/ ٢٢٨٩).

(٢) الكتاب لسيبويه (٤/ ٣٥٠).

(٣) معاني القرآن للفراء (٢/ ٤٤).

(٤) في فيض الله والسليمانية ولالاليه: «البناء».

(٥) مثله في السبعة لابن مجاهد (ص: ٢٧٨).

لها، ويحتمل أن تكون ﴿مَّا﴾ مع الفعل بتأويل المصدر، و﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره شكراً قليلاً شكرُكم، أو شكراً قليلاً تشكرون.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ الآية، هذه الآية معناها التنبيه على موضع العبرة، والتعجيب من غريب الصنعة وإسداء النعمة، فبدأ بالخلق الذي هو الإيجاد بعد العدم، ثم بالتصوير في هذه البِنية[1] المخصوصة للبشر، وإلا فلم يَعْرَ المخلوق قط من صورة.

واضطرب الناس في ترتيب هذه الآية، لأن ظاهرها يقتضي أن الخلق والتصوير لبني آدم قبل القول للملائكة أن يسجدوا، وقد صححت الشريعة أن الأمر لم يكن كذلك:

فقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ آدم بنفسه وإن كان الخطاب لبنيه، وذلك لما كان سببُ وجود بنيه بما فُعل فيه، صح مع تجوُّز أن يقال: إنه فعل في بنيه.

وقال مجاهد: المعنى: وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ في صلب آدم، وفي وقت استخراج ذرية آدم من ظهره أمثال الذر في صورة البشر[2].

قال القاضي أبو محمد: ويترتب في هذين القولين أن تكون ﴿ثُمَّ﴾ على بابها في الترتيب والمهلة.

وقال عكرمة والأعمش: المراد: خلقناكم في ظهور الآباء وصورناكم في بطون الأمهات[3]، وقال ابن عباس والربيع بن أنس: أمَّا ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ فآدم وأمَّا ﴿صَوَّرْنَٰكُمْ﴾

---

(١) في المطبوع والسليمانية: «البينة».

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٣٢٠)، وانظر: معاني القرآن (٣/ ١٣)، وتفسير ابن أبي زمنين (٢/ ١١٣)، ونسبوا الأول لقتادة.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣١٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٤٢)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢٠٢).

فذريته في بطون الأمهات[١]، [وقاله قتادة والضحاك، وقال معمر بن راشد عن بعض أهل العلم: بل ذلك كله في بطون الأمهات]، من خلق وتصوير[٢].

قال القاضي أبو محمد: وقالت هذه الفرقة: إن ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الإخبار بهذه الجمل لا لترتيب الجمل في أنفسها[٣].

وقال الأخفش: ﴿ثُمَّ﴾ في هذه الآية بمعنى الواو[٤]، ورد عليه نحويو البصرة[٥].

وملائكة وزنه إما مفاعلة وإما معافلة وإما فعائلة[٦]، بحسب الاشتقاق الذي قد مضى ذكره في سورة البقرة، وهنالك ذكرنا هيئة السجود والمراد به، ومعنى إبليس، وكيف كان قبل المعصية.

وأما قوله في هذه الآية: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ فقال الزجّاج: هو استثناء ليس من الأول، ولكن إبليس أمر بالسجود بدليل قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾[٧].

وقال غير الزجّاج: الاستثناء من الأول[٨]؛ لأنّا لو جعلناه منقطعا على قول من قال: إن إبليس لم يكن من الملائكة، لوجب أن إبليس لم يؤمر بالسجود، إلا أن يقول قائل هذه المقالة: إن أمر إبليس كان بوجه آخر غير قوله: ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾ وذلك / بيّن الضعف. [٢/ ١٢٩]

---

(١) أخرجه الطبري (١٤٣٣٨)، وابن أبي حاتم (٨٢٣٣-٨٢٣٦) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنه، وأخرجه ابن جرير أيضاً (١٤٣٣٩) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١٢/ ٢١٨-٢١٩)، وما بين القوسين ساقط من الأصل.

(٣) في المطبوع والحمزوية: «في نفسها».

(٤) معاني القرآن للأخفش (١/ ٣٢١).

(٥) معاني القرآن للنحاس (٣/ ١٢).

(٦) «وإما فعائلة»، ساقطة من المطبوع.

(٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٢٢).

(٨) مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٤١٣)، وانظر كذلك: تفسير الماوردي (١/ ١٠٢).

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿للملائكةُ اسجدوا﴾ بضم الهاء وهي قراءة ضعيفة[١]، ووجهها أنه حذف همزة ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾، وألقى حركتها على الهاء، وذلك لا يتجه لأنها همزة محذوفة مع جر[٢] الهاء بحركة[٣]، أي شيء يلغى، والإلغاء أبداً[٤] إنما يكون في الوصل[٥].

قوله عز وجل: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾.

﴿مَا﴾ استفهام، والمقصود به التوبيخ والتقريع، و(لا) في قوله: ﴿أَلَّا﴾ قيل: هي زائدة، والمعنى: ما منعك أن تسجد، وهي كـ«لا» في قول الشاعر:

[الطويل]
أَبَى جُودُهُ لا البُخْلَ وَاسْتَعْجَلَتْ بِهِ ... نَعَمْ مِنْ فَتًى لا يَمْنَعُ الجُودَ قَاتِلَهْ[٦]

وهذا على أحد الأقوال في هذا البيت؛ فقد قيل: «لا» فيه زائدة.

وقال الزجّاج: مفعولة، والبخل بدل منها[٧].

وحكى الطبري عن يونس عن أبي عمرو بن العلاء: أن الرواية فيه: «لا البخلِ» بخفض اللام لأن «لا» قد تتضمن جوداً إذا قالها مَن أُمر بمنع[٨] الحقوق والبخل عن الواجبات[٩].

(١) وهي قراءة عشرية كما تقدم في حرف البقرة.
(٢) «جر»: ساقطة من المطبوع.
(٣) في فيض الله والسليمانية: «فحركة» بدل «بحركة».
(٤) زيادة من فيض الله والسليمانية.
(٥) انظر: المحتسب (١/ ٢٤٠).
(٦) تقدم في تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.
(٧) معاني القرآن وإعرابه له (٢/ ٣٢٣)، وفي المطبوع: «مفعوله».
(٨) في الأصل: «قال»، وفي المطبوع: «إذا قالها في أمر يمنع»، وفي نجيبويه: «من أمر يمنع».
(٩) الطبري (١٢/ ٣٢٤).

ومن الأبيات التي جاءت «لا» فيها زائدة قول الشاعر:

أفَعَنْـكِ لا بَـرْقٌ كأنَّ وَميضَـهُ غَـابٌ تَسَـنَّمَهُ ضِـرَامٌ مُثْقَـبُ[١] [الكامل]

وقيل في الآية: ليست (لا) زائدة، وإنما المعنى: ما منعك فأحوجك[٢] إلى أن لا تسجد، وقيل: لما كان ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ بمعنى: من أمرك؟ ومن قال لك؟ حسن أن يقول بعدها: ﴿أَلَّا تَسۡجُدَ﴾.

قال القاضي أبو محمد: وجملة هذا الغرض أن يقدر في الكلام فعل يحسن حمل النفي عليه، كأنه قال: ما أحوجك أو حملك أو اضطرك.

وجواب إبليس اللعين ليس عما[٣] سئل عنه، ولكنه جاء بكلام يتضمن الجواب والحجة عليه، فكأنه قال: منعني فضلي إذ أنا خير منه حين خلقتني من نار وخلقته من طين.

وروي عن ابن عباس أنه قال: لا أسجد وأنا خير منه وأكبر سناً وأقوى خلقاً[٤].

يقول: إن النار أقوى من الطين، وظن إبليس أن النار أفضل من الطين وليس كذلك بل هي[٥] في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق، فلما ظن إبليس أن صعود النار وخفتها يقتضي فضلا على سكون الطين وبلادته، قاس أن ما خلق منها أفضل مما خلق من الطين، فأخطأ قياسه، وذهب عليه أن الروح الذي نفخ في آدم ليس من طين.

قال الطبري: ذهب عليه ما في النار من الطيش والخفة والاضطراب، وما في الطين من الوقار والأناة والحلم والتثبت[٦].

---

(١) تقدم في تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.

(٢) في الأصل ونجيبويه: «ما أخرجك».

(٣) في السليمانية وفيض الله ولالاليه: «ليس على ما».

(٤) ضعيف، أخرجه الطبري (١٤٣٥٧) من طريق بشر بن عمارة وهو ضعيف، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنه به.

(٥) في المطبوع والسليمانية: «بل هما».

(٦) تفسير الطبري (١٢/ ٣٢٧)، وفي الأصل: «الحمل» بدل «الحلم».

قال القاضي أبو محمد: وفي كلام الطبري نظر. وروي عن الحسن وابن سيرين أنهما قالا: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس.

قال القاضي أبو محمد: قال الطبري: يعنيان: الخطأ[١]، ولا دليل من لفظهما عليه، ولا يتأول عليهما إنكار القياس، وإنما خرج كلامهما نهياً عما كان في زمنهما من مقاييس الخوارج وغيرهم، فأرادا حمل الناس على الجادة.

وقوله تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ الآية، أمر من الله عز وجل لإبليس بالهبوط في وقت عصيانه في السجود، فيظهر من هذا أنه إنما أهبط[٢] أولًا وأُخرج من الجنة وصار في السماء، لأن الأخبار تظاهرت أنه أغوى آدم وحواء من خارج الجنة، ثم أُمر آخِراً بالهبوط من السماء مع آدم وحواء والحية.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله بحسب ألفاظ القصة، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ معناه: فما يصح لك ولا يتم، وليس يقتضي هذا اللفظ أن التكبر له في غيرها على ما ذهب إليه بعض المعترضين، فقد تضمنت الآية أن الله أخبر إبليس أن الكبرياء لا يتم له ولا يصح في الجنة مع نهيه له ولغيره عن الكبرياء في كل موضع، وأما لو أخذنا ﴿فَمَا يَكُونُ﴾ على معنى: فما يحسن وما يجمل، كما تقول للرجل: ما كان لك أن لا تصل قرابتك، لغُيِّر[٣] معنى الإغلاظ على إبليس.

وقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ حكم عليه بضد المعصية التي عصى بها وهي الكبرياء فعوقب بالحمل عليه بخلاف شهوته وأمله، و«الصغار»: الذل، قاله السدي[٤].

ثم سأل إبليس ربه أن يؤخره إلى يوم البعث طمع أن لا يموت، إذ علم أن الموت ينقطع بعد البعث.

---

(١) انظره مع القول الذي قبله في تفسير الطبري (١٢/ ٣٢٧).
(٢) «إنما» ساقطة من المطبوع، وفي الأصل: «لما أهبط»
(٣) سقطت من نور العثمانية، وفي المطبوع: «لفتر».
(٤) تفسير الطبري (١٢/ ٣٣٠).

ومعنى ﴿أَنظِرۡنِيٓ﴾: أخرني، فأعطاه الله النظِرة إلى يوم الوقت المعلوم، فقال أكثر الناس: الوقت المعلوم هو النفخة الأولى في الصور، التي يصعق لها من في السماوات ومن في الأرض من المخلوقين، وقالت فرقة: بل أحاله على وقت معلوم عنده عز وجل يريد به يوم موت إبليس وحضور أجله دون أن يعين له ذلك، وإنما تركه في عماء الجهل به ليغمَّه ذلك ما عاش.

قال القاضي أبو محمد: وقال بعض أهل هذه المقالة: إن إبليس قتلته الملائكة يوم بدر، ورووا في ذلك أثراً ضعيفاً.

قال القاضي أبو محمد: والأول من هذه الأقوال أصح وأشهر في الشرع.

ومعنى ﴿مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾: من الطائفة التي تأخرت أعمارها كثيراً حتى جاءت آجالها على اختلاف أوقاتها، فقد عم تلك الفرقة إنظار وإن لم يكونوا أحياء مدة الدهر.

وقوله: ﴿فَبِمَآ﴾ يحتمل أن يريد به القسم، كما تقول: فبالله لأفعلن، ويحتمل أن يريد به معنى المجازاة، كما تقول: فبإكرامك لي يا زيد لأكرمنك.

قال القاضي أبو محمد: وهذا أليق المعاني بالقصة، ويحتمل أن يريد: [فمع إغوائك لي ومع ما أنا عليه من سوء الحال لأتجلدن ولأقعدن، ولا يعرض لمعنى المجازاة.

ويحتمل أن يريد بقوله][1]: ﴿فَبِمَآ﴾ الاستفهامَ عن السبب في إغوائه، ثم قطع ذلك وابتدأ الإخبار عن قعوده لهم، وبهذا فسر الطبري أثناء لفظه[2].

و﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾ قال الجمهور: معناه: أضللتني من الغي، وعلى هذا المعنى قال محمد ابن كعب القرظي فيما حكى الطبري: قاتل الله القدرية لإبليس أعلم بالله منهم، يريد في أنه علم أن الله يهدي ويضل، وقال الحسن: ﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾: لعنتني[3]، وقيل: معناه خيَّبتني.

---

(١) ساقط من الأصل.

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٣٣٠).

(٣) انظر القولين في الطبري (١٢/ ٣٣٤).

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله تفسير بأشياء لزمت إغواءه.

وقالت فرقة: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ معناه: أهلكتني، حكى ذلك الطبري، وقال: هو من قولك: غَوِي الفصيل يَغوَى غوىً: إذا انقطع عنه اللبن فمات، وأنشد:

[الطويل] مُعَطَّفَةُ الأَثْنَاءِ لَيْسَ فَصِيلُهَا بِرَازِئِهَا دَرّاً وَلا مَيِّتٍ غَوَى[1]

قال: وقد حكي عن بعض طيِّئ: أصبح فلان غاوياً، أي: مريضاً[2].

وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ﴾ يريد: على صراطك، وفي صراطك، وحذف كما يفعل في الظروف، ونحوه قول الشاعر / : [٢/ ١٣٠]

[الكامل] لَـدْنٌ بِهَـزِّ الْكَـفِّ يَعْسِـلُ مَتْنُـهُ فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ[3]

وقال مجاهد: ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يريد به الحق، وقال عون بن عبد الله[4]: يريد طريق مكة[5].

قال القاضي أبو محمد: وهذا تخصيص ضعيف، وإنما المعنى: لأتعرضن لهم في طريق شرعك وعبادتك ومنهج النجاة فلأصدنهم عنه.

ومنه قوله ﷺ: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه[6]، نهاه عن الإسلام وقال: تترك دين آبائك؟ فعصاه فأسلم، فنهاه عن الهجرة وقال: تدع أهلك وبلدك؟ فعصاه فهاجر،

---

(١) البيت بلا نسبة في إصلاح المنطق (ص: ١٨٩)، والزاهر للأنباري (٢/ ٢١٠) والمخصص (٢/ ١٤٨).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٣٣٣).

(٣) البيت لساعدة بن جؤية الهذلي كما في الكتاب لسيبويه (١/ ٣٦)، والجمل في النحو (ص: ٧٠)، وإيضاح الشواهد (١/ ٢١٣).

(٤) هو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي الكوفي الزاهد، أحد الأئمة، روى عن أبيه، وأخيه عبيد الله الفقيه، وعائشة، وأبي هريرة، وكان عون ثقة يرسل كثيراً، من آدب أهل المدينة وأفقههم، وكان مرجئاً، ثم تركه، مات بعد (١١٠هـ). تاريخ الإسلام (٧/ ٤٣٧).

(٥) انظر القولين في تفسير الطبري (١٢/ ٣٣٥).

(٦) في السليمانية: «بطريقه». وفي فيض الله: «بطرقه».

فنهاه عن الجهاد وقال: تقتل وتترك ولدك؟ فعصاه فجاهد، فله الجنة»[١] الحديث.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨﴾.

هذا توكيد من إبليس في أنه يجدُّ في إغواء بني آدم، وهذا لم يكن حتى علم إبليس أن الله يجعل في الأرض خليفة، وعلم أنه آدم، وإلا فلا طريق له إلى علم أنسال آدم من ألفاظ هذه الآيات.

قال القاضي أبو محمد: ومقصد هذه الآية: أن إبليس أخبر عن نفسه أنه يأتي إضلال بني آدم من كل جهة وعلى كل طريق، يفسد عليه ما أمكنه من معتقده، وينسيه صالح أعمال الآخرة، ويغريه بقبيح أعمال الدنيا، فعبر عن ذلك بألفاظ تقتضي الإحاطة بهم، وفي اللفظ تجوز، وهذا قول جماعة من المفسرين.

وقال ابن عباس فيما روي عنه: أراد بقوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ الدنيا ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ الحق، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ الباطل[٢]، وقال ابن عباس أيضاً فيما روي عنه:

---

(١) أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة (٤/ ٥٦٤)، وأحمد (٣/ ٤٨٣)، والنسائي في الكبرى (٤٣٢٧)، وابن حبان (١٠/ ٤٥٣) من طريق: محمد بن فضيل، عن موسى بن المسيب الثقفي أبي جعفر، عن سالم ابن أبي الجعد، عن سبرة بن أبي فاكه مرفوعاً، وقد اختلف في إسناد هذا الحديث، فقيل عنه مثل ما سبق وقيل: عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر بن أبي سبرة، عن النبي ﷺ. ذكر الاختلاف البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢١) وقال أبو نعيم في معرفة الصحابة (٢/ ٥٥٠): هذا مما وهم فيه طارق بن عبد العزيز بن طارق تفرد بذكر جابر، يعني عن ابن عجلان به، ورواه ابن فضيل عن موسى بن أبي جعفر عن سالم عن سبرة بن أبي فاكه وهو المشهور. اهـ، وقال الحافظ في الإصابة (١/ ٤٣٠): المحفوظ في هذا عن سالم بن أبي الجعد عن سبرة بن أبي فاكهة. اهـ، وسالم يرسل كثيراً، ولم يصرح هنا بالسماع من سبرة، وليس له عنه إلا هذا الحديث الواحد، فالحديث يصححه من لا يقول باشتراط ثبوت اللقاء، ويقف في ثبوت اتصاله من يقول بذلك، راجع السلسلة الصحيحة رقم (٢٩٧٩).

(٢) أخرجه الطبري (١٤٣٦٩)، وابن أبي حاتم (٨٢٤٥) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ هي الدنيا، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ هي الآخرة، ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ الحسنات، ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾ السيئات[١].

وقال مجاهد: (من بين أيديهم وعن أيمانهم)، معناه: حيث يبصرون، (ومن خلفهم وعن شمائلهم: حيث لا يبصرون[٢].

وقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ أخبر أن سعايته تفعل ذلك ظنّاً منه وتوهماً[٣] في خلقة آدم حين رأى خلقته من أشياء مختلفة، فعلم أنه ستكون لهم شيم تقتضي طاعته، كالغل والحسد والشهوات ونحو ذلك.

قال ابن عباس وقتادة: إلا أن إبليس لم يقل إنه يأتي بني آدم من فوقهم، ولا جعل الله له سبيلاً إلى أن يحول بينهم وبين رحمة الله وعفوه ومنّه[٤].

وما ظنَّه إبليس صدّقه الله عز وجل، ومنه قوله: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠] فجعل أكثر العالم كفرة، ويبينه قول النبي ﷺ في الحديث: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم أخرج بعث النار، فيقول: يا رب وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين وواحد إلى الجنة»، ونحوه مما يخص أمة محمد ﷺ: «ما أنتم في الأمم إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود»[٥].

قال القاضي أبو محمد: وقوله: «كالشعرة» يحتمل أن يريد شعرة واحدة، وهو بعيد؛ لأن تناسب الحديث الأول يرده، ويحتمل أن يريد الشعرة التي هي للجنس،

---

(١) أخرجه الطبري (١٤٣٧٠) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن جرير أيضاً (١٤٣٧١)، وابن أبي حاتم (٨٢٥٥-٨٢٥٨) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: تفسير مجاهد (١/ ٢٣٢)، وتفسير الطبري (١٢/ ٣٤٠-٣٤١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٤٤).

(٣) في السليمانية وفيض الله ولالاليه: «وتوسماً».

(٤) ضعيف، أخرجه الطبري (١٤٣٨٢) من طريق حفص بن عمر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه، وإسناده ضعيف؛ لضعف حفص بن عمر العدني.

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

والقصد أن يشبِّههم بثور أسود قد أنبتت في خلال سواده شعرة بيضاء، ويحتمل أن يريد اللُّمعة من الشعر الأبيض، وهذا فيه بعدٌ.

و﴿شَٰكِرِينَ﴾ معناه: مؤمنين؛ لأن ابن آدم لا يشكر نعمة الله إلا بأن يؤمن، قاله ابن عباس وغيره[(١)].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ الضمير في ﴿مِنۡهَا﴾ عائد على الجنة، و﴿مَذۡءُومٗا﴾ معناه: معيباً يقال: ذأمه إذا عابه، ومنه الذأم وهو العيب، وفي المثل: لن تعدم الحسناء ذاماً[(٢)]، أي: عيباً، وسهلت فيه الهمزة، ومنه قول قَيْلِ حمير: أردتَ أن تذيمه فمدهَتْه[(٣)]، يريد: فمدحته.

وحكى الطبري أنه يروى هذا البيت:

صَحِبْتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ   فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسِي أَذِيمُهَا[(٤)]   [الطويل]

قال القاضي أبو محمد: والرواية المشهورة: ألومها.

ومن الشاهد في اللفظ قول الكميت[(٥)]:

وهُمُ الأَقْرَبُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ   وهُمُ الأَبْعَدُونَ مِنْ كُلِّ ذام[(٦)]   [الخفيف]

---

(١) أخرجه الطبري (١٤٣٨٣)، وابن أبي حاتم (٨٢٦٣) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (٢/ ٣٧٧)، والصحاح للجوهري (٦/ ٢٠٤)، والمخصص (٣/ ٣٨٣).

(٣) القول للنعمان بن المنذر، كما في الكامل للمبرد (٣/ ١٠٨)، وأمالي القالي (٢/ ٩٩).

(٤) تفسير الطبري (١٢/ ٣٤٢) والبيت للحارث ابن خالد المخزومي، قاله لعبد الملك، كما في الأغاني (٣/ ٣١٤)، بلفظ: «ألومها».

(٥) الكميت بن زيد الأسدي الكوفي شاعر زمانه، روى عن الفرزدق وأبي جعفر الباقر، وعنه والبة بن الحباب الشاعر وحفص بن سليمان الغاضري وأبان بن تغلب وآخرون. توفي سنة: (١٢٦هـ). تاريخ الإسلام (٨/ ٢١٠).

(٦) ديوان الكميت، تحقيق: محمد نبيل طريفي، (ص: ٤٩٨)، ط: دار صادر بيروت (٢٠٠٠م). ولم أجده في مصدر آخر متقدم.

ومن الشاهد في (مدحور) قول الشاعر:

[الوافر] دَحَرْتُ بنـي الحصيب إلى قُدَيْد وقَـدْ كانـوا ذَوي أَشَـرٍ وفخر[١]

وقرأ الزهري وأبو جعفر والأعمش في هذه الآية: (مَذوماً) على التسهيل[٢].

و﴿ مَّدۡحُورًا ﴾: معناه: مقصياً مبعداً.

وقرأت فرقة: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ﴾ بفتح اللام، وهي على هذه لام القسم المخرجة الكلام من الشك إلى القسم.

وقرأ عاصم الجحدري والأعمش: (لِـمَن تبعك) بكسر اللام[٣]، والمعنى: لأجل مـن تبعـك ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ فأدخلـه في الوعيـد معهم بحكم هـذه الكاف في ﴿مِنكُمۡ﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾.

إذا أمر الإنسان بشيء هو متلبس به فإنما المقصد بذلك أن يستمر على حاله ويتمادى في هيئته.

وقوله تعالى لآدم: ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ هو من هذا الباب، وأكّد الضمير الذي في قوله: ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ بقوله: ﴿أَنتَ﴾، وحينئذ جاز العطف عليه، وهو ضمير لا يجوز إظهاره ولا يترتب، والعطف على الضمير الملفوظ به لا يجوز إلا بعد تأكيده، كقولك: قمت أنت

---

(١) تفسير البحر المحيط (٧/ ٥)، والدر المصون (٥/ ٢٧٢)، ولم ينسباه لأحد، ودحره: أبعده وطرده، وقُدَيْد: مكان.

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٤٣)، ومختصر الشواذ (ص: ٤٨).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لعاصم، وهو ابن أبي النجود لأنها من رواية شعبة عنه كما في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٤٧)، وعصمة كما في مختصر الشواذ (ص: ٤٨)، ولم أجدها للجحدري إلا عند البحر المحيط في التفسير (٥/ ٢٤)، جامعاً بينهما، ولا للأعمش أصلاً، ورواية شعبة هي من طريق أبي الحجاج، كما في الكامل للهذلي (ص: ٥٥١)، وليست من طرق التيسير.

وزيد، لأن الضمير بمنزلة حرف من الفعل، وهذا الضمير الذي في ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ أضعف من الملفوظ به، فأحرى أن لا يصح العطف عليه إلا بعد التأكيد.

وقوله: ﴿فَكُلَا﴾ هو من أكل، فأصله: أأكلا، فحذفت فاء الفعل لاجتماع المثلين واستغني عن الأخرى لما تحرك ما بعدها، وحسن أيضاً حذف فاء الفعل لأنهم استثقلوا الحركة على حرف علة، وهذا بابُ كلِّ فعل أوله همزة ووزنه فَعَل كأخذ وأمر ونحوه، وكان القياس أن لا يحذف فاء الفعل، ولكن ورد استعمالهم هكذا. ويقال: قرب يقرب.

و﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ الظاهر أنه أشار إلى شخص شجرة واحدة من نوع وأرادها.

ويحتمل أن يشير إلى شجرة معينة وهو يريد النوع بجملته، وعبر باسم الواحدة كما تقول: أصاب الناس الدينار والدرهم، وأنت تريد النوع.

قال القاضي أبو محمد: وعلى الاحتمالين فآدم عليه السلام إنما قصد في وقت معصية فعل ما نهي عنه [قاله جمهور المتأولين][1]، وبذلك أغواه إبليس لعنه الله بقوله: إنك لم تنه إلا لئلا تخلد / أو تكون ملكاً، فيبطل بهذا قول من قال: إن آدم إنما أخطأ متأولاً، بأنْ ظن النهي متعلقاً بشخص شجرة فأكل من النوع، فلم يعذر بالخطأ. [٢/ ١٣١]

قال القاضي أبو محمد: وذلك أن هذا القائل إنما يفرض آدم معتقِداً أن النهي إنما تعلق بشجرة معينة، فكيف يقال له مع هذا الاعتقاد: إنك لم تنه إلا لئلا تخلد، ثم يقصد هو طلب الخلود في ارتكاب غير ما نهي عنه؟ ولا فرق بين أكله ما يعتقد أنه لم ينه عنه وبين أكله سائر المباحات له.

قال القاضي أبو محمد: والهاء الأخيرة في ﴿هَٰذِهِ﴾ بدل من الياء في «هذي»[2]، أبدلت في الوقف ثم ثبتت في الوصل هاء حملاً على الوقف، وليس في الكلام هاء تأنيث قبلها كسرة إلا هذه.

---

(١) ساقط من لالاليه.

(٢) «هذي» من المطبوع والحمزوية ولالاليه، وفي غيرها: «هذه».

وقرأ ابن محيصن: (هذي الشجرة)[١] على الأصل.

وقوله: ﴿فَتَكُونَا﴾ نصب في جواب النهي.

قال القاضي أبو محمد: وتعلق الناس بهذه الآية في مسألة الحظر والإباحة، وذلك أن مسألة الحظر والإباحة تكلم الناس فيها على ضربين، فأما الفقهاء فدعاهم إلى الكلام فيها أنه تنزل نوازل لا توجد منصوصة في كتاب الله عز وجل ولا في سنة نبيه ولا في إجماع، ويُعتم[٢] وجه استقرائها من أحد هذه الثلاثة وقياسها على ما فيها، فيرجع الناظر بعد ذلك ينظر على أي جهة يحملها من الإجازة والمنع:

فقال بعضهم: إذا نزل مثل هذا فنحمله على الحظر، ونأخذ فيه بالشدة ونستبرئ لأنفسنا، إذ الله عز وجل قد بيَّن لنا في كتابه جميع ما يجب بيانه، وأحل ما أراد تحليله، ولم يترك ذكر هذه النازلة إلا عن قصد، فاجترامنا نحن عليها لا تقتضيه الشريعة.

وقال بعضهم: بل نحملها على الإباحة؛ لأن الله عز وجل قد أكمل لنا ديننا وحرم علينا ما شاء تحريمه، ولم يهمل النص على نازلة إلا وقد تركها في جملة المباح، وبعيد أن يريد في شيء التحريم ولا يذكره لنا ويدعنا في عمى الجهالة به، فإنما نحملها على الإباحة حتى يطرأ الحظر.

وقال بعضهم: بل نحمل ذلك على الوقف أبداً، ولا نحكم فيه بحظر ولا إباحة، بل نطلب فيه النظر والقياس أبداً، وذلك أنّا نجد الله عز وجل يقول في كتابه ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ في مواضع، ويقول: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ في مواضع، فدل ذلك على أن كل نازلة تحتاج إلى شرع وأمر، إما مخصوصاً بها وإما مشتملاً عليها وعلى غيرها، ولو كانت الأشياء على الحظر لما قال في شيء: حرم عليكم، ولو كانت على الإباحة لما قال في شيء: أحل لكم[٣].

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٤٤).

(٢) تحرفت في فيض الله إلى: «يفهم».

(٣) انظر الأقوال الثلاثة في: اللمع للشيرازي (١/ ١٢٢).

قال القاضي أبو محمد: وهذا أبين الأقوال، ولم يتعرض الفقهاء في هذه المسألة إلى النظر في تحسين العقل وتقبيحه، وإنما تمسكوا في أقوالهم هذه بأسباب الشريعة وذهبوا إلى انتزاع مذاهبهم منها.

وأما الضرب الثاني من كلام الناس في الحظر والإباحة: فإن المعتزلة ومن قال بقولهم: إن العقل يحسِّن ويقبِّح نظروا في المسألة من هذه الجهة فقالوا: نفرض زمناً لا شرع فيه، أو رجلاً نشأ في برية ولم يحس قط بشرع ولا بأمر ولا بنهي، أو نقدِّر آدم عليه السلام وقت إهباطه إلى الأرض قد تُرك وعقلَه قبل أن يؤمر وينهى، كيف كانت الأشياء عليه؟ أو كيف يقتضي العقل في الزمن والرجل المفروضين:

فقال بعضهم: الذي يحسن في العقل أن تكون محظورة كلها حتى يَرِدَ الإذن باستباحتها، وذلك أن استباحتها تعدٍّ على ملك الغير، وإذا قبح ذلك في الشاهد فهو في حق الله أعظم حرمة، وذهب بعض أهل[1] هذه الفرقة إلى استثناء التنفس والحركة من هذا الحظر[2]، وقالوا: إن هذه لا يمكن غيرها[3].

قال القاضي أبو محمد: ويمكن أن يقدر الاضطرار إليها إباحة لها.

وقال بعضهم: بل يحسن في العقل أن تكون مباحة، إذ التحكم في ملك الغير بوجه لا ضرر عليه فيه كالاستظلال بالجدران ونحوه مباح، فإذا كان هذا في الشاهد جائزاً فهو في عظم قدر الله تعالى ووجوده أجوز؛ إذ لا ضرر في تصرفنا نحن في ملكه، ولا يتعلق[4] بحقه شيء من ذلك.

وقال أهل الحق والسنة في هذا النحو من النظر: بل الأمر في نفسه على الوقف

---

(١) زيادة من السليمانية.

(٢) في المطبوع: «الحظ».

(٣) في السليمانية: «حظرها» بدل «غيرها».

(٤) في المطبوع: «ويتعلق»، وفي الأصل: «ويتحقق».

ولا يوجب العقل تحسيناً ولا تقبيحاً بمجرده يدان به، ولا يتجه حكم الحسن والقبيح إلا بالشرع، وقال بعضهم: والعقل لم يخلُ قط من شرع، فلا معنى للخوض في هذه المسألة ولا لفرض ما لا يقع[(١)].

وذهبوا إلى الاحتجاج بأن آدم عليه السلام قد توجهت عليه الأوامر والنواهي في الجنة، بقوله تعالى له حين جرى الروح في جسده فعطس: «قل الحمد لله يا آدم»[(٢)]، وبقوله: (اسكن) و(كل) و(لا تقرب) ونحو هذا.

وقال القاضي ابن[(٣)] الباقلاني في «التقريب والإرشاد»: إن الفقهاء الذين قالوا بالحظر والإباحة لم يقصدوا الكون مع المعتزلة في غوايتهم، ولكنهم رأوا لهم كلاماً ملفقاً مموهاً فاستحسنوه، دون أن يشعروا بما يَؤول إليه من الفساد في القول بتحسين العقل وتقبيحه[(٤)].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا الكلام حمل على فقهاء الشرع واستقصار لهم، والصواب أن لا يظن بهم هذا الخلل، وإنما التمسوا على نوازلهم تعليق حكم الحظر والإباحة من الشرع، وهم مع ذلك لا يحمل عليهم أنهم يدفعون الحق في أن العقل لا يحسن ولا يقبح دون الشرع. وقد تقدم في سورة البقرة ذكر الاختلاف في الشجرة وتعيينها.

---

(١) ممن قال بذلك؛ الصيرفي وابن الصائغ من الشافعية، وهو اختيار إمام الحرمين، انظر: البحر المحيط للزركشي (١/ ١٢٦).

(٢) الصحيح أنه من قول عبد الله بن سلام، هذا الخبر أخرجه الترمذي (**٣٣٦٨**) والنسائي في الكبرى (**٩٩٧٥**) وغيرهما من طريق: صفوان بن عيسى عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً، قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه، وقال النسائي: خالفه محمد بن عجلان فيه، ثم رواه من طريق: الليث عن ابن عجلان عن سعيد عن أبيه عن عبد الله بن سلام قوله. قال أبو عبد الرحمن (يعني النسائي): هذا هو الصواب، والآخر خطأ.

(٣) ساقطة من المطبوع.

(٤) انظر: التلخيص للجويني (٣/ ٤٧٣-٤٧٤)، والبحر المحيط للزركشي (١/ ١١٦).

قوله عز وجل: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾.

«الوسوسة»: الحديث في اختفاء همساً وسِراراً من الصوت، والوسواس: صوت الحلي فشبه الهمس به، وسمي إلقاء الشيطان في نفس ابن آدم وسوسة إذ هي أبلغ السِّرار وأخفاه، هذا في حال الشيطان معنا الآن، وأما مع آدم فممكن أن تكون وسوسة بمجاورةٍ خفية، أو بإلقاءٍ في نفس، ومن ذلك قول رؤبة:

وَسْـوَسَ يَدْعُـو جَاهِـراً رَبَّ الفَلَقْ[1] [الرجز]

فهذه عبارة عن كلام خفي.

و﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يراد به إبليس نفسه، واختلف نقلة القصص في صورة وسوسته؛ فروي أنه كان يدخل إلى الجنة في فم الحية مستخفياً بزعمه فيتمكن من الوسوسة[2]، وروي أن آدم / وحواء كانا يخرجان خارج الجنة فيتمكن إبليس منهما، وروي أن الله أقدره على الإلقاء في أنفسهما فأغواهما وهو في الأرض[3]. [٢/ ١٣٢]

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول ضعيف يرده لفظ القرآن.

واللام في قوله: ﴿لِيُبْدِيَ﴾ هي على قول كثير من المؤلفين لام الصيرورة والعاقبة، وهذا بحسب آدم وحواء وبحسب إبليس في هذه العقوبة المخصوصة؛ لأنه لم يكن له علم بها فيقصدها.

قال القاضي أبو محمد: ويمكن أن تكون لام «كي» على بابها بحسب قصد إبليس إلى حط مرتبتهما وإلقائهما في العقوبة غير مخصصة.

---

(١) انظر عزوه له في العين (١/ ٦٢)، وإصلاح المنطق (ص: ٢٩١)، وتهذيب اللغة (١٣/ ٩٣)، وتفسير الطبري (١٢/ ٣٤٧).

(٢) انظر: تاريخ الطبري (١/ ٧١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٥٠).

(٣) انظر: تفسير الماوردي (٢/ ٢١٠).

و﴿ مَا وُۥرِيَ ﴾ معناه: ما ستر، من قولك: وارى يواري إذا ستر، وظاهر هذا اللفظ أنها مفاعلة من واحد، ويمكن أن تقدر من اثنين؛ لأن الشيء الذي يوارِي يوارَى[١] هو أيضاً من جهة.

وقرأ ابن وثاب: (ما وري) بواو واحدة[٢].

وقال قوم: إن هذه اللفظة في هذه الآية مأخوذة من وراء.

قال القاضي أبو محمد: وهو قول يوهنه التصريف.

و«السوأة»: الفرج والدبر، ويشبه أن يسمى بذلك لأن منظره يسوء.

وقرأ الحسن ومجاهد: (من سوَّتهما) بالإفراد وتسهيل الهمزة وشد الواو، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بن نِصَاحٍ والحسن والزهري: (من سوَّاتهما) بتسهيل الهمزة وتشديد الواو[٣]، وحكاها سيبويه لغة[٤]، قال أبو الفتح: ووجهها: حذف الهمزة وإلقاء حركتها على الواو، فيقولون سوة ومنهم من يشدد الواو، وقالت طائفة إن هذه العبارة إنما قصد بها أنهما كشفت لهما معائبهما[٥] وما يسوءهما ولم يقصد بها العورة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول كان اللفظ يحتمله، إلا أن ذكر خصف الورق يرده، إلا أن يقدر الضمير في ﴿عَلَيْهِمَا﴾ عائداً على بدنيهما إذ تمزقت عنهما ثياب الجنة، فيصح القول المذكور.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا﴾ الآية، هذا القول الذي حكي عن إبليس يدخله من هذا التأويل ما دخل الوسوسة، فممكن أن يقول هذا مخاطبة وحواراً، وممكن أن يقولها إلقاء في النفس ووحياً.

(١) «يوارى»: زيادة من السليمانية وفيض الله ولالاليه ونجيبويه.

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٤٨).

(٣) وهما شاذتان، انظرهما مع التوجيه في المحتسب (١/ ٢٤٣).

(٤) راجع الكتاب لسيبويه (٣/ ٥٥٦).

(٥) في المطبوع: «معانيهما».

و﴿إِلَّآ أَن﴾ تقديره عند سيبويه والبصريين: إلا كراهيةَ أن، وتقديره عند الكوفيين: إلا أن لا، على إضمار «لا»[(١)].

قال القاضي أبو محمد: ويرجح قول البصريين أن إضمار الأسماء أحسن من إضمار الحروف.

وقرأ جمهور الناس: ﴿مَلَكَيۡنِ﴾ بفتح اللام، وقرأ ابن عباس ويحيى بن أبي كثير والضحاك: (ملِكين) بكسر اللام[(٢)].

ويؤيد هذه القراءة قوله في آية أخرى: ﴿وَمُلۡكٍ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

قال القاضي أبو محمد: وقال بعض الناس: يخرج من هذه الألفاظ أن الملائكة أفضل من البشر، وهي مسألة اختلف الناس فيها، وتمسك كل فريق بظواهر من الشريعة والفضل بيد الله، وقال ابن فورك: لا حجة في هذه الآية؛ لأنه يحتمل أن يريد: ملَكين في أن لا تكون لهما شهوة في طعام[(٣)].

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أي: حلف لهما بالله وهي مفاعلة إذ قبول المحلوف له وإقباله على معنى اليمين كالقسم، وتقريره وإن كان بادي الرأي يعطي أنها من واحد، ومثله قول الهذلي:

وَقَاسَمَهَا بِالله جَهْداً لأَنْتُمُ ... أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَى إِذَا مَا نَشُورُهَا[(٤)] [الطويل]

وروي في القصص أن آدم قال في جملة اعتذاره: ما ظننت يا رب أن أحداً يحلف

---

(١) مشكل إعراب القرآن، لمكي (١/ ٢٨٤).

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لهم في تفسير الثعلبي (٤/ ٢٢٣)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٤٧)، والهداية لمكي (٤/ ٢٣١١)، وفي الحمزوية: «ابن وثاب» بدل «ابن عباس»، وفي المطبوع: «يحيى بن كثير»، دون كنية، والمثبت فيهما هو الموافق للمصادر.

(٣) تفسير البحر المحيط (٥/ ٢٥)، تفسير القرطبي (٧/ ١٧٨).

(٤) تقدم في تفسير الآية (٥٦) من سورة البقرة، وفي المطبوع: «الهزلي» بدل «الهذلي»، وهو خطأ مطبعي.

حانثاً، فقال بعض العلماء خدع الشيطان آدم بالله عز وجل فانخدع، ونحن من خدعنا بالله عز وجل انخدعنا له، وروي نحوه عن قتادة[١].

واللام في قوله: ﴿لَكُمَا﴾ متعلقة بـ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فقال بعض الناس؛ مكي وغيره: ذلك على أن تكون الألف واللام لتعريف الجنس لا بمعنى الذي، لأنها إذا كانت بمعنى الذي كان قوله: ﴿لَكُمَا﴾ داخلاً في الصلة فلا يجوز تقديمه[٢]، وأظن أن أبا علي الفارسي خرج جواز تقديمه وهي بمعنى الذي[٣]، والظاهر أنه إن جعلت بمعنى الذي كانت اللام في قوله: ﴿لَكُمَا﴾ متعلقة بمحذوف تقديره: إني ناصح لكما من الناصحين.

وقال أبو العالية: في بعض القراءة: (وقاسمهما بالله)[٤].

قوله عز وجل: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ يريد: فغرهما بقوله وخدعهما بمكره.

قال القاضي أبو محمد: ويشبه عندي أن يكون هذا استعارةً من الرجل يدلِّي آخر من هوة بحبل قد أرمَّ، أو بسبب ضعيف يغتر به، فإذا تدلى به وتورك عليه انقطع به فهلك، فيشبه الذي يُغَر بالكلام حتى يُصدِّقه فيقع في مصيبة بالذي يدلَّى في هوة

---

(١) هذه الجملة رويت عن ابن عمر رضي الله عنه، ولم أجدها لقتادة، رواها ابن سعد في الطبقات (٤/ ١٦٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٩٤) من طريق محمد بن يزيد بن خنيس عن عبد العزيز بن أبي رواد، عن نافع به، وهذا إسناد لا بأس به.

(٢) مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٢٨٥).

(٣) في السليمانية وفيض الله: «على أن اللام بمعنى الذي».

(٤) نقلها في البحر المحيط (٥/ ٢٦)، بلا نسبة، وهي مخالفة لمصاحف المسلمين، فتحمل على التفسير.

بسببٍ ضعيف، وعلق حكم العقوبة بالذوق إذ هو أول الأكل وبه يرتكب النهي، وفي آية أخرى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ [طه: ١٢١].

وقوله تعالى: ﴿بَدَتْ﴾ قيل: تخرقت[١] عنهما ثياب الجنة وملابسها وتطايرت تبرياً منهما.

وقال وهب بن منبه: كان عليهما نور يستر عورة كل واحد منهما، فانقشع بالمعصية ذلك النور[٢]، وقال ابن عباس وقتادة: كان عليهما ظفرٌ كاسٍ، فلما عصيا تقلص عنهما فبدت سوءاتهما، وبقي منه على الأصابع قدر ما يتذكران به المعصية فيجددان الندم[٣].

و(طفقا) معناه: أخذا وجعلا، وهو فعل لا يختص بوقت كبات وظل.

و﴿يَخْصِفَانِ﴾ معناه: يلصقانها ويضمان بعضها إلى بعض، والمِخْصَف الإشفى[٤]، وضم الورق بعضه إلى بعض أشبه بالخرز منه بالخياطة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَخْصِفَانِ﴾، من خصف، وقرأ عبد الله بن بريدة: (يخصِّفان) من خصف بشد الصاد، وقرأ الزهري: (يُخصِفان) من أخصف، وقرأ الحسن فيما روى عنه محبوب: (يَخَصِّفان) بفتح الياء والخاء وكسر الصاد وشدها، ورويت عن ابن بريدة وعن يعقوب[٥]، وأصلها يختصفان، كما تقول: سمعت الحديث واسَّمَّعته[٦]، فأدغمت التاء في الصاد ونقلت حركتها إلى الخاء، وكذلك الأصل في القراءة بكسر الخاء بعد هذه، لكن لما سكنت التاء وأدغمت في الصاد اجتمع ساكنان فكسرت الخاء على عرف التقاء ساكنين.

---

(١) في السليمانية وفيض الله ولالاليه: تمزقت.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣٤٧)، وفي السليمانية: «ابن وهب»، وهو خطأ.

(٣) ضعيف، أخرجه الطبري (١٤٣٩٩) من طريق الحسن بن عمارة بن المضروب البجلي، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه. والحسن بن عمارة متروك وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٥٠).

(٤) وهو: المثقب.

(٥) ثلاث قراءات شاذة، انظرها في المحتسب (١/ ٢٤٥)، وانظر: مختصر الشواذ (ص: ٤٨).

(٦) في المطبوع: «واستمعته».

وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد: (يَخِصِّفان) بفتح الياء وكسر الخاء وكسر الصاد وشدها(١)، وقد تقدم تعليلها.

[٢/ ١٣٣] قال ابن عباس / : إن الورق الذي خصفا منه ورق التين(٢).

وروى أبيّ عن النبي ﷺ أن آدم عليه السلام كان يمشي في الجنة كأنه نخلةٌ سَحُوقٌ(٣)، فلما واقع المعصية وبدت له حاله فرّ(٤) على وجهه، فأخذت شجرة بشعر رأسه، يقال: إنها الزيتونة، فقال لها: أرسليني، فقالت: ما أنا بمرسلتك، فناداه ربه: أمنِّي تفر يا آدم؟ قال: لا يا رب، ولكن أستحييك، قال: أما كان لك فيما منحتك من الجنة مندوحة عما حرمت عليك؟ قال: بلى يا رب، ولكن وعزتك ما ظننت أن أحداً يحلف بك كاذباً، قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا كدّا(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا﴾ الآية، قال الجمهور: إن هذا النداء نداءُ وحي بواسطة، ويؤيد ذلك أنّا نتلقى من الشرع أن موسى عليه السلام هو الذي خصص بين العالم بالكلام، وأيضاً ففي حديث الشفاعة أن بني آدم المؤمنين يقولون لموسى يوم القيامة: «أنت خصك الله

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٤٥).
(٢) ضعيف، أخرجه الطبري (١٤٤٠٤-١٤٤٠٥)، وابن أبي حاتم (٨٣٠٢) من طريق ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه، وابن أبي ليلى هو محمد بن عبد الرحمن، سيئ الحفظ جداً.
(٣) تحرفت في المطبوع إلى: «سموق».
(٤) في السليمانية وفيض الله: «خر».
(٥) الأصح أنه من قول أُبي بن كعب، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤٣٩٨) من طريق أبي بكر الهذلي، عن الحسن، عن أبي بن كعب مرفوعاً، وأبو بكر الهذلي ضعيف، وأخرجه أيضاً الطبري (١٤٤٠٣) من طريق قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب موقوفاً، وقال ابن كثير (٣/ ٣٩٨): الموقوف أصحّ إسناداً، ثم ذكره عن عبد الرزاق من طريق: الحسن بن عمارة، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قوله، والحسن متروك الحديث.

بكلامه واصطفاك برسالته اذهب فاشفع للناس»[١]، وهذا ظاهره أنه مخصِّص.

وقالت فرقة: بل هو نداء تكليم.

قال القاضي أبو محمد: وحجة هذا المذهب أنه وقع في أول ورقة من تاريخ ابن أبي خيثمة[٢] أن رسول الله ﷺ سئل عن آدم فقال: «نبيٌّ مكلَّم»[٣].

وأيضاً فإن موسى خصص من بين البشر الساكنين في الأرض، وأما آدم إذْ كان في الجنة فكان في غير رتبة سكان الأرض، فليس في تكليمه ما يفسد تخصيص موسى عليه السلام، ويؤيد أنه نداء وحي اشتراك حواء فيه، ولم يُروَ قط أن الله عز وجل كلم حواء، ويتأول قوله ﷺ: «نبي مكلّم» أنه بمعنى: موصَل إليه كلام الله تعالى.

وقوله عز وجل: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا﴾ سؤال تقرير يتضمن التوبيخ.

وقوله: ﴿تِلۡكُمَا﴾ يؤيد[٤] ـ بحسب ظاهر اللفظ ـ أنه إنما أشار إلى شخص شجرة.

و﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى الآية التي في سورة طه، في قوله: ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

---

(١) هو حديث الشفاعة الطويل الذي أخرجه البخاري (٧٤٤٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) هو أبو بكر أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب بن شداد النسائي ثم البغدادي الحافظ، صاحب التاريخ المشهور، كان ثقة عالماً متفنناً حافظاً، بصيراً بأيام الناس، راوية للأدب، أخذ الحديث عن أحمد وغيره، توفي سنة (٢٧٧هـ)، تاريخ الإسلام (٢٠/ ٢٥٢).

(٣) في إسناده مقال، أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٤٨٠)، وأحمد في مسنده (٥/ ١٧٨-١٧٩- رقم ٢١٥٤٦-٢١٥٥٢)، والبزار في مسنده (٤٠٣٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢٩-٣٢٩٨) وغيرهم من طرق عن المسعودي، عن أبي عمرو الشامي، عن عبيد بن الخشخاش، عن أبي ذر رضي الله عنه بلفظ مطول، قال الحافظ في تهذيب التهذيب (٧/ ٦٤): عبيد بن الخشخاش روى عن أبي ذر في الاستعاذة من شر شياطين الجن والإنس، وعنه أبو عمرو الشامي، ذكره ابن حبان في الثقات، قلت: وقال: روى عنه الكوفيون، وقال البخاري: لم يذكر سماعاً من أبي ذر، وضعفه الدارقطني. اهـ.

(٤) في السليمانية وفيض الله: «يريد».

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو العهد الذي نسيه آدم على مذهب من يجعل النسيان على بابه.

وقرأ أبيّ بن كعب: (ألم تُنهيا عن تلكما الشجرة وقيل لكما)[١].

وقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ اعتراف من آدم وحواء عليهما السلام، وطلبٌ للتوبة والستر والتغمد بالرحمة، فطلبَ آدمُ هذا، وطلب إبليس النظِرة ولم يطلب التوبة فوكل إلى رأيه.

قال الضحاك: هذه الآية هي الكلمات التي تلقى آدم من ربه[٢].

قوله عز وجل: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ٢٥ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾.

المخاطب بقوله: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ قال أبو صالح والسدي والطبري وغيرهم: هي لآدم وحواء وإبليس والحية[٣]، وقالت فرقة: هي مخاطبة لآدم وذريته وإبليس وذريته.

وهذا ضعيف؛ لعدمهم في ذلك الوقت، فإن قيل: خاطبهم وأمرهم بشرط الوجود، فذلك يبعد في هذه النازلة؛ لأن الأمر بشرط الوجود إنما يصح إذا ترتب على المأمور بعد وجوده وصح معناه عليه، كالصلاة والصوم ونحو ذلك، وأما هنا فإن معنى الهبوط لا يتصور في بني آدم بعد وجودهم، ولا يتعلق بهم من الأمر به شيء.

وأما قوله في آية أخرى: ﴿ٱهۡبِطَا﴾ [طه: ١٢٣] فهي مخاطبة لآدم وإبليس، بدليل بيانه العداوة بينهما، و﴿عَدُوٌّ﴾ فرد بمعنى الجمع، تقول: قوم عدو وقوم صديق، ومنه قول الشاعر:

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: معاني الفراء (١/ ٢٩٢).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٣٥٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣٥٧-٣٥٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ٨٩)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢١٢).

لَعَمْري لَئِنْ كنْتُمْ عَلَى النَّأْيِ والْغنى بكُمْ مِثْلُ ما بي إِنَّـكُمْ لَصَدِيقُ[١] [الطويل]

وعداوة الحيَّات معروفة، وروى قتادة عن النبي ﷺ: «ما سالمناهن منذ حاربناهن»[٢].

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: «من تركهن فليس منا»[٣].

وقالت عائشة: «من ترك حية خشيةً من ثأرها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[٤].

---

(١) من بيتين للصِّمَّة بن عبد الله القشيري، كما في الأغاني (٦/ ٦)، والتذكرة الحمدونية (٦/ ٥٣)، وفي السليمانية: «القلى» بدل «الغنى».

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٧)، والحميدي في مسنده (١١٥٦)، وأبو داود (٥٢٤٨) وابن حبان (٥٦٤٤)، والطبري (٧٦٣) من حديث ابن عجلان، واختلف عليه، قال الدارقطني (١١/ ١٣٨): رواه زياد ابن سعد، ويحيى القطان، وأبو عاصم النبيل، عن ابن عجلان، عن أبيه، عن أبي هريرة، وخالفهم ابن عيينة، فرواه عن ابن عجلان، عن بكير بن عبد الله، عن عجلان، عن أبي هريرة، ولعل محمد بن عجلان سمعه عن أبيه، واستثبته من بكير بن الأشج. اهـ، رواية ابن عيينة هذه أخرجها أحمد (٢/ ٢٧٤) قال: قرئ على سفيان... به. وأخرجها ابن حبان (١٢/ ٤٦١) من طريق: إبراهيم ابن بشار عن ابن عيينة، لكن رواية سفيان بن عيينة عند أبي داود من طريق: إسحاق بن إسماعيل عنه مثل رواية الجماعة، وقد رواه أحمد بن حنبل، عن سليمان بن حيان أبي خالد الأحمر، عن ابن عجلان، عن بكير ابن الأشج، عن عجلان، عن أبي هريرة، وله طريق آخر أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٧) من طريق: موسى ابن مسلم الطحان الصغير، قال: سمعت عكرمة، يرفع الحديث فيما أرى إلى ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ..، ولم يجزم موسى بن مسلم راويه بأن عكرمة رفعه إلى ابن عباس، وتمام الحديث عند بعض من ذكرنا: «ومن ترك شيئاً منهن خيفة فليس منا».

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٥٦٣٨)، والطبراني في الكبير (١٣٢٠٥) مرفوعا من طريق عبد الله ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن بكير بن عبد الله بن الأشج، عن سالم عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: اقتلوا الحيات واقتلوا ذا الطفتين والأبتر فإنهما يلتمسان البصر ويستسقطان الحبل فمن لم يقتلهما فليس منا. وسنده صحيح، والحديث أصله في البخاري (٣٢٩٧)، ومسلم (٢٢٣٣) من طريق الزهري، عن سالم، به بدون لفظة «فمن لم يقتلهما فليس منا».

(٤) لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولكن له شواهد تشهد له منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه =

وإنما يعرِض في أمرهن حديث الفتى في غزوة الخندق، وقول النبي ﷺ: «إن جنّاً بالمدينة قد أسلموا، فمن رأى من هذه الحيات شيئا في بيته فليحرج عليه ثلاثاً، فإن رآه بعد ذلك فليقتله فإنما هو كافر»[١].

وقوله تعالى: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ لفظ عام لزمن الحياة ولزمن الإقامة في القبور.

وبزمن الحياة فسر أبو العالية؛ وقال: هي كقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾[٢].

وبالإقامة في القبور فسر ابن عباس[٣]. واللفظ يعمهما، فهي كقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥].

= الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣/ ٣٧٠)، وابن عبد البر في التمهيد (١٦/ ٢٤) من طريق محمد ابن عجلان، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما سالمناهن منذ حاربناهن فمن ترك شيئاً منهن خيفة فليس منا» يعني الحيات. ومحمد بن عجلان فيه كلام، وقد استشهد به مسلم في صحيحه والله أعلم، ومنها ما أخرجه البزار في مسنده (٢٣٢٥)، وابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ٢٥٧)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣/ ٣٧١) من طريق عبد الرحمن بن إسحاق بن الحارث الواسطي، عن يزيد بن الحكم، عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال قال رسول الله وذكر الحيات فقال: «من خشي إربهن فليس منا»، وعبد الرحمن بن إسحاق بن الحارث ـ أبو شيبة ـ الواسطي ضعيف، ويزيد بن الحكم ابن أبي العاص الثقفي البصري، من فصحاء الشعراء، ولم أر أحداً وثقه في الرواية، وهناك شاهد آخر أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣٩٦) من طريق داود بن عبد الجبار، عن إبراهيم بن جرير، عن جرير بن عبد الله البجلي، عن النبي ﷺ قال: «اقتلوا الحيات كلها من تركها خشية ثأرها فليس منا»، وداود بن عبد الجبار القرشي أبو سليمان الكوفي، قال فيه يحيى ابن معين: ليس بثقة، كان يكذب، وقال أبو حاتم: منكر الحديث، وقال أبو زرعة: منكر الحديث.، وفي الباب عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أخرجه الطبراني في الكبير (١١٨٠١)، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣/ ٣٧١)، وابن عبد البر في التمهيد (١٦/ ٢٤) بنحو حديث ابن عمر وعائشة رضي الله عنهم.

(١) صحيح، هذا الحديث أخرجه مسلم (٢٢٣٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ مطول.

(٢) البقرة: ٢٢، انظر: تفسير الطبري (١/ ٥٣٨)، في حرف البقرة.

(٣) جيد، أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٢/ ٣٥٨) من طريق عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، =

وأما المتاع فهو بحسب شخصٍ شخصٍ في زمن الحياة؛ اللهم إلا أن يُقدر سكنى القبر متاعا بوجه مَّا، و«المتاعُ»: التمتع والنيل من الفوائد.

و﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: هو بحسب الجملة قيام الساعة، وبحسب مفردٍ مفردٍ بلوغُ الأجل والموت، والحين في كلام العرب الوقتُ غير معيَّن.

وروي أن آدم عليه السلام أهبط بالهند وحواء بجدة، وتمناها بمنى، وعرف حقيقة أمرها بعرفة، ولقيها بجمع، وأهبط إبليس بميسان، وقيل: بالبصرة، وقيل: بمصر، فباض فيها وفرخ، قال ابن عمر: وبسط إبليس فيها عبقريه[1].

وذكر صالح مولى التوأمة قال: في بعض الكتب: لما أهبط إبليس قال: رب أين مسكني؟ قال: مسكنك الحمَّام، ومجلسك الأسواق، ولهُوك المزامير، وطعامك ما لم

= عن السدي، عمن حدثه، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾. قال: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾، القبور، وقد أخرجه ابن أبي حاتم (٨٣٢١) من طريق عبيد الله بن موسى، به بذكر الرجل المبهم بين السدي وابن عباس، وهو عكرمة.

(١) ضعيف، هذا الحديث أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٢٠٥)، والطبراني في الكبير (١٣٢٩٠) من طريق ابن شهاب، عن يعقوب بن عبد الله بن المغيرة بن الأخنس، عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «دخل إبليس العراق فقضى حاجته ودخل الشام فطردوه حتى بلغ سباق ودخل مصر فباض فيها وفرخ وبسط عبقرية»، وهذا إسناد ضعيف؛ رجاله ثقات غير يعقوب بن عبد الله؛ فإني لم أقف على ترجمة له في شيء من كتب الرجال، وقد أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٤٣١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١/ ٣١٨) عن ابن شهاب، عن يعقوب بن عتبة، بن المغيرة بن الأخنس، به، ولعله تصحف يعقوب بن عبد الله إلى يعقوب بن عتبة فإن الثاني ثقة من السادسة ولم يدرك ابن عمر، ولاسيما أن ابن عساكر قد أخرجه من طريق يعقوب الفسوي، وقد جمع بينهما الهيثمي ولم ينبه كما في مجمع الزوائد (١٠/ ٤٠) قال: أخرجه الطبراني في الكبير، والأوسط من رواية يعقوب بن عبدالله بن عتبة بن الأخنس عن ابن عمر ولم يسمع منه ورجاله ثقات، وقد أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١/ ٣١٨) من طريق عباد ابن كثير، عن سعيد، عن قتادة عن، سالم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان أتى العراق فباض فيهم وفرخ ثم أتى مصر فبسط عبقريه وجلس ثم أتى الشام فطردوه». وعباد بن كثير الثقفي متروك، وفي السليمانية وفيض الله: «أبو عمرو» بدل «ابن عمر»، ولعله خطأ.

يذكر عليه اسمي، وشرابك المسكر، ورسلك الشهوات، وحبائلك النساء[١].

وأهبطت الحية بأصبهان، وروي أنها كانت ذات قوائم كالبعير، فعوقبت بأن ردت تنساب على بطنها[٢].

وروي أن آدم لما أهبط إلى شقاء الدنيا علِّم صنعة الحديد ثم علم صنعة[٣] الحرث، فحرث وسقى وحصد وذرى، وطحن وعجن وخبز، وطبخ وأكل، فلم يبلغ إلى ذلك حتى بلغ من الجهد ما شاء الله، وروي أن حواء قيل لها: يا حواء، كما دميت الشجرة فأنت تدمين في كل شهر[٤]، وأنت لا تحملين إلا كرهاً ولا تضعين إلا كرهاً. قال: فرنَّت حواء عند ذلك، فقيل لها: الرنة عليك وعلى ولدك / [٥]. [٢/ ١٣٤]

وفي هذه القصة من الأنباء كثير، اختصرتها إذ لا يقتضيها اللفظ.

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ الآية، حكم من الله عز وجل أمضاه وجعله حتماً في رقاب العباد، يحيون في الأرض، ويموتون فيها، ويبعثون منها إلى الحشر أحياء، كما أنشأ أول خلق[٦] يعيده.

وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو: ﴿تُخْرَجُونَ﴾ بضم التاء وفتح الراء هنا،

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٥٥).

(٢) في السليمانية وفيض الله: «قوائمها في بطنها» بدل «تنساب على بطنها».

(٣) زيادة من السليمانية وفيض الله.

(٤) ضعيف، هذا جزء من الأثر الذي أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٣٥٥) من طريق أبي معشر، عن محمد بن قيس، من قوله، وأبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي ضعيف.

(٥) هذا الأثر أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٣٥٦) عن القاسم بن الحسن بن يزيد الصائغ، عن الحسين ابن داود المصيصي، عن عَبَّاد بن العَوَّام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، بنحوه، وهذا إسناد رجاله ثقات غير الحسن بن داود المصيصي الملقب بسنيد فإنه حافظ له تفسير، وله ما ينكر كما قال الذهبي.

(٦) في السليمانية: «مرة» بدل «خلق».

وفي الروم: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [١٩-٢٠]، وكذلك حيث تكرر إلا في الروم: ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [٢٥] وفي سأل سائل: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ﴾ [٤٣] فإن هذين بفتح التاء والياء وضم الراء، ولم يختلف الناس فيهما[١].

وقرأ حمزة والكسائي في الأعراف: ﴿ومنها تَخرُجون﴾ بفتح التاء وضم الراء، وفتح ابن عامر التاء في الأعراف وضمها في الباقي[٢].

وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الآية، هذا خطاب لجميع الأمم وقت النبي ﷺ، والمراد قريش ومن كان من العرب يتعرى في طوافه بالبيت، ذكر النقاش: ثقيفا وخزاعة وبني عامر بن صعصعة وبني مدلج وعامراً والحارث ابني عبد مناف[٣]، فإنها كانت عادَتهم رجالاً ونساء، وذلك غاية العار والعصيان، قال مجاهد: ففيهم نزلت هذه الأربع الآيات[٤].

وقوله: ﴿أَنزَلْنَا﴾ يحتمل أن يريد التدريج؛ أي: لما أنزلنا المطر فكان عنه جميع ما يلبس، قال عن اللباس: أنزلنا، وهذا نحو قول الشاعر يصف مطرا:

أَقْبَلَ فـي المُسْتَنِّ مِـنْ سَحَابه ... أَسْنِمَةُ الآبَـالِ فِـي رَبَـابـه[٥] [الرجز]

أي: بالمال، ويحتمل أن يريد خلقنا، فجاءت العبارة بـ﴿أَنزَلْنَا﴾ كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا

---

(١) إلا ما سيأتي عن الثعلبي (١٠/ ٤٢) في سورة المعارج أن الأعشى رواها عن أبي بكر عن عاصم بضم الياء وفتح الراء.

(٢) وكلها سبعية متواترة، انظر: التيسير فى القراءات السبع للداني (ص: ١٠٩)، والسبعة لابن مجاهد (ص: ٢٧٩).

(٣) في السليمانية وفيض الله ولالاليه ونجيبويه: «مناة»، وانظر كلامه في تفسير البحر المحيط (٥/ ٢٩).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣٦٢)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٢٧).

(٥) لم أقف على قائله، وأورده المبرد في الكامل (٣/ ٦٩)، والمسْتَنُّ: المضطرب، يقال: اسْتَنَّ السراب: اضطرب كأنه يسيل. والرَّباب: السحاب الأَبيض، واحدته: ربابة. والآبال: جمع الإبل.

﴿ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ﴾ [الحديد: ٥٢] وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] وأيضاً فخلقُ الله عز وجل وأفعاله إنما هي من علو في القدر والمنزلة، و﴿لِبَاسًا﴾ عام في جميع ما يلبس ويُوارِي يستر، وفي حرف أبيّ: (سوءاتكم وزينةً ولبسُ التقوى)[١]، وفي مصحف ابن مسعود: (ولباس التقوى خير ذلكم)[٢]، ويروى عنه: (ذلك)[٣]، وسقطت ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأولى.

وقرأ سكنٌ النحوي: (ولَبوس التقوى) بالواو مرفوعة السين[٤].

وقرأ الجمهور من الناس: ﴿وَرِيشًا﴾، وقرأ الحسن وزر بن حبيش[٥] وعاصم فيما روي عنه وأبو عمرو أيضاً، وابن عباس وأبو عبد الرحمن السلمي ومجاهد وأبو رجاء وزيد بن علي وعلي بن الحسين وقتادة (ورياشاً)[٦]، قال أبو الفتح: وهي قراءة النبي ﷺ[٧]، قال أبو حاتم: رواها عنه عثمان بن عفان رضي الله عنه[٨].

---

(١) لم أجد من ذكر هذه القراءة غير ابن عطية، وهي قراءة شاذة.

(٢) مختصر الشواذ (ص: ٤٨)، وفيه: «لكم» بدل «ذلكم».

(٣) نسبها له الفراء في معاني القرآن (١/ ٣٧٥).

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها له في مختصر الشواذ (ص: ٤٨)، ولم أقف له على ترجمة.

(٥) هو زر بن حبيش بن حباشة، أبو مريم الأسدي الكوفي، أدرك الجاهلية، وعمِّر دهرا، حدث عن: عمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وقرأ عليهما القرآن، وأقرأه، كان من أعرب الناس، وكان ثقة كثير الحديث، توفي سنة (٨١هـ). تاريخ الإسلام (٦/ ٦٦).

(٦) وهي شاذة، انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٢٠)، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي (٤/ ٢٣٢٥)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٢٥).

(٧) ضعيف، هذا الحديث أخرجه ابن جرير الطبري (١٠/ ١٢٥)، وابن أبي حاتم (٨٣٤٢) في تفسيرهما من طريق إسحاق بن إسماعيل، عن سليمان بن أرقم، عن الحسن، قال: رأيت عثمان بن عفان على منبر رسول الله ﷺ قميص قوهي محلول الزر، وسمعته يأمر بقتل الكلاب وينهى عن اللعب بالحمام، ثم قال: يا أيها الناس، اتقوا الله في هذه السرائر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفس محمد بيده ما عمل أحد قط سراً إلا ألبسه الله رداءه علانية، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»، ثم تلا هذه الآية: (ورياشا) ولم يقرأها: ﴿وَرِيشًا﴾، ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال: السمت الحسن وسليمان بن أرقم الأنصاري متروك الحديث، وانظر: القراءة في المحتسب (١/ ٢٤٦).

(٨) انظر قراءة عثمان في الكشاف (٢/ ٩٣).

وهما عبارتان عن سعة الرزق ورفاهية العيش ووجود الملبس والتمتع، وفسره قوم بالأثاث، وفسره ابن عباس بالمال[١]، وكذلك قال السدي والضحاك[٢].

وقال ابن زيد: الريش: الجمال[٣].

وقيل: الرياش جمع ريش، كبئر وبئار وذئب وذئاب ولِصْب ولِصَاب وشعب وشعاب وقيل: الرياش مصدر من راشه[٤] الله يريشه إذا أنعم عليه، والريش مصدر أيضاً من ذلك، وفي الحديث: «رجل راشه الله مالاً»[٥].

قال القاضي أبو محمد: ويشبِه أن هذا كله من معنى ريش الطائر وريش السهم، إذ هو لباسه وسترته وعونه على النفوذ، و«راش[٦] الله» مأخوذ من ذلك، ألا ترى أنها تقرن بِبَرى، ومن ذلك قول الشاعر:

فِرِشْـني بخَيْـرٍ طالَمَـا قَـدْ بريْتَنِـي ... وخَيْـرُ الْمَوَالي مَنْ يَريشُ ولا يَبْري[٧] [الطويل]

وقرأ نافع وابن عامر والكسائي: ﴿ولباسَ﴾ بالنصب عطفا على ما تقدم، وقرأ

(١) أخرجه الطبري (١٤٤٢٨)، وابن أبي حاتم (٨٣٣١) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣٦٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣٦٦)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢١٤).

(٤) في الأصل والمطبوع: «أراشه».

(٥) مسلم (٢٧٥٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً: «أن رجلاً فيمن كان قبلكم، راشه الله مالاً وولداً، فقال لولده: لتفعلن ما آمركم به أو لأولين ميراثي غيركم، إذا أنا مت، فأحرقوني ـ وأكثر علمي أنه قال ـ ثم اسحقوني، واذروني في الريح، فإني لم أبتهر عند الله خيراً، وإن الله يقدر علي أن يعذبني، قال: فأخذ منهم ميثاقاً، ففعلوا ذلك به، وربي، فقال الله: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: مخافتك، قال: فما تلافاه غيرها».

(٦) في السليمانية وفيض الله: «راشه».

(٧) البيت لسويد بن الصامت، كما في سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٦)، والبيان والتبيين (٣/ ٢٨٧)، وعيون الأخبار (٣/ ٩٣)، وتاج العروس (١٧/ ٢٣١)، ونسبه في لسان العرب (٥/ ٢٠٧) لعمير بن حباب، ولم أجد ذلك لغيره.

ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة ﴿وَلِبَاسُ﴾ بالرفع[١] فقيل: هو خبر ابتداء مضمر تقديره: وهو لباس، وقيل: هو مبتدأ و﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ آخر و﴿خَيْرٌ﴾ خبر ﴿ذَٰلِكَ﴾، والجملة خبر الأول، وقيل: هو مبتدأ و﴿خَيْرٌ﴾ خبره و﴿ذَٰلِكَ﴾ بدل أو عطف بيان أو صفة، وهذا أنبل الأقوال، ذكره أبو علي في «الحجة»[٢].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى جميع ما أنزل الله من اللباس والريش، وحكى النقاش أن الإشارة إلى لباس التقوى، أي: هو في العبد آية علامة وأمارة من الله أنه قد رضي عنه ورحمه[٣].

و﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ترجٍّ بحسبهم ومبلغهم من المعرفة، وقال ابن جريج: (لِباسُ التَّقْوى): الإيمان، وقال معبد الجهني[٤]: هو الحياء[٥].

وقال ابن عباس: هو العمل الصالح[٦]، وقال أيضاً: هو السمت الحسن في الوجه[٧]، وقاله عثمان بن عفان على المنبر[٨].

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسير للداني (ص: ١٠٩).

(٢) انظر: الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ١٢).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) معبد الجهني البصري أول من تكلم بالقدر، روى عن ابن عباس، وابن عمر، وعنه: قتادة، ومالك ابن دينار، وعوف الأعرابي، وآخرون، وثقه ابن معين، قتل سنة (٨٠هـ). تاريخ الإسلام (٦/ ١٩٩)، وفي الصحابة معبد الجهني رضي الله عنه، لكنه ليس صاحب القول.

(٥) انظر القولين في تفسير الطبري (١٢/ ٣٦٦).

(٦) أخرجه الطبري (١٤٤٤٤)، وابن أبي حاتم (٨٣٣٦) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) ضعيف، أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٣٦٧) من طريق زياد بن عمرو الفهرى، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزياد بن عمرو أبو عمرو بن زياد القرشي الفهري مجهول. انظر: الجرح والتعديل (٣/ ٥٤٠)، والميزان (٢/ ٩٢).

(٨) ضعيف، أخرجه الطبري (١٤٤٤٦)، وابن أبي حاتم (٨٣٤٢) من طريق سليمان بن أرقم، عن الحسن البصري، عن عثمان بن عفان به، وإسناده ضعيف؛ لضعف سليمان بن أرقم.

وقال عروة بن الزبير: هو خشية الله، وقال ابن زيد: هو ستر العورة[١].

[وقيل: لِباسُ التَّقْوى الصوف، وكل ما فيه تواضع لله عز وجل، وقال الحسن: هو الورع][٢] والسمت الحسن في الدنيا[٣].

وقال ابن عباس: لِباسُ التَّـقْوى: العفة[٤].

وقال زيد بن علي: لِباسُ التَّـقْوى: السلاح وآلة الجهاد[٥].

قال القاضي أبو محمد: وهذه كلها مُثُل، وهي من لِباس التَّقْوى.

قال القاضي أبو محمد: وتتصور الصفة التي حكاها أبو علي في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾، لأن الأسماء توصف بمعنى الإشارة، كما تقول: جاءني زيد هذا، كأنك قلت: جاءني زيد المشار إليه، فعلى هذا الحد توصف الأسماء بالمبهمات[٦].

وأما قوله فيه: عطف بيان وبدل، فهما واحد في اللفظ، إنما الفرق بينهما في المعنى والمقصد، وذلك أنك تريد في البدل كأنك أزلت الأول وأعملت العامل في الثاني على نية تكرار العامل، وتريد في عطف البيان كأنك أبقيت الأول ثم ثنَّيته بعينه في ذكر الثاني، وإنما يبين الفرق بين البدل وعطف البيان في مسألة النداء، إذا قلت: يا عبد الله زيد، فالبدل في هذه المسألة هو على هذا الحد برفع «زيد» لأنك تقدر إزالة عبد الله وإضافة «يا» إلى «زيد»، ولو عطفت عطف البيان لقلت: يا عبد الله زيداً؛ لأنك أردت بيانه ولم تقدِّر إزالة الأول، وينشد هذا البيت:

(١) انظر القولين في تفسير الطبري (١٢/ ٣٦٨)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢١٤).

(٢) سقط من المطبوع.

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٣٦٨)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٢٦).

(٤) لم أقف عليه مسنداً.

(٥) تفسير الطبري (١٢/ ٣٦٦)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢١٤).

(٦) انظره مع بقية كلامه الآتي في الحجة للقراء السبعة (٤/ ١٢).

[الرجز] إِنِّـي وأَسْـطَـارٍ سُـطِـرْنَ سـطْـراً لَقَائِـلٌ: يـا نصْـرُ نَصْراً نَصْـراً[١]

و: يا نصرُ [نصرُ نصراً][٢] الأول على عطف البيان والثاني على البدل.

قوله عز وجل: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ / قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾. [٢/ ١٣٥]

هذه المخاطبة لجميع العالم، والمقصود بها في ذلك الوقت من كان يطوف من العرب بالبيت عراة، فقيل: كان ذلك من عادة قريش، وقال قتادة والضحاك: كان ذلك من عادة قبيلة من اليمن[٣]، وقيل: كانت العرب تطوف بالبيت[٤] عراة إلا الحمس، وهم قريش ومن والاها.

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو الصحيح؛ لأن قريشاً لما سنوا بعد عام الفيل سنناً عظموا بها حرمتهم كانت هذه من ذلك، فكان العربي إما أن يُعِيره أحد من الحمس ثوباً فيطوف فيه، وإما أن يتعرى[٥]، وإما يطوف في ثيابه ثم يلقيها، وتمادى الأمر حتى صار عند العرب قربة، فكانت العرب تقول: نطوف بالبيت[٦] عراة كما خرجنا من بطون أمهاتنا، ولا نطوف في ثياب قد تدنسنا فيها بالذنوب، ومن طاف في ثيابه فكانت سنتهم كما ذكرنا أن يرمي تلك الثياب ولا ينتفع بها، وتسمى تلك الثياب اللَّقى، ومنه قول الشاعر:

---

(١) البيت لرؤبة كما في الكتاب لسيبويه (٢/ ١٨٥)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٣٨)، والخصائص (١/ ٣٤١).

(٢) زيادة من السليمانية وفيض الله ولالاليه ونجيبويه.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣٩٣)، (٨/ ١٦٢).

(٤) زيادة من السليمانية وفيض الله.

(٥) «وإما أن يتعرى»: ساقطة من المطبوع.

(٦) زيادة من السليمانية.

كفَى حَزَناً كَرِّي عَلَيْه كأَنَّه لَقًى بَيْن أَيْدي الطَّائِفينَ حَريمُ[١] [الطويل]

وكانت المرأة تطوف عريانةً، حتى كانت إحداهن تقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ[٢] [الرجز]

فنهى الله عز وجل عن جميع ذلك، ونودي بمكة في سنة تسع: «لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»[٣].

و«الفتنة» في هذه الآية: الاستهواء والغلبة على النفس، وظاهر قوله: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ نهي الشيطان، والمعنى نهيهم أنفسهم عن الاستماع له والطاعة لأمره، كما قالوا: لا أَرينَّكَ هاهنا، فظاهر اللفظ نهيُ المتكلم نفسه، ومعناه نهي الآخر عن الإقامة بحيث يراه، وأضاف الإخراج في هذه الآية إلى إبليس وذلك تجوُّزٌ بسبب أنه كان ساعيا في ذلك ومسبِّباً له.

ويقال: أب، وللأم: أبة[٤]، وعلى هذا قيل: أبوان.

و﴿يَنزِعُ﴾: في موضع الحال من الضمير في ﴿أَخْرَجَ﴾.

وتقدم الخلاف في اللباس من قول من قال: الأظفار، ومن قال: النور، ومن قال: ثياب الجنة، وقال مجاهد: هي استعارة، وإنما أراد لبسة التقى والمنزلة[٥].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف.

---

(١) البيت لورقة بن نوفل الأسدي كما في أخبار مكة للأزرقي (١/ ١٧٥)، واللَّقَى: ما طُرِح وتُرك لهوانه.

(٢) جاء في صحيح مسلم (٣٠٢٨) عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتقول: من يعيرني تطوافاً؟ تجعله على فرجها وتقوله، وبعده كما في الأحكام لابن العربي (٢/ ٣٠٥): جهم من الجهم عظيم ظله، كم من لبيب عقله يضله، وناظر ينظر ما يمله، قال: وهذه المرأة هي ضباعة بنت عامر ابن قرط، ونسبه لها أيضاً في الروض الأنف (١/ ٣٥١)، وجاء ذلك في قصة طلاقها من عبد الله بن جدعان وزواج هشام بن المغيرة بها في الإصابة في تمييز الصحابة (٨/ ٥).

(٣) هذا نص حديث أخرجه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) الكتاب لسيبويه (٢/ ٢١٢)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٣).

(٥) وفي المطبوع: «التقى المنزلة». أخرجه عنه الطبري (١٢/ ٣٧٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٦٠)، وانظر: تفسير الماوردي (٢/ ٢١٥).

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ﴾ الآية، زيادة في التحذير وإعلام أن الله عز وجل قد مكن الشيطان من ابن آدم في هذا القدر، وبحسب ذلك يجب أن يكون التحذر بطاعة الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد: والشيطان موجود قد قررته الشريعة وهو جسم.

﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ يريد: نوعه وصنفه وذريته.

و﴿حَيْثُ﴾: مبنية على الضم، ومن العرب من يبنيها على الفتح، وذلك لأنها لا[١] تدل على موضع بعينه، قال الزجاج: ما بعدها صلة لها وليست بمضافة إليه[٢].

قال أبو علي: هذا غير مستقيم، وليست ﴿حَيْثُ﴾ بموصولة إذ ليس ثَمَّ عائد كما في الموصولات، وهي مضافة إلى ما بعدها[٣].

ثم أخبر عز وجل أنه صير الشياطين أولياء، أي: صحابة ومداخلين إلى الكفرة الذين لا إيمان لهم، وذكر الزهراوي أن (جعل) هنا بمعنى وصف[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهي نزعة اعتزالية.

وقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟﴾ وما بعده داخل في صفة الذين لا يؤمنون؛ ليقع التوبيخ بصفة قوم جعلوا مثالاً للموبَّخين إذ أشبه فعلهم فعل الممثَّل بهم، ويصح أن تكون هذه الآية مقطوعة من التي قبلها ابتداءَ إخبارٍ عن كفار العرب.

و«الفاحشة» في هذه الآية ـ وإن كان اللفظ ـ: عاماً هي كشف العورة عند الطواف، فقد روي عن الزهري[٥] أنه قال: إن في ذلك نزلت هذه الآية، وقاله ابن عباس[٦] ومجاهد.

---

(١) «لا»: ساقطة من المطبوع.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٢٩).

(٣) لعله في كتاب الإغفال الذي يستدرك فيه على الزجاج.

(٤) تفسير البحر المحيط (٥/ ٣٣).

(٥) في السليمانية وفيض الله: «الزهراوي»، والمثبت هو الموافق لما في تفسير الطبري (١٢/ ٣٩٣)، وانظر فيه قول مجاهد (١٢/ ٣٧٨).

(٦) أخرجه الطبري (١٢/ ٣٧٨) من طريق إسرائيل بن يونس، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، =

وكان قول بعض الكفار: إن الله أمر بهذه السنن التي لنا وشرعها، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، ثم وبخهم على كذبهم ووقفهم على قولهم ما لا علم لهم به ولا رواية لهم فيه، بل هو دعوى واختلاق.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

تضمن قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾: أقسطوا، ولذلك عطف عليه قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾ حملا على المعنى، والقسط: العدل والحق.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾:

فقيل: أراد إلى الكعبة، قاله مجاهد والسدي، والمقصد على هذا شرع القبلة والأمر بالتزامها، وقيل: أراد الأمر بإحضار النية لله في كل صلاة والقصد نحوه، كما تقول: وجهت وجهي لله، قاله الربيع[1].

قال القاضي أبو محمد: فلا يؤخذ الوجه على أنه الجارحة، بل هو المقصد والمنزع.

وقيل: المراد بهذا اللفظ إباحة الصلاة في كل موضع من الأرض، أي: حيث ما كنتم فهو مسجد لكم تلزمكم عند الصلاة إقامة وجهوكم فيه لله عز وجل.

قال قوم: سببها أن قوماً كانوا لا يصلون إلا في مساجدهم في قبلتهم، فإذا حضرت الصلاة في غير ذلك من المساجد لم يصلّوا فيها.

وقوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ [حال من الضمير في ﴿وَٱدْعُوهُ﴾، و﴿ٱلدِّينَ﴾ مفعول بـ﴿مُخْلِصِينَ﴾][2].

= عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعطاء بن السائب اختلط ولا أدري أسمع منه إسرائيل قبل الاختلاط أم بعده، ولم يذكر أحد من النقاد القول في سماع إسرائيل من عطاء.

(١) انظر القولين في تفسير الطبري (١٢/ ٣٨١).

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من المطبوع.

قال الحسن بن أبي الحسن وقتادة وابن عباس ومجاهد: المراد بقوله: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ الإعلام بالبعث(١)، أي: كما أوجدكم واخترعكم كذلك يعيدكم بعد الموت، فالوقف على هذا التأويل على ﴿تَعُودُونَ ﴾، و﴿ فَرِيقًا﴾ نصب بـ﴿هَدَىٰ ﴾(٢)، والثاني منصوب بفعل مضمر(٣) تقديره: وعذب فريقاً، أو أضل فريقاً حق عليهم.

وقال ابن عباس أيضاً(٤) وأبو العالية ومحمد بن كعب ومجاهد أيضاً وسعيد بن جبير والسدي(٥) وجابر بن عبد الله(٦) ـ وروي معناه عن النبي ﷺ ـ: «المراد بقوله: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ الإعلام بأن أهل الشقاء والكفر في الدنيا [الذين كتب](٧) عليهم هم أهل الشقاء في الآخرة، وأهلَ السعادة والإيمان الذين كتب لهم في الدنيا هم أهلها في الآخرة، لا يتبدل من الأمور التي أحكمها ودبرها وأنفذها شيء(٨).

فالوقف في هذا التأويل في قوله: ﴿تَعُودُونَ ﴾ غير حسن، و﴿ فَرِيقًا﴾ على هذا التأويل / نصب على الحال، والثاني عطف على الأول. [٢/ ١٣٦]

---

(١) أخرجه الطبري (١٤٤٧٨)، وابن أبي حاتم (٨٣٦٤) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن أبي حاتم (٨٣٦٨) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس به، وانظر أقوال الباقين في الطبري (١٢/ ٣٨٥).

(٢) في المطبوع: «على هدى».

(٣) زيادة من السليمانية وفيض الله.

(٤) فيه إبهام، هذا الأثر أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٣٨٢) من طريق سفيان، عن منصور بن المعتمر، قال: حدثنا أصحابنا، عن ابن عباس ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾. قال: يبعث المؤمن مؤمناً، والكافر كافراً.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣٨٢-٣٨٤).

(٦) أخرجه الطبري (١٤٤٨٠) من طريق يحيى بن الضريس، عن أبي جعفر، عن الربيع، عن رجل، عن جابر قال: يبعثون على ما كانوا عليه، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه، وفي إسناده رجل مبهم.

(٧) من الحمزوية والمطبوع والسليمانه. وفي فيض الله ولالاليه: «بأنه كتب».

(٨) جاء هذا المعنى في أحاديث كثيرة منها ما أخرجه البخاري (٦٦٠٥) عن علي رضي الله عنه قال: كنا جلوساً مع النبي ﷺ ومعه عود ينكت في الأرض، وقال: ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة، فقال: رجل من القوم ألا نتكل يا رسول الله قال: لا اعملوا فكل ميسر ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾.

وفـي قـراءة أبـي بـن كعـب: (تعـودون فريقين فريقـاً هـدى وفريقاً حـق عليهم الضلالة)[١].

والضمير في ﴿إِنَّهُمُ﴾ عائد على الفريق الذين حق عليهم الضلالة.

و﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: معناه: أنصاراً وأصحاباً وإخواناً.

و(يحسبون): معناه: يظنون، يقال: حسِبت أحسب حِسباناً وحسباً ومَحسبة.

قال الطبري: وهذه الآية دليل على خطأ قول من زعم أن الله تعالى لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها على علم منه بموضع الصواب[٢].

وقرأ العباس بن الفضل وسهل بن شعيب وعيسى بن عمر: (أنهم اتخذوا) بفتح الألف[٣].

قوله عز وجل: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾.

هذا خطاب عام لجميع العالم، وأمروا بهذه الأشياء بسبب عصيان حاضري ذلك الوقت من مشركي العرب فيها، و«الزينة» هاهنا: الثياب الساترة، قاله مجاهد والسدي، وقال طاوس: الشملة من الزينة[٤].

قال القاضي أبو محمد: ويدخل فيها ما كان من الطيب للجمعة والسواك وبدل الثياب، وكلُّ ما وجد استحسانه في الشريعة ولم يقصد به مستعمله الخيلاء.

(١) وهي قراءة شاذة، انظرها في معاني القرآن للفراء (١/ ٣٧٦)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٥٠).
(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣٨٨).
(٣) وهي شاذة، انظر عزوها لاختيار عباس في الكامل للهذلي (ص: ٥٥١)، وله ولسهل في الشواذ للكرماني (ص: ٨٥)، وللثلاثة في البحر المحيط (٥/ ٣٩).
(٤) انظر القولين في تفسير الطبري (١٢/ ٣٩٢).

و﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ يريد: عند كل موضع سجود، فهي إشارة إلى الصلوات وستر العورة فيها، هذا هو مهم الأمر، ويدخل مع الصلاة مواطن الخير كلها، ومع ستر العورة ما ذكرناه من الطيب للجمعة وغير ذلك، وذكر مكي حديثاً أن معنى ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾: «صلوا في النعال»[(١)]، وما أحسبه يصح.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ نهي عما كانوا التزموه من تحريم اللحم والودك في أيام الموسم، قاله السدي وابن زيد، وتدخل مع ذلك أيضاً البحيرة والسائبة ونحو ذلك، وقد نص على ذلك قتادة وقال: إن البحيرة وما جانسها هي المراد بقوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ معناه: ولا تُفْرِطوا، قال أهل التأويل: يريد ولا تسرفوا بأن تحرِّموا على أنفسكم ما لم يحرم الله عز وجل.

قال ابن عباس: ليس في الحلال سرف، إنما السرف في ارتكاب المعاصي[(٣)].

قال القاضي أبو محمد: ويريد في الحلال القصدَ، واللفظ يقتضي النهي عن السرف مطلقاً، فمن تلبس بفعلٍ حرامٍ فتأول تلبسه به حصل من المسرفين، وتوجه

---

(١) جاءت أحاديث في هذا المعنى ولا يصح منها شيء، فمنها ما أخرجه ابن عدي في الكامل (٦/ ١٦٢) من طريق محمد بن الفضل عن كرز بن وبرة الحارثي عن عطاء عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «خذوا زينة الصلاة» فقالوا: يا رسول الله وما زينة الصلاة؟ قال: «البسوا نعالكم فصلوا فيها»، ومن نفس الطريق عن جابر بن عبد الله به، ومحمد بن الفضل بن عطية كذبوه، وروى العقيلي في الضعفاء (٣/ ١٤٢) من طريق عباد بن جويرية، عن الأوزاعي، عن قتادة، عن أنس عن النبي ﷺ إن كان قاله في قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ قال: «صلوا في نعالكم»، وعباد بن جويرية كذاب أيضاً، وانظر: الهداية لمكي (٤/ ٢٣٤٢).

(٢) انظر القولين في تفسير الطبري (١٢/ ٣٩٥-٣٩٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٦٦-١٤٦٧).

(٣) أخرجه الطبري (١٤٥٢٩)، وابن أبي حاتم (٨٣٧٩) من طريق ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، بلفظ: أحل الله الأكل والشرب مالم يكن سرفاً أو مخيلة.

النهي عليه، ومن تلبس بفعل مباح فإن مشى فيه على القصد وأوساط الأمور فحسن، وإن أفرط حتى دخل الضرر حصل أيضاً من المسرفين وتوجه النهي عليه.

مثَل ذلك: أن يُفْرط الإنسان في شراء ثياب ونحوها، ويستنفد في ذلك جلَّ ماله أو يعطي ماله أجمع، ويكابد بعياله الفقر بعد ذلك ونحوه، فالله عز وجل لا يحب شيئاً من هذا، وقد نهت الشريعة عنه، ولذلك وقف النبي ﷺ بالموصي عند الثلث، وقال بعض العلماء: لو حَط الناس إلى الربع، لقول النبي ﷺ: «والثلث كثير»(١).

وقد قال ابن عباس في هذه الآية: أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة(٢).

وأمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يسألهم عمن حرم ما أحل الله على جهة التوبيخ والتقرير، وليس يقتضي هذا السؤال جواباً، وإنما المراد منه التوقيف على سوء الفعل، وذكر بعض الناس أن السؤال والجواب جاء في هذه الآية من جهة واحدة وتخيل قولَه: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ جواباً.

قال القاضي أبو محمد: وهذا نظر فاسد ليس ذلك بجواب السؤال ولا يقتضي هذا النوع من الأسئلة جواباً.

و﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [هي: ما حسنته الشريعة وقررته، وزينة الدنيا](٣) هي: كل ما اقتضته الشهوة وطلب العلو في الأرض كالمال والبنين، وهي الزينة التي فضل الشرع عليها.

وقوله: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: قال الجمهور: يريد المحللات، وقال الشافعي وغيره: يريد المستلذات(٤).

قال القاضي أبو محمد: إلا أن ذلك ولا بد يشترط فيه أن يكون من الحلال، وإنما قاد

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٢٧٤٢)، ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) تقدم عنه مثله قريباً.

(٣) ما بين المعكوفتين ساقط من المطبوع.

(٤) تفسير الماوردي (٢/ ٢١٩).

الشافعي إلى هذا تحريمه المستقذرات كالوزغ وغيرها، فإنه يقول: هي من الخبائث محرمة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾؛ قرأ نافع وحده: ﴿خالصةٌ﴾ بالرفع، والباقون: ﴿خَالِصَةً ﴾ بالنصب[(١)].

والآية تُتأول على معنيين:

أحدهما: أن يخبر أن هذه الطيبات الموجودات في الدنيا هي خالصة يوم القيامة للمؤمنين في الدنيا، وخلوصها أنهم لا يعاقبون عليها ولا يعذبون، فقوله: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بـ﴿ءَامَنُوا۟﴾، وإلى هذا يشير تفسير سعيد بن جبير؛ فإنه قال: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ينتفعون بها في الدنيا ولا يتبعهم إثمها[(٢)].

وقوله: ﴿خالصةٌ﴾ بالرفع خبر ﴿هِيَ﴾، و﴿لِلَّذِينَ﴾ تبيين للخلوص، ويصح أن يكون ﴿خالصةٌ﴾ خبراً بعد خبر، و﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ يريد به وقت الحساب.

وقرأ قتادة والكسائي: (قل هي لمن آمن في الحياة الدنيا)[(٣)].

والمعنى الثاني: هو أن يخبر أن هذه الطيبات الموجودات هي في الحياة الدنيا للذين آمنوا وإن كانت أيضاً لغيرهم معهم، وهي يوم القيامة خالصة لهم، أي: لا يشركهم أحد في استعمالها في الآخرة، وهذا قول ابن عباس[(٤)] والضحاك والحسن وقتادة والسدي وابن جريج وابن زيد[(٥)].

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسير للداني (ص: ١٠٩)، والسبعة لابن مجاهد (ص: ٢٨٠).

(٢) انظر: تفسير مقاتل (١/ ٣٨٩)، وتفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٢٨)، وتفسير الطبري (١٢/ ٤٠١)، ومعاني القرآن (٣/ ٢٨).

(٣) تابعه على عزوها لقتادة في البحر المحيط (٥/ ٤٢) وسقط «الكسائي» من فيض الله، وهي مخالفة لمصاحف المسلمين.

(٤) أخرجه الطبري (١٤٥٤٠-١٤٥٤١)، وابن أبي حاتم (٨٤٠٠-٨٤٠٤) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن جرير أيضاً (١٤٥٤٢) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما، به.

(٥) انظر قولهم في تفسير الطبري (١٢/ ٤٠٠-٤٠١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٦٨).

فقوله: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ على هذا التأويل متعلق بالمحذوف المقدر في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، كأنه قال: هي خالصة أومشتركة أو ثابتة في الحياة الدنيا للذين آمنوا، و﴿خالصةٌ﴾ بالرفع خبر بعد خبر، أو خبر ابتداء مقدر تقديره: وهي خالصة يوم القيامة، و﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [على هذا][١] يراد به استمرار الكون في الجنة.

وأما من نصب ﴿خَالِصَةً﴾ فعلى الحال من الذكر[٢] الذي في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، التقدير: هي ثابتة أو مستقرة للذين آمنوا في حال / خلوص لهم، والعامل فيها ما في اللام من معنى الفعل في قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾. [٢/ ١٣٧]

وقال أبو علي في الحجة: ويصح أن يتعلق قوله: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بقوله: ﴿حَرَّمَ﴾ ولا يصح أن يتعلق بـ﴿زِينَـةَ﴾ لأنها مصدر قد وصف، ويصح أن يتعلق بقوله: ﴿أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾، ويجوز ذلك وإن فصل بين الصلة والموصول بقوله: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأن ذلك كلام يشد القصة وليس بأجنبي منها جدّاً، كما جاء ذلك في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [يونس: ٢٧] فقوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ معطوف على ﴿ كَسَبُوا۟﴾ داخل في الصلة، والتعلق بـ﴿أَخْرَجَ﴾ هو قول الأخفش، ويصح أن يتعلق بقوله: ﴿وَٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾، ويصح أن يتعلق بقوله: ﴿مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾، ويصح أن يتعلق بقوله: ﴿ءَامَنُوا۟﴾[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا الأخير هو أصح الأقوال على هذا التأويل الأول فيما رتبناه هنا، وأما على التأويل الآخر فيضعف معنى الآية هذه المتعلقات التي ذكر أبو علي وإنما يظهر أن يتعلق هذا[٤] بالمحذوف المقدر في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تقدير الكلام: أي كما فصلنا هذه الأشياء المتقدمة الذكر

---

(١) زيادة من فيض الله ولالاليه ونجيبويه.

(٢) أي: الضمير المستكن في الجار والمجرور. انظر: البحر المحيط (٥/ ٤٢).

(٣) الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ١٤).

(٤) زيادة من السليمانية وفيض الله.

فكذلك وعلى تلك الصورة نفصل الآيات، أي: نبين الأمارات والعلامات والهدايات لقوم لهم علم ينتفعون به.

و﴿نُفَصِّلُ﴾: معناه: نقسم ونبين؛ لأن بيان الأمور المشْبهات إنما هو في تقسيمها بالفصول[١].

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

لما تقدم إنكار ما حرمه الكفار بآرائهم، أتبعه ذكر ما حرم الله عز وجل وتقديره، و﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ما فحش وشنع، وأصله من القبح في المنظر، ومنه قول امرئ القيس:

[الطويل]
وجِيـدٍ كجِيدِ الرِّئْمِ ليس بفاحِشٍ إذا هـي نَصَّتْـهُ ولا بمُعَطَّـلِ[٢]

ثم استعمل فيما ساء من الخلق وألفاظ الحرج والرفث، ومنه الحديث: «ليس بفاحش»؛ في صفة النبي ﷺ[٣]، ومنه قوله لسَلمةَ بن سلامة بن وَقْش[٤]: «أفحشت على الرجل»[٥] في حديث السير، ومنه قول الحزين[٦] في كثير عزة:

---

(١) بالفصول: سقطت من لالاليه.

(٢) البيت من معلقة امرئ القيس كما في جمهرة أشعار العرب (ص: ١٢٧)، وشرح المعلقات التسع (ص: ١٤٧).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/ ٤٥) من طريق: أبي عمر حفص بن عمر، ثنا شعبة قال: أنبأني أبو إسحاق، عن أبي عبد الله الجدلي، عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ بفاحش ولا متفحش ولا سخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويصفح، وإسناده جيد.

(٤) سلمة بن سلامة بن وقش أبو عوف الأنصاريّ من بني عبد الأشهل، شهد العقبة الأولى والثانية في قول جميعهم، وشهد بدراً والمشاهد بعدها، توفي سنة (٤٥هـ)، وقيل: (٣٤هـ)، الإصابة (٣/ ١٢٤).

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٦١٣)

(٦) هو عمرو بن عبيد بن وهيب بن مالك، والحزين لقب غلب عليه، وكان هجاء خبيث اللسان ساقطاً =

قَصيرُ القميص فاحِشٌ عنْدَ بَيْتِهِ[١] .... [الطويل]

وكذلك استعمل فيما شنُع وقبح في النفوس، والقبح والحسن في المعاني إنما يتلقى من جهة الشرع، والفاحش كذلك.

فقوله هنا: ﴿ الْفَوَاحِش ﴾؛ إنما هي إشارة إلى ما نص الشرع على تحريمه في مواضع أخر، فكل ما حرمه الشرع فهو فاحش وإن كان العقل لا ينكره، كلباس الحرير والذهب للرجال ونحوه، وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ يجمع النوع كله لأنه تقسيم لا يخرج عنه شيء.

وهو لفظ عام في جميع الفواحش [وذهب مجاهد إلى تخصيص ذلك بأن قال: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ الطواف عرياناً، والبواطن: الزنا[٢]، وقيل غير هذا مما يأتي على طريق المثال.

و﴿مَا﴾ بدل من ﴿ٱلْفَوَاحِشَ﴾][٣]، وهو بدل بعض من كل، ومجموع القِسْمين يأتي بدلَ الشيء من الشيء، وهو هو.

و(الْإِثْم) أيضاً لفظه عام لجميع الأفعال والأقوال التي يتعلق بمرتكبها إثمٌ، هذا قول الجمهور، وقال بعض الناس: هي الخمر، واحتج على ذلك بقول الشاعر:

شَرِبْتُ الإِثْمَ حَتَّى طَارَ عَقْلِي[٤] .... [الوافر]

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول مردود؛ لأن هذه السورة مكية ولم تعن الشريعة

= يرضيه اليسير ويتكسب بالشر وهجاء الناس وليس ممن خدم الخلفاء ولا انتجعهم بمدح ولا كان يريم الحجاز حتى مات، انظر خبره في الأغاني (١٥/ ٣١٣).

(١) عجزه: يَعَضّ القُراد باسته وهو قائم، انظر عزوه له في الأغاني (٩/ ١١)، والصناعتين (١/ ٣٦١)، وسمط اللآلي (١/ ٦١٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٤٠٢-٤٠٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٧٠).

(٣) ساقط من لالاليه.

(٤) عجزه: كذَاكَ الإِثْمُ تذْهَبُ بالْعُقولِ، وقد استشهد به أكثر المفسرين نقلًا عن الأصمعي بلا نسبة، ولم أقف على قائله.

لتحريم الخمر إلا بالمدينة بعد أحد؛ لأن جماعة من الصحابة اصطبحوها يوم أحد وماتوا شهداء، وهي في أجوافهم، وأيضاً فبيت الشعر يقال: إنه مصنوع مختلق، وإن صح فهو على حذف مضاف، وكان ظاهر القرآن على هذا القول أن تحريم الخمر من قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩] وهو في هذه الآية قد حرم، فيأتي من هذا أن الخمر إثم، والإثم محرَّم؛ فالخمر محرمة.

قال القاضي أبو محمد: ولكن لا يصح هذا؛ لأن قوله: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ﴾ لفظ محتمل أن يراد به أنه يلحق الخمر من فساد العقل والافتراءِ وقتلِ النفس وغير ذلك آثامٌ، فكأنه قال: في الخمر هذه الآثام، أي: هي بسببها ومعها، وهذه الأشياء محرمة لا محالة، وخرجت الخمر من التحريم على هذا، ولم يترتب القياس الذي ذهب إليه قائل ما ذكرناه.

ويعضد هذا أنّا وجدنا الصحابة يشربون الخمر بعد نزول قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ﴾، وفي بعض الأحاديث: «فتركها قوم للإثم الذي فيها وشربها قوم للمنافع»[(١)].

وإنما حرمت الخمر بظواهر القرآن ونصوص الأحاديث وإجماع الأمة[(٢)].

و(الْبَغْي): التعدي وتجاوز الحد، كان الإنسان مبتدياً بذلك أو منتصراً، فإذا جاوز الحد في الانتصار فهو باغ.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة بيان، وليس يتصور بغي بحق، لأن ما كان بحق فلا يسمى بغياً.

﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ المراد بها: الأصنام والأوثان وكل ما عبد من دون الله، و«السلطان»: البرهان والحجة.

﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: من أنه حرم البحيرة والسائبة ونحوه.

---

(١) هذا الأثر أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٣/ ٦٨٠-٦٨١) من قول سعيد بن جبير.

(٢) انظر الإجماع على حرمة الخمر في: الإقناع (٢/ ٩٩١).

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ الآية، يتضمن الوعيد والتهديد، والمعنى: ولكل أمة ـ أي: فرقة وجماعة، وهي لفظة تستعمل في الكثير من الناس ـ أجلٌ مؤقت لمجيء العذاب إذا كفروا وخالفوا أمر ربهم، فأنتم أيتها الأمة كذلك، قاله الطبري وغيره[1].

وقرأ الحسن: (فإذا جاء آجالهم) بالجمع، وهي قراءة ابن سيرين[2]، قال أبو الفتح: هذا هو الأظهر؛ لأن لكل إنسان أجلاً فأما الإفراد فلأنه جنس، وإضافته إلى الجماعة حسنت الإفراد، ومثله قول الشاعر:

.... في حَلْقِكُمْ عَظْمٌ وقَدْ شَـجِينَا[3] [الرجز]

/ وقوله: ﴿سَاعَةً﴾ لفظ عُيِّن به الجزءُ القليل من الزمن، والمراد جميع أجزائه؛ [٢/ ١٣٨] أي: لا يستأخرون ساعة ولا أقل منها ولا أكثر، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، فإنما هي عبارة يقام الجزء فيها مقام الكل.

قال القاضي أبو محمد: وكأنه يظهر بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠]، [نوح: ٤] تعارض؛ لأن تلك تقتضي الوعد بتأخير إن آمنوا والوعيد بمعاجلةٍ إن كفروا.

قال القاضي أبو محمد: والحق مذهب أهل السنة أن كل أحد إنما هو بأجل واحد لا يتأخر عنه ولا يتقدم.

وقوم نوح كان منهم من سبق في علم الله تعالى أنه يكفر فيعاجل، وذلك هو أجله المحتوم، ومنه من يؤمن فيتأخر إلى أجله المحتوم، وغيِّب عن نوح تعيين الطائفتين فندب الكل إلى طريق النجاة وهو يعلم أن الطائفة إنما تعاجل أو تؤخر بأجلها، فكأنه

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٤٠٤-٤٠٥).

(٢) وهي قراءة شاذة، انظرها مع توجيهها في المحتسب (١/ ٢٤٦).

(٣) البيت لطفيل الغنوي كما في جمهرة اللغة (٢/ ١٠٤١)، والمحتسب (٢/ ٨٧)، ومجاز القرآن (٢/ ١٩٥)، ونسبه في لسان العرب (١٤/ ٤٢٢) لمسيب بن زيد بن مناة.

يقول: فإن آمنتم علمنا أنكم ممن قضى الله له بالإيمان والأجلِ المؤخَّر، وإن كفرتم علمنا أنكم ممن قُضي له بالأجل المعجَّل والكفر.

قال القاضي أبو محمد: وعلى هذا الحد هو دعاء محمد ﷺ العالَمَ إلى طريق الجنة، وقد علم أن منهم من يكفر فيدخل النار، وكذلك هو أمر الأسير؛ يقال له: إما أن تؤمن فتُتركَ، وإلا قُتلت.

وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الآية، الخطاب في هذه الآية لجميع العالم.

و«إن» الشرطية دخلت عليها «ما» مؤكِّدة[1]، ولذلك جاز دخول النون الثقيلة على الفعل، وإذا لم تكن «ما» لم يجز دخول النون الثقيلة.

وقرأ أبي بن كعب والأعرج: (تأتينكم)[2] على لفظ الرسل، وجاء ﴿يَقُصُّونَ﴾ على المعنى.

وكان هذا الخطاب لجميع الأمم قديمها وحديثها، هو متمكن لهم ومتحصل منه لحاضري محمد ﷺ أن هذا حكم الله في العالم منذ أنشأه.

و﴿يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾: مستقبل وضع موضع ماض، ليُفهم أن الإتيان باق وقت الخطاب، لتقوى الإشارة بصحة النبوة إلى محمد ﷺ، وهذا على مراعاة وقت نزول الآية.

وأسند الطبري إلى أبي سيار السلمي[3] قال: إن الله تعالى جعل آدم وذريته في كفة فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ الآية، قال ثم نظر إلى الرسل فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢] ثم بثهم[4].

---

(١) يقصد «إن» و«ما» من قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾.

(٢) وهي قراءة شاذة، انظرها في المحتسب (١/ ٢٤٧).

(٣) اشتهر بهذه الكنية اثنان هما: أيوب بن سيار الزهري قبل (١٨٠هـ) كما في تاريخ الإسلام (١١/ ٤٦)، ومحمد بن عبد الله بن المستورد البغدادي، توفي سنة (٢٦٢هـ)، كما في تاريخ الإسلام (٢٠/ ١٧١)، ولم أجد في ترجمة أي منهما ما يدل على أنه سلمي.

(٤) في الأصل: «نبههم» بدل «بثهم»، والمثبت هو الموافق لما في تفسير الطبري (١٢/ ٤٠٦).

قال القاضي أبو محمد: ولا محالة أن هذه المخاطبة في الأزل، وقيل: المراد بالرسل محمد ﷺ.

قال القاضي أبو محمد: من حيث لا نبي بعده، فكأن المخاطبين هم المراد ببني آدم لا غير، إذ غيرهم لم ينله الخطاب، ذكره النقاش[١].

و﴿يَقُصُّونَ﴾: معناه: يسردون ويوردون.

و«الآيات»: لفظ جامع لآيات الكتب المنزلة، وللعلامات التي تقترن بالأنبياء.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ يصح أن تكون (مَن) شرطية، وجوابه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ وهذه الجملة هي في جواب الشرط الأول الذي هو﴿ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

ويصح أن تكون (من) في قوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ موصولة، وكأنه قصد بالكلام تقسيم الناس، فجعل القسم الأول ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، والقسم الثاني: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

وجاء هذا التقسيم بجملته جواباً للشرط في قوله: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾، فكأنه قال: إن أتتكم رسل فالمتقون لا خوف عليهم، والمكذبون أصحاب النار، أي: هذا هو الثمرة وفائدة الرسالة.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: ليس ثَم نفعٌ للمفتري ولا غرض دنياوي[٢]، فالآية تبرئة[٣] للنبي ﷺ من الافتراء، وتوبيخ للمفترين من الكفار.

و(لا) في قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ بمعنى «ليس».

وقرأ ابن محيصن: (فلا خوفُ) دون تنوين[٤]، ووجهه: إما أن يحذف التنوين لكثرة الاستعمال، وإما حملاً على حذفه مع (لا)، وهي تبرئةٌ ناصبة، فشبَّه[٥] حالة الرفع في

(١) لم أقف عليه.

(٢) في المطبوع: دنيوي.

(٣) في فيض الله والسليمانية: «تتريه»

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: إتحاف فضلاء البشر (١/ ١٧٦)، وقد تقدم التنبيه عليها مع بقية القراءات الأخرى التي فيها.

(٥) في الأصل ونجيبويه والحمزوية: «تشبه».

البناء بحالة النصب، وقيل: إن المراد: فلا الخوف، ثم حذفت الألف واللام وبقيت الفاء على حالها لتدل على المحذوف. ونفي الخوف والحزن يعم جميع أنواع مكاره النفس وأنكادها[١]، ويشبه أن يكون الخوف لما يستقبل من الأمور والحزن لما مضى منها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ هذه حالتان تعم جميع من يصد عن رسالة الرسول: إما أن يكذب بحسب اعتقاده [أنه كَذِب][٢] وإما أن يستكبر فيكذب وإن كان غير مصمم في اعتقاده على التكذيب.

قال القاضي أبو محمد: وهذا نحو الكفر عناداً.

قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

هذه آية وعيد واستفهام على جهة التقرير، أي: لا أحد أظلم منه.

و﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ معناه: اختلق، وهذه وإن كانت متصلة بما قبلها ـ أي: كيف يجعلون الرسل[٣] مفترين، ولا أحد أظلم ممن افترى، ولا حظ للرسل إلا أن يُرحم من اهتدى ويُعذب من كفر ـ فهي أيضاً مشيرة بالمعنى إلى كل مفتر، وإلى من تقدم ذكره من الذين قالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

وقوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ إشارة إلى جميع الكفرة، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال الحسن والسدي وأبو صالح: معناه: من المقرر في اللوح المحفوظ[٤]، فالكتاب عبارة

---

(١) في المطبوع: «أنكارها».

(٢) زيادة من السليمانية وفيض الله ونجيبويه ولالاليه.

(٣) في السليمانية: «أي كيف تجعلون من الرسل». وفي فيض الله: «تجعلون» بدل «يجعلون».

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٤٠٨-٤٠٩)، وفي السليمانية وفيض الله: «من القدر» بدل «المقرر»، وهو منقول بالمعنى.

عن اللوح المحفوظ، وقد تقرر في الشرع أن حظهم فيه العذاب والسخط.

وقال ابن عباس[١] وابن جبير ومجاهد: قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يريد: من الشقاء والسعادة التي كتبت له وعليه[٢].

قال القاضي أبو محمد: ويؤيد هذا القولَ الحديثُ المشهور الذي يتضمن أن الملك يأتي إذا خلق الجنين في الرحم فيكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد[٣].

وقال ابن عباس أيضاً[٤] ومجاهد وقتادة والضحاك: ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يراد به: الذي تكتبه الملائكة من أعمال الخليقة من خير وشر، فينال هؤلاء نصيبهم من ذلك وهو الكفر والمعاصي.

وقال ابن عباس أيضاً[٥] ومجاهد والضحاك: / ﴿مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يراد به: من القرآن، [٢/ ١٣٩] وحظهم فيه: أن وجوههم تسودُّ يوم القيامة، وقال الربيع بن أنس ومحمد بن كعب وابن زيد: المعنيُّ بالنصيب ما سبق لهم في أم الكتاب من رزق وعمر وخير وشر في الدنيا[٦].

ورجح الطبري هذا واحتج له بقوله بعد ذلك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا﴾ أي: عند انقضاء ذلك، فكان[٧] معنى الآية على هذا التأويل: أولئك يتمتعون ويتصرفون من الدنيا بقدر ما كتب لهم حتى إذا جاءتهم رسلنا لموتهم، وهذا تأويل جماعة في مجيء

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤٥٦٦) من طريق جابر الجعفي، عن مجاهد، عن ابن عباس، وجابر الجعفي ضعيف.

(٢) انظر: الطبري (١٢/ ٤٠٩-٤١٠)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٧٤).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الطبري (١٤٥٧٣)، وابن أبي حاتم (٨٤٣٨) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) هذا الأثر أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/ ١٧٤) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ينالهم ما كتب عليهم. يقول: قد كتب لمن يفتري على الله أن وجهه مسود.

(٦) انظر أقوال هؤلاء مع ترجيح الطبري الآتي في تفسير الطبري (١٢/ ٤٠٧)، وما بعدها.

(٧) في المطبوع: «فكأنه».

الرسل للتوفي، وعلى هذا يترتب ترجيح الطبري الذي تقدم.

وقالت فرقة: ﴿رُسُلُنَا﴾ يريد بهم ملائكة العذاب يوم القيامة، و﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ معناه: يستوفونهم عدداً في السوق إلى جهنم.

قال القاضي أبو محمد: ويترتب هذا التأويل مع التأويلات المتقدمة في قوله: ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لأن النصيب على تلك التأويلات إنما ينالهم في الآخرة، وقد قضى مجيء رسل الموت، وقوله حكاية عن الرسل: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾ استفهامُ تقريرٍ وتوبيخ وتوقيف على خزي، وهو إشارة إلى الأصنام والأوثان وكل ما عبد من دون الله.

و﴿تَدْعُونَ﴾: معناه: تعبدون وتؤملون، وقولهم: ﴿ضَلُّواْ﴾؛ معناه: هلكوا وتلفوا وفُقدوا.

ثم ابتدأ الخبرَ عن المشركين بقوله: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ وهذه الآية وما شاكلها تعارض في الظاهر قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، واجتماعهما إما أن يكون في طوائف مختلفة، أو في أوقات مختلفة يقولون في حال كذا وحال كذا.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

هذه حكاية ما يقول الله لهم يوم القيامة بوساطة ملائكة العذاب، وعبر عن «يقول»، بـ﴿قَالَ﴾ لتحقق وقوع ذلك وصدق القصة، وهذا كثير.

وقوله: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ متعلق بـ﴿ٱدْخُلُواْ﴾، ويحتمل أن يتعلق بمحذوف تقديره: كائنين أو ثابتين في أمم، فيكون في موضع الحال من الضمير في ﴿ٱدْخُلُواْ﴾، وقيل: ﴿فِىٓ﴾ بمعنى «مع»، وقيل: هي على بابها وهو أصوب.

وقوله: ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ صفة لـ﴿أُمَمٖ﴾.

وقوله: ﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾ يصح تعلقه بـ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾، ويصح أن يتعلق بـ﴿أُمَمٖ﴾ أي: في أمم ثابتة أو مستقرة [في النار][1]، ويصح تعلقه بالذِّكر الذي في ﴿خَلَتۡ﴾.

ومعنى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ على هذا التعلق أي: قد تقدمت ومضى عليها الزمن، وعُرفها فيما تطاول من الآباد، وقد تستعمل وإن لم يطل الوقت، إذ أصلها فيمن مات من الناس، أي: صاروا إلى خلاء من الأرض.

وعلى التعليقين الأولين لقوله: ﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾ فإنما ﴿خَلَتۡ﴾ حكاية عن حال الدنيا، أي ادخلوا في النار في جملة الأمم السالفة لكم في الدنيا الكافرة.

وقدم ذكر الجن لأنهم أعرق في الكفر، وإبليس أصل الضلال والإغواء.

وهذه الآية نص في أن كفرة الجن في النار، والذي يقتضيه النظر أن مؤمنيهم في الجنة؛ لأنهم عقلاء مكلفون مبعوث إليهم آمنوا وصدقوا، وقد بوب البخاري رحمه الله: باب في ذكر الجن وثوابهم وعقابهم[2].

وذكر عبد الجليل أن مؤمني الجن يكونون تراباً كالبهائم[3]، وذكر في ذلك حديثاً مجهولاً، وما أُراه يصح[4]، والله أعلم.

و«الأخوة» في هذه الآية: أخوة الملة والشريعة، قال السدي: يتلاعن آخرها وأولها[5].

و﴿ٱدَّارَكُواْ﴾: معناه: تلاحقوا، ووزنه تفاعلوا، أصله: تداركوا، أدغم فجلبت ألف الوصل.

---

(١) زيادة من السليمانية وفيض الله ولالاليه.

(٢) انظر: البخاري عقب حديث (٣٢٩٥).

(٣) نقله في تفسير الثعالبي (٣/ ٢٩)، وعبد الجليل هذا لم ينسبه المؤلف، والمسمون بهذا الاسم كثر.

(٤) أورده الثعلبي في تفسيره كما في المصدر السابق من طريق سفيان، عن ليث بن أبي سليم من قوله.

(٥) تفسير الطبري (١٢/ ٤١٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٧٥).

وقرأ أبو عمرو: (إِداركوا) بقطع ألف الوصل[١]، قال أبو الفتح: هذا مشكل، ولا يسوغ أن يقطعها ارتجالاً، فذلك إنما[٢] يجيء شاذّاً في ضرورة الشعر [في الاسم أيضاً، لكنه وقف مثل وقفة المستذكر ثم ابتدأ فقطع][٣].

وقرأ مجاهد بقطع الألف وسكون الدال: (أَدْرَكُوا) بفتح الراء وبحذف الألف بعد الدال[٤]، بمعنى: أدرك بعضهم بعضاً.

وقرأ حميد: (أُدرِكوا) بضم الهمزة وكسر الراء[٥]، أي: أدخلوا في إدراكها.

وقال مكي في قراءة مجاهد إنها: (ادَّرَكوا) بشد الدال المفتوحة وفتح الراء[٦]، قال: وأصله: ادتَركوا وزنها افتعلوا.

وقرأ ابن مسعود والأعمش: (تداركوا) ورويت عن أبي عمرو[٧].

وقرأ الجمهور: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ﴾ بحذف ألف ﴿إِذَا﴾ لالتقاء الساكنين.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ معناه: قالت الأمة الأخيرة التي وجدت ضلالات مقررة وسنناً كاذبة مستعملة، للأولى التي شرَعت ذلك وافترت على الله وسلكت سبيل الضلال ابتداءً: ربَّنا هؤلاء طرقوا طرق الضلال وسبَّبوا ضلالنا، فآتهم عذابا مضاعفاً، أي: ثانياً زائداً على عذابنا إذ هم كافرون ومسببون كفرَنا، وتقول: ضاعفت كذا، إذا جعلته مثل الأول.

---

(١) انظرها مع التعليق في المحتسب (١/ ٢٤٧)، وهي قراءة شاذة، ليست في طرق التيسير ولا النشر.

(٢) في السيلمانية وفيض الله: «ربما».

(٣) ساقط من المطبوع.

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٥٢)، إلا أنه لم يضبطها.

(٥) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها له في المحتسب (١/ ٢٤٧)، وزاد مجاهداً ويحيى وإبراهيم إلا أن ضبطها غير كامل.

(٦) انظر: الهداية لمكي (٤/ ٢٣٥٨) وهي قراءة شاذة.

(٧) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لهم في المحتسب (١/ ٢٤٧)، وللأعمش وحده في: تفسير الثعلبي (٤/ ٢٣٢).

واللام في قوله: ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ كأنها لام سبب، إذ القول إنما هو للرب.

ثم قال عز وجل مخبرا لهم: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي: العذاب مشدد على الأول والآخر، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أي: المقادير وصُور التضعيف، وهذا رد لكلام هؤلاء، إذ ليس لهم كرامة فيظهرَ إسعافهم.

وأما المعنى الذي دعوا فيه فظاهر حديث النبي ﷺ أنه حاصل، وأن كل من سن كفراً أو معصية فعليه كفل من جهة كلِّ مَن عمل بذلك بعده، ومنه حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ، قال: «ما من داع دعا إلى ضلالة إلا كان عليه وزره ووزر من اتبعه لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً»، الحديث، ذكره الليث بن سعد من آخر الجزء الرابع / [٢/ ١٤٠] من حديثه، وذكره مالك في «الموطأ» غير مسند موصل[1].

ومنه قوله: «ما تقتل نسمة ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها»[2]، أمَا إن هؤلاء عيَّنوا في دعائهم الضعف، وقد يكون الكفل أقل أو أكثر.

وعن ابن مسعود أن الضعف هاهنا الأفاعي والحيات[3].

وقرأ جميع السبعة غير عاصم في رواية أبي بكر: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ بالتاء، ويحتمل ذلك أن يكون مخاطبة لهذه الأمة الأخيرة متصلة بقوله لهم: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾، ويحتمل أن يكون مخاطبة لمحمد وأمته.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٥٠٩) بلاغاً، والدارمي (٥١٣)، وابن ماجه (٢٠٥)، وانظر: المعجم المفهرس لابن حجر (١/ ٣٤٥-٣٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٢١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) لا يصح، أخرجه الطبري (١٤٥٩٧) من طريق سفيان الثوري، عن غير واحد، عن السدي، عن مرة الطيب، عن عبد الله بن مسعود به، وهذا إسناد ضعيف لجهالة من حدث الثوري وأخرجه ابن جرير أيضاً (١٤٥٩٨) من طريق عبد العزيز بن أبان، عن الثوري، عن السدي، به، وعبد العزيز بن أبان الأموي من ولد سعيد بن العاص، قال ابن معين: كذاب خبيث يضع الأحاديث.

وقرأ عاصم وحده في رواية أبي بكر: ﴿و لكن لا يعلمون﴾ بالياء[١]، وروى حفص عن عاصم مثل قراءة الجماعة[٢].

وهذه مخاطبة لأمة محمد وإخبار عن الأمة الأخيرة التي طلبت أن يشدد العذاب على أولاها، ويحتمل أن يكون خبرا عن الطائفتين حملاً على لفظة (كل)، أي: لا يعلم أحد منهم قدر ما أعد لهم من عذاب الله.

وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ الآية، المعنى: وقالت الأمة الأولى المبتدعة للأمة الأخيرة المتَّبِعة: أنتم لا فضل لكم علينا ولم تزدجروا حين جاءتكم النذر والرسل، بل دمتم في كفركم وتركتم النظر واستوت حالنا وحالكم فذوقوا العذاب باجترامكم، هذا قول السدي وأبي مجلز وغيرهما، فقوله: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ على هذا من كلام الأمة المتقدمة للأمة المتأخرة، وقيل: قوله: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ هو من كلام الله عز وجل لجميعهم.

وقال مجاهد: ومعنى قوله: ﴿مِن فَضْلٍ﴾ أي: من التخفيف[٣].

قال القاضي أبو محمد: معناه: أنه لما قال الله: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ قال الأولون للآخرين: لم تبلغوا أملاً في أن يكون عذابكم أخف من عذابنا ولا فضلتم بالإسعاف والنص عليه.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

هذه الآية عامة في جميع الكفرة قديمهم وحديثهم.

---

(١) زيادة من السليمانية.

(٢) وهما سبعيتان، التيسير (ص: ١١٠)، والسبعة (ص: ٢٨٠)، وقوله: «بالياء»، زيادة من السليمانية، وفيها أيضاً: «وحده» بعد: «الجماعة».

(٣) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١٢/ ٤٢٠).

وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر: ﴿لَا تُفَتَّحُ﴾، بضم التاء الأولى وتشديد الثانية، وقرأ أبو عمرو: ﴿تُفْتَح﴾ بضم التاء وسكون الفاء وتخفيف الثانية، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿يُفْتَح﴾ بالياء من أسفل وتخفيف التاء[1].

وقرأ أبو حيوة وأبو البرهسم[2]: (يُفَتَّح) بالياء وفتح الفاء وشد التاء، ومعنى الآية لا يرتفع لهم عمل ولا روح ولا دعاء، فهي عامة في نفي ما يوجب للمؤمنين بالله تعالى، قاله ابن عباس وغيره[3].

وذكر الطبري في كيفية قبض روح المؤمن والكافر آثاراً[4] اختصرتها إذ ليست بلازمة في الآية، ولِلِين أسانيدها أيضاً.

ثم نفى الله عز وجل عنهم دخول الجنة وعلَّق[5] كونَه بكونٍ محالٍ لا يكون أبداً[6]، وهو أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة حيث يدخل الخيط، و﴿ٱلْجَمَلُ﴾ كما عهد و(السَّمّ) كما عهد.

وقرأ جمهور المسلمين: ﴿ٱلْجَمَلُ﴾، واحد الجمال، وقال الحسن: هو الجمل الذي يقوم بالمربد، ومرةً لما أكثروا عليه قال: هو الأشتر، وهو الجمل بالفارسية، ومرة

---

(١) وكلها سبعية، انظر: التيسير للداني (ص ٨٠)، والسبعة لابن مجاهد (ص ٢٨٠)، وسقط ذكر نافع من المطبوع.

(٢) غير مقروءة في السليمانية، وفي المطبوع وأكثر النسخ: «أبو إبراهيم»، والتصحيح من نسختي فيض الله ولالاليه، ومن البحر المحيط (٥/ ٥١) إلا أنه ضبطها: «تَفَتَّحُ»، بالتاء من أعلى مفتوحة والتشديد، ولم أجد شيئاً من ذلك لغيرهما.

(٣) أخرجه الطبري (١٤٦٠٦-١٤٦٠٧-١٤٦٠٨)، وابن أبي حاتم (٨٤٦٠-٨٤٦١) من طرق، عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) انظر تلك الروايات في تفسير الطبري (١٢/ ٤٢٢).

(٥) في الأصل ونجيبويه: «وعلى».

(٦) زيادة من السليمانية وفيض الله ولالاليه.

قال: هو الجمل ولد الناقة[١]، وقاله ابن مسعود[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذه عبارة تدل على حرج السائل لارتياب السائلين، لا شكٍّ باللفظة من أجل القراءات المختلفة.

وذكر الطبري عن مجاهد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: (حتى يلج الجمل الأصفر)[٣].

وقرأ أبو السمال: (الجَمْلُ)، بسكون الميم[٤].

وقرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد وابن جبير والشعبي ومالك بن الشِّخِّير وأبو رجاء: (الجُمَّل) بضم الجيم وتشديد الميم[٥]، وهو حبل السفينة.

وقرأ سالم الأفطس[٦]، وابن جبير[٧] وابن عباس[٨] أيضا: (الجُمَل) بـ[ضم

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٤٢٩).

(٢) صحيح: هذا الأثر أخرجه سعيد بن منصور في تفسيره (٩٤٨) عن هشيم، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/ ١٨٨-١٨٩) من طريق هشيم، عن مغيرة، عن إبراهيم، عن عبد الله بن مسعود قال: هو الجمل ابن الناقة، أو زوج الناقة، ومن طريق سعيد بن منصور أخرجه الطبراني في الكبير (٨٦٩١) به، وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/ ١٨٨) من طريق الفضيل بن عياض، عن مغيرة به.

(٣) وهي قراءة شاذة، تفسير الطبري (١٤٦٣٢).

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٤٨).

(٥) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لعكرمة في تفسير الثعلبي (٤/ ٢٣٣)، وللباقين في المحتسب (١/ ٢٤٩)، وفيه أبو العلاء بن الشخير، وهو يزيد بن عبد الله بن الشخير العامري البصري، أحد الأئمة، وكان ثقة فاضلاً، توفي سنة (١٠٨هـ) كما في تاريخ الإسلام (٧/ ٢٧٨)، وأما مالك بن الشخير، فلم أجد له ذكراً إلا عند تابعي المصنف، وفي السليمانية وفيض الله: «أبو جعفر» بدل «ابن جبير».

(٦) سالم بن عجلان أبو محمد الأموي مولاهم الجزري الحراني الأفطس، روى عن سعيد بن جبير والزهري، وعنه سفيان الثوري وجماعة، قال أبو حاتم: صدوق مرجئ، قتل سنة (١٣٢هـ). تاريخ الإسلام (٨/ ٤٣٦)، انظر عزوها له في تفسير الطبري (١٢/ ٤٣٢).

(٧) كذا في لالاليه، وهو الصواب انظر عزوها له في معاني القرآن للنحاس (٣/ ٣٦)، والهداية لمكي (٤/ ٢٣٦٦)، وله ولابن عباس في المحتسب (١/ ٢٤٩)، وفي المطبوع وأكثر النسخ: «ابن خير»، ولم أقف له على ترجمة مناسبة.

(٨) في المطبوع: «ابن عامر» بدل «ابن عباس».

الجيم و][1] تخفيف الميم من (الجمل) وقالوا: هو حبل السفن، وروى الكسائي أن الذي روى تثقيل الميم عن ابن عباس كان أعجمياً فشدد الميم لعجمته[2].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف؛ لكثرة أصحاب ابن عباس على القراءة المذكورة.

وقرأ سعيد بن جبير فيما روي عنه: (الجُمْل) بضم الجيم وسكون الميم، وقرأ ابن عباس أيضاً: (الجُمُل) بضم الجيم والميم[3].

و«السم»: الثقب من الإبرة وغيرها، يقال: سَم وسِم وسُم[4]، بفتح السين وكسرها وضمها.

وقرأ الجمهور بفتح السين.

وقرأ ابن سيرين بضمها، وقرأ أبو حيوة بضمها وبكسرها، وروي عنه الوجهان[5].

و﴿ٱلْخِيَاطِ﴾ والمخيط الإبرة.

وقرأ ابن مسعود: (في سم المِخْيط) بكسر الميم وسكون الخاء وفتح الياء، وقرأ طلحة: (في سم المَخيط) بفتح الميم، وكذلك أُبي على هذه الصفة[6].

وبمثل هذا الحتم وغيره يُجزى الكفرة وأهل الجرائم على الله تعالى.

---

(١) زيادة من السليمانية.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٤٣٣).

(٣) وهما شاذتان، انظرهما في المحتسب (١/ ٢٤٩)، ومختصر الشواذ (ص: ٤٨).

(٤) زيادة من السليمانية وفيض الله ولالاليه.

(٥) وهما شاذتان، انظر قراءة ابن سيرين في الهداية لمكي (٤/ ٢٣٦٥)، ووجهي أبي حيوة في الشواذ للكرماني (ص: ١٨٦).

(٦) وهما شاذتان، انظر قراءة ابن مسعود بلا ضبط في مختصر الشواذ (ص: ٤٨)، ومعاني القرآن للفراء (١/ ٣٧٩)، وقراءة طلحة في الشواذ للكرماني (ص: ١٨٧)، وضبطهما في البحر المحيط (٥/ ٥٢)، وزاد في الأولى أبا رزين وأبا مجلز، ولم أجد ذكراً لأبي.

وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ الآية، المعنى: أن جهنم فراش لهم ومسكن ومضجع يتمهدونه، وهي لهم غواش جمع غاشية وهي ما يغشى الإنسان، أي: يغطيه ويستره من جهة فوق، قال الضحاك: المهاد الفرش، والغواشي اللحف[١].

ودخل التنوين في ﴿غَوَاشٍ﴾ عند سيبويه لنقصانه عن بناء مفاعل، فلما زال البناء المانع من الصرف بأن حذفت الياء حذفا لا للالتقاء، بل كما حذفت من قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ٤]، و﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [الكهف: ٦٤]، ومن قول الشاعر: ثم لا يفر[٢]، زال الامتناع، وهذا كقولهم: ذلذل[٣] بالتنوين ـ وهم يريدون: الذلاذل ـ لما زال البناء.

قال الزجاج: والتنوين في ﴿غَوَاشٍ﴾ عند سيبويه عوضٌ من الياء المنقوصة[٤]، ورد أبو علي أن يكون هذا هو مذهب سيبويه[٥]. ويجوز الوقوف بياء وبغير ياء والاختيار بغير ياء.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية، هذه آية وعد مخبرة أن جميع المؤمنين هم أصحاب الجنة ولهم الخلد فيها، ثم اعترض أثناء القول بعقب الصفة التي شرطها في المؤمنين باعتراض يخفف[٦] الشرط ويرجِّي في رحمة الله ويُعلم أن دينه يسر، وهذه الآية نص في أن الشريعة لا يتقرر من تكاليفها شيء لا يطاق، وقد تقدم القول في جواز تكليف ما لا يطاق وفي وقوعه بمغنٍ عن الإعادة فيه.

و«الوسع» معناه: الطاقة، وهو القدْر الذي يتسع له قُدَر البشر.

قوله عز وجل: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا / لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾. [٢/ ١٤١]

(١) انظر: تفسير مقاتل (١/ ٣٩٢)، وأخرجه الطبري (١٢/ ٤٣٦)، وانظر: تفسير الماوردي (٢/ ٢٢٣).
(٢) جزء من بيت لزهير تقدم التعليق عليه في تفسير الآية (٢٩) من سورة البقرة.
(٣) في السليمانية وفيض الله: «زلازل».
(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٣٨).
(٥) انظر كلام أبي علي على غواش في الحجة (١/ ٧٧).
(٦) في السليمانية وفيض الله: «يحقق».

هذا إخبار من الله عز وجل أنه ينقي قلوب ساكني الجنة من الغل والحقد، وذلك أن صاحب الغل متعذب به ولا عذاب في الجنة، وورد في الحديث: «الغل على باب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين»(١).

قال القاضي أبو محمد: ومعنى هذا الحديث إذا حمل على حقيقته: أن الله عز وجل يخلق جوهراً يجعله حيث يرى كمبارك الإبل، لأن الغل عَرَض لا يقوم بنفسه، وإن قيل: إن هذه الآية استعارة وعبر عن سقوطه عن نفوسهم، فهذه الألفاظ على جهة التمثيل كما تقول: فلان إذا دخل على الأمير ترك نخوته بالباب ملقاة، فله وجه، والأول أصوب وأجرى مع الشرع في أشياء كثيرة، مثل قوله: «يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش فيذبح»(٢) وغير ذلك.

وروى الحسن عن علي بن أبي طالب قال: فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾(٣) [الحجر: ٤٧]، وروي عنه أيضاً أنه قال: فينا والله نزلت ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾، وذكر قتادة: أن علياً قال: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾(٤).

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو المعنى الصحيح، فإن الآية عامة في أهل الجنة.

و«الغل»: الحقد والإحنة الخفيَّة في النفس وجمعه غلال، ومنه الغلول أخذٌ في

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٧/ ٢٠٨) ولم أقف عليه مسنداً.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري (١٤٦٦٠)، وابن أبي حاتم (٨٤٦٦) من طريق الحسن، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن روايته عن علي بن أبي طالب مرسلة، وانظر: جامع التحصيل (١٣٥)، والأثر الذي بعده جزء منه.

(٤) أخرجه الطبري (١٤٦٦٢)، وابن أبي حاتم (٨٤٦٧) من طريق قتادة، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقتادة لم يسمع من علي رضي الله عنه. وهذا الأثر روي عن علي رضي الله عنه من طرق كلها فيها انقطاع.

خفاء، ومنه الانغلال في الشيء، ومنه الـمُغِلُّ بالأمانة، ومنه قول علقمة بن عَبَدة:

[البسيط] سُـلاءةٌ كعَصَـا النَّهْـدِيِّ غُـلَّ لَهَا ذُو فَيْئَـةٍ مِنْ نَوَى قُـرَّانَ مَعْجُومُ[١]

وقوله: ﴿مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بيِّنٌ، لأن ما كان لاطئاً بالأرض فهو تحتَ ما كان منتصباً آخذاً في سماء.

و﴿هَدَىٰنَا﴾: بمعنى: أرشدنا، والإشارة بـ(هذا) تتجه أن تكون إلى الإيمان والأعمال الصالحة المؤدية إلى دخول الجنة، ويحتمل أن تكون إلى الجنة نفسها، أي: أرشدنا إلى طرقها، ولكل واحد من الوجهين أمثلة في القرآن.

وقرأ ابن عامر وحده ﴿ما كنا لنهتدي﴾ بسقوط الواو من قوله: ﴿وَمَا كُنَّا﴾، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام[٢].

قال أبو علي: وجه سقوط الواو أن الكلام متصل مرتبط بما قبله[٣].

ولما رأوا تصديق ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى وعاينوا إنجاز المواعيد قالوا: ﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾، فقضوا بأن ذلك حق قضاءَ مَنْ يحس[٤]، وكانوا في الدنيا يقضون بأن ذلك حق قضاء من يستدل، ﴿وَنُودُوٓاْ﴾ أي: قيل لهم بصياح، وهذا النداء من قبل الله عز وجل، و﴿أَن﴾ يحتمل أن تكون مفسرة لمعنى النداء بمعنى: «أي»، ويحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة وفيها ضمير مستتر تقديره: أنه تلكم الجنة، ونحو هذا قول الأعشى:

---

(١) انظر عزوه له في المفضليات (ص: ٤٠٤)، والبيان والتبيين (٣/ ٨٢)، والاختيارين للأخفش (ص: ١٠٣)، والعين (٥/ ٢٣)، والكامل للمبرد (٣/ ٨٣)، والمعاني الكبير (١/ ١٦٧)، والسُّلاءُ بالضم ممدوداً شوكُ النخل، والنَّهْدِيُّ: الشيخ المُسِنُّ، وقُـرَّان: قرية باليمامة.

(٢) وهي سبعية، انظر: السبعة في القراءات (ص: ٢٨٠)، والتيسير (ص: ١١٠)، والمصاحف لابن أبي داود (ص: ١٥١).

(٣) انظر: الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٥).

(٤) في السليمانية ونجيبويه ولالاليه: «من يحسن».

فِي فِتْيَـةٍ كَسُيُوفِ الهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا أَنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ [١] [البسيط]

تقديره: أنه هالك، ومنه قول الآخر:

أُكَـاشِـرُهُ وَأَعْـلَـمُ أَنْ كِـلانَـا عَلَى مَا سَاءَ صَاحِبَهُ حَرِيصُ [٢] [الوافر]

و﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ ابتداء وصفة و﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ الخبر و﴿تِلْكُمُ﴾ إشارة فيها غيبة، فإما لأنهم كانوا وعدوا بها في الدنيا فالإشارة إلى تلك، أي: تلكم هذه الجنة، وحذفت هذه، وإما قبل أن يدخلوها، وإما بعد الدخول وهم مجتمعون في موضع منها، فكلٌّ غائب عن منزله.

وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لا على طريق وجوب ذلك على الله، لكن بقرينة رحمته وتغمده، والأعمال أمارة من الله وطريق إلى قوة الرجاء، ودخول الجنة إنما هو بمجرد رحمة الله تعالى، والقسم فيها على قدر العمل، و(أورثتم) مشيرة إلى الأقسام.

وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ بالإظهار وكذلك في الزخرف.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿أورتُّموها﴾ بإدغام الثاء في التاء وكذلك في الزخرف[٣].

قوله عز وجل: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

هذا إخبار من الله عز وجل عما يكون منهم، وعبر عن معان مستقبلة بصيغة ماضية

---

(١) انظر عزوه له في الكتاب لسيبويه (٢/ ١٣٧)، وشرح المعلقات التسع (ص: ٢٦)، والأصول في النحو (١/ ٢٣٩)، وغيرها.

(٢) البيت لعدي بن زيد كما في الكتاب لسيبويه (٣/ ٧٣)، ونسبه في محاضرات الأدباء (١/ ٣٠٧) لعمرو بن جابر الحنفي.

(٣) الآية ٧٢، وهما سبعيتان، انظر: التيسير للداني (ص: ٣٧).

وهذا حسن فيما يحقق وقوعه، وهذا النداء من أهل الجنة لأهل النار تقريع وتوبيخ وزيادة في الكرب وهو بأن يشرفوا عليهم ويخلق الإدراك في الأسماع والأبصار.

وقرأ جمهور الناس: ﴿نَعَمْ﴾ بفتح العين، وقرأ الكسائي: ﴿نَعِم﴾ بكسر العين، ورويت عن عمر بن الخطاب وعن النبي ﷺ[١]، وقرأها ابن وثاب والأعمش[٢]، قال الأخفش: هما لغتان[٣]، ولم يحك سيبويه الكسر، وقال: «نعم»: عِدَة وتصديق، أي: مرة هذا ومرة هذا[٤].

وفي كتاب أبي حاتم عن الكسائي عن شيخ من ولد الزبير قال: ما كنت أسمع أشياخ قريش يقولون: إلا «نَعِم» بكسر العين، ثم فقدتها بعد[٥]، وفيه عن قتادة عن رجل من خثعم قال: قلت للنبي ﷺ: أنت تزعم أنك نبي: ؟ قال: «نَعِم» بكسر العين، وفيه عن أبي عثمان النهدي قال: سأل عمرُ عن شيء، فقالوا: نعَم، فقال عمر: النَّعَم الإبل والشاء، قولوا: نعِم، بكسر العين[٦]، قال أبو حاتم: وهذه اللغة لا تعرف اليوم بالحرمين.

وقوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ الآية قال أبو علي الفارسي والطبري وغيرهما: ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾: بمعنى: أَعْلَم مُعْلِم[٧]، قال سيبويه: أذنت إعلام بتصويت[٨].

---

(١) أخرج الدوري في جزء فيه قراءات النبي (٥٠) من طريق خالد بن قيس، عن قتادة، عن رجل من خثعم، قال: دفعت إلى النبي وهو يومئذ بمنى، فقلت: أنت الذي تزعم أنك نبي الله؟ قال: «نعم» مكسورة. وسنده منقطع، وأخرج أيضاً (٥١) من طريق المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن أبي عثمان النهدي، قال: أمرنا عمر بأمر، فقلنا: نعم، فقال: «لا تقولوا: نعم، ولكن قولوا: نعِم مكسورة». وإسناده صحيح.

(٢) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٠)، وانظرعزو الثانية لعمر في لسان العرب (١٢/ ٥٧٩)، وللأعمش في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٥٤)، ولابن وثاب في البحر المحيط (٥/ ٥٥).

(٣) نقله عنه أبو علي في الحجة (٤/ ١٩).

(٤) الكتاب لسيبويه (٤/ ٢٣٤).

(٥) مثله في الزاهر في معاني كلمات الناس (٢/ ٥١)، وتاج العروس (٣٣/ ٥٢١).

(٦) لم أقف عليهما.

(٧) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٤٤٧)، والحجة للفارسي (٤/ ٢٣).

(٨) ولفظه في الكتاب (٤/ ٦٢): أذنت النداء والتصويت بإعلان.

وقرأ ابن كثير في رواية قنبلٍ ونافعٌ وأبو عمرو وعاصم: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ بتخفيف ﴿أَن﴾ من الثقيلة ورفع اللعنة.

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وابن كثير في رواية البزي وشبل: ﴿أنّ لعنة﴾ بتثقيل ﴿أنّ﴾ ونصب اللعنة[1].

وكلهم قرأ التي في النور: ﴿أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ﴾، و﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٧، ٩] بتشديد النون، غير نافع فإنه قرأهما: ﴿أنْ لعنَةُ الله﴾ و﴿أنْ غَضِبَ﴾ مخففتين[2]، [﴿لعنةُ﴾ رفعاً و﴿غَضِب﴾ فعل ماض][3] وروى عصمة عن الأعمش: (مؤذن بينهم إنَّ) بكسر الألف[4] على إضمار «قال».

قال القاضي أبو محمد: لما كان الأذان قولاً.

و«الظالمون» في هذه الآية: الكافرون، ثم ابتدأ صفتهم بأفعالهم في الدنيا ليكون علامة أن أهل هذه / الصفة هم المراد يوم القيامة بقوله: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. [٢/ ١٤٢]

و﴿يَصُدُّونَ﴾: معناه: يعرضون، والسبيل: الطريق والمنهج، ويذكَّر ويؤنث وتأنيثها أكثر.

و(يبغونها): معناه: يطلبونها، أو يطلبون لها، فإن قدرت يطلبونها فـ ﴿عِوَجًا﴾ نصب على الحال، ويصح أن يكون من الضمير العائد على السبيل أي: معوجةً، ويصح أن يكون من ضمير الجماعة في (يَبْغُونَها) أي: معوجِّين، وإن قدرت (يَبْغُونَها): يطلبون لها ـ وهو ظاهر تأويل الطبري رحمه الله[5] ـ فـ﴿عِوَجًا﴾ مفعول بـ(يبغون).

و«العِوج» بكسر العين: في الأمور والمعاني، والعَوج بفتح العين: في الأجرام والمتنصبات.

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسير للداني (ص: ١١٠)، وانظر رواية شبل عن ابن كثير في كتاب السبعة لابن مجاهد (ص: ٢٨١).

(٢) وهما سبعيتان، انظر: السبعة لابن مجاهد (ص: ٢٨٢).

(٣) زيادة من السليمانية.

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٥٤).

(٥) انظر: الطبري (١٢/ ٤٤٨).

قوله عز وجل: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨)﴾.

الضمير في قوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ عائد على الجنة والنار، ويحتمل على الجمعين إذ يتضمنهما قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾.

و«الحجاب»: هو السور الذي ذكره عز وجل في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ [الحديد: ١٣] قاله ابن عباس[(١)]، وقال مجاهد: «الْأَعْرافُ حجاب بين الجنة والنار»[(٢)].

وقال ابن عباس أيضاً هو: تل بين الجنة والنار[(٣)].

وذكر الزهراوي حديثاً أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحداً جبل يحبنا ونحبه، وإنه يقوم يوم القيامة يَمثُلُ بين الجنة والنار يحتبس عليه أقوام يعرفون كلا بسيماهم هم إن شاء الله من أهل الجنة»[(٤)].

---

(١) أخرج الطبري (١٢/ ٤٥١)، وابن أبي حاتم (٨٤٨٩) من طريق منصور، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الأعراف سور بين الجنة والنار، وعبد الله ابن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي أجمعوا على ثقته، وأخرجه الطبري أيضاً (١٤٦٨٠) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس به، و(١٤٦٨١) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس.

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٤٩٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٨٣).

(٣) حسن، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٢/ ٤٥١) عن محمد بن عمرو العتكي، عن أبي عاصم النبيل، عن عيسى بن ميمون المكي، عن عبيد الله بن أبي يزيد المكي، عن ابن عباس رضي الله عنهما، به، ومحمد بن عمرو العتكي صدوق.

(٤) الحديث مرسل، فقد أخرجه ابن أبي زمنين في تفسيره (٢/ ١٢٥) من طريق إسحاق بن عبد الله ابن الحارث بن نوفل أبو يعقوب الهاشمي، عن النبي ﷺ مرسلاً، ويشهد لنصفه الأول ما أخرجه البخاري (٢٨٨٩)، ومسلم (١٣٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه يَقُولُ: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ =

وذكر حديثاً آخر عن صفوان بن سليم أن النبي ﷺ قال: «إن أحداً على ركن من أركان الجنة»(١).

و﴿ٱلۡأَعۡرَافِ﴾: جمع عُرف، وهو المرتفع من الأرض.

ومنه قول الشاعر:

كُـلُّ كِـنَـازٍ لَـحْـمُـهُ نيافِ ... كالْجمَلِ الْمُوفِي عَلَى الأعْرَافِ(٢) [الرجز]

ومنه قول الشمَّاخ:

فظَلَّتْ بِأَعْرَافٍ تَغَالَى كَأَنَّهَا ... رِمَاحٌ نحاها وِجْهَةَ الرِّيحِ رَاكِزُ(٣) [الطويل]

ومنه عُرف الفرس وعُرف الديك لعلوهما، وقال السدي: «سمي الأعراف أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس»(٤).

= ﷺ إِلَى خَيْبَرَ أَخْدُمُهُ فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ رَاجِعاً وبَدَا لَهُ أُحُدٌ قَالَ هَذا جَبَلٌ يُحِبُّنَا ونُحِبُّهُ، وفي لالاليه: «ذكر الزهري».

(١) ضعيف، هذا الحديث أخرجه أبو يعلى في مسنده (٧٥١٦)، والطبراني في الكبير (٥٨١٣)، وابن عدي في الكامل (٤/ ١٧٩) من طريق عبد الله بن جعفر، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ، به، وعبد الله بن جعفر والد علي بن المديني ضعيف، وقال المعلمي اليماني في تحقيق الفوائد المجموعة (١/ ٤٦٦): وله شاهد أخرجه ابن ماجه عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أحداً جبل يحبنا ونحبه وهو على ترعة من ترع الجنة وعير على ترعة من ترع النار، قلت: حديث أنس رضي الله عنه أخرجه ابن ماجه (٣١١٥) من طريق محمد بن إسحاق، عن محمد بن مكنف، عن أنس به، ومحمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن، ومحمد بن مكنف الأنصاري مجهول.

(٢) استشهد به تفسير الطبري (١٢/ ٤٥٠)، ومجاز القرآن (١/ ٢١٥) بلا نسبة، وفيهما: «كالعلم»، بدل «الجمل»، وفي المطبوع ولالاليه: «الجبل»، وفي الأصل ونور العثمانية «يناف»، وفي نجيبويه: «بناف».

(٣) انظر عزوه له في الاختيارين (ص: ٢)، والبيان والتبيين (١/ ٤٢٥)، وتفسير الثعلبي في (٤/ ٢٣٥)، وتفسير الطبري (١٢/ ٤٤٩)، ومجاز القرآن (١/ ٢١٥)، وأساس البلاغة (١/ ٢٨٢)، والقصيدة في ديوانه (ص ٣٦)، ونَحاها: وجَّهَها، وكتبت في الأصل ونجيبويه: «لحاها»، وَوِجْهة الريح: جِهَتُها، وراكز: اسم فاعل من ركز رمحه في الأرض: إذا غرزه، يصف الحُمُر بأنها ظَلَّت واقفة بأعالي التلال كأنها رماح مركوزة في الأرض في جهة الريح.

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ٤٥٠)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٨٤)، وانظر: الدر المنثور (٣/ ٤٦٠).

قال القاضي أبو محمد: وهذه عجمة[١] وإنما المراد على أعراف ذلك الحجاب أي: أعاليه.

وقوله: ﴿رِجَالٌ﴾؛ قال أبو مجلز لاحق بن حميد: هم الملائكة، ولفظة ﴿رِجَالٌ﴾ مستعارة لهم لـمَّا كانوا في تماثيل رجال، قال: وهم ذكور ليسوا بإناث[٢].

قال القاضي أبو محمد: وقد سمى الله رجالاً في الجن.

وقال الجمهور: هم رجال من البشر، ثم اختلفوا:

فقال مجاهد: هم قوم صالحون فقهاء علماء[٣].

وحكى الزهراوي أنهم عدول اليوم[٤]، الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، وهم من كل أمة[٥]، وقال[٦] الزجاج[٧].

وقال قوم: هم أنبياء، وقال المهدوي: هم الشهداء[٨].

وقال شرحبيل بن سعد: هم المستشهَدون في سبيل الله، الذين خرجوا عصاة لآبائهم[٩].

وذكر الطبري في ذلك حديثاً عن النبي ﷺ وأنه تعادل عقوقهم واستشهادهم[١٠].

---

(١) في الأصل ونجيبويه: «حجة».

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٤٥٩).

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٤٥٨).

(٤) في المطبوع والسليمانية وفيض الله ولالاليه ونجيبويه: «القيامة».

(٥) تفسير القرطبي (٧/ ٢١٢).

(٦) في المطبوع: «وقاله الزجاج».

(٧) معاني القرآن للزجاج (٢/ ٣٤٢).

(٨) التحصيل للمهدوي (٣/ ٤٣).

(٩) تفسير الطبري (١٢/ ٤٥٧).

(١٠) ضعيف، أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٥٧)، وابن شاهين كما في الإصابة (٤/ ٣٢٩) من طريق الليث قال، حدثني خالد، عن سعيد، عن يحيى بن شبل: أن رجلاً من بني النضير أخبره، عن رجل من بني هلال: أن أباه أخبره: أنه سأل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال: هم قوم غزوا في =

وقال ابن مسعود[١] والشعبي وحذيفة بن اليمان[٢] وابن عباس[٣] وابن جبير والضحاك: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم[٤].

قال القاضي أبو محمد: وقع في «مسند خيثمة بن سليمان»[٥] في آخر الجزء الخامس عشر حديث عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة دخل

= سبيل الله عصاة لآبائهم، فقتلوا، فأعتقهم الله من النار بقتلهم في سبيله، وحبسوا عن الجنة بمعصية آبائهم، فهم آخر من يدخل الجنة، وهذا إسناد مسلسل بالمجاهيل، وأخرج ابن جرير أيضاً (١٢/ ٤٥٨) من طريق أبي معشر، عن يحيى بن شبل مولى بني هاشم، عن محمد بن عبد الرحمن، عن أبيه، قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف، فقال: «قوم قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم، فمنعهم قتلهم في سبيل الله عن النار، ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة»، وأخرجه سعيد بن منصور في تفسيره (٩٥٤)، وابن أبي حاتم (٨٤٩٨) من طريق أبي معشر به، ولكنه سمى ابن عبد الرحمن المزني، فقال عمر وفي تفسير ابن منصور عمرو، ومن طريق سعيد بن منصور أخرجه البيهقي في البعث والنشور (١٠٤)، وأخرجه أيضاً (١٠٥-١٠٦) من طريق أبي معشر به، إلا أنه يرويه تارة موصولاً وتارة مرسلاً وتارة يسمي ابن عبد الرحمن عَمْراً وتارة عمر، وتارة محمد، وتارة يحيى، قال الحافظ: والاضطراب فيه عن أبي معشر وهو نجيح بن عبد الرحمن فإنه ضعيف، وقد رواه سعيد بن أبي هلال عن يحيى بن شبل فخالف أبا معشر في سنده. اهـ. انظر: الإصابة (٤/ ٣٧٢).

(١) ضعيف، أخرجه الطبري (١٤٦٩٠) من طريق أبي بكر الهذلي، عن سعيد بن جبير، عن ابن مسعود، وأبو بكر الهذلي ضعيف.

(٢) لا يثبت، أخرجه الطبري (١٤٦٨٥- ١٤٦٨٦- ١٤٦٨٧- ١٤٦٨٨- ١٤٦٨٩)، وابن أبي حاتم (٨٤٩٩) من طريق الشعبي، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، ولا يعرف للشعبي سماع من حذيفة.

(٣) ضعيف، أخرجه الطبري (١٤٦٩٢-١٤٦٩٨) من طريق قتادة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة لم يسمع من ابن عباس، وأخرجه ابن جرير أيضاً (١٤٧٠١) من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما به، وجويبر متروك.

(٤) انظر: تلك الآثار في تفسير الطبري (١٢/ ٤٥٦٤٥٧).

(٥) هو خيثمة بن سليمان بن حيدرة، أبو الحسن القرشي الأطرابلسي، أحد الثقات المشهورين، وقال الخطيب: هو ثقة ثقة، قد جمع فضائل الصحابة، توفي سنة (٣٤٣هـ). تاريخ الإسلام (٢٥/ ٢٧٥).

الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار»، قيل: يا رسول الله، فمن استوت حسناته وسيئاته؟ قال «أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون»[١].

وقال حذيفة بن اليمان أيضاً: هم قوم أبطأت بهم صغارهم إلى آخر الناس[٢].

قال القاضي أبو محمد: واللازم من الآية أن على أعراف ذلك السور أو على مواضع مرتفعة عن الفريقين حيث شاء الله تعالى رجالاً من أهل الجنة، يتأخر دخولهم، ويقع لهم ما وصف لهم، من الاعتبار في الفريقين.

و﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ أي: بعلامتهم وهي بياض الوجوه وحسنها في أهل الجنة، وسوادها وقبحها في أهل النار، إلى غير ذلك في حيز[٣] هؤلاء وحيز هؤلاء.

و«السيما» العلامة وهو من وسم، وفيه قلب، يقال: سيما مقصور، وسيماء ممدود، وسيمياء بكسر الميم وزيادة ياء، فوزنها عِفْلا[٤] مع كونها من وسم، وقيل: هي من سوَّم إذا علَّم، فوزنها على هذا فِعْلا.

ونداؤهم أصحاب الجنة يحتمل أن يكون وأصحاب الجنة لم يدخلوها بعد فيكون أيضاً قوله: ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ محتملاً أن يعنى به أهل الجنة، وهو تأويل أبي مجلز إذ جعل أصحاب الأعراف ملائكة، ومحتملاً أن يعنى به أهل الأعراف،

---

(١) ضعيف، أخرجه ابن مردويه في تفسيره كما عند ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢١٧) من طريق سليمان بن داود، حدثنا النعمان بن عبد السلام، حدثنا شيخ لنا يقال له: أبو عباد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عمن استوت حسناته وسيئاته، فقال: أولئك أصحاب الأعراف، لم يدخلوها وهم يطمعون، وسليمان بن داود الشاذكوني كذبه أحمد وابن معين وانظر الجرح والتعديل (٤/ ١١٤-١١٥)، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٤/ ٣١٣) من طريق عباد بن كثير، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه به، وعباد بن كثير الثقفي ضعيف وقال ابن كثير: وهذا حديث غريب من هذا الوجه. والصؤابة: بيضة القملة.

(٢) انظر تخريج أثر حذيفة رضي الله عنه المتقدم.

(٣) في السليمانية وفيض الله: «من معرفة حيز...» إلخ.

(٤) كتبت في الحمزوية: «فعلا».

ويحتمل أن يكون نداؤهم أهل الجنة بالسلام وهم قد دخلوها، فلا يحتمل حينئذ قوله: ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ إلا أهل الأعراف فقط، وهو تأويل السدي وقتادة وابن مسعود والحسن، وقال: «والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا لخير أراده بهم».

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو الأظهر الأليق[1]، ولا تظهُّر لأحد مع قول النبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ هي جملة مقطوعة[2]، أخبر أنهم لم يدخلوها وهم طامعون [بدخولها فكأن الجملة حال من الضمير في: ﴿وَنَادَوۡاْ﴾.

وقرأ أبو رقيش النحوي: (لم يدخلوها] وهم طامعون)[3].

وقرأ إياد بن لقيط[4]: (وهم ساخطون)[5].

وذكر بعض الناس قولاً وهو أن يقدر قوله: ﴿وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ في موضع الحال من ضمير الجماعة في ﴿يَدۡخُلُوهَا﴾، ويكون المعنى: لم يدخلوها في حال طمع بها بل كانوا في حال يأس وخوف لكنهم عمهم عفو الله عز وجل، وقال ابن مسعود: إنما طمع أصحاب الأعراف لأن النور الذي كان في أيديهم لم يطفأ حين يطفأ كل ما بأيدي المنافقين[6].

---

(١) في لالاليه: «الأنيق».

(٢) في السليمانية وفيض الله: «معطوفة».

(٣) أبو رقيش النحوي لم أقف له على ترجمة، وقد بيض لاسمه في البحر المحيط (٥/ ٥٩)، وما بين المعكوفتين ساقط من الأصل.

(٤) هو إياد بن لقيط السدوسي الكوفي، عن البراء بن عازب، والبراء بن قيس، وعنه ابنه عبيد الله، وعبد الملك بن عمير مع تقدمه، ومسعر، والثوري، وقيس بن الربيع، وعدة. وثقه ابن معين، والنسائي، وقال أبو حاتم: صالح الحديث. تاريخ الإسلام (٧/ ٣٢٤).

(٥) تابعه عليهما في البحر المحيط (٥/ ٥٩)، ولا يعد هذا قراءة لأنه مخالف لمصاحف المسلمين، وسيأتي ما لإياد في التوبة.

(٦) أثر ابن مسعود أخرجه ابن جرير الطبري (١٠/ ٢٢٦) من طريق أبي بكر الهذلي، عن سعيد بن جبير، عن ابن مسعود فذكره.

والضمير في قوله: ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ عائد على أصحاب الأعراف، فهم يسلِّمون على أصحاب الجنة، وإذا نظروا إلى النار وأهلها دعوا الله في التخليص منها،/ قاله ابن عباس [٢/ ١٤٣] وجماعة من العلماء[١]، وقال أبو مجلز: الضمير لأهل الجنة وهم لم يدخلوها بعد.

وقوله: ﴿صُرِفَتْ﴾ معطية ما هنالك من هول المطلع.

وقوله: ﴿رِجَالًا﴾ يريد: من أهل النار، ويحتمل أن يكون هذا النداء وأهل النار في النار، فتكون معرفتهم بعلامات معرِّفة بأنهم أولئك الذين عرفوا في الدنيا، ويحتمل أن يكون هذا النداء وهم يحملون إلى النار، فتكون السيما التي عرفوا بها أنهم أهل النار تسويد الوجوه وتشويه الخلق، وقال أبو مجلز: الملائكة تنادي رجالاً في النار[٢]، وقال غيره: بل الآدميون ينادون أهل النار، وقيل: إن ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ استفهام بمعنى التقرير والتوبيخ، وقيل: ﴿مَآ﴾ نافية والأول أصوب.

و﴿جَمْعُكُمْ﴾: لفظ يعم جموع الأجناد والخَوَل وجمع المال؛ لأن المراد بالرجال أنهم جبارون ملوك يقرَّرون يوم القيامة على معنى الإهانة والخزي، وما الثانية: مصدرية.

وقرأت فرقة: (تستكثرون) بالثاء مثلثة[٣] من الكثرة.

قوله عز وجل: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ

---

(١) أثر ابن عباس أخرجه الطبري (١٤٧٣٥)، وابن أبي حاتم (٨٥٢٠) من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما به، وجويبر ضعيف جداً، وانظر: تفسير مقاتل (١/ ٣٩٣)، والزهد لابن المبارك (١/ ٤٨٠)، والطبري (١٢/ ٤٦٦ وما بعدها)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٨٨)، ومعاني القرآن (٣/ ٣٩).

(٢) انظر قولي أبي مجلز في تفسير الطبري (١٢/ ٤٦٨)، وانظر تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٨٩).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظرها بلا نسبة في معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٤٣)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٠٨).

لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قال أبو مجلز: أهل الأعراف هم الملائكة وهم القائلون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى أهل الجنة[١].

قال القاضي أبو محمد: وكذلك يجيء قول من قال: أهل الأعراف أنبياء وشهداء.

وقال غيره: أهل الأعراف بشر مذنبون، وقوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ من كلام ملك بأمر الله عز وجل إشارة إلى أهل الأعراف ومخاطبة لأهل النار، وهذا قول ابن عباس[٢].

وقال النقاش: لما وبخوهم بقولهم: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾، أقسم أهل النار أن أهل الأعراف داخلون النار معهم، فنادتهم الملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾، ثم نادت أصحاب الأعراف: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾[٣].

وقال بعض المتأولين: الإشارة بـ(هؤلاء) إلى أهل الجنة، والمخاطبون هم أهل الأعراف والذين خوطبوا هم أهل النار، والمعنى: أهؤلاء الضعفاء في الدنيا الذين حلفتم أن الله لا يعبأ بهم قيل لهم: ادخلوا الجنة، وقد تقدم ما قال النقاش من أن القسم هو في الآخرة على أهل الأعراف.

وقرأ الحسن وابن هرمز: (أدخلوا الجنة) بفتح الألف وكسر الخاء[٤]، معنى: أدخلوا أنفسكم، أو على أن تكون مخاطبة للملائكة ثم ترجع المخاطبة بعد إلى البشر في ﴿عَلَيْكُمْ﴾.

وقرأ عكرمة مولى ابن عباس: (دخلوا الجنة) على الإخبار بفعل ماض، وقرأ

---

(١) تفسير الماوردي (٢/ ٢٢٧).

(٢) هذا القول هو قول أبي مجلز كما في الطبري (١٤٧٤١).

(٣) تفسير البحر المحيط (٥/ ٦٠).

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لهما في البحر المحيط (٥/ ٦٠).

طلحة بن مصرف وابن وثاب والنخعي: (أُدخِلوا الجنة) خبر مبني للمفعول[١].

قال القاضي أبو محمد: وترتيب كل قراءة من هذه على الأقوال في المخاطب والمخاطب بقوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ ممكن بأيسر تناول فاختصرته إيجازاً.

وكذلك ما في الآية من الرجوع من مخاطبة فريق إلى مخاطبة غيره.

وقوله تعالى: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ معناه: لا تخافون ما يأتي ولا تحزنون على ما فات.

وذكر الطبري من طريق حذيفة: أن أهل الأعراف يرغبون في الشفاعة فيأتون آدم فيدفعهم إلى نوح، ثم يتدافعهم الأنبياء عليهم السلام حتى يأتوا محمداً ﷺ فيَشفَع لهم فيُشفَّع فيدخلون الجنة فيلقون في نهر الحياة فيبيَّضون ويسمون مساكين الجنة[٢].

قال سالم مولى أبي حذيفة: ليت أني من أهل الأعراف[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ الآية، لفظة النداء تتضمن أن أهل النار وقع لهم علم بأن أهل الجنة يسمعون نداءهم، وجائز أن يكون ذلك وهم يرونهم بإدراك يجعله الله لهم على بعد السفل من العلو، وجائز أن يكون ذلك وبينهم السور والحجاب المتقدم الذكر، وروي أن ذلك النداء هو عند إطلاع أهل الجنة عليهم.

و﴿أَنۡ﴾ في قوله: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ﴾ مفسِّرة بمعنى «أي»، و«فاض الماء»: إذا سال وانماع، وأفاضه غيره.

وقوله: ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى الطعام قاله السدي[٤]، فيقول لهم أهل الجنة: إن الله حرم طعام الجنة وشرابها على الكافرين.

---

(١) وهما شاذتان، انظرهما في المحتسب (١/ ٢٤٩)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٥٥).

(٢) أخرجه الطبري (١٤٧٤٦) من طريق السدي، عن حذيفة رضي الله عنه، وهو منقطع.

(٣) منقطع، هذا الأثر أخرجه أحمد في الزهد (ص٦٤) من طريق قتادة قال: قال سالم مولى أبي حذيفة، وذكره.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٤٧٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٩١).

قال القاضي أبو محمد: والأشنع على الكافرين في هذه المقالة أن يكون بعضهم يرى بعضاً، فإنه أخزى وأنكى للنفس، وإجابة أهل الجنة بهذا الحكم هو عن أمر الله تعالى.

وذكر الزهراوي: أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة الصدقة[١] بالماء»[٢]، يعني: عند الحاجة إليه إذ هو ألذ مشروب وأنعشها للنفس.

واستسقى الشعبي عند مصعب فقال له: أيَّ الأشربة تحب؟ فقال: أهونها موجوداً وأعزها مفقوداً، فقال له مصعب: يا غلام هات الماء[٣].

---

(١) الصدقة الثانية ساقطة من المطبوع.

(٢) ضعيف، هذا الحديث أخرجه أبو يعلى في مسنده (**٢٦٧٣**)، وابن أبي حاتم في تفسيره (**٨٥٣٣**)، من طريق نصر بن علي، عن موسى بن المغيرة، عن أبي موسى الصفار في دار عمرو بن مسلم قال: سألت ابن عباس أو سئل أيُّ الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة الماء، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله»، وموسى بن المغيرة مجهول هو وشيخه أبو موسى الصفار، وانظر الجرح والتعديل (**٨/ ١٦٣**)، وميزان الاعتدال (**٤/ ٢٢٤**)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (**٣٣٨٠**) من طريق محمد بن أبي بكر المقدمي، عن موسى بن عبد العزيز، عن أبي موسى، عن ابن عباس به، وله شاهد حسن أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (**٣٣٧٩**) من طريق شعبة، عن قتادة، عن الحسن وسعيد بن المسيب أن سعد بن عبادة سأل رسول الله ﷺ إن أمي ماتت أفأتصدق عنها قال: نعم قال: فأي الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء»، أو قال: «اسق الماء» فسقاية أم سعد بالمدينة اليوم، قال شعبة: قلت لقتادة: من الذي قال: سقاية أم سعد؟ قال: الحسن، والحسن البصري، وسعيد بن المسيب لم يدركا سعد بن عبادة ولكن مراسيل ابن المسيب أقوى المراسيل. وانظر: جامع التحصيل (ص٤٧)، وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (**٣٣٧٨**) من طريق داود بن عطاء عن يزيد بن عبد الملك بن المغيرة النوفلي عن أبيه عن يزيد بن خصيفة وعن يزيد بن رومان عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ قال: ليس صدقة أعظم أجر من ماء، وداود بن عطاء المدني ضعيف، ويزيد بن عبد الملك ابن المغيرة بن نوفل بن الحارث القرشي الهاشمي النوفلي ضعيف، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (**٢/ ٣٧٦**) من طريق البيهقي به.

(٣) انظر القصة في الحيوان (**٥/ ٧٦**)، ونثر الدر في المحاضرات (**٧/ ٧٩**)، وفيهما أنها وقعت للشعبي مع قتيبة، بدل مصعب.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ الآية، أضيف «الدين» إليهم من حيث قولهم أن يلتزموه، إذ هو دين الله من حيث أمر به، ودين جميع الناس من حيث أمروا به، ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ يحتمل أن يكون من كلام أهل الجنة، ويكون ابتداء كلام الله من قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾، ويحتمل أن يكون الكلام من أوله من كلام الله عز وجل، ومعنى قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا﴾ أي: بالإعراض والاستهزاء لمن يدعوهم إلى الإسلام، ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: خدعتهم بزخرفها واعتقادهم أنها الغاية القصوى.

ويحتمل أن يكون اللفظ من الغَرّ وهو ملء الفم، أي: أشبعتهم وأبطرتهم، وأما قوله ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ فهو من إخبار الله عز وجل عما يفعل بهم، و«النسيان» في هذه الآية: هو بمعنى الترك، أي: نتركهم في العذاب كما تركوا النظر للقاء هذا اليوم، قاله ابن عباس وجماعة من المفسرين[١]، قال قتادة: نسوا من الخير ولم يُنسوا من الشر[٢]، وإن قدر النسيان بمعنى الذهول من الكفرة فهو في جهة ذكر الله تسمية العقوبة باسم الذنب.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ﴾ عطف على (ما) من قوله: ﴿كَمَا نَسُواْ﴾ ويحتمل أن تقدر (ما) الثانية زائدة ويكون قوله / : (وكانوا) عطفاً على قوله: ﴿نَسُواْ﴾. [٢/ ١٤٤]

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ﴾ الآية، ذُكر الإعذار إليهم إثر ذكر ما يفعل بهم، واللام في قوله: ﴿وَلَقَدۡ﴾ لام قسم، والضمير في ﴿جِئۡنَٰهُم﴾ لمن تقدم ذكره.

وقال يحيى بن سلام[٣]: تم الكلام في ﴿يَجۡحَدُونَ﴾، وهذا الضمير لمكذبي محمد ﷺ ابتداء كلام آخر، والمراد بالكتاب القرآن العزيز.

---

(١) أثر ابن عباس أخرجه الطبري (١٤٧٥٨)، وابن أبي حاتم (٨٥٤٣) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر: تفسير مقاتل (١/ ٢٣٨)، وعبد الرزاق (٢/ ٢٣٠)، والطبري (١٢/ ٤٧٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٩٢).

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ٣٣٩).

(٣) هو يحيى بن سلام البصري، روى عن: فطر بن خليفة، وشعبة، والمسعودي، وابن أبي عروبة، والثوري، وعنه: بحر بن نصر، ومحمد ابن عبد الحكم، قال أبو حاتم: صدوق، توفي في صفر سنة (٢٠٠هـ). تاريخ الإسلام (١٣/ ٤٧٤)، وهذا الموضع من تفسيره لم يطبع.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أن يكون اسم جنس في جميع الكتب المنزلة على تأويل من يرى الضمير في ﴿جِئْنَٰهُم﴾ لمن تقدم ذكره.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ من تفصيل الآيات وتبيينها.

وقرأ ابن محيصن: (فضَّلناه) بضاد منقوطة[(١)].

و﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ معناه: عن بصيرة واستحقاق لذلك.

وقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ مصدران في موضع الحال.

قوله عز وجل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿يَنظُرُونَ﴾: معناه ينتظرون.

والتأويل في هذا الموضع بمعنى المآل والعاقبة، قاله قتادة ومجاهد وغيرهما[(٢)].

وقال ابن عباس: ﴿تَأْوِيلَهُۥ﴾: مآله يوم القيامة[(٣)].

وقال السدي: ذلك في الدنيا وقعة بدر وغيرها، ويوم القيامة أيضاً[(٤)].

والمراد: هل ينتظر هؤلاء الكفار إلا مآل الحال في هذا الدين وما دعوا إليه وما صدوهم عنه وهم يعتقدون مآله جميلاً لهم؟ فأخبر الله عز وجل أن مآله يوم يأتي يقع

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٤٩)، والكشاف للزمخشري (٢/ ١٠٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص: ٢٨٤).

(٢) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٣٠)، وتفسير الطبري (١٢/ ٤٧٨-٤٧٩).

(٣) أخرجه الطبري (١٤٧٦٧)، وابن أبي حاتم (٨٥٥٩) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنه به.

(٤) تفسير الطبري (١٢/ ٤٧٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٩٤).

معه ندمهم، ويقولون تأسفا على ما فاتهم من الإيمان: لقد صدقت الرسل وجاءوا بالحق، فالتأويل على هذا مأخوذ من آل يؤول.

وقال الخطابي(١): أولت الشيء: رددته إلى أوله، فاللفظة مأخوذة من الأوَّل، حكاه النقاش(٢).

قال القاضي أبو محمد: وقد قيل: أولت معناه: طلبت أول الوجوه والمعاني.

و﴿نَسُوهُ﴾ في الآية يحسن أن يكون النسيان من أول الآية بمعنى الترك، ويقرُّون بالحق ويستفهمون عن وجوه الخلاص في وقتٍ لا مستعتب لهم فيه.

وقرأت فرقة: ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ برفع الفعل على تقدير: أو هل نرد، وبنصب ﴿فَنَعْمَلَ﴾ في جواب هذا الاستفهام الأخير.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: (أو نردُّ فنعملُ) بالرفع فيهما، على عطف (فنعملُ)، وقرأ ابن أبي إسحاق وأبو حيوة: (أو نردَّ فنعملَ) بنصبهما(٣).

ونصب (نرد) في هذه القراءة إما على العطف على قوله: ﴿فَيَشْفَعُواْ﴾، وإما بما حكاه الفراء من أن «أو» تكون بمعنى «حتى» كنحو قول امرئ القيس:

....أَوْ نَمُوتَ فنُعْذَرَا(٤) [الكامل]

---

(١) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم أبو سليمان الخطابي البستيّ كان يشبه بأبي عبيد القاسم بن سلام علماً وأدباً، وزهداً وورعاً، وتدريساً وتأليفاً، ومن كتبه: غريب الحديث، ومعالم السّنن في شرح سنن أبي داود، وأعلام السّنن في شرح البخاري، توفي في حدود سنة (٤٠٠هـ). إنباه الرواة (١/ ١٦٠)، واختلف في اسمه والصواب: «حَمْد» كما في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٦).

(٢) تفسير البحر المحيط (٥/ ٦٣).

(٣) القراءة بالرفع فالنصب قراءة الجمهور وهي المتواترة، والقراءتان برفعهما ونصبهما شاذتان، انظر عزوهما في مختصر الشواذ (ص: ٤٩)، والمحتسب (١/ ٢٥١)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٥٦)، إلا أبا حيوة فلم أجده إلا في البحر المحيط (٥/ ٦٣).

(٤) معاني القرآن للفراء (٢/ ٧١)، وهذا جزء من عجز بيت تمامه:

فَقُلْتُ لَهُ: لا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا نُحَاوِلُ مُلْكاً أو نَمُوتَ فنُعْذَرَا =

ويجيء المعنى: أن الشفاعة تكون في أن يردوا، ثم أخبر تعالى عن خسارتهم أنفسهم واضمحلال افترائهم على الله وكذبهم في جعل الأصنام آلهة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآية، خطاب عامٌّ يقتضي التوحيد والحجة عليه بدلائله، والرب أصله في اللغة المصلح، من رَبَّ يَرُبُّ، وهو يجمع في جهة ذكر الله تعالى: المالك والسيد وغير ذلك من استعمالات العرب، ولا يقال: الرب معرفاً إلا لله، وإنما يقال في البشر بإضافة.

وروى بكار بن الشقير: (إن ربكم اللهَ) بنصب الهاء[1].

وقوله: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ حكى الطبري عن مجاهد أن اليوم كألف سنة[2]، وهذا كله والساعة اليسيرة سواءٌ في قدرة الله تعالى، وأما وجه الحكمة في ذلك فمما انفرد الله عز وجل بعلمه كسائر أحوال الشرائع، وما ذهب إليه من أراد أن يوجِّهَ هذا كالمهدوي وغيره تخرُّصٌ[3].

وجاء في التفسير وفي الأحاديث: أن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد وكملت المخلوقات يوم الجمعة، ثم بقي دون خلق يوم السبت[4]، ومن ذلك اختارته اليهود لراحتها.

= انظر عزوه له في الجمل في النحو (١/ ١٣٨) الكتاب لسيبويه (٣/ ٤٧)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٥٦)، والمقتضب (٢/ ٢٨).

(١) وهي قراءة شاذة، عزاها في مختصر الشواذ (ص: ٤٩)، والشواذ للكرماني (ص: ١٨٨) لبعض المدنيين، ولبكار غير منسوب في البحر المحيط (٥/ ٦٤)، في الحمزوية: «بن سفين»، وفي نور العثمانية: «بن الصغير»، ولم أجد له ذكراً في القراء المعروفين، وفي الرواة بكار بن سقير قال في المؤتلف والمختلف (٣/ ١١٧٢): بصري، صالح الحديث، يروي عن أبيه.

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٤٨٢).

(٣) التحصيل للمهدوي (٣/ ٤٤).

(٤) ضعيف، أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٨٢) عن هناد بن السري، وأبو الشيخ في العظمة (٨٨٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٣)، ومن طريق هناد بن السري، عن أبي بكر بن عياش، عن أبي سعد البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السماوات والأرض، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين، وخلق =

وعلى هذا توالت تفاسير الطبري وغيره، ولليهود لعنهم الله تعالى في هذا كلامُ سوءٍ، تعالى الله عما يصفون.

ووقع حديث في كتاب مسلم بن الحجاج وكتاب «الدلائل» لثابت السَّرَقُسْطي، أن الله تعالى خلق التربة يوم السبت، وذكره مكي في «الهداية»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ معناه عند أبي المعالي وغيره من حذاق المتكلمين: بالملك والسلطان، وخص العرش بالذكر تشريفاً له، إذ هو أعظم المخلوقات، وقال سفيان الثوري: فَعَل فعلاً في العرش سماه استواء[(٢)].

قال القاضي أبو محمد: والْعَرْش مخلوق معين جسم مَّا[(٣)]، هذا الذي قررته

= الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، فهذه أربعة:
﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ لمن سأل»، قال: «وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه، فخلق في أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال، حين يموت من مات، وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس، وفي الثالثة آدم، وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها في آخر ساعة». ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: «ثم استوى على العرش». قالوا: قد أصبت لو أتممت! قالوا: ثم استراح. فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً، فنزل: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، وهذا إسناد ضعيف؛ من أجل أبي سعد، وهو سعيد بن المرزبان أبو سعد البقال الأعور مولى حذيفة بن اليمان فإنه مجمع على ضعفه، وانظر: الجرح والتعديل (٤/ ٦٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وليس في المطبوع من كتاب الدلائل، وانظر الهداية لمكي (٤/ ٢٤٠٣).

(٢) انظر قول أبي المعالي في: أقاويل الثقات (١/ ٩٠٩١)، وقول سفيان فيه (١/ ١٢٧)، وقد تقدم التعليق عليه في سورة البقرة.

(٣) «ما» ساقطة من السليمانية وفيض الله.

الشريعة، وبلغني عن أبي الفضيل بن النحوي أنه قال: العرش مصدر عرَش يعرُش عَرْشاً[١]، والمراد بقوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ هذا.

قال القاضي أبو محمد: وهذا خروج كثير عن ما فهم من العرش[٢] في غير ما حديث عن النبي ﷺ.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر: ﴿يُغْشِى﴾ من أغشى، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي: ﴿يُغشِّي﴾ بالتشديد[٣] من غشّى، وهما طريقان في تعدية (غشي) إلى مفعول ثان.

وقرأ حميد: (يغشَى) بفتح الياء والشين ونصب (الليلَ) ورفع (النهار)، كذا [قال أبو الفتح، و][٤]، قال أبو عمرو الداني: برفع (الليل) ونصب (النهار)[٥].

قال القاضي أبو محمد: وأبو الفتح أثبت.

و﴿حَثِيثًا﴾: معناه: سريعاً، و﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ حال من ﴿ٱلَّيْلَ﴾ بحسب اللفظ أشبه[٦] على قراءة الجماعة، ومن ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ بحسب المعنى، وأما على قراءة حميد فمن النهار في الوجهين جميعاً[٧].

ويحتمل أن يكون حالاً منهما، ومثله قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾[مريم: ٢٧]،

---

(١) نقله عنه أبو حيان في البحر المحيط (٥/ ٦٥)، وفيه: «أبي الفضل» وهو الصواب، واسمه: يوسف بن محمد بن يوسف التَّوزي الأصل، التلمساني، انظر: بغية الوعاة (٢/ ٣٦٢)، والأعلام (٨/ ٢٤٧).

(٢) في السليمانية وفيض الله ولالاليه: «من الشرع».

(٣) وهما سبعيتان، انظر: التيسير للداني (ص: ١١٠)، والسبعة لابن مجاهد (ص: ٢٨٢)، وحفص كنافع ومن معه.

(٤) ساقط من الأصل.

(٥) وهي شاذة انظر رواية ابن جني في المحتسب (١/ ٢٥٣)، ومثله في الكشاف (٢/ ١٠٩)، وقول الداني في البحر المحيط (٥/ ٦٦).

(٦) زيادة من السليمانية وفيض الله.

(٧) زيادة من السليمانية وفيض الله.

فيصح أن يكون ﴿تَحۡمِلُهُۥ﴾ حالاً منها، وأن يكون حالاً منه وأن يكون حالاً منهما.

و﴿مُسَخَّرَٰتِۭ﴾: في موضع الحال.

وقرأ ابن عامر وحده من السبعة: ﴿والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ﴾ بالرفع في جميعها، ونصب الباقون هذه الحروف كلها[١].

وقرأ أبان بن تغلب: (والشمسَ والقمرَ) بالنصب، و(النجومُ مسخراتٌ) بالرفع[٢].

و﴿أَلَا﴾: استفتاح كلام، فاستفتح بها في هذا الموضع هذا الخبر / الصادق المرشد. [٢/ ١٤٥]

قال القاضي أبو محمد: وأخذ المفسرون ﴿ٱلۡخَلۡقُ﴾ بمعنى المخلوقات، أي: هي له كلها وملكه واختراعه، وأخذوا (الأمر) مصدراً من أمر يأمر، وعلى هذا قال النقاش وغيره: إن الآية ترد على القائلين بخلق القرآن؛ لأنه فرق فيها بين المخلوقات وبين الكلام إذ الأمر كلامه عز وجل[٣].

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أن تؤخذ لفظة الْخَلْقِ على المصدر من خلق يخلق خلقاً، أي: له هذه الصفة إذ هو الموجِد للأشياء بعد العدم، ويؤخذ الْأَمْرُ على أنه واحد الأمور إلا أنه يدل على الجنس، فيكون بمنزلة قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]، وبمنزلة قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠] فإذا أخذت اللفظتان هكذا خرجتا عن مسألة الكلام.

قال القاضي أبو محمد: ولما تقدم في الآية ﴿خَلَقَ﴾ و﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ تأكد في آخرها أن لَهُ الْخَلْق وَالْأَمْر المصدرين حسب تقدمهما، وكيفما تأولْتَ الآية فالجميع لله، وأسند الطبري إلى النبي ﷺ أنه قال: «من زعم أن الله تعالى جعل لأحد من العباد شيئاً من الأمر فقد كفر بما أنزل الله، لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾»[٤].

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسير للداني (ص: ١١٠).

(٢) وهي قراءة شاذة، انظرها في الكامل للهذلي (ص: ٥٥٣).

(٣) انظر: البحر المحيط (٥/ ٦٨).

(٤) ضعيف. أخرجه الطبري (١٢/ ٤٨٤) من طريق بقية بن الوليد، عن عبد الغفار بن عبد العزيز =

قال النقاش: ذكر الله الإنسان في القرآن في ثمانية عشر موضعاً، في جميعها أنه مخلوق، وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعاً ليس في واحد منها إشارة إلى أنه مخلوق[١].

وقال الشعبي: ﴿ٱلْخَلْقُ﴾ عبارة عن الدنيا، ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ عبارة عن الآخرة[٢].

و﴿تَبَارَكَ﴾: معناه عظم وتعالى وكثرت بركاته، ولا يوصف بها إلا الله تعالى، و«تَبارَكَ» لا يتصرف في كلام العرب، لا يقال منه: يتبارك، وهذا منصوص عليه لأهل اللسان.

قال القاضي أبو محمد: وعلة ذلك أن «تَبارَكَ» لما لم يوصف بها غير الله تعالى لم تقتض مستقبلاً، إذ الله قد تبارك في الأزل.

وقد غلط بها[٣] أبو علي القالي[٤] فقيل له: كيف المستقبل من تبارك؟ فقال: يتبارك، فوُقف على أن العرب لم تقله[٥].

و«الرب»: السيد المصلح، و﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ جمع عالم.

= الأنصاري، عن عبد العزيز الشامي، عن أبيه، وكانت له صحبة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه، قلَّ شكره، وحَبِط عمله. ومَنْ زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه، لقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وعبد الغفار بن عبد العزيز الأنصاري الذي في هذا السند هكذا جاء عند ابن جرير الطبري، وهكذا نقله الحافظ في: الإصابة، وهكذا نقله ابن كثير في تفسيره، ولكن الذي جاء في كتب الرجال والأسانيد التي نقلها ابن حجر في مواضع أخرى من الإصابة أنه عبد الغفور بن عبد العزيز أبو الصباح الواسطي وهو ضعيف الحديث، وانظر: الجرح والتعديل (٦/ ٥٥)، وميزان الاعتدال (٢/ ٦٤١).

(١) لم أقف عليه.

(٢) تفسير البحر المحيط (٥/ ٦٨).

(٣) في السليمانية: في هذا، وفي فيض الله: «بهذا».

(٤) في السليمانية وفيض الله: «الفارسي».

(٥) لم أقف على كلامه وقد نص على عدم جواز «يتبارك»: أبو شامة في إبراز المعاني (١/ ٢)، وتفسير روح البيان (١٠/ ٥٥).

قوله عز وجل: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦﴾.

هذا أمر بالدعاء وتعبد به، ثم قرن عز وجل بالأمر به صفات تحسُن معه.

وقوله: ﴿تَضَرُّعٗا﴾ معناه: بخشوع واستكانة، والتضرع لفظة تقتضي الجهر؛ لأن التضرع إنما يكون بإشارات جوارح وهيئات أعضاء تقترن بالطلب.

و(خفيةً): يريد في النفس خاصة، وقد أثنى الله عز وجل على ذلك في قوله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣] ونحو هذا قول النبي ﷺ: «خير الذكر الخفي»[١]، والشريعة مقررة أن السر فيما لم يفترض[٢] من أعمال البر أعظم أجراً من الجهر.

وتأول بعض العلماء التضرع والخفية في معنى السر جميعاً، فكأن التضرع فعل للقلب، ذكر هذا المعنى الحسن بن أبي الحسن، وقال: لقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض عمل يقدرون أن يكون سرّاً فيكونَ جهراً أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون

---

(١) ضعيف، هذا الحديث أخرجه مسدد في مسنده كما في إتحاف الخيرة المهرة (٦/ ٣٨٨)، وعبد بن حميد في مسنده (١٣٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٢٧٩، ٣٥٥١٨)، ووكيع في الزهد (١١٤، ٣٣٣)، وأحمد (١/ ١٧٢، ١٨٠، ١٨٧)، وأبو يعلى في مسنده (٧٣١)، وابن حبان في صحيحه (٨٠٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٣٦٩) وغيرهم من طريق أسامة بن زيد، الليثي، عن محمد ابن عبد الرحمن بن لبيبة، عن سعد بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي»، وهذا إسناد ضعيف؛ فيه محمد بن عبد الرحمن بن لبيبة، ويقال ابن أبي لبيبة: وردان وهو ضعيف، وقد اختلف على أسامة بن زيد، فرواه عنه جماعة، عن محمد بن عبد الرحمن بن لبيبة عن سعد بن مالك به، كما تقدم، وخالفهم ابن المبارك فرواه عن أسامة بن زيد، قال: أخبرني محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، أن محمد بن عبد الرحمان بن أَبي لَبيبة أخبره.. فذكره، أخرجه أحمد في مسنده (١/ ١٧٢، ١٨٠) والطبراني في الدعاء (١٨٨٣) وفي رواية الطبراني أن محمد بن عبد الرحمن بن لبيبة أخبره أن عمر بن سعد أخبره أنه سمع أباه يقول...

(٢) في المطبوع والحمزوية: «يعترض».

في الدعاء فلا يسمع لهم صوت، إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾، وذكر عبداً صالحاً رضي فعلَه فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾[١].

وقال الزجاج: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾: معناه: اعبدوا ربكم، ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ أي: باستكانة واعتقاد ذلك في القلوب[٢].

وقرأ جميع السبعة: ﴿وَخُفۡيَةً﴾ بضم الخاء.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر هنا وفي الأنعام: ﴿وخِفية﴾ بكسرها[٣]، وهما لغتان.

وقد قيل: إن ﴿خِفية﴾ بكسر الخاء بمعنى الخوف والرهبة، ويظهر ذلك من كلام أبي علي[٤].

وقرأت فرقة: (وخِيفة) من الخوف، أي: ادعوه باستكانة وخوف، ذكرها ابن سيده في «المحكم» ولم ينسبها، وقال أبو حاتم: قرأها الأعمش فيما زعموا[٥].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ يريد: في الدعاء وإن كان اللفظ عامّاً، فإلى هذا هي الإشارة، والاعتداء في الدعاء على وجوه:

منها: الجهر الكثير والصياح كما قال رسول الله ﷺ لقوم وقد رفعوا أصواتهم بالتكبير: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً»[٦].

ومنها: أن يدعو الإنسان في أن تكون له منزلة نبي، أو يدعو في محال ونحو هذا من التشطط. ومنها: أن يدعو طالباً معصية وغير ذلك، وفي هذه الأمثلة كفاية.

---

(١) مريم: ٣، وانظر: تفسير الطبري (١٢/ ٤٨٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٠٠).

(٢) معاني القرآن للزجاج (٢/ ٣٤٤).

(٣) وهما سبعيتان. انظر: التيسير للداني (ص: ١١٠).

(٤) انظر: الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٣٠).

(٥) انظر نقل ما ذكر عن ابن سيده وعن أبي حاتم في البحر المحيط (٥/ ٦٩)، وقد تقدم مثلها في الأنعام.

(٦) متفق عليه، أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وقرأ ابن أبي عبلة: (إن الله لا يحب المعتدين)[١].

والمعتدي: هو مجاوز الحد ومرتكب الحظر، وقد يتفاضل بحسب ما اعتدى فيه وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «سيكون أقوام يعتدون في الدعاء، وحسبُ المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل»[٢].

---

(١) تابعه في البحر المحيط (٥/ ٦٩)، وليس هذا بقراءة بل خطأ من قارئه أو سامعه، والله أعلم.

(٢) جيد بشواهده، هذا الحديث أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده كما في إتحاف الخيرة (٦١٧٠)، وفي مصنفه (٣٠٠٢٣)، وأحمد في مسنده (١/ ١٧٢-١٨٣)، وأبو يعلى في مسنده (٧١٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٥٩٥)، والطبراني في الدعاء (٥٥) من طريق شعبة، عن زياد بن مخراق، عن قيس بن عباية أبي نعامة، عن مولى لسعد بن مالك أن ابنا لسعد بن مالك دعا فذكر الجنة، فقال له سعد بن مالك: لقد سألت نعيماً طويلاً، وتعوذت من شر عظيم، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون بعدي قوم يعتدون في الدعاء» وتلا هذه الآية: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ ثم قال: بحسبك أن تقول: اللهم إني أسالك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل، وزياد بن مخراق المزني ثقة، ولكنه لم يقم إسناد هذا الحديث كما قال أحمد، واضطرب فيه فقد رواه عن قيس بن عباية، عن مولى لسعد كما سلف، وتارة يرويه عن قيس بن عباية، عن ابن لسعد، وتارة عن سعد أنه سمع ابناً له، أخرجه مسدد في مسنده كما في إتحاف الخيرة (٦١٧٠)، والطيالسي في مسنده (١٩٧)، وأبو داود (١٤٨٢)، والطبراني في الدعاء (٥٦)، والبيهقي في الدعوات (٢٧٧) من طريق شعبة، عن زياد بن مخراق، عن قيس بن عباية، عن ابن لسعد فذكره، وفي بعض الروايات عن قيس بن عباية أن سعداً سمع ابناً له يقول فذكره، وقد اختلف على أبي نعامة قيس بن عباية، فرواه عنه زياد بن مخراق على الوجه الذي تقدم، وخالفه يزيد بن أبان الرقاشي، وسعيد ابن إياس الجريري، فروياه عن أبي نعامة، عن عبد الله بن مغفل المزني سمع ابنه يقول وذكر الحديث بنحو رواية سعد بن مالك، فأما رواية يزيد الرقاشي فأخرجها عبد بن حميد في مسنده (٥٠٠)، وأحمد (٤/ ٨٦-٨٧)، والطبراني في الدعاء (٥٨)، وأما رواية سعيد الجريري فأخرجها ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٠٢٤)، وأحمد (٥/ ٥٥)، وأبو داود (٩٦)، وابن ماجه (٣٨٦٧)، وابن حبان في صحيحه (٦٧٦٤)، والطبراني في الدعاء (٥٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٣٩)، والبيهقي في الدعوات (٢٧٩)، والخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ١٧٦)، وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أبو داود الطيالسي (١٦٧٤)، وسنده جيد، وله شواهد أخرى ذكرها البوصيري في إتحاف الخيرة (٦٢٠٥).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، ألفاظ عامة تتضمن كل إفساد قلَّ أو كثر، بعد صلاح قل أو كثر، والقصد بالنهي هو على العموم، وتخصيص شيء دون شيء في هذا تحكُّم، إلا أن يقال على جهة المثال.

قال الضحاك: معناه: لا تغوِّروا الماء المعين ولا تقطعوا الشجر المثمر ضراراً[(١)].

وقد ورد قطع الدينار والدرهم من الفساد في الأرض، وقد قيل: تجارة الحكام من الفساد في الأرض، وقال بعض الناس: المراد: ولا تشركوا في الأرض بعد أن أصلحها الله ببعثة الرسل وتقرير الشرائع ووضوح ملة محمد ﷺ، وقائل هذه المقالة قصد إلى أكبر فساد بعد أعظم صلاح فخصه بالذكر.

وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب وتحزُّن وتأميل لله عز وجل، حتى يكون الرجاء والخوف كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامة وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان، وقد قال كثير من العلماء: ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طول الحياة، فإذا جاء الموت غلب الرجاء، وقد رأى كثير من العلماء أن يكون الخوف أغلب على المرء بكثير، وهذا كله طريق احتياط.

ومنه تمني الحسن البصري أن يكون الرجلَ الذي هو آخرُ من يدخل الجنة /[(٢)]. [٢/ ١٤٦]

وتمنى سالم مولى أبي حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف، لأن مذهبه أنهم مذنبون[(٣)].

ثم آنس قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإنها آية وعد فيها تقييدٌ بقوله: ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٢٢٦).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٧٠).

(٣) منقطع، هذا الأثر أخرجه أحمد في الزهد (١/ ٢٠٠)، وابن أبي الدنيا في المتمنين (٢٢) من طريق قتادة، عن سالم مولى أبي حذيفة، وهو منقطع لعدم سماع قتادة من سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه.

واختلف الناس في وجه حذف التاء من ﴿قَرِيبٌ﴾ في صفة الرحمة على أقوال:

منها: أنه على جهة النسب، أي: ذات قرب.

ومنها: أنه لما كان تأنيثها غير حقيقي جرت مجرى كفٍّ خضيبٍ ولحية دَهين.

ومنها: أنها بمعنىً مذكَّر، فذكِّر الوصف لذلك.

واختلف أهل هذا القول في تقدير المذَكَّر الذي هي بدل منه، فقالت فرقة: الغفران والعفو، وقالت فرقة: المطر، وقيل غير ذلك.

وقال الفراء: لفظة القرب إذا استعملت في النسب والقرابة فهي مع المؤنث بتاء ولا بد، وإذا استعملت في قرب المسافة ـ قال القاضي أبو محمد: أو الزمن ـ فقد تجيء مع المؤنث بتاء وقد تجيء بغير تاء، وهذا منه، ومن هذا قول الشاعر:

[الطويل] عَشِيَّةَ لا عَفْرَاءُ مِنْكَ قَرِيبَةٌ ... فَتَدْنُو وَلا عَفْرَاءُ مِنْكَ بَعِيدُ[1]

فجمع في هذا البيت بين الوجهين.

قال القاضي أبو محمد: هذا قول الفراء في كتابه[2]، وقد مر في بعض كتب المفسرين مقيداً، وردَّ الزجّاج على هذا القول[3].

وقال أبو عبيدة: ﴿قَرِيبٌ﴾ في الآية ليس بصفة للرحمة، وإنما هو ظرف لها وموضع، فيجيء هكذا في المؤنث والاثنين والجميع، وكذلك «بعيد»، فإذا جعلوها صفة بمعنى مقرَّبة[4] قالوا: قريبة وقريبتان وقريبات[5].

---

(١) معاني القرآن (٢/ ٥١)، والبيت لعروة بن حزام العذري كما ذكر الفراء، وكما في تفسير الماوردي (٢/ ٢٣٢)، وسمط اللآلي (١/ ١١٤)، وانظر تفصيل قصته في الأغاني (٢٤/ ١٢٩)، وقد نسبه الطبري (١٢/ ٤٨٨)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٤٢)، لابن الورد وهو خطأ واضح، والله أعلم.

(٢) معاني القرآن للفراء (٢/ ٥١).

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٤٥).

(٤) في فيض الله: «مقتربة».

(٥) مجاز القرآن (١/ ٢١٦-٢١٧).

وذكر الطبري أن قوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ إنما يراد به مقاربة الأرواح للأجساد[١]، أي: عند ذلك تنالهم الرحمة.

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

هذه آية اعتبار واستدلال.

وقرأ نافع وأبو عمرو: ﴿الرياح﴾ بالجمع، ﴿نُشُراً﴾ بضم النون والشين، قال أبو حاتم: وهي قراءة الحسن وأبي عبد الرحمن وأبي رجاء، واختلف عنهم، والأعرج، وأبي جعفر وشيبة[٢]، ونافع وأبي عمرو وعيسى بن عمر وأبي يحيى وأبي نوفل الأعرابيين.

وقرأ ابن كثير: ﴿الريح﴾ واحدة، ﴿نُشُراً﴾ بضمهما أيضاً.

وقرأ ابن عامر: ﴿الرياح﴾ جمعاً، ﴿نُشْراً﴾ بضم النون وسكون الشين، [قال أبو حاتم][٣]: ورويت عن الحسن وأبي عبد الرحمن وأبي رجاء وقتادة وأبي عمرو.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿الريح﴾ واحدة، ﴿نَشْراً﴾ بفتح النون وسكون الشين، قال أبو حاتم: وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس وزر بن حبيش وابن وثاب وإبراهيم وطلحة والأعمش ومسروق بن الأجدع، وقال ابن جني: قراءة مسروق: (نَشْراً) بفتح النون والشين[٤].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٤٨٧).

(٢) زيادة من السليمانية وفيض الله ولالاليه.

(٣) من المطبوع وفيض الله ولالاليه ونجيبويه.

(٤) انظر: المحتسب (١/ ٢٥٥)، في المطبوع: «وقرأ ابن جني» بدل «وقال»، وهو خطأ.

وقرأ عاصم: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ جماعة، ﴿بُشۡرَۢا﴾ بالباء المضمومة والشين الساكنة[(١)].

وروي عنه: (بُشُراً) بضم الباء والشين، وقرأ بها ابن عباس والسلمي وابن أبي عبلة.

وقرأ محمد بن السَّمَيفَع وابن قُطيب: (بُشرى)، على وزن فعلى بضم الباء، ورويت عن أبي يحيى وأبي نوفل.

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: (بَشْراً) بفتح الباء وسكون الشين، قال الزهراوي: ورويت هذه عن عاصم[(٢)].

ومن جمع الريح في هذه الآية فهو أسعدُ، وذلك أن الرياح حيث وقعت في القرآن فهي مقترنة بالرحمة، كقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾ [الروم: ٤٥]، وقوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ [الروم: ٤٨].

وأكثر ذكر الريح مفردة إنما هو بقرينة عذاب، كقوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٦]، وقوله: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] نحا هذا المنحى يحيى بن يعمر وأبو عمرو بن العلاء وعاصم، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا هبت الريح يقول: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»[(٣)].

---

(١) هذه أربع قراءات سبعية متواترة، انظرها في التيسير (ص: ١١٠)، وانظر العزو لبعض من ذكر أبو حاتم من غير السبعة في تفسير الثعلبي (٤/ ٢٤٢)، والبحر المحيط (٥/ ٧٦)، والكامل للهذلي (ص: ٥٥٣)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٥٨)، ومختصر الشواذ (ص: ٤٩).

(٢) هذه ثلاث قراءات شاذة بالباء، انظر أكثرها في المحتسب (١/ ٢٥٥)، إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٥٨)، البحر المحيط (٥/ ٧٦).

(٣) ضعيف، أخرجه مسدد في مسنده كما في المطالب العالية (٣٣٧٨)، وأبو يعلى (٢٤٥٦)، والطبراني في الكبير (١١٥٣٣) من طريق الحسين بن قيس، عن عكرمة، عن ابن عباس بلفظ: كان النبي ﷺ إذا ثارت ريح استقبلها وجثا على ركبتيه وقال: «اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا...»، وإسناده ضعيف؛ =

قال القاضي أبو محمد: والمعنى في هذا كله بيِّن، وذلك أن ريح السقيا والمطر إنما هي منتشرة لينة تجيء من هاهنا ومن هاهنا وتتفرق، فيحسن من حيث هي منفصلة الأجزاء متغايرة المهب يسيراً أن يقال لها: رياح، وتوصفَ بالكثرة، وريح الصر والعذاب عاصفة صرصر جسدٌ واحد شديدة الـمَر، مهلكة بقوتها وبما تحمله أحياناً من الصر المحرق، فيحسن من حيث هي شديدة الاتصال أن تسمى ريحاً مفردة، وكذلك أُفردت الريح في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] من حيث جري السفن إنما جرت بريح متصلة كأنها شيء واحد، فأفردت لذلك ووصفت بالطيب إزالة الاشتراك بينها وبين الريح المكروهة، وكذلك ريح سليمان عليه السلام إنما كانت تجري بأمره أو تعصف في قفوله وهي متصلة، وبعد فمن قرأ في هذه الآية: ﴿الريح﴾ بالإفراد، فإنما يريد به اسم الجنس، وأيضا فتقييدها بـ(نشر) يزيل الاشتراك.

و«الإرسال في الريح»: هو بمعنى الإجراء والإطلاق والإسالة، ومنه الحديث: «فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»[1].

والريح تجمع في القليل أرواح وفي الكثير رياح؛ لأن العين من الريح واو انقلبت في الواحد ياء للكسر الذي قبلها، وكذلك في الجمع الكثير، وصحت في القليل لأنه لا شيء فيه يوجب الإعلال.

وأما ﴿نُشُراً﴾ بضم النون والشين، فيحتمل أن يكون جمع ناشر على النسب؛ أي: ذات نشر من الطي، أو نُشور من الحياة، ويحتمل ﴿نُشُراً﴾ أن يكون جمع نَشور بفتح النون وضم الشين، كرسول ورسل وصبور وصبر وشكور وشكر.

= من أجل الحسين بن قيس الرحبي فإنه متروك، وأخرجه الشافعي في مسنده (١/ ٨١) قال أخبرنا من لا أتهم أخبرنا العلاء بن راشد عن عكرمة عن بن عباس به بنحوه. قال الربيع بن سليمان: الشافعي إذا قال: أخبرني من لا أتهم يريد به إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي وإذا قال: أخبرني الثقة، يريد به يحيى بن حسان. اهـ. قلت: وإبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي متروك.

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

ويحتمل ﴿نُشُراً﴾ أن يكون كالمفعول بمعنى منشور، كرَكوب بمعنى مركوب، ويحتمل أن يكون من أبنية اسم الفاعل لأنها تنشر السحاب، وأما مثال الأول في قولنا: ناشر ونشر، فشاهد وشهد ونازل ونزل، كما قال الشاعر / : [٢/ ١٤٧]

[البسيط] .... أَوْ تَنْزِلُونَ فَإِنَّا مَعْشَرٌ نُزُلُ[١]

وقاتِلٌ وقتُلٌ، ومنه قول الأعشى:

[البسيط] .... إِنَّا لأَمْثَالِكُمْ يَا قَوْمَنا قُتُلُ[٢]

وأما من قرأ: ﴿نُشْراً﴾ بضم النون وسكون الشين فإنما خفف الشين من قوله: ﴿نُشُراً﴾.

وأما من قرأ: ﴿نَشْراً﴾ بفتح النون وسكون الشين فهو مصدر في موضع الحال من ﴿الريح﴾، ويحتمل في المعنى أن يراد به من النشر الذي هو خلاف الطيّ كأن الريح مع هبوب نشر، ودون هبوب طيّ[٣]، ويحتمل أن يكون من النشر الذي هو الإحياء، كما قال الأعشى:

[السريع] .... يَا عَجَباً لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ[٤]

وأما من قرأ: (نَشَراً) بفتح النون والشين، وهي قراءة شاذة، فهو اسم وهو على النسب، قال أبو الفتح: أي ذوات نشر[٥]، والنّشر أن تنتشر الغنم بالليل فترعى، فشبه السحاب، في انتشاره وعمومه بذلك.

وأما (بشُراً) بضم الباء والشين فجمع بشير كنذير ونذر، و﴿بُشْرًا﴾ بسكون

---

(١) البيت للأعشى كما تقدم في تفسير الآية (١٠١) من سورة النساء.

(٢) صدر البيت: كَلا زَعَمْتُمْ بِأَنَّا لا نُقَاتِلُكُمْ، وهو كالذي قبله من معلقته انظر عزوه له في شرح المعلقات التسع (ص: ٣٥)، والحجة للقراء السبعة (٤/ ٣٧)، والمخصص (٢/ ٤١٨)، وتهذيب اللغة (٣/ ٤٠٨).

(٣) هكذا في السليمانية وهامش فيض الله مصححاً، وهو ساقط من لالاليه والحمزوية ونور العثمانية، وفي الأصل ونجيبويه: «كأن بقاء الريح دون هبوب طيّ»، وفي المطبوع: «كل بقاء الريح بدون هبوب طيّ».

(٤) تقدم في تفسير الآية (٢٥٩) من سورة البقرة.

(٥) في المحتسب (١/ ٢٥٦).

الشين مخفف منه و(بَشْراً) بفتح الباء وسكون الشين مصدر، و(بُشرى) مصدر أيضاً في موضع الحال.

و«الرحمة» في هذه الآية المطر، و﴿ بَيْنَ يَدَىْ ﴾: أي: أمام رحمته وقدامها، وهي هنا استعارة، وهي حقيقة فيما بين يدي الإنسان من الأجرام.

و﴿أَقَلَّتْ ﴾ معناه: رفعت من الأرض واستقلت بها، ومنه: المُقِلَّة[1]، وكأن المقل يرد ما رفع قليلاً إذا قدر عليه.

و﴿ثِقَالًا ﴾ معناه: من الماء، والعرب تصف السحاب بالثقل والدلح، ومنه قول قيس بن الخطيم:

بأحسنَ منها ولا مُزنةٌ دَلوحٌ تكشَّفُ أَدْجانُها[2] [المتقارب]

والريح تسوق السحاب من ورائها، فهو سوقٌ حقيقةً.

والضمير في ﴿سُقْنَٰهُ ﴾ عائد على السحاب، واستند الفعل إلى ضمير اسم الله تعالى من حيث هو إنعام، وصفة البلد بالموت استعارة بسبب سعته وجدوبته وتصويح نباته.

وقرأ أبو عمرو وعاصم والأعمش: ﴿لبلدٍ ميْتٍ﴾ بسكون الياء وشدها الباقون[3].

والضمير في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ يحتمل أن يعود على السحاب أي منه، ويحتمل أن يعود على البلد، ويحتمل أن يعود على الماء وهو أظهرها، وقال السدي في تفسير هذه الآية: إن الله تعالى يرسل الرياح فتأتي بالسحاب من بين الخافقين طرف السماء والأرض حيث يلتقيان فتخرجه من ثم، ثم تنشره فتبسطه في السماء ثم تفتح أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب ثم تمطر السحاب بعد ذلك[4].

---

(١) في المطبوع: «القلة».

(٢) تقدمت نسبته له في الآية (١٩) من سورة البقرة.

(٣) وهما سبعيتان، لكن العزو غير دقيق، فالأولى لابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وشعبة، والثانية للباقين، انظر: التيسير (ص: ٨٧).

(٤) تفسير الطبري (١٢/ ٤٩٣).

قال القاضي أبو محمد: وهذا التفصيل لم يثبت عن النبي ﷺ.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ يحتمل مقصدين، أحدهما: أن يراد كهذه القدرة العظيمة في إنزال الماء وإخراج الثمرات به من الأرض المجدبة هي القدرة على إحياء الموتى من الأجداث، وهذه مثال لها، ويحتمل أن يراد أن هكذا يصنع بالأموات من نزول المطر عليهم حتى يحيوا به، فيكون الكلام خبراً لا مَثَلاً.

وهذا التأويل إنما يستند إلى الحديث الذي ذكره الطبري عن أبي هريرة: «أن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى مطر عليهم مطر من ماء تحت العرش يقال له ماء الحيوان أربعين سنة، فينبتون كما ينبت الزرع، فإذا كملت أجسادهم نفخ فيهم الروح، ثم تلقى عليهم نومة فينامون، فإذا نفخ في الصور الثانيةَ قاموا وهم يجدون طعم النوم، فيقولون: ﴿يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾، فيناديهم المنادي: ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾»[١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ آية متمِّمة للمعنى الأول في الآية قبلها معرِّفة بعادة الله تعالى في إنبات الأرضين، فمن أراد أن يجعلها مثالاً لقلب المؤمن وقلب الكافر فذلك كله مرتب، لكن ألفاظ الآية لا تقتضي أن المثال قصد بذلك، والتمثيل بذلك حكاه الطبري عن ابن عباس[٢] ومجاهد وقتادة والسدي[٣]، وقال النحاس: هو مثال للفهيم وللبليد[٤].

و﴿ٱلطَّيِّبُ﴾: هو الجيد التراب الكريم الأرض، وخص بإذن ربه مدحاً وتشريفاً،

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٤٩٣-٤٩٤)، برقم (١٤٧٨٤) بدون إسناد.

(٢) أخرجه الطبري (١٤٧٨٦)، وابن أبي حاتم (٨٦١٥) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، بلفظ: فهذا مثل ضربه الله للمؤمن، يقول: هو طيب، وعمله طيب، كما البلد الطيب ثمره طيب، ثم ضرب مثل الكافر كالبلدة السبخة المالحة التي يخرج منها النز، فالكافر هو الخبيث، وعمله خبيث.

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٤٩٦-٤٩٧).

(٤) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٥٨).

وهذا كما تقول لمن تغض منه: أنت كما شاء الله، فهي عبارة تعطي مبالغة في مدح أو ذم، ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥] على بعض التأويلات، والخبيث هو السباخ ونحوها من رديء الأرض.

وقرأ ابن أبي عبلة وأبو حيوة وعيسى بن عمر: (يخرج نباته) بضم الياء وكسر الراء ونصب التاء[١]، والنكِد: العسير القليل، ومنه قول الشاعر:

لا تُنْجِزُ الوعْدَ إنْ وَعَدْتَ وإن ... أَعْطَيْتَ أَعْطَيْتَ تَافِهاً نَكِدَا[٢] [المنسرح]

ونكد الرجل: إذا سأل إلحافاً وأخجل، ومنه قول الشاعر:

وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَهُ طَيِّباً ... لا خَيْرَ فِي المَنْكُودِ والنَّاكِدِ[٣] [السريع]

وقرأ جمهور الناس وجميع السبعة: ﴿نَكِدًا﴾ بفتح النون وكسر الكاف، وقرأ طلحة بن مصرف: (نَكْداً) بتخفيف الكاف وفتح النون[٤].

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿نَكَدا﴾ بفتح النون والكاف[٥].

وقال الزجّاج: وهي قراءة أهل المدينة[٦].

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾: أي: هكذا نبين الأمور.

و﴿يَشْكُرُونَ﴾ معناه: يؤمنون ويثنون بآلاء الله.

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٥٨)، ومختصر الشواذ (ص/ ٤٩)، والكامل للهذلي (ص: ٥٥٣).

(٢) البيت في مجاز القرآن (١/ ٢١٧) وتفسير الطبري (١٢/ ٤٩٥) بلا نسبة.

(٣) البيت من قصيدة لأعشى همدان مطلعُها:

هل تعرف الدارَ عفا رسمُها ... بالْحَضْرِ فالروضةِ من آمِدِ

كما في الأغاني (٦/ ٥٥).

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٠).

(٥) وهي قراءة عشرية، انظر: النشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

(٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٤٦).

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

اللام لام القسم، قال الطبري: أقسم الله تعالى أنه أرسل نوحاً[١]، وقالت فرقة من المفسرين: سمي نوحاً لأنه كان ينوح على نفسه[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف.

قال سيبويه: نوح ولوط وهود أسماء أعجمية إلا أنها خفيفة[٣] فلذلك صرفت[٤].

وهذه نذارة من نوح لقومه، دعاهم إلى عبادة الله وحده ورفض آلهتهم المسماة ودّاً وسواعاً ويغوث ويعوق، وغيرها مما لم يشتهر.

وقرأ الكسائي وحده: ﴿غيرِه﴾ بالكسر من الراء، على النعت لـ﴿إِلَٰهٍ﴾، وهي قراءة يحيى بن وثاب والأعمش وأبي جعفر.

وقرأ الباقون: ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ بالرفع[٥].

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿هل من خالق غيرِ الله﴾ [فاطر: ٣] خفضاً، وقرأ الباقون: ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ / رفعاً[٦]. [٢/ ١٤٨]

---

(١) انظر: الطبري (١٢/ ٤٩٨).
(٢) انظر: تفسير الماوردي (٦/ ٩٨).
(٣) تحرفت في المطبوع والحمزوية ولالاليه إلى: «حقيقة».
(٤) لفظه في الكتاب (٣/ ٢٣٥): وأما نوحٌ وهودٌ ولوطٌ فتنصرف على كل حال لخفتها.
(٥) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٠)، النشر لابن الجزري (٢/ ٣٠٤)، وانظر إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٥٩).
(٦) وهما سبعيتان، انظر: التيسير للداني (ص: ١٨٢)، والسبعة لابن مجاهد (ص: ٢٨٤).

والرفع في قراءة الجماعة هنا هو على البدل من قوله: ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ لأن موضع قوله: ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ رفع، وهو الذي رجح الفارسي[١]، ويجوز أن يكون نعتاً على الموضع لأن التقدير: ما لكم إلهٌ غيره، أو يقدر (غير) بـ«إلا» فيعرب بإعراب ما يقع بعد «إلا».

وقرأ عيسى بن عمر: (غيره) بنصب الراء[٢] على الاستثناء، قال أبو حاتم: وذلك ضعيف من أجل النفي المتقدم.

وقوله: ﴿عَذَابَ﴾؛ يحتمل أن يريد به عذاب الدنيا، ويحتمل أن يريد به عذاب الآخرة.

و﴿ٱلْمَلَأُ﴾: الجماعة الشريفة، قال الطبري: لا امرأة فيهم[٣]، وحكاه النقاش عن ثعلب في الملأ والرهط والنفر والقوم[٤]، وقيل: هم مأخوذون من أنهم يملؤون النفس والعين، ويحتمل أن يكون من أنهم إذا تمالؤوا على أمرٍ تم.

وقال سلمة بن سلامة بن وَقْش الأنصاري عند قفول رسول الله ﷺ من غزوة بدر: إنما قتلنا عجائز صلعاً، فقال له النبي ﷺ: «أولئك الملأ من قريش لو حضرت أفعالهم لاحتقرت فعلك»[٥].

والملأ: صفة غالبة وجمعه: أملاء[٦]، وليس من باب رهط وإن كانا اسمين

---

(١) في الحجة (٤/ ٤٠).

(٢) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٠)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٥٩)، وتضعيف أبي حاتم لم أقف عليه.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٥٠٠).

(٤) مثله عن ثعلب في خزانة الأدب (٧/ ٢٩٢)، وتفسير النقاش غير متوفر.

(٥) أورده ابن هشام في السيرة (١/ ٦٤٣-٦٤٤) عن ابن إسحاق قال: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، ويزيد بن رومان لما ارتحل رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين، فقال لهم سلمة بن سلامة ما الذي تهنئوننا به؟ فو الله إن لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن المعقلة، فنحرناها، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: أي ابن أخي، أولئك الملأ.

(٦) كتبت في الأصل: «الملأ»، وفي نجيبويه: «الملاء».

للجمع؛ لأن رهط لا واحد له من لفظه، و«ملأ» يوجد من لفظه: مالئ، قال أحمد بن يحيى: المالئ الرجل الجليل الذي يملأ العين بجهرته[١]، فيجيء كعازب وخادم ورائح، فإن أسماء جموعها عزب وخدم وروح، وإن كانت اللفظة من تمالأ القوم على كذا فهي مفارقة باب رهط، ومنه قول علي رضي الله عنه: ما قتلتُ عثمان ولا مالأت في دمه[٢].

[وقرأ ابن عامر][٣]: (المَلَوُ) بواو وكذلك هي في مصاحف الشام[٤].

وقولهم: ﴿لَنَرَىٰكَ﴾ يحتمل أن يجعل من رؤية البصر، ويحتمل من رؤية القلب وهو الأظهر و﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: في إتلاف وجهالة بما تسلك.

وقوله لهم جواباً عن هذا: ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ مبالغة في حسن الأدب والإعراض عن الجفاء منهم، وتناولٌ رفيق وسعة صدر حسبما يقتضيه خلق النبوة.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ﴾ تعرض لمن يريد النظر والبحث والتأمل في المعجزة.

قال القاضي أبو محمد: ونقدِّر ولا بد أن نوحاً عليه السلام وكلَّ نبي مبعوث إلى الخلق كانت له معجزة تخرق العادة، فمنهم من عرِّفنا بمعجزته ومنهم من لم نعرف.

وقرأ السبعة سوى أبي عمرو: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بشد اللام وفتح الباء، [وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿أبْلِغكم﴾][٥] بسكون الباء وتخفيف اللام[٦].

---

(١) نقله ابن سيده في المحكم (١٠/ ٤١٥)، وفي نجيبويه: «بجهدته».

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٩٧٢) من طريق طاوس، عن ابن عباس، عن علي رضي الله عنه. وإسناده صحيح.

(٣) في المطبوع: «وقال ابن عباس»، وفي نجيبويه: «وقرأ ابن عباس».

(٤) انظر رسمها في المقنع (ص: ٦٢)، وفي البحر المحيط (٥/ ٨٢): «قال ابن عطية: قرأ ابن عامر الملو بالواو، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام. اهـ، وليس مشهوراً عن ابن عامر، بل قراءته كقراءة باقي السبعة بهمزة»، والظاهر أنه التبس عليه بما سيأتي في قصة صالح.

(٥) يراجع في الأصل.

(٦) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٠)، والسبعة لابن مجاهد (ص: ٢٨٤).

وقوله عليه السلام: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وإن كان لفظاً عامّاً في كل ما علمه، فالمقصود منه هنا المعلومات الـمَخُوفات عليهم، لا سيما وهم لم يسمعوا قط بأمة عذبت، فاللفظ مضمن الوعيد.

قوله عز وجل: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾.

هذه ألف استفهام دخلت على الواو العاطفة، والاستفهام هنا بمعنى التقرير والتوبيخ، وعجبهم الذي وقع إنما كان على جهة الاستبعاد والاستمحال، هذا هو الظاهر من قصتهم.

وقوله: ﴿عَلَىٰ﴾؛ قيل: هي بمعنى «مع»، وقيل: هو على حذف مضاف تقديره: على لسان رجل منكم.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أن يكون المجيء بنفسه في هذا الموضع يصل بـ﴿عَلَىٰ﴾ إذ كل ما يأتي من الله تعالى فله حكم النزول، فكأن ﴿جَآءَكُمْ﴾ معناه: نزل، فحسُن معه أن يقال: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾.

واللام في ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ لام «كي»، وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ ترجّ بحسب حال نوح ومعتقده؛ لأن هذا الخبر إنما هو من تلقاء نوح عليه السلام.

وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الآية، أخبر الله عنهم أنهم بعد تلطفه بهم كذبوه فأنجاه الله والمؤمنين به في السفينة وهي الفلك.

و﴿ٱلْفُلْكِ﴾ [لفظ واحد][1] للجمع والمفرد، وليس على حدِّ جنبٍ ونحوه، لكنْ فُلْكٌ للواحد كسِّر على فُلْكٍ للجميع، فضمة الفاء في الواحد ليست هي في الجمع، وفُعْلٌ بناء تكسير مثل أَسَد وأُسْد، ويدل على ذلك قولهم في التثنية: فُلْكان.

---

(١) ساقط من المطبوع.

وفي التفسير: أن الذين كانوا مع نوح في السفينة أربعون رجلاً، وقيل: ثمانون، وقيل: عشرة، فهم أولاده يافث وسام وحام، وفي كثير من كتب الحديث للترمذي وغيره: أن جميع الخلق الآن من ذرية نوح عليه السلام[١]، وقاله الزهري في كتاب النقاش، وفي القرآن: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾[٢].

قال القاضي أبو محمد: فيحتمل أن يكون سائر العشرة أو الأربعين حسب الخلاف حفدة لنوح ومن ذريته، فتجتمع الآية والحديث، ويحتمل أن من كان في السفينة غير بنيه لم ينسُل، وقد روي ذلك[٣]، وإلا لكان بين الحديث والآية تعارض.

وقوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يقتضي أن نوحاً عليه السلام كانت له آيات ومعجزات.

وقوله: ﴿عَمِينَ﴾ وزنه فَعِلين وهو جمع عَمٍ وزنه فَعِلٌ، ويريد عمى البصائر.

وروي عن ابن عباس أن نوحاً بعث ابن أربعين سنة[٤]، قال ابن الكلبي: بعد آدم بثمان مئة سنة، وجاء بتحريم البنات والأخوات والأمهات والخالات والعمات، وقال

---

(١) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الترمذي (٣٢٣٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٢/ ٢٧٦) من طريق قتادة عن الحسن عن سمرة: عن النبي ﷺ في قول الله ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال: «حام وسام ويافث»، وهذا سند ضعيف؛ من أجل عنعنة قتادة فإنه مدلس ولا يُقبل حديثه إلا إذا صرح بالتحديث، وللخلاف الذي في رواية الحسن عن سمرة.

(٢) انظر هذه الأقوال في تاريخ الطبري (١/ ١١٢)، وفي المطبوع: «وقال الزهري».

(٣) أخرج ابن مردويه في تفسيره كما في الدر المنثور (٩/ ٢٤٧) عن عبد الله بن يزيد الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ ما كان مع نوح إلا أربعة أولاد؛ حام وسام ويافث وكوش، فذلك أربعة أولاد انتسلوا هذا الخلق».

(٤) ضعيف، هذا الأثر أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٦١٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٥٧٦٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٥) من طريق حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف ابن مهران، عن ابن عباس رضي الله عنهما، موقوفاً، قال: بعث نوح وهو لاربعين سنة ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس ونمواً، وهذا إسناد ضعيف من أجل علي بن زيد بن جدعان، فإنه ضعيف، وجاءت رواية الحاكم مرفوعة.

وهب بن منبه: بعث نوح وهو ابن أربع مئة سنة[(١)]، وقيل بعث ابن ثلاث مئة سنة، وقيل ابن خمسين سنة.

وروي أنه عُمِّر بعد الغرق ستين سنة، وروي أن الطوفان كان سنة ألف وست مئة من عمره عليه السلام، وأتى في حديث الشفاعة وغيره: أن نوحا أول نبي بعث إلى الناس[(٢)].

وأتى أيضاً أن إدريس قبل نوح ومن آبائه[(٣)] وذلك يجتمع بأن تكون بعثة نوح مشتهرة لإصلاح الناس وحملهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان، فالمراد أنه أول نبي بعث على هذه الصفة.

قوله عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ / أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾. [٢/ ١٤٩]

﴿عَادٍ﴾ اسم الحي، و﴿أَخَاهُمْ﴾ نصب بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، فهو معطوف على «نوح»، وهذه أيضاً نذارة من هود عليه السلام لقومه.

وتقدم الخلاف في قراءة ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ استعطاف إلى التقى والإيمان.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ الآية، تقدم القول في مثل هذه المقالة آنفاً.

---

(١) انظر القولين في الهداية لمكي (٤/ ٢٤١٤).

(٢) البخاري (٣٣٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) لا يصح، أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٤٠) من طريق الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس قال: أول نبي بعث في الأرض بعد آدم إدريس وهو خنوخ بن يرذ وهو اليارذ وكان يصعد له في اليوم من العمل ما لا يصعد لبني آدم في الشهر، فحسده إبليس وعصاه قومه فرفعه الله إليه مكاناً علياً. ومحمد بن السائب بن بشر الكلبي أبو النضر الكوفي متهم بالكذب. وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١/ ٢٩) من طريق الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما، بلفظ آخر.

و«السفاهة» مصدر عبر به عن الحال المهلهلة الرقيقة التي لا ثبات لها ولا جودة، والسفه في الثوب خفة: نسجه، ومنه قول الشاعر:

[الطويل] مَشَيْنَ كَمَا اهْتَـزَّتْ رِمَاحٌ تَسَفَّهَتْ أَعَالِيهَـا مَـرُّ الرِّياحِ النَّـوَاسِـمِ[١]

وقولهم: ﴿لَنَظُنُّكَ﴾ هو ظن على بابه؛ لأنهم لم يكن عندهم إلا ظنون وتخرص.

وتقدم الخلاف في قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾.

وقوله: ﴿أَمِينٌ﴾ يحتمل أن يريد: على الوحي والذكر النازل من قبل الله عز وجل.

ويحتمل أن يريد: أنه أمين عليهم وعلى غيبهم وعلى إرادة الخير بهم، والعرب تقول: فلان لفلان ناصح الجيب أمين الغيب، ويحتمل أن يريد به: أمين من الأمن، أي: جهتي ذات أمن لكم من الكذب والغش.

قوله عز وجل: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

قد تقدم القول في مثل قوله ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ والذكر لفظ عام للمواعظ والأوامر والنواهي.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ﴾ الآية، تعديد للنعم عليهم.

و﴿خُلَفَآءَ﴾ جمع خليف كظريف وظرفاء، وخليفة جمعه خلائف، والعرب تقول: خليفة وخلائف، وأنشد أبو علي:

[البسيط] فَـإِنْ يَـزُلْ زائِـلٌ يُوجَـدْ خليفَتُـهُ وَمَا خَليفُ أَبي وَهْبٍ بمَوْجود[٢]

---

(١) تقدم التعليق على هذا البيت عند استشهاد المصنف به في الآية (١٣) من سورة البقرة.

(٢) في غير الحجة، والبيت لأوس بن حجر في أمالي اليزيدي (ص: ٥٥)، والمحكم (٥/ ١٩٧)، وإيضاح شواهد الإيضاح (٢/ ٨٤١).

قال السدي وابن إسحاق: والمعنى: جعلكم سُكَّاناً في الأرض بعد قوم نوح[(١)].

وقوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أي: في الخلقة، و«البصطة»: الكمال في الطول والعرض، وقيل: زادكم على أهل عصركم، قال الطبري: المعنى: زادكم على قوم نوح، وقاله قتادة[(٢)].

قال القاضي أبو محمد: واللفظ يقتضي أن الزيادة هي على جميع العالم، وهو الذي يقتضي ما يذكر عنهم، وروي أن طول الرجل منهم كان مئة ذراع، وطول أقصرهم ستون ونحو هذا.

و«الآلاء»: جمع «إلىً» على مثال مِعىً، وأنشد الزجّاج:

أبـيـض لا يـرهـبُ الـهُـزَالَ ولا   يَـقْـطَـعُ رِحْماً وَلا يخُـونُ إلى[(٣)]   [المنسرح]

وقيل: واحد الآلاء: «ألاً» على مثال «قفاً»، وقيل: واحدها «إليٌ»، على مثال «حِسْيٍ»[(٤)]، وهي النعمة والمنة.

و﴿تُفْلِحُونَ﴾: معناه تدركون البغية والآمال.

قال الطبري: وعاد هؤلاء فيما حدث ابن إسحاق من ولد عاد بن إرم بن عوص ابن سام بن نوح، وكانت مساكنهم الشحر من أرض اليمن، وما والى حضرموت إلى عمان[(٥)].

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٥٠٥).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٢/ ٥٠٥).

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٤٨)، والبيت للأعشى كما في مجاز القرآن (١/ ٢١٨)، والزاهر (٢/ ١١٠)، والمحكم (١٠/ ٣٩٤)، ومقاييس اللغة (١/ ٢١)، وسمط اللآلي (١/ ٤٩) وغيرهم. وفي الأصل ونجيبويه: «لا يذهب الهزال»، وفي فيض الله ونور العثمانية والسليمانية: «لا يوهِب».

(٤) في السليمانية وفيض الله: «حبى».

(٥) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٤٨-٤٤٩) من طريق محمد بن حميد الرازي، عن سلمة بن الفضل، عن ابن إسحاق به، ومحمد بن حميد الرازي متهم.

وقال السدي: وكانوا بالأحقاف وهي الرمال، وكانت بلادهم أخصب بلاد فردها الله صحارى[(١)]، وقال علي بن أبي طالب: إن قبر هود عليه السلام هنالك في كثيب أحمر يخالطه مدرة ذات أراك وسدر[(٢)]، وكانوا قد فشَوا في جميع الأرض وملكوا كثيراً بقوتهم وعددهم وظلموا الناس، وكانوا ثلاث عشرة قبيلة، وكانوا أصحاب أوثان منها ما يسمى: صداء، ومنها صمودا، ومنها الهنا[(٣)]، فبعث الله إليهم هودا من أفضلهم وأوسطهم نسباً، فدعاهم إلى توحيد الله وإلى ترك الظلم.

قال ابن إسحاق: لم يأمرهم فيما يذكر بغير ذلك، فكذبوه وعتوا واستمر ذلك منهم إلى أن أراد الله إنفاذ أمره أمسك عنهم المطر ثلاث سنين، فشَقُوا بذلك، وكان الناس في ذلك الزمان إذا همهم[(٤)] أمر فزعوا إلى المسجد الحرام بمكة فدعوا الله فيه تعظيما له مؤمنهم وكافرهم، وأهل مكة يومئذ العماليق، وسيدهم رجل يسمى: معاوية بن بكر.

فاجتمعت عاد على أن تجهز منهم وفداً إلى مكة يستسقون الله لهم، فبعثوا قيلَ ابنَ عنزٍ[(٥)] ولقيم بن هزال وعثيل[(٦)] بن ضدس بن عاد الأكبر، ومرثد[(٧)] بن سعد بن

---

(١) انظر: تفسير مقاتل (٣/ ٢٢٥)، وتفسير عبد الرزاق (٣/ ٢١٧)، وتفسير الطبري (١٢/ ٥٠٧).

(٢) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٥٠٧)، والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ١٣٥) من طريق محمد بن إسحاق، عن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي، عن أبي الطفيل عامر ابن واثلة، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بنحوه بلفظ مطول، ومحمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي ترجم له البخاري في التاريخ الكبير (١/ ١٣٥)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٧/ ٢٩٧)، وابن حبان في الثقات (٥/ ٣٧٦) ولم يذكروا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٦/ ١٣٨) من طريق الأصبغ بن نباتة، عن علي رضي الله عنه به، بلفظ مطول، والأصبغ بن نباتة قال فيه ابن حبان: وهو ممن فتن بحب على، أتى بالطامات في الروايات فاستحق من أجلها الترك.اهـ، انظر ترجمته في المجروحين (١/ ١٧٣-١٧٤)، والكامل (١/ ٤٠٧).

(٣) في المطبوع: «الهبا».

(٤) في لالاليه ونجيبويه: «دهمهم».

(٥) في المطبوع: «عير».

(٦) في المطبوع والسليمانية وفيض الله: «عقيل».

(٧) في فيض الله: «مربد».

عفير[١]، وكان هذا مؤمناً يكتم إيمانه، وجُلهمة بن الخبيري[٢] في سبعين رجلاً من قومهم.

فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً من الحرم، فأنزلهم وأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان قينتا معاوية، ولما رأى معاوية طول[٣] إقامتهم وقد بعثتهم عاد للغوث، أشفق على عاد، وكان ابن أختهم أمه كلهدة بنت الخبيري أخت[٤] جلهمة، وقال: هلك أخوالي، وشق عليه أن يأمر أضيافه بالانصراف عنه، فشكا ذلك إلى قينة فقالت: له اصنع شعراً نغني به عسى أن ننبههم فقال:

[الوافر]

أَلا يَا قَيْلَ، ويْحكَ! قُمْ فَهَيْنِمْ ... لَعَلَّ اللهَ يُصْحِبُنَا غَمَامَا

فَيَسْقِي أَرْضَ عَادٍ، إنَّ عَاداً ... قَدَ امْسَوا لا يُبِينُونَ الكَلامَا

مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيدِ، فَلَيْسَ نَرْجُو ... بِهِ الشَّيْخَ الكَبِيرَ وَلا الغُلامَا

وَقد كَانَتْ نِسَاؤُهُمُ بِخَيْرٍ ... فَقَدْ أَمْسَتْ نِسَاؤُهُمُ عَيَامَى

وَإنَّ الْوَحْشَ تَأتِيهِمْ جِهَاراً ... وَلا تَخْشَى لِعَادِيٍّ سِهَامَا

وَأنْتُمْ هَا هُنَا فِيمَا اشْتَهَيْتُمْ ... نَهَارَكُمُ وَلَيْلَكُمُ التَّمَامَا

فَقُبِّحَ وَفْدُكُمْ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ ... وَلا لُقُّوا التَّحِيَّةَ وَالسَّلامَا[٥]

فغنت به الجرادتان فلما سمعه القوم قال بعضهم يا قوم: إنما بعثكم قومكم لما حل بهم، فادخلوا هذا الحرم وادعوا لعل الله يغيثهم فخرجوا لذلك، فقال لهم مرثد بن سعد: إنكم والله ما تسقون بدعائكم، ولكنكم إن أطعتم نبيكم وآمنتم به سقيتم، وأظهر إيمانه يومئذٍ، فخالفه الوفد، وقالوا لمعاوية بن بكر وأبيه بكر: احبسا عنا مرثدا ولا يدخل معنا الحرم، فإنه قد اتبع هوداً، ومضوا إلى مكة، فاستسقى قيلُ بن عنز، وقال: يا إلهنا

(١) في السليمانية وفيض الله: «عمير».

(٢) في المطبوع ونجيبويه ولالاليه: «الخيبري»، وفي فيض الله: «الخبيريري».

(٣) من المطبوع.

(٤) «أخت»: ساقطة من المطبوع، وفيه: «الخيبري».

(٥) الأبيات لمعاوية بن بكر كما في تفسير الطبري (١٢/ ٥١٠)، وجمهرة أشعار العرب (١/ ٦).

[٢/ ١٥٠] إن كان هود صالحاً[١] فاسقنا فإنّا قد هلكنا، فأنشأ الله سحائب / ثلاثاً: بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السحاب: يا قيلُ، اختر لنفسك وقومك من هذا السحاب، فقال قيلُ: قد اخترت السوداء فإنها أكثرها ماء، فنودي: اخترت رماداً رِمْدِداً لا تبقي من عاد أحداً، لا والداً ولا ولداً، إلا جعلتهم همداً.

وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيلٌ إلى عاد، حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له: المغيث، فلما رأوها قالوا: هذا عارض ممطرنا، حتى عَرفت أنها ريح امرأةٌ من عاد يقال لها: مهد[٢]، فصاحت وصَعِقت، فلما أفاقت قيل لها: ما رأيت؟ قالت: رأيت ريحاً كشهب النار، أمامها رجال يقودونها، فسخرها الله عليهم ثمانية أيام حسوماً وسبع ليال، والحسوم الدائمة، فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك، فاعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه من الريح إلا ما يلتذ به[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قَصَص وقع في تفسير الطبري مطولاً، وفيه اختلاف فاقتضبت عيون ذلك بحسب الإيجاز.

وفي خبرهم: أن الريح كانت تدمغهم[٤] بالحجارة، وترفع الظعينة عليها المرأةُ حتى تلقيها في البحر، وفي خبرهم: أن أقوياءهم كان أحدهم يسد بنفسه مهب الريح حتى تغلبه فتلقيه في البحر، فيقوم آخر مكانه حتى هلك الجميع.

وقال زيد بن أسلم: بلغني أن ضَبُعاً ربت أولادها في حِجَاج عين رجل منهم[٥].

وفي خبرهم: أن الله بعث ـ لما هلكت عادٌ ـ طيراً، وقيل: أسداً، فنقلت جيفهم

---

(١) في السليمانية وفيض الله ولالاليه ونجيبويه: «صادقاً».
(٢) في المطبوع: «مهدد».
(٣) نقله عن ابن إسحاق الطبري في تفسيره (١٢/ ٥٠٨) وما بعدها.
(٤) في السليمانية: «ترمقهم».
(٥) انظر: شعب الإيمان للبيهقي (٧/ ٤٠٤).

حتى طرحتها في البحر، فذلك قوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾[(١)].

وفي بعض ما روي من شأنهم: أن الريح لم تبعث قط إلا بمكيال إلا يومئذ فإنها عتت[(٢)] على الخزنة فغلبتهم، فذلك قوله: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[(٣)].

وروي أن هوداً لما هلكت عاد نزل بمن آمن معه إلى مكة، فكانوا بها حتى ماتوا، فالله أعلم أي ذلك كان.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا﴾ الآية، ظاهر قولهم وحده أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويفردوا العبادة لله مع إقرارهم بالإله الخالق المبدع، ويحتمل أن يكونوا منكرين لله ويكون قولهم: ﴿لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ أي: على قولك يا هود، والتأويل الأول أظهر فيهم وفي عباد الأوثان كلهم، ولا يجحد ربوبية الله تعالى من الكفرة إلا من أفرطت غباوته كإربد بن ربيعة، وإلا من ادعاها لنفسه كفرعون ونمرود.

وقوله: ﴿فَأْتِنَا﴾ تصميم على التكذيب، واحتقار لأمر النبوءة، واستعجال للعقوبة.

وتمكن قولهم: ﴿تَعِدُنَآ﴾ لما كان هذا الوعد مصرَّحاً به في الشر، ولو كان ذكر الوعد مطلقاً لم[(٤)] يجئ إلا في خير.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

---

(١) الأحقاف: (٢٥)، وانظر: تاريخ الطبري (١/ ١٣٨)، وتفسيره (١٢/ ٥٢٠).

(٢) في المطبوع: «تمت».

(٣) الحاقة: (٦)، انظر: تاريخ الطبري (١/ ١٣٨)، وتفسيره أيضاً (١٢/ ٥٢٠).

(٤) في المطبوع: «لما».

أعلمهم بأن القضاء قد نفذ وحل عليهم الرجس وهو السخط والعذاب، يقال: رجس ورجز بمعنىً واحد، قاله أبو عمرو بن العلاء[١]، وقال الشاعر:

[الطويل] إِذَا سَـنةٌ كانـتْ بنَجْـدٍ مُحِيطَـةً فكانَ علَيْهِمْ رِجْسُهَا وعَذابُهَا[٢]

وقد يأتي «الرجس» أيضاً بمعنى النتَن والقذَر، ويقال في الرجيع: رجس وركس، وهذا الرجس هو المستعار للمحرمات، أي: ينبغي أن يجتنب كما يجتنب النتن، ونحوه في المعنى قول النبي ﷺ في خبر جهجاه الغفاري[٣] وسنان بن وَبَرة الأنصاري[٤] حين دعوا بدعوى الجاهلية: «دعوها فإنها منتنة»[٥].

وقوله: ﴿أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ إنما يريد أنهم يخاصمونه في أن تسمى آلهة، فالجدل إنما وقع في التسميات لا في المسميات، لكنه ورد في القرآن: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ﴾ [يوسف: ٤٠] فهنا لا يريد إلا ذوات الأصنام، فالاسم إنما يراد به المسمى نفسه.

قال القاضي أبو محمد: ومن رأى أن الجدل في هذه الآية إنما وقع في أنفس الأصنام وعبادتها تأول هذا التأويل، والاسم قد يَرِدُ في كلام العرب بمعنى التسمية، وهذا بابه الذي استعمله به النحويون، وقد يراد به المسمى ويدل عليه ما قاربه من القول، من ذلك قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وقوله: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨]، على أن هذا يتأول، ومنه قول لبيد:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٥٢١).

(٢) بلا نسبة في مسائل نافع بن الأزرق (ص: ٢٨٠)، والسَّنَة: الجدب والقحط، وتكون أيضاً: الأرض المجدبة.

(٣) جهجاه بن سعيد، وقيل: ابن قيس، وقيل: ابن مسعود، الغفاريّ، شهد بيعة الرضوان، توفي بعد عثمان بقليل، الإصابة (١/ ٦٢١).

(٤) سنان بن وبرة ـ أو وبر ـ، الجهنيّ، حليف بني الحارث بن الخزرج، صاحب المنازعة مع جهجاه بالمريسيع، الإصابة (٣/ ١٥٩).

(٥) أخرجه البخاري (٤٩٠٥) من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما.

إلى الْحَوْلِ ثمَّ اسْمُ السَّلام عَلَيْكُمَا[1] .... [الطويل]

على تأويلات في البيت، وقد مضت المسألة في صدر الكتاب و«السلطان»: البرهان.

وقوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ الآية وعيد وتهديد.

والضمير في قوله: (أنجيناه) عائد على (هود) أي: أخرجه الله سالماً ناجياً مع من اتبعه من المؤمنين برحمة الله وفضله، وخرج هود ومن آمن معه حتى نزلوا مكة فأقاموا بها حتى ماتوا.

﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ﴾ استعارة تستعمل فيمن يستأصل بالهلاك، و«الدابر»: الذي يَدْبر القوم ويأتي خلفهم، فإذا انتهى القطع والاستئصال إلى ذلك فلم يبق أحد.

وقوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ دال على المعجزة وإن لم تتعين لها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ الآية، هو ثمود بن غاثن[2] بن إرم بن سام بن نوح أخو جديس بن غاثن.

وقرأ يحيى بن وثاب: (وإلى ثمودٍ) بكسر الدال وتنوينه في جميع القرآن[3]، وصرفه على اسم الحي، وترك صرفه على اسم القبيلة، قاله الزجاج[4]، وقال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ [هود: ٦٨].

فالمعنى: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم، فهو عطف على (نوح)، و«الأخوة» هنا أخوة القرابة، وقال الزجاج: يحتمل أن تكون أخوة الآدمية[5]، وسمي أَخاهُمْ لما بعث إليهم، وهم قوم عرب، وهود وصالح عربيان، وكذلك إسماعيل وشعيب، كذا قال النقاش[6].

---

(١) البيت للبيد وقد تقدم التعليق عليه في تفسير البسملة.

(٢) في المطبوع: «غائن»، وفي السليمانية وفيض الله: «عانق».

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: تفسير الثعلبي (٤/ ٢٥١)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٦١)، ومختصر الشواذ (ص: ٥٠).

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٤٧).

(٥) المصدر السابق.

(٦) لم أقف عليه.

وفي أمر إسماعيل عليه السلام نظر.

[٢/ ١٥١] وصالح عليه السلام هو صالح بن عبيد بن عامر بن إرم بن سام بن نوح / ، كذا ذكر مكي، وقال وهب: بعثه الله حين راهق الحلم[١]، ولما هلك قومه ارتحل بمن معه إلى مكة، فأقاموا بها حتى ماتوا، فقبورهم بين دار الندوة والحجر.

وقوله: ﴿بَيِّنَةٌ﴾ صفة حذف الموصوف[٢] وأقيمت مقامه، قال سيبويه: وذلك قبيح في النكرة أن تحذف وتقام صفتها مقامها، لكن إذا كانت الصفة كثيرة الاستعمال مشتهِرةً، وهي المقصود في الأخبار والأمم، زال القبح، كما تقول: جاءني عبد لبني فلان، وأنت تريد: جاءني رجل عبد؛ لأن عبداً صفة، فكذلك قوله هنا: ﴿بَيِّنَةٌ﴾، المعنى: آية أو حجة أو موعظة بينة، وقال بعض الناس: إن صالحاً جاء بالناقة من تلقاء نفسه، وقالت فرقة ـ وهي الجمهور ـ: بل كانت مقترحة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا أليق بما ورد في الآثار من أمرهم، وروي أن بعضهم قال: يا صالح إن كنت صادقاً فادع ربك يخرجْ لنا من هذه الهضبة ـ وفي بعض الروايات: من هذه الصخرة، لصخرة بالحجر يقال لها: الكاثبة[٣] ـ ناقةً عُشَراء، قال: فدعا الله، فتمخضت تلك الهضبة وتنفضت وانشقت عن ناقة عظيمة، وروي: أنها كانت حاملاً فولدت سَقْبها المشهور، وروي أنه خرج معها فصيلها من الصخرة، وروي: أن جملاً من جمال ثَمُودَ ضربها فولدت فصيلها المشهور.

وقيل: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ تشريفاً لها وتخصيصاً، وهي إضافة خلق إلى خالق.

وقال الزجاج: وقيل: إنه أخذ ناقة من سائر النوق، وجعل الله لها شرباً يوماً ولهم شربُ يومٍ، وكانت الآية في شربها وحلبها[٤].

---

(١) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية (٤/ ٢٤٣١).

(٢) في الأصل ونجيبويه: «المضاف».

(٣) في السليمانية وفيض الله: «الكانفة».

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٤٩).

قال القاضي أبو محمد: وحكى النقاش عن الحسن أنه قال: هي ناقة اعترضها من إبلهم ولم تكن تحلب[١]، والذي عليه الناس أقوى وأصح من هذا.

قال المفسرون: وكانت خلْقاً[٢] عظيماً تأتي إلى الماء بين جبلين فيزحمانها من العظم، وقاسمت ثَمُودَ في الماء يوماً بيوم، فكانت تردُ يومها فتستوفي ماء بئرهم شرباً[٣]، ويحلبونها ما شاؤوا من لبن، ثم تمكث يوماً وترد بعد ذلك غِبّاً، فاستمر ذلك ما شاء الله حتى ملَّتها ثَمُودُ وقالوا: ما نصنع باللبن؟ الماء أحب إلينا منه، وكان سبب الملل فيما روي أنها كانت تَصِيفُ في بطن الوادي وادي الحجر وتشتو في ظاهره فكانت مواشيهم تفر منها فتصيف في ظهر الوادي للقيظ، وتشتو في باطنه للزمهرير، وفسدت لذلك، فتمالؤوا على قتل الناقة، فقال لهم صالح مرة: إن هذا الشهر يولد فيه مولود يكون هلاككم على يديه، فولد لعشرة نفر أولاد، فذبح التسعة أولادهم، وبقي العاشر وهو سالفِ أبو قُدارٍ، فنشأ قدار أحمر أزرق، فكان التسعة إذا رأوه قالوا: لو عاش بنونا كانوا مثل هذا، فأَحْفَظَهم إنْ قتلوا أولادهم بكلام صالح، فأجمعوا على قتله، فخرجوا وكمنوا في غار ليبيِّتوه منه، وتقاسموا لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله، فسقط الغار عليهم فماتوا، فهم الرهط التسعة الذين ذكر الله تعالى في كتابه: [وروي أن التسعة الرهط الذين ذكرهم الله في كتابه][٤] هم قدار بن سالف، ومصرع[٥] بن مهرج ضما إلى أنفسهما سبعة نفر وعزموا على عقر الناقة.

وروي أن السبب في ذلك أن امرأتين من ثَمُودَ من أعداء صالح جعلتا لقدار ومصرع أنفسهما وأموالهما على أن يعقرا الناقة، وكانتا من أهل الجمال، وقيل: إن قداراً شرب الخمر مع قوم، فطلبوا ماء يمزجون به الخمر فلم يجدوه لشرب الناقة، فعزموا على

---

(١) لم أقف عليه.
(٢) تحرفت في المطبوع إلى: «وكان حلفا».
(٣) وردت في المطبوع هكذا: «ماء بئر همشريا»!.
(٤) ساقط من المطبوع.
(٥) في المطبوع: «مصدع».

عقرها حينئذٍ، فخرجوا وجلسوا على طريقها، وكمن لها قدار خلف صخرة، فلما دنت منه رماها بالحربة ثم سقطت فنحرها، ثم اتبعوا الفصيل فهرب منهم حتى علا ربوة ورغا ثلاث مرات واستغاث، فلحقوه وعقروه، وفي بعض الروايات أنهم وجدوا الفصيل على رابية من الأرض فأرادوه، فارتفعت به حتى لحقت به في السماء، فلم يقدروا عليه، فرغا الفصيل مستغيثاً بالله تعالى، فأوحى الله إلى صالح أن مرهم فليتمتعوا في دارهم ثلاثة أيام.

وحكى النقاش عن الحسن أنه قال: إن الله تعالى أنطق الفصيل، فنادى أين أمي؟ فقال لهم صالح: إن العذاب واقع بكم في الرابع من عقر الناقة.

وروي: أنها عقرت يوم الأربعاء، وقال لهم صالح: تحمرُّ وجوهكم غداً، وتصفرُّ في الثاني، وتسوَدُّ في الثالث، وينزل العذاب في الرابع يوم الأحد، فلما ظهرت العلامة التي قال لهم أيقنوا واستعدوا ولطخوا أبدانهم بالمن، وحفروا القبور وتحنطوا، فأخذتهم الصيحة وخرج صالح ومن آمن معه حتى نزل رملة فلسطين.

قال القاضي أبو محمد: وهذا القَصَص اقتضبتُه من كثير أورده الطبري رحمه الله رغبة الإيجاز[1].

وقال أبو موسى الأشعري: أتيت بلاد ثَمُودَ فذرعت صدر الناقة فوجدته ستين ذراعا[2].

قال القاضي أبو محمد: وبلاد ثَمُودَ هي بين الشام والمدينة، وهي التي مر بها رسول الله ﷺ مع المسلمين في غزوة تبوك فقال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم مثل ما أصابهم»، ثم اعتجر بعمامته وأسرع السير ﷺ[3].

---

(١) انظر: تفسير مقاتل (٣/ ٤٧١)، وتفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٣١)، وتفسير الطبري (٨/ ٢٢٥)، وفي السليمانية وفيض الله ولالاليه ونجيبويه: «مصدر».

(٢) أخرجه الطبري (١٤٨١٦) من طريق أبي إسحاق السبيعي، عن أبي موسى به، وهو منقطع.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وروي أن المسافة التي أهلكت الصيحةُ أهلها هي ثمانية عشر ميلاً، وهي بلاد الحجر ومراتعها: الجناب وحسمى إلى وادي القرى وما حوله، وقيل في قدار: إنه ولد زناً من رجل يقال له: ظبيان، وولد على فراش سالف فنسب إليه، ذكره قتادة وغيره(١).

وذكر الطبري أن رسول الله ﷺ مر بقبر فقال: «أتعرفون ما هذا؟» قالوا: لا، قال: «هذا قبر أبي رغال الذي هو أبو ثقيف، كان من ثَمُودَ فأصاب قومه البلاء وهو بالحرم فسلِم، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصابهم فدفن هنا وجعل معه غصن من ذهب»، قال: فابتدر القوم بأسيافهم فحفروا حتى أخرجوا الغصن(٢).

قال القاضي أبو محمد: وهذا الخبر يردُّ ما في السير من أن أبا رغال هو دليل الفيل وجيشه(٣) إلى مكة، والله أعلم.

قوله عز وجل / : ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾. [٢/ ١٥٢]

(بَوَّأَكُمْ) معناه: مكنكم، وهي مستعملة في المكان وظروفه، تقول: تبوأ فلان منزلاً حسناً، ومنه قوله تعالى: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]، وقال الأعشى:

---

(١) لم أقف عليه من قول قتادة، ولكن الخبر ورد في تفسير الطبري (١٢/ ٥٣٢)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٦)، والطبري (١٤٨١٧) من طريق أبي الزبير عن جابر مرفوعاً، وحسنه الحافظ كما في فتح الباري (٦/ ٣٨١)، وانظر: الجامع لمعمر بن راشد (١١/ ٤٥٤)، وتفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٣٢)، وأخبار مكة للفاكهي (٣/ ١٩٨).

(٣) في المطبوع: «وحبيسه».

[الطويل] فَمـا بَـوَّأَ الرَّحْمَـنُ بيْتَـكَ منْـزِلاً بشَرْقي أَجْيَادِ الصَّفا والمُحَرَّم[١]

و«القصور»: جمع قصر، وهي الدور التي قُصِرت على بقاع من الأرض مخصوصة، بخلاف بيوت أهل[٢] العمود، وقُصرت عن الناس قصراً تامّاً، و«النحت»: النَّجْر والقَشْر في الشيء الصلب كالحجر والعود ونحوه.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: (تنحَتون) بفتح الحاء[٣]، وقرأ جمهور الناس بكسرها وبالتاء من فوق، وقرأ ابن مصرف بالياء من أسفل وكسر الحاء، وقرأ أبو مالك بالياء من أسفل وفتح الحاء[٤].

وكانوا ينحتون الجبال لطول أعمارهم، و﴿تَعْثَوْاْ﴾ معناه: تفسدوا، يقال: عثا يَعثي، وعثا يعثو، وعثِيَ يَعثَى كنسِي ينسَى، وعليها لفظ الآية.

وقرأ الأعمش: (تعثوا) بكسر التاء[٥].

و﴿مُفْسِدِينَ﴾: حال، وتقدم القول في ﴿ٱلْمَلَأُ﴾.

وقرأ ابن عامر وحده في هذا الموضع: ﴿وقال الملأ﴾ بواو عطف، وهي محذوفة عند الجميع[٦].

و﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ هم الأشراف والعظماء الكفرة.

و﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ يحتمل أن يكون معناه: طلبوا هيئة لنفوسهم من الكبر، أو يكون بمعنى: كبروا، كبرهم المال والجاه وأعظمهم، فيكون على هذا كبر واستكبر

---

(١) تقدم في تفسير الآية (١٢٠) من سورة آل عمران.

(٢) زيادة من فيض الله والسليمانية.

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: تفسير الثعلبي (٤/ ٢٥١)، ومختصر الشواذ (ص: ٥٠)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٦١).

(٤) وهما شاذتان، تابعه عليهما في البحر المحيط (٥/ ٩٤)، وفيها غرابة لتشعب الضمائر.

(٥) وهي قراءة شاذة، انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٦١).

(٦) وهما سبعيتان حسب مصاحفهم، انظر: التيسير (ص: ١١١).

بمعنىً، كعجب واستعجب، والأول هو باب استفعل، كاستوقد واسترفد، و(الذين استضعفوا) هم العامة والأغفال في الدنيا وهم أتباع الرسل.

وقولهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ استفهام على معنى الاستهزاء والاستخفاف، فأجاب المؤمنون بالتصديق والصرامة في دين الله، فحملت الأنفة الإشراف على مناقضة المؤمنين في مقالتهم، واستمروا على كفرهم.

قوله عز وجل: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟﴾ يقتضي بتشريكهم أجمعين في الضمير أن عقر الناقة كان على تمالؤ منهم وإصفاق[1]، وكذلك روي: أن قداراً لم يعقرها حتى كان يستشير الرجال والنساء والصبيان، فلما أجمعوا تعاطى فعقر.

و(عتوا): معناه: خشنوا وصلبوا ولم يذعنوا للأمر والشرع، وصمموا على تكذيبه، واستعجلوا النقمة بقولهم: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ وحسُن الوعد في هذا الموضع لـمَّا تقيد بأنه عذاب.

قال أبو حاتم: قرأ عيسى وعاصم: (صالحُ أيتنا) بهمز وإشباع ضم، وقرأ بتخفيف الهمزة كأنها ياء في اللفظ أبو عمرو والأعمش[2].

و﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾: ما تؤثره الصيحة أو الطامة التي يرجف بها الإنسان وهو أن يتزعزع

---

(١) في فيض الله والسليمانية اطباق، وفي لالاليه: اتفاق.

(٢) أما في الابتداء اتفقوا على كسر همز الوصل وإبدال فاء الفعل مدّاً له، وأما في الوصل فورش والسوسي وأبو جعفر، وما روي عن غيرهم من مثل إبدالهم بإبدال فاء الفعل مداً لضمة الحاء، وغيرهم بتحقيقها ساكنة، وذكر الفارسي في الحجة (٢/ ٤٥٣) وجهاً لأبي عمرو بالإشمام، ونقل في البحر المحيط (٥/ ٩٦)، كلام أبي حاتم، وقال في عاصم: فلعله الجحدري.

ويتحرك ويضطرب ويرتعد، ومنه قول خديجة: فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده[(١)].

ومنه قول الأخطل:

[البسيط] إِمَّـا تَـرَيْني حَنَاني الشَّـيْبُ مِـنْ كِبَرٍ   كالنَّسْرِ أَرْجُفُ والإِنْسَانُ مهدُود[(٢)]

ومنه إرجاف النفوس لكَريهِ الأخبار، أي: تحريكها، وروي أن صيحة ثمود كان فيها من صوت[(٣)] كل شيء هائل الصوت، وكانت مُفْرِطة شقت قلوبهم فجثوا على صدورهم.

و«الجاثم»: اللاطئ بالأرض على صدره مع قبض ساقيه كما يرقد الأرنب والطير، فإن جثومها على وجهها، ومنه قول جرير:

[الوافر] عَرَفْـتُ الْمُنْتَـأَى وَعَرَفْـتُ مِنْهَـا   مَطَايَا القِـدْرِ كَالحِـدَإِ الجُثُومِ[(٤)]

وقال بعض المفسرين: معناه: حمماً محترقين كالرماد الجاثم.

قال القاضي أبو محمد: وحيث وجد الرماد الجاثم في شعر فإنما هو مستعار لهيئة الرماد قبل هموده وتفرقه، وذهب صاحب هذا القول إلى أن الصيحة اقترن بها صواعق محرقة.

وأخبر الله عز وجل بفعل صالح في تولِّيه عنهم وقت عقرهم الناقة، وقولهم: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، وذلك قبل نزول العذاب، وكذلك روي أنه عليه السلام خرج من بين أظهرهم قبل نزول العذاب، وهو الذي تقتضيه مخاطبته لهم.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٢/ ٥٤٤)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٥٢) وفي الأصل: «ممدود»، وفي نجيبويه: «محدود».

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) انظر عزوه له في مجاز القرآن (١/ ٢١٨)، وتفسير الطبري (١٢/ ٥٤٦)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٥٢)، والكامل للمبرد (٣/ ١٢٠).

وأما لفظ الآية فيحتمل أن خاطبهم وهم موتى على جهة التفجع عليهم وذكرِ حالهم، أو غير ذلك، كما خاطب رسول الله ﷺ أهلَ قليبِ بدر[١].

قال الطبري: وقيل: لم تهلك أمة ونبيُّها معها[٢]. وروي أنه ارتحل بمن معه حتى جاء مكة، فأقام بها حتى مات، ولفظة التولي تقتضي اليأس من خيرهم واليقين في إهلاكهم.

وقوله: ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ عبارة عن تغليبهم الشهوات على الرأي، إذ كلام الناصح صعب مضاد لشهوة نفس الذي ينصح، [ولذلك تقول العرب][٣]: أَمْرَ مُبْكياتك لا أمرَ مضحكاتك[٤].

قوله عز وجل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

لوط عليه السلام نبي[٥] بعثه الله إلى أمة تسمى سدوم، وروي أنه ابن أخي إبراهيم عليه السلام، ونصبه إما بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ المتقدم في الأنبياء، وإما بفعل مضمر تقديره: واذكر لُوطاً، واستفهامه لهم هو على جهة التوقيف والتوبيخ والتشنيع.

و﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ هنا إتيان الرجال في الأدبار، وروي أنه لم تكن هذه المعصية / [٢/ ١٥٣] في أمم قبلهم[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٥٤٧).

(٣) ساقط من الأصل.

(٤) الكتاب لسيبويه (١/ ٢٥٦).

(٥) زيادة من فيض الله والسليمانية ولالاليه ونجوبويه.

(٦) انظر: تفسير مقاتل (١/ ٤٠٠)، وتفسير الطبري (١٢/ ٥٤٧).

قال القاضي أبو محمد: وإن كان لفظ الآية يقتضي هذا، فقد كانت الآية تحتمل أن يراد بها: ما سبقكم أحد إلى لزومها وتشهيرها.

وروي أنهم كانوا يأتي بعضهم بعضاً، وروي أنهم إنما كانوا يأتون الغرباء، قاله الحسن البصري، قال عمرو بن دينار: ما نزَى ذكر على ذكر قبل قوم لوط[١].

وحكى النقاش: أن إبليس كان أصل عملهم بأن دعاهم إلى نفسه[٢].

وقال بعض العلماء: عامل اللواط كالزاني، وقال مالك رحمه الله وغيره: يرجم أحصن أو لم يحصن[٣].

وحرق أبو بكر الصديق رضي الله عنه رجلاً يسمى الفجاءة حين عمل عمل قوم لوط[٤].

وقرأ نافع والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿إِنَّكُمْ﴾ على الخبر، كأنه فسر ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾.

---

(١) انظر قول الحسن في تفسير ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٥٤)، وقول عمرو فيه (٥/ ١٥١٧)، وفي تفسير الطبري (١٢/ ٥٤٨)، (٢٠/ ١٤٤).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٢٤٥).

(٣) الأول قول الجمهور، انظره مع قول مالك في الاستذكار (٧/ ٤٩٣-٤٩٤).

(٤) ضعيف، أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (١٤٠)، والآجري في ذم اللواط (٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٣٨٩) من طريق عبيد الله بن عمر القواريري، عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن داود بن بكر، عن محمد بن المنكدر أن خالد بن الوليد رضي الله عنه كتب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه وُجد في بعض ضواحي العرب رجل يُنكح كما تنكح المرأة، وإن أبا بكر، رضي الله عنه، جمع لذلك أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ، كان فيهم علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أشدهم يومئذٍ قولاً، فقال: إن هذا ذنب لم تعمل به أمة من الأمم إلا أمة واحدة، فصنع بها ما قد علمتم، أرى أن تحرقوه بالنار، قال: فكتب إليه أبو بكر أن يحرق بالنار، وأخرجه البيهقي في الكبرى (٨/ ٢٣٢) من طريق ابن المنكدر وصفوان بن سليم به، وقال البيهقي: مرسل، وقد ضعفه الحافظ، وانظر الدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ١٠٣).

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر وحمزة: ﴿أإنكم﴾ باستفهام آخر، وهذا لأن الأول استفهام عن أمر مجمل والثاني عن مفسر[1]، إلا أن حمزة وعاصماً قرءا بهمزتين، ولم يهمز أبو عمرو وابن كثير إلا واحدة[2].

و﴿شَهْوَةً﴾: نصب على المصدر من قولك: شَهِيْتُ الشيء أشهاه[3]، والمعنى: تدَعون الغرض المقصود بالوطء وهو ابتغاء ما كتب الله من الولد، وتنفردون بالشهوة فقط، وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ إضراب عن الإخبار عنهم أو تقريرِهم على المعصية وتركٌ لذلك إلى الحكم عليهم بأنهم قوم قد تجاوزوا الحد وارتكبوا الحظر، والإسراف: الزيادة المفسدة.

وقرأ الجمهور: ﴿جَوَابَ﴾ بالنصب، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: (جوابُ) بالرفع[4].

ولم تكن مراجعة قومه باحتجاج منهم ولا بمدافعة[5] عقلية، وإنما كانت بكفر وصرامة وخذلان بحت في قولهم: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾، وتعليلهم الإخراج بتطهير المخرجين، والضمير عائد على لوط وأهله وإن كان لم يجر لهم ذكر فإن المعنى يقتضيهم، وروي أنه لم يكن معه غير ابنتيه وعلى هذا عني في الضمير هو وابنتاه.

و﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ معناه: يتنزهون عن حالنا وعادتنا، قال مجاهد: معناه: يَتَطَهَّرُونَ عن أدبار الرجال والنساء، قال قتادة: عابوهم بغير عيب، وذموهم بغير ذم[6]، والخلاف في أهله حسبما تقدم.

واستثنى الله امرأة لوط عليه السلام من الناجين وأخبر أنها هلكت، و«الغابر»: الباقي هذا المشهور في اللغة، ومنه غُبَّر الحيض كما قال أبو كبير الهذلي:

---

(١) في السليمانية: «مفصل» بدل «مفسر».

(٢) وكلها سبعية، انظر: التيسير (ص: ١١١).

(٣) في المطبوع: «شهاة».

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٣٣٧).

(٥) في فيض الله والسليمانية: «بموافقة»، وفي نجيبويه: «بمرافعة».

(٦) انظر القولين في تفسير الطبري (١٢/ ٥٥٠).

[الكامل] ومُبَرَّأً مِنْ كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ وَفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغْيِلِ[١]

وغُبَّر اللبن في الضرع، أي: بقيته.

فقال بعض المفسرين: كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ في العذاب والعقاب، أي: مع الباقين ممن لم ينج[٢].

وقال أبو عبيدة معمر: ذكرها الله بأنها كانت ممن أسنَّ وبقي من عصره إلى عصر غيره، فكانت غابرة إلى أن هلكت مع قومها[٣].

قال القاضي أبو محمد: فكأن قوله: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ اكتفى به في أنها لم تنج ثم ابتدأ وصفها بعد ذلك بصفة لا تتعلق بها النجاة ولا الهلكة، والأول أظهر، وقد يجيء الغابر بمعنى الماضي، وكذلك حكى أهل اللغة غبر بمعنى بقي وبمعنى مضى، وأما قول الأعشى:

[السريع] عَضَّ بِمَا أَبْقَى المَوَاسِي لَهُ مِنْ أُمِّه فِي الزَّمَنِ الغَابِرِ[٤]

فالظاهر أنه أراد: الماضي، وذلك بالنسبة إلى وقت الهجاء[٥].

ويحتمل أن يريد: في الزمن الباقي، وذلك بالنسبة إلى الحين هو غابر بعد الإبقاء.

ويحتمل أن يعلق «في الزمن» بـ«عضَّ»، فيكون «الغابر»: الباقي على الإطلاق، والأول أظهر.

---

(١) ورد عزوه له مسنداً لعائشة رضي الله عنها في قولها للنبي ﷺ: «لو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره»، أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٤٢٢)، ونسبه له في إصلاح المنطق (ص: ١٨٤)، والمعاني الكبير (١/ ٥١٩)، وجمهرة اللغة (٢/ ١١٦٥).

(٢) انظر: تفسير مقاتل (١/ ٤٠١)، وتفسير الطبري (١٢/ ٥٥١ وما بعدها)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥١٩).

(٣) مجاز القرآن (١/ ٢١٨)، وفي السليمانية: «استن» بدل «أسن»، واللفظ منقول بالمعنى.

(٤) عزاه له تفسير الطبري (١٢/ ٥٥١)، ومجاز القرآن (١/ ٢١٩)، والزاهر في معاني كلمات الناس (٢/ ٢٧١). وفي نجيبويه: «المرام» بدل «المواسي».

(٥) في فيض الله والسليمانية: «المنجاء»، وفي لالاليه: «النجا».

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم ﴾ الآية، نص على إمطار وتظاهرت الآيات في غير هذه السورة أنه بحجارة، وروي أن الله عز وجل بعث جبريل فاقتلعها بجناحه، وهي ست مدن، وقيل: خمس، وقيل: أربع، فرفعها حتى سمع أهل السماء نهاق الحمير وصراخ الديكة، ثم عكسها وردَّ أعلاها أسفلها وأرسلها إلى الأرض، وتبعتهم الحجارة مع هذا فأهلكت من كان منهم في سفر أو خارجاً عن البقع المرفوعة، وقالت امرأة لوط حين سمعت الرجة: وا قوماه، والتفتت فأصابتها صخرة فقتلتها[١].

قوله عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

قيل في ﴿ مَدْيَنَ ﴾: إنه اسم بلد وقطر، وقيل: اسم قبيلة، وقيل: هم من ولد مدين بن إبراهيم الخليل، وروي أن لوطا عليه السلام هو جد شعيب لأمه، وقال مكي: كان زوج بنت لوط[٢]، ومن رأى مَدْيَنَ اسم رجل لم يصرفه لأنه معرفة أعجمي، ومن رآه اسما للقبيلة أو الأرض فهو أحرى ألا يصرف.

وقوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾ منصوب بقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ [الأعراف: ٥٩] في أول القصص، وهذا يؤيد أن (لُوطاً) به انتصب، وأن اللفظ مستمر، وهذه الأخوة في القرابة، وقد تقدم

---

(١) مرسل، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٢/ ٥١٥-٥١٦)، وابن أبي حاتم (١١٠٩٠) في تفسيرهما من طريق يعقوب بن عبد الله أبي الحسن القمي وهو صدوق، عن جعفر بن أبي المغيرة القمي وهو صدوق، عن سعيد بن جبير بنحوه.

(٢) الهداية لمكي (٤/ ٢٤٤٣).

القول في ﴿غَيْرُهُۥ﴾ و﴿غيرِه﴾ [(١)]، والبينة إشارة إلى معجزته وإن كنا نحن لم يُنص لنا عليها.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: (قد جاءتكم آية من ربكم)[(٢)] مكان ﴿بَيِّنَةٌ﴾.

وقوله: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾ أمر لهم بالاستقامة في الإعطاء وهو بالمعنى في الأخذ والإعطاء، وكانت هذه المعصية قد فشت فيهم في ذلك الزمن وفحشت، مع كفرهم الذي نالتهم الرجفة بسببه.

و﴿تَبْخَسُواْ﴾ معناه: تظلموا، ومنه قولهم: تحسبها حمقاء وهي باخس، أي: ظالمة خادعة.

و﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾ يريد: أموالهم وأمتعتهم مما يكال أو يوزن.

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ﴾ لفظ عام في دقيق الفساد وجليله، وكذلك الإصلاح عام والمفسرون نصوا على أن الإشارة إلى الكفر بالفساد، وإلى النبوءات والشرائع بالإصلاح.

[٢/ ١٥٤] وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: نافع عند الله مكسب فوزه / ورضوانه بشرط الإيمان والتوحيد، وإلا فلا ينفع عمل دون إيمان.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ الآية، قال السدي: هذا نهي عن العشَّارين والمتقبلين ونحوِه من أخذ أموال الناس بالباطل[(٣)].

و«الصراط»: الطريق، وذلك أنهم كانوا يكثرون من هذا؛ لأنه من قبيل بخسهم ونقصهم الكيل والوزن. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: هو نهي عن السلب وقطع الطريق، وكان ذلك من فعلهم، روى في ذلك حديثاً عن النبي ﷺ[(٤)].

---

(١) «وغيره» الثانية لم ترد في السليمانية وفيض الله، والمقصود «غيره» بالجر والرفع.

(٢) تابعه في البحر المحيط (٥/ ١٠٤)، ولعلها سهو، وليس الحسن ممن يخالف المصحف.

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٥٥٧).

(٤) فيه ضعف، هذا الحديث أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٥٥٨) عن علي بن سهل، عن حجاج المصيصي، عن أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي هريرة أو غيره ـ شك أبو جعفر ـ مرفوعاً، وأبو جعفر الرازي هو عيسى بن أبي عيسى التيمي صدوق سيئ الحفظ، فلا يقبل تفرده، والله أعلم.

قال القاضي أبو محمد: وما تقدم قبل من النهي في شأن المال في الموازين والأكيال والبخس يؤيد هذين القولين ويشبههما، وفي هذا كله توعد للناس إن لم يتركوا أموالهم.

وقال ابن عباس[١]، وقتادة ومجاهد والسدي أيضاً: قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾ نهي لهم عما كانوا يفعلونه من رد الناس عن شعيب[٢]، وذلك أنهم كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب، فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه، ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه، على نحو ما كانت قريش تفعله مع رسول الله ﷺ.

قال القاضي أبو محمد: وما بعد هذا من ألفاظ الآية يشبه هذا القول.

وقوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ الآية؛ المعنى: وتفتنون من آمن وتصدونه عن طريق الهدى.

و﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾: المفضية إلى رحمته.

والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يحتمل أن يعود على اسم الله، وأن يعود على شعيب في قول من رأى القعود على الطرق للرد عن شعيب، وأن يعود على السبيل في لغة من يذكِّر السبيل.

وتقدم القول في مثل قوله: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ في صدر السورة.

وقال أبو عبيدة والزجاج: كسر العين في المعاني، وفتحها في الأجرام[٣].

ثم عدَّد عليهم نعم الله تعالى، وأنه كثَّرهم بعد قلة عدد، وقيل: أغناهم بعد فقر، فالمعنى على هذا: إذ كنتم قليلاً قدْرُكم، ثم حذرهم ومثَّل لهم بمن امتحن من الأمم السابقة.

---

(١) أخرجه الطبري (١٤٨٤٤)، وابن أبي حاتم (٨٧١٥) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن جرير أيضاً (١٤٨٤٥) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: تفسير مجاهد (١/ ٢٤٠)، وتفسير الطبري (١٢/ ٥٥٦-٥٥٧)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٢١)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٥٣).

(٣) مجاز القرآن (١/ ٩٨)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٤٤٧)، وقد تقدم مثله.

قوله عز وجل: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

المعنى: وإن كنتم يا قوم قد اختلفتم عليّ وشعبتم[1] بكفركم أمري فآمنت طائفة وكفرت طائفة، فاصبروا أيها الكفرة حتى يأتي حكم الله بيني وبينكم.

وفي قوله: ﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾ قوةُ التهديد والوعيد، هذا ظاهر الكلام، وأن المخاطبة بجميع الآية للكفار، وحكى منذر بن سعيد عن ابن عباس أن الخطاب بقوله: ﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾ للمؤمنين على معنى الوعد لهم[2]، وقاله مقاتل بن حيان[3].

قال النقاش: وقال مقاتل بن سليمان: المعنى: فاصبروا يا معشر الكفار[4].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول الجماعة.

وتقدم القول في معنى ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ ومعنى الاستكبار.

وقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ تهديد بالنفي، والقرية المدينة الجامعة للناس؛ لأنها تقرَّت، أي: اجتمعت.

وقولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ معناه: أو لتصيرُن، وعاد: تجيء في كلام العرب على وجهين: أحدهما: عاد الشيء إلى حال قد كان فيها قبل ذلك، وهي على هذه

(١) في السليمانية وفيض الله: «وسفهتم»، وفي نجيبويه: «شغبتم».
(٢) لم أقف عليه مسنداً.
(٣) تفسير البحر المحيط (٥/ ١٠٩)، ومقاتل تقدم التعريف به في سورة النساء.
(٤) انظر: تفسير مقاتل (١/ ٤٠٢).

الجهة لا تتعدى، فإن عدِّيت فبحرف، ومنه قول الشاعر:

إِنْ عـادَتِ العَقْـرَبُ عُدْنَـا لهَـا وكانـتِ النَّعْـلُ لهَـا حاضِـرَهْ[1] [السريع]

ومنه قول الآخر:

ألا ليْـتَ أَيّـامَ الشَّـبابِ جَديـدُ وعَصْـراً تَولَّى يا بُـثَيْـنُ يَعُودُ[2] [الطويل]

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ومنه قول الشاعر:

فَـإنْ تَـكُـن الأيَّـامُ أحْسَـنَّ مَـرَّةً إلـيَّ فَقَدْ عَـادَتْ لَهُـنَّ ذُنُوبُ[3] [الطويل]

والوجه الثاني: أن تكون بمعنى صار وعاملةً عملها، ولا تتضمن أن الحال قد كانت متقدمة، ومن هذه قول الشاعر:

تِلْكَ المَـكَارِمُ لا قَعْبَـانِ مِنْ لَبَنٍ شِـيبا بِمَـاءٍ فَعَـادَا بَعْدُ أَبْـوَالاً[4] [البسيط]

ومنه قول الآخر:

.... وعَـادَ رَأْسِـي كالثَّغَامَـهْ[5] [الرجز]

---

(١) البيت للفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب يذم بها رجلًا اسمه عَقْرَب، انظر قصته في الأغاني (١٦/ ١٩٦)، والحيوان (٤/ ٢١٨).

(٢) مطلع قصيدة لجميل بن عبد الله العذري، المعروف بجميل بثينة، انظر: الأمالي للقالي (٢/ ٣٠٣)، والأغاني (٨/ ١٠٨).

(٣) البيت لكعب بن سعد الغنوي، كما في الاختيارين (ص: ١٢١)، والعقد الفريد (٣/ ٢٣٤)، والأمالي للقالي (٢/ ١٥٠) قال: ويروى لسهم الغنوي، وعزاه في جمهرة أشعار العرب (١/ ٦٩) لمحمد بن كعب الغنوي، وفي تفسير الثعلبي (٢/ ٢٣٨) للطفيل الغنوي، وفي الأصمعيات (١/ ٦) لعريقة بن مُسافع العبسي، ولم أقف على عزوه للأحوص في شيء من المصادر.

(٤) البيت لأمية بن أبي الصلت يمدح سيف بن ذي يزن كما في معجم البلدان (٤/ ٢١٠)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٦١)، والروض الأنف (١/ ١٤١) ونسبه ابن إسحاق لأبيه أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي كما في السيرة النبوية (١/ ١٨٦)، والعقد الفريد (١/ ٢٧٩) ونسبه أبو الفرج في الأغاني (٥/ ١٨) للنابغة الجعدي، ثم قال في محل آخر (١٧/ ٣٠٢) وهذا خطأ، إنما هو على جهة التضمين.

(٥) نقله في تفسير الثعالبي (٣/ ٥٦) بلا نسبة، ولم أجده لغيرهما.

ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] على أن هذه محتملة، فقوله في الآية: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ وشُعَيْبٌ عليه السلام لم يكن قط كافراً، يقتضي أنها بمعنى صار، وأما في جهة المؤمنين به بعد كفرهم فيترتب المعنى الآخر ويخرج عنه شعيب إلا أن يريدوا عودته إلى حال سكوته قبل أن يبعث، وقوله ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ توقيف منه لهم على شنعة المعصية، وطلب أن يقروا بألسنتهم بإكراه المؤمنين بالله على الإخراج ظلماً وغشماً.

والظاهر في قوله: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ أنه خبر منه، أي: لقد كنا نواقع عظيماً ونفتري على الله الكذب في الرجوع إلى الكفر، ويحتمل أن يكون على جهة القسم الذي هو في صيغة الدعاء، مثل قول الشاعر:

بَقَّيْتُ وَفْري [وانحرفتُ عن العُلى][1] .... [الكامل]

وكما تقول: افتريت على الله إن كلَّمت فلاناً.

و﴿ٱفْتَرَيْنَا﴾ معناه: شققنا بالقول واختلفنا، ومنه قول عائشة: «من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية»[2].

ونجاة شعيب من ملتهم كانت منذ أول أمره، ونجاة من آمن معه كانت بعد مواقعة الكفر.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يحتمل أن يريد: إلا أن يسبق علينا من الله في ذلك سابق سوء، وينفذ منه قضاء لا يردّ.

قال القاضي أبو محمد: والمؤمنون هم المجوِّزون لذلك، وشعيب قد عصمته النبوة، وهذا أظهر ما يحتمل القول.

---

(١) زيادة من السليمانية، وتمام البيت: ولقيت أضيافي بوجه عبوس، وهو للأشتر كما تقدم في تفسير الآية (١٥٦) من سورة البقرة.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ويحتمل أن يريد استثناء ما يمكن أن يتعبد الله به المؤمنين مما تفعله الكفار من القربات، فلما قال لهم: إنا لا نعود في ملتكم، ثم خشي أن يتعبد الله بشيء من أفعال الكفرة فيعارِضَ ملحد بذلك، ويقولَ: هذه عودة إلى ملتنا، استثنى مشيئة الله تعالى فيما يمكن أن يتعبد به. ويحتمل أن يريد بذلك معنى الاستبعاد كما تقول: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب، وحتى يلج الجمل في سم الخياط، وقد علم امتناع ذلك، فهو إحالة / على مستحيل. [٢/ ١٥٥]

قال القاضي أبو محمد: وهذا تأويل إنما هو للمعتزلة الذين من مذهبهم أن الكفر والإيمان ليسا بمشيئة من الله تعالى، فلا يترتب هذا التأويل إلا عندهم، وهذا تأويل حكاه المفسرون ولم يشعروا بما فيه[١]، وقيل: إن هذا الاستثناء إنما هو تستر[٢] وتأدّب.

قال القاضي أبو محمد: ويقلق هذا التأويل من جهة استقبال الاستثناء، ولو كان في الكلام: إن شاء الله، قَوِي هذا التأويل.

وقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ معناه: وسع علمُ ربنا كلَّ شيء، كما تقول: تصبب زيدٌ عرقاً، أي: تصبب عرقُ زيد، و﴿وَسِعَ﴾ بمعنى أحاط.

وقوله: ﴿افْتَحْ﴾ معناه: احكُم، والفاتح والفتاح: القاضي بلغة حمير، وقيل: بلغة مراد. وقال بعضهم:

ألا أَبْلِغْ بَنِي عُصْمٍ رَسُولاً بِأَنِّي عَنْ فُتَاحَتِكُمْ غَنِيُّ[٣] [الوافر]

وقال الحسن بن أبي الحسن: إن كل نبي أراد الله هلاك قومه أمره بالدعاء عليهم ثم استجاب له فأهلكهم، وقال ابن عباس: ما كنت أعرف معنى هذه اللفظة حتى

---

(١) عزا الطبري هذا التأويل للسدي (١٢/ ٥٦٢-٥٦٣).

(٢) في نجيبويه: «تسنن».

(٣) هذا البيت للأسعر الجعفي كما في تهذيب اللغة (٤/ ٢٥٩)، وفي سمط اللآلي (١/ ٢٦٤): قال أبو محمد ابن أبي سعيد: البيت لمحمد بن حمران الشويعر الجعفي، وفي جمهرة اللغة (١/ ٣٨٦) أن قائله كندي، وهو في أكثر المصادر الأخرى بلا نسبة.

سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها: «تعال أفاتحك»، أي: أحاكمك[١].

وقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ استسلام لله وتمسك بلطفه[٢]، وذلك يؤيد التأويل الأول في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

هذه المقالة قالها الملأ لتُبّاعهم وسائر الناس الذي يقلدونهم.

و﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾: الزلزلة الشديدة التي ينال معها الإنسانَ اهتزازٌ وارتعاد واضطراب.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أن تكون[٣] فرقة من قوم شعيب أهلكت بالرَّجْفَة، وفرقة بالظلة، ويحتمل أن الظلة والرَّجْفَة كانتا في حين واحد.

وروي أن الله تعالى بعث شُعَيْباً إلى أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة، وقيل: هما طائفتان، وقيل: واحدة، وكانوا مع كفرهم يبخسون الكيل والوزن، فدعاهم فكذبوه فجرت بينهم هذه المقاولة المتقدمة، فلما عتوا وطالت بهم المدة فتح الله عليهم باباً من أبواب جهنم، فأهلكهم الحر منه فلم ينفعهم ظل ولا ماء، ثم إنه بعث سحابة فيها ريح طيبة فوجدوا برد الريح وطيبها فتنادوا: عليكم الظلة، فلما اجتمعوا تحت الظلة وهي تلك السحابة انطبقت عليهم فأهلكتهم[٤].

قال الطبري: فبلغني أن رجلاً من أهل مدين يقال له: عمرو بن جلهاء، قال لما رآها:

---

(١) أخرجه الطبري (١٤٨٥٤-١٤٨٥٦)، وابن أبي حاتم (٨٧٣٣) من طريق قتادة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو منقطع، وأخرجه ابن جرير (١٤٨٥٥)، وابن أبي حاتم (٨٧٣٤) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، كذلك بنفس المعنى، وقد تقدم.

(٢) في المطبوع: «بلفظه».

(٣) زيادة من السليمانية وفيض الله.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩/ ٢٨١١)، وتفسير الماوردي (٥/ ٨١).

[البسيط]

يَـا قَـوْم إنَّ شُـعَيْباً مُرْسَـلٌ فَذَرُوا عنكم سُـمَيْراً وَعِمْرَانَ بْنَ شَـدَّادِ
إنِّي أَرَى غَبْـيَةً[١] يا قَوْم قَدْ طَلَعَتْ تَدْعُو بِصَوْتٍ عَلَى صَمَّانَةِ الْوَادِي
وَإنَّـه لَـنْ تَـرَوْا فِيهَـا ضَحَـاءَ غَدٍ إلا الرَّقِيـمَ يُمَشِّـي بَيْـنَ أَنْجَادِ[٢]

وسمير وعمران كاهناهم، والرقيم كلبهم، وروي أن رسول الله ﷺ كان إذا ذكر شعيبا قال: «ذلك خطيب الأنبياء»، لقوله لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٣].

قال القاضي أبو محمد: يريد: لحسن مراجعته وجميلِ تلطفه.

وحكى الطبري عن أبي عبد الله البَجَلي[٤] أنه قال: أبو جادٍ وهوَّز وحطي وكلمن وصعفض وقرست أسماء ملوك مدين، وكان الملك يوم الظلة كلمن، فقالت أخته ترثيه:

[مجزوء الرمل]

كَـلَـمُـن قَـدْ هَـدَّ رُكْـنِـي هُـلْـكُـهُ وَسْـطَ الـمَـحَـلَّـهْ
سَـيِّـدُ الْـقَـوْمِ أَتَـاهُ الْـ ـحَـتْـفُ نَـارٌ وَسْـطَ ظُـلَّـهْ
جُـعِـلَـتْ نَـاراً عَـلَـيْـهِـمْ دَارُهُـمْ كَـالْـمُـضْـمَـحِـلَّـهْ[٥]

---

(١) كذا في فيض الله والطبري، وفي المطبوع والحمزوية: «غيمة»، وفي الأصل ونجيبويه ولالاليه: «غيبة»، وفي نور العثمانية: «عينه»، وفي السليمانية: «غينة».

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٥٦٧) فالأبيات لرجل من أهل مدين يقال له: عمرو بن جلهاء، وكذا في تفسير ابن أبي حاتم (٩/ ٢٨١٤).

(٣) هود: ٨٨، والحديث لا يصح مرفوعاً، أخرجه الطبري (١٤٨٦٤)، وابن أبي حاتم (٨٧٢٦، ١٥٩٢١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٢٠) من طريق محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن أبي سلمة الماجشون، عن النبي ﷺ مرسلاً، وفي رواية الحاكم بدون ذكر يعقوب بن أبي سلمة، وأخرجه ابن جرير (١٨٥١٢)، وابن أبي حاتم (١١١٦٢) من طريق أبي نعيم الفضل بن دكين، عن سفيان الثوري من قوله، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٧٢٥) عن مالك بن أنس من قوله.

(٤) هو إسماعيل بن أبي خالد البجلي مولاهم الكوفي، أحد أئمة الحديث أبو عبد الله، سمع أبا جحيفة وابن أبي أوفى، وروى عنه الحكم بن عتيبة وشعبة والسفيانان، وكان ثقة حجة، توفي نحو (١٤٦هـ)، تاريخ الإسلام (٩/ ٦٨).

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٥٦٨)، وفيه: «كلمون هد ركني»، فالأبيات لأخت كلمون تبكيه، وكذا في تفسير الثعلبي (٤/ ٢٦٣) وغيره.

قال القاضي أبو محمد: وهذه حكاية مظنون بها والله أعلم، وقد تقدم معنى ﴿جَٰثِمِينَ﴾.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ لفظ فيه للإخبار عن قوة هلاكهم ونزول النقمة بهم، والتنبيه على العبرة بهم، ونحو هذا قول الشاعر:

[الطويل] كأنْ لم يَكُنْ بينَ الحَجُونِ إلى الصَّفَا[١] ....

و﴿يَغْنَوْا۟﴾ معناه: يقيموا ويسكنوا.

قال القاضي أبو محمد: وغَنِيْتُ في المكان، إنما يقال في الإقامة التي هي مقترنة بتنعم وعيش مرضي، هذا الذي استقريت من الأشعار التي ذكرت العرب فيها هذه اللفظة فمن ذلك قول الشاعر:

[الوافر] وقد نَغْنَى بها ونرى عُصوراً بها يَقْتَدْنَنَا الخُرُدَ الخِذَالا[٢]

ومنه قول الآخر:

[الرمل] وَلَقَدْ يَغْنَى بِهَا جِيرَانُكِ الْـ ـمُمْسِكُو مِنْكِ بِعَهْدٍ وَوِصَالِ[٣]

أنشده الطبري[٤]، ومنه قول الآخر:

[الطويل] ألا حَيِّ من أجْلِ الحَبيبِ المَغانِيا[٥] ....

---

(١) عجزه: أنيسٌ ولم يسمرْ بمكةَ سامرُ، وهو لعمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي، كما في سيرة ابن هشام (١/ ١١٤)، ومعجم الشعراء (ص: ٢٠٤)، وفي جمهرة أشعار العرب (ص: ٥٦) أنه للحارث بن مضاض، وفي المنمق (ص: ٢٩٠): بكر بن غالب بن عمرو.

(٢) البيت للمرار الأسدي كما في الكتاب لسيبويه (١/ ٧٨)، والإنصاف في مسائل الخلاف (١/ ٨٥).

(٣) البيت لعبيد بن الأبرص كما في إيضاح الشواهد (٢/ ٦٣٥) وغيره.

(٤) تفسير الطبري (١٢/ ٥٦٩)، بلا نسبة، وهو لعبيد بن الأبرص كما في الخصائص (٢/ ٢٥٨).

(٥) صدر بيت لأبي حية النميري عجزه: لبسن البلى مما لبسن اللياليا، انظر: الأغاني (١٦/ ٣٣٠)، والكامل للمبرد (١/ ١٧٦).

ومنه قول مهلهل:

غَنِيَتْ دَارُنَا تِهَامَةَ فِي الدَّهْـ ـرِ وفيها بَنُو مَعَدٍّ حُلولاً[١] [الخفيف]

ويشبه أن تكون اللفظة من الاستغناء.

وأما قوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] ففيه هذا المعنى لأن المراد: كأن لم تكن ناعمة نضرة مستقلة، ولا توجد فيما علمتُ إلا مقترنة بهذا المعنى، وأما قول الشاعر:

غَنِينَا زَماناً بالتَّصَعْلُكِ والغِنى وكُلّاً سقاناه بكَأسَيْهما الدهرُ[٢] [الطويل]

فمعناه: استغنينا بذلك ورضيناه، مع أن هذه اللفظة ليست مقترنة بمكان.

وقوله: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ إلى آخر الآية، كلام يقتضي أن شُعَيْباً عليه السلام وجد في نفسه لما رأى هلاك قومه حزناً وإشفاقاً إذ كان أمله فيهم غير ذلك، فلما وجد ذلك طلب أن يثير في نفسه سبب التسلي عنهم والقسوة عليهم، فجعل يعدد معاصيهم وإعراضهم الذي استوجبوا به أن لا يتأسف عليهم، فذكر أنه بلغ الرسالة ونصح، والمعنى: فأعرضوا وكذبوا، ثم قال لنفسه: لما نظرت في هذا وفكرت فيه فكَيْفَ آسى على هؤلاء الكفرة؟ ويحتمل أن يقول هذه المقالة على نحو قول النبي ﷺ لأهل قليب بدر[٣].

وقال مكي: وسار شعيب بمن معه حتى سكن مكة إلى أن ماتوا بها[٤].

و﴿ءَاسَىٰ﴾: معناه: أحزن، وقرأ ابن وثاب وطلحة بن مصرف والأعمش: (إيسى) بكسر الهمزة[٥] وهي لغة كما يقال: إخال وإيمن، قال عبد الله بن عمر لا إخاله، وقال ابنه

---

(١) انظر عزوه له في مجاز القرآن (١/ ٢٢١).

(٢) البيت لحاتم الطائي كما في معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٥٨)، والأمالي للقالي (٢/ ٢٨٦)، والعقد الفريد (١/ ٢٣٦).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٧٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

(٤) تفسير الهداية لمكي (٤/ ٢٤٥٣).

(٥) انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٠)، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي (٤/ ٢٤٥٥)، والبحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٣٤٩).

[٢/ ١٥٦] عبد الله بن عبد الله بن عمر[١] في كتاب الحج: لا إيمن، / وجميع ذلك في البخاري[٢].

وهذه اللغة تطرد في العلامات الثلاث: همزة التكلم، ونون الجماعة، وتاء المخاطبة، ولا يجوز ذلك في ياء الغائب كذا قال سيبويه[٣].

وأما قولهم من وَجِل: يَيْجل، فلعله من غير هذا الباب.

قوله عزَّ وجَّل: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

هذه الآية خبر من الله عز وجل أنه ما بعث نبياً في مدينةٍ وهي القرية، إلا أخذ أهلها المكذبين له بالبأساءِ، وهي المصائب في الأموال[٤]، والهموم وعوارض الزمن، والضَّراء، وهي المصائب في البدن كالأمراض ونحوها، هذا قول ابن مسعود[٥]، وكثير من أهل اللغة.

وحكي عن السدي ما يقتضي أن اللفظتين تتداخل[٦]، فتقال كل واحدة على المعنيين[٧].

و﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ ترجٍّ بحسب اعتقاد البشر وظنونهم. ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ أي: ينقادون

---

(١) هو عبد الله بن عبد الله بن عمر العدوي المدني، وصي أبيه، سمع: أباه، وأبا هريرة، وعنه: عبد الرحمن ابن القاسم، والزهري، ومحمد بن جعفر بن الزبير، ومحمد بن يحيى بن حبان، وغيرهم، وثقه وكيع. توفي سنة (١٠٥هـ)، قبل أخيه سالم بعام. تاريخ الإسلام (٧/ ١٣٨).

(٢) قول ابن عمر أخرجه البخاري (١١٧٥)، وأما قول ابنه عبد الله: «لا إيمن» فهي رواية المستملي كما في عمدة القاري (٩/ ٢٨٢)، وانظر «صحيح البخاري» ـ اليونينية ـ (١٦٣٩).

(٣) الكتاب لسيبويه (٤/ ١١١).

(٤) في المطبوع: «الآمال»، في السليمانية وفيض الله ولالاليه: «المال».

(٥) تفسير الطبري (٣/ ٣٤٩).

(٦) في المطبوع: «تتداخلان».

(٧) تفسير الطبري (٣/ ٣٤٩)، وكذلك (١٢/ ٥٧٢).

إلى الإيمان، وهكذا قولهم: الحمى أضرعَتْني لك[١].

ثم قال تعالى أنه بعد إنفاذ الحكم في الأولين بدّل للخلق[٢] ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾، وهي البأْساءُ والضراءُ، ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾ وهي السراءُ والنعمة، وهذا بحسب ما عند الناس، وإلا فقد يجيءُ الأَمر كما قال الشاعر:

قَدْ يُنْعِمُ الله بالبَلْوَى وإِنْ عَظُمَتْ ... ويَبْتَلي الله بعضَ الْقَوْمِ بالنِّعَمِ[٣] [البسيط]

قال القاضي أبو محمد: وهذا إنما يصح مع النظر إلى الدار الآخرة والجزاء فيها، والنعمة المطلقة هي التي لا عقوبة فيها، والبلوى المطلقة هي التي لا ثواب عليها.

و﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ معناه: حتى كثروا، يقال: عفا النبات والريش يعفو: إذا كثر نباته وريشه[٤]، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وَلـكِـنَّـا نُـعِـضُّ السَّـيْـفَ مـنها ... بِأَسْوُقِ عَافِياتِ الشَّحْمِ كُومِ[٥] [الوافر]

وعليه قوله ﷺ: «أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى»[٦].

وعفا أيضاً في اللغة بمعنى درس وبلي، فقال بعض الناس: هي من الألفاظ التي تستعمل للضدين[٧]، وأما قول زهير:

.... علـى آثارِ مَـنْ ذَهَـبَ العَفـاءُ[٨] [الوافر]

---

(١) يضرب في الذل بعد العز، انظر: الأمثال لابن سلام (ص: ١٩).

(٢) في نسخة نجيبويه وفيض الله: «للخلف».

(٣) البيت لأبي تمام، كما في الموازنة (ص: ٩١)، والصناعتين (ص: ٢٢٧)، وزهر الآداب للقيرواني (١/ ١٢٤).

(٤) انظر: المخصص (٣/ ١٢٢)، باب الطين، ولفظة: «وريشه» زيادة من السليمانية.

(٥) البيت للبيد كما في مجاز القرآن (١/ ٢٢٢)، وأساس البلاغة (١/ ٦٥٩).

(٦) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٥٨٩٢)، ومسلم (٢٥٩) من حديث عبد الله بن عمر، واللفظ لمسلم.

(٧) انظر: المخصص (٤/ ١٧٨)، والأضداد للأنباري، (ص: ٨٦-٨٧).

(٨) صدر البيت: «تحمل أهلها عنها فبانوا»، انظر عزوه له في الصحاح للجوهري (٧/ ٢٨١)، والمحكم لابن سيده (١/ ٣٣٦)، وغريب الحديث لابن سلام (٤/ ٣٨٩)، ومقاييس اللغة (٤/ ٤٧).

فيحتمل ثلاثة معان: الدعاء بالدرس، والإخبار به، والدعاء بالنمو والنبات[١]، كما يقال: جادته الديم وسقته العهاد.

ولما بدل الله حالهم بالخير لطفاً بهم فنموا؛ رأى الخلف بعد ذلك ـ للكفر الذي هم فيه ـ أن إصابة الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء إنما هي بالاتفاق، وليست بقصد كما يخبر النبي، واعتقدوا أن ما أصابهم من ذلك إنما هو كالاتفاق الذي كان لآبائهم فجعلوه مثالاً، أي: قد أصاب هذا آباءنا فلا ينبغي لنا أن ننكره، فأخبر الله تعالى أنه أخذ هذه الطوائف التي هذا معتقدها.

وقوله: ﴿بَغۡتَةً﴾ أي: فجأة وأخذة أسفاً وبطشاً للشقاء السابق لهم في قديم علمه.

و(السرّاء) السرور والحَبْرة.

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ معناه: وهم مكذبون بالعذاب لا يتحسسون لشيء منه ولا يستشعرونه باستذلال ولا غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ الآية؛ المعنى في هذه الآية: أنهم لو كانوا ممن سبق في علم الله أن يكتسبوا الإيمان والطاعات ويتصفوا بالتقى لتبع ذلك من فضل الله ورحمته وإنعامه ما ذكر من بركات المطر والنبات، ولكنهم لما كانوا ممن سبق كفرهم وتكذيبهم، تبع ذلك أخذ الله لهم بسوء ما اجترموه، وكلٌّ مقدورٌ، والثوابُ والعقاب متعلق بكسب البشر، وبسببه استندت الأفعال إليهم في قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾، وفي ﴿كَذَّبُواْ﴾.

وقرأ الستة من القراء السبعة: ﴿لَفَتَحۡنَا﴾ بتخفيف التاء، وهي قراءة الناس، وقرأ ابن عامر وحده، وعيسى الثقفي وأبو عبد الرحمن: ﴿لفتّحنا﴾ بتشديد التاء[٢].

و«فتح البركات»: إنزالها على الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾[٣]، ومنه قالت الصوفية: الفتوح والبركات: النمو والزيادات، ومن السماء لجهة[٤]

---

(١) في المطبوع: «للنبات».

(٢) فهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١١)، والسبعة في القراءات (ص: ٢٨٦).

(٣) فاطر: ٢، وزاد في نسخة نجيبويه: «فلا ممسك لها».

(٤) في نسخة نجيبويه: «بهجة»، في الموضعين.

المطر والريح والشمس، ومن الأرض لجهة الإنبات والحفظ لما ينبت، هذا هو الذي يدركه نظر البشر ولله خدام غير ذلك لا يحصى عددهم، وما في علم الله أكثر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

هذه الآية تتضمن وعيداً للكفار المعاصرين لمحمدٍ ﷺ لأنه لما أخبر عما فعل في الأمم الخالية قال: ومن يؤمن هؤلاء أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك؟، وهذا استفهام على جهة التوقيف.

و«البأس»: العذاب، و﴿بَيَٰتًا﴾ نصب على الظرف، أي: وقتَ مبيتهم بالليل، ويحتمل أن يكون هذا في موضع الحال.

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: ﴿أَوْ أَمِنَ﴾ بسكون الواو وإظهار الهمزتين، وقرأ ورش عن نافع: ﴿أَوَ امن﴾، بفتح الواو وإلقاء حركة الهمزة الثانية عليها، وهذه القراءة في معنى الأولى ولكن سهلت.

وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿أَوَأَمِنَ﴾ بفتح الواو وإظهار الهمزتين[(١)].

ومعنى هذه القراءة: أنه دخل ألف الاستفهام على حرف العطف، ومعنى القراءة الأولى: أنه عطف بـ(أو) التي هي لأحد الشيئين، المعنى: أَفَأَمِنُوا هذا أو هذا كما تقول: أجاء زيد أو[(٢)] عمرو، وليست هذه (أو) التي هي للإضراب عن الأول، كما تقول: أنا أقوم أو أجلس، وأنت تقصد الإضراب عن القيام والإثبات للجلوس وتقريره.

وقولنا: التي هي لأحد الشيئين، تعم الإباحة والتخيير، كقولك: جالس الحسن

(١) وكلها سبعية، انظر: التيسير (ص: ١١١)، والسبعة في القراءات (ص/ ٢٨٦).
(٢) في السليمانية: «أم».

أو ابن سيرين أو قولك: جالس الحسن أو جالس ابن سيرين.

وقوله: ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يريد: في غاية الغفلة والإعراض.

و﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ هي إضافة مخلوق إلى الخالق[1]، كما تقول: ناقة الله وبيت الله، والمراد فعل يعاقب به مكرة الكفار، وأضيف إلى الله لما كان عقوبةَ الذنب، فإن العرب/ تسمي العقوبة على أي وجه كانت باسم الذنب الذي وقعت عليه العقوبة. [٢/ ١٥٧]

وهذا نصٌّ في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وهذا الموضع أيضاً، كأن كفرهم بعد الرسالة وظهور دعوة الله مكر وخديعة واستخفاف، وقيل: عومل في مثل هذا وغيره اللفظ دون المعنى في مثل قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، و«إن الله لا يَمَلُّ حتى تملوا»[2] وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾ الآية، هذه ألف تقرير دخلت على واو العطف، و﴿يَهْدِ﴾ معناه: يبين ويوضح، والهدى: الصباح، وأنشدوا على ذلك:

[البسيط] حَتَّى اسْتَبَنْتُ الهُدَى والبِيدُ هاجِمَةٌ ... يَسبحنَ في الآلِ غُلْفا أَوْ يُصَلِّينا[3]

ويحتمل أن يكون المبين اللهَ تعالى، ويحتمل أن يكون المبين قوله تعالى: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ﴾ أي: علمهم بذلك.

وقال ابن عباس[4] ومجاهد وابن زيد: (يهدي) معناه: يتبين[5].

وهذه أيضاً آية وعيد، أي: ألم يظهر لوارث الأرض بعد أولئك الذين تقدم ذكرهم وما حل بهم، أنا نقدر لو شئنا أن نصيبهم إصابة إهلاك بسبب معاصيهم، كما فعل بمن

(١) تقدم التنبيه على مذهب السلف في الصفات.
(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (١١٥١)، ومسلم (٧٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) البيت لابن مقبل، كما تقدم في تفسير سورة الفاتحة، وهو هناك بلفظ: «يخشعن» بدل «يسبحن»، وكذا في أكثر المصادر.
(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ٥٨٠) من طريق علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس.
(٥) تفسير الطبري (١٢/ ٥٨٠).

تقدم، وكنا (نطبع) أي: [نحتم، ونختم عليها بالشقاوة، وفي هذه العبارة ذكرُ القوم الذين قصد ذكرهم وتعديد][١] النعمة عليهم فيما ورثوا، والوعظُ بحالِ مَن سلف من المهلكين.

و(نطبع) عطف على الماضي[٢]، إذ المراد به الاستقبال، ويحتمل أن يكون ﴿وَنَطْبَعُ﴾ منقطعاً؛ إخباراً عن وقوع الطبع، لا أنه متوعَّدٌ به، ويبقى التوعد بالإهلاك الذي هو بعذاب كالصيحة والغرق ونحوه.

وقرأ أبو عمرو: ﴿وَنَطْبَع عَّلى﴾ بإدغام العين في العين وإشمام الضم، ذكره أبو حاتم[٣].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ (١٠٢)﴾.

﴿تِلْكَ﴾ ابتداء، و﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ قال قوم: هو نعت، والخبر ﴿نَقُصُّ﴾ ويؤيد هذا أنَّ القصدَ إنما هو الإخبار بالقصص.

قال القاضي أبو محمد: والظاهر عندي أن ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ هي خبر الابتداء، وفي ذلك معنى التعظيم لها ولمهلكها، وهذا كما قيل في ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢] إنه ابتداء وخبر، وكما قال ﷺ: «أولئك الملأ»[٤]، وكقول أبي الصلت[٥]: تلك المكارم[٦]، وهذا كثير.

---

(١) ساقط من نور العثمانية، وسقطت «ونختم» الثانية من المطبوع وفيض الله والسليمانية.

(٢) في المطبوع: «على أصبناهم».

(٣) على قاعدته في الإدغام الكبير، وهي قراءة متواترة رواها عنه السوسي، انظر: التيسير (ص: ٢٠).

(٤) هو ما روي من قوله ﷺ ـ في حديث طويل ـ في قتلى بدر من صناديد قريش: «أولئك الملأ الأكبر من قريش»، أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٨٦) من حديث عدي بن ثابت، وفي إسناده حصين السلولي وهو ابن مخارق، متهم بالكذب.

(٥) في المطبوع: «أمية بن أبي الصلت»، وأبو الصلت والد أمية، والبيت يعزى لهما.

(٦) من بيت له وهو:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيباً بماء فعادا بعدُ أبوالا

وقد تقدم قريباً في الآية ٨٧ من هذه السورة.

وكأن في اللفظ معنى التحسر على القرى المذكورة، والمعنى: نقص عليك من أنباء الماضين لتتبين العبر وتعلم المَثُلات التي أوقعها الله بالماضين.

ثم ابتدأ الخبر عن جميعهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾.

قال القاضي أبو محمد: وهذا الكلام يحتمل أربعة وجوه من التأويل:

أحدها: أن يريد أن الرسول جاء لكل فريق منهم فكذبوه لأول أمره، ثم استبانت حجته وظهرت الآيات الدالة على صدقه مع استمرار دعوته، فلجّوا هم في كفرهم ولم يؤمنوا بما تبين به تكذيبهم من قبل، وكأنه وصفهم على هذا التأويل باللجاج في الكفر والصرامة[1] عليه، ويؤيد هذا التأويل قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ويحتمل في هذا الوجه أن يكون المعنى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾؛ أي ما كانوا ليوفقهم الله إلى الإيمان؛ بسبب أنهم كذبوا قبلُ فكان تكذيبهم سبباً؛ لأن يمنعوا الإيمان بعد.

والثاني من الوجوه: أن يريد: فما كان آخرهم في الزمن والعصر ليهتدي ويؤمن بما كذب به أولهم في الزمن والعصر، بل كفر كلهم ومشى بعضهم على سنن بعض في الكفر.

قال القاضي أبو محمد: أشار إلى هذا القول النقاش[2]، فكأن الضمير في قوله: ﴿كَانُواْ﴾ يختص بالآخِرين، والضمير في قوله: ﴿كَذَّبُواْ﴾ يختص بالقدماء منهم.

والثالث من الوجوه: يحتمل أن يريد: فما كان هؤلاء المذكورون بأجمعهم لو ردوا إلى الدنيا ومُكنوا من العودة ليؤمنوا بما كذبوا في حال حياتهم ودعاء الرسول لهم، قاله مجاهد[3]، وقرنه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وهذه أيضاً صفة بليغة في اللجاج والثبوت على الكفر، بل هي غاية في ذلك.

والرابع من الوجوه: أنه يحتمل أن يريد وَصْفَهم بأنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما قد سبق

---

(١) في الحمزوية: «والصراحة».

(٢) نقله عنه في البحر المحيط (٥/ ١٢٥).

(٣) تفسير الثعلبي (٤/ ٢٦٦).

في علم الله تعالى أنهم مكذبون به، فجعل سابق القدر عليهم بمثابة تكذيبهم بأنفسهم، لا سيما وقد خرج تكذيبهم إلى الوجود في وقت مجيء الرسل، وذكر هذا التأويل المفسرون وقرنوه بأنَّ الله عز وجل حتم عليهم التكذيب وقت أخذ الميثاق، وهو قول أبي بن كعب[١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ الآية، أخبر تعالى أنه لم يجد لأكثرهم ثبوتاً على العهد الذي أخذه على ذرية آدم وقت استخراجهم من ظهره، قاله أبو العالية عن أبي بن كعب.

ويحتمل أن يكون الكلام عبارة عن أنهم لم يصرِّفوا عقولهم في الآيات المنصوبة، ولا شكروا نعم الله ولا قادتهم معجزات الأنبياء؛ لأن هذه الأمور عهد في رقاب العقلاء كالعهود ينبغي أن يوفى بها، وأيضاً فمِن لدن آدم تقرر العهدُ الذي هو بمعنى الوصية، وبه فسر الحسن هذه الآية، فيجيء المعنى: وما وجدنا لأكثرهم التزام عهد وقبولَ وَصاةٍ، ذكره المهدوي[٢].

و﴿مِّنْ﴾ في هذه الآية زائدة، إلا أنها تعطي استغراق جنس العهد ولا تجيء هذه إلا بعد النفي، و(إن) هي المخففة من الثقيلة عند سيبويه.

واللام في قوله: ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾ للفرق بين (إن) المخففة وغيرها، و(إن) عند الفراء هي بمعنى «ما»، واللام بمعنى «إلا»، والتقدير عنده: وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين[٣].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

---

(١) إسناده لين، أخرجه الطبري (١٢/ ٨) من طريق: حجاج، عن ابن جريج، عن أبي جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية، عن أبي به.

(٢) انظر قول الحسن في تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٣١)، وانظر: التحصيل للمهدوي (٣/ ٧٢).

(٣) انظر القولين في مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٢٩٧)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٦٤).

[٢/ ١٥٨] الضمير في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِم﴾ عائد على الأنبياء المتقدم ذكرهم وعلى أممهم/ .

و«الآيات» في هذه الآية عامٌّ في التسع وغيرها.

وقوله: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ المعنى: فظلموا أنفسهم فيها وبسببها، وظلموا أيضاً مُظهِرَها، ومتَّبِعي مُظْهِرِها.

وقيل: لما نزِّلت (ظلموا) منزلة كفروا وجحدوا عديت بالباء، كما قال:

[الرجز] قـد قـتـل الله زيـاداً عـنـــي(١) ....

فأنزل قتل منزلة صرف.

ثم حذر الله من عاقبة المفسدين الظالمين وجعلهم مثالاً يتوعد به كفرة عصر النبي ﷺ.

و﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ اسم كل ملك لمصر في ذلك الزمان، فخاطبه موسى بأعظم أسمائه وأحبها إليه، إذ كان من الفراعنة كالنماردة(٢) في اليونان، وقيصر في الروم، وكسرى في فارس، والنجاشي في الحبشة.

وروي أن موسى ابنُ عمران [بْنِ يَصْهُرَ](٣) بن فاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن.

وروي أن اسم فرعونِ موسى عليه السلام: الوليدُ بن مصعب، وقيل: هو فرعون يوسف وأنه عمِّر نيفاً وأربع مئة سنة.

قال القاضي أبو محمد: ومن قال إن يوسف المبعوث الذي أشار إليه موسى في قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٣٤] هو غير يوسف الصدِّيق فليس يحتاج إلى نظر.

---

(١) البيت للفرزدق كما تقدم في أول الكتاب.

(٢) في المطبوع: «النمارذة».

(٣) من السليمانية وفيض الله.

ومن قال إنه يوسف الصديق فيعارضه ما يظهر من قصة يوسف، وذلك أنه ملك مصر بعد عزيزها، فكيف يستقيم أن يعيش عزيزها إلى مدة موسى، فينفصل أن العزيز ليس بفرعون الملك إنما كان حاجباً له.

وقرأ نافع وحده: ﴿عَلَيَّ﴾ بإضافة (على) إليه، وقرأ الباقون على سكون الياء[١].

قال الفارسي: معنى هذه القراءة أن ﴿عَلَىٰٓ﴾ وضعت موضع «الباء»، كأنه قال: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، كما وضعت «الباء» موضع «على» في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦] فيتوصل إلى المعنى بهذه وبهذه[٢].

وكما تجيء «على» أيضاً بمعنى «عن»، ومنه قول الشاعر في صفة قوسه:

أَرْمي عَلَيْها وَهْيَ فَرْعٌ أَجْمَعُ   وَهْيَ ثلاثُ أَذْرُعٍ وإِصْبَعُ[٣]   [الرجز]

قال القاضي أبو محمد: و﴿حَقِيقٌ﴾ عَلى هذا معناه: جدير وخليق.

وقال الطبري: قال قوم: ﴿حَقِيقٌ﴾ معناه: حريص، فلذلك وصلت بـ﴿عَلَىٰٓ﴾[٤]. وفي هذا القول بُعدٌ.

وقال قوم: ﴿حَقِيقٌ﴾ صِفة لـ﴿رَسُولٌ﴾ تم عندها الكلام، و﴿عليَّ﴾ خبر مقدم، و﴿أَن لَّآ أَقُولَ﴾ ابتداء تقدم خبره.

وإعراب ﴿أَن﴾ على قراءة مَن سكَّن الياء خفضٌ، وعلى قراءة من فتحها مشددةً رفعٌ.

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١١)، والسبعة في القراءات (ص: ٢٨٧).

(٢) الحجة للفارسي (٤/ ٥٧).

(٣) البيت بلا نسبة في الكتاب لسيبويه (٤/ ٢٢٦)، وإصلاح المنطق (ص: ٢٢١)، والمعاني الكبير (٢/ ١٠٤٢)، وقد نسب في بعض المراجع لحميد الأرقط، كما في معجم القواعد العربية للشيخ عبد الغني الدقر (٤/ ٦)، يقال: قوسٌ فرْع: غير مشقوق، وقوسٌ فِلْقٌ: مشقوق.

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ١٤).

وقال الكسائي: في قراءة عبد الله: (حقيق بأن لا أقول)[١].

وقال أبو عمرو: في قراءة عبد الله: (حقيق أن لا أقول)، وبه قرأ الأعمش[٢].

وهذه المخاطبة إذا تأملت غاية في التلطف، ونهاية[٣] في القول اللين الذي أُمر عليه السلام به.

وقوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية، «البينة» هنا إشارة إلى جميع آياته، وهي على المعجزة هنا أدل، وهذا من موسى عرضُ نبوته ومن فرعون استدعاء خرق العادة الدال على الصدق.

وظاهر الآية وغيرها أن موسى عليه السلام لم تَنْبِنِ شريعته إلا على بني إسرائيل فقط، ولم يَدْعُ فرعون وقومه إلا إلى إرسال بني إسرائيل، وذكَّره لعله يخشى أو يزَّكَّى ويوحِّد كما يذكِّر كل كافر، إذ كل نبي داع إلى التوحيد وإن لم يكن آخذاً به ومقاتلاً عليه، وأمَّا أنه[٤] دعاه إلى أن يؤمن ويلتزم جميع الشرع فلم يَرِدْ هذا نصّاً، والأمر محتمل.

وبالجملة فيظهر فرقٌ مّا بين بني إسرائيل وبين فرعون والقبط، ألا ترى أن بقية القبط ـ وهم الأكثر ـ لم يرجع إليهم موسى أبداً ولا عارضهم، وكان القبط مثل عبدة البقر وغيرهم، وإنما احتاج إلى محاورة فرعون لتملكه على بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ الآية، روي أن موسى عليه السلام قلِق به وبمحاورته، فقال فرعون لأعوانه: خذوه، فألقى موسى العصا فصارت ثعباناً وهمَّت

---

(١) وهي شاذة. انظرها في معاني القرآن للنحاس (٣/ ٦١)، ومعاني القرآن للفراء (١/ ٣٨٦).

(٢) انظر عزوها لعبد الله في الكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٧)، ومع نقل أبي عمر بن العلاء عنه في معاني القرآن للنحاس (٣/ ٦٠)، وانظر عزوها للأعمش في البحر المحيط (٥/ ١٢٩)، وفي السليمانية: «أبو عمرو الداني».

(٣) ساقط من المطبوع.

(٤) في الأصل والحمزوية ونجيبويه: «أن».

بفرعون فهرب منها، وقال السدي: إنه أحدث، وقال: يا موسى كُفَّه عني، فكفَّه، وقال نحوه سعيد بن جبير[١].

و(إذا): ظرف مكان في هذا الموضع عند المبرد من حيث كانت خبراً عن جثة[٢].

والصحيح الذي عليه الناس أنها ظرف زمان في كل موضع.

ويقال: إن الثعبان وضع أسفل لحييه في الأرض وأعلاها في أعلى[٣] شرفات القصر.

و«الثعبان»: الحية الذكر، وهو أهول وأجرأ، قاله الضحاك، وقال قتادة: صارت حية أشعر[٤] ذكراً، وقال ابن عباس: غرزت ذنبها في الأرض ورفعت صدرها إلى فرعون[٥].

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ معناه: لا تخييل فيه بل هو بينٌ أنه حقيقة، وهو من «أبان» بمعنى «بان» [أو من «أبان» المعدى من «بان»][٦].

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ معناه: من جيبه أو كمه، حسب الخلاف في ذلك.

وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ﴾ قال مجاهد: كاللبن أو أشد بياضاً[٧].

وروي أنها كانت تظهر منيرة شفافة كالشمس تأتلق[٨].

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ١٦).

(٢) مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٢٩٧).

(٣) من فيض الله ونور العثمانية.

(٤) في المطبوع: «شعراء»، وانظر قول الضحاك وقتادة في تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٣١)، وتفسير الطبري (١٣/ ١٥ و١٧).

(٥) لم أره بهذا اللفظ، لكن روى الطبري (١٣/ ١٦) عن ابن عباس قريباً من هذا المعنى بإسناد فيه أبو سعد البقال، وهو ضعيف.

(٦) في المطبوع: «أو من بان بمعنى سلب عن أجزائه».

(٧) تفسير الطبري (١٣/ ١٨)، بتصرف يسير.

(٨) في المطبوع والحمزوية: «تتألق».

وكان موسى عليه السلام آدمَ[١] أحمر إلى السواد، ثم كان يردُّ يده فترجع إلى لون بدنه[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهاتان الآيتان عرَضهما موسى عليه السلام للمعارضة ودعا إلى الله بهما، وخرق العادة بهما، وتحدى الناس إلى الدين بهما، فإذا جعلنا التحدي الدعاء إلى الدين مطلقاً فبهما تحدى، وإذا جعلنا التحدي في الدعاء بعد العجز عن معارضة المعجزة وظهور ذلك فتنفرد حينئذٍ العصا بذلك؛ لأن المعارضة والعجز فيها وقعا.

قال القاضي أبو محمد: ويقال: التحدي هو الدعاء إلى الإتيان بمثل المعجزة، فهذا نحوٌ ثالثٌ، وعليه يكون تحدي موسى بالآيتين جميعاً؛ لأن الظاهر من أمره أنه عرضهما للنظر معاً وإن كان لم ينص على الدعاء إلى الإتيان بمثلها.

وروي عن فَرْقَد السَّبَخي[٣] أن فم الحية كان ينفتح أربعين ذراعاً[٤].

قوله عز وجل: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾.

[٢/ ١٥٩] الساحر كان عندهم في ذلك/ الزمن أعلى المراتب وأعظم الرجال، ولكن

(١) تحرفت في المطبوع إلى: «ذا دم».
(٢) تفسير الطبري (١٣/ ١٨).
(٣) هو فرقد بن يعقوب السبخي أبو يعقوب البصري الحائك، أحد العباد الأعلام، روى عن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وربعي بن حراش، وعنه سعيد بن أبي عروبة وحماد بن سلمة وهمام، وثقه ابن معين، وقال أحمد: ليس بقوي. تاريخ الإسلام (٨/ ٢٠١).
(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٤١١).

وصفهم موسى بذلك ـ مع مدافعتهم له عن النبوة ـ ذم عظيم وحط، وذلك قصدوا إذ[١] لم يمكنهم أكثر.

وقولهم: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ يعنون بأنه يحكم فيكم بنقل رعيتكم في بني إسرائيل، فيفضي ذلك إلى خراب دياركم إذا ذهب الخَدَمة والعَمَرة، وأيضاً فلا محالة أنهم خافوا أن يقاتلهم، وجالت ظنونهم كل مجال، وقال النقاش: كانوا يأخذون من بني إسرائيل خرجاً كالجزية، فرأوا أن ملكهم يذهب بزوال ذلك[٢].

وقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ الظاهر أنه من كلام الملأ بعضهم إلى بعض، وقيل هو من كلام فرعون لهم.

وروى كردم[٣] عن نافع: (تأمرونِ) بكسر النون، وكذلك في الشعراء[٤].

و(ما) استفهام و(ذا)[٥] بمعنى الذي، فهما ابتداء وخبر، وفي ﴿تَأْمُرُونَ﴾ ضمير عائد على «الذي» تقديره: تأمرون به. ويجوز أن تجعل ﴿فَمَاذَا﴾ بمنزلة اسم واحد في موضع نصب بـ﴿تَأْمُرُونَ﴾ ولا يضمر فيه على هذا.

قال الطبري: والسحر مأخوذ من: سحر المطر الأرض: إذا جادها حتى يقلب نباتها ويقلعه من أصوله، فهو يسحرها سحراً، والأرض مسحورة[٦].

قال القاضي أبو محمد: وإنما سحر المطرُ الطينَ إذا أفسده حتى لا يمكن فيه

---

(١) في المطبوع: «إن».

(٢) تفسير البحر المحيط (٥/ ١٢٤).

(٣) هو كردم بن خالد المغربي التونسي أبو خالد، وقيل: كردم بن خليد أبو خليد، قدم المدينة وعرض على نافع، وكان زاهداً عابداً فاضلاً، روى عنه أحمد بن جبير الأنطاكي قال الداني: ولا أعلم روى عنه أحد غيره، غاية النهاية (٢/ ٣٢).

(٤) الآية **٣٥**، وهي قراءة شاذة، انظر: البحر المحيط (٥/ ١٣٤).

(٥) في المطبوع: «وإذا»، وهو خطأ.

(٦) تفسير الطبري (١٣/ ١٩).

عمل، و«السحر»: الأَخْذة التي تأخذ العين حتى ترى الأمر غير ما هو، وربما سحر الذهن، ومنه قول ذي الرمة:

[الوافر] وَسَاحِرَةِ السراب مِنَ المَرامِي تَرَقَّصُ في نَوَاشِزِهَا الأُرُومُ[١]

أراد أنه يخيِّل نفسَه ماءً للعيون.

ثم أشار الملأ على فرعون بأن يؤخر موسى وهارون، ويدع النظر في أمرهما، ويجمع السحرة من كل مكان حتى تكون غلبة موسى بحجة واضحة معلومة بينة.

وقرأ ابن كثير: ﴿أرجئهُو﴾ بواو بعد الهاء المضمومة وبالهمز قبل الهاء.

وقرأ أبو عمرو: ﴿أرجئهُ﴾ بالهمز [قبل الهاء، إلا أنه اختلس ضمة الهاء][٢] دون واو بعدها.

وقرأ نافع وحده في رواية قالون: ﴿أرجهِ﴾ بكسر الهاء، ويحتمل أن يكون المعنى: أخِّره، فسهل الهمزة، ويحتمل أن يكون من الرجاء بمعنى: أطمِعْه ورجه قاله المبرد[٣].

وقرأ ورش عن نافع: ﴿أرجهي﴾ بياء بعد كسرة الهاء.

وقرأ ابن عامر: ﴿أرجئْهِ﴾ بكسر الهاء وبهمزة قبلها[٤]، قال الفارسي: وهذا غلطٌ[٥].

وقرأ عاصم والكسائي: (أرجهُ) بضم الهاء دون همز[٦].

---

(١) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٣/ ١٩)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٦٨)، والمحكم (١٠/ ٢٩٦)، وعندهم: «العيون» بدل «السراب».

(٢) من السليمانية.

(٣) انظر عزوه له في معاني القرآن للنحاس (٣/ ٦٣).

(٤) هذه رواية ابن ذكوان عنه مع اختلاس الحركة، أما هشام عنه فقراءته مثل قراءة ابن كثير.

(٥) في الأصل: «القابسي»، وهو خطأ، انظر الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٦٣)، وقوله هذا فاسد لأنها قراءة ثابتة متواترة.

(٦) هذه قراءة شاذة، فالمتواتر عن الكسائي في هذا الحرف: «أرجهي» مثل ورش أما عاصم فرواية حفص وشعبة «أرجهْ» بلا همز مع إسكان الهاء كما سيأتي عن أبان، وهي قراءة حمزة أيضاً، انظر الأوجه التي للقراء السبعة في التيسير (ص: ١١١).

وروى أبان عن عاصم: ﴿أَرْجِهْ﴾ بسكون الهاء، وهي لغة تقف على هاء الكناية [في الوصل][١] إذا تحرك ما قبلها، ومنه قول الشاعر:

أَنْحَى عَلَيَّ الدَّهْرُ رِجْلاً وَيَدَا ... فَيُصْلِحُ الْيَوْمَ وَيُفْسِدُهْ غَدَا[٢] [الرجز]

يُقْسِمُ لا يُصْلِحُ إلا أَفْسَدَا

وقال الآخر:

لَمَّا رأَى أنْ لا دَعَهْ وَلا شِبَعْ ... مَالَ إلَى أَرْطَاةِ حِقْفٍ فَاضْطَجَعْ[٣] [الرجز]

وحكى النقاش أنه لم يكن يجالس فرعون ولد غيةٍ[٤]، وإنما كانوا أشرافاً، ولذلك أشاروا بالإرجاء ولم يشيروا بالقتل، وقالوا: إنْ قتلته دخلت على الناس شبهة، ولكن اغلبه بالحجة.

و﴿ٱلْمَدَآئِنِ﴾ جمع مدينة، وزنها فعيلة من مَدَن، أو مفعلة من دان يدين، وعلى هذا يهمز مدائن أو لا يهمز.

و﴿حَٰشِرِينَ﴾ معناه: جامعين، قال المفسرون: وهم الشرط[٥].

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ على بناء المبالغة وكذلك في سورة يونس[٦].

---

(١) من نور العثمانية.

(٢) لدويد بن زيد بن نهد كما في طبقات فحول الشعراء (١/ ٣١)، والمؤتلف والمختلف (ص: ١٤٤)، وجمهرة الأمثال (١/ ٨٤).

(٣) البيت بلا نسبة في المحكم (١/ ١٠٠)، وتفسير الطبري (١٣/ ٢١)، ومعاني القرآن للفراء (١/ ٣٨٨)، وإصلاح المنطق (ص: ٧٦).

(٤) تفسير الثعالبي (٢/ ٤٣)، يقال: هو وَلَدُ غَيَّة بفتح الغين وبكسرها، أي: هو ولَدُ زنْية،، وهو نقيض قولهم: ولد رَشْدَة.

(٥) تفسير الطبري (١٣/ ٢٣)، وتفسير الثعلبي (٧/ ١٥٤)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢٤٥).

(٦) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٢).

وأجمعوا على ﴿سَحَّارٍ﴾ في سورة الشعراء.

وقال قتادة: معنى الإرجاء الذي أشاروا إليه: السجن والحبس[١].

وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ الآية، هنا محذوفات يقتضيها ظاهر الكلام، وهي أنه بعث إلى السحرة وأمرهم بالمجيء، وقال ابن عباس: إنه بعث غلماناً فعلموا بالفرما[٢].

وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية حفص: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ على جهة الخبر[٣].

وقرأوا في الشعراء: ﴿ أَئِنَّ لَنَا ﴾ ممدودة مفتوحة الألف، غير عاصم فإنه لا يمدها[٤].

قال أبو علي: ويجوز أن تكون على جهة الاستفهام وحذف ألفها[٥]، وقد قيل ذلك في قوله: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٢٢]، ومنه قول الشاعر:

[المنسرح] أَفْـرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْكِـرَامَ.....[٦] ....

وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي هنا وفي الشعراء: ﴿ أَئِنَّ لَنَا ﴾ بألف الاستفهام قبل (إنَّ)، وقرأت فرقة: ﴿أئنَّ﴾ دون مد، وقرأ أبو عمرو هنا وفي الشعراء: ﴿أينَّ﴾[٧].

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٢٢).

(٢) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري مطولاً (١٣/ ٢٥) وفي إسناده: سعيد بن المرزبان العبسي أبو سعد البقال الكوفي، وهو ضعيف، ولفظه: «فأعدّ فرعون علماء من بني إسرائيل، فبعث بهم إلى قرية بمصر يقال لها: «الفرما»، يعلمونهم السحر كما يعلِّم الصبيان الكِتَاب في الكتّاب» والفرما مدينة على الساحل من ناحية مصر كما في معجم البلدان (٤/ ٢٥٥).

(٣) وهي سبعية، انظر: التيسير (ص: ١١٢).

(٤) وسيأتي تفصيل ذلك في محله، إن شاء الله.

(٥) الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٦٥).

(٦) بقية البيت:

.... وأن أورث ذوداً شصائصاً نبلاً

وهو من أبيات لحضرمي بن عامر السدي، كما في أمالي القالي (١/ ٦٧)، والبيان والتبيين (٣/ ٢٠٨)، وأنساب الأشراف (١١/ ١٨٦)، والتعازي للمبرد (ص: ٢٥٩).

(٧) المتواتر عن أبي عمرو أنه يسهل الهمزة الثانية ويدخل قبلها ألفاً، وكذا قالون وهشام في أحد وجهيه. انظر: التيسير (ص: ٣٢).

و«الأجر» هنا: الأجرة، فاقترحوها إن غَلَبوا، فأنعم فرعون لهم بها وزادهم المنزلة والجاه، ومعناه: المقربين مني.

وروي أن السحرة الذين جاءوا إلى فرعون كانوا خمسة عشر ألفاً، قاله ابن إسحاق.

وقال ابن جريج: «كانوا تسع مئة»[١].

وذكر النقاش أنهم كانوا اثنين وسبعين رجلاً[٢].

وقال عكرمة: «كانوا سبعين ألفاً».

قال محمد بن المنكدر: «كانوا ثمانين ألفاً».

وقال السدي: مائتي ألف ونيفاً.

قال القاضي أبو محمد: وهذه الأقوال ليس لها سند يوقف عنده.

وقال كعب الأحبار: «كانوا اثني عشر ألفاً»[٣]، وقال السدي: «كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل مع كل رجل حبل وعصاً»، وقال أبو ثمامة: «كانوا سبعة عشر ألفاً»[٤].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ الآية، ﴿أَن﴾ في قوله: ﴿إِمَّآ أَن﴾ في موضع نصب أي إما أن تفعل الإلقاء، ويحتمل أن تكون في موضع رفع أي إما هو الإلقاء، وخير السحرةُ موسى في أن يتقدم في الإلقاء أو يتأخر.

---

(١) انظر قول ابن إسحاق وابن جريج في تفسير الطبري (١٨/ ٣٣٥)، وكذا قول السدي الثاني.

(٢) لم أقف عليه، ونقله تفسير السمعاني (٢/ ٢٠٣) عن ابن عباس، وتفسير البغوي (٣/ ٢٦٤) عن مقاتل.

(٣) انظر أقوال عكرمة وابن المنكدر وكعب في تفسير الطبري (١٣/ ٢٦)، إلا أن فيه ابن المنذر، وفي تفسير الثعلبي (٤/ ٢٦٩) وأكثر المصادر: ابن المنكدر، وتقدم قول السدي الثاني، أما قوله الأول فلم أقف عليه.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٣٥)، وأبو ثمامة هو بكر بن سوادة الجذامي المصري الفقيه، روى عن ابن عمرو بن العاص وسهل بن سعد، وعنه عمرو بن الحارث والليث، وثقه النسائي، واستشهد به البخاري، مات سنة (١٢٨هـ). تاريخ الإسلام (٨/ ٤٨).

قال القاضي أبو محمد: وهذا فعل الـمُدِلّ الواثق بنفسه، والظاهر أن التقدم في التخيلات والمخارق أنجح[١]، لأن بدليتهما[٢] تمضي بالنفس، فليظهر الله أمر نبوة موسى قوَّى نفسه ويقينه، ووثق بالحق فأعطاهم التقدم، فنشطوا وسُرُّوا حتى أظهر الله الحق وأبطل سعيهم.

وقوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ نص في أن لهم فعلاً مَا زائداً على ما يحدِثونه من التزويق[٣] والآثار في العصا وسائر الأجسام التي يصرِّفون فيها صناعتهم.

و(استرهبوهم) بمعنى: أرهبوهم، أي: أفزعوهم، فكأن فعلهم اقتضى واستدعى الرهبة من الناس، ووصف الله سحرهم بالعظيم، ومعنى ذلك من كثرته.

وروي أنهم جلبوا ثلاث مئة وستين بعيراً موقرة بالحبال والعصي، فلما ألقوها تحركت وملأت الوادي يركب بعضها بعضاً، فاستهول الناس ذلك واسترهبوهم[٤].

قال الزجاج: قيل: إنهم جعلوا فيها الزئبق فكانت لا تستقر[٥].

[٢/ ١٦٠] قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ / تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ۝١١٧ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ۝١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُوا۟ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝١٢٤﴾.

﴿أَنۡ﴾ في موضع نصب بـ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ أي: بأن ألق، ويحتمل أن تكون مفسِّرة بمعنى «أي» فلا يكون لها موضع من الإعراب.

---

(١) في المطبوع: «والحجج».
(٢) في المطبوع: «لأن بديلتها».
(٣) في المطبوع: «التزييف»، وفي الأصل: «التزيق».
(٤) في المطبوع: «استرهبوا»، وفي نور العثمانية: «واسترهبهم».
(٥) معاني القرآن وإعرابه له (٢/ ٣٦٦).

وروي أن موسى لما كان يوم الجمع خرج متكئاً على عصاه ويده في يد أخيه، وقد صف له السحرة في عدد عظيم حسبما ذكر، فلما ألقوا واسترهبوا أوحى الله إليه، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، فعظم حتى كان كالجبل، وقيل: إنه طال حتى جاز النيل، وقيل: كان الجمع بالإسكندرية وطال حتى جاز مدينة البحيرة، وقيل: كان الجمع بمصر وإنه طال حتى جاز بذنبه بحر القُلْزُم.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول بعيد من الصواب مُفْرِط الإغراق، لا ينبغي أن يلتفت إليه.

وروي أن السحرة لما ألقوا وألقى موسى عصاه جعلوا يرقون وجعلت حبالهم وعصيهم تعظم، وجعلت عصا موسى تعظم حتى سدت الأفق وابتلعت الكل ورجعت بعد ذلك عصا، فعندها آمن السحرة، وروي أن عصا موسى كانت عصا آدم عليهما السلام، وكانت من الجنة، وقيل: كانت من العير[١] الذي في وسط ورق الريحان، وقيل: كانت غصناً من الخبيز[٢]، وقيل: كانت لها شعبتان.

وقيل: كانت عِصِيُّ[٣] الأنبياء مختزنة عند شعيب، فلما استرعى موسى قال له: «اذهب فخذ عصاً»، فذهب إلى البيت فطارت[٤] هذه إلى يده [فأمره شعيب بردها وأخذ غيرها، ففعل فطارت هي إلى يده][٥]، فأخبر بذلك شعيباً وتركها له.

وقال ابن عباس: إن ملكاً من الملائكة دفع العصا إلى موسى في طريق مدين[٦].

و﴿تَلۡقَفُ﴾ معناه: تبتلع وتزدرد، و﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾ معناه: ما صوروا فيه إفكهم وكذبهم.

---

(١) في المطبوع والأصل ونجيبويه والسليمانية: «عين»، وسيأتي الكلام عليه في سورة طه.

(٢) في نجيبويه ونور العثمانية: «الخيزي»، وفي فيض الله: «الخبيزى».

(٣) في المطبوع والأصل ونجيبويه ونور العثمانية: «عصا».

(٤) في السليمانية: «فصارت».

(٥) ساقط من نور العثمانية.

(٦) منقطع، هذا الأثر أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦١٤١) من طريق قتادة عن ابن عباس، ولم يسمع منه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَلَقَّفُ﴾.

وقرأ عاصم في رواية حفص: ﴿تَلْقَفُ﴾ بسكون اللام وفتح القاف[١]، وقرأ ابن كثير في بعض ما روي عنه: ﴿هِىَ تَّلَقَّفُ﴾ بتشديد التاء[٢] على إدغام التاء في التاء من تتلقف، وهذه القراءة لا تترتب إلا في الوصل، وأما في الابتداء في الفعل فلا يمكن، وقرأ سعيد بن جبير: (تلقمُ) بالميم[٣] أي: تبتلع كاللقمة.

وروي أن الثعبان استوفى تلك الحبال والعصي أكلاً، وأعدمها الله عز وجل، ومد موسى يده إلى فمه فعاد عصا كما كان، فعلم السحرة حينئذٍ أن ذلك ليس من عند البشر، فخروا سجدا مؤمنين بالله ورسوله[٤].

وقوله تعالى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ الآية، (وَقَعَ) معناه: نزل ووُجد[٥].

و﴿ٱلْحَقُّ﴾ يريد به سطوع البرهان وظهور الإعجاز واستمرار التحدي إلى الدين على جميع العالم، و﴿مَاكَانُواْيَعْمَلُونَ﴾ لفظ يعم سحر السحرة وسعي فرعون وشيعته.

والضمير في قوله: ﴿ فَغُلِبُواْ﴾ عائد على جميعهم من سحرة فرعون[٦] وشيعته.

وفي قوله: ﴿وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ إن قدَّرنا انقلاب الجمع قبل إيمان السحرة فهم في الضمير، وإن قدرناه بعد إيمانهم فليسوا في الضمير، ولا لحقهم صَغَارٌ يصفهم الله به؛ لأنهم آمنوا واستشهدوا رضي الله عنهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ الآيات، لما رأى السحرة من عظيم القدرة وما تيقنوا به نبوة موسى آمنوا بقلوبهم، وانضاف إلى ذلك الاستهوالُ والاستعظام

---

(١) فهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٢).

(٢) وهي سبعية قرأ بها البزي عن ابن كثير على قاعدته في نظائرها، انظر: التيسير (ص: ٨٢).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها له في كتاب المصاحف (١/ ٢٢٢)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٧٠).

(٤) راجع تفسير الطبري (١٨/ ٣٣٨)، وتفسير الماوردي (٣/ ٤١٣).

(٥) في المطبوع: «وجدّ».

(٦) في المطبوع: «من سحرة ومن سعي فرعون».

والفزع من قدرة الله تعالى، فخروا سجداً لله تعالى متطارحين وآمنوا نطقاً بألسنتهم.

وتبينهم الرب بذكر موسى وهارون زوالٌ عن ربوبية فرعون وما كان يَتوهَّم فيه الجهال من أنه رب الناس.

و(هارون) أخو موسى أسنُّ منه بثلاث سنين.

وقول فرعون: ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ دليل على وهن أمره، لأنه إنما جعل ذنبهم مفارقة الإذن ولم يجعله نفس الإيمان إلا بشرط.

وقرأ عاصم في رواية حفص عنه في كل القرآن: ﴿ءَامَنتُم﴾ على الخبر، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر: ﴿آآمنتم﴾ بهمزة ومدة على الاستفهام وكذلك في طه والشعراء.

وقرأ حمزة والكسائي في الثلاثة المواضع: ﴿أآمنتم﴾ بهمزتين الثانية ممدودة، ورواها الأعمش عن أبي بكر عن عاصم[١].

وقرأ ابن كثير في رواية أبي الإخريط[٢] عنه: (وآمنتم)، وهي على ألف الاستفهام إلا أنه سهلها واواً فأجرى المنفصل مجرى المتصل في قولهم: تودة في تؤدة.

وقرأ قنبل عن القواس: ﴿وآمنتم﴾ وهي على القراءة بالهمزتين: ﴿أآمنتم﴾ إلا أنه سهل ألف الاستفهام واواً، وترك ألف أفعلتم على ما هي عليه[٣].

والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يحتمل أن يعود على اسم الله تعالى، ويحتمل أن يعود على موسى عليه السلام، وعنفهم فرعون على الإيمان قبل إذنه، ثم ألزمهم أن هذا كان على

---

(١) انظر هذه القراءات الثلاث السبعية في التيسير (ص: ٢١٢)، وقد وافق البزي عن ابن كثير نافعاً ومن معه، وشعبةُ حمزةَ ومن معه.

(٢) هو وهب بن واضح أبو الإخريط المكي، شيخ القراء، قرأ على إسماعيل القسط، وشبل بن عباد، وتصدر للإقراء، وأخذ عنه جماعة منهم: أبو الحسن أحمد بن محمد النبال، وأبو الحسن البزي، وغيرهما، مات سنة (١٩٠هـ). تاريخ الإسلام (١٢/ ٤٤٤).

(٣) إبدال همز الاستفهام واواً روايةُ قنبل، كما في التيسير (ص: ٢١٢)، وانظر رواية أبي الإخريط والقواس في السبعة (ص: ٢٩٠).

اتفاق منهم، وروي في ذلك عن ابن عباس وابن مسعود: أن موسى اجتمع مع رئيس السحرة واسمه شمعون فقال له موسى: «أرأيت إن غلبتكم أتؤمنون بي»؟ فقال له: نعم، فعلم بذلك فرعون، فلذلك قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ ثم قال للسحرة: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ الآية، فرجع فرعون في مقالته هذه إلى الخذلان والغشم وعادة ملوك السوء إذا غولبوا.

وقرأ حميد المكي وابن محيصن ومجاهد: (لأَقْطَعن) بفتح الهمزة والطاء وإسكان القاف، (ولأَصْلُبن) بفتح الهمزة وإسكان الصاد وضم اللام، وروي بكسرها[1].

و﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾ معناه: يمنى ويسرى.

قال القاضي أبو محمد: والظاهر من هذه الآيات أن فرعون توعد وليس في القرآن نص على أنه أنفذ ذلك وأوقعه، ولكنه روي أنه صلب بعضهم وقطع.

قال ابن عباس: «فرعون أول من صلب وقطع من خلاف»[2].

وقال ابن عباس وغيره فيهم: «أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء»[3].

وأما التوعد فلجميعهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

[٢/ ١٦١] / هذا تسليم من مؤمني السحرة، واتكال على الله، وثقةٌ بما عنده.

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لهم في مختصر الشواذ (ص: ٥٠)، والكامل للهذلي (ص: ٣٨٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٣٤) عن سفيان بن وكيع عن أبي داود الحفري وحبُّويه الرازي، و(١٨/ ٣٣٨) عن محمد بن حميد الرازي، كلاهما عن يعقوب بن عبد الله القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس به. وجعفر لينه ابن منده في سعيد بن جبير، فالله أعلم.

(٣) ذكره عنه السدي، وقد روي هذا عن جماعة من التابعين، انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٣٦).

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَنقِمُ﴾ بكسر القاف.

وقرأ أبو حيوة وأبو البرهسم وابن أبي عبلة والحسن بن أبي الحسن: (تنقَم) بفتحها[١]، وهما لغتان، قال أبو حاتم: الوجه في القراءة كسر القاف[٢]، وكل العلماء أنشد بيت ابن الرقيات:

ما نَقَمُوا مِنْ بني أُمَيَّةَ .....[٣] .... [المنسرح]

بفتح القاف، ومعناه: وما تعد علينا ذنباً وتؤاخذنا به.

وقولهم: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ معناه: عُمَّنا كما يعم الماء من أفرغ عليه، وهي هنا استعارة.

وقال ابن عباس: «لما آمنت السحرة اتبع موسى ست مئة ألف من بني إسرائيل»[٤].

وحكى النقاش عن مقاتل أنه قال: «مكث موسى بمصر بعد إيمان السحرة عاماً أو نحوه يريهم الآيات»[٥].

وقول ملأ فرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾، مقالة تتضمن إغراء فرعون بموسى وقومه، وتحريضه على قتلهم أو تغيير ما بهم حتى لا يكون لهم خروج عن دين فرعون.

ومعنى ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾: أتترك.

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥١)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٧٠)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٦١).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) بقية البيت:

.... إلا أنهم يحلمون إن غضبوا

انظر عزوه له في البيان والتبيين (٣/ ٢٣٥)، والأغاني (٤/ ٣٤١)، والشعر والشعراء (١/ ٥٣١)، والكامل (٢/ ٢٠٠)، وتهذيب اللغة (٩/ ١٦٢).

(٤) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٣/ ٤٢)، وفي إسناده سعيد بن المرزبان العبسي أبو سعد البقال الكوفي، ضعيف.

(٥) نقله في البحر المحيط (٥/ ١٤٣) عن مقاتل.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيَذَرَكَ ﴾ [بفتح الراء][١]، ونصبُه على معنيين:

أحدهما: أن يقدر، وأن يذرك، فهي واو الصرف، فكأنهم قالوا: أتذره وأن يذرك؟ أي: أتتركه وتركك، والمعنى الآخر: أن يعطف على قوله: ﴿لِيُفْسِدُواْ﴾.

وقرأ نعيم بن ميسرة والحسن بخلاف عنه: (ويذرُك) بالرفع[٢] عطفاً على قولهم: ﴿أَتَذَرُ﴾.

[وقرأ الأشهب العقيلي: «ويذرْك» بإسكان الراء[٣] وهذا على التخفيف من (يذرك)][٤].

وقرأ أنس بن مالك: (ونذرُك) بالنون ورفع الفعل[٥] على معنى توعد منهم، أو على معنى إخبار أن الأمر يؤول إلى هذا.

وقرأ أبي بن كعب وعبد الله: (في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك)[٦].

قال أبو حاتم: وقرأ الأعمش: (وقد تركك وآلهتك)[٧].

وقرأ السبعة وجمهور من العلماء: ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ على الجمع.

قال القاضي أبو محمد: وهذا على ما روي أن فرعون كان في زمنه للناس آلهة من بقر وأصنام وغير ذلك، وكان فرعون قد شرع ذلك لهم، وجعل نفسه الإله الأعلى، فقوله على هذا فَقَالَ ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، إنما هو بمناسبة بينه وبين سواه من المعبودات.

---

(١) سقط من المطبوع.

(٢) وهي شاذة، انظرها في المحتسب (١/ ٢٥٦)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٧١)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٦١).

(٣) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٥٦)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٦١).

(٤) ساقط من المطبوع.

(٥) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥١)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٦٢)، وفي السليمانية: «الراء» بدل «الفعل».

(٦) وهي شاذة، انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٣٧)، وكتاب المصاحف (١/ ١٧٦)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٦٧).

(٧) انظر قراءة الأعمش في البحر المحيط (٥/ ١٤٣).

وقيل: إن فرعون كان يعبد حجراً كان يعلقه في صدره كياقوتة أو نحوها.

قال الحسن: «كان لفرعون حنانة معلقة في نحره يعبدها ويسجد لها».

وقال سليمان التيمي: «بلغني أنه كان يعبد البقر»، ذكره أبو حاتم[(١)].

وقرأ ابن عباس وعلي بن أبي طالب وابن مسعود وأنس بن مالك وجماعة غيرهم: (وَإِلَهَتَكَ)[(٢)] أي: وعبادتك والتذلل لك، وزعمت هذه الفرقة: أن فرعون لم يُبِحْ عبادة شيء سواه، وأنه في قوله: ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾[(٣)] إنما أراد: الأعظم والأكبر، دون مناسبة.

قال ابن عباس: «كان فرعون يُعْبَدُ ولا يَعْبُد»[(٤)].

وقرأ ابن كثير: ﴿سَنَقْتُل﴾ بالتخفيف و﴿يُقَتِّلُونَ﴾ بالتشديد، وخففهما جميعاً نافعٌ.

وقرأ أبو عمرو وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ و﴿سَنُقَتِّلُ﴾ بالتشديد فيهما[(٥)] على المبالغة.

والمعنى: سنستمر على ما كنا عليه من تعذيبهم وقطعهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ يريد: في المنزلة والتمكن من الدنيا.

و﴿قَٰهِرُونَ﴾ يقتضي تحقير أمرهم، أي: هم أقل من أن يهتم بهم.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) انظر الأقوال الثلاثة في معاني القرآن للنحاس (٣/ ٦٥) بتصرف.

(٢) بكسر الهمزة وفتح اللام وبعدها ألف كما في تفسير الطبري (١٣/ ٣٨)، والهداية لمكي (٤/ ٢٤٩٨).

(٣) يعني ما حكاه الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ النازعات: ٢٣، ٢٤.

(٤) لا يصح، هذا الأثر أخرجه الطبري (١/ ١٢٣-١٢٤) عن شيخه سفيان بن وكيع بن الجراح، رواه عنه مرتين، ووقع بين الإسنادين اختلاف، وسفيان فيه مقال معروف.

(٥) وكلها سبعية، انظر: التيسير (ص: ١١٢)، والسبعة في القراءات (ص: ٢٩٢).

فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

لما قال فرعون ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ وتوعَّدهم، قال موسى عليه السلام لبني إسرائيل يثبتهم ويعدهم [عن الله][1]: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ وظاهر هذا الكلام كلِّه وعد بغيب، فكأن قوته تقتضي أنه من عند الله وليس في اللفظ شيء من ذلك.

و﴿ٱلْأَرْضَ﴾: أرض الدنيا وهو الأظهر، وقيل: المراد هنا أرض الجنة، وأما في الثانية فأرض الدنيا لا غير.

وقرأت فرقة: (يورَثها) بفتح الراء[2].

وقرأ السبعة: ﴿يُورِثُهَا﴾ ساكنة الواو خفيفة الراء مكسورةً.

وروى حفص عن عاصم وهي قراءة الحسن: (يورِّثها) بتشديد الراء[3] على المبالغة.

و«الصبر»[4] في هذه الآية يعُمُّ الانتظار الذي هو عبادة والصبر في المناجزات.

وقولهم: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ يعنون به الذبح الذي كان في المدة التي كان فرعون يتخوف فيها أن يولد المولود الذي يخرب ملكه، والذي من بعد مجيئه يعنون به وعيد فرعون وسائر ما كان خلال تلك المدة من الإخافة لهم.

وقال السدي وابن عباس رضي الله عنه: إنما قالت بنو إسرائيل هذه المقالة، حين

---

(١) في المطبوع: «ما عند الله».

(٢) وهي شاذة عزاها في مختصر الشواذ (ص: ٥٠) لابن أبي ليلى.

(٣) انظر رواية حفص في السبعة (ص: ٢٩٢)، وليست من طرق التيسير، وقراءة الحسن في تفسير الثعلبي (٤/ ٢٧٢).

(٤) تحرفت في السليمانية إلى: «والضمير».

أَتبعهم فرعون واضطَرَّهم إلى البحر، فضاقت صدورهم ورأوا بحراً أمامهم وعدوّاً كثيفاً وراءهم فقالوا هذه المقالة[١].

قال القاضي أبو محمد: وبالجملة هو كلام يجري مع المعهود من بني إسرائيل من اضطرابهم على أنبيائهم، وقلةِ يقينهم وصبرهم على الدين.

واستعطاف موسى لهم بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ ووعدُه لهم بالاستخلاف في الأرض يدل على أنه يستدعي نفوساً نافرة، ويقوي هذا الظنِّ في جهة[٢] بني إسرائيل سلوكُهم هذه السبيل في غير قصة.

وحكى النقاش أنهم قالوا ذلك بمصر حين كلفهم فرعون من العمل ما لا يطيقون، وروي أنه كان يكلفهم عمل الطُّوب ويمنعهم التبن لِيَشُقَّ عليهم عملُه[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ تنبيه وحض على الاستقامة، وإن قدِّر هذا الوعد أنه من عند الله فيتخرج عليه قول الحسن بن أبي الحسن: «عَسى من الله واجبة»[٤].

وقد استُخلفوا في مصر في زمن داود وسليمان، وقد فتحوا بيت المقدس مع يوشع.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ الآية، أخبر أنه أخذ آل فرعون في تلك المدة التي كان موسى يدعوهم فيها بالسنين وهي الجدوب والقحوط، وهذه سيرة الله في الأمم، وكذلك فَعَل بقريش.

و«السنة» في كلام العرب: القحط، ومنه قول ليلى: والناس مُسْنِتُونَ[٥].

---

(١) ضعيف: هذا الأثر أخرجه الطبري (١٣/ ٤٤) وفي إسناده: سعيد بن المرزبان العبسي أبو سعد البقال الكوفي، وهو ضعيف.

(٢) من فيض الله ونور العثمانية.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) تفسير الماوردي (٢/ ٢٥٠).

(٥) هي ليلى الأخيلية، في قصتها مع الحجاج، كما في أمالي القالي (١/ ٨٧)، و«مسنتون» معناها: مقحطون.

[٢/ ١٦٢] وسَنة وعِضَة وما/ جرى مجراها من الأسماء المنقوصة تجمع بالواو والنون، ليس على جهة جمع السلامة، لكن على جهة العوض مما نقص، وكذلك أرض توهَّموا فيها نقص هاء التأنيث لأنه كان حقها أن تكون: أَرْضة، وأما حَرَّة وإحَرُّون فلأن التضعيف أبداً يعتل فتوهَّموه مثل النقص، وكسرُ السين من سنون وسنين وزيادة الألف في إحرين دليل على أنه ليس بجمع سلامة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ روي أن النخلة كانت لا تحمل إلا ثمرة واحدة، وقال نحوه رجاء بن حيوة[١]، وأراد الله عز وجل بهذا[٢] أن ينيبوا ويزدجروا عما هم عليه من الكفر، إذ أحوال الشدة تُرِقُّ القلوب وترغِّب فيما عند الله.

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

كان القصد في إصابتهم بالقحط والنقص في الثمرات أن ينيبوا ويرجعوا، فإذا بهم قد ضلوا وجعلوها تشاؤماً بموسى، فكانوا إذا اتفق لهم اتفاق حسن في غلَّات ونحوها قالوا: هذا لنا وبسببنا وعلى الحقيقة لنا، وإذا نالهم ضر قالوا: هذا بسبب موسى وشؤمه، قاله مجاهد وغيره[٣].

وقرأ جمهور الناس بالياء وشد الطاء والياء الأخيرة: ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾.

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٤٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٤٨)، وهو رجاء بن حيوة أبو نصر الكندي، وأبو المقدام الشامي، روى عن عبد الله بن عمرو، وعنه: إبراهيم بن أبي عبلة، وابن عون، وخلق. وكان أحد أئمة التابعين، وثقه غير واحد، مات سنة (١١٢هـ) وهو الذي نهض بأخذ الخلافة لعمر ابن عبد العزيز، وكان كالوزير لسليمان بن عبد الملك، ومناقبه كثيرة. تاريخ الإسلام (٧/ ٣٦٠).

(٢) من فيض الله والسليمانية.

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٤٧)، بتصرف.

وقرأ عيسى بن عمر وطلحة بن مصرِّف بالتاء وتخفيف الطاء: (تَطَـيَّروا)[١].

وقرأ مجاهد: (تشاءموا بموسى) بالتاء من فوق، وبلفظ الشؤم[٢].

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ﴾ معناه: حظُّهم ونصيبهم، قاله ابن عباس[٣].

وهو مأخوذ من زجر الطير، فسمي ما عند الله من القَدَر للإنسان طائراً لما كان الإنسان يعتقد أن كل ما يصيبه إنما هو بحسب ما يراه في الطائر، فهي لفظة مستعارة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿طَٰٓئِرُهُمۡ﴾، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: (طيرهم)[٤].

وقال: ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾، وجميعهم لا يعلم، إما لأن القليل علم: كالرجل المؤمن وآسية امرأة فرعون، وإما أن يراد الجميع وتجوّز في العبارة لأجل الإمكان.

ويحتمل أن يكون الضمير في قوله: ﴿طَٰٓئِرُهُمۡ﴾ لجميع العالم، ويجيء تخصيص الأكثر على ظاهره.

ويحتمل أن يريد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ﴾ ليس قريباً أن يَعْلَم؛ لانغمارهم في الجهل، وعلى هذا فيهم[٥] قليل معدٌّ لأنْ يعلم لو وفقه الله.

و﴿مَهۡمَا﴾ أصلها عند الخليل: «ما ما»[٦] فبدلت الألف الأولى هاء.

وقال سيبويه: هي «مه ما» خلطتا وهي حرف واحد[٧]، [لمعنىً واحد][٨].

---

(١) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٠)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٦٨)، والهداية لمكي (٤/ ٢٥٠٥).

(٢) وهي شاذة، مخالفة للرسم، أقرب للتفسير، وقد تابعه عليها في البحر المحيط (٥/ ١٤٨).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ٤٨) من طريقين منقطعين عن ابن عباس، الأول بلفظ: مصائبهم عند الله، والثاني: الأمر من قِبَل الله.

(٤) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٠)، والمحتسب (١/ ٢٥٧)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٦٨).

(٥) تحرفت في الأصل إلى: «فهم».

(٦) تحرفت في نور العثمانية إلى: «فأمَّا».

(٧) كتاب العين (٣/ ٣٥٨)، باب الهاء مع الميم، والكتاب لسيبويه (٣/ ٥٩-٦٠) باب الجزاء.

(٨) من فيض الله والسليمانية.

وقال غيره: معناه: «مه» [أي: كفَّ][1] و«ما» جزاء، ذكره الزجَّاج[2].

وهذه الآية تتضمن طغيانهم وعتوَّهم وقطعهم على أنفسهم بالكفر البَحْت[3].

وقوله تعالى: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ الآية، قال الأخفش: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ جمع طوفانة[4].

وهذه عقوبات وأنواع من العذاب بعثها الله عليهم ليزدجروا ويُنيبوا.

و«الطُّوفان» مصدر من قولك: طاف يطوف، فهو عام في كل شيء يطوف، إلا أن استعمال العرب له كثر في الماء والمطر الشديد، ومنه قول الشاعر:

[الرمل] غَـيَّـر الـجِـدَّةَ مِـنْ عرفانه خُرُقُ الرِّيـحِ وَطُوفَـانُ المَطَرْ[5]

ومنه قول أبي النجم:

[الرجز] ومَـدَّ طُـوفَـانٌ فَبَـثَّ مَـدَدَا شَـهْراً شَـآبِيبَ وَشَـهْراً بَـرَدَا[6]

وقال ابن عباس[7] ومجاهد والضحاك: «إن ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ في هذه الآية المطر الشديد، أصابهم وتوالى عليهم حتى هدم بيوتهم وضيق عليهم»[8].

وقيل: طم فيض النيل عليهم، وروي في كيفيته قصص كثير.

---

(١) من فيض الله ونور العثمانية والسليمانية.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج، (٢: ٣٦٩).

(٣) البحت: الخالص الصراح، القاموس المحيط (بحت).

(٤) معاني القرآن للأخفش (١/ ٣٣٥).

(٥) البيت لحسيل بن عرفطة كما في في تفسير الطبري (١٣/ ٥٣)، وخزانة الأدب للبغدادي (٩/ ٣٠٨)، وسماه الماوردي (٢/ ٢٥٣) الحسن بن عرفطة، وفي المطبوع وأكثر المصادر: «آياتها» بدل: «عرفانه».

(٦) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٣/ ٥٤)، وفيه وفي المطبوع: «قد مد»، تفسير الماوردي (٢/ ٢٥٣)، وفيه: «وَمَرَّ طُوفَانٌ».

(٧) رواه الطبري (١٣/ ٥٠) عن ابن عباس من طرق لينة.

(٨) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٥٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٥٢)، وفي الحمزوية: «طبق»، بدل «ضيق».

وقالت عائشة عن النبي ﷺ: «إن ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ المراد في هذه الآية هو الموت»[(١)].

وقال ابن عباس في بعض ما روي عنه: هو مصدرٌ معمًّى عُني به: شيء أطافه الله بهم[(٢)].

و(الْجَراد) معروف، قال الأخفش: هو جمع جرادة للمذكَّر والمؤنث، فإن أردت الفصل قلت: رأيت جرادة ذكَراً[(٣)].

وروي: أن الله عز وجل لما والى عليهم المطر غرقت أرضهم ومنعوا الزراعة؛ قالوا: يا موسى، ادع في كشف هذا عنا ونحن نؤمن، فدعا فدفعه الله عنهم، فأنبتت الأرض إنباتاً حسناً، فطغوا وقالوا: ما نود أنا لم نمطر، وما هذا إلا إحسان من الله إلينا، فبعث الله حينئذٍ الجراد فأكل جميع ما أنبتت الأرض.

وروى ابن وهب عن مالك أنه قال: روي أنه أكل أبوابهم، وأكل الحديد والمسامير، وضَيَّق عليهم غاية التضييق، وترك الله من نباتهم ما يقوم به الرمق، فقالوا لموسى: ادع في كشف الجراد ونحن نؤمن، فدعا فكشف، فرجعوا إلى كفرهم، ورأوا أن ما أقام رمقهم قد كفاهم[(٤)].

فبعث الله عليهم القمَّل وهي الدَّبَى؛ صغار الجراد الذي يثب ولا يطير؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة[(٥)]، وقيل: هو الحَمْنان وهو صغار القِرْدان، وقيل: هو البراغيث.

وقال ابن عباس: (الْقُمَّل): السوس الذي يخرج من الحنطة[(٦)].

---

(١) ضعيف، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٣/ ٥١) من طريق يحيى بن يمان، عن المنهال بن خليفة، عن الحجاج ـ هو ابن أرطاة ـ، عن الحكم بن ميناء، عن عائشة به، ويحيى كثير الخطأ، والمنهال ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٥٢) من طريق قابوس بن سفيان عن أبيه عن ابن عباس قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ قال: أمر الله الطوفان، ثم قرأ ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ وقابوس ضعّف لا سيما في أبيه.

(٣) نقله عنه النحاس في إعراب القرآن (٢/ ٦٨).

(٤) نقله الثعالبي (٢/ ٤٧).

(٥) تفسير الطبري (١٣/ ٥٥).

(٦) رواه الطبري (١٣/ ٥٤) عن ابن عباس بأسانيد لينة.

وقيل: الْقُمَّل [الوزغ، وحدِّثتُ أنه][1] حيوان صغير جدّاً أسود، وأنه بأرض مصر حتى الآن.

قال حبيب بن أبي ثابت: الْقُمَّل: الجعلان[2].

وقرأ الحسن: (القمْل) بفتح القاف وسكون الميم[3]، فهي على هذا بينة إذ هو القمل المعروف.

وروي: أن موسى مشى بعصاه إلى كثيب أهيل فضربه فانتشر كلُّه قملاً في مصر.

ثم إنهم قالوا: ادع في كشف هذا، فدعا ورجعوا إلى طغيانهم وكفرهم.

وبعث الله عليهم الضفادع [فكانت تدخل في فرشهم وبين ثيابهم، وإذا همَّ الرجل أن يتكلم وثب الضفدع في فمه.

قال ابن جبير: كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع[4].

وقال ابن عباس: كانت الضفادع][5] برية، فلما أرسلت على آل فرعون سمعت وأطاعت، فجعلت تقذف أنفسها في القدور وهي تغلي، فأثابها الله بحسن طاعتها برد الماء[6].

فقالوا: ادع في كشف هذا، فدعا فكشف، فرجعوا إلى كفرهم وعتوهم، فبعث الله عليهم الدم، فرجع ماؤهم الذي يستقونه ويحصل عندهم دماً، فروي أن الرجل منهم كان يستقي من البئر فإذا ارتفع إليه الدلو عاد دماً، وروي أنه كان يستقي القِبْطي والإسرائيلي

---

(١) ساقط من المطبوع، وسقطت «وحدثت» من الأصل، وفيه وفي نجيبويه: «الزرع»، وفي فيض الله ولالاليه: «الذرع».

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٥٦)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٧٠).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٥٧)، ومختصر الشواذ (ص: ٥٠).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٥٧)، وفي نجيبويه: «قاله ابن جبير».

(٥) ما بين القوسين ساقط من الأصل.

(٦) لا يصح، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٣/ ٦٣) عن محمد بن حميد الرازي، وليس بحجة.

بإناء واحد فإذا خرج الماء كان الذي يلي القبطيَّ دماً/ والذي يلي الإسرائيلي ماءً، إلى [٢/ ١٦٣] نحو هذا وشِبهه من العذاب بالدم المنقلب عن الماء، هذا قول جماعة من المتأولين.

وقال زيد ابن أسلم: إنما سلط الله عليهم الرُّعَاف، فهذا معنى قوله: ﴿وَٱلدَّمَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ التفصيل أصله في الأجرام: إزالة الاتصال، فهو تفريق شيئين، فإذا استعمل في المعاني فيراد أنه فرِّق بينها وأزيل اشتراكها[٢] وإشكالها، فيجيء من ذلك بيانُها.

وقالت فرقة من المفسرين: ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ يراد به: مفرَّقات بالزمن، والمعنى أنه كان العذاب يرتفع ثم يبقون مدة شهر ـ وقيل: ثمانية أيام ـ ثم يردُّ الآخر، فالمراد أن هذه الأنواع من العذاب لم تجئ جملة ولا متصلة، ثم وصفهم الله عز وجل بالاستكبار عن الآيات والإيمان، وأنهم كان لهم اجترام على الله تعالى وعلى عباده.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

﴿ٱلرِّجْزُ﴾: العذاب، والظاهر من الآية أن المراد بالرجز هاهنا العذاب المتقدم الذكرِ من الطوفان والجراد وغيره، وقال قوم من المفسرين: الإشارة هنا بالرجز إنما هي إلى طاعون أنزله فيهم، مات منهم في ليلة واحدة سبعون ألف قبطي، وروي في ذلك: أن موسى عليه السلام أمر بني إسرائيل بأن يذبحوا كبشاً ويضمخوا أبوابهم بالدم؛ ليكون ذلك فرقاً بينهم وبين القبط في نزول العذاب[٣].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٥٩).

(٢) في السليمانية: «اشتباكها».

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٧٠-٧١)، بتصرف يسير.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، وهذه الأخبار وما شاكلها إنما تؤخذ من كتب بني إسرائيل، فلذلك ضعِّفت.

وقولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ﴾ يريدون: بذِمامك وماتَّتك[1] إليه، فهي تعم جميع الوسائل بين الله وبين موسى، من طاعة من موسى، ونعمةٍ من الله تبارك وتعالى.

ويحتمل أن يكون ذلك منهم على جهة القسَم على موسى.

ويحتمل أن يكون المعنى: ادع لنا ربك ماتّاً إليه بما عهد إليك.

ويحتمل أن يكون شعروا[2] أن بين الله تعالى وبين موسى في أمرهم عهداً ما أن تكون الإشارة إليه، والأول أعم وألزم، والآخر يحتاج إلى رواية.

وقولهم: ﴿لَئِن كَشَفْتَ﴾ أي: بدعائك ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ﴾ قسمٌ وجوابه، وهذا عهد من فرعون وملئه الذين إليهم الحل والعقد، ولهم ضمير الجمع في قوله: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾.

وألفاظ هذه الآية تعطي الفرق بين القبط وبين بني إسرائيل في رسالة موسى؛ لأنه لو كان إيمانهم به على حد إيمان بني إسرائيل لمَا أرسلوا بني إسرائيل ولا فارقوا دينهم[3]، بل كانوا يشاركون فيه بني إسرائيل.

وروي أنه لما انكشف العذاب قال فرعون لموسى: اذهب ببني إسرائيل حيث شئت، فخالفه بعض ملئه فرجع فنكث.

وأخبر الله عزَّ وجلَّ أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا عهدهم الذي أعطوه موسى.

---

(١) أي: علاقتك به، من مت إليه يمت بقرابة أو نحوها.

(٢) في المطبوع والأصل ونجيبويه: «إن كان شعر»، وفي الحمزوية ونور العثمانية وفيض الله ولالاليه: «أن يكون شعر»، وفي جميع النسخ: «عهد» بالرفع، ولكن النصب أظهر.

(٣) في السليمانية وفيض الله: «بينهم».

و﴿إِذَا﴾ هاهنا للمفاجأة، و﴿إِلَىٰٓ﴾ متعلقة بـ﴿كَشَفۡنَا﴾، والأجل يراد به: غاية كل واحد منهم بما يخصه من الهلاك والموت، هذا اللازم من اللفظ، كما تقول: أخذت كذا إلى وقت، وأنت لا تريد وقتاً بعينه. وقال يحيى بن سلام: الأجل هنا: الغرق[١].

قال القاضي أبو محمد: وإنما قال هذا القول لأنه رأى جمهور هذه الطائفة قد اتفق أن هلكت غرقاً، فاعتقد أن الإشارة هنا بـالأجل إنما هي إلى الغرق، وهذا ليس بلازم؛ لأنه لا بدَّ أنه مات منهم قبل الغرق عالَم، وهم ممن أُخر وكشف عنهم العذاب إلى أجلٍ بلغه، ودخل في هذه الآية، فأين الغرق من هؤلاء؟ وأين هو ممن بقي بمصر ولم يغرق؟.

وذكر بعض الناس أن معنى الكلام: فلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ المؤجَّل إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ، ومحصول هذا التأويل: أن العذاب كان مؤجلاً، والمعنى الأولُ أفصح لأنه تضمن توعداً مّا.

وقرأ أبو البَـرَهْسَم وأبو حيوة: (ينكِثون) بكسر الكاف[٢].

و«النكث»: نقض ما أُبرم، ويستعمل في الأجسام وفي المعاني.

وقرأ ابن محيصن ومجاهد وابن جبير: (الرُّجز) بضم الراء في جميع القرآن[٣].

قال أبو حاتم: إلا أن ابن محيصن كسر حرفين: (رِجْزَ الشيطان) (وَالرِّجْزَ فاهْجُرْ)[٤].

قال القاضي أبو محمد: رآهما بمعنىً آخر بمثابة الرجز والنَّتْن الذي يجب التطهر منه.

و﴿ٱلۡيَمِّ﴾: البحر، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

---

(١) تفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢١٣).

(٢) وهي شاذة، انظر عزوها لأبي البرهسم في الشواذ للكرماني (ص: ١٩٣)، ولأبي حيوة في البحر المحيط (٥/ ١٥٤).

(٣) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٠)، والهداية لمكي (٤/ ٢٥١٩)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٧١).

(٤) لم أقف عليه.

[البسيط] داوِيَــةٌ ودُجــا لـيــلٍ كــأنَّــهمــا يَــمٌّ تَــراطَنُ في حَافَاتِـهِ الرُّومُ[(١)]

والباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ باء التسبيب، ووصف الكفار بالغفلة، وهم قد كذبوا ووردوا في صدر الآيات من حيث غفلوا عما تتضمنه الآيات من الهدى والنجاة، فعن ذلك غفلوا.

قوله عز وجل: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ كناية عن بني إسرائيل لاستعباد فرعون لهم وغلبته عليهم.

وقوله: ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ قال الحسن وقتادة وغيرهما: يريد أرض الشام، وقال أبو جعفر النحاس: وقيل: يراد أرض مصر[(٢)]، وهو قول الحسن في كتاب النقاش، وقالت فرقة: يريد الأرض كلها[(٣)].

قال القاضي أبو محمد: وهذا يتجه إما على المجاز؛ لأنه ملَّكهم بلاداً كثيرة، وإما على الحقيقة في أنه ملَّك ذريتهم وهو سليمان بن داود، ولكن الذي يليق بمعنى الآية، وروي فيها، هو أنه ملَّك أبناء المستضعفين بأعيانهم مشارق الأرض ومغاربها، لا سيما بوصفه الأرض بأنها التي بارك فيها، ولا يتصف بهذه الصفة وينفرد بها أكثر من غيرها إلا أرض الشام؛ لما بها من الماء والشجر والنعم والفوائد.

---

(١) انظر عزوه له في العين (٨/ ٩٢)، والحيوان (٦/ ٤٠٦)، وسر صناعة الإعراب (٢/ ٣١٠).

(٢) قول قتادة وقول النحاس في معاني القرآن له (٣/ ٧٢).

(٣) راجع تفسير الطبري (١٣/ ٧٧)، وانظر قول النقاش وقول الحسن في البحر المحيط (٥/ ١٥٤).

وحكى الطبري عن قائل لم يسمه ـ وذكر الزهراوي أنه الفراء ـ: أن ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ نصب على الظرف؛ أي: يُستضعفون في مشارق الأرض ومغاربها، وأن قوله: ﴿ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ معمول / لـ﴿أَوْرَثْنَا﴾، وضعَّفه الطبري[(١)]، وكذلك هو قول غير متجه. [٢/ ١٦٤]

و﴿ٱلَّتِى﴾ في موضع خفض نعت لـ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، ويجوز أن يكون في موضع نصب نعت لمشارق ومغارب، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ما سبق لهم في علمه وكلامه في الأزل من النجاة من عدوهم والظهور عليه، قاله مجاهد[(٢)].

وقال المهدوي: وهي قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥][(٣)].

وقيل: هي قوله: ﴿رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٢٩].

وروي عن أبي عمرو: (كلمات)[(٤)].

و﴿يَعْرِشُونَ﴾ قال ابن عباس[(٥)] ومجاهد: معناه: يبنون، وعرش البيت: سقفه، و«العرش»: البناء والتنضيد، وقال الحسن: هي في الكروم وما أشبهها[(٦)].

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم بكسر الراء، وقرأ الباقون: ابن عامر وعاصم فيما روي عنه والحسن وأبو رجاء ومجاهد بضمها[(٧)]، وكذلك في سورة النحل، وهما لغتان.

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٧٧)، ومعاني القرآن للفراء (١/ ٣٩٧).

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٧٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٦٣) بتصرف.

(٣) انظر: التحصيل للمهدوي (٣/ ٨٧).

(٤) وهي شاذة، عزاها في مختصر الشواذ (ص: ٥١)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٦٩)، لرواية عن عاصم.

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ٧٨) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٦) انظر: تفسير الثعلبي (٤/ ٢٧٣) بتصرف.

(٧) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٣) وانظر قراءة الباقين في البحر المحيط (٥/ ١٦٥)، وذكر مجاهداً في الأولين، وقد ورد ذكره في هامش السليمانية فقط، وعليه علامة تصحيح.

وقرأ ابن أبي عبلة: (يعرِّشون) و(يعكِّفون) بضم الياء فيهما وفتحة العين مشددة الراء والكاف مكسورتين[١].

قال القاضي أبو محمد: ورأيت للحسن البصري أنه احتج بقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية، على أنه لا ينبغي أن يخرج على ملوك السوء، وإنما ينبغي أن يصبر عليهم، فإن الله تعالى يدمرهم، ورأيت لغيره أنه قال: إذا قابل الناس البلاء بمثله وَكَلهم الله إليه، وإذا قابلوه بالصبر وانتظار الفرج أتى الله بالفرج، وروي هذا القول أيضاً عن الحسن[٢].

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَجَاوَزْنَا﴾.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: (وجوَّزنا) ذكره أبو حاتم والمهدوي[٣]، والمعنى: قطعناه بهم وجزعناه، وهذه الآية ابتداء خبر عنهم.

قال النقاش: جاوزوا البحر يوم عاشوراء، وأعطي موسى التوراة يوم النحر القابل، بين الأمرين أحد عشر شهراً[٤].

وروي أن قطعهم كان من ضفة البحر إلى ضفة المناوحة[٥] الأولى، وروي أنه قطع من الضفة إلى موضع آخر[٦] منها.

قال القاضي أبو محمد: فإما أن يكون ذلك بوحي من الله وأمرٍ؛ لِيَنْفُذ أمره في فرعون وقومه، وهذا هو الظاهر، وإما بحسب اجتهاد موسى في التخلص بأن يكون بين

---

(١) وهي شاذة، انظر: تفسير الثعلبي (٤/ ٢٧٣).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٦٣)، بتصرف.

(٣) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥١)، التحصيل للمهدوي (٣/ ٩٦).

(٤) تفسير الماوردي (٤/ ١٧٤)، بتصرف.

(٥) في نور العثمانية: «ضفته المباوحة»، وفي فيض الله والسليمانية: «ضفته المباربة» وفي المطبوع: «إلى الضفة المناوحة للأولى».

(٦) في نور العثمانية: «الحز».

موضعين أوعار وحائلات[١]، ووقع في كتاب النقاش أنه نيل مصر[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا خطأ لا تساعده رواية، ولا يحتمله لفظ إلا على تحامل، وإنما هو بحر القُلْزُم[٣].

و(القوم) المشار إليهم في الآية العرب[٤]، وقيل: هم الكنعانيون، وقال قتادة وقال أبو عمران الجَوْني[٥]: هم قوم من لَخْمٍ وجُذَام، والقوم في كلام العرب: الرجال خاصة، ومنه قول زهير:

وَلَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي ... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ[٦] [الوافر]

ومنه قوله عز وجل: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ ثم قال[٧]: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: ١١].

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر: ﴿يَعْكُفُونَ﴾ بضم الكاف، وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو في رواية عبد الوارث عنه: ﴿يعكِفون﴾ بكسرها[٨] وهما لغتان.

---

(١) أي: جبال لا تسلك، كما سيرد في سورة الشعراء.

(٢) تفسير الماوردي (٤/ ١٧٤).

(٣) وهو البحر الأحمر.

(٤) «العرب»، والواو بعدها ليست في نجيبويه ونور العثمانية وفيض الله والسليمانية، وهي في الأصل ملحقة في الهامش.

(٥) هكذا في أكثر النسخ الخطية، انظر عزوه لهما في تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٥٣)، وفي بعض النسخ: «وقال قتادة قال أبو عمران» دون العطف، وهو سهو لأن الناقل عن أبي عمران هو أبو قدامة وليس قتادة، وفي المطبوع والحمزوية: «قال أبو عمرو الجوني»، وهو خطأ أيضاً. وأبو عمران هو عبد الملك بن حبيب الجوني البصري رأى عمران بن حصين، وروى عن جندب بن عبد الله وأنس بن مالك، وعنه شعبة وأبان العطار والحمادان وآخرون، وثقه ابن معين وغيره، توفي سنة (١٢٨هـ)، وقيل: (١٢٣هـ). انظر: تاريخ الإسلام (٨/ ١٦٨).

(٦) انظر عزوه له في العين (٥/ ٢٣١)، ومجاز القرآن (٢/ ١٥٨)، والاشتقاق (ص: ٤٦)، والمعاني الكبير (١/ ٥٩٣)، وهو في ديوانه (ص: ١٣٦).

(٧) لفظة «ثم قال» زيادة من نسخة نجيبويه وفيض الله.

(٨) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٣)، والسبعة (ص: ٢٩٢).

و«العكوف»: الملازمة بالشخص لأمر ما والإكبابُ عليه، ومنه: الاعتكاف في المساجد، ومنه قول الراجز:

[الرجز] عكْفَ النَّبيط يلعبونَ الْفَنْـزَجَا[1] ....

و«الأصنام» في هذه الآية قيل: كانت بقراً على الحقيقة، وقال ابن جريج: كانت تماثيل بقر من حجارة وعيدان ونحوه، وذلك كان أولَ فتنة العجل[2].

قال القاضي أبو محمد: والظاهر من مقالة بني إسرائيل لموسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ أنهم استحسنوا ما رأوه من آلهة أولئك القوم، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى وفي جملة ما يتقرب به إلى الله عزَّ وجلَّ، وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى: اجعل لنا صنماً نُفْرِده بالعبادة ونكفر بربك، فعرَّفهم موسى أن هذا جهل منهم إذ سألوا أمراً حراماً فيه الإشراك في العبادة، ومنه، يتطرق إلى إفراد الأصنام بالعبادة والكفر بالله عز وجل.

وعلى هذا الذي قلتُ يقع التشابه الذي قصه النبي ﷺ في قول أبي واقد الليثي[3] له في غزوة حنين؛ إذ مروا على دوح سدرة خضراءَ عظيمة: اجعل لنا يا رسول الله ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط. وكانت ذات أنواط سرحةً لبعض المشركين يعلقون بها أسلحتهم، ولها يوم يجتمعون إليها فيه، فأراد أبو واقد وغيره أن يَشْرَع ذلك رسولُ الله ﷺ في الإسلام، فرأى رسول الله ﷺ أنها ذريعة إلى عبادة تلك السرحة، فأنكره، وقال: «الله أكبر، قلتم والله كما قالت بنو إسرائيل: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾؛ لتتبعُنَّ سَنَن من قبلكم»[4].

قال القاضي أبو محمد: ولم يقصد أبو واقد بمقالته فساداً.

---

(١) البيت للعجاج، كما تقدم في تفسير الآية (١٢٥) من سورة البقرة.

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٨٠)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٧٣).

(٣) هو الحارث بن مالك، وقيل: ابن عوف، قيل: شهد بدراً، ولا يثبت، وقال ابن سعد: أسلم قديماً، وكان يحمل لواء بني ليث وضمرة، يوم الفتح وحنين خرج إلى مكة، فجاور بها، وتوفي سنة (٧٥هـ)، أو (٨٥هـ). الإصابة (٧/ ٣٧٠).

(٤) إسناده صحيح، هذا الحديث أخرجه الحميدي (٨٧١)، وأحمد (٥/ ٢١٨رقم ٢١٨٩٧)، والترمذي (٢١٨٠)، والنسائي في الكبرى (١١١٢١)، وأبو يعلى في مسنده (١٤٤١)، وابن حبان في صحيحه (٦٧٠٢) وغيرهم من طريق الزهري عن سنان بن أبي سنان الديلي، عن أبي واقد به.

وقال بعض الناس: بل[1] كان ذلك من بني إسرائيل كفراً، ولفظة «الإله» تقتضي ذلك، وهذا محتمل، وما ذكرته أولاً أصح عندي، والله تعالى أعلم.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١﴾.

أعلمهم موسى عن الله عز وجل بفساد حال أولئك القوم، ليزول ما استحسنوه من حالهم، فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى أولئك القوم ﴿مُتَبَّرٞ﴾ أي: مُهْلَك مدمَّر رديُّ العاقبة، قاله السُّدي وابن زيد[2].

و«التبار»: الهلاك وسوء العقبى، وإناء متبَّر؛ أي: مكسور، وكسارتُه تِبرٌ، ومنه: تبر الذهب لأنه كسارة.

وقوله: ﴿مَّا هُمۡ فِيهِ﴾: لفظ يعم جميع حالهم، ﴿وَبَٰطِلٞ﴾ معناه: فاسد ذاهب مضمحلٌّ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ﴾ الآية، أمر الله موسى عليه السلام أن يُوْقفهم ويقررهم على هذه المقالة، ويحتمل أن يكون القول من تلقائه عليه السلام.

﴿أَبۡغِيكُمۡ﴾ معناه: أطلب لكم، من بغيتُ الشيء: إذا طلبته.

و﴿غَيۡرَ﴾ منصوبة بفعل مضمر، هذا هو الظاهر، ويحتمل أن ينتصب على الحال كأن تقدير الكلام: قال: أبغيكم إلهاً غيرَ الله؟ فهي في مكان الصفة فلما قدِّمت نصبت على الحال.

و﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لفظ عام يراد به تخصيص عالَم زمانهم، لأنَّ أمة محمد ﷺ أفضل منهم بإجماع، ولقوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، اللهم إلا أن يراد بالفضل / كثرة الأنبياء منهم، فإنهم فضِّلوا في ذلك على العالمين بالإطلاق. [٢/ ١٦٥]

---

(١) من السليمانية.

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٨٤).

ثم عدَّد عليهم في هذه الآية النعم التي يجب من أجلها أن لا يكفروا به ولا يرغبوا عبادة غيره.

وقرأت فرقة: (نجَّيناكم)[١]، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾، وقد تقدم.

وروي عن ابن عباس: ﴿وإذ أنجاكم﴾ أي: أنجاكم الله، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام[٢].

و﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ معناه: يحمِّلونكم ويكلِّفونكم، تقول: سامه خطةَ خَسْفٍ، ونحو هذا، ومساومةُ البيع يَنظر إلى هذا، وأن كل واحد من المتساومَيْنِ يكلف صاحبه إرادته.

ثم فسر ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ بقوله: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾.

و﴿بَلَآءٌ﴾ في هذا الموضع معناه: اختبار وامتحان.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ إشارة إلى سوء العذاب، ويحتمل أن يشير به إلى التنجية، فكأنه قال: وفي تنجيتكم امتحان لكم واختبار، هل يكون منكم وفاء بحسب النعمة؟!.

قال القاضي أبو محمد: والتأويل الأول أظهر.

وقالت فرقة: هذه الآية خاطب بها موسى من حضره من بني إسرائيل، وقال الطبري: بل خوطب بهذه الآية مَن كان على عهد محمد ﷺ تقريعاً لهم بما فُعل بأوائلهم وبما جازَوا به[٣].

قال القاضي أبو محمد: والأول أظهر وأبين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ

(١) وهي شاذة، مخالفة للرسم، تابعه عليها بلا نسبة في البحر المحيط (٥/ ١٥٩)، وتقدم عكسها في البقرة لابن أبي عبلة.

(٢) كذا في جميع النسخ: ابن عباس، والصواب ابن عامر فهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٣)، والسبعة (ص: ٢٩٣)، وانظر العزو لمصحف أهل الشام في تفسير الثعلبي (٤/ ٢٧٤).

(٣) راجع تفسير الطبري (١٣/ ٨٥)، وفي الحمزوية: «وبما جوزوا».

ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

قرأ أبو عمرو وأبيٌّ بن كعب وأبو رجاء وأبو جعفر وشيبة: ﴿ووعدنا﴾.

وقد تقدَّم في البقرة[١].

وأخبر الله تعالى موسى عليه السلام أن يتهيأ لمناجاته ثلاثين ليلة، ثم زاده في الأجل بعد ذلك عشر ليال، فذُكر أن موسى عليه السلام أعلم بني إسرائيل بمغيبه ثلاثين ليلة، فلما زاده العشر في حال مغيبه دون أن تعلم بنو إسرائيل ذلك وجست نفوسهم للزيادة على ما أخبرهم به، فقال لهم السامري: إن موسى قد هلك وليس براجع وأضلهم بالعجل فاتَّبعوه، قاله كلَّه ابنُ جريج[٢].

وقيل: بل أخبرهم بمغيبه أربعين، وكذلك أعلمه الله تعالى، وهو المراد بهذه الآية، قاله الحسن[٣]، وهو مثل قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ [البقرة: ١٩٦] وأنهم عدُّوا الأيام والليالي، فلما تم أربعون من الدهر قالوا: قد أخلف موسى، فضلوا، قال مجاهد: إن الثلاثين هي شهر ذي القعدة وإن العشر هي عشر ذي الحجة[٤]، وقاله ابن عباس[٥] ومسروق[٦].

وروي أن الثلاثين إنما وعد بأن يصومها ويتهيأ فيها للمناجاة ويستعد، وأن مدة المناجاة هي العشر، وقيل: بل مدة المناجاة الأربعون.

---

(١) الآية **٥٢**، وتقدم هناك أنها سبعية لأبي عمرو.

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٨٠).

(٣) تفسير الرازي (٣/ ٥١١).

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ٨٦)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢٥٦)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ١٧٤).

(٥) لم أجده.

(٦) تفسير الطبري (١٣/ ٨٧)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٤).

وإقبال موسى على الأمر والتزامه يحسِّن لفظ المواعدة، وحيث ورد أن المواعدة أربعون ليلة فذلك إخبار بجملة الأمر، وهو في هذه الآية إخبار بتفصيله كيف وقع.

و﴿أَرْبَعِينَ﴾ في هذه الآية وما بعدها في موضع الحال، ويصح أن تكون ﴿أَرْبَعِينَ﴾ ظرفاً من حيث هي عددُ أزمنة.

وفي مصحف أبي بن كعب: (وتمَّمْناها) بغير ألف وتشديد الميم(١).

وذكر الزجاج عن بعضهم قال: لما صام ثلاثين يوماً أنكر خُلوفَ فمه فاستاك بعودِ خَرُّوبٍ، فقالت الملائكة: إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسك فأفسدْتَه بالسواك، فزيدت عليه عشر ليال(٢).

و﴿ثَلَاثِينَ﴾ نصب على تقدير: أجَّلناه ثلاثين، أو: مناجاة ثلاثين، وليست منتصبةً على الظرف لأن المواعدة لم تقع في الثلاثين، ثم ردد الأمر بقوله: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، قيل: ليبين أن العشر لم تكن ساعات، وبالجملة فتأكيد وإيضاح.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ﴾ الآية، المعنى: وقال موسى حين أراد المضي للمناجاة والمغيب فيها.

و﴿ٱخْلُفْنِى﴾ معناه: كن خليفتي، وهذا استخلافٌ في حياة ـ كالوكالة التي تنقضي بعزل الموكِّل أو موته ـ لا يقتضي أنه متمادٍ بعد وفاة، فينحل على هذا ما تعلق به الإمامية في قولهم: إن النبي ﷺ استخلف علياً بقوله: «أنت مني كهارون من موسى»(٣)، وقال موسى: ﴿ٱخْلُفْنِى﴾ فيترتب على هذا أن علياً خليفة رسول الله ﷺ، وما ذكرناه يحُل هذا القياس.

وأمره في هذه الآية بـالإصلاح، ثم من الطرف الآخر في أن لا يتَّبع سبيل مفسد،

(١) وهي شاذة، تابعه عليها في البحر المحيط (٥/ ١٦٠).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٧٢).

(٣) متفق عليه بغير هذا اللفظ، أخرجه البخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص قال النبي ﷺ لعلي: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون، من موسى، واللفظ للبخاري.

قال ابن جريج: كان من الإصلاح أن يزجر السامري ويغيِّر عليه[١].

ثم أخبر الله تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء إلى الموضع الذي حُدَّ له، وفي الوقت الذي عيَّن له، وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قال تمنياً منه، أي ربّ، أرِني أنظُرْ إليك.

وقرأ الجمهور: (كَلَّمه) بكسر الراء، وقرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿أَرْنِي﴾ بسكون الراء[٢].

والمعنى في قوله: (كَلَّمه) أي[٣]: خلق له إدراكاً سمع به الكلام القائم بالذات، القديم الذي هو صفة ذات[٤].

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: أدنى اللهُ تعالى موسى حتى سمع صريف الأقلام في اللوح[٥].

وكلام الله عز وجلَّ لا يشبه شيئاً من الكلام الذي للمخلوقين، ولا في جهة من الجهات، وكما هو موجود لا كالموجودات، ومعلوم لا كالمعلومات، كذلك كلامه لا يشبه الكلام الذي فيه علامات الحدوث.

والواو عاطفة (كَلَّمه) على ﴿جَآءَ﴾، ويحتمل أن تكون واوَ الحال، والأولُ أبين.

وقال وَهْبُ بن منبِّهٍ: كلم الله موسى في ألف مقام، كان يُرى نور على وجهه ثلاثة أيام إثر كل مقام، وما قرب النساء منذ كلمه الله تعالى[٦].

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٨٨)، بتصرف.

(٢) فهما سبعيتان، إلا أن المأخوذ به للدوري الاختلاس، انظر: التيسير (ص: ٧٦)، وقد تقدم في حرف البقرة.

(٣) في فيض الله ونجيبويه والسليمانية: «أنه».

(٤) تقدم التنبيه على مذهب السلف في الصفات.

(٥) لم أقف على أثر ابن عباس، وقد ورد عن علي رضي الله عنه، أخرجه الطبري (١٣/ ١٢٤) وفي إسناده: أبو عمارة عن علي، ولم أعرف أبا عمارة هذا.، وانظر قول سعيد بن جبير في تفسير الطبري (١٣/ ١٢٦).

(٦) تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٥٨)، وسقط أول كلام وهب من الأصل.

وجواب (لَمَّا) في قوله ﴿قَالَ﴾، والمعنى: أنه لما كلمه وخصه بهذه المرتبة طمحت همته إلى رتبة الرؤية وتشوَّق إلى ذلك، فسأل ربه أن يريه نفسه، قاله السدي وأبو بكر الهذلي[١].

وقال الربيع: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] حتى سمع صريف الأقلام[٢].

ورؤية الله عز وجل عند الأشعرية وأهل السنة جائزة عقلاً، لأنه من حيث هو موجود تصح رؤيته، قالوا: لأن الرؤية للشيء لا تتعلق بصفة من صفاته أكثر من الوجود، إلا أن[٣] الشريعة قررت رؤية الله تعالى في الآخرة نصّاً، ومنعت من ذلك في الدنيا بظواهر من الشرع، فموسى عليه السلام لم يسأل ربه محالاً، وإنما سأل جائزاً[٤].

[٢/١٦٦] وقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ الآية/ ليس بجوابِ مَن سأل محالاً، وقد قال تعالى لنوح: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] فلو سأل موسى محالاً لكان في الكلام[٥] زجرٌ مّا وتبيين.

وقوله عز وجل: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ نصٌّ من الله تعالى على منعه الرؤية في الدنيا.

و﴿لَن﴾ تنفي الفعل المستقبل، ولو بقينا مع هذا النفي بمجرده لقضينا أنه لا يراه موسى أبداً ولا في الآخرة، لكن ورد من جهة أخرى بالحديث المتواتر: أن أهل الإيمان يرون الله تعالى يوم القيامة[٦]، فموسى عليه السلام أحرى برؤيته.

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٩٠-٩١)، وأبو بكر الهذلي اسمه سلمى بن عبد الله بن سلمى البصري، كان في صحابة المنصور، وكان أخباريّاً علامة، روى عن الحسن وعكرمة والشعبي وغيرهم، وضعفه ابن معين وأحمد، توفي سنة (١٥٧هـ)، تاريخ الإسلام (٩/ ٦٧٦).

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٩١).

(٣) في فيض الله: «لأن» بدل «إلا أن».

(٤) انظر ذلك المعنى في شرح المقاصد (٢/ ١١١).

(٥) في نور العثمانية: «الجواب».

(٦) أخرج البخاري (٧٤٣٦)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله، قال: خرج علينا =

وقال مجاهد وغيره: إن الله عز وجل قال لموسى: لن تراني ولكن سأتجلى للجبل الذي هو أقوى منك وأشد، فإن استقر وأطاق الصبر لهيبتي فستُمْكِنك أنت رؤيتي[١].

قال القاضي أبو محمد: فعلى هذا إنما جعل الله له الجبل مثالاً، وقالت فرقة: إنما المعنى: سأتبدى لك على الجبل، فإن استقر لعظمتي فسوف تراني، وروي في كيفية وقوف موسى وانتظاره الرؤية قصص طويل اختصرتُه لبعده وكثرة مواضع الاعتراض فيه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

قال المتأولون المتكلمون[٢] كالقاضي ابن الباقلاني وغيره: إن الله عز وجل خلق للجبل حياة وحسّاً وإدراكاً يرى به، ثم تجلى له، أي: ظهر وبدا سلطانه[٣]، فاندكَّ الجبل لشدة المَطْلِع، فلما رأى موسى ما بالجبل صعق[٤]، وهذا المعنى هو المروي عن ابن عباس[٥].

= رسول الله ﷺ ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته». لفظ البخاري.

(١) تفسير الطبري (١٣/ ١٠٠).

(٢) ساقط من المطبوع

(٣) «سلطانه»: سقطت من نور العثمانية والسليمانية.

(٤) انظر قول الباقلاني في: تفسير القرطبي (٧/ ٢٧٨)، وفيه أن موسى صعق من رؤية ربه.

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ٩٧) وغيره من طريق الحسين بن عمرو بن محمد (ووقع مقلوباً في المطبوع) العنقزي، عن أبيه، عن أسباط بن نصر، عن السدي، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، والحسين قال أبو زرعة: كان لا يصدق.

وأسند الطبري عن حماد بن زيد[١] عن ثابت عن أنس[٢] عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: فوضع الإبهام قريباً من خنصره قال: «فساخ الجبل»، فقال حميد[٣] لثابت: تقول هذا؟ فرفع ثابت يده[٤] فضرب صدر حميد، وقال: يقوله رسول الله ﷺ، ويقوله أنس، وأكتمه أنا؟[٥].

وقالت فرقة: المعنى: فلما تجلى الله للجبل بقدرته وسلطانه اندك الجبل.

قال القاضي أبو محمد: وهذا التأويل يتمسك به المعتزلة تمسكاً شديداً؛ لقولهم: «إن رؤية الله عز وجل غير جائزة»[٦]، وقائله من أهل السنة إنما يقوله مع اعتقاده جواز الرؤية، ولكنه يقول: إنه أليق بألفاظ الآية من أن تحمل الآية أن الجبل خلق له إدراك وحياة.

وقال الزجَّاج: من قال: إن التقدير فلما تجلى أمر ربه، فقد أخطأ، ولا يعرف أهل اللغة ذلك[٧]، ورد أبو علي في «الإغفال» عليه[٨].

و«الدك»: الانسحاق والتفتت.

---

(١) كذا في جميع النسخ، وهو حماد بن زيد بن درهم بن الإمام إسماعيل الأزدي مولاهم البصري الأزرق الضرير الحافظ، أحد الأعلام، مولى آل جرير بن حازم، توفي سنة (١٧٩هـ)، تاريخ الإسلام (١١/ ٩٤) والصواب هنا: حماد بن سلمة كما سيأتي عند تخريج الحديث.

(٢) «عن أنس» ساقط من نور العثمانية.

(٣) كذا في أكثر النسخ في الموضعين، وفي فيض الله هنا: «حماد»، على التكبير.

(٤) «يده» ليست في الأصل.

(٥) تفرد به حماد بن سلمة، هذا الحديث أخرجه أحمد (٣/ ١٢٥-٢٠٩ رقم ١٢٢٦٠-١٣١٧٨)، والترمذي (٣٠٧٤)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٨٠-٤٨١-٤٨٢)، وابن خزيمة في التوحيد (١٦٢-١٦٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٧-٢/ ٦٣٠)، والضياء في المختارة (١٦٧٢-١٦٧٥) وغيرهم من طرق عن حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن أنس، به، قال الترمذي: حسن غريب صحيح، لا نعرفه إلا من حديث حماد. اهـ.

(٦) انظر قول المعتزلة بعدم جواز رؤية الله في الآخرة في: شرح المقاصد (٢/ ١١٢).

(٧) معاني القرآن للزجاج (٢/ ٣٧٤).

(٨) الإغفال للفارسي (٢/ ٢٧٦-٢٧٧)، وأبو علي الفارسي معتزلي كما هو معروف، وأشار لذلك المصنف مراراً.

وقرأ النبي ﷺ وابن مسعود وأنس بن مالك والحسن وأبو جعفر وشيبة ومجاهد وابن كثير وأبو عمرو ونافع وعاصم وابن عامر: ﴿دَكًّا﴾، وقرأ حمزة والكسائي وابن عباس والربيع بن خثيم وغيرهم ﴿دَكَّاءَ﴾[١] على وزن حمراء.

و«الدكاء»: الناقة التي لا سنام لها، فالمعنى: جعله أرضاً دكاءَ تشبيهاً بالناقة.

فروي: أنه ذهب الجبل بجملته، وقيل: ذهب أعلاه وبقي أكثره، وروي: أن الجبل تفتَّت وانسحق حتى صار غباراً تذروه الرياح.

وقال سفيان: روي أنه ساخ في الأرض وأفضى إلى البحر الذي تحت الأرضين[٢].

قال ابن الكلبي: فهو يهوي فيه إلى يوم القيامة[٣]. وروي أنه انكسر ستَّ فرق فوقعت منه ثلاث بمكة: ثَبيرٌ وغارُ ثورٍ وحراءٌ، وثلاث بالمدينة: أحدٌ ووَرِقانُ ورَضْوَى، قاله النقاش، وقال أبو بكر الهذلي: ساخ في الأرض فلا يظهر إلى يوم القيامة[٤].

و﴿صَعِقًا﴾ معناه: مغشيّاً عليه، كحال من تصيبه الصعقة وهي الصيحة المفرِطة، قال الخليل: وهي الوقع الشديد من صوت الرعد[٥]، قاله ابن زيد وجماعة من المفسرين، وقال قتادة: كان موتاً[٦]، قال الزجَّاج: وهو ضعيف، ولفظة: ﴿أَفَاقَ﴾ تقتضي غير هذا[٧].

وقوله: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك، كذا فسره النبي ﷺ[٨].

---

(١) فهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٣).

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٩٨)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٧٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨١)، وفي السليمانية: «الأرض».

(٣) البحر المحيط (٥/ ١٦٧).

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ٩٨)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٧٨).

(٥) كتاب العين (١/ ١٢٩).

(٦) تفسير الطبري (١٣/ ٩٧)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢٥٨)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٧٩).

(٧) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٧٣).

(٨) لم أجده منسوباً للنبي ﷺ، وإنما روي عن ابن عباس بإسناد مشهور وحديث طويل، لكن ليس بحجة، انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٢٧).

وقوله: ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ معناه: من أن أسألك الرؤية في الدنيا وأنت لا تبيحها.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمِل عندي أنه لفظ قاله عليه السلام لشدة هول ما اطلع، ولم يَعْنِ به التوبة من شيء معيَّن، ولكنه لفظ يصلح لذلك المقام.

قال القاضي أبو محمد: والذي يتحرز منه أهل السنة أن تكون توبةً من سؤال المحال[١] كما زعمت المعتزلة.

وقرأ نافع: ﴿وَأَنَا﴾ بإثبات الألف في الإدراج[٢].

قال الزهراوي: والأَولى حذفها في الإدراج، وإثباتها لغةٌ شاذة خارجة عن القياس[٣].

وقوله: ﴿أَوَّلُ﴾ إما أن يريد به: من قومه بني إسرائيل، وهو قول ابن عباس[٤] ومجاهد[٥]، أو: من أهل زمانه إن كان الكفر قد طبق الآفاق، وإما أن يريد: أول المؤمنين بأنك لا تُرى في الدنيا، قاله أبو العالية[٦].

ثم إن الله تعالى قرر موسى على آلائه عنده على جهة الإخبار، وقنعه بها، وأمره بالشكر عليها، وكأنه قال: ولا تتعدَّها إلى غيرها، و«اصطفى» أصله: اصتفى، وهو افتعل من صفا يصفو، انقلبت التاء طاء لمكان الصاد، ومعناه: تخيرتك وخَصَصتك، ولا تستعمل إلا في الخير والمنن، لا يقال: اصطفاه لشر، وقوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لفظ عام والمراد الخصوص فيمن شارك موسى في الإرسال، فإن الأنبياء كلَّهم المرسلين مشاركون له بما

---

(١) لأنهم يرون أن سؤالها جائز شرعاً وهو ما فعله موسى، انظر ذلك في شرح المقاصد (٢/ ١١١).

(٢) هذا خاص بما بعده همزة مفتوحة أو مضمومة، وفي المكسورة خلاف، وقد تقدم هذا في سورة البقرة.

(٣) لم أقف عليه، ولا تنافش القراءة الصحيحة بمثل هذا.

(٤) ليس إسناده بالحجة، أخرجه الطبري (١٣/ ١٠٤) من طريق: أسباط، عن السدي، عن عكرمة، عن ابن عباس.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢)، وتفسير الطبري (١٣/ ١٠٤).

(٦) تفسير الطبري (١٣/ ١٠٣).

هم رسل، والظاهر من الشريعة أن موسى مخصَّص بالكلام وإن كان قد روي في تكليم الله غيره أشياء بما يشاء، من أعظمها أن رسول الله ﷺ سئل عن آدم فقال: «هو نبي مكلَّم»[(١)].

قال القاضي أبو محمد: إلا أن ذلك قد تُؤُوِّل بأنه كان في الجنة، فيتحفظ[(٢)] على هذا تخصيص موسى.

ويصح أن يكون قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ عموماً مطلقاً في مجموع الدرجتين: الرسالة والكلام.

وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم وابن عامر: ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ على الجمع إذ الذي أُرسل به ضروب.

وقرأ ابن كثير ونافع: ﴿برسالتي﴾ على الإفراد[(٣)] الذي يراد به الجمع، وتَحلُّ الرسالة هاهنا محل المصدر الذي هو الإرسال.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾/ . [١٦٧/٢]

وقرأ أبو رجاء: (برسالتي وبكَلِمي).

وقرأ الأعمش: (برسالاتي وبكَلِمي)[(٤)].

وحكى عنه المهدوي: (وتكليمي) على وزن تفعيلي[(٥)].

---

(١) ضعيف، هذا الحديث أخرجه أبو داود الطيالسي (٤٨٠)، وأحمد (٥/ ١٧٨-١٧٩ ـ رقم ٢١٥٤٦-٢١٥٥٢)، والبزار (٤٠٣٤)، والحاكم (٢/ ٣١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢٩- ٣٢٩٨) وغيرهم من طرق عن المسعودي، عن أبي عمرو الشامي، عن عبيد بن الخشخاش، عن أبي ذر رضي الله عنه مطولاً، وعبيد بن الخشخاش قال البخاري: لم يذكر سماعاً من أبي ذر. وضعفه الدارقطني.

(٢) في فيض الله: «فينحفظ»، وهي غير واضحة في بعض النسخ الخطية.

(٣) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٣)، السبعة (ص: ٢٤٦).

(٤) شاذة، تابعه على عزوها لهما في البحر المحيط في التفسير (٥/ ١٦٩)، وعزاها في إتحاف فضلاء البشر (١/ ٢٨٩) للمطوعي.

(٥) وهي شاذة، انظرها في التحصيل للمهدوي (٣/ ٩٧)، والشواذ للكرماني (ص: ١٩٣).

وقوله: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ تأديبٌ وتقنيعٌ وحملٌ على جادة السلامة، ومثالٌ لكل أحد في حاله، فإن جميع [النعم من عنده بمقدار، وكل][١] الأمور بمرأىً من الله ومسمعٍ.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ ﴾ الآية، الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ عائد على موسى عليه السلام، والألف واللام في ﴿ٱلْأَلْوَاحِ ﴾ عوض من الضمير الذي يقدَّر وُصلة بين الألواح وموسى عليه السلام، تقديره: في ألواحه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١]: مأواه.

وقيل: كانت الألواح اثنين، وقيل: سبعة.

وقال مجاهد وابن عباس: كانت الألواح من زمرد[٢].

وقال ابن جبير: من ياقوت أحمر.

[وقال أبو العالية: من زَبَـرْجَدٍ][٣].

وقال أبو العالية أيضاً: من بردٍ.

وقال الحسن: من خشب[٤].

وقوله: ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ لفظة عموم والمراد به: كل شيء ينفع في معنى الشرع ويحتاج إليه في المصلحة.

وقوله: ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ مثلُه، قال ابن جبير: ما أمروا به ونهوا عنه، وقاله مجاهد، وقال السدي: الحلال والحرام[٥].

---

(١) ساقط من نور العثمانية، وهو في فيض الله ملحق في الهامش، وعليه تصحيح.
(٢) لم أقف عليه عن ابن عباس، وقد جاء عن مجاهد وسعيد بن جبير في تفسير الطبري ١٣/ ١٢٧.
(٣) ساقط من المطبوع والحمزوية.
(٤) انظر هذه الأقوال لها في تفسير الطبري (١٣/ ١٢٧)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٤)، إلا قول الحسن ففي القرطبي (٧/ ٢٨١).
(٥) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١٣/ ١٠٧)، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٩)، معاني القرآن للنحاس (٣/ ٧٦).

وقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ معناه: بجدٍّ وصبر عليها واحتمالٍ لمؤنها، قاله ابن عباس[١] والسدي.

وقال الربيع بن أنس: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ هنا: بطاعة[٢].

وقال ابن عباس: أُمر موسى أن يأخذ بأشدَّ مما أُمر به قومه[٣].

و«خُذ» أصله: «اؤخذ» حذفت الهمزة التي هي فاء الفعل على غير قياس فاستُغني عن الأول، وقوله: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: التفضيل، كأنه قال: إذا اعترض فيها مباحان[٤] فيأخذون الأحسن منهما، كالعفو والقصاص، والصبر والانتصار.

قال القاضي أبو محمد: هذا على القول إن أفعل في التفضيل لا يقال إلا لما لهما اشتراك في المفضَّل فيه.

وأما على القول الآخر فقد يراد بالأحسن: المأمورُ به بالإضافة للمنهي عنه؛ لأنه أحسن منه، وكذلك الناسخُ بالإضافة إلى المنسوخ، ونحو هذا، وذهب إلى هذا المعنى الطبري[٥].

قال القاضي أبو محمد: ويؤيد هذا التأويلَ أنه تدخل فيه الفرائض وهي لا تدخل في التأويل الأول، وقد يمكن أن يُتصور اشتراك في حَسَنٍ من المأمور به والمنهي عنه ولو بحسب الملاذ وشهوات النفس الأمَّارة.

والمعنى الآخر الذي يحتمله قوله: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾: أن يريد بـ«أحسن»: وصفَ

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ١٠٩) ولفظه: «بجد»، فقط، بإسناد فيه أبو سعد البقال وهو ضعيف جدّاً.

(٢) في السليمانية: «بطاقة»، وانظر: تفسير الطبري (١٣/ ١٠٩)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢٦٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٩).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ١١٠) بإسناد فيه أبو سعد البقال وهو ضعيف جداً.

(٤) في السليمانية وفيض الله: «منهاجان».

(٥) تفسير الطبري (١٣/ ١١٠).

الشريعة بجملتها، فكأنه قال: قد جعلنا لكم شريعةً هي أحسن، كما تقول: الله أكبر، دون مقايسة ثم قال: فمرهم يأخذوا بأحسنها الذي شَرَعناه لهم، وفي هذا التأويل اعتراضات.

وقرأ جمهور الناس: ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾ بغير واو، وقرأ الحسن بن أبي الحسن (سأوريكم)[١].

قال أبو الفتح: ظاهر هذه القراءة مردود، وهو أبوسعيد[٢] المأثورُ فصاحته، فوجهها: أن المراد (أريكم) ثم أُشبعت ضمة الهمزة ومُطلت حتى نشأت عنها واو، ويحسِّن احتمالَ الواو في هذا الموضع أنه موضع وعيد وإغلاظ فمكِّن الصوت فيه.

وقرأ قسامة بن زهير: (سأُورِّثكم)[٣] قاله أبو حاتم، ونسبها المهدوي إلى ابن عباس[٤].

وثبتت الواو في خط المصحف[٥]، فلذلك أشكل هذا الاختلاف، مع أنَّا لا نَتأول إلا أنها مرويات.

فأما من قرأها ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾ فالمعنى عنده: سأعرض عليكم وأجعلكم تخشون[٦] لتعتبروا حال دار الفاسقين، و«الرؤية» هنا رؤية العين، إلا أن المعنى يتضمن الوعد للمؤمنين والوعيد للفاسقين، ويدل على أنها رؤية العين تعدِّي فعلها، وقد عدِّي بالهمزة إلى مفعولين، ولو كان من رؤية القلب لتعدى بالهمزة إلى ثلاثة مفعولِين، ولو قال قائل:

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظرها في مختصر الشواذ (ص: ٥١)، ومع التوجيه في المحتسب (١/ ٢٥٨)، وبغير واو من الحمزوية.

(٢) هي كنية الحسن البصري رحمه الله.

(٣) وهي شاذة، انظر عزوها له في مختصر الشواذ (ص: ٥١)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٨٣)، وهو قسامة ابن زهير المازني البصري، حدث عن: أبي موسى الأشعري، وأبي هريرة، وعنه: قتادة وغيره، وثقه ابن سعد، وتوفي في إمرة الحجاج. تاريخ الإسلام (٦/ ٤٥٧).

(٤) انظر: التحصيل للمهدوي (٣/ ٩٧)، ونسبت لابن عباس أيضاً في المصدرين السابقين.

(٥) انظر: المقنع للداني (ص: ٥٩).

(٦) في المطبوع ونجيبويه وفيض الله: «تحسون».

المفعول الثالث يتضمنه المعنى فهو مقدَّر، أي: مدمَّرةً أو خَرِبة أو مسعَّرة على قول من قال: هي جهنم، قيل له: لا يجوز حذف هذا المفعول والاقتصار دونه؛ لأنها داخلة على الابتداء والخبر، ولو جوِّز لكان على قبح في اللسان لا يليق بكتاب الله عز وجل.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومقاتل وقتادة في كتاب النقاش: ﴿دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾: مصر، والمراد: آل فرعون[1].

وقال قتادة أيضاً: ﴿دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾: الشام، والمراد العمالقة الذين أُمر موسى بقتالهم.

وقال مجاهد والحسن: ﴿دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾: جهنم، والمراد الكفرة بموسى عامة.

وقال النقاش عن الكلبي: ﴿دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾: دور ثمود وعاد والأمم الخالية، أي: سنقصها عليكم فترونها[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

المعنى: سأمنع وأصدُّ، وقال سفيان بن عيينة: «الآيات» هنا: كلُّ كتاب منزل[3].

قال القاضي أبو محمد: فالمعنى: عن فهمها وتصديقها.

وقال ابن جريج: «الآيات»: العلامات المنصوبة الدالَّة على الوحدانية[4].

قال القاضي أبو محمد: فالمعنى: عن النظر فيها، والتفكيرِ والاستدلال بها، واللفظ

---

(١) لم أقف عليه مسنداً عن علي، ولا عن قتادة. وانظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٢/ ٦٣).

(٢) انظر الأقوال في تفسير الطبري (١٣/ ١١١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩١)، ومع قول الكلبي في تفسير الثعلبي (٤/ ٢٨٣).

(٣) انظر تفسير الماوردي (٢/ ٢٦١)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٨٤)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٧٨).

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ١١٣)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٨٤) بتصرف.

يعم الوجهين، والمتكبرون بغير حق في الأرض هم الكفرة، والمعنى في هذه الآية: سأجعل الصرف عن الآيات عقوبة للمتكبرين على تكبرهم.

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ حتم من الله عز وجل على الطائفة التي قدَّر ألا يؤمنوا.

وقراءة الجمهور: ﴿يَرَوْاْ﴾ بفتح الياء، قرأها ابن كثير وعاصم ونافع وأبو جعفر وشيبةُ وشِبلٌ وابن وثَّابٍ وطلحة بن مصرِّفٍ وسائر السبعة.

وقرأها مضمومة الياء مالك بن دينار(١).

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر: ﴿ٱلرُّشْدِ﴾.

وقرأ ابن عامر في بعض ما روي عنه وأبو البَرَهْسَم: (الرُّشُد) بضم الراء والشين(٢).

وقرأ حمزة والكسائي: [﴿الرَّشَد﴾ بفتحهما(٣).

وقرأ أبو عبد الرحمن فيما ذكر أبو حاتم: (الرشاد)(٤).

وجمهور الناس](٥) على أن «الرُّشْد» بضم الراء وسكون الشين، و«الرَّشَد» بفتحهما بمعنىً واحد، وقال أبو عمرو بن العلاء: «الرُّشد» بضم الراء: الصلاح في النظر، و«الرَّشَد» بفتحهما: الدين(٦)، وأما قراءة ابن عامر(٧) بضمهما فأُتبعت الضمةُ الضمةَ.

---

(١) وهي شاذة، انظر: تفسير الثعلبي (٤/ ٢٨٤).

(٢) لم أجدها لأبي البرهسم ولا في شيء من طرق ابن عامر هنا، وسيأتي ما له في «رشدا»، ورواها محمد بن جنيد عن الأعشى وعن أبي حمّاد عن أبي بكر عن عاصم كما في جامع البيان (٣/ ١١١٧) وعزاها الكرماني في شواذ القراءات (ص: ١٩٤) لعيسى بن عمر قياساً.

(٣) هذه والأولى سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٣)، والسبعة في القراءات (ص: ٢٩٣).

(٤) وهي شاذة، عزاها للسلمي الكرماني في شواذ القراءات (ص: ١٩٤).

(٥) ما بين القوسين ساقط من المطبوع.

(٦) تفسير الطبري (١٣/ ١١٥).

(٧) في السليمانية: «ابن عبَّاس».

وقرأ ابن أبي عبلة: (لا يتخذوها)، و(يتخذوها)، على تأنيث السبيل[1].

و«السبيل» تؤنث وتذكر.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الصرف، أي: صَرْفُنا / إياهم وعقوبتنا لهم هي [٢/ ١٦٨] بكفرهم وتكذيبهم وغفلتهم عن النظر في الآيات والوقوف عند الحجج، ويحتمل أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبرَ ابتداء تقديره: الأمر ذلك، ويحتمل أن يكون في موضع نصب بفعل تقديره: فعلنا ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ﴾ الآية، هذه الآية مؤكدة للَّتي قبلها، وسَوْقُها في جملة المكذَّب به ولقاءِ الآخرة لفظٌ يتضمن تهديداً، أي: هنالك يفتضح لهم حالهم.

و﴿حَبِطَتْ﴾ معناه: سقطت وفسدت، وأصل الحبط فيما تقدم صلاحه، ولكنه قد يستعمل في الذي كان منذ[2] أول مرة فاسداً؛ إذ مآل العاملَيْن واحد.

وقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ استفهام بمعنى التقرير؛ أي: يستوجبون بسوء فعلهم العقوبة، وساغ أن يستعمل: ﴿حَبِطَتْ﴾ هنا إذ كانت أعمالهم في معتقداتهم جارية في طريق صلاح، فكأن الحبط فيها إنما هو بحسب معتقداتهم، وأما بحسب ما هي عليه في أنفسها ففاسدة منذ أول أمرها، ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ: «إن مما يُنبتُ الربيعُ ما يَقتلُ حَبَطاً أو يُلِمُّ»[3] أي: فساداً لكثرة الأكل بعد الصلاح الذي كان أولًا.

وقرأ ابن عباس وأبو السمَّال: (حبَطت) بفتح الباء[4].

---

(١) وهي شاذة، مخالفة للرسم، وقد تابعه عليها في البحر المحيط (٥/ ١٧٤).

(٢) من فيض الله والسليمانية.

(٣) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٢٨٤٢)، ومسلم (٦٤٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) وهي شاذة، انظرها في الهداية لمكي (٢/ ٩٨٣)، وقد تقدمت أول الكتاب.

قوله عز وجل: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

(اتَّخَذَ) أصله: ايتخذ، وزنه: افتعل من تَخذ، هذا قول أبي علي الفارسي[١].

والضمير في ﴿بَعۡدِهِۦ﴾ عائدٌ على ﴿ مُوسَىٰ ﴾؛ أي: بعد مُضيِّه إلى المناجاة، وأضاف الحليَّ إلى بني إسرائيل وإن كان مستعاراً من القبط، إذ كانوا قد تملَّكوه: إما بأن نُفِّلوه كما روي، وحكى يحيى بن سلام عن الحسن أنه قال: استعار بنو إسرائيل حلي القبط ليوم الزينة، فلما أمر موسى أن يسري بهم ليلاً تعذر عليهم ردُّ العواري، وأيضاً فخشوا أن يفتضح سُراهم[٢]، ثم إن الله نفَّلهم إياه[٣].

ويحتمل أن يضاف الحلي إلى بني إسرائيل من حيث تصرفت أيديهم فيه بعد غرق[٤] آل فرعون، ويروى أن السامري ـ واسمه: موسى بن ظفر، وينسب إلى قرية تسمى سامرة ـ قال لهارون حين ذهب موسى إلى المناجاة: يا هارون، إن بني إسرائيل قد بدَّدوا الحلي الذي استعير من القبط وتصرفوا فيه وأنفقوا منه، فلو جمعته حتى يرى موسى فيه رأيه، قال: فجمعه هارون، فلما اجتمع قال للسامري: أنت أولى الناس بأن يختزن عندك، فأخذه السامري، وكان صائغاً فصاغ منه صورة عجل ـ وهو ولد البقرة ـ جَسَداً، أي: جثة وجماداً، وقيل: كان جسداً بلا رأس، وهذا تعلُّقٌ بأن الجسد في اللغة ما عدا الرأس، وقيل: إن الله جعل له لحماً ودماً[٥].

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٧١).

(٢) في المطبوع: «سرهم».

(٣) تفسير البحر المحيط (٥/ ١٧٦)، وانظر: تفسير الطبري (١٨/ ٣٥٣)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٨٥).

(٤) في المطبوع: «بعد غزو آل فرعون»، وفي الحمزوية: «بعد فرعون».

(٥) راجع: تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٤)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٨٥).

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف؛ لأن الآثار في أن موسى بَـرَدَه بالمبارد تكذِّب ذلك.

و«الخوار»: صوت البقر، ويروى أن هذا العجل إنما خار مرة واحدة، وذلك بحيلة صناعية من السامري، أو بسحر تركَّب له من قبضه القبضة من أثر الرسول، أو بأنَّ الله أخار العجل لفَتْن بني إسرائيل.

وقرأت فرقة: (له جُؤار) بالجيم[١]، وهو الصياح، قال أبو حاتم: وشدةُ الصوت[٢].

وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وأبو عمرو والحسن وأبو جعفر وشيبة: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ بضم الحاء وكسر اللام، وهو جمع حَلْي[٣] على مثال: ثَدْي وثُدِيّ، وأصله: حُلُويٌ، قلبت الواو ياء وأدغمت فجاء: حُلُيّ، فكسرت اللام لتناسب الياء.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿من حِلِيِّهم﴾ بكسر الحاء[٤] على ما قدمنا من التعليل، قال أبو حاتم: إلا أنهم كسروا الحاء إتباعاً لكسرة اللام، قال أبو علي: وقوَّى التغييرُ الذي دخل على الجمع على هذا التغييرِ الأخير، قال: ومما يؤكد كسر الفاء في هذا النحو من الجمع قولُهم: قِسِيّ[٥].

قال أبو حاتم: وقرأ هكذا يحيى بن وثاب وطلحة والأعمش وأصحاب عبد الله[٦].

وقرأ يعقوب الحضرمي: ﴿مِنْ حَلْيِهِم﴾ بفتح الحاء وسكون اللام[٧]، فإما أن

---

(١) والهمز، وبها قرأ علي بن أبي طالب وأبو السمال كما في مختصر الشواذ (ص: ٥١).

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٥).

(٣) «حلي» من المطبوع.

(٤) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٣)، والسبعة (ص: ٢٩٤).

(٥) الحجة للفارسي (٤/ ٨٧).

(٦) نقلها عنهم في البحر المحيط (٥/ ١٧٦).

(٧) وهي عشرية، انظر: النشر (٢/ ٣٠٦).

يكون مفرداً يراد به الجميع وإما أن يكون جمع حلية، كتمرة وتمر، ومعنى الحلي: ما يتجمَّل به من حجارة وذهب وفضة.

ثم بيَّن الله تعالى سوء نظرهم[١] وقرَّر فساد اعتقاده بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ الآية، وذلك أن الصامت الجمادَ لا يتصف بالإلهية، والذي لا يرشد إلى خير ولا يكشف غمّاً كذلك، والضمير في: ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ عائد على العجل.

وقوله: ﴿وَكَانُوا﴾ إخبار لنا عن جميع أحوالهم ماضياً وحالاً ومستقبلاً، ويحتمل أن تكون الواو واو حال، وقد مرَّ في البقرة سبب اتخاذ العجل وبسطُ تلك الحال بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقرأ جمهور الناس بكسر القاف وضم السين: ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾.

وقرأت فرقة: (سَقط) بفتح السين والقاف، حكاه الزجَّاج[٢].

وقرأ ابن أبي عبلة: (أُسقط)[٣] وهي لغة حكاها الطبري بالهمزة المضمومة وسينٍ ساكنة[٤].

والعرب تقول لمن كان ساعياً لوجه أو طالباً غايةً مَّا، فعرضه ما غلبه وصده عن وجهته، وأوقفه موقف العجز عن بغيته، وتيقن أنه قد عجز: سُقط في يد فلان.

وقال أبو عبيدة: يقال لمن قَدِم على أمر وعجز عنه: سُقط في يده[٥].

قال القاضي أبو محمد: والندم عندي عرَضٌ يَعْرِض صاحبَ هذه الحال، وقد لا

---

(١) في المطبوع: «فطرتهم».

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٧٨)، وهي شاذة، عزاها الكرماني (ص: ١٩٤) لعلي، وابن خالويه (ص: ٥١) لليماني.

(٣) وهي شاذة، انظر عزوها له في الشواذ للكرماني (ص: ١٩٤).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ١١٨).

(٥) مجاز القرآن (١/ ٢٢٨).

يعرضه[١]، فليس الندم بأصل في هذا، أمَا إن أكثر أصحاب هذه الحال يصحبهم الندم، وكذلك صحب بني إسرائيل المذكورين في الآية، والوجه الذي يصل بين هذه الألفاظ وبين المعنى الذي ذكرناه هو أن السعي أو الصرف أو الدفاع سقط في يد المشار إليه، فصار في يده لا يجاوزها ولا يكون له خارجَها تأثير.

وقال الزجاج: المعنى: أن الندم سَقَط في أيديهم[٢].

ويحتمل أن الخسران والخيبة سَقَطَ في أيديهم.

قال القاضي أبو محمد: وعلى هذا كلِّه يلزم أن يكون «سَقَط» يتعدى، فإن ﴿سُقِطَ﴾ يتضمن مفعولاً، وهو هاهنا المصدر الذي هو الإسقاط، كما يقال: ذُهِبَ بزيد، وفي هذا عندي نظر.

وأما قراءة من قرأ (سَقَط) على بناء الفعل للفاعل أو (أُسقط) على التعدية بالهمزة، فبيِّن/ في الاستغناء عن التعدي، ويحتمل أن يقال: سُقط في يديه على معنى [٢/ ١٦٩] التشبيه بالأسير الذي تكتَّف يداه، فكأن صاحب هذه الحال يستأسر[٣] ويقع ظهور الغلبة عليه في يده، أو كأن المراد: سقط بالغلب والقهر في يده.

وحُدثت عن أبي مروان بن سِرَاجٍ[٤] أنه كان يقول: قول العرب: سُقِطَ في يديه، مما أعياني معناه.

وقال الجرجاني: هذا مما دَثَر استعمالُه مثلما دَثَر استعمال قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ [الكهف: ١١][٥].

---

(١) في المطبوع: «يعرض له»، وفيه: «يعرض لصاحب»، وهو أوضح، والمثبت من سائر النسخ.
(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٧٨).
(٣) في نور العثمانية: «يستأنس».
(٤) هو عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمد بن سراج، الإمام أبو مروان الأموي مولاهم القرطبي، الوزير الحافظ إمام اللغة بالأندلس غير مدافع، روى عن: أبيه، ومكي، وجماعة، وعنه: أبو علي الصدفي، توفي قبل الخمس مئة. تاريخ الإسلام (٣٣/ ٣٠٥).
(٥) انظر القولين في البحر المحيط (٥/ ١٧٨).

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا الكلام ضعف، و«السِّقاط» في كلام العرب[(١)]: كثرةُ الخطأ والندمُ عليه، ومنه قول سويد بن أبي كاهل[(٢)]:

[الرمل] كيْـفَ يَرجـونَ سِـقاطي بَعْدَمَـا لَفَّـعَ الـرَّأْسَ مَشِـيبٌ وصَلَـع[(٣)]

وقول بني إسرائيل: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ إنما كان بعد رجوع موسى وتغييره عليهم، ورؤيتهم أنهم قد خرجوا عن الدين ووقعوا في الكفر.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة ابن نِصَاحٍ ومجاهد وغيرهم: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بالياء في ﴿يَرْحَمْنَا﴾ وإسنادِ الفعل إلى الرب تعالى، ﴿وَيَغْفِرْ﴾ بالياء.

وقرأ حمزة والكسائي والشعبي وابن وثَّاب والجحدري وطلحة بن مصرِّفٍ والأعمش وأيوب: ﴿ترحَمْنا ربَّنا﴾ بالتاء في ﴿ترحمنا﴾ ونصب لفظة ﴿ربَّنا﴾ على جهة النداء ﴿وتغفرْ﴾ بالتاء، من فوق[(٤)].

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾.

يريد: رجع من المناجاة، ويروى: أنه لما قَرُب من محلة بني إسرائيل سمع أصواتهم فقال: هذه أصوات قوم لاهين، فلما تحقق عكوفهم على عبادة العجل داخَلَه

---

(١) في السليمانية: «في اللغة».

(٢) هو سويد بن أبي كاهل، واسمه غطيف بن حارثة اليشكريّ، يكنى أبا سعد، مخضرم أدرك الجاهليّة والإسلام، وكانت العرب تسمي قصيدته: العينية اليتيمة، لمَا اشتملت عليه من الأمثال، وقد عُمِّر في الإسلام إلى زمن الحجاج. الإصابة (٣/ ٢٢٢).

(٣) انظر عزوه له في المفضليات (ص: ١٩٩)، والعين (٢/ ١٤٥)، وعيون الأخبار (٢/ ١٤)، والأغاني (١٣/ ١١٢).

(٤) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٣)، والسبعة (ص: ٢٩٤).

الغضب والأسف وألقى الألواح، قاله ابن إسحاق، وقال الطبري: أخبره الله تعالى قبل رجوعه أنهم قد فُتنوا بالعجل، فلذلك رجع وهو غاضب[١].

و«الأسف» قد يكون بمعنى الغضبِ الشديد، وأكثرُ ما يكون بمعنى الحزن، والمعنيان مترتِّبان هاهنا، و(ما) المتصلة بـ(بِئْسَ) مصدرية، هذا قول الكسائي[٢]، وفيها اختلاف قد تقدم في البقرة، أي: بئس خلافتُكم لي من بعدي، ويقال: خلفه بخير أو بشر: إذا فعله بمَن ترك من بعده. ويقال: عجِل فلان الأمر: إذا سبق فيه. فقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾ معناه: أسابقتم قضاء ربكم واستعجلتم إتياني قبل الوقت الذي قدِّر به.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ الآية، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: كان سبب إلقائه الألواح غضبه على قومه في عبادتهم العجل، وغضبه على أخيه في إهمال أمرهم[٣].

وقال قتادة ـ إن صح ذلك عنه ـ : «بل كان ذلك لمَا رأى فيها من فضيلة أمة محمد ﷺ، فرغب أن يكون ذلك لأمته، فلما علم أنه لغيرها غضب»[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول رديء لا ينبغي أن يوصف موسى عليه السلام به، والأول هو الصحيح، وبالجملة: فكان في خُلق موسى عليه السلام ضِيقٌ، وذلك مستقِر في غير موضع، وروي أنها كانت لوحينِ[٥]، وجُمِع إذ التثنيةُ جَمْعٌ.

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ١٢٠)، وانظر فيه قول ابن إسحاق (١٣/ ١٢٣).

(٢) مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ١٠٤).

(٣) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٥١٢٨)، وابن أبي حاتم (٩٠٠٠) في تفسيرهما من طريق الأصبغ ابن زيد، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده لا بأس به.

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ١٢٤)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٨٦)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢٦٣) بتصرف.

(٥) كذا في نور العثمانية، وفيض الله، والسليمانية: لوحين، على الصواب، وفي المطبوع وسائر المخطوطات: «لوحان».

وروي أنها كانت وِقْرَ سبعين بعيراً يقرأ منها الجزء في سنة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف مُفْرِط، وقاله الربيع بن أنس[١].

وقال ابن عباس: «إن موسى لما ألقاها تكسرت، فرُفع أكثرها الذي فيه تفصيلُ كل شيء، وبقي الذي في نسخته الهدى والرحمة، وهو الذي أخذ بعد ذلك»[٢].

وقد تقدم القول من أي شيء كانت الألواح، وأخذُه برأس أخيه ولحيته من الخُلق المذكور، هذا ظاهر اللفظ، وروي أن ذلك إنما كان ليُسَارَّه، فخشي هارون أن يتوهم الناظر إليهما أنه لغضب، فلذلك نهاه ورَغِبَ إليه.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، والأول هو الصحيح لقوله: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

وقوله: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ استلطاف برحِم الأم، إذ هو ألصق القرابات.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ بفتح الميم: فقال الكوفيون: أصله: ابن أماه، فحذفت تخفيفاً[٣].

وقال سيبويه: «هما اسمان بنيا على الفتح كاسم واحد، كخمسة عشر ونحوها»[٤].

وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي: ﴿ابن أمِّ﴾ بكسر الميم[٥]، فكأن الأصل: ابن أمي، فحذفت الياء: إما على حدِّ حذفهم من: «لا أبال» و«لا

---

(١) تفسير الثعلبي (٤/ ٢٨٣).

(٢) إسناده صحيح، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٥١٣٧)، وابن أبي حاتم (٨٩٩٩) في تفسيرهما عن يعلى بن مسلم، من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: ألقى موسى الألواح فتكسرت فرفعت إلا سدسها.

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ١٢٩).

(٤) الكتاب (٣/ ٣٠٣).

(٥) وهما سبعيتان. انظر: التيسير (ص: ١١٣).

أدر» تخفيفاً، وإما كأنهم جَعلوا الأول والآخِر اسماً واحداً ثم أضافوا، كقولك: يا أحد عشر أقبلوا، قاله سيبويه[١]، وهذا أقيس من الحذف تخفيفاً، ثم أضافوا إلى ياء المتكلم، ثم حذفت الياء من (ابن أمي) على لغة من يقول: يا غلام، فيحذفها من المنادى، ولو لم يقدَّر جعلُ الأول والآخِر اسماً واحداً لمَا صح حذفها؛ لأن الأم ليست بمناداة.

و﴿ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ معناه: اعتقدوا أني ضعيف.

وقوله: (كادوا) معناه: قاربوا ولم يفعلوا.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ بضم التاء وكسر الميم ونصب ﴿ٱلْأَعْدَآءَ﴾.

وقرأ مجاهد فيما حكاه أبو حاتم: (فلا تَشمَت بي) بفتح التاء من فوقُ والميمِ ورفع (الأعداءُ)، [أي: لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله أنت بي.

وقرأ حميد بن قيس: (تَشمِت) بتاء مفتوحة وميم مكسورة ورفع (الأعداءُ)]، حكاها أبو حاتم[٢].

وقرأ مجاهد أيضاً فيما حكاه أبو الفتح: (فلا تَشْمَتْ بي الأعداءَ) بفتح التاء من فوق والميم ونصب (الأعداء)، هذا على أن يعدى شمت يشمت، وقد روي ذلك. قال أبو الفتح: فلا تَشمتْ بي أنت يا رب، وجاز هذا كما قال تعالى: ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] ونحو ذلك، ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلاً نصب به (الأعداء)، كأنه قال: لا تُشْمِتْ بي الأعداءَ، كقراءة الجماعة[٣].

قال القاضي أبو محمد: وفي كلام أبي الفتح هذا تكلف.

---

(١) الكتاب (٢/ ٢١٤).

(٢) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥١)، والهداية لمكي (٤/ ٢٥٦٤) وما بين القوسين ساقط من المطبوع والأصل.

(٣) انظر قراءتي مجاهد مع التوجيه في المحتسب (١/ ٢٥٩).

وحكى المهدوي عن ابن محيصن: (تَشمِتْ) بفتح التاء وكسر الميم، (الأعداءَ) بالنصب[١].

و«الشماتة»: فرحة العدو بمصاب عدوه.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يريد: عبدة العجل.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

[٢/ ١٧٠] استغفر موسى / من [فعله مع أخيه][٢]، ومن عجلته في إلقاء الألواح، واستغفر لأخيه من فعله في الصبر لبني إسرائيل، ويمكن أن الاستغفار كان لغير هذا مما لا نعلمه، والله أعلم.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ الآية، مخاطَبةٌ من الله لموسى عليه السلام لقوله: ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾، ووقع ذلك النيل في عهد موسى عليه السلام، والغضب والذلة هو أمرهم بقتل أنفسهم، هذا هو الظاهر.

وقال بعض المفسرين: «الذلة»: الجزية[٣]، ووجهُ هذا القول: أن الغضب والذلة بقيت في عقب هؤلاء المقصودين بها أولاً، وكأن المراد: سينال أعقابَهم.

وقال ابن جريج: الإشارة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ إلى مَن مات من عبدة العجل قبل التوبة بقتل النفس، وإلى من فرَّ فلم يكن حاضراً وقت القتل.

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظرها في التحصيل للمهدوي (٣/ ٩٨)، وإتحاف فضلاء البشر (١/ ٢٩٠).

(٢) في المطبوع: «فعلة أخيه».

(٣) تفسير الثعلبي (٤/ ٢٨٦)، وتفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢١٦)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٨٤).

قال القاضي أبو محمد: والغضب على هذا والذلة هو عذاب الآخرة، والغضب من الله عز وجل إن أُخذ بمعنى الإرادة فهو صفةُ ذاتٍ، وإن أخذ بمعنى العقوبة وإحلال النقمة فهو صفة فعل.

[وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾][1] المراد أولًا: أولئك الذين افتروا على الله في عبادة العجل، وتكون قوة اللفظ تعم كلَّ مفتر إلى يوم القيامة، وقد قال سفيان بن عيينة وأبو قِلَابة وغيرهما: كل صاحب بدعة أو فرية ذليل[2]، واستدلوا بالآية.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية، تضمنت هذه الآية الوعد بأن الله عز وجل يغفر للتائبين، والإشارة إلى من تاب من بني إسرائيل.

وفي الآية ترتيب الإيمان بعد التوبة، والمعنى في ذلك أنه أراد: وآمنوا أن التوبة نافعة لهم منجيةٌ فتمسكوا بها، فهذا إيمان خاص بعد الإيمان على الإطلاق.

ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾ أي: وعملوا عمل المؤمنين حتى وافوا على ذلك، ويحتمل أن يريد التأكيد فذكر[3] التوبة والإيمان إذ هما متلازمان، إلا أن التوبة على هذا تكون من كفر ولا بدَّ، فيجيء تابوا وآمنوا بمعنًى واحد، وهذا لا يترتب في توبة المعاصي، فإن الإيمان متقدم لتلك ولا بد، وهو وتوبة الكفر متلازمان.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ إيجابٌ ووعدٌ مُرجٍّ.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل قوله: ﴿تَابُواْ﴾ ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾ أن يكون لم تُقصد رتبةُ الفعلين على عرف الواو في أنها لا توجب رتبةً، ويكون ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾ بمعنى: وهم مؤمنون قبلُ وبعد، فكأنه قال: ومن صفتهم أنْ آمنوا.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ

---

(١) في الأصل ونجيبويه: «وكذلك قوله: نجزي المفترين».

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ١٣٥-١٣٦)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٨٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٠).

(٣) في نجيبويه وفيض الله: «بذكر».

ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾.

معنى هذه الآية: أن موسى عليه السلام لما سكن غضبه أخذ الألواح التي كان ألقى، وقد تقدم ما روي أنه رُفع أكثرها أو ذهب في التكسر، وقوله: ﴿سَكَتَ﴾ لفظة مستعارة، شبِّه خمود الغضب بانقطاع كلام المتكلم وهو سكوته.

قال يونس بن حبيب: تقول العرب: سال الوادي يومين ثم سكت[(١)].

وقال الزجاج وغيره: مصدر قولك: سكت الغضب: سَكْت، ومصدر قولك: سكت الرجل: سُكوت[(٢)]، وهذا يقتضي أنه فعل على حِدَةٍ وليس من سكوت الناس.

وقيل: إن في المعنى قلباً، والمراد: ولما سكت موسى عن الغضب، فهو من باب: أدخلت فمي في الحَجَر، وأدخلت القلنسوة في رأسي. وفي هذا أيضاً استعارة، إذ الغضب ليس يتكلمُ فيوصَفَ بالسكوت.

وقرأ معاوية بن قرة: (ولما سكن)[(٣)].

وفي مصحف حفصة: (ولما أسكت)[(٤)].

وفي مصحف ابن مسعود: (ولما صبر عن موسى الغضب).

قال النقاش: وفي مصحف أبيٍّ: (ولما انشقَّ عن موسى الغضب)[(٥)].

وقوله: ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ معناه: وفيما ينسخ منها ويقرأ، واللام في قوله: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾

---

(١) نقله عنه في البحر المحيط (٥/ ١٨٥).

(٢) معاني القرآن وإعرابه له (٢/ ٣٧٩).

(٣) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥١)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٨٧) وفيه: «معاوية بن مغيرة».

(٤) وهي شاذة، انظر: تفسير السمعاني (٢/ ٢١٩)، وفي المطبوع: «سكت»، دون ألف ضبطها على القراءة المتواترة، وهو خطأ.

(٥) وهما شاذتان، انظر: البحر المحيط (٥/ ١٨٦)، وفي المطبوع: «اشتق»، ولابن مسعود في الشواذ للكرماني (ص: ١٩٤): «ولما تسرى».

يحتمل وجوهاً، فمذهب المبرد أنها تتعلق بمصدر، كأنه قال: الذين رَهْبَتُهم لربهم[١].

ويحتمل أنه لما تقدم المفعول ضَعُف الفعل فقوِّي على التعدي باللام، ويحتمل أن يكون المعنى: هم لأجل طاعة ربهم وخوف ربهم يرهبون العقاب والوعيد، ونحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ الآية، معنى هذه الآية: أن موسى عليه السلام اختار من قومه هذه العِدَّة ليذهب بهم إلى موضع عبادة وابتهال ودعاء، ليكون منه ومنهم اعتذار إلى الله عز وجل من خطأ بني إسرائيل في عبادة العجل، وطلبٌ لكمال العفو عمن بقي منهم.

وروي عن علي بن أبي طالب أن اختيارهم إنما كان بسبب قول بني إسرائيل: إن موسى قتل هارون حين ذهب معه ولم يرجع، فاختار هؤلاء ليذهبوا فيكلمهم هارون بأنه مات بأَجَله[٢].

وقوله: ﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾ يؤيد القول الأول وينافر هذا القول، لأنها تقتضي أن ذلك كان عن توقيت من الله عز وجل وعِدَةٍ في الوقت والموضع، وتقدير الكلام: واختار موسى من قومه، فلما انحذف الخافض تعدى الفعل فنصب، وهذا كثير في كلام العرب.

واختلف العلماء في سبب الرجفةِ التي حلت بهم:

فقيل: كانت عقوبةً لهم على سكوتهم وإغضائهم على عبادة العجل، وقيل: كانت على عبادتهم العجل بأنفسهم وخفي ذلك عن موسى في وقت الاختيار حتى أعلمه الله، قاله السدي[٣].

---

(١) الهداية لمكي (٤/ ٢٥٧٥)، وفيه: «وهبتهم» بدل «رهبتهم».

(٢) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٥١٥٧-١٥١٥٨)، وابن أبي حاتم (٩٠١٨) في تفسيريهما من طريق أبي إسحاق السبيعي، عن عمارة بن عبد السلولي، عن علي، به مطولاً، عمارة لم يرو عنه إلا أبو إسحاق السبيعي، وقال أبو حاتم: شيخ مجهول لا يحتج بحديثه. والأثر أورده ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٥١) وقال: غريب.

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ١٤٠) بتصرف يسير.

وقيل: كانت عقوبة لهم، لأنهم لما دَنَوا وعلموا أن موسى يسمع كلام الله قالوا له: أرنا ربك، فأخذتهم الرجفة، وقيل: كانت عقوبة لتشطُّطهم في الدعاء بأن قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا، ولا تعطيه أحداً بعدنا، فأخذتهم الرجفة.

وقيل: إنما أخذتهم لما سمعوا كلام هارون وهو ميت، وذلك أن موسى وهارون ذهبا إلى التعبد أو نحوِه، فمات هارون، فدفنه موسى وجاء، فقالت له بنو إسرائيل: أين هارون؟ فقال: مات، فقالوا: بل أنت قتلته لأنك حسدتنا على حسن خلقه وعِشرته، فاختار السبعين ليمضوا معه حتى يروا برهان ما قال لهم، فلما وصلوا قال له موسى: يا هارون، أقُتلت أم مت؟ فناداه من القبر: بل مت، فأخذت / القومَ الرجفةُ[1]. [٢/ ١٧١]

قال القاضي أبو محمد: وروي أنهم ماتوا في رجفتهم هذه، ويحتمل أن كانت كالإغماء ونحوه، و﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾: الاهتزاز والتقلقل للهول العظيم.

فلما رأى موسى ذلك أسف عليهم، وعلم أن أمر بني إسرائيل سيتشعب عليه إذا لم يأت بالقوم، فجعل يستعطف ربه: أي رب، لو أهلكتهم قبل هذه الحال وإياي لكان أخف[2] عليَّ، وهذا وقتُ هلاكُهم فيه مفسِدٌ علي مؤذٍ لي، ثم استفهم على جهة الرغبة والتضرع والتذلل.

ويحتمِل قولُه: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ﴾ أن يريد وقت إغضائهم على عبادة العجل، أي: وقت عبادتهم، على القول بذلك، وفي نفسه هو وقت قتله القبطي، أي: فأنت قد سترت وعفوت حينئذ، فكيف الآن إذ رجوعي دونهم فساد لبني إسرائيل، فمنحى الكلام على هذا محضُ استعطاف، وعلى التأويل الأول منحاه الإدلاء بالحجة[3] في صيغة استعطاف، وإذا قلنا: إن سبب الرجفة كان عبادة العجل، كان الضمير في قوله:

(١) تفسير الطبري (١٣/ ١٤٢).
(٢) في المطبوع: «أحق»، وهي ساقطة من نور العثمانية.
(٣) في نجيبويه: «بالمحبة»، والمناسب لها: «الإدلال»، باللام.

﴿أَتُهۡلِكُنَا﴾ له وللسبعين، و﴿ السُّفَهاءُ ﴾ إشارة إلى العبدة من بني إسرائيل.

وكذلك إذا كان سببها قول بني إسرائيل له: قتلت هارون.

وإذا كان سبب الرجفة طلبَهم الرؤيةَ وتشطُّطَهم في الدعاء، أو عبادتهم بأنفسهم العجل، فالضمير في قوله: ﴿أَتُهۡلِكُنَا﴾ يريد به نفسه وبني إسرائيل، أي: بالتفرق والكفر والعصيان يكون هلاكهم، ويكون قوله: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ إشارة إلى السبعين.

وروي أن السبعين لم يكن فيهم من زاد على الأربعين، ولا من قصر عن العشرين.

وروي عن علي بن أبي طالب أنهم أُحيوا وجُعلوا أنبياء كلهم[١].

وقالت فرقة: إن موسى عليه السلام لما أعلمه الله عز وجل أن السبعين عبدوا العجل تعجَّب وقال: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ أي: الأمور بيدك تفعل ما تريد.

وقيل: إن الله تعالى لما أعلم موسى بعبادة بني إسرائيل العجل وبصفته قال موسى: أي رب، ومَن أخارَه؟ قال: أنا، قال موسى: فأنت أضللتهم إن هي إلا فتنتك.

ويحتمل أن يشير بها إلى قولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ﴾ إذ كانت فتنة من الله أوجبت الرجفة.

وفي هذه الآية ردٌّ على المعتزلة[٢].

و(اغْفِرْ) معناه: استر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾.

(اكْتُبْ) معناه: أثبت واقْضِ، والكَتْب مستعمل في كل ما يخلَّد.

---

(١) انظر الأثر السابق.

(٢) وذلك أنهم يقولون: إن العباد يخلقون أفعالهم ضلالًا كانت أو هدى، وبيَّن الله في الآية على لسان موسى عليه السلام أن الهدى والضلال بيده ومن خلقه، مما يدحض قول المعتزلة المذكور، انظر: الملل والنحل لابن حزم (٣/ ٣٢).

و﴿حَسَنَةً﴾ لفظ عام في كل ما يَحسن في الدنيا من عافية وغنى وطاعة لله تعالى وغير ذلك، وحسنةُ الآخرة الجنةُ لا حسنةَ دونها، ولا مرمى وراءها.

و﴿هُدْنَآ﴾ بضم الهاء معناه: تبنا.

وقرأ أبو وَجْـزَةَ[١]: «هِدنا» بكسر الهاء[٢]، ومعناه: حركنا أنفسنا وجذبناها لطاعتك، وهو مأخوذ من هاد يهيد: إذا حرك[٣].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُ﴾ الآية، قال الله عز وجل: إن الرجفة التي أنزلت بالقوم هي عذابي أصيب به من شئت، ثم أخبر عن رحمته، ويحتمل ـ وهو الأظهر ـ أن الكلام قصد الخبر عن عذابه وعن رحمته من أول ما ابتدأ، ويندرج أمر أصحاب الرجفة في عموم قوله: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُ﴾.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وطاوس، وعمرو بْنُ فَائِدٍ: (مَن أساءَ)[٤] من الإساءة؛ أي: مَن عَمِل غيرَ صالح.

وللمعتزلة بهذه القراءة تعلق من وجهين: أحدهما: إنفاذ الوعيد، والآخر: خلق المرء أفعاله، وأن (أساء) لا فعل فيه لله، وهذان التعلقان فيهما احتمال ينفصل عنه، كما ينفصل عن سائر الظواهر، إلا أن القرأة أطنبوا في التحفظ من هذه القراءة.

وقال أبو عمرو الداني: لا تصح هذه القراءة عن الحسن وطاوس، وعمرو بنُ فائد رجل سوء. وذكر أبو حاتم أن سفيان بن عيينة قرأها مرة واستحسنها، فقام إليه عبد الرحمن

---

(١) هو يزيد بن عبيد، أبو وجزة السعدي المدني، وردت عنه الرواية في حروف القرآن، رواها عنه محمد ابن يحيى بن قيس ومحمد بن إسحاق، وروى عنه هشام بن عروة، وكان شاعراً مجيداً كثير الشعر، توفي سنة (١٣٠هـ). غاية النهاية (٢/ ٣٨٢).

(٢) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥١)، والمحتسب (١/ ٢٦٠).

(٣) الصحاح للجوهري (٣/ ١٢٠)، والمحكم (٢/ ٢١٨).

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥١)، والمحتسب (١/ ٢٦١)، والكشاف (٢/ ١٦٥).

المقبري[١] وصاح به وأسمعه، فقال سفيان: لم أدرِ ولم أفطُنْ لما يقول أهل البدع[٢].

وهذا إفراط من المقرئين[٣]، وحَمَلَهم على ذلك شحُّهم على الدين، وظنهم أن الانفصال عن تعلق المعتزلة متعذِّر.

ثم وصف الله تعالى رحمته بأنها ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فقال بعض العلماء: هو عموم في الرحمة وخصوص في قوله: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ والمراد: مَن قد سبق في علم الله أن يرحمه دون مَن سواهم، وقال بعضهم: هو عموم في رحمة الدنيا؛ لأن الكافر والمؤمن والحيوان كله متقلب في رحمة الله الدنياوية، وقالت فرقة: قوله: ﴿وَرَحْمَتِي﴾: يراد به التوبة، وهي خاصة على هذا في الرحمة وفي الأشياء؛ لأن المراد مَن قد تقع منه التوبة.

وقال نوفٌ البِكَالي: إن إبليس لما سمع قول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ طمع في رحمة الله، فلما سمع ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ يئس إبليس وبقيت اليهود والنصارى، فلما تمادت الصفة تبيَّن أن المراد أمة محمد ﷺ ويئس اليهود والنصارى من الآية، وقال نحوه قتادة[٤].

وقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي: أقدرها وأقضيها، وقال نوف البكالي: إن موسى عليه السلام قال: يا رب، جعلتَ وفادتي لأمة محمد ﷺ، وقال نوف البكالي: فاحمدوا الله الذي جعل وفادة بني إسرائيل لكم[٥].

وقوله: ﴿يَتَّقُونَ﴾ في هذه الآية، قالت فرقة: معناه: يتقون الشرك، وقالت فرقة: يتقون المعاصي.

---

(١) في المطبوع ونور العثمانية والسليمانية: «المقري»، وكذا في البحر المحيط، ولم أقف له على ترجمة، وفي فيض الله: «فقام ابنه عبد الرحمن المقرئ»، ولم أقف لسفيان على ابن اسمه عبد الرحمن.

(٢) انظر قول الداني وما ذكر عن أبي حاتم في البحر المحيط (٥/ ١٩١).

(٣) في المطبوع: «المقربين»، وهي محتملة في بعض النسخ الخطية.

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ١٥٧)، وقول نوف في: البحر المحيط (٥/ ١٩٣).

(٥) تفسير الطبري (١٣/ ١٦٢)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٩١) بتصرف يسير.

قال القاضي أبو محمد: ومن قال: الشرك لا غير، خرج إلى قول المرجئة، ويَـرِدُ عليه من الآية شرطُ الأعمال بقوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ومن قال: المعاصي ولا بد، خرج إلى قول المعتزلة، والصواب بأن تكون اللفظة عامة، ولكن ليس بأن[1] نقول: ولا بد من اتقاء المعاصي، بل بأن نقول: مع أن مُواقع المعاصي في مشيئة الله تعالى.

ومعنى: ﴿يَتَّقُونَ﴾ يجعلون بينهم وبين المتقَى وقاية وحجاباً، فذكر الله تعالى الرتبة العالية ليتسابق السامعون إليها.

وقوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الظاهر من قوله: ﴿يُؤْتُونَ﴾ أنها الزكاة المختصة بالمال، وخصها هنا بالذكر تشريفاً لها وجعلها مثالاً لجميع الطاعات.

وقال ابن عباس فيما روي عنه: «ويؤتون الأعمال التي يزكُّون بها أنفسهم»[2].

قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ / ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾. [٢/ ١٧٢]

هذه الألفاظ أخرجت اليهود والنصارى من الاشتراك الذي يظهر في قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وخلَّصت هذه العِدَة لأمة محمد ﷺ، قاله ابن عباس[3] وابن جبير وغيرهما[4].

---

(١) في نور العثمانية: «ليس لنا أن».

(٢) في إسناده مقال، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٥٢١٣)، وابن أبي حاتم (٩٠٦٠) في تفسيريهما من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنه، بلفظ: ويؤتون الزكاة قال: يطيعون الله ورسوله.

(٣) إسناده محتمل، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٥٢٠٢)، وابن أبي حاتم (٩٠٥٥) في تفسيريهما من طريق حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، بنحوه، وحماد اختلف في سماعه من عطاء قبل الاختلاط أم بعده.

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ١٦١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢١٦)، بتصرف.

و﴿يَتَّبِعُونَ﴾ معناه: في شرعه ودينه، و﴿ٱلرَّسُولَ﴾ و﴿ٱلنَّبِىَّ﴾ اسمان لمعنيين، فإن الرسول أخص من النبي، هذا في الآدميين[١] لاشتراك المَلَك في لفظة الرسول.

و«النَّبِيُّ» مأخوذ من النبأ، وقيل: لما كان طريقاً إلى رحمة الله تعالى وسبباً شبّه بالنبيِّ الذي هو الطريق، وأنشدوا:

لأَصْبَحَ رَتْماً دُقَاقُ الْحَصى مَكَانَ النَّبيِّ مِنَ الكَاثِبِ[٢] [المتقارب]

وأصله الهمز ولكنه خفِّف، كذا قال سيبويه[٣]، وذلك كتخفيفهم خابية وهي من خبأ، واستعمل تخفيفه حتى قد روي أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنبروا اسمي»[٤].

وقدّم ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ اهتماماً بمعنى الرسالة عند المخاطبين بالقرآن، وإلا فمعنى النبوءة هو المتقدم.

وكذلك رد رسول الله ﷺ على البراء بن عازب حين قال: «آمنت بكتابك الذي أنزلت وبرسولك الذي أرسلت»، فقال له رسول الله ﷺ: «لا[٥]، وبنبيك الذي أرسلت»[٦]، ليترتب الكلام كما ترتب الأمر في نفسه، لأنه نُبئ ثم أُرسل، وأيضاً ففي العبارة المردودة تكرار الرسالة وهو معنًى واحد.

و﴿ٱلْأُمِّىَّ﴾ بضم الهمزة قيل: نسب إلى أم القرى وهي مكة.

قال القاضي أبو محمد: واللفظة على هذا مختصة بالنبي ﷺ، وغير مضمَّنة معنى

(١) في السليمانية: «النبيين».

(٢) لأوس بن حجر كما في إصلاح المنطق (ص: ٥٠)، والعين (٥/ ٣٥٢)، وجمهرة اللغة (٢/ ١٠٢٨)، وتهذيب اللغة (١٠/ ١٠٦)، من قصيدة يرثي بها صديقه الشاعر فضالة بن كلدة الأسدي.

(٣) الكتاب (٣/ ٤٦٠).

(٤) ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث (٢/ ٣٨٦) ولم أقف عليه مسنداً.

(٥) من نور العثمانية وفيض الله والأصل.

(٦) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

عدم الكتابة، وقيل: هو منسوب لعدمه الكتابةَ والحساب إلى الأم، أي: هو على حال الصدر عن الأم في عدم الكتابة. وقالت فرقة: هو منسوب إلى الأُمة، وهذا أيضاً مضمن عدم الكتابة؛ لأن الأمة بجملتها غير كاتبة حتى تحدث فيها الكتابة كسائر الصنائع.

وقرأ بعض القراء فيما ذكر أبو حاتم: (الأَمِّي) بفتح الهمزة، وهو منسوب إلى الأَم، وهو القصد، أي: لأن هذا النبي مقصد للناس وموضعُ أَمٍّ يؤمونه بأفعالهم وتشرُّعهم، قال ابن جني: وتحتمل هذه القراءة أن يريد الأُمي فغير تغييرَ النسب[1].

والضمير في قوله: ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ لبني إسرائيل، والهاء منه لمحمد ﷺ، والمراد صفته ونعته.

وروي أن الله عز وجل قال لموسى: قل لبني إسرائيل: أجعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً، وأجعل السكينة معكم في بيوتكم، وأجعلكم تقرءون التوراة عن ظهر قلوبكم، فأخبر موسى بني إسرائيل فقالوا: إنما نريد أن نصلي في الكنائس وأن تكون السكينة كما كانت في التابوت، وأن لا نقرأ التوراة إلا نظراً، فقيل لهم: فسنكتبها للذين يتقون، يعني أمة محمد ﷺ.

وروي عن عبد الله بن عمرو، في «البخاري» وغيره: أن في التوراة من صفة محمد ﷺ: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئةَ ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فنقيم به قلوباً غلفاً وآذاناً صمّاً وأعيناً عُمياً»[2]، وفي «البخاري»: «فنفتح به عيوناً عمياً وآذاناً صمّاً وقلوباً غلفاً»[3]، ونص كعبُ الأحبارِ نحو هذه الألفاظ، إلا أنه قال: «قلوباً

---

(١) وهي شاذة انظرها مع التوجيه في المحتسب (١/ ٢٦٠)، وقد نسبها لابن رومي.

(٢) رواه البخاري (٢١٢٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) هذا اللفظ جزء من الحديث السابق.

غلفاً[١] وآذاناً صموماً»، قال الطبري: وهي لغة حميرية، وقد رويت: «غلوفياً وصمومياً»[٢].

قال القاضي أبو محمد: وأظن هذا وهماً وعجمة.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ يحتمل أن يريد ابتداء وصف الله تعالى النبيَّ ﷺ، ويحتمل أن يجعله متعلقاً بـ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ في موضع الحال على تجوُّز، أي: يجدونه في التوراة آمراً بشرط وجوده.

فالمعنى الأول لا يقتضي أنهم علموا من التوراة أنه يأمرهم وينهاهم ويُحِلُّ ويُحرِّم.

والمعنى الثاني يقتضي ذلك، فالمعنى الثاني على هذا ذم[٣] لهم، ونحا إلى هذا أبو إسحاق الزجَّاج[٤]، وقال أبو علي الفارسي في «الإغفال»: ﴿يَأْمُرُهُم﴾ عندي تفسير لما كتب من ذكره، كما أن قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩][٥] تفسير للمَثَل، ولا يجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ لأن الضمير للذكر والاسم، والذكر والاسم لا يأمران.

قال القاضي أبو محمد: وما قدَّمتُه من التجوُّز وشرطِ الوجود يُقرِّب ما مَنَع منه أبو علي[٦].

و﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ما عُرف بالشرع، وكل معروف من جهة المروءة فهو معروف بالشرع، فقد قال ﷺ: «بعثت لأتمم محاسن الأخلاق»[٧] والْمُنْكَر مقابِله.

---

(١) في الحمزوية وفيض الله: «غلوفاً».

(٢) انظره مع قول كعب في تفسير الطبري (١٣/ ١٦٤).

(٣) في نجيبويه: «أذم».

(٤) معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٣٨١).

(٥) انظر: الإغفال للفارسي (٢/ ٢٨٣).

(٦) في المطبوع: «مما منع منه أبو علي»، وفيه وفي بعض المخطوطات بعده زيادة: «وانظر»، وفي السليمانية وفيض الله: « والطبري».

(٧) في صحته نظر، هذا الحديث أخرجه بهذا اللفظ البزار في مسنده (٢٦٤٨) من طريق عبد الرحمن بن أبي بكر، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم،=

و﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ قال فيها بعض المفسرين: إنها إشارة إلى البحيرة ونحوها، ومذهب مالك رحمه الله أنها المحلَّلات[(١)]، فكأنه وصفها بالطيب إذ هي لفظة تتضمن مدحاً وتشريفاً.

[٢/ ١٧٢] وبحسب هذا يقول في ﴿ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ إنها المحرمات، وكذلك قال ابن عباس: [٢/ ١٧٢] ﴿ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾: وهي لحم الخنزير والربا وغيره[(٢)].

وعلى هذا حلل مالك المتقذرات كالحيات والخنافس والعقارب ونحوها[(٣)].

ومذهب الشافعي رحمه الله أن الطيبات هي من جهة الطَّعم، إلا أن اللفظة عنده ليست على عمومها؛ لأن عمومها بهذا الوجه من الطعم يقتضي تحليل الخمر والخنزير، بل يراها مختصة فيما حلله الشرع، ويرى الخبائث لفظاً عامّاً في المحرمات بالشرع وفي المتقذرات، فيحرِّم العقارب والخنافس والوزغ وما جرى هذا المجرى[(٤)]، والناس على هذين القولين، إلا أن في تعيين الخبائث اختلافاً ليس هذا موضعَ تقصِّيه.

= عن معاذ بن جبل رضي الله عنه به بلفظ مطول، وعبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي مليكة ضعيف، وأخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٨١ رقم ٨٩٥٢)، والبخاري في التاريخ الكبير (٧/ ١٨٨)، والبزار (٢/ ٤٧٦) والشهاب في مسنده (١١٦٥)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩١) والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٧٠) وغيرهم من طريق الدراوردي عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وقد اختلف على ابن عجلان في وصل هذا الحديث، فرواه يحيى بن أيوب الغافقي المصري عنه أن القعقاع بن حكيم أخبره عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً». قال ابن عجلان: وقال رسول الله ﷺ: «بعثت لأتمم صالح الأخلاق»، قال البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٣٠): أرسل يحيى بن أيوب آخره، وللحديث طرق أخرى لا تصح ومراسيل.

(١) انظر مذهب مالك في تفسير الطيب في: أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٣٢١).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١٦٦) من طريق: علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) انظر مذهب مالك في هذه المذكورات وما شابهها في المدونة (١/ ٥٤٢).

(٤) انظر مذهب الشافعي فيما ذكر في: الأم (٢/ ٢٤١).

وقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ الآية، (يضع) كان قياسه أن يكون (يضِع) بكسر الضاد، لكن ردَّه حرفُ الحلق إلى فتح الضاد[١].

قال أبو حاتم: وأدغم أبو عمرو ﴿ويضع عَّنهم﴾ العين في العين[٢]، وأشمَّها الرفعَ[٣].

وأشبعها أبو جعفر وشيبة ونافع[٤].

وقرأ طلحة: (ويُذْهِبُ عنهم إصرَهم)[٥].

و«الإصر»: الثقل، وبه فسر هنا[٦] قتادة وابن جبير ومجاهد[٧].

و«الإصر» أيضاً: العهد، وبه فسَّر ابن عباس[٨] والضحاك والحسن وغيرهم[٩].

وقد جمعت هذه الآية المعنيين، / فإن بني إسرائيل قد كان أُخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال، فوُضع عنهم بمحمد ﷺ ذلك العهدُ وثقلُ تلك الأعمال. [٢/ ١٧٣]

وحكى أبو حاتم عن ابن جبير قال: «الإصر»: شدة العبادة[١٠].

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي والناس: ﴿إِصْرَهُمْ﴾.

وقرأ ابن عامر وحده، وأيوب السَّخْتياني ويعلى بن حكيم[١١] وأبو سَراج

---

(١) راجع: الكتاب (٤/ ٥٤-٥٥).

(٢) في رواية السوسي على قاعدته في إدغام الكبير بين المتماثلين، وهي سبعية متواترة، انظر: التيسير (ص: ٢٠)

(٣) «الرفع» ليست في نجيبويه، يعني أنه يشير إلى ضمة العين الأولى، وهذا وجه للسوسي كما في التيسير (ص: ٢٨).

(٤) إن كان يقصد به إتمام الضمة، فهي القراءة المتواترة للجميع، إلا ما مر عن السوسي.

(٥) وهي شاذة، انظرها في الشواذ للكرماني (ص: ١٩٥)، وهي أقرب للتفسير، لمخالفتها للرسم.

(٦) في الأصل ونجيبويه ولالاليه: «فسرهما»، وفي نور العثمانية: «فسرها».

(٧) تفسير الطبري (١٣/ ١٦٧)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢٦٩)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٩٣).

(٨) أخرجه الطبري (١٣/ ١٦٦) بإسناد ضعيف.

(٩) تفسير الطبري (١٣/ ١٦٦)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٩٣).

(١٠) تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢١٩)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٩٠).

(١١) هو يعلى بن حكيم الثقفي مولاهم، المكي نزيل البصرة وصديق أيوب السختياني، روى عن سعيد بن =

الهذلي[١] وأبو جعفر: ﴿آصارهم﴾ بالجمع[٢]، لما كانت الأعمال كثيرة كانت أثقالها متغايرة.

ومن وحَّد الإصر فإنما هو مفرد اسم جنس يراد به الجمع.

قال أبو حاتم: في كتاب بعض العلماء: (أَصْرهم) واحد مفتوحُ الهمزة، عن نافع وعيسى والزيات، وذلك غلط، وذكرها مكي عن أبي بكر عن عاصم، وقال: هي لغة[٣].

﴿وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ عبارة مستعارة أيضاً لتلك الأثقال كقَطْع الجِلد من أثر البول، وأن لا دية ولا بد من قتل للقاتل، وتركِ الأشغال يوم السبت، فإنه روي أن موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلاً يحمل قصباً فضرب عنقه[٤]، هذا قول جمهور المفسرين، وهذا مثل قولك: طوِّق فلان كذا: إذا أُلزمه، ومنه قول الشاعر:

[مجزوء الرجز]
اذهَــبْ بـهـا اذهَــبْ بِها ... طُـوِّقْـتَـها طَـوْقَ الْحَـمَـامَـهْ[٥]

أي: لزمك عارُها، ومن هذا المعنى قول الهذلي:

[الطويل]
فَلَيْـسَ كَعَهْـدِ الـدَّارِ يـا أُمَّ مَالِـكٍ ... ولكِنْ أَحَاطَتْ بالرِّقَابِ السَّلاسِـلُ

= جبير وسليمان بن يسار وعكرمة، وعنه أيوب ويحيى بن أبي كثير وابن جريج وحماد بن زيد، وثقه أحمد وغيره. تاريخ الإسلام (٨/ ٣١٥).

(١) ورد ذكره في الكامل للهذلي (ص: ١٥٤)، والمحتسب (٢/ ٢٦٨)، وسيأتي في سورة الأحقاف، ولم أقف له على ترجمة بعد.

(٢) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٣)، وانظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٧٥).

(٣) الهداية لمكي (٤/ ٢٥٩١)، ورواية المعلَّى عنه بضم الهمزة كما في جامع البيان (٣/ ١١١٨)، ومختصر الشواذ (ص: ٥١)، وليست من طرق التيسير، وكذا ما ذكر عن نافع والزيات، فلعله غلط، وقد عزا الفتحَ الكرمانيُّ في الشواذ (ص: ١٩٥) للحسن.

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٠٣) عن أبي مالك أوسعيد بن جبير.

(٥) البيت لأبي أحمد بن جحش، كما في سيرة ابن هشام (١/ ٥٠٠)، والطبقات الكبرى (٤/ ٧٧)، وأنساب الأشراف (١/ ٢٦٩).

وَعَـادَ الفَتـى كالكَهْـلِ ليْـسَ بِقَابِلٍ سِوى الحَقِّ شيئاً فاستَراحَ العَوَاذِلُ[١]

يريد: أوامر الإسلام ولوازم الإيمان الذي هو قيَّد الفتكَ كما قال ﷺ[٢].

وقال ابن زيد: إنما المراد هنا بـ(الأغلال) قول الله عز وجل في اليهود: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، فمن آمن بمحمد ﷺ زالت عنه الدعوة وتغليلها.

ثم أخبر تعالى عن حال المؤمنين فقال: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾.

وقرأ الجحدري وسليمان التيمي وقتادة وعيسى: (عزَروه) بالتخفيف[٣].

وجمهور الناس على التشديد في الزاي.

ومعناه في القراءتين: وقَّروه، والتعزير والنصر مشاهدة خاصة للصحابة، واتباع النور يشترك فيه معهم المؤمنون إلى يوم القيامة، و﴿النُّورَ﴾ كناية عن جملة الشرع.

وقوله: ﴿مَعَهُۥ﴾ فيه حذف مضاف، والتقدير: مع بعثه أو نبوته أو نحو هذا.

وشبِّه الشرع والهدى بالنور إذ القلوب تستضيء به كما يستضيء البصر بالنور.

و﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ معناه: الفائزون ببغيتهم، وهذا يعم معاني الفلاح، فإن من بقي فقد فاز ببغيته.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُۥ مُلْكُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾.

---

(١) هو أبو خراش الهذلي، كما في الأغاني (١٠/ ٢١٨)، والكامل للمبرد (٢/ ٣٩)، وتأويل مشكل القرآن (ص: ٩٦).

(٢) تقدم في سورة النساء آية (٩٣) بلفظ «الإيمان قيد الفتك». والفتك: أن يأتي الرجل صاحبه وهو غارٌّ غافلٌ فيشد عليه فيقتله. النهاية: (٣/ ٤٠٩).

(٣) وهي شاذة، انظر عزوها للجحدري وعيسى في الهداية لمكي (٤/ ٢٥٩١)، وللباقين في البحر المحيط (٥/ ١٩٦).

هذا أمر من الله عز وجل لنبيه بإشهار الدعوة والحض على الدخول في الشرع، وذلك أنه لمَّا رجَّى الأمةَ المتَّبعة للنبي الأمي التي كَتب لهم رحمتَه عقَّب ذلك بدعاء الناس إلى الاتباع الذي معه تحصل تلك المنازل، وهذه الآية خاصة بمحمد ﷺ بين الرسل، فإن محمداً ﷺ بعث إلى الناس كافة وإلى الجن، قاله الحسن[١]، وتقتضيه الأحاديث، وكل نبي إنما بعث إلى فرقة[٢] دون العموم.

ثم إنه لما أعلن بالرسالة من عند الله أردف بصفة الله التي تقتضي الإذعان له، وهي أنه ملك السماوات والأرض بالخلق والإبداع والإحياء والإماتة، لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية، هو الحض على اتباع محمد ﷺ.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤۡمِنُ﴾ يريد: الذي يصدِّق ﴿بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾، و«الكلمات» هن: الآيات المنزلة من عنده كالتوراة والإنجيل.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بالجمع.

وقرأ عيسى بن عمر: (كلمتَه) بالإفراد[٣] الذي يراد به الجمع.

وقرأ الأعمش: (الذي يؤمن بالله وآياته) بدل: (كلماته)[٤].

وقال مجاهد والسدي: المراد بـ(كلماته) أو (كلمته) عيسى بن مريم[٥].

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ أي على طمعكم وبحسب ما ترونه.

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ لفظ عام يدخل تحته جميع إلزامات الشريعة، جعلنا الله من متَّبعيه على ما يلزم بمنه ورحمته.

---

(١) نقله عنه في البحر المحيط (٥/ ١٩٦)، وهو أمر لا خلاف فيه بين المسلمين.

(٢) في السليمانية: «قومه».

(٣) وهي شاذة، انظرها في الشواذ للكرماني (ص: ١٩٦) للثقفي، وعزاها في مختصر الشواذ (ص: ٥٢) لمجاهد.

(٤) وهي شاذة، مخالفة للمصحف، وقد تابعه عليها في البحر المحيط (٥/ ١٩٧).

(٥) تفسير الطبري (١٣/ ١٧١-١٧٢).

وقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ الآية: ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ معناه: يرشدون أنفسهم، وهذا الكلام يحتمل أن يريد به وصف المؤمنين المتقين من بني إسرائيل على عهد موسى وما والاه من الزمن، فأخبر أنه كان في بني إسرائيل على عتوِّهم وخلافهم مَن اهتدى واتقى وعدل، ويحتمل أن يريد الجماعة التي آمنت بمحمد ﷺ من بني إسرائيل على جهة الاستجلاب لإيمان جميعهم.

ويحتمل ما روي من أن بني إسرائيل لما تقطعوا مرت أمة منهم واعتزلت ودخلت تحت الأرض، فمشت في سَرَبٍ تحت الأرض سنةً ونصفَ سنة حتى خرجوا وراء الصين، فهم هنالك خلف واد من شَهْدٍ يقيمون الشرع ويهدون بالحق، قاله السدي وابن جريج[١]، وروي بعضه عن ابن عباس[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا حديث بعيد.

وقرأ بعض من الناس: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ بشد الطاء، وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة: (وقطَعناهم) بتخفيف الطاء، ورواها أبان عن عاصم[٣]، ومعناه: فَرَقْناهم، من القطْع.

وقرأ جمهور الناس: ﴿عَشْرَةَ﴾ بسكون الشين، [وهي لغة أهل الحجاز، وقرأ يحيى ابن وثَّاب والأعمش وطلحة بن سليمان بـخلاف: (عشَرة) بفتح الشين][٤]، وقرأت هذه الجماعة أيضاً وطلحة بن مصرِّفٍ وأبو حيوة: (عشِرة) بكسر الشين[٥]، وهي لغة تميم.

وقال أبو حاتم: والعجب أن تميماً يخففون ما كان من هذا الوزن، وأن أهل الحجاز يُشْبعون، وتناقضوا في هذا الحرف.

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ١٧٣)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٩٣-٢٩٤).

(٢) منقطع، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٥٢٥١) من طريق ابن جريج، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولم يسمع منه.

(٣) وهي شاذة، ليست من طرق التيسير، انظر عزوها للثلاثة في الكامل (ص: ٥٥٦).

(٤) ساقط من الأصل، «وبخلاف»: ليست في نجيبويه ونور العثمانية.

(٥) وهي شاذة، انظرها مع التوجيه في المحتسب (١/ ٢٦١)، وانظر ما تقدم في الآية (٦٠) من سورة البقرة.

وقوله: ﴿أَسۡبَاطًا﴾ بدل من ﴿ٱثۡنَتَيۡ﴾.

والتمييز الذي بين العدد محذوف مقدر: اثنتي عشرة فرقةً أو قطعةً أسباطاً، وإما أن يزول عن التمييز ويقدر: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾ فرقاً ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ﴾ ثم أبدل ﴿أَسۡبَاطًا﴾، والأول أحسن وأبين، ولا يجوز أن يكون ﴿أَسۡبَاطًا﴾ تمييزاً؛ لأن التمييز لا يكون إلا مفرداً نكرة، وأيضاً فالسبط مذكَّر وهو قد عد مؤنثاً، على أن هذه العلة لو انفردت [لما منعت التمييز][1]، إذ السبط بمعنى الأمة، قال الطبري: وقال بعض الكوفيين: لما كان السبط بمعنى الأمة غلَّب التأنيث[2]، وهو مثل قول الشاعر/ : [٢/ ١٧٤]

[الطويل] فَإِنَّ كِلاباً هذِهِ عَشْرُ أَبْطُنٍ وَأَنْتَ بَرِيءٌ من قَبائِلِهَا العَشْرِ[3]

قال القاضي أبو محمد: وأغفل هذا الكوفي جمع الأسباط، وإن ما ذهب إليه إنما كان يجوز لو كان الكلام: اثنتي عشرة سبطاً. والسبط في ولد إسحاق كالقبيلة في ولد إسماعيل.

وقد قال الزجَّاج وغيره: إن السِّبط من السَّبَط وهو شجر[4].

قال القاضي أبو محمد: وإنما الأظهر فيه عبراني عرِّب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾.

---

(١) في المطبوع بدلًا منه: «لمنعت».

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ١٧٥).

(٣) البيت لرجل من بني كلاب ولم يسم، انظر: الكتاب لسيبويه (٣/ ٥٦٥)، وهو في الجمل في النحو (ص: ٢٨٨)، ومعاني القرآن للفراء (١/ ١٢٦)، وعيون الأخبار (٢/ ١٧٤)، والعقد الفريد (٢/ ٣١٢)، وأمالي الزجاجي (ص: ١١٨)، بلا نسبة.

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٨٣)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٩٢).

قد تقدَّم في سورة البقرة أمر الحجر والاستسقاء وأين كان، وأمر التظليل وإنزال المن والسلوى، وذكرنا ذلك بما يغني عن إعادته هاهنا.

و﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ معناه: انفجرت، إلا أن الانبجاس أخف من الانفجار.

وقرأ الأعمش وعيسى الهمداني: (كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رزقتُكم)[1] بتوحيد الضمير[2].

قوله عز وجل: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾.

المعنى: واذكر إذ قيل لهم، والمراد مَن سلف من بني إسرائيل، وذلك أنهم لما خرجوا من التيه قيل لهم: ﴿ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾.

و«القريةُ» في كلام العرب: المدينة مجتمع المنازل، والإشارة هنا إلى بيت المقدس، قاله الطبري[3]، وقيل: إلى أريحا، و﴿حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾ أي: هي ونعمُها لكم مباحة.

وقرأ السبعة والحسن وأبو رجاء ومجاهد وغيرهم: ﴿حِطَّةٞ﴾ بالرفع.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: (حطةً) بالنصب[4].

---

(١) في المطبوع: «رزقناكم»، وهو خطأ.

(٢) وهي شاذة، انظر عزوها للأعمش في الشواذ للكرماني (ص: ١٩٦)، وللهمداني في البحر المحيط (٥/ ٢٠٠).

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ١٧٨).

(٤) وهي شاذة، انظرها في المحتسب (١/ ٢٦٤)، فلعل له وجهين، أو الحسن الأول غيره.

الرفع على خبر ابتداء تقديره: طلبُنا حطةٌ، والنصب على المصدر؛ أي حُطَّ ذنوبنا حطةً، وهذا على أن يكلفوا قول لفظة معناها حطة، وقد قال قوم: إنما[1] كلِّفوا قولًا حسناً مضمَّنُه الإيمان وشكر الله ليكون حطةً لذنوبهم، فالكلام على هذا كقولك: قل خيراً. وتوفية هذا مذكور في سورة البقرة.

وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿نَّغۡفِرۡ﴾ بالنون ﴿لَكُمۡ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡ﴾ بالتاء مهموز على الجمع.

وقرأ أبو عمرو: ﴿نَّغۡفِرۡ﴾ بالنون، ﴿لكم خطاياكم﴾ نحو: قضاياكم، وهي قراءة الحسن والأعمش.

وقرأ نافع: ﴿تُغفر﴾ بتاء مضمومة ﴿لكم خطيئاتُكم﴾ بالهمز وضم التاء على الجمع، ورواها محبوب عن أبي عمرو.

وقرأ ابن عامر: ﴿تُغفر﴾ بتاء مضمومة ﴿لكم خطيئتُكم﴾ واحدة مهموزة مرفوعة[2].

قال أبو حاتم: وقرأها الأعرج وفرقة: (تَغْفِرْ) بالتاء وفتحها، على معنى أن الحطة تَغفر، إذ هي سبب للغفران[3].

و(بَدَّلَ) معناه: غيَّر اللفظ دون أن يذهب بجميعه، وأبدل: إذا ذهب به وجاء بلفظ آخر، والإشارة بالقول إلى قول بني إسرائيل: حبة في شعرة، أو: حنطة في شعيرة.

و«الرِّجز» الذي أرسل عليهم: طاعون، يقال: مات منه في يوم واحد[4] سبعون ألفاً، وتقدم أيضاً استيعاب تفسير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ الآية، قال

---

(١) سقطت من المطبوع.

(٢) هذه أربع قراءات سبعية، انظرها في التيسير (ص: ١١٤)، ومع رواية محبوب في السبعة (ص: ٢٩٥).

(٣) لم أقف عليه، وانظر بقية القراءات الشاذة هنا في الشواذ للكرماني (ص: ١٩٦)، ومختصر الشواذ (ص: ٥٢).

(٤) زيادة من نجيبويه وفيض الله ولالاله.

بعض المتأولين: إن اليهود المعاصرين[١] لمحمد ﷺ قالوا: إن بني إسرائيل لم يكن فيهم عصيان ولا معاندة لمَا أمروا به، فنزلت هذه الآية موبخة لهم ومقرِّرة ما كان من فعل أهل هذه القرية، فسؤالهم إنما كان على جهة التوبيخ.

و﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾ هنا مدين، قاله ابن عباس[٢]، وقيل: أيلة، قاله ابن عباس[٣]، وعبد الله بن كثير وعكرمة والسدي والثوري، وقال قتادة: هي مَقنا بالقاف ساكنةً، وقال ابن زيد: هي مقناة ساحل مدين، ويقال فيها: مغَنّى بالغين مفتوحةً ونونٍ مشددة، وقيل: هي طبرية، قاله الزهري[٤].

و﴿حَاضِرَةَ﴾ يحتمل أن يريد معنى الحضور، أي: البحر فيها حاضر، ويحتمل أن يريد معنى الحضارة على جهة التعظيم لها، أي: هي الحاضرةُ في مدن البحر.

و﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ معناه: يخالفون الشرع، من عدا يعدو.

وقرأ شهر بن حوشب وأبو نهيك: (يَعَدُّون)[٥].

قال أبو الفتح: أراد: يعتدون، فأسكن التاء ليدغمها في الدال، ونقل فتحها إلى العين فصار (يَعَدُّون) بفتح العين وشد الدال المضمومة.

والاعتداء منهم في السبت هو نفس العمل والاشتغال، كان صيداً أو غيرَه، إلا أنه كان في هذه النازلة بالصيد، وكان الله عز وجل ابتلاهم في أمر الحوت بأن يغيب عنهم سائر الجمعة فإذا كان يوم السبت جاءهم في الماء شارعاً، أي: مقبلاً إليهم مصطفّاً، كما تقول: أُشرعت الرماح، إذا مدت مصطفَّةً، وهذا يمكن أن يقع من الحوت بإرسال من الله

---

(١) في المطبوع وأكثر المخطوطات: «المعارضين»، والمثبت من نور العثمانية وفيض الله ولالاله.

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١٨٠) بإسناد لين.

(٣) رواه الطبري (١٣/ ١٨٠) من عدة طرق عن ابن عباس.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ١٨٠)، وما بعدها.

(٥) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٢)، ومع التوجيه في المحتسب (١/ ٢٦٤).

كإرسال السحاب، أو بوحي وإلهام كالوحي إلى النحل، أو بإشعار في ذلك اليوم على نحوِ ما يُشعر الله الدوابَّ يوم الجمعة بأمر الساعة حسبما يقتضيه قول النبي ﷺ: «ما من دابة إلا وهي مُصيخة يوم الجمعة حتى تطلع الشمس، فَرَقاً من الساعة»[١].

ويحتمل أن يكون ذلك من الحوت شعوراً بالسلامة في ذلك اليوم على نحو شعور حمام الحرم بالسلامة.

قال رواة هذا القَصَص: فيقرب الحوت ويكثُر حتى يمكن أخذه باليد، فإذا كان ليلة الأحد غاب بجملته، وقيل: غابت كثرته ولم يبق منه إلا القليل الذي يُتعب صيدُه، قاله قتادة، ففتنهم ذلك وأضر بهم، فتطرقوا إلى المعصية بأن حفروا حفراً يخرج إليها ماء البحر على أخدود، فإذا جاء الحوت يوم السبت وحصل في الحفرة ألقوا في الأخدود حجراً فمنعوه الخروج إلى البحر، فإذا كان الأحد أخذوه. فكان هذا أولَ التطرق.

وروى أشهب عن مالك قال: زعم ابن رومان أنهم كانوا يأخذ الرجل خيطاً ويصنع فيه وهقة[٢]، وألقاها / في ذنب الحوت، وفي الطرف الآخر من الخيط وتد مضروب، وتركه كذلك إلى الأحد، ثم تطرق الناس حين رأوا مَن صنع هذا لا يُبتلى، حتى كثر صيد الحوت ومشي به في الأسواق، وأعلن الفسقة بصيده، وقالوا: ذهبت حرمة السبت، فقامت فرقة من بني إسرائيل ونهت وجاهرت بالنهي واعتزلت[٣]. [٢/ ١٧٥]

---

(١) إسناده فرد جيد، هذا الحديث أخرجه مالك (٢٤١) رواية يحيى بن يحيى، ومن طريقه الشافعي في مسنده (١/ ٧٢)، ورواه أحمد في مسنده (٥/ ٤٥٣-٢٣٧٩١)، والنسائي (١٤٣٠)، وفي الكبرى (١٧٦٦)، وابن حبان في صحيحه (٢٧٧٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤١٣) والضياء في المختارة (٣٩٦) وغيرهم من طريق محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ مطول، والتيمي له أفراد.

(٢) في نجيبويه: «رهقة»، وفي القاموس المحيط (ص: ٩٢٩): الوهق، محركة ويسكن: الحبل يرمى في أنشوطة، فتؤخذ به الدابة والإنسان.

(٣) انظر رواية أشهب عن مالك في: تفسير القرطبي (٧/ ٣٠٦).

والعامل في قوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ قوله: ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ وهو ظرف مقدم.

وقرأ عمر بن عبد العزيز: (حيتانهم يوم إسباتهم)[١].

وقرأ نافع وأبو عمرو والحسن وأبو جعفر والناس: ﴿يَسْبِتُونَ﴾ بكسر الباء.

وقرأ عيسى بن عمر وعاصم بخلاف: (يَسبُتون) بضمها، وقرأ الحسن بن أبي الحسن وعاصم بخلاف: (يُسبتون)[٢] من أسبت: إذا دخل في السبت.

ومعنى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى أمر الحوت وفتنتهم به، هذا على مَن وقف على ﴿تَأْتِيهِمْ﴾ ومن وقف على ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فالإشارة إلى كثرة الحيتان شُرَّعاً، أي: فما أتى منها فهو قليل، و﴿نَبْلُوهُم﴾ أي: نمتحنهم لفسقهم وعصيانهم.

قال القاضي أبو محمد: وفي قَصَص هذه الآية روايةٌ وتطويل اختصرتُه واقتصرت منه على ما لا تفهم ألفاظ الآية إلا به.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

قال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق: فرقة عصت وصادت، وفرقة نهت وجاهرت وتكلمت واعتزلت، وفرقة اعتزلت ولم تعص ولم تنه، وإن هذه الفرقة لما رأت مجاهرة الناهية وطغيان العاصية وعتوَّها قالت للناهية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ يريدون العاصية ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ على غلبة الظن، وما عُهد من فعل الله حينئذ بالأمم

(١) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٢)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٩٥)، والكشاف (٢/ ١٧١).
(٢) وهما شاذتان، انظر عزوهما لعاصم من رواية المفضل في جامع البيان (٣/ ١١٢٠)، وقراءة الحسن في الهداية لمكي (٤/ ٢٦٠٤)، ومختصر الشواذ (ص: ٥٢)، ونسب الأخرى لعلي وزاد: «يسبِّتون» لعيسى بن سليمان الحجازي.

العاصية، فقالت الناهية: موعظتُنا معذرة إلى الله، ثم اختلف بعد هذا؛ فقالت فرقة: إن الطائفة التي لم تعصِ ولم تنهَ هلكت مع العاصية عقوبةً على ترك النهي، قاله ابن عباس(١).

وقال أيضاً: ما أدري ما فُعل بهم(٢).

وقالت فرقة: بل نجت مع الناهية لأنها لم تعص ولا رضيت، قاله عكرمة والحسن وغيرهما.

وقال ابن الكلبي ـ فيما أسند عنه الطبري ـ: إن بني إسرائيل لم تفترق إلا فرقتين: فرقة عصت وجاهرت، وفرقة نهت وغيَّرت واعتزلت، وقالت للعاصية: إن الله يهلكهم ويعذبهم، فقالت أمة من العاصين للناهين ـ على جهة الاستهزاء ـ: لمَ تعظون قوماً قد علمتم أن الله مهلكهم أو معذبه(٣)؟

قال القاضي أبو محمد: والقول الأول أصوبُ، وتؤيده الضمائر في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ﴾ فهذه المخاطبة تقتضي مخاطِباً ومخاطَباً ومَكنيّاً عنه.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿معذرةٌ﴾ بالرفع، أي: موعظتُنا معذرةٌ، أي: إقامةُ عذر.

وقرأ عاصم في بعض ما روي عنه، وعيسى بن عمر، وطلحة بن مصرِّف: ﴿مَعْذِرَةً﴾ بالنصب(٤)، أي: وعظُنا معذرةٌ. قال أبو علي: حجتها أن سيبويه قال: لو قال

---

(١) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٥٢٧٨)، وابن أبي حاتم (٨٤٦١) في تفسيرهما من طريق داود بن الحصين الأموي، عن عكرمة، عن ابن عباس بنحوه، وداود بن الحصين ثقة إلا في روايته عن عكرمة فإنها منكرة.

(٢) لا بأس به، هذا الأثر أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٣٩)، والطبري (١٥٢٦٩ـ١٥٢٧٣) من طرق لا بأس بها عنه.

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ١٩٥).

(٤) فهما سبعيتان، وهذه رواية حفص، أما شعبة فوافق الأولين، انظر: التيسير (ص: ١١٤)، والبحر المحيط (٥/ ٢٠٨).

رجل لرجل: معذرة إلى الله وإليك من كذا، لنَصَب[١].

قال القاضي أبو محمد: الرجل القائل في هذا المثال معتذِرٌ عن نفسه، وليس كذلك الناهون من بني إسرائيل، فتأمل.

ومعنى ﴿مُهۡلِكُهُمۡ﴾: في الدنيا ﴿أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ﴾: في الآخرة.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ يقتضي الترجِّي المحض، لأنه من قول آدميين.

والضمير في قوله: ﴿نَسُواْ﴾ للمَنْهيين، وهو ترك سمي نسياناً مبالغة؛ إذ أقوى منازل الترك أن يُنسى المتروك.

و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ بمعنى الذي، ويحتمل أن يراد به الذكر نفسه. ويحتمل أن يراد به ما كان فيه الذكر.

و﴿ٱلسُّوٓءِ﴾ لفظ عام في جميع المعاصي، إلا أن الذي يختص هنا بحسب قَصَص الآية صيد الحوت، و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ هم العاصون.

وقوله: ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ معناه: مؤلم موجع شديد.

وقرأ نافع وأهل المدينة أبو جعفر وشيبة وغيرهما: ﴿بيسٍ﴾ بكسر الباء وسكون الياء وكسر السين وتنوينها، وهذا على أنه فعل سمي به، كقوله ﷺ: «أنهاكم عن قيلٍ وقالٍ»[٢].

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: (بِيْسَ)[٣] كما تقول: بيسَ الرجلُ، وضعَّفها أبو حاتم.

قال أبو عمرو: وروي عن الحسن: (بِئسَ) بهمزة بين الباء والسين[٤].

وقرأ نافع فيما يروِي عنه خارجة: (بَيْسٍ) بفتح الباء وسكون الياء وكسر السين منونة[٥].

---

(١) الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٩٨).

(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة.

(٣) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٢)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٩٨).

(٤) إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٥٨).

(٥) وليست من الطرق، انظرها في السبعة (ص: ٢٩٦)، والمحتسب (١/ ٢٦٥).

وروى مالك بن دينار عن نصر بن عاصم: (بَيَسٍ) بفتح الباء والياء منونةً، على مثل: جَمَل وجبل[١].

وقرأ أبو عبد الرحمن المُقري[٢]: (بَئِسٍ) بفتح الباء وهمزة مكسورة وسين منونةٍ[٣]، على وزن فعِل، ومنه قول عبد الله بن قيس الرقيات:

[المديد] لَيْتَنِي أَلْقَى رُقَيَّةَ فِي خَلْوَةٍ مِنْ غَيْرِ مَا بَئِسِ[٤]

قال أبو عمرو الداني: هي قراءة نصر بن عاصم وطلحة بن مصرِّفٍ، وروي عن نصر: (بيس) بباء[٥] مكسورة من غير همز[٦].

قال الزهراوي: وروي عن الأعمش: (بَئِّسٍ) الباء مفتوحة والهمزة مكسورة مشددة والسين مكسورة منونة، وقرأت فرقة: (بَئِّسَ) كالتي قبل إلا فتح السين، ذكرها أبو عمرو الداني عما حكى يعقوب[٧].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي، ونافع في رواية أبي قرة عنه، وعاصم في رواية حفص عنه: ﴿بَئِيسٍ﴾ بياء بعد الهمزة المكسورة والسين المنونة على وزن «فَعيل».

وهذا وصف بالمصدر كقولهم: عَذير الحي، والنذير، والنكير، ونحو ذلك، وهي

(١) في السليمانية: «حمل وحبل»، ولم أجدها إلا في البحر المحيط (٥/ ٢٠٥)، وهي شاذة.

(٢) هو عبد الله بن يزيد، المقرئ المكي، مولى آل عمر الفاروق، أخذ الحروف عن نافع، وله اختيار في القراءة رواه عنه ابنه محمد، وكان إماماً في القرآن والحديث، كبير الشأن، روى عنه البخاري وأحمد وغيرهما، مات سنة (٢١٢هـ)، تاريخ الإسلام (١٥/ ٢٤١).

(٣) وهي شاذة، انظرها في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٧٨).

(٤) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٣/ ٢٠٢)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٩٨).

(٥) في المطبوع: «بياء».

(٦) لم أقف عليه.

(٧) وهما شاذتان، انظر عزوهما في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٧٨)، ولم أقف على نص الداني ولا الزهراوي.

قراءة الأعرج ومجاهد وأهل الحجاز وأبي عبد الرحمن ونصر بن عاصم والأعمش[١]، وهي التي رجح أبو حاتم، ومنه قول ذي الأصبع العَدَواني:

حَـنَـقـاً عَـلَـيَّ وَلَا أَرَى لِيَ مِنْهُمَا شرّاً بَئِيسَا[٢] [مجزوء الكامل]

وقرأ أهل مكة: (بِئِيس) كالأول، إلا كسر الباء على وزن فِعِيل، قال أبو حاتم: هما لغتان[٣].

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه: ﴿بَيْئَس﴾ بفتح الباء وسكون الياء وفتح الهمزة على وزن فيعل، ومعناه: شديد، ومنه قول امرئ القيس بن عابس الكندي / : [١٧٦/٢]

كِلاهُمَا كَانَ رَئِيساً بَيْئَسَا يَضْرِبُ فِي يَوْمِ الهَيَاجِ القَوْنَسَا[٤] [الرجز]

فهي صفة كضيغم وحيدر، وهي قراءة الأعمش[٥].

وقرأ عيسى بن عمر والأعمش بخلاف عنه: (بيئِس) كالتي قبل إلا كسر الهمزة على وزن فيعِل[٦].

وهذا شاذ لأنه لا يوجد فيعِل في الصحيح، وإنما يوجد في المعتل مثل: سيد وميت.

---

(١) هذه سبعية، وكذلك قراءة نافع الأولى، ورواية أبي بكر عن عاصم وقراءة ابن عامر الآتيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٤)، والنشر (٢/ ٣٠٧).

(٢) انظر عزوه له في مجاز القرآن (١/ ٢٣١)، وتفسير الطبري (١٣/ ٢٠١)، والأغاني (٣/ ٩٨)، وفي نجيبويه: «حقا».

(٣) وهي شاذة، انظرها في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٧٨).

(٤) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٣/ ٢٠٠)، وهو امرؤ القيس بن عابس بن المنذر بن امرئ القيس ابن عمرو بن معاوية الأكرمين، روى عن النبي ﷺ، وسكن الكوفة، وكان ممن ثبت على الإسلام، وأنكر على الأشعث ارتداده. الإصابة (١/ ٢٦٢).

(٥) وهي سبعية كما تقدم، وانظر عزوها للأعمش في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٧٨).

(٦) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٢) حيث نسبها لعاصم، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٩٨) ولم ينسبها.

وقال الزهراوي: روى نصر عن عاصم: (بيِّس)[١] على مثال ميت، وهذا على أنه من البوس[٢] لا أصل له في الهمز.

قال أبو حاتم: زعم عصمة أن الحسن والأعمش قرءا: (بِئْيَس) الباء مكسورة والهمزة ساكنة والياء مفتوحة على مثال خِذْيم[٣]، وضعفها أبو حاتم.

وقرأ ابن عامر من السبعة: ﴿بِئْسٍ﴾ بكسر الباء وسكون الهمزة وتنوين السين المكسورة.

وقرأت فرقة: (بَأْسٍ) بفتح الباء [والهمزة وتنوين السين المكسورة، وقرأت فرقة: (باسٍ) بفتح الباء][٤] وسكون الألف[٥].

وقرأ أبو رجاء: (بائس)[٦] على وزن فاعل.

وقرأت فرقة: (بَيَسَ) بفتح الباء والياء والسين على وزن فعل، وقرأ مالك بن دينار: (بأْسَ) بفتح الباء والسين وسكون الهمزة، على وزن فعل غير مصروف، وقرأ فرقة: (بأسٍ) مصروفاً[٧].

وحكى أبو حاتم: (بَيِّسٍ) قال أبو الفتح: هي قراءة نصر بن عاصم[٨].

وحكى الزهراوي عن ابن كثير وأهل مكة: (بِيس) بكسر الباء ويهمز همزاً خفيفاً[٩].

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٧٨).

(٢) في المطبوع وفيض الله: «البؤس»، بالهمز.

(٣) في نجيبويه وفيض الله: «حذيم»، وهي شاذة، وقد أشار لها النحاس في إعراب القرآن (٢/ ٧٨).

(٤) ساقط من نور العثمانية والسليمانية.

(٥) وهي شاذة، عزاها في المحتسب (١/ ٢٦٥) لنصر بن عاصم وجُؤَيَّة بن عائذ، ورُويت عن مالك بن دينار أيضاً.

(٦) وهي شاذة، انظر عزوها له في المحتسب (١/ ٢٦٥).

(٧) وكلها شاذة، انظر: الشواذ للكرماني (ص: ١٩٧).

(٨) انظر: المحتسب (١/ ٢٦٥)، وهي شاذة، وفي السليمانية: «أبو جعفر» بدل «أبو الفتح».

(٩) قد نقله عنه في البحر المحيط (٥/ ٢٠٥)، وهي شاذة.

قال القاضي أبو محمد: ولم يبين هل الهمزة مكسورة أو ساكنة.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي: لأجل ذلك وعقوبة عليه.

و«العتوُّ»: الاستعصاء وقلة الطواعية.

وقوله: ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ يحتمل أن يكون [قولاً بلفظٍ من مَلَكٍ، أسمعهم ذلك فكان أذهبَ في الإغراب والهوان[١] والإصغار.

ويحتمل أن يكون][٢] عبارة عن المَقْدِرة المكوِّنة لهم قردةً.

و﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ مُبْعَدين كما قال رسول الله ﷺ لابن صياد: «اخسأ»[٣]، وكما يقال للكلب: اخسأ، فـ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ خبر بعد خبر، هذا اختيار أبي الفتح[٤]، وضعَّف الصفة، وكذلك هو؛ لأن القصد ليس التشبيه بقِرَدة مبعدَات.

قال القاضي أبو محمد: ويجوز أن يكون ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ حالاً من الضمير في ﴿كُونُوا۟﴾، والصفة أيضاً متوجهة مع ضعفها.

وروي أن الشباب منهم مسخوا قردة، والرجال الكبار مسخوا خنازير.

وروي أن مسخهم كان بعد المعصية في صيد الحوت بعامين.

وقال ابن الكلبي: إن إهلاكهم كان في زمن داود[٥].

وروي أن الناهين قسموا المدينة بينهم وبين العاصين بجدار، فلما أصبحوا ليلةَ أُهلك العاصون لم يُفتح باب مدينة العاصين حتى ارتفع النهار، فاستراب الناهون لذلك، فطلع أحد الناس على السور فرآهم ممسوخين قردة تتواثب، فصاح، فدخلوا عليهم يعرف

---

(١) في نجيبويه والسليمانية وفيض الله: «الهول».

(٢) ساقط من الأصل.

(٣) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (١٣٥٤)، ومسلم (٢٩٣٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) كذا في جميع النسخ وتفسير الثعالبي (٢/ ٦٣)، ولم أجده في المحتسب.

(٥) الهداية لمكي (٤/ ٢٦٠١).

الرجل قرابته ويعرف القرد أيضاً كذلك قرابته، وينضمون[١] إلى قرابتهم فيتحسرون.

قال الزجاج: وقال قوم: يجوز أن تكون هذه القردة من نسلهم[٢].

قال القاضي أبو محمد: وتعلق هؤلاء بقول النبي ﷺ: «إن أمة من الأمم فُقِدت وما أُراها إلا الفأر؛ إذا قرب لها لبن لم تشرب»[٣]، وبقوله ﷺ في الضب[٤].

وقصص هذا الأمر أكثر من هذا، لكن اختصرته واقتصرت على عيونه.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾.

بِنْية ﴿تَأَذَّنَ﴾ هي التي تقتضي التكسُّب من أَذِنَ أي: علم ومكن، وآذن أي: أعلم، مثل كَرُم وأكرم وتكرَّم، إلا أن تعلَّم وما جرى مجرى هذا الفعل إذا كان مسنداً إلى اسم الله عز وجل لم يلحقه معنى التكسُّب الذي يلحق المحدَثين، فإنما يترتب بمعنى علم صفةٌ لا بتكسُّب، بل هي قائمة بالذات، وإلى هذا المعنى ينحو الشاعر بقوله: تَعَلَّمْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ[٥]، لأنه لم يأمره بالتعلم الذي يقتضي جهالة، وإنما أراد أن يوقفه على قوة علمه.

---

(١) في السليمانية وفيض الله: «وينظرون».

(٢) لفظه في معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٣٨٧): وقال قوم: جائز أن تكون هذه القردة المتوَلِّدةُ أصلها منهم.

(٣) صحيح، هذا الحديث أخرجه مسلم (٢٩٩٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً بنحوه.

(٤) صحيح، هذا الحديث أخرجه مسلم (١٩٤٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أُتي رسول الله ﷺ بضب فأبى أن يأكل منه وقال: «لا أدري لعله من القرون التي مسخت».

(٥) وردت في أشعار كثيرة منها قول الحارث بن ظالم:

تعلم أبيت اللعن أني فاتك ... من اليوم أو من بعده بابن جعفر

كما في الأغاني (١١/ ١٠١)، وقول أبي طالب:

تعلم أبيت اللعن أنك ماجد ... كريم فلا يشقى لديك المجانب

كما في سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٤).

ومنه قول زهير:

تَعَلَّمْ أَنَّ شَرَّ النَّاسِ حَيٌّ يُنَادَى فِي شِعَارِهِمُ يَسَارُ[١] [الوافر]

فمعنى هذه الآية: وإذ عَلِمَ الله ليبعثن عليهم، وتقتضي قوة الكلام أن ذلك العلم منه مقترن بإنفاذٍ وإمضاء، كما تقول في أمر قد عزمت عليه غاية العزم: علم الله لأفعلن كذا، نحا إليه أبو علي الفارسي[٢].

وقال الطبري وغيره: ﴿تَأَذَّنَ﴾ معناه: أعلم[٣]، وهو قلِق من جهة التصريف، إذ نسبة تَأَذَّنَ إلى الفاعل غير نسبة أعلم، وتبيُّنُ ذلك من التعدي وغيره.

وقال مجاهد: ﴿تَأَذَّنَ﴾ معناه: قال، وروي عنه أن معناه: أمر[٤].

وقالت فرقة: معنى ﴿تَأَذَّنَ﴾: تألَّى.

قال القاضي أبو محمد: وقادهم إلى هذا القول دخول اللام في الجواب، وأما اللفظة فبعيدة عن هذا.

والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لمن بقي من بني إسرائيل لا للضمير في ﴿لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

وقوله: ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾ قال سعيد بن جبير: هي إشارة إلى العذاب[٥].

وقال ابن عباس: هي إلى محمد ﷺ وأمته[٦].

---

(١) انظر عزوه له في معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٨٧)، وجمهرة اللغة (٢/ ١٠٠٩)، وخزانة الأدب (٥/ ٤٥٧).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٤٠٨).

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٢٠٤).

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ٢٠٤)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٩٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٥٦).

(٥) تفسير الثعلبي (٤/ ٢٩٩).

(٦) في إسناده مقال، أخرجه الطبري (١٥٢٩٩)، وابن أبي حاتم (٨٤٧٣) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد: والصحيح أنها عامة في كلِّ مَن حالُ اليهود معه هذه الحال. و﴿يَسُومُهُمْ﴾ معناه: يكلِّفهم ويحملهم.

و﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ الظاهر منه الجزية والإذلال، وقد حتم الله عليهم هذا وحط ملكهم، فليس في الأرض رايةٌ ليهودي.

وقال ابن المسيب: فيستحب أن تتعب اليهود في الجزية[١].

ولقد حُدثت أن طائفة من الروم أملقت[٢] في صُقْعها، فباعت اليهود المجاورة لهم الساكنة معهم وتملَّكوهم.

ثم حَسُن في آخر هذه الآية ـ لتضمنها الإيقاع بهم والوعيد ـ أن ينبه على سرعة عقاب الله ويخوف بذلك تخويفاً عامّاً لجميع الناس، ثم رجَّى بعد ذلك لطفاً منه تبارك وتعالى.

و(قطعناهم) معناه: فرقناهم في الأرض.

قال الطبري عن جماعة من المفسرين: ليس في الأرض بقعة إلا وفيها معشر من اليهود[٣].

والظاهر في المشار إليهم في هذه الآية أنهم الذين بعد سليمان وقت زوال ملكهم، والظاهر أنه قبل مدة عيسى عليه السلام؛ لأنه لم يكن فيهم صالح بعد كفرهم بعيسى عليه السلام، وفي التواريخ في هذا الفصل روايات مضطربة.

و﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، و﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ألفاظ محتملة، فإن أريد بها صلاح الإيمان فـ ﴿دُونَ﴾ بمعنى غير يراد بها الكفرة، وإن أريد بالصلاح / العبادة والخير [٢/ ١٧٧] وتوابع الإيمان فـ ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن يكون في مؤمنين.

---

(١) انظره في تفسير الطبري (١٣/ ٢٠٧)، وتفسير عبد الرزاق (٢/ ٩٥)، والهداية لمكي (٤/ ٢٦١٣)، كلهم بلفظ: «أن يبعث الأنباط».

(٢) تحرفت في المطبوع إلى: «أملكت».

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٢٠٨) وما بعدها.

و(بلوناهم) معناه: امتحنَّاهم، و(الحَسَنَاتُ): الصحة والرخاء ونحو هذا مما هو بحسب رأي ابن آدم ونظره، و(السيئاتُ) مقابلات هذه.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ أي: بحسب رأيكم لو شاهدتم ذلك، والمعنى: لعلهم يرجعون إلى الطاعة ويتوبون من المعصية.

قوله عز وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠﴾.

(خَلَفَ) معناه: حدث خَلْفهم.

و﴿خَلۡفٞ﴾ بإسكان اللام يستعمل في الأشهَر في الذم، ومنه قول لبيد:

ذَهَـبَ الذِيـنَ يُعَـاشُ فِـي أَكْنَافِهِـمْ ... وَبَقِيتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ[١] [الكامل]

وقد يستعمل في المدح، ومنه قول حسان:

لَنَـا القَـدَمُ الأُولَى إِلَيْـكَ وَخَلْفُنَا ... لأَوَّلِنَـا فِـي طَاعَـةِ الله تَابِـعُ[٢] [الطويل]

و«الخلَف» بفتح اللام يستعمل في الأشهر في المدح، قال أبو عبيدة والزجاج: وقد يستعمل في الذم أيضاً[٣]، ومنه قول الشاعر:

أَلَا ذَلِـكَ الْخَلَـفُ الْأَعْـوَرُ[٤] ... . [مجزوء الكامل]

---

(١) انظر عزوه له في جمهرة أشعار العرب (ص: ٨٢)، والعين (٤/ ٢٦٦)، وإصلاح المنطق (ص: ١٧)، والبيان والتبيين (١/ ٢٢٣).

(٢) انظر عزوه له في سيرة ابن هشام (٢/ ٢٧١)، وتفسير الطبري (١٣/ ٢٠٩)، والمخصص (٥/ ١٢٧).

(٣) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة (١/ ٢٣٢)، ومعاني القرآن للزجاج (٢/ ٣٨٨).

(٤) البيت لموسى شهوات كما في الأغاني (٣/ ٣٥٤)، وتاريخ دمشق (١٧/ ١١٣)، وصدره: «تزوجت داود مختارة».

وقال مجاهد: المراد بـ«الخلْف» هاهنا النصارى، وضعفه الطبري[١].

[وقرأ جمهور الناس: ﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾][٢].

وقرأ الحسن بن أبي الحسن البصري: (وُرِّثوا الكتاب) بضم الواو وشد الراء[٣].

وقوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ إشارة إلى الرُّشا والمكاسب الخبيثة، والعَرَض ما يَعرِض ويعنُّ ولا يثبت، و﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾ إشارة إلى عيش الدنيا.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ذم لهم باغترارهم وقولِهم: ﴿سَيُغْفَرُ﴾ مع علمهم بما في كتاب الله من الوعيد على المعاصي، وإصرارِهم عليها وأنهم إذا أَمْكَنتهم ثانية ارتكبوها، فهؤلاء عَجَزةٌ كما قال ﷺ: «والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[٤]، [فهؤلاء قطعوا بالمغفرة][٥] وهم مصرون، وإنما يقول: سيغفر لنا، من أقلع وندم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم﴾ الآية، تشديد في لزوم قول الحق على الله في الشرع والأحكام بين الناس وأن لا تميل الرشا بالحكام إلى الباطل.

و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ يريد به التوراة، و«ميثاقُها»: الشدائد التي فيها في هذا المعنى.

وقوله: ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ يمكن أن يريد بذلك قولَهم الباطل في حكومةٍ مما يقع بين أيديهم.

---

(١) انظره مع تضعيفه في تفسير الطبري (١٣/ ٢١٠).

(٢) ساقط من المطبوع.

(٣) وهي شاذة، انظرها في إتحاف فضلاء البشر (ص: ٢٩٢).

(٤) ضعيف، هذا الحديث أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ٥٥)، وأبو داود الطيالسي (١٢١٨) وأحمد (٤/ ١٢٤) وفي الزهد (١/ ٣٩٥)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والبزار في مسنده (٣٤٨٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٢٥-٤/ ٢٨٠) من طريق أبي بكر بن أبي مريم الغساني، عن ضمرة بن حبيب، عن شداد بن أوس، به. وأبو بكر ضعيف، وقد أخرجه الطبراني في الكبير (٧١٤١)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٦٧) من طريق آخر عن شداد، وفي إسناده: إبراهيم بن عمرو بن بكر السكسكي، وهو متروك الحديث.

(٥) ساقط من المطبوع.

ويمكن أن يريد قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وهم قد علموا الحق في نهي الله عن ذلك.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَقُولُواْ﴾ بياء من تحت، وقرأ الجحدري: (تَقولوا) بتاء من فوق[١].

وقوله: ﴿وَدَرَسُواْ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾ الآيةَ بمعنى المضي، يقدر: أليس قد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه، وبهذين الفعلين تقوم الحجة عليهم في قولهم الباطل.

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: (وادَّارسوا) ما فيه[٢].

وقال الطبري وغيره: قوله: ﴿وَدَرَسُواْ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾[٣].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا نظر؛ لبعد المعطوف عليه، ولأن قوله: ﴿وَدَرَسُواْ﴾ يزول منه معنى إقامة الحجة بالتقدير الذي في قوله: ﴿أَلَمْ﴾.

ثم وعظ وذكَّر تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء من فوق.

وقرأ أبو عمرو وأهل مكة: ﴿يعقلون﴾ بالياء من أسفل[٤].

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ﴾ عطف على قوله: ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

وقرأ ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص وأبو عمرو والناس: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ بفتح الميم وشد السين.

---

(١) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٢).

(٢) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٦٧).

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٢١٥).

(٤) ووافق أبا عمرو ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف العاشر وأبو بكر شعبة بن عياش عن عاصم/ انظر: النشر (٢/ ٢٩١).

وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأبو العالية وعاصم وحده في رواية أبي بكر: ﴿يمْسِكون﴾ بسكون الميم وتخفيف السين(١).

وكلهم خفف: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] إلا أبا عمرو فإنه قرأ: ﴿ولا تُمَسِّكوا﴾ بفتح الميم وشد السين(٢).

وقرأ الأعمش: (والذين استمسكوا)(٣) وفي حرف أبيٍّ: (والذين مسَّكوا)(٤).

[يقال: أمسك ومسَّك](٥)، وهما لغتان بمعنىً واحد، قال كعب بن زهير:

فَمَا تَمَسَّكُ بالعَهْدِ الَّذي زَعَمَتْ إِلَّا كَمَا تُمْسِكُ الماءَ الْغَرَابِيلُ(٦) [البسيط]

أمَا إن شد السين يجري مع التعدي بالباء.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾.

﴿نَتَقْنَا﴾ معناه: اقتلعنا ورفعنا، فكأن النتق اقتلاع الشيء، تقول العرب: نتقت الزُّبدة من فم القِربة(٧)، ومنه قول الشاعر:

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٤)، وقراءة الباقين في تفسير الثعلبي (٤/ ٣٠١).

(٢) كما سيأتي في محله.

(٣) وهي شاذة، انظر: تفسير الثعلبي (٤/ ٣٠١)، والبحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤١٦).

(٤) وهي شاذة، انظر: تفسير الثعلبي (٤/ ٣٠١)، والحجة لابن خالويه (ص: ١٦٧).

(٥) ليست في المطبوع.

(٦) من قصيدته المشهورة في مدح النبي ﷺ، انظر عزوه له في جمهرة أشعار العرب (ص: ٦٣٣)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٥٠٥)، والشعر والشعراء (١/ ١٥٣)، والعقد الفريد (٦/ ١٣٩)، وديوان المعاني (١/ ٤٠)، وفي نجيبويه: «الذي وعدت».

(٧) انظر تهذيب اللغة حيث قال: «ويقال: نتقْتُ السِقاء: إذا نفضْتَه لِتقلَعَ منه زُبْدَته» (٩/ ٦٦)، وكذلك المخصص (١/ ٤٦٢).

وَنَـتَـقُـوا أَحْـلامَـنَـا الأَثَـاقِـلا[1] [الرجز]

و«النَاتِق»: الرَّحِم التي تقلع الولد من الرجل، ومنه قول النابغة:

لَمْ يُحْرَمُوا حُسْـنَ الْغِذاءِ وأُمُّهُمْ ... دَحَقَـتْ عَلَيْـكَ بِنَاتِقٍ مِـذْكَارِ[2] [الكامل]

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بتزويج الأبكار فإنهن أنتق أرحاماً وأطيب أفواهاً»[3] الحديث.

وقد جاء في القرآن بدل هذه اللفظة في هذه القصة بعينها: (رفعنا)[4]، لكن ﴿نَتَقْنَا﴾ و﴿فَوْقَهُمْ﴾ أعطت الرفع بزيادة قرينة هي أن الجبل اقتلعته الملائكة وأمر الله إياه.

وروي أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة فقال عن الله تعالى: هذا كتاب الله أتقبلونه بما فيه؟ فإن فيه بيانَ ما أحل لكم وما حُرم عليكم وما أمركم وما نهاكم، قالوا: انشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها يسيرةً وحدودُها خفيفةً قبلناها، قال: «اقبلوها بما فيها»، قالوا: لا، فراجعهم موسى فراجعوا ثلاثاً، فأوحى الله عز وجل إلى الجبل / فانقلع وارتفع فوق رؤوسهم، فقال لهم موسى عليه السلام: ألا ترون ما يقول ربي؟: لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل. [٢/ ١٧٨]

قال الحسن البصري: فلما رأوا إلى الجبل خرَّ كل واحد منهم ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فَرَقاً أن يسقط عليه، فلذلك ليس في الأرض يهودي

---

(١) البيت لرؤبة بن العجاج كما في مجاز القرآن (١/ ٢٣٢)، والصحاح للجوهري (٤/ ١٥٥٨).

(٢) انظر عزوه له في العين (٣/ ٤٢)، والمعاني الكبير (٢/ ٩١٧)، وأمالي القالي (١/ ١٥٢)، وتهذيب اللغة (٤/ ٢٣).

(٣) ضعيف، هذا الحديث روي من طرق واهية، أمثلها ما أخرجه ابن ماجه (١٨٦١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩٤٧)، والطبراني في الكبير (٣٥٠)، وفي الأوسط (٤٥٥)، والبيهقي في الكبرى (١٣٢٥١-١٣٢٥٢) وغيرهم من طريق محمد بن طلحة التيمي، عن عبد الرحمن بن سالم بن عتبة بن عويم بن ساعدة، عن أبيه، عن جده، به، وفي إسناده مجاهيل واضطراب.

(٤) منها قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣].

يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التي رفعت بها عنا العقوبة[١].

و«الظلة»: ما أظل، ومنه: ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ومنه: ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، ومنه قول أُسيد بن حضير للنبي ﷺ: «قرأت البارحة فغشي الدار مثلَ الظلة فيها أمثال المصابيح» فقال النبي ﷺ: «تلك السكينة تنزلت للقرآن»[٢].

فإن قيل: فإذا كان الجبل ظلة فما معنى: ﴿كَأَنَّهُۥ﴾؟ فالجواب: أن البشر إنما اعتادوا هذه الأجرام الأرضية ظللاً إذا كانت على عَمَدٍ، فلما كان الجبل على غير عمد قيل: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ أي: كأنه على عمد.

وَ(ظنّوا): قال المفسرون: معناه: أيقنوا[٣].

قال القاضي أبو محمد: وليس الأمر عندي كذلك، بل هو موضعُ غلبة الظن مع بقاء الرجاء، وكيف يوقنون بوقوعه وموسى عليه السلام يقول: إن الرمي به إنما هو بشرط أن لا يقبلوا التوراة، والظن إنما يقع ويستعمل في اليقين متى كان ذلك المتيقَّن لم يخرجَ إلى الحواس، وقد تبين هذا فيما سلف من هذا الكتاب.

ثم قيل لهم في وقت ارتفاع الجبل: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، فأخذوها والتزَموا جميع ما تضمنته من شدة ورخاء فما وفوا.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَٱذْكُرُواْ﴾، وقرأ الأعمش فيما حكى أبو الفتح عنه: (واذَّكَّـرُوا)[٤].

و﴿لَعَلَّكُمْ﴾ على ترجِّيهم، وهذا تشدُّد عليهم في حفظها والتهَمُّم بأمرها.

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٢١٩)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٠٢).

(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٥٠١٨)، ومسلم (٧٩٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) انظر: تفسير الماوردي (٢/ ٢٧٦).

(٤) وهي شاذة، انظرها في المحتسب (١/ ٢٦٧).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ الآية، التقدير: واذكر إذ أخذ.

وقوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ قال النحاة: هو بدل اشتمال من قوله: ﴿مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[١].

وألفاظ هذه الآية تقتضي أن الأخذ إنما[٢] كان من بني آدم من ظهورهم، وليس لآدم في الآية ذكر بحسب اللفظة، وتواترت الأحاديث في تفسير هذه الآية عن النبي ﷺ من طريق عمر ابن الخطاب رضي الله عنه[٣]، وعبد الله بن عباس، وغيرهما: «أن الله عز وجل لما خلق آدم ـ وفي بعض الروايات: لما أهبط آدم إلى الأرض في دهناء من أرض السند[٤]، قاله ابن عباس، وفي بعضها أن ذلك بنعمان، وهي عرفة وما يليها، قاله أيضاً

(١) مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٣٠٦).

(٢) ساقط من المطبوع.

(٣) الأرجح فيه الإرسال، والموصول ليس بحجة، هذا الحديث أخرجه مالك في الموطأ (١٥٩٣) رواية يحيى بن يحيى، وأحمد (١/ ٤٤-٣١١)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١٩٦)، والنسائي في الكبرى (١١١٢٦)، وابن حبان في صحيحه (٦١٦٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٨٠-٢/ ٣٥٤-٥٩٤) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٩٩٠) وغيرهم من طريق مالك بن أنس، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم ابن يسار الجهني، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه به مرفوعاً، وقال الترمذي عقبه: مسلم لم يسمع من عمر، وقد أدخل بعضهم فيه بين مسلم وعمر رجلاً .اهـ، وقد اختلف على ابن أبي أنيسة، فرواه يزيد بن سنان عنه، فزاد: نعيم بن ربيعة الأودي بين مسلم وعمر، أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٨/ ٩٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٠١)، ويزيد هو أبو فروة الرهاوي متفق على ضعفه، وقد تابع يزيد بن سنان: عمر بن جعثم القرشي كما عند أبي داود (٤٧٠٤)، وابن جرير الطبري (١٥٣٥٨)، والبيهقي في القضاء والقدر (٦٢)، والضياء في المختارة (٢٩٠). وابن جعثم فيه جهالة، وقد رواه عنه بقية، وليس بعمدة، وقال الدارقطني في العلل (٢/ ٢٢٢): وحديث يزيد بن سنان متصل وهو أولى بالصواب، والله أعلم، وقد تابعه عمر بن جعثم فرواه عن زيد بن أبي أنيسة، كذلك قاله بقية بن الوليد عنه، لكن قال ابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٥): زيادة من زاد في هذا الحديث نعيم بن ربيعة ليست حجة، وعلى كل حال فنعيم ابن ربيعة لم يوثقه معتبر ولا تقوم به حجة، ولا يعلم سماعه من عمر.

(٤) في الحمزوية وفيض الله ونور العثمانية والسليمانية: «الهند».

ابن عباس وغيره، مسح على ظهره»، وفي بعض الروايات: «بيمينه».

وفي بعض الروايات: «ضرب منكبه فاستخرج منها»، أي: من المسحة أو الضربة، «نَسَم بنيه»، ففي بعض الروايات: «كالذر»، وفي بعضها: «كالخردل»[1].

وقال محمد بن كعب: إنها الأرواح جُعلت لها مثالاتٌ[2].

وروى عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس، وجعل الله لهم عقولاً كنملة سليمان، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأنْ لا إله غيره، فأقروا بذلك والتزموه، وأعلمهم أنه سيبعث الرسل إليهم مذكِّرةً وداعية، فشهد بعضهم على بعض»[3].

قال أبيٌّ بن كعب: وأشهَدَ عليهم السماوات السبع، فليس من أحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أُخذ عليه العهد في ذلك اليوم والمقام[4].

وقال السدي: أعطى الكفارُ العهدَ يومئذ كارهين على وجه التَّقِيَّـة[5].

---

(١) روي مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف صحيح بطرقه، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٥٣٤٠-١٥٣٤٩)، وابن أبي حاتم (٨٥٣٠-٨٥٣١-٨٥٣٦) والضياء في المختارة (٣١٨) وغيرهم من طرق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، مرة مرفوعاً، ومن طرق عنه من قوله، والموقوف صحيح بمجموعها، والمرفوع ليس بالمحفوظ، كما قاله النسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٧).

(٢) انظر تفسير الطبري (١٣/ ٢٤٤).

(٣) الصحيح موقوف على عبد الله بن عمرو لا ابن عمر، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٥٣٥٥-١٥٣٥٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٥٣٢)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٩٩٣) وقد روي مرفوعاً وموقوفاً، والصحيح الموقوف، قاله ابن جرير (١٣/ ٢٥٠) وابن كثير (٣/ ٥٠٢).

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زياداته على مسند أبيه (٥: ١٣٥) من طريق: المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، مختصراً. ورواه الطبري (١٣/ ٢٣٨) والحاكم في المستدرك مطولاً (٢: ٣٢٣) من طريق أبي جعفر عيسى بن عبد الله بن ماهان، عن الربيع بن أنس به، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» .اهـ، والإسناد لا بأس به إذا كان أبو العالية سمعه من أبي بن كعب فإنه كثير الإرسال.

(٥) تفسير الطبري (١٣/ ٢٤٢).

قال القاضي أبو محمد: هذه نَخيلةُ مجموع الروايات المطولة، وكأن ألفاظ هذه الأحاديث لا تلتئم مع ألفاظ الآية، وقد أكثر الناس في رَوْم الجمع بينهما، فقال قوم: إن الآية مشيرة إلى هذا التناسل الذي في الدنيا، و﴿أَخَذَ﴾ بمعنى: أوجد على المعهود، وأن الإشهاد هو عند بلوغ المكلف وهو قد أُعطي الفهم ونصبت له هذه الصنعة الدالة على الصانع، ونحا إلى هذا المعنى الزجَّاج[١]، وهو معنى تحتمله الألفاظ، لكن يَرِدُ عليه تفسيرُ عمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنه الآيةَ بالحديث المذكور، وروايتُهما ذلك عن النبي ﷺ.

وطوَّل الجرجاني في هذه المسألة، ومدار كلامه على أن المسح وإخراج الذرية هو من ظهر آدم حسب الحديث،

وقيل في الآية: «أخذ من ظهورهم» إذ الإخراج من ظهر آدم الذي هو الأصل إخراجٌ من ظهور بنيه الذين هم الفرع، إذ الفرع والأصل شيء واحد[٢]، إلى كلامٍ كثير لا يثبت للنقد.

وقال غيره: إن جميع ما في الحديث من «مَسَح بيمينه» و«ضَرَب منكبه» ونحو هذا، إنما هي عبارة عن [إيجاد ذلك النَّسَم منه، و«اليمين» عبارة عن][٣] القدرة، أو يكون الماسح مَلَكاً بأمر الله عز وجل.

فتضمن الحديث صدر القصة وإيجاد النسم من آدم، وهذه زيادة على ما في الآية.

ثم تضمنت الآية ما جرى بعد هذا من أخذ العهد، والنسمُ حضور موجودون، وهي تحتمل معنيين:

---

(١) راجع معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٣٩٠).

(٢) لم أقف على كلام الجرجاني.

(٣) ساقط من نور العثمانية.

أحدهما: أن يكون ﴿أَخَذَ﴾ عاملاً في عهدٍ أو ميثاقٍ تقدره بعد قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، ويكون قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ لبيان جنس البنوة إذ المراد من الجميع التناسل، ويشركه في لفظة ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بنوه لصلبه وبنوه بالحنان والشفقة، ويكون قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بدلاً من ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

والمعنى الآخر: أنه لما كانت كل نسمة هنالك لها نسبةٌ إلى التي هي من ظهرها، كان تعيين تلك النسبة كأنه[١] أخذٌ من الظهر؛ إذ ستخرج منه في المستأنف[٢]، فالمعنى: وإذ عيَّنوا بهذه النسبة وعُرفوا بها فذلك أخذٌ ما، و﴿أَخَذَ﴾ على هذا عامل في ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وليس بمعنى: مسح وأوجد، بل قد تقدم إيجادهم كما تقدم الحديث المذكور، فالحديث يزيد معنىً على الآية، وهو ذكر آدم وأول إيجاد النسم كيف كان.

وقال الطُّرْطوشي[٣]: إن هذا العهد يَلزم البشرَ وإن كانوا لا يذكرونه في هذه الحياة، كما يلزم الطلاقُ مَن شهد عليه به وهو قد نسيه، إلى غير هذا مما ليس بتفسير ولا من طريقه[٤].

وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر: ﴿ذرياتهم﴾ جمع جمع.

وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[٥]، والإفراد هنا جمع.

وقد تقدم القول على لفظ الذرية في سورة آل عمران.

وروي في قصص هذه الآية: أن الأنبياء عليهم السلام كانوا بين تلك النسم [أمثال السُّرُج][٦]، وأن آدم عليه السلام / رأى داود فأعجبه، فقال: من هذا؟ فقيل: نبي [٢/ ١٧٩]

---

(١) من نجيبويه ونور العثمانية والسليمانية.

(٢) في المطبوع والأصل: «فهي المستأنف».

(٣) هو الفقيه المالكي؛ أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي نسبة إلى طرطوش من بلاد الأندلس، والمتوفى سنة (٥٢٠هـ) في الإسكندرية، مؤلف كتاب الحوادث والبدع، انظر ترجمته في: الديباج المذهب (٢/ ٢٤٤-٢٤٨).

(٤) انظر قول الطرطوشي في تفسير القرطبي ٧/ ٣١٧.

(٥) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٤).

(٦) ليست في المطبوع.

من ذريتك، فقال: كم عمره؟ فقيل: ستون سنة، فقال: زيدوه من عمري أربعين سنة، فزيدت، قال: وكان عمر آدم ألفاً فلما أكمل تسع مئة وستين جاء ملك الموت، فقال له آدم: بقي لي أربعون سنة، فرجع ملك الموت إلى ربه فأخبره، فقال له: قل له إنك أعطيتها لابنك داود، فتوفي آدم عليه السلام بعد أن خاصم في الأربعين[١].

قال الضحاك بن مزاحم: من مات صغيراً فهو على العهد الأول، ومن بلغ فقد أخذه العهد الثاني. يعني: الذي في هذه الحياة المعقولة الآن[٢].

وحكى الزجاج عن قوم أنهم قالوا: إن هذه الآية عبارة عن أن كل نسمة إذا، ولدت وبلغت فنظرها في الأدلة المنصوبة عهدٌ عليها في أن تؤمن وتعرف الله[٣].

وقد تقدم ذكر هذا القول، وهو قول ضعيف مُنكَّبٌ عن الأحاديث المأثورة مطَّرِح لها.

وقوله: ﴿شَهِدۡنَآ﴾ يحتمل أن يكون من قول بعض النسم لبعض، أي: شهدنا عليكم لئلا تقولوا يوم القيامة غفلنا عن معرفة الله والإيمان به، فتكون مقالةً من هؤلاء لهؤلاء، ذكره الطبري[٤]، وعلى هذا لا يَحسُن الوقف على قوله: ﴿بَلَىٰ﴾.

ويحتمل[٥] أن يكون قوله: ﴿شَهِدۡنَآ﴾ من قول الملائكة، فيحسن الوقف على قوله: ﴿بَلَىٰ﴾.

---

(١) صححه الترمذي وغيره، هذا الحديث أخرجه الترمذي (٣٠٧٦)، وأبو يعلى في مسنده (٦٣٧٧-٦٦٥٤)، وابن حبان في صحيحه (٦١٦٧)، وابن أبي حاتم (٨٥٣٥) في تفسيره، والحاكم في المستدرك (١/ ١٣٢-٢/ ٣٥٥-٦٤٠)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٤٧) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

(٢) الهداية لمكي (٤/ ٢٦٢٥).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٣٩٠)، بتصرف.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٢٢٢).

(٥) في الأصل: «ويحسن».

قال السدي: المعنى: قال الله وملائكته شهدنا[1]، ورواه عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ[2].

وقرأ السبعة غير أبي عمرو: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ على مخاطبة حاضرين، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿أن يقولوا﴾ على الحكاية عن غائبين، وهي قراءة ابن عباس وابن جبير وابن محيصن[3].

والقراءتان تتفسر بحسب المعنيين المذكورين.

و﴿أَن﴾ في موضع نصب على تقدير: مخافةَ أن.

قوله عز وجل: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

قال القاضي أبو محمد: المعنى في هذه الآيات: أن الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءهم رسول مذكِّر بما تضمنه العهد من توحيد الله وعبادته لكانت لهم حجتان: إحداهما: كنا غافلين، والأخرى: كنا تبعاً لأسلافنا، فكيف نهلك والذنب إنما هو لمن طرَّق لنا وأضلنا؟ فوقعت شهادة بعضهم على بعض أو شهادة الملائكة عليهم لتنقطع لهم هذه الحجج، والاختلاف في ﴿يقولوا﴾، أو﴿ تَقُولُوٓاْ﴾ بحسب الأول.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ تقديره: وكما فعلنا هذه الأمور وأنفذنا هذه المقادير فكذلك نفصل الآيات ونبينها لمن عاصرك وبُعثت إليه لعلهم على تَرَجِّيهم

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٢٤٣)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٠٤)، بتصرف.

(٢) الأصح موقوف، أخرجه الطبري (١٣/ ٢٣٢) مرفوعاً وموقوفاً، ثم قال: ولا أعلمه صحيحاً، لأن الثقات الذين يعتمد على حفظهم وإتقانهم حدثوا بهذا الحديث عن الثوري، فوقفوه على عبد الله ابن عمرو، ولم يرفعوه. اهـ، وكذا ذكره ابن كثير في تفسيره (٣: ٥٨٦، ٥٨٩) وضعَّف رفعه، وبين أن وقفه أصح.

(٣) فهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٤).

وتَرَجِّيكم وبحسب نظر البشر يرجعون إلى طاعة الله ويدخلون في توحيده وعبادته.

وقرأت فرقة: (يفصِّل) بالياء[١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ الآية، (اتْلُ): معناه: قصَّ واسْرُد، والضمير في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ عائد على حاضري محمد ﷺ من الكفار وغيرهم، واختلف المتأولون في الذي أوتي الآيات:

فقال عبد الله بن مسعود وغيره: هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى عليه السلام إلى ملك مدين داعياً إلى الله تعالى وإلى الشريعة، وعلَّمه من آيات الله ما يمكن أن يدعو به وإليه، فلما وصل رشاه الملك وأعطاه على أن يترك دين موسى ويتابعَ الملك على دينه، ففعل وفتن الملك به الناس وأضلَّهم[٢].

وقال ابن عباس: هو رجل من الكنعانيين الجبارين اسمه بلعم[٣]، وقيل: بلعام ابن عابر، وقيل: ابن آبر، وقيل غير هذا مما ذكرهُ تطويل، وكان في جملة الجبارين الذين غزاهم موسى عليه السلام، فلما قرب منهم موسى لجؤوا إلى بلعام وكان صالحاً مستجاب الدعوة، وقيل: كان عنده علم من صحف إبراهيم ونحوها.

وقال مجاهد: كان رشِّح للنبوءة وأعطيها، فرشاه قومه على أن يسكت ففعل[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول مردود لا يصح عن مجاهد، ومن أعطي النبوءة فقد أعطي العصمة ولا بد، ثبت هذا بالشرع[٥].

---

(١) وهي شاذة، عزاها ابن خالويه في المختصر (ص: ٥٣)، والكرماني في شواذ القراءات (ص: ١٩٦) لإبراهيم ويحيى.

(٢) لم أر عن ابن مسعود إلا قوله: رجل من بني إسرائيل يقال له: بلعم بن أبر، وإسناده مستقيم، هكذا أخرجه الطبري (١٣/ ٢٥٣)، وعزاه في الدر المنثور (٣/ ٦٠٨) لجماعة من المفسرين، وأما سائر الكلام فروي عن بعض التابعين، يراجع الدر المنثور (٣/ ٦١٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٥٥) من طريق علي بن أبي طلحة عنه.

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ٢٥٩)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢٧٩).

(٥) في نور العثمانية: «ولا يثبت هذا بالشرع».

وقد نص معنى ما قلتُه أبو المعالي في كتاب «الشامل»[١].

وقيل: كان يعلم اسم الله الأعظم، قاله ابن عباس أيضاً[٢].

وهذا الخلاف في المراد بقوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾.

فقال له قومه: ادع الله تعالى على موسى وعسكره، فقال لهم: وكيف أدعو على نبي مرسل؟! فما زالوا به حتى فتنوه، فخرج حتى أشرف على جبل يرى منه عسكر موسى، وكان قد قال لقومه: لا أفعل حتى أستأمر ربي، ففعل [فنهي عن ذلك، فقال لهم: قد نُهيت، فما زالوا به حتى قال: أستأمر ربي ثانية، ففعل][٣] فسكت عنه، فأخبرهم فقالوا له: إن الله لم يَدَعْ نهيك إلا وقد أراد ذلك، فخرج، فلما أشرف على العسكر جعل يدعو على موسى، فتحول لسانه بالدعاء لموسى والدعاء على قومه، فقالوا له: ما تقول؟ فقال: إني لا أملك إلا هذا، وعلم أنه قد أخطأ.

فروي أنه خرج لسانه على صدره، فقال لقومه: إني قد هلكت، ولكن لم يبق لكم إلا الحيلة، فأخرجوا النساء إلى عسكر موسى على جهة التجر[٤] وغيره، ومروهن ألا تمتنع امرأة من رجل فإنهم إذا زنوا هلكوا، ففعلوا فخرج النساء، فزنى بهن رجال بني إسرائيل، وجاء فنحاص بن العيزار بن هارون، فانتظم برمحه امرأة ورجلاً من بني إسرائيل، ورفعهما على أعلى الرمح فوقع في بني إسرائيل الطاعون فمات منهم في ساعة واحدة سبعون ألفاً، ثم ذكر المعتمر عن أبيه أن موسى عليه السلام قَتل بعد ذلك الرجل المنسلخ من آيات الله[٥].

قال المهدوي: روي أنه دعا على موسى أن لا يدخل مدينة الجبارين فأجيب،

---

(١) في نجيبويه: «الشمائل»، وكتاب الشامل لابن الجويني مطبوع لكن لم أهتد فيه إلى النص المذكور، وانظر: الإقناع لابن القطان (١/ ٤١-٤٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٥٨) من طريق علي بن أبي طلحة عنه.

(٣) ما بين القوسين ساقط من المطبوع.

(٤) في المطبوع: «التجرد»، وفي نور العثمانية ولالاليه: «البحر».

(٥) تفسير الطبري (١٣/ ٢٦٢).

[ودعا عليه موسى عليه السلام أن ينسى اسم الله الأعظم فأجيب[١]].

قال الزجَّاج: وقيل: إن الإشارة إلى منافقي أهل الكتاب[٢].

قال القاضي أبو محمد: وصواب هذا أن يقال: إلى كفار أهل الكتاب؛ لأنه لم يكن منهم منافق إنما كانوا مجاهرين، وفي هذه القصة روايات كثيرة اختصرتها/ لتعذُّر صحتها، واقتصرت منها على ما يخص ألفاظ الآية. [٢/ ١٨٠]

وقالت فرقة: المشار إليه في الآية رجل كان قد أعطي ثلاث دعوات مستجابات، فترك أن يدعو بها في مصالح العباد؛ فدعا بواحدة أن ترجع امرأته أجمل النساء، فكان ذلك، فلما رأت نفسها كذلك أبغضته واحتقرته، فدعا عليها ثانية فمسخت كلبة، فشفع لها بنوها عنده، [فدعا لها الثالثة فعادت كما كانت][٣]، فانصرفت إلى حالها فذهبت الدعوات[٤].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاصي: المشار إليه في الآية أمية بن أبي الصلت[٥]، وكان قد أوتي علماً، وروي أنه جاء يريد الإسلام، فوصل إلى بدر بعد الوقعة بيوم أو نحوه، فقال: مَن قتل هؤلاء؟ فقيل: محمد ﷺ، فقال: لا حاجة لي بدينِ مَن قتل هؤلاء، فارتد ورجع، وقال: الآن حلَّت لي الخمر، وكان قد حرمها على نفسه، فمر حتى لحق بقوم من ملوك حمير فنادمهم حتى مات[٦].

و﴿فَٱنسَلَخَ﴾ عبارة عن البراءة منها والانفصالِ والبعد، كالسلخ من الثياب،

---

(١) التحصيل للمهدوي (٣/ ١٢٧).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٣٩١).

(٣) زيادة من المطبوع.

(٤) انظر تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٨٢)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٠٧).

(٥) لا بأس بإسناده، رواه النسائي في الكبرى (١١١٣٠)، وابن جرير الطبري (١٥٤٠٢-١٥٤٠٧)، وابن أبي حاتم (٨٥٤٢) في تفسيريهما بإسناد لا بأس به عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٦) لم أقف عليه.

والجلد، و﴿فَأَتْبَعَهُ﴾: صيَّره تابعاً، كذا قال الطبري: إما لضلالة رسمها له، وإما لنفسه[١].

وقرأ الجمهور ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ بقطع الألف وسكون التاء، وهي راجحة لأنها تتضمن أنه لحقه وصار معه، وكذلك: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ [الحجر: ١٨] و﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ [يونس: ٩٠]، [طه: ٧٨].

وقرأ الحسن فيما روى عنه هارون: (فاتَّبعه) بصلة الألف وشد التاء، وكذلك طلحة بن مصرف بخلاف، وكذلك الخلاف عن الحسن[٢]، على معنى: لازَمَه واتَّبعه بالإغواء حتى أغواه.

و﴿مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي: من الضالين.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ﴾ قالت فرقة: معناه: لأخذناه، كما تقول: رُفع الظالم: إذا هلك، والضمير في ﴿بِهَا﴾ عائد على المعصية في الانسلاخ، وابتدأ وصف حاله بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فهي عبارة عن إمهاله وإملاء الله له.

وقال ابن أبي نجيح: ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ معناه: لتوفيناه قبل أن يقع في المعصية ورفعناه عنها[٣].

والضمير على هذا عائد على الآيات، ثم ابتدأ وصف حاله.

وقال ابن عباس وجماعة معه: معنى ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ أي: لشرَّفنا ذكره ورفعنا منزلته

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٢٦١)، بتصرف.
(٢) وهي شاذة، انظر عزوها لهما في الشواذ للكرماني (ص: ١٩٦).
(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٢٦٨)، بتصرف.

لدينا بهذه الآيات التي آتيناه ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[١]، فالكلام متصل، ذُكر فيه السبب الذي من أجله لم يُرفع ولم يشرف كما فعل بغيره ممن أوتي هذا[٢].

و﴿أَخْلَدَ﴾ معناه: لازَمَ وتقاعس وثبت، والمخلد: الذي يثبت شبابه فلا يغشاه الشيب، ومنه: الخلد، ومنه قول زهير:

لِـمَـن الدِّيَـارُ غَشِـيتُـهَـا بِـالْفَـدْفَـدِ كَالْوَحْيِ فِي حَجَرِ الْمَسِيلِ الْمُخْلِدِ[٣] [الكامل]

وقوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يحتمل أن يريد: إلى شهواتها ولذاتها وما فيها من الملاذ، قاله السدي وغيره[٤]، ويحتمل أن يريد بها العبارةَ عن الأسفل والأخس، كما يقال: فلان في الحضيض.

[ويتأيد ذلك من جهة المعنى المعقول، وذلك أن الأرض وما ارتكز فيها هي الدنيا، وكلُّ ما عليها فان، من أخلد إليها فقد حُرم حظ الآخرة الباقية][٥].

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ قال السدي وغيره: إن هذا الرجل عوقب في الدنيا بأنه كان يلهث كما يلهث الكلب، فشبِّه به صورة وهيئة[٦].

وقال الجمهور: إنما شبِّه به في أنه كان ضالّاً قبل أن يؤتى الآيات، ثم أوتيها فكان أيضاً ضالّاً لم تنفعه، فهو كالكلب في أنه لا يفارق اللهث في حالِ حملِ المشقة عليه أوتركِهِ دون حمل عليه، وتحرير المعنى: فالشيء الذي تتصوره النفوس من حاله هو كالذي تتصور من حال الكلب، وبهذا التقدير يحسُن دخول الكاف على ﴿كَمَثَلِ﴾.

---

(١) خبر ابن عباس لفظه: لرفعه الله تعالى بعلمه، أخرجه الطبري (١٣/ ٢٦٨) بإسناد منقطع.

(٢) في المطبوع وفيض الله ونور العثمانية: «هدى».

(٣) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٣/ ٢٧٠)، والصحاح للجوهري (٢/ ٤٦٩)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٠٨). وهو في ديوانه بشرح ثعلب (ص: ٢٦٨)، وقال ثعلب: الفدفد المرتفع فيه صلابة وحجارة، «كالوحي»: كالكتاب.

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ٢٧٠).

(٥) ساقط من نور العثمانية، وهو في فيض الله ملحق في الهامش وعليه تصحيح.

(٦) تفسير الطبري (١٣/ ٢٧٣)، بتصرف يسير.

و«اللهث»: تنفس بسرعة، وتحرُّكُ أعضاء الفم معه، وامتداد اللسان، وأكثر ما يعتري ذلك مع الحر والتعب، وهو في الفرس ضَبْحٌ، وخلقة الكلب أنه يلهث على كل حال، وذكر الطبري أن معنى ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: تطرده، وحكاه عن مجاهد[١]، وابن عباس[٢].

قال القاضي أبو محمد: وذلك داخل في جملة المشقة التي ذكرنا.

وقوله: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ أي: هذا المثلُ يا محمد مَثَلُ هؤلاء القوم الذين كانوا ضالين قبل أن تأتيهم بالهدى والرسالة، ثم جئتهم بذلك فبقُوا على ضلالتهم ولم ينتفعوا بذلك، فمثلهم كَمَثَلِ الْكَلْبِ.

وقوله: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ﴾ أي: اسرد عليهم ما يعلمون أنه من الغيوب التي لا يعلمها إلا أهل الكتب الماضية ولست منهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك فيؤمنون.

وقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ قال الزجاج: التقدير: ساء مثلاً مَثَلُ القوم[٣]، لأن الذي بعد بئس ونعم إنما يتفسر من نوعه، كما تقول: بئس رجلاً زيد، ولما انحذف (مَثَل) أقيم ﴿ٱلۡقَوۡمُ﴾ مقامه، والرفع في ذلك بالابتداء، والخبر فيما تقدم.

وقرأ الجحدري: (ساء مثلُ القوم)[٤]، ورفعُ (مَثَلُ) على هذه القراءة بـ(ساءَ).

ولا تجري «ساءَ» مجرى «بِئْسَ» إلا إذا كان ما بعدها منصوباً.

قال أبو عمرو الداني: قرأ الجحدري: (مِثْلُ) بكسر الميم ورفع اللام، وقرأ الأعمش: (مَثَلُ) بفتح الميم والثاء ورفع اللام[٥].

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٢٧٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٧٢) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٩١).

(٤) وهي شاذة، انظرها في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٨١)، والهداية لمكي (٤/ ٢٦٤٥)، والشواذ للكرماني (ص: ١٩٩).

(٥) لم أقف عليه، ولم أجد من ذكر هذه القراءة إلا أبا حيان، فإنه أشار لها في البحر المحيط (٥/ ٢٢٦).

قال القاضي أبو محمد: وهذا خلاف ما ذكر أبو حاتم، فإنه قال: قرأ الجحدري والأعمش (ساء مَثَلُ)، بالرفع.

وختمت هذه الآيات التي تضمنت ضلال أقوام، والقول فيه بأن ذلك كله من عند الله، الهداية منه وبخلقه واختراعه وكذلك الإضلال. وفي الآية تعجبٌ من حال المذكورين، ومن أضل فقد [حتم][(١)] عليه بالخسران، والثوابُ والعقاب متعلق بكسب ابن آدم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ خبر من الله تعالى أنه خلق لسكنى جهنم والاحتراق فيها كثيراً، وفي ضمنه وعيد للكفار، و«ذرأ» معناه: خلق وأوجد مع بثٍّ ونشر.

وقالت فرقة: اللام في قوله: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ هي لام العاقبة، أي: ليكون أمرهم ومآلهم لجهنم.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ليس بصحيح، ولام العاقبة إنما يتصور إذا كان فعلُ الفاعل لم يُقصد به ما يصير الأمر إليه، [وهذه اللام مثلُ التي في قول الشاعر / : [٢/ ١٨١]

[البسيط]

يـا أُمَّ فَـرْوة كفي اللَّـوم واعْتَرفي فَـكُلُّ وَالِـدَةٍ لِلْمَـوْتِ مَـا تَلِدُ[(٢)]

وأما هنا فالفعل قُصد به ما يصير الأمر إليه من سكناهم جهنم][(٣)].

وحكى الطبري عن سعيد بن جبير أنه قال: أولاد الزنا مما ذرأ الله لجهنم، ثم أسند فيه حديثاً من طريق عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ[(٤)].

---

(١) في المطبوع: «حكم»، وفي نور العثمانية: «ختم».

(٢) لم أجد له ذكراً خارج النص، وفي الأصل: «للمتأني»، وفي المطبوع: «للمنتأى»، وفي السليمانية وفيض الله: «للمبتلي».

(٣) ساقط من نور العثمانية والحمزوية.

(٤) ضعيف، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٣/ ٢٧٧) من طريق: مروان بن معاوية، عن الحسن بن عمرو، عن معاوية بن إسحاق، عن جليس له بالطائف، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً. والمبهم لا عبرة به.

وقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ وإن كان ليس بنص في أن الكفار أكثر من المؤمنين فهو ناظر إلى ذلك في قول النبي ﷺ: «قال الله لآدم: أخرج بعث النار، فأخرج من كل ألف تسعة وتسعين وتسع مئة»[١].

قوله عز وجل: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

وصفت هذه الصنيفة[٢] الكافرة المُعرِضة عن النظر في آيات الله بأن قلوبهم لا تفقه، والفقه: الفهم، وأعينهم لا تبصر، وآذانهم لا تسمع، وليس الغرض من ذلك نفيَ هذه الإدراكات عن حواسهم جملةً، وإنما الغرض نفيها في جهة مّا[٣]، كما تقول: فلان أصمٌّ عن الخنا، ومنه قول مسكينٍ الدارمي[٤]:

[أحذ الكامل]

أَعْمَـى إِذَا مَـا جَارَتِـي خَرَجَـتْ ... حَـتَّـى يُـوَارِيَ جَـارَتِـي السـتْـر
وَأَصَــمُّ عَـمَّـا كَـانَ بَيْنَهُمَا ... عمـداً وَمَـا بِالسَّـمْعِ مِـنْ وَقْرِ[٥]

ومنه قول الآخر:

[الوافر]

وعَـوْرَاء الـكَلام صَمَمْـتُ عَنْها ... وَلَـوْ أَنِّـي أَشَـاءُ بها سَـمِيعُ
وبـادِرَةٍ وَزَعْـتُ النَّفْـسَ عَنْهَـا ... وقدبَقِيَتْ مِنَ الْغَضَبِ الضُّلوعُ[٦]

---

(١) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) في المطبوع: «الصنفة».

(٣) ليست في نجيبويه.

(٤) مسكين الدارمي هو ربيعة بن عامر بن أنيف، من بنى دارم. ومسكين لقب، الشعر والشعراء (١/ ٥٣٦).

(٥) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٣/ ٢٧٩)، والصاحبي لابن فارس (ص: ١٩٩)، وربيع الأبرار للزمخشري (١/ ٣٩٠).

(٦) وردا بلا نسبة في تفسير الطبري (١٣/ ٢٧٩)، وفيه: «عوراء اللئام»، و«تثقت» بدل «بقيت»، وهي غير مقروءة في فيض الله.

ومنه قول الآخر في وصاة من يدخل إلى دار ملك:

وَادْخُـلْ إِذَا مَـا دَخَلْـتَ أَعْمَـى وَاخْرُجْ إِذَا مَا خَرَجْتَ أَخْرَسْ[١] [مخلع البسيط]

فكأن هؤلاء القوم لما لم ينفعهم النظر بالقلب ولا بالعين، ولا ما سمعوه من الآيات والمواعظ، استوجبوا الوصف بأنهم لا يَفْقَهُونَ ولا يُبْصِرُونَ ولا يَسْمَعُونَ.

وفسر مجاهد هذا بأن قال: لهم قلوب لا يفقهون بها شيئاً من أمر الآخرة، وأعينٌ لا يبصرون بها الهدى، وآذان لا يسمعون بها الحق[٢].

و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من تقدم ذكره من الكفرة، وشَبَهُهم بالأنعام في أن الأنعام لا تفقه قلوبهاالأشياء ولا تعقل المقاييس، وكذلك ما تبصره لا يتحصل لها كما يجب، فكذلك هؤلاء ما يبصرونه ويسمعونه لا يتحصل لهم منه علم على ما هو به حين أبصر وسمع.

ثم حكم عليهم بأنهم أَضَلُّ، لأن الأنعام تلك هي بنيتها وخلقتها لا تقصِّر في شيء ولا لها سبيل إلى غير ذلك، وهؤلاء معدُّون للفهم، وقد خلقت لهم قوىً يصرفونها، وأعطوا طرقاً في النظر، فهم بغفلتهم وإعراضهم يُلحقون أنفسهم بالأنعام، فهم أضل على هذا، ثم بيَّن بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الطريق الذي به صاروا أضل من الأنعام، وهو الغفلة والتقصير.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الآيات، السبب في هذه الآية على ما روي: أن أبا جهل سمع بعض أصحاب النبي ﷺ يقرأ فيذكر الله في قراءته، ومرة يقرأ فيذكر الرحمن ونحو هذا، فقال: محمد يزعم أن الإله واحد، وهو إنما يعبد آلهة كثيرة، فنزلت هذه[٣].

و﴿ٱلْأَسْمَآءُ﴾ هنا بمعنى التسميات إجماعاً من المتأولين لا يمكن غيره.

---

(١) البيت لأبي الفتح البستي، كما في أحسن ما سمعت للثعالبي (ص: ٨٨)، والكشكول (٢/ ١٧٠).

(٢) تفسير البحر المحيط (٥/ ٢٢٨).

(٣) انظر: تفسير مقاتل (٢/ ٧٦).

و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: مصدر وصف به، ويجوز أن تقدر ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فُعْلى مؤنثة أحسن، فأُفرد وصف جمع[١] ما لا يعقل، كما قال: ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]، وكما قال: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]، وهذا كثير، وحُسنُ الأسماء إنما يتوجه بتحسين الشرع لإطلاقها، والنصِّ عليها، وانضاف إلى ذلك أيضاً أنها إنما تضمنت معاني حساناً شريفة.

واختلف الناس في الاسم الذي يقتضي مدحاً خالصاً ولا يتعلق به شبهةٌ ولا اشتراك، إلا أنه لم يُر منصوصاً: هل يطلق ويسمى الله به؟ فنص ابن الباقلاني على جواز ذلك، ونص أبو الحسن الأشعري على منع ذلك، والفقهاء والجمهور على المنع[٢].

وهو الصواب: أن لا يسمى الله تعالى إلا باسم قد أطلقته الشريعة ووقفت عليه أيضاً، فإن هذه الشريطة التي في جواز إطلاقه من أن يكون مدحاً خالصاً لا شبهة فيه ولا اشتراك أمرٌ لا يُحسِنه إلا الأقل من أهل العلوم، فإذا أبيح ذلك تسوَّر عليه من يظن بنفسه الإحسان وهو لا يحسن، فأدخل في أسماء الله ما لا يجوز إجماعاً.

واختلف أيضاً في الأفعال التي في القرآن مثل قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤] ونحو ذلك: هل يطلق منها اسم الفاعل؟ فقالت فرقة: لا يطلق ذلك بوجه[٣]، وجوزت فرقة أن يقال ذلك مقيداً بسببه، فيقال: الله مستهزئ بالكافرين، وماكر بالذين يمكرون بالدين[٤]، وأما إطلاق ذلك دون تقييد فممنوع إجماعاً[٥]، والقول الأول أقوى.

---

(١) في المطبوع: «جميع».

(٢) انظر قول أبي الحسن والباقلاني في المقصد الأسنى للغزالي (١/ ١٧٣)، وقول الفقهاء والجمهور في شرح المقاصد (٢/ ١٧١).

(٣) هذا هو مذهب أهل السنة كما في شرح المقاصد (٢/ ١٧١-١٧٢)، ولوامع الأنوار البهية (١/ ١٢٦).

(٤) نسبه السفاريني في لوامع الأنوار البهية (١/ ١٢٥-١٢٦) إلى بعض المتأخرين ولم يسمهم.

(٥) انظر نقل الإجماع على ذلك في: شرح المقاصد (٢/ ١٧١).

ولا ضرورة تدفع إلى القول الثاني؛ لأن صيغة الفعل الواردة في كتاب الله تغني، ومن أسماء الله تعالى ما ورد في القرآن، ومنها ما ورد في الحديث وتواتر، وهذا هو الذي ينبغي أن يعتمد عليه، وقد ورد في الترمذي حديث عن أبي هريرة، ونص فيه تسعةً وتسعين اسماً[(١)]، وفي بعضها شذوذ، وذلك الحديث ليس بالمتواتر، وإنما المتواتر منه قول النبي ﷺ «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة»[(٢)].

ومعنى «أحصاها»: عدَّها وحفظها، وتضمن ذلك الإيمانَ بها والتعظيم لها والرغبة فيها والعبرة في معانيها، وهذا حديث البخاري، والمتحصِّل منه أن لله تعالى هذه الأسماء مباحاً إطلاقُها، وورد في بعض دعاء النبي ﷺ: «يا حنَّان يا منَّان»[(٣)]، ولم يقع هذان الاسمان في تسمية الترمذي.

وقوله: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ إباحةٌ بإطلاقها.

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ﴾ قال ابن زيد: معناه: اتركوهم ولا تحاجُّوهم ولا

---

(١) شاذ بذكر الأسماء، أخرجه الترمذي (٣٥٠٧)، وابن حبان في صحيحه (٨٠٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٢)، وغيرهم من طريق الوليد بن مسلم، عن شعيب، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة به مرفوعاً، قال الترمذي: وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولا نعلم في كثير شيء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. اهـ.

(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ضعيف، جاء هذان الاسمان في حديث أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٢٣٠)، وأبو يعلى (٤٢١٠)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٧٤٩-٧٥٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٦٥١)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٢٠٦)، وفي البعث والنشور (٥٣) من طريق سلام بن مسكين، عن أبي ظلال، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عبداً في جهنم ينادي ألف سنة: يا حنان يا منان، فيقول الله تبارك وتعالى: يا جبريل، اذهب فأتني بعبدي هذا»، وأبو ظلال هو: هلال بن أبي هلال، ويقال: ابن أبي مالك الأزدي القسملي ضعيف، وفي الباب عن جابر بن عبد الله وأبي الدرداء رضي الله عنهم بأسانيد فيها مقال.

تعرضوا لهم[١]، فالآية على هذا منسوخة بالقتال، وقيل: معناه الوعيد، كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١]، وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ [الحجر: ٣].

[٢/ ١٨٢] ويقال: أَلحد ولَحد بمعنى: جار ومال وانحرف، وألحد أشهرُ/ ، ومنه قول الشاعر:

لَيْسَ الإمامُ بالشَّحيح المُلْحِدِ[٢]

قال أبو علي: ولا يكاد يسمع لاحِدٌ، وفي القرآن ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، ومنه لحد القبر المائل إلى أحد شقيه[٣].

وقرأ أبو عمرو وابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ بضم الياء وكسر الحاء، وكذلك في النحل والسجدة[٤]، وقرأ حمزة الأحرف الثلاثة: ﴿يَلحَدون﴾ بفتح الياء والحاء، وكذلك ابن وثاب وطلحة وعيسى والأعمش[٥].

ومعنى الإلحاد في أسماء الله عز وجل: أن يسموا اللات نظيراً إلى اسم الله تعالى، قاله ابن عباس[٦]، والعزى نظيراً إلى العزيز، قاله مجاهد[٧]، ويسمون الله ربّاً، ويسمون أوثانهم أرباباً، ونحو هذا.

وقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وعيد محض بعذاب الآخرة.

وذهب الكسائي إلى الفرق بين ألحد ولحد، وزعم أن ألحد بمعنى مال وانحرف،

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٢٨٤-٢٨٥).

(٢) الرجز لحميدٍ الأرقط، كما في أمالي القالي (٢/ ١٧)، والصحاح للجوهري (١/ ١١٨)، وخزانة الأدب للبغدادي (٥/ ٣٩٣).

(٣) الحجة للقراء السبعة (٤/ ١٠٨)، «ولاحدٌ» تحرفت في المطبوع إلى: «لأحد».

(٤) وهي حم فصلت: ٤٠، وآية النحل: ١٠٣.

(٥) فهما سبعيتان، والكسائي مع الأولين، إلا في النحل، انظر: التيسير (ص: ١١٤)، وانظر أيضاً إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٨١).

(٦) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٨٢) من طريق العوفي عن ابن عباس.

(٧) تفسير الطبري (١٣/ ٢٨٣).

ولحد بمعنى ركن وانضوى، قال الطبري: وكان الكسائي يقرأ جميع ما في القرآن بضم الياء وكسر الحاء، إلا التي في النحل فإنه كان يقرؤها بفتح الياء والحاء ويزعم أنها بمعنى الركون، وكذلك ذكر عنه أبو علي[١].

قوله عز وجل: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

هذه آية تتضمن الخبر عن قوم مخالفين لمن تقدم ذكرهم في أنهم أهل إيمان واستقامة وهداية، وظاهر لفظ هذه الآية يقتضي كلَّ مؤمن كان من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، قال النحاس: فلا تخلو الدنيا في وقت من الأوقات من داع يدعو إلى الحق.

قال القاضي أبو محمد: سواء بَعُدَ صوته أو كان خاملاً، وروي عن كثير من المفسرين أنها في أمة محمد ﷺ، وروي في ذلك حديث رسول الله ﷺ قال: «هذه الآية لكم»[٢]، وقد تقدم مثلها لقوم موسى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآيـةَ وعيدٌ، والإشـارة إلى الكفار و﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ معناه: سنسوقهم شيئاً بعد شيء ودرجةً بعد درجة، بالنعم عليهم والإمهال لهم حتى يغتروا ويظنوا أنهم لا ينالهم عقاب.

وقوله: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معناه: من حيث لا يعلمون أنه استدراج لهم، وهذه عقوبة من الله على التكذيب بالآيات، لمَّا حتم عليهم بالعذاب أملى لهم ليزدادوا إثماً.

وقرأ ابن وثاب والنخعي: (سيَستدرجهم) بالياء[٣].

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٢٨٣)، والحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ١٠٨).

(٢) مرسل، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٥٤٦٠) من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة مرسلاً.

(٣) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٣)، والنخعي ليس في نجيبويه.

وقوله: (أُمْلِي) معناه: أؤخِّر مُلاوةً من الدهر؛ أي: مدة، وفيها ثلاث لغات: فتح الميم وضمها وكسرها.

وقرأ عبد الحميد عن ابن عامر: (أن كيدي)[1] على معنى: لأجل أن كيدي.

وقرأ جمهور الناس وسائر السبعة: ﴿إِنَّ كَيْدِى﴾ على القطع والاستئناف.

و﴿مَتِينٌ﴾ معناه: قوي، [قال الشاعر:

[الطويل] لإِلٍّ عَلَيْنَا واجب لا نُضِيعُهُ ... مَتِينٍ قُوَاهُ غَيْرِ مُنْتَكَثِ الْحَبْلِ[2]

وروى ابن إسحاق في هذا البيت: أمين قواه][3]، وهو من المتن الذي يحمل عليه [لقوته، ومنه][4] قول الشاعر [وهو امرؤ القيس:

[المتقارب] لَهَ مَتْنَتَان خَظَاتَا كَمَا ... أَكَبَّ على سَاعِدَيْهِ النَّمِرْ[5]

وهما جنبتا الظهر، ومنه قول الآخر:

[الطويل] عَدلن عُدولَ اليأس وافتجَّ يبْتَلي ... أَفَانِينَ مِنْ أُلْهُوبِ شَدٍّ مُمَاتِنِ[6]

ومنه قول امرئ القيس][7]:

[الطويل] ويَخْدي على صُمٍّ صِلابٍ مَلاطِسٍ ... شديداتِ عَقْدٍ لَيِّنات مِتَان][8]

---

(١) انظرها في جامع البيان (٣/ ١١٢٥)، وليست من طرق التيسير.
(٢) البيت من قصيدة لأبي جهل عليه لعنة الله كما في سيرة ابن هشام (١/ ٥٩٧).
(٣) ساقط من نور العثمانية، وهذه هي رواية ابن هشام (١/ ٥٩٧).
(٤) ساقط من نور العثمانية.
(٥) انظر عزوه له في الجمل في النحو (ص: ٢٣٦)، والعين (٤/ ٢٩٧)، والحيوان (١/ ١٨٠)، والمعاني الكبير في أبيات المعاني (١/ ١٤٥)، والموازنة (ص: ٣٨)، والمتنة الخظاة المكتنزة اللحم، وأراد: خظاتان، ولكنه كف نونه كما قالوا في «اللذان»: «اللذا».
(٦) البيت للطِّرِمَّاح، كما في ديوانه (ص: ١٣٣)، واستشهد به الطبري (١٣/ ٢٨٨) بلا نسبة، والألهوب: ابتداء جري الفرس.
(٧) ساقط من السليمانية.
(٨) ساقط من نور العثمانية، وانظر عزو البيت له في تهذيب اللغة (١٢/ ٢٣٤)، وجمهرة اللغة (١/ ٤٦٦).

ومنه الحديث في غزوة بني المصطلق: فمتن رسول الله ﷺ بالناس[١]، أي: سار بهم سيراً شديداً لينقطع الحديث بقول ابن أبي بن سلول: لئن رجعنا إلى المدينة.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم﴾ الآية، تقرير يقارنه توبيخ للكفار، والوقف على قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ ثم ابتدأ القول بنفي ما ذكروه فقال: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: بمحمد ﷺ، ويحتمل أن يكون المعنى: أو لم يتفكروا أنه ما بصاحبهم من جنة.

وسبب نزول هذه الآية فيما روي: أن رسول الله ﷺ صعد ليلاً على الصفا فجعل يدعو قبائل قريش، يا بني فلان، يا بني فلان، يحذرهم ويدعوهم إلى الله، فقال بعض الكفار حين أصبحوا: هذا مجنون بات يصوِّت حتى الصباح[٢]، فنفى الله عز وجل ما قالوه من ذلك في هذا الموطن المذكور وفي غيره، فإن الجنون بعض ما رموه به حتى أظهر الله نوره، ثم أخبر أنه نذير، أي: محذِّر من العذاب، ولفظ النذارة إذا جاء مطلقاً فإنما هو في الشر، وقد يستعمل في الخير مقيداً به، ويظهر من رصف الآية أنها باعثة لهم على الفكرة في أمر محمد ﷺ، وأنه ليس به جنة، كما أحالهم بعد هذه الآية على النظر ثم بيَّن المنظور فيه، كذلك أحال هنا على الفكرة، ثم بيَّن المتفكَّر فيه.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ الآية، هذا أيضاً توبيخ للكفار وتقرير، والنظر هنا بالقلب عبرة وفكراً.

و﴿مَلَكُوتِ﴾ بناءُ عظمة ومبالغة.

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ لفظ يعم جميع ما ينظر فيه ويستدل به من الصنعة الدالة على الصانع، ومن نفس الإنسان وحواسه ومواضع رزقه، والشيء واقع على الموجودات.

---

(١) لم أقف عليه هذا اللفظ.

(٢) مرسل، أخرجه الطبري (١٥٤٦١)، وابن أبي حاتم (٨٥٩٢) في تفسيريهما من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة مرسلاً.

وقوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ﴾ عطف على قوله: ﴿فِى مَلَكُوتِ﴾ و﴿وَأَنْ﴾ الثانية في موضع رفع بـ﴿عَسَىٰٓ﴾، والمعنى: توقيفهم على أنْ لم يقع لهم نظر في شيء من هذا، ولا في أنه قربت آجالهم، فماتوا ففات أوان الاستدراك ووجب عليهم المحذور.

ثم وقفهم بأي حديث أو أمر يقع إيمانهم وتصديقهم إذا لم يقع بأمر فيه نجاتهم ودخولهم الجنة، ونحو هذا المعنى قول الشاعر:

[الطويل] .... وَعَنْ أَيِّ نَفْسٍ بَعْدَ نَفْسِي أُقَاتِلُ[1]

والضمير في قوله: ﴿بَعْدَهُۥ﴾ يراد به القرآن، وقيل: المراد به محمد ﷺ وقصته وأمره أجمع، وقيل هو عائد على الأجل [أي بعد الأجل][2] إذ لا عمل بعد الموت.

[٢/ ١٨٣] / قوله عز وجل: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

هذا شرط وجواب مضمنَّهُ اليأس منهم والمقت[3] لهم؛ لأن المراد أن هذا قد نزل بهم وأنهم مثال لهذا.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والحسن وأبو جعفر والأعرج وشيبة وأبو عبد الرحمن وقتادة: ﴿ونذرُهم﴾ بالنون ورفع الراء، وكذلك عاصم في رواية أبي بكر.

وروى عنه حفص ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالياء والرفع، وقرأها أهل مكة، وهذا على إضمار مبتدأ: ونحن نذرهم، أو على قطع الفعل واستئناف القول.

---

(١) البيت لضرار بن الخطاب كما في سيرة ابن هشام (١/ ٤١٥)، وطبقات فحول الشعراء (١/ ٢٥٢)، والمنمق (ص: ٢٠٤).

(٢) ساقط من المطبوع.

(٣) في السليمانية: «والقنوط».

وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو فيما ذكر أبو حاتم بالياء والجزم، وقرأها كذلك طلحة بن مصرِّفٍ والأعمش: ﴿وَيَذَرْهُمْ﴾ بالياء وبالجزم[١]، عطفاً على موضع الفاء وما بعدها من قوله: ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ لأنه موضع جزم، ومثله قول أبي دؤاد:

فأبلُوني بَلِيَّتَكُمْ لَعَلِّي أُصَالِحُكُمْ وَأَسْتَدْرِجْ نَوِيَّا[٢] [الوافر]

ومنه قول الآخر:

أَنَّى سَلَكْتَ فَإِنَّني لَكَ كَاشِحٌ وعَلَى انْتِقَاصِكَ في الْحَيَاةِ وَأَزْدَدِ[٣] [الكامل]

قال أبو علي: ومثله في الحمل على الموضع قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] لأنك لو لم تلحق الفاء لقلت: أصدقْ[٤].

وروى خارجة عن نافع: (ونذرهم) بالنون والجزم[٥].

والطغيان: الإفراط في الشيء وكأنه مستعمل في غير الصلاح، والعَمَه: الحيرة.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية، قال قتادة بن دعامة: «المراد: يسألك كفار قريش، وذلك أنَّ قريشاً قالت: يا محمد، إنَّا قَرابتك فأخبرنا بوقت الساعة»[٦].

قال ابن عباس: المراد بالآية اليهود، وذلك أن جبل بن أبي قشير وسمويل بن

---

(١) هذه ثلاث قراءات سبعية، إلا أنه خلط في أبي عمرو وشعبة فقراءتهما كقراءة حفص، انظر: التيسير (ص: ١١٥)، والسبعة (ص: ٢٩٨)، وتحبير التيسير (ص: ٣٨١)، وانظر العزو لأبي حاتم والباقين في البحر المحيط (٥/ ٢٣٦).

(٢) انظر عزوه له في الحجة لأبي علي (٢/ ٤٠١)، وتفسير الثعلبي (٢/ ١٨)، وأبو دؤاد تقدم التعريف به، وفي المطبوع: أبي داود.

(٣) ورد في تهذيب اللغة (١٥/ ٤٦٩)، والحجة لأبي علي (٢/ ٤٠١)، بلا نسبة.

(٤) الحجة لأبي علي الفارسي (٢/ ٤٠١).

(٥) «والجزم» ليست في نجيبويه، انظر عزوها له في البحر المحيط (٥/ ٢٣٦)، وليست من طرق التيسير ولا جامع البيان.

(٦) تفسير الطبري (١٣/ ٢٩٢).

زيد[١] قالا له: إن كنت نبيّاً فأخبرنا بوقت الساعة فإنّا نعرفها، فإن صدقت آمنا بك[٢].

و﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: القيامة، موتُ كل شيء كان حينئذٍ حيّاً وبعثُ الجميع، هو كله يقع عليه اسم الساعة واسم القيامة.

و﴿أَيَّانَ﴾ معناه: متى، وهو سؤال عن زمانٍ، ولتضمنها الوقت بُنيت.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَيَّانَ﴾ بفتح الهمزة، وقرأ السلمي: (إيان) بكسر الهمزة[٣].

ويشبه أن يكون أصلها: أيَّ آنٍ، وهي مبنية على الفتح، وقال الشاعر:

[الرجز] أَيَّـانَ يَـقْضـي حَاجَـتي أَيَّـانـا أَمـا تَـرى لِـفـعْـلها إِبَّـانَـا[٤]

قال أبو الفتح: وزن (أيان) بفتح الهمزة فَعْلان وبكسرها فِعْلان، والنون فيهما زائدة.

و﴿مُرْسَىٰهَا﴾ رفع بالابتداء والخبر: ﴿أَيَّانَ﴾، ومذهب المبرد أن ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ مرتفعٌ بإضمار فعل[٥]، ومعناه: مثبتها ومنتهاها، مأخوذة من أرسى يُرسي.

ثم أمر الله عز وجل بالرد إليه والتسليم لعلمه.

و﴿يُجَلِّيهَا﴾ معناه: يُظهرها، و«الجِلاء»: البينةُ الشهود، وهو مراد زهير بقوله:

[الوافر] .... يـميـنٌ، أو نِـفَـارٌ، أَوْ جِـلاءُ[٦]

وقوله: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال السدي ومَعْمَرٌ عن بعض أهل التأويل: معناه: ثقل أن تُعلم ويُوْقف على حقيقة وقتها.

---

(١) جبل من بني قريظة كما في سيرة ابن هشام (١/ ٥١٥)، وقد ورد ذكرهما أيضاً فيه (١/ ٥٦٩)،

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٢٩٢) بإسناد ضعيف يتكرر.

(٣) وهي شاذة، انظرها في مختصر الشواذ (ص: ٥٢)، ومع التوجيه في المحتسب (١/ ٢٦٨).

(٤) البيت بلا نسبة في تفسير الطبري (١٣/ ٢٩٣)، ومجاز القرآن (١/ ٢٣٤)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣١٣)، بلفظ: «لنُجْحِها».

(٥) إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٨٣).

(٦) انظر عزوه له في العين (٨/ ٢٦٨)، والبيان والتبيين (١/ ٢٠٢)، والشعر والشعراء (١/ ١٤٠)، والعقد الفريد (٦/ ١٣١). وصدره: فإن الحقَّ مقطعُه ثلاثٌ.

وقال الحسن بن أبي الحسن: معناه: ثقلت هيئتها والفزع منها على أهل السماوات والأرض، كما تقول: خِيفَ العدو في بلد كذا وكذا.

وقال قتادة وابن جريج: معناه: ثقلت على السماوات والأرض أنفسها لتفطُّر السماوات وتبدُّل الأرض ونسف الجبال[١].

ثم أخبر تعالى خبراً يدخل فيه الكل: أنها لا تأتي إلا بغتة، أي: فجأة دون أن يتقدم منها علم بوقتها عند أحد من الناس، و﴿بَغۡتَةً﴾ مصدر في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا﴾ الآية، قال ابن عباس وقتادة ومجاهد: المعنى: يسألونك عنها كأنك حفي؛ أي: [متحفٍّ ومبتهل][٢].

وهذا ينحو إلى ما قالت قريش: إنَّا قرابتك فأخبرنا.

وقال مجاهد أيضاً والضحاك وابن زيد: معناه: كأنك حفيٌّ في المسألة عنها والاشتغال بها حتى حصَّلت علمها[٣].

وقرأ ابن عباس فيما ذكر أبو حاتم: (كأنك حفيٌّ بها)[٤].

و﴿حَفِيٌّ﴾ معناه: مهتبل[٥] مجتهد في السؤال، مبالغ في الإقبال على ما يسأل عنه.

وقد يجيء حَفِيٌّ وصفاً للسؤال، ومنه قول الشاعر:

---

(١) انظر الأقوال الثلاثة في تفسير الطبري (١٣/ ٢٩٥-٢٩٦).

(٢) أثر ابن عباس أخرجه الطبري (١٥٤٨٤) من طريق عبد العزيز بن أبان، عن إسرائيل بن يونس، عن سماك، عن عكرمة، عنه بلفظ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا﴾ قال: قريب منهم، وتحفَّى عليهم، وانظر قول قتادة ومجاهد في: تفسير الطبري (١٣/ ٢٩٨)، وفي المطبوع: «مهتبل»، وفي الحمزوية: «محتف ومبتهل»، وفي نجيبويه: «محتف ومهتبل».

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٢٩٩)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢٨٥).

(٤) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٦٩)، وكتاب المصاحف (١/ ١٩٤)، والهداية لمكي (٤/ ٢٦٦٦).

(٥) في الأصل: «مبتهل».

[الطويل] فَلَمَّـا الْتَقَيْنَـا بيَّـن السَّـيْفُ بَيْنَنَـا لِسَـائِلَةٍ عَنَّـا حَفِـيٍّ سُـؤَالُهَا[١]

ومن المعنى الأول الذي يجيء فيه حَفِيٌّ وصفاً للسائل قول الآخر:

[الطويل] سُـؤَالَ حَفِـيٍّ عَـنْ أَخِيـهِ كَأَنَّـهُ بِذِكْرَتِـهِ وَسْـنَانُ أَوْ مُتَوَاسِـنُ[٢]

ثم أمره ثانية بأن يسلِّم العلم تأكيداً للأمر وتهمُّماً به إذ هو من الغيوب الخمسة التي في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقيل: العلم الأول علم قيامها والثاني علم كُنْهها وحالها.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قال الطبري: معناه: لا يعلمون أن هذا الأمر لا يعلمه إلا الله، بل يظن أكثرهم أنه مما يعلم البشر[٣].

قوله عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾.

هذا أمر في أن يبالغ في الاستسلام، ويتجرد من المشاركة في قدرة الله وغيبه، وأن يصف نفسه لهؤلاء السائلين بصفةٍ مَن كان بها فهو حريٌّ أن لا يعلم غيباً ولا يدَّعيه، فأخبر أنه لا يملك من منافع نفسه ومضارها إلا ما سنى الله وشاء ويسَّر، وهذا / الاستثناء منقطع، وأخبر أنه لو كان يعلم الغيب لعمل بحسب ما يأتي، ولاستعد لكل شيء استعداد من يعلم قدر ما يستعد له، وهذا لفظ عام في كل شيء، وقد خصص الناس [٢/ ١٨٤]

---

(١) البيت لأنيف بن زبان النبهاني الطائي، كما في الحماسة بشرح التبريزي (١/ ٤٩)، وحماسة الخالديين (ص: ٤٨).

(٢) البيت لمعطل الهذلي أحد بني رهم بن سعد بن هذيل، كما في أنساب الأشراف (١١/ ٢٥٢)، وإيضاح الشواهد (١/ ٤٦٨).

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٣٠١).

هذا، فقال ابن جريج ومجاهد: لو كنت أعلم أجلي لاستكثرت من العمل الصالح[١].

وقالت فرقة: أوقاتَ النصر لتوخيتها، وحكى مكي عن ابن عباس أن المعنى: لو كنت أعلم السنة المُجدبة لأعددت لها من المُخْصِبة[٢].

قال القاضي أبو محمد: وألفاظ الآية تعم هذا وغيرَه.

وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ﴾ يحتمل وجهين وبكليهما قيل:

أحدهما: أن (ما) معطوفة على قوله: ﴿لَاَسْتَكْثَرْتُ﴾ أي: ولما مسني السوء.

والثاني: أن يكون الكلام مقطوعاً تم في قوله: ﴿لَاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ وابتدأ يخبر بنفي السوء عنه، وهو الجنون الذي رموه به، قال مؤرِّجٌ السَّدُوسي: السُّوءُ: الجنون بلغة هذيل[٣]، ثم أخبر بجملةِ ما هو عليه من النذارة والبشارة.

و﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يريد أنه نذير وبشير لقوم يُطلب منهم الإيمان ويُدْعَون إليه، وهؤلاء الناس أجمع.

والثاني: أن يخبر أنه نذير ويتم الكلام، ثم يبتدئ يخبر أنه بشير للمؤمنين به، ففي هذا وعد لمن حصل إيمانه.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ الآية، قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام، وبقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء.

وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ يريد ما تقدم ذكره من أن آدم نام فاستُخرجت قُصرى أضلاعه وخلقت منها حواء، وقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليأنس ويطمئن، وكان هذا كله في الجنة،

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٣٠٢)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣١٤).

(٢) الهداية لمكي (٤/ ٢٦٦٧).

(٣) انظر قول مؤرج في البحر المحيط (٥/ ٢٤٢)، وانظر لغة هذيل في اللغات في القرآن لابن حسنون، (ص: ٢٨).

ثم ابتدأ بحالة أخرى هي في الدنيا بعد هبوطهما، فقال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: غشيها، وهي كناية عن الجماع، و«الحمل الخفيف» هو المني الذي تحمله المرأة في فرجها.

وقرأ جمهور الناس: ﴿حَمۡلًا﴾ بفتح الحاء.

وقرأ حماد بن سلمة عن ابن كثير: (حِمْلا) بكسر الحاء[١].

وقوله: ﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦ﴾ أي: استمرت به، قال أيوب: سألت الحسن عن قوله: ﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦ﴾ فقال: لو كنتَ امرَأً عربيّاً لعرفت ما هي، إنما المعنى: فاستمرت به[٢].

قال القاضي أبو محمد: وقدَّره قوم على القلب، كأن المراد: فاستمر بها، كما تقول: أدخلت القلنسوة في رأسي.

وقرأ يحيى بن يَعْمَرَ وابن عباس فيما ذكر النقاش: (فمرَت به) بتخفيف الراء، ومعناه: فشكَّت فيما أصابها: هل هو حمل أو مرض؟ ونحو هذا، وقرأ ابن عباس: (فاستمرَّت به).

وقرأ ابن مسعود: (فاستمرَّت بحملها).

وقرأ عبد الله بن عمرو بن العاصي: (فمارت به)[٣]، معناه: أي: جاءت به وذهبت وتصرفت، كما تقول: مارت الريح موراً.

و﴿أَثۡقَلَت﴾ دخلت في الثقل، كما تقول: أصبح وأمسى، أي: صارت ذاتَ ثقلٍ، كما تقول: أتمر الرجل وألبن، إذا صار ذا تمرٍ ولبن، والضمير في ﴿دَّعَوَا﴾ يعود على آدم وحواء.

وروي في قصص هذه الآية: أن حواء لما حملت أول حمل لم تدرِ ما هو، وهذا يقوي قراءة من قرأ: (فمرَت به) بتخفيف الراء، فجزعت لذلك، فوجد إبليس إليها السبيل،

---

(١) وهي شاذة، انظرها في الشواذ للكرماني (ص: ١٩٩).

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٣٠٤-٣٠٥).

(٣) أربع قراءات شاذة، تابعه على الثالثة منها وعلى عزو الأولى لابن عباس في البحر المحيط (٥/ ٢٤٦)، وانظر عزوها لابن يعمر في معاني القرآن للنحاس (٣/ ١١٤)، ومع الثانية في مختصر الشواذ (ص: ٥٣)، ومع الرابعة في المحتسب (١/ ٢٧٠).

فقال لها: ما يدريك ما في جوفك؟ ولعله خنزير أو حية أو بهيمة في الجملة، وما يدريك من أين يخرج؟ أينشق له بطنك فتموتين، أو من فمك أو أنفك؟ ولكن إن أطعتني وسميتِهِ عبدَ الحارث، ـ قال القاضي أبو محمد: والحارث اسم إبليس ـ فسأخلصه لك وأجعله بشراً مثلك[١]، وإن أنت لم تفعلي قتلته لك، قال: فأخبرت حواء آدم فقال لها: ذلك صاحبنا الذي أغوانا في الجنة، لا نطيعه، فلما ولدت سمياه عبد الله، فمات الغلام[٢].

ويروى أن الله سلط إبليس على قتله، فحملت بآخر ففعل بها مثل ذلك، فحملت بالثالث فلما ولدته أطاعا إبليس فسمياه عبد الحارث حرصاً على حياته، فهذا هو الشرك الذي جعلا لله، أي: في التسمية فقط.

و﴿ صَٰلِحًا ﴾: قال الحسن: معناه: غلاما[٣]، وقال ابن عباس ـ وهو الأظهر ـ: بشراً سويّاً سليماً[٤]، ونصبه على المفعول الثاني، وفي «المشكل» لمكي: أنه نعت لمصدر، أي إيتاءً[٥] صالحاً[٦].

وقال قوم: إن المعنى في هذه الآية التبيين عن حال الكافرين، فعدد النعم التي تعم الكافرين وغيرهم من الناس، ثم قرر ذلك بفعل المشركين السيِّئ، فقامت عليهم الحجة ووجب العقاب، وذلك أنه قال مخاطباً لجميع الناس: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾، يريد آدم وحواء، أي: واستمرت حالكم واحداً واحداً كذلك، فهذه نعمة تخص كل أحد بجزء منها.

ثم جاء قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا ﴾ إلى آخر الآية وصفاً لحال الناس واحداً واحداً،

---

(١) في السليمانية: «سويّاً».

(٢) رواه ابن جرير الطبري (١٠/ ٦٢٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٢-١٦٣٣) في تفسيريهما من قول سعيد بن جبير.

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٣٠٦)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣١٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٣٠٨).

(٤) أخرج الطبري (١٣/ ٣٠٦) بإسناد ضعيف قول ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة.

(٥) في المطبوع: «أتياً»، وهي محتملة في بعض النسخ الأخرى والتصحيح من المصدر.

(٦) مشكل إعراب القرآن (١/ ٣٠٧).

أي: هكذا يفعلون، فإذا آتاهم الله الولد صالحاً سليماً كما أراداه[١]، صرفاه عن الفطرة إلى الشرك، فهذا فعل المشركين الذي قامت الحجة فيه باقترانه مع النعمة العامة.

وقال الحسن بن أبي الحسن فيما حكى عنه الطبري: «معنى هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إشارة إلى الروح الذي ينفخ في كل أحد»[٢].

قال القاضي أبو محمد: أي: خلقكم من جنس واحد وجعل الإناث منه، ثم جاء قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ إلى آخر الآية وصفاً لحال الناس واحداً واحداً على ما تقدم من الترتيب في القول الذي قبله.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾.

من قال: إن الآية المتقدمة هي في آدم وحواء، وإن الضمير في قوله: ﴿ءَاتَىٰهُمَا﴾ عائد عليهما، قال[٣]: إن الشرك الذي جعلاه هو في الطاعة، أي: أطاعا إبليس في التسمية بعبد الحارث كما[٤] كانا في غير ذلك مطيعين لله، وأسند الطبري في ذلك حديثاً من طريق سَمُرة بن جُنْدبٍ[٥]، ويحتمل أن يكون الشرك في أن جعلا عبوديته بالاسم لغيره.

---

(١) في الأصل ونور العثمانية والمطبوع ونجيبويه: «كما أراده».

(٢) لم أقف عليه في تفسير الطبري.

(٣) تحرفت في المطبوع إلى: «ويقال».

(٤) في المطبوع: «لكنهما».

(٥) منكر، هذا الحديث أخرجه أحمد (٥/ ١١ رقم ٢٠١١٧)، والترمذي (٣٠٧٧)، والطبري (١٥٥١٣)، والحاكم (٤٠٠٣) من طريق عمر بن إبراهيم العبدي، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ، قال: كانت حواء لا يعيش لها ولد، فنذرت لئن عاش لها ولد لتسمينه عبد الحارث، فعاش لها ولد، فسمته عبد الحارث، وإنما كان ذلك عن وحي الشيطان، وعمر بن إبراهيم العبدي، قال أحمد: يروي عن قتادة أحاديث مناكير. وقال ابن عدي: يروي عن قتادة أشياء لا يوافق عليها =

[٢/ ١٨٥] وقال الطبري والسدي في قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: إنه / كلام منفصل ليس من الأول، وإن خبر آدم وحواء تم في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، وإن هذا كلام يراد به مشركو العرب[١].

قال القاضي أبو محمد: وهذا تحكُّم لا يساعده اللفظ، ويتجه أن يقال: تعالى الله عن ذلك اليسير المتوهَّم من الشرك في عبودية الاسم، ويبقى الكلام في جهة أبوينا آدم وحواء عليهما السلام، وجاء الضمير في ﴿يُشْرِكُونَ﴾ ضمير جمع لأن إبليس مدبِّـرٌ معهما تسمية الولد عبد الحارث.

ومن قال: إن الآية المتقدمة إنما الغرض منها تعديد[٢] النعمة في الأزواج وفي تسهيل النسل والولادة، ثم ذكر سوء فعل المشركين بعقب ذلك، قال في الآية الأخيرة: إنها على ذلك الأسلوب، وإن قوله: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ المراد بالضمير فيه المشركون، والمعنى في هذه الآية: فلما آتى الله هذين الإنسانين صالحاً ـ أي: سليماً ـ ذهبا به إلى الكفر، وجعلا لله فيه شركاً، وأخرجاه عن الفطرة، ولفظة الشرك تقتضي نصيبين[٣]، فالمعنى: وجعلا لله فيه ذا شرك؛ لأن إبليس أو أصنام المشركين هي المجعولة، والأصل أن الكل لله تعالى، وبهذا حل الزجاج اعتراض من قال: ينبغي أن يكون الكلام: جعلا لغيره شركا[٤].

وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿شركاً﴾ بكسر الشين وسكون الراء على المصدر، وهي قراءة ابن عباس وأبي جعفر وشيبة وعكرمة ومجاهد وعاصم وأبان بن تغلب[٥].

= وحديثه خاصة عن قتادة مضطرب. اهـ. وقال ابن كثير (٣/ ٥٢٦): شاذ، وقال الذهبي: صححه الحاكم وهو حديث منكر. اهـ.

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٣١٥).

(٢) في السليمانية وفيض الله: «تقرير».

(٣) في نور العثمانية: «نفسين».

(٤) معاني القرآن للزجاج (٢/ ٣٩٦).

(٥) تحرفت في المطبوع والحمزوية إلى: «ثعلب».

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿شُرَكَآءَ﴾ على الجمع[١]، وهي بينة على هذا التأويل الأخير، وقلقةٌ على قول من يقول: إن الآية الأولى في آدم وحواء، وفي مصحف أبيٍّ بن كعب (فلما آتاهما صالحاً أشركا فيه)[٢].

وذكر الطبري في قصص حواء وآدم وإبليس في التسمية بعبد الحارث، وفي صورة مخاطبتهم أشياء طويلةً لا يقتضي الاختصار ذكرها[٣].

وقرأ نافع والحسن وأبو جعفر وأبو عمرو وعاصم: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ﴾ بالياء من تحت فيهما.

وقرأ أبو عبد الرحمن: (عما تشركون) بالتاء من فوق (أتشركون ما لا يخلق) الآية[٤].

وروى بعض من قال: إن الآيات في آدم وحواء، أن إبليس جاء إلى آدم وقد مات له ولد اسمه عبد الله، فقال: إن شئت أن يعيش لك الولد فسمه عبد شمس، فولد له ولد فسماه كذلك[٥]، وإياه عنى بقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾، و﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ على هذا عائد على آدم وحواء[٦]، والابن المسمى عبد شمس.

ومن قال بالقول الآخر قال: إن هذه في مشركي الكفار الذين يشركون الأصنام في العبادة، وإياها أراد بقوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾، وعبر عنها بـ(هم) كأنها تعقل على اعتقاد الكفار فيها وبحسب أسمائها، و﴿يُخْلَقُونَ﴾ معناه: يُنحتون ويُصنعون، ويحتمل على قراءة ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ بالياء من تحت أن يكون المعنى: وهؤلاء المشركون يخلقون، أي: فكان قولهم أن يعتبروا بأنهم مخلوقون فيجعلون إلههم خالقهم لا من لا يخلق شيئاً.

---

(١) وكذا ابن عامر، فهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٥)، والسبعة (ص: ٢٩٩).

(٢) وهي شاذة، تابعه عليها في البحر المحيط (٥/ ٢٤٧).

(٣) راجع تفسير الطبري (١٣/ ٣١٦) وما بعدها.

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٣)، والأولى هي المتواترة للجميع.

(٥) رواه ابن جرير الطبري (١٠/ ٦٣٢- ٦٣٣)، وابن أبي حاتم في (٥/ ١٦٣٥) من قول ابن زيد.

(٦) زاد في الحمزوية: «وإبليس».

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ الآية، هذه تخرج على تأويل من قال: إن المراد آدم وحواء والشمس على ما تقدم، ولكن بقلق وتعسف من المتأوِّل في المعنى، وإنما تتسق هذه الآيات ويروق نظمها، ويتناصر[١] معناها على التأويل الآخر، والمعنى: ولا ينصرون أنفسهم من أمر الله وإرادته، ومن لا يدفع عن نفسه فأحرى أن لا يدفع عن غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ الآية، من قال: إن الآيات في آدم عليه السلام، قال: إن هذه مخاطبة للنبي ﷺ وأمته مستأنفة في أمر الكفار المعاصرين للنبي ﷺ، ولهم الهاء والميم من ﴿ تَدْعُوهُمْ ﴾، ومن قال بالقول الآخر قال: إن هذه مخاطبة للمؤمنين والكفار على قراءة من قرأ: (يشركون) بالياء من تحت، وللكفار فقط على من قرأ بالتاء من فوق على جهة التوقيف، أي: إن هذه حال الأصنام معكم، إن دعوتموهم لم يجيبوكم إذ ليس لهم حواس ولا إدراكات.

وقرأ نافع وحده: ﴿لا يتْبَعوكم﴾ بسكون التاء وفتح الباء.

وقرأ الباقون: ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ بشد التاء المفتوحة وكسر الباء[٢]، والمعنى واحد.

وفي قوله تعالى: ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ﴾ عطف الاسم على الفعل؛ إذ التقدير: أم صمتُّم ومثل هذا قول الشاعر:

[الطويل]

سَـواءٌ عَلَيْـكَ الفَقْـرُ أَمْ بِـتَّ لَيْلَةً ... بِأَهْلِ الْقِبَابِ مِنْ نُمَيْر بن عامِرِ[٣]

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾.

---

(١) في السليمانية وفيض الله: «ويتناظر».

(٢) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٦)، والسبعة (ص: ٢٩٩).

(٣) معاني القرآن للفراء (١/ ٤٠١)، وتفسير الطبري (١٣/ ٣٢١)، بدون نسبة. وفيهما: «النفر» بدل «الفقر».

قرأ جمهور الناس: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾ بتثقيل ﴿إِنَّ﴾ ورفع ﴿عِبَادٌ﴾، وهي مخاطبة للكفار في تحقير شأن أصنامهم عندهم، أي: إن هذه الأصنام مخلوقة محدَثة، إذ هي أجسام وأجرام فهي متعبدة، أي: متملكة.

وقال مقاتل: إن المراد بهذه الآية طائفة من العرب من خزاعة كانت تعبد الملائكة، فأعلمهم الله أنهم عباد أمثالهم لا آلهة[١].

وقرأ سعيد بن جبير: (إنِ الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالَكم) بتخفيف النون من (إن) على أن تكون بمعنى ما، وبنصب قوله: (عباداً) و(أمثالَكم)[٢].

والمعنى بهذه القراءة تحقير شأن الأصنام ونفي مماثلتهم للبشر، بل هم أقل وأحقر إذ هي جمادات لا تفهم ولا تعقل.

وسيبويه يرى أن «إنْ» إذا كانت بمعنى «ما» فإنها تضعف عن رتبة «ما» فيبقى الخبر مرفوعاً، وتكون هي داخلةً على الابتداء والخبر لا ينصبه[٣]، فكان الوجه عنده في هذه القراءة: (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم).

وأبو العباس المبرد يجيز أن تعمل عمل «ما» في نصب الخبر، وزعم الكسائي أن «إنْ» بمعنى «ما» لا تجيء إلا وبعدها «إلا» كقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠][٤]/ . [٢/١٨٦]

ثم بيَّن تعالى الحجة بقوله: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾ أي: فاختبروا، فإن لم يستجيبوا فهم كما وصفنا، وقوله تعالى: ﴿ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٌ﴾ الآية، الغرض من هذه الآية: ألهم حواسُّ الحي وأوصافه؟ فإذا قالوا: لا، حكموا بأنها جمادات، فجاءت هذه التفصيلات لذلك

---

(١) نقله عنه في البحر المحيط (٥/ ٢٤٩)، وانظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٢/ ٨١).

(٢) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٧٠)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٦٨)، والهداية لمكي (٤/ ٢٦٨٢).

(٣) الكتاب (٣/ ١٥٢-١٥٣).

(٤) انظر قول المبرد في المقتضب (٢/ ٣٦٢)، وقول الكسائي في تفسير القرطبي (٧/ ٣٤٣).

المجمل الذي أريد التقرير عليه، فإذا وقع الإقرار بتفصيلات القضية لزم الإقرار بعمومها وكان بيانها أقوى ولم تبق بها استرابة.

قال الزهراوي: المعنى: أنتم أفضل منهم بهذه الجوارح النافعة فكيف تعبدونهم؟[١].

قال القاضي أبو محمد: وتتقوى[٢] بهذا التأويل قراءة سعيد بن جبير، إذ تقتضي أن الأوثان ليست عباداً كالبشر.

وقوله في الآية: ﴿أَمۡ﴾[٣] إضراب لكل واحدة عن الجملة المتقدمة لها، وليست «أم» المعادِلَة للألف في قوله: أعندك زيد أم عمرو؟ لأن المعادِلة إنما هي في السؤال عن شيئين أحدهما[٤] حاصل، فإذا وقع التقدير على شيئين كلاهما منفي فـ «أم» إضراب عن الجملة الأولى.

قال القاضي أبو محمد: وهذا عندي فرق معنوي، وأما من جهة اللفظ والصناعة النحوية فهي هي.

وقرأ نافع والحسن والأعرج: ﴿يَبۡطِشُونَ﴾ بكسر الطاء.

وقرأ نافع أيضاً وأبو جعفر وشيبة: ﴿يبطُشون﴾ بضمها[٥].

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يعجِّزهم بقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ أي: استنجدوهم واستنفروهم[٦] إلى إضراري وكيدوني ولا تؤخروني، المعنى: فإن كانوا آلهة فسيظهر

---

(١) نقله عنه تفسير الثعالبي (٢/ ٧٥).

(٢) في السليمانية: «ويتعلق».

(٣) في نجيبويه «أم» مكررة.

(٤) في السليمانية: «كلاهما».

(٥) الأولى للسبعة، والثانية عشرية لأبي جعفر وحده كما في النشر (٢/ ٣٠٩)، ولشيبة في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٦٩).

(٦) في المطبوع: «واستنفدوهم».

فعلهم، وسماهم شركاءهم من حيث لهم نسبة إليهم بتسميتهم إياهم آلهة وشركاء لله.

وقرأ أبو عمرو ونافع: ﴿كيدوني﴾ بإثبات الياء في الوصل.

وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿كِيدُونِ﴾ بحذف الياء في الوصل والوقف[1].

قال أبو علي: إذا أشبه الكلامُ المنفصلَ أو كان منفصلاً أشبه القافية، وهم يحذفون الياء في القافية كثيراً قد التزموا ذلك[2]، كما قال الأعشى:

[المتقارب] فَهَلْ يَمْنَعَنِّي ارْتِيَادِي الْبِلا ... دَ مِن حَذَرِ الْمَوْتِ أَنْ يَأْتِينْ[3]

وقد حذفوا الياء التي هي لام الأمر كما قال الشاعر[4]:

[الرمل] يَلْمَسُ الأَحْلاسَ في مَنْزِلِهِ ... بِيَدَيْهِ كَالْيَهُودِي الْمُصَلْ

وقوله: ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي لا تؤخرون، ومنه قوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ الآية، لما أحالهم على الاستنجاد بآلهتهم في ضره وأراهم أن الله هو القادر على كل شيء لا تلك، عقب ذلك بالإسناد إلى الله والتوكل عليه والإعلام بأنه وليه وناصره.

---

(١) غير متقن، وهما سبعيتان، إلا أن هشاماً أثبتها في الحالين، وأبو عمرو خاصة في الوصل كما في التيسير (ص: ١١٦)، وما روي عن نافع من إثباتها وصلاً ليس في الطرق، بل من رواية ابن جماز وإسماعيل بن جعفر عنه كما في السبعة (ص: ٢٩٩).

(٢) انظر الحجة للفارسي (٤/ ١١٥).

(٣) انظر عزوه له في الكتاب لسيبويه (٣/ ٥١٣)، وعمدة الكتاب (ص: ١٧٩)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٣٨٩).

(٤) في المطبوع وأكثر النسخ: «الأعشى» والمثبت من فيض الله، فالبيت للبيد بن ربيعة كما في تهذيب اللغة (١٢/ ٣١٦)، والأزمنة والأمكنة (ص: ٣٧٦)، وشرح الحماسة للمرزوقي (ص: ١٢٧٦)، وأساس البلاغة (٢/ ١٨٠)، وخزانة الأدب للبغدادي (٣/ ٣٦٨).

وقرأ جمهور الناس والقَرَأة: ﴿إِنَّ وَلِيِّـۧىَ ٱللَّهُ﴾ بياء مكسورة مشدَّدة وأخرى مفتوحة.

وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه: (إن وليَّ الله) بياء واحدة مشددة ورفع (الله)[١].

قال أبو علي: لا تخلو هذه القراءة من أن تدغم الياء التي هي لام الفعل في ياء الإضافة، أو تحذف الياء التي هي لام الفعل وتدغم ياء فعيل في ياء الإضافة، ولا يجوز أن تدغم الياء التي هي لام الفعل في ياء الإضافة؛ لأنه إذا فعل ذلك انفك الإدغام الأول، فليس إلا أنه حذف لام الفعل وأدغم ياء فعيل في ياء الإضافة[٢].

وقرأ ابن مسعود: (الذي نزَّل الكتاب بالحق وهو يتولى الصالحين)[٣].

وقرأ الجحدري فيما ذكر أبو عمرو الداني: «إن وليَّ اللهِ» على الإضافة[٤]، وفسر ذلك بأن المراد جبريل عليه السلام، وذكر القراءة غير منسوبة أبو حاتم وضعَّفها، وإن كانت ألفاظ هذه الآية تلائم هذا المعنى وتصلح له، فإن ما قبلها وما بعدها يدافع ذلك.

قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ عائد على اسم الله تعالى، وهذا الضمير مصرِّح بما ذكرناه من ضعف قراءة من قرأ (إن وليَّ اللهِ) أنه جبريل عليه السلام، وهذه الآية أيضاً بيان لحال تلك الأصنام وفسادها وعجزها عن نصرة أنفسها فضلاً عن غيرها.

---

(١) عزاها في السبعة (ص: ٣٠٠)، لرواية ابن سعدان عن اليزيدي عنه، وليست من طرق التيسير، وانظر: النشر (٢/ ٢٧٤).

(٢) الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ١١٧).

(٣) لم أجد من ذكر هذه القراءة غير ابن عطية، وهي مخالفة لمصاحف المسلمين.

(٤) وهي شاذة، انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٨٥)، والهداية لمكي (٤/ ٢٦٨٤)، وتضعيف أبي حاتم في البحر المحيط (٥/ ٢٥٣).

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ الآية، قالت فرقة: المخاطبة للنبي ﷺ وأمته، والهاء والميم في قوله: ﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾ للكفار، ووصفَهم بأنهم لا يسمعون ولا يبصرون إذ لم يتحصل لهم عن النظر والاستماع فائدة ولا حصلوا منه بطائل، قاله السدي ومجاهد.

وقال الطبري: المراد بالضمير المذكور الأصنام، ووصفهم بالنظر كناية عن المحاذاة والمقابلة وما فيها من تخييل النظر، كما تقول: دار فلان تنظر إلى دار فلان[١].

ومعنى الآية على هذا تبيين جمودية الأصنام وصغر شأنها، وذهب بعض المعتزلة إلى الاحتجاج بهذه الآية على أن العباد ينظرون إلى ربهم ولا يرونه[٢]، ولا حجة لهم في الآية لأن النظر في الأصنام مجاز محض.

قال القاضي أبو محمد: وإنما تكرر القول في هذا وترددت الآيات فيه لأن أمر الأصنام وتعظيمها كان متمكناً من نفوس العرب في ذلك الزمن ومستولياً على عقولها، فأوعب القول في ذلك لطفاً من الله تعالى بهم.

وقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ الآية، وصية من الله عز وجل لنبيه ﷺ تعم جميع أمته، وأمْرٌ بجميع مكارم الأخلاق.

وقال الجمهور في قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾: إن معناه: اقبل من الناس في أخلاقهم وأقوالهم ومعاشرتهم ما أتى عفواً دون تكلف، فـ﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾ هنا الفضل والصفو الذي تهيأ دون تحرُّج، قاله عبد الله بن الزبير في مصنف البخاري[٣]، وقاله مجاهد وعروة[٤]، ومنه قول حاتم الطائي:

[الطويل] خُذِي الْعَفْوَ منّي تَسْتَديمي مَوَدَّتي ولا تنْطقي في سَوْرَتي حين أَغْضَبُ[٥]

---

(١) انظر القولين في تفسير الطبري (١٣/ ٣٢٤-٣٢٥).
(٢) انظر احتجاجهم هذا في مفاتيح الغيب للرازي (٣٠/ ٢٠٠).
(٣) أخرجه البخاري (٤٦٤٣) بلفظ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ قال: ما أنزل الله إلا في أخلاق الناس.
(٤) تفسير الطبري (١٣/ ٣٢٦-٣٢٧)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣١٨)، وتفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢٢٣).
(٥) لم أجد من عزاه لحاتم الطائي، وهو لأسامة بن خارجة الفزازي في الموشّى (ص: ١٤٩)، والأغاني =

وقال ابن عباس[١] والضحاك والسدي: «هذه الآية في الأموال»[٢].

وقيل: هي قبل[٣] فرض الزكاة، أُمر بها ﷺ أن يأخذ ما سهل من أموال الناس وعفا، أي: / فضل وزاد من قولهم، عفا النباتُ والشعر، أي: كثر، ثم نزلت الزكاة وحدودها فنسخت هذه الآية. [٢/ ١٨٧]

وذكر مكي عن مجاهد أن ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ معناه: خذ الزكاة المفروضة[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا شاذ.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ معناه: بكل ما عرفتْه النفوس مما لا تردُّه الشريعة، ويروى أن النبي ﷺ قال لجبريل: «ما هذا العرف الذي أمر به؟ قال: لا أدري حتى أسأل العالِم، فرجع إلى ربه فسأله ثم جاءه فقال له: يا محمد هو أن تعطي مَن حَرَمك، وتصلَ مَن قطعك، وتعفوَ عمن ظلمك»[٥].

قال القاضي أبو محمد: فهذا نصبُ غاياتٍ، والمراد: فما دون هذا من فعل الخير.

وقرأ عيسى الثقفي فيما ذكر أبو حاتم: (بالعُرُف) بضم الراء[٦].

و«العُرْف» و«العُرُف» بمعنى المعروف.

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ حكم مترتب محكم مستمر في الناس ما بقوا، هذا قول الجمهور من العلماء، وقال ابن زيد في قوله ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ - إلى - ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾:

= (٢٠/ ٣٧٦)، وبهجة المجالس (ص: ١٨٦)، وتاريخ دمشق (٩/ ٥٧)، ولمالك بن أسماء في محاضرات الأدباء (٢/ ٨٣)، ولعَامر بن عَمْرو بن البكاء في الحماسة البصرية (٢/ ٧١)، وقد نسبه ابن قتيبة في عيون الأخبار (٤/ ٧٦) لأبي الأسود، وضعفه في الأغاني، فلعله إنما تمثل به كما قيل في شريح.

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٣٢٨) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) انظر: تفسير البغوي (٣/ ٣١٦)، فقد نقله عن الضحاك والسدي.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) الهداية (٤/ ٢٦٨٨).

(٥) معضل، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٥٥٤٧ - ١٥٥٤٨) بإسناده عن ابن عيينة عن رجل سماه عن النبي ﷺ.

(٦) وهي شاذة، انظر: تفسير الثعلبي (٤/ ٣١٨)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٨٦).

إنما أُمر النبي ﷺ بذلك مداراة لكفار قريش، ثم نسخ ذلك بآية السيف[١].

قال القاضي أبو محمد: وحديث الحر بن قيس حين أَدخل عمَّه عيينة بن حصن على عمر دليل على أنها محكمة مستمرة، لأن الحر احتج بها على عمر فقررها ووقف عندها[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ وصية من الله تعالى لنبيه ﷺ تعم أمته رجلاً رجلاً[٣]، والنزغ حركة فيها فساد، وقلَّما تستعمل إلا في فعل الشيطان؛ لأن حركاته مسرعة مفسدة، ومنه قول النبي ﷺ: «لا يشر أحدكم على أخيه بالسلاح، لا يَنْزِغ الشيطان في يده»[٤].

والمعنى في هذه الآية: فإما تُلِمَّنَّ بك لَمةٌ من الشيطان فاستعذ بالله، ونزغ الشيطان عام في الغضب وتحسينِ المعاصي واكتسابِ الغوائل وغير ذلك.

وفي مصنف الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن للمَلَك لَمةً وإن للشيطان لَمةً»[٥].

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٣٢٨)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢٨٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٣١٩).

(٢) صحيح، هذا الأثر أخرجه البخاري (٤٦٤٢) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في السليمانية: وامرأة.

(٤) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) الصحيح موقوف، هذا الحديث أخرجه الترمذي (٢٩٨٨)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٩٨٥)، والبزار (٢٠٢٧)، والطبري (٦١٧٠)، وابن حبان (٩٩٧) وغيرهم من طريق أبي الأحوص سلام ابن سليم، عن عطاء بن السائب، عن مرة، عن عبد الله بن مسعود، مرفوعاً، وقد تفرد أبو الأحوص برفعه، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعلمه مرفوعاً إلا من حديث أبي الأحوص. اهـ. وانظر ترتيب العلل له (٤٢٨) وقال أبو زرعة: الناس يوقفونه عن عبد الله، وهو الصحيح. وقال أبو حاتم: رواه حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن مرة، عن عبد الله، موقوفاً. قلت ـ ابن أبي حاتم ـ: فأيهما الصحيح؟ قال: هذا من عطاء بن السائب كان يرفع الحديث مرة ويوقفه أخرى، والناس يحدثون من وجوه عن عبد الله، موقوفاً، ورواه الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن مسعود موقوفاً، وذكر أشياء من هذا النحو، موقوفاً. اهـ. العلل (٢٢٢٤)، قلت: أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٠١) من طريق حماد بن زيد عن عطاء به موقوفاً.

قال القاضي أبو محمد: وهاتان اللَّمتان هما الخواطر من الخير والشر، [فالآخذ بالواجب يَلْقَى لمة الملك بالاستدامة والامتثال، ولمةَ الشيطان بالرفض والاستعاذة بالله.

و«استعاذ» هنا معناه: طلب أن يعاذ، وعاذ معناه: لاذ وانضوى واستجار][(١)].

و﴿سَمِيعٌ﴾ في هذه الآية يصلح مع الاستعاذة، ويصلح أيضاً مع ما يقول فيه الكفار من الأقاويل فيغضبه الشيطان لذلك، و﴿عَلِيمٌ﴾ كذلك.

وبهذه الآية تعلَّق ابن القاسم في قوله: إن الاستعاذة عند القراءة: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»[(٢)].

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ هاهنا عامة في اتقاء الشرك واتقاء المعاصي، بدليل أن اللفظة إنما جاءت في مدح لهم، فلا وجه لقصرها على اتقاء الشرك وحده، وأيضاً فالمتقي العائذُ قد يمسُّه طائف من الشيطان إذ ليست العصمة إلا للأنبياء عليهم السلام.

وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة: ﴿طَٰٓئِفٌ﴾.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿طيْفٌ﴾[(٣)].

وقرأ سعيد بن جبير: (طيِّفٌ)[(٤)]، واللفظة إما من طاف يطوف، وإما من طاف

---

(١) ساقط من المطبوع.

(٢) لم أقف عليه، وقد تقدم عنه في أول الكتاب لفظ مغاير لهذا.

(٣) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٦)، والسبعة (ص: ٣٠١).

(٤) وهي شاذة، بتشديد الياء، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٣)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٧١)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣١٩).

يطيف بفتح[١] الياء، وهي ثابتة عن العرب، وأنشد أبو عبيدة في ذلك:

[الكامل] أَنَّى أَلَمَّ بِكَ الخَيَالُ يَطِيفُ ... ومَطافُه لكَ ذُكْرَةٌ وشُغوفُ[٢]

فـ﴿طَٰٓئِفٌ﴾ اسم فاعل كقائل مِن «قال يقول»، وكبائع من «باع يبيع»، و(طيِّف) اسم فاعل أيضاً كميِّت من «مات يموت»[٣]، أو كبيِّع وليِّن من «باع يبيع» و«لان يلين».

و﴿طيْف﴾ يكون مخففاً أيضاً من (طيِّف) كميْت من ميِّت، وإذا قدرنا اللفظة من طاف يَطيف فـ ﴿طيف﴾ مصدر، وإلى هذا مال أبو علي الفارسي، وجعل الطائف كالخاطر والطيف كالخطرة[٤]، وقال الكسائي: الطيف اللمم، والطائف ما طاف حول الإنسان[٥].

قال القاضي أبو محمد: وكيف هذا وقد قال الأعشى:

[الطويل] وَتُصْبحُ عَنْ غِبِّ السُّرَى وكأَنَّمَا ... أَلَمَّ بِهَا مِنْ طَائِفِ الجِنِّ أَوْلَقُ[٦]

ومعنى الآية: إذا مسهم غضب وزيَّن الشيطان معه ما لا ينبغي.

وقوله: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ إشارة إلى الاستعاذة المأمور بها قبل، وإلى ما لله عز وجل من الأوامر والنواهي في النازلة التي يقع تعرض الشيطان فيها.

وقرأ ابن الزبير: (من الشيطان تأمَّلوا فإذا هم).

وفي مصحف أبي بن كعب: (إذا طاف من الشيطان طائف تأملوا)[٧].

---

(١) تحرفت في السليمانية وفيض الله إلى: «بضم».

(٢) مجاز القرآن (١/ ٢٥٧)، ونسبه لكعب بن زهير رضي الله عنه، وكذا الجوهري في الصحاح (٢/ ٦٦٤).

(٣) «يموت» ليست في المطبوع.

(٤) الحجة (٤/ ١٢١).

(٥) معاني القرآن للنحاس (٣/ ١٢٠).

(٦) تقدم في تفسير الآية (٢٧٤) من سورة البقرة.

(٧) وهما شاذتان، تابعه عليهما في البحر المحيط (٥/ ٢٥٩).

وقال النبي ﷺ: «إن الغضب جند من جند الجن، أما ترون حمرة العين وانتفاخ العروق؟ فإذا كان ذلك فالأرضَ الأرضَ»(١).

وقوله: ﴿مُّبۡصِرُونَ﴾ من البصيرة، أي: فإذا هم قد تبينوا الحق ومالوا إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾، في هذه الضمائر احتمالات، قال الزجاج: هذه الآية متصلة في المعنى بقوله: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾(٢).

قال القاضي أبو محمد: في هذا نظر.

وقال الجمهور: إن الآية مقدَّرةٌ(٣) موضعَها، إلا أن الضمير في قوله: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ﴾ عائد على الشياطين، والضمير في قوله: ﴿يَمُدُّونَهُمۡ﴾ عائد على الكفار، وهم المراد بالإخوان.

و﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ في الآية قبلَ هذه للجنس، فلذلك عاد عليهم هاهنا ضمير جمع، فالتقدير على هذا التأويل: وإخوان الشياطين يمدونهم الشياطين في الغي، [وعلى هذا فسر الطبري](٤)، قال قتادة: إن الضمير في الهاء والميم للكفار(٥).

قال القاضي أبو محمد: فتجيء الآية على هذه معادِلة للَّتي قبلها، أي: إن المتقين حالهم كذا وكذا وهؤلاء الكفار يمدهم إخوانهم من الشياطين ثم لا يقصرون.

وقوله: ﴿فِي ٱلۡغَيِّ﴾ يحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿يَمُدُّونَهُمۡ﴾، وعليه يترتب التأويل الذي ذكرنا أولاً عن الجمهور.

---

(١) ضعيف، هذا الحديث أخرجه الطيالسي (٢١٥٦)، وأحمد (٣/ ١٩)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٦٨٤)، والترمذي (٢١٩١)، وأبو يعلى (١١٠١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٠٥) وغيرهم من طرق عن علي ابن زيد بن جدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً بلفظٍ أطول من هذا، وعلي ضعيف.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٩٦).

(٣) في المطبوع: «مقررة».

(٤) ساقط من المطبوع.

(٥) انظر القولين في تفسير الطبري (١٣/ ٣٣٩).

ويحتمل أن يتعلق بالإخوان، فعلى هذا يحتمل أن يعود الضميران جميعاً على الكفار كما ذكرناه عن قتادة، ويحتمل أن يعودا جميعاً على الشياطين، ويكون / المعنى: [٢/ ١٨٨] وإخوان الشياطين في الغي بخلاف الإخوة في الله يمدون الشياطين، أي: بطاعتهم لهم وقبولهم منهم، ولا يترتب هذا التأويل على أن يتعلق ﴿فِي ٱلْغَيِّ﴾ بالإمداد لأن الإنس لا يُغوون الشياطين.

والمراد بهذه الآية وصف حالة الكفار مع الشياطين كما وصف حالة المتقين معهم قبل.

وقرأ جميع السبعة غير نافع: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ من مَدَدْتُ، وقرأ نافع وحده: ﴿يُمِدُّونهم﴾ بضم الياء من أمددتُ[1]، فقال أبو عبيد وغيره: مد الشيءَ إذا كانت الزيادة من جنسه، وأَمدَّه [إذا كانت من][2] شيء آخر[3].

قال القاضي أبو محمد: وهذا غير مطَّرد.

وقال الجمهور: هما بمعنًى واحد إلا أن المستعمل في المحبوب (أمد)، فمنه قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ [المؤمنون: ٥٥]، وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾ [الطور: ٢٢]، وقوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ [النمل: ٣٦]، والمستعمل في المكروه (مد)، فمنه قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

ومدُّ الشيطانِ للكفرة في الغي هو التزيين لهم والإغواء المتتابع، فمن قرأ في هذه الآية: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ بضم الميم فهو على المنهاج المستعمل، ومن قرأ: ﴿يُمِدونهم﴾ فهو مقيد بقوله: ﴿فِي ٱلْغَيِّ﴾، كما يجوز أن تقيد البشارة فتقول: بشَّرته بِشَرٍّ.

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٦)، والسبعة (ص: ٣٠١).

(٢) ساقط من الأصل والحمزوية.

(٣) في المطبوع وأكثر النسخ: «أبو عبيدة»، ولم أجده له، والمثبت من فيض الله، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٨٧).

وقرأ الجحدري: (يمادُّونهم)[١].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ عائد على الجمع، أي: هؤلاء لا يقصرون في الطاعة للشياطين والكفر بالله عز وجل.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يُقْصِرُونَ﴾ من أَقْصَرَ.

وقرأ ابن أبي عبلة وعيسى بن عمر: (يَـقْصُرون)[٢] من قَصَر.

وقوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ سببها فيما روي: أن الوحي كان يتأخر عن النبي ﷺ أحياناً، فكان الكفار يقولون: هلا اجتبيتها[٣]، ومعنى اللفظة في كلام العرب: تخيَّرتها واصطفيتها.

وقال ابن عباس[٤] وقتادة ومجاهد وابن زيد وغيرهم: المراد بهذه اللفظة: هلا اخترتها واختلقتها من قِبَلك ومن عند نفسك[٥]، والمعنى: إذ كلامك كله كذلك، على ما كانت قريش تزعمه.

وقال ابن عباس أيضاً[٦]، والضحاك: المراد هلا تلقيتها من الله وتخيرتها عليه، إذ تزعم أنك نبي وأن منزلتك عنده منزلة الرسالة، فأمره الله عز وجل أن يجيب بالتسليم لله تعالى، وأن الأمر في الوحي إليه ينزله متى شاء لا معقب لحكمه في ذلك، فقال: ﴿قُلْ

---

(١) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٧١)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٨٧).

(٢) وهي شاذة، انظر عزوها لهما بضم الصاد في الشواذ للكرماني (ص: ٢٠١)، وكذا لعيسى في تفسير الثعلبي (٤/ ٣٢٠)، وضبطت له في مختصر الشواذ (ص: ٥٣) بفتح الياء وكسر الصاد، وضبطت في الكامل (ص: ٥٥٨) منسوبة لابن أبي عبلة بالتشديد.

(٣) لم أجده.

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ٣٤٢) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٥) انظر أقوالهم في تفسير الطبري (١٣/ ٣٤١)، وكذا قول الضحاك الآتي.

(٦) أخرجه الطبري (١٣/ ٣٤٢) من طريق: العوفي عن ابن عباس.

﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾، ثم أشار بقوله هذا إلى القرآن، ثم وصفه بأنه ﴿بَصَآئِرُ﴾ أي: علامات هدىً وأنوارٌ تضيء القلوب.

وقالت فرقة: المعنى: هذا ذو بصائر، ويصح الكلام دون أن يقدَّر حذف مضاف؛ لأن المشار إليه بهذا إنما هو سور وآيات وحِكَم، وجازت الإشارة إليه بهذا من حيث اسمه مذكَّرٌ، وجاز وصفه بـ﴿بَصَآئِرُ﴾ من حيث هو سور وآيات.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لهؤلاء خاصة، قال الطبري: وأما من لا يؤمن فهو عليه عمىً عقوبةً من الله تعالى[1].

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾.

ذكر الطبري وغيره أن سبب هذه الآية هو أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا بمكة يتكلمون في المكتوبة بحوائجهم، ويصيحون عند آيات الرحمة والعذاب، ويقول أحدهم إذا أتاهم: صليتم؟ وكم بقي؟ فيخبرونه، ونحو هذا، فنزلت الآية أمراً لهم بالاستماع والإنصات في الصلاة[2].

وأما قول من قال: إنها في الخطبة، فضعيف، لأن الآية مكية، والخطبة لم تكن إلا بعد هجرة النبي ﷺ من مكة، وكذلك ما ذكر الزهراوي أنها نزلت بسبب فتى من الأنصار كان يقرأ في الصلاة والنبي ﷺ يقرأ[3].

فأما الاستماع والإنصات عن الكلام في الصلاة فإجماع[4].

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٣٤٤)، بتصرف.

(٢) أخرج الطبري (١٣/ ٣٥٤) وما بعدها آثاراً بعضها عن صحابة بأسانيد لينة، وبعضها مراسيل. ولكن روى عن جماعة من التابعين بأسانيد صحيحة أن الآية نزلت في الصلاة المكتوبة.

(٣) مرسل، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٥٥٨٣) من طريق الزهري مرسلًا.

(٤) انظر الإجماع على ذلك في: الإقناع (١/ ٣٩٥، ٤٢٥).

وأما الإمساك والإنصات عن القراءة فقالت فرقة: يمسك المأموم عن القراءة جملةً قرأ الإمام جهراً أو سرّاً[١].

وقالت فرقة: يقرأ المأموم إذا أسرَّ الإمام ويمسك إذا جهر[٢].

وقالت فرقة: يمسك المأموم في جهر الإمام عن قراءة السورة، ويقرأ فاتحة الكتاب[٣].

قال القاضي أبو محمد: ومع هذا القولِ أحاديث صحاحٌ عن النبي ﷺ[٤].

فهذه الآية واجبة الحكم في الصلاة: أن ينصت عن الحديث وما عدا القراءة، وواجبة الحكم أيضاً في الخطبة من السنة، لا من هذه الآية، ويجب من الآية الإنصات إذا قرأ الخطيب القرآن أثناء الخطبة[٥]، وحكم هذه الآية في غير الصلاة على الندب، أعني: في نفس الإنصات والاستماع إذا سمع الإنسان قراءة كتاب الله عز وجل[٦].

وأما ما تتضمنه الألفاظ وتعطيه من توقير القرآن وتعظيمه فواجب في كل حالة.

و«الإنصات»: السكوت، و﴿لَعَلَّكُمْ﴾ على ترجِّي البَشَر.

قال القاضي أبو محمد: ولم نستوعب اختلاف العلماء في القراءة خلف الإمام، إذ ألفاظ الآية لا يتعرض لذلك، لكن لما عنَّ ذلك في ذكر السبب ذكرنا منه نبذة.

وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أنه قال في قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ

(١) ممن قال بذلك: سفيان الثوري وسفيان بن عيينة، كما في في: الأوسط (٣/ ٢٥٧).
(٢) ممن قال بذلك مالك في المدونة (١/ ١٦٤)، والزهري وابن المبارك كما في الأوسط (٣/ ٢٦١).
(٣) ممن قال بذلك الأوزاعي وابن عون وأبو ثور، كما في الأوسط (٣/ ٢٦٣).
(٤) يشير إلى حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: «لا صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ» أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٤).
(٥) مذهب الجمهور وجوب الإنصات لخطبة الإمام في الجمعة، وقال سعيد بن جبير والشعبي وإبراهيم النخعي: لا يجب الإنصات إلا عند قراءة الخطيب القرآن، انظر: بداية المجتهد (١/ ١٦١-١٦٢).
(٦) حكى ابن المنذر في الأوسط (٣/ ٢٥٩) إجماع العلماء على أن الاستماع للقرآن خارج الصلاة غير واجب.

﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ قال: الإنصات يوم الأضحى، ويوم الفطر، ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة[١].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول جمع فيه ما أوجبته هذه الآية وغيرها من السنة في الإنصات.

قال الزجَّاج: ويجوز أن يكون ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ اعملوا بما فيه ولا تجاوزوه[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾ الآية، مخاطبة للنبي ﷺ تعم جميع أمته، وهو أمر من الله عز وجل بذكره وتسبيحه وتقديسه والثناء عليه بمحامده، والجمهور على أن الذكر لا يكون في النفس، ولا يراعى إلا بحركة اللسان، ويدل على ذلك من هذه الآية قوله: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾، فهذه مرتبة السر والمخافتة باللفظ.

[٢/ ١٨٩] و﴿تَضَرُّعًا﴾ معناه: / تذللاً وخضوعاً.

و(خيفةً) أصلها: خِوْفة، بدلت الواو ياء لأجل الكسرة التي تقدمتها.

وقوله: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ معناه: دأباً، وفي كل يوم، وفي أطراف النهار، وقالت فرقة: هذه الآية كانت في صلاة المسلمين قبل فرض الصلوات الخمس، وقال قتادة: (الغدو) صلاة الصبح و(الْآصال) صلاة العصر[٣].

و«الْآصال» جمع أُصُل، والأُصُل جمع أصيل، وهو العشيُّ، وقيل: الْآصال جمع أصيل دون توسط، كأيمان جمع يمين، وآصال أيضاً جمعه أصاييل[٤]، فهو جمعُ جمعِ[٥] الجمع.

وقرأ أبو مجلز: (والإيصال)[٦]، مصدر كالإصباح والإمساء، ومعناه: إذا دخلت

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٣٤٢).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٣٩٨).

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٣٥٧)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٣٣٤)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢٩١).

(٤) تحرفت في المطبوع إلى: «أصايل».

(٥) «جمع» الثانية ليست في المطبوع، وهي في فيض الله ملحقة في الهامش وعليها تصحيح.

(٦) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٧١)، ومختصر الشواذ (ص: ٥٣).

في الأصيل، وفي الطبري: قال أبو وائل لغلامه: هل آصَلْنا بعدُ؟[١].

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ تنبيه، ولما قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ جعل بعد ذلك مثالاً من اجتهاد الملائكة ليبعث على الجد في طاعة الله عز وجل.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يريد الملائكة.

وقوله: ﴿عِندَ﴾ إنما يريد في المنزلة والتشريف والقرب في المكانة، لا في المكان، فهم بذلك عنده، ثم وصف تعالى حالهم من تواضعهم وإدمانهم للعبادة والتسبيح والسجود.

وفي الحديث: «أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئط، ما فيها موضعُ شبر إلا وفيه ملكٌ قائم أو راكع أو ساجد»[٢].

وهذا موضع سجدة[٣]، وقال النخعي في كتاب النقاش: إن شئت ركعت وإن شئت سجدت[٤].

[كملت سورة الأعراف بتوفيق من الله والحمد لله رب العالمين][٥]

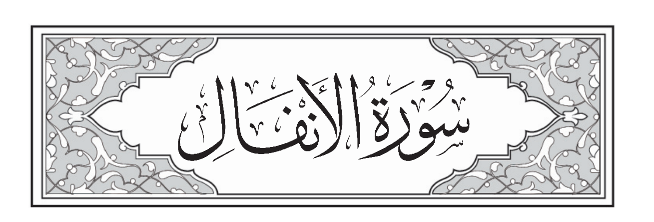
(١) تفسير الطبري (١٣/ ٣٥٥)

(٢) لا يصح مرفوعاً، هذا الحديث أخرجه الترمذي (٢٣١٢) وغيره من طريق: إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن مورق العجلى، عن أبي ذر به مرفوعاً، ومورق لم يسمع من أبي ذر، قاله أبو زرعة، كما في المراسيل لابن أبي حاتم (ص٢١٦) وبين وفاتيهما (٦٨) سنة.
وقال الترمذي عقبه: «حسن غريب»، ويروى عن أبي ذر موقوفاً، ويروى نحو هذا عن مجاهد أيضاً من قوله، أخرجه عبد بن حميد، كما في الدر المنثور (٧/ ١٣٦)، وأخرجه البزار في «مسنده» (٣٢٠٨)، والطبراني (٣١٢٢)، والطحاوي في «شرح المشكل» (١١٣٤) من طريق عبد الوهاب بن عطاء، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن صفوان بن محرز، عن حكيم بن حزام، قال ابن كثير (٥/ ٣٣٦): «غريب ولم يخرجوه، رواه ابن أبي حاتم من طريق يزيد بن زُرَيْع، عن سعيد، عن قتادة مرسلاً».

(٣) انظر: الاستذكار (٢/ ٥٠٤)، والمغني ١ (/ ٣٥٩).

(٤) لم أقف عليه، وقد نقل ابن المنذر في الأوسط (٥/ ٢٨٥) عن النخعي أنه إذا كانت القراءة في صلاة، وكانت السجدة في ختام سورة، فإنه يجزئه عنها الركوع.

(٥) زيادة من المطبوع.



هي مدنية كلُّها، كذا قال أكثر الناس، وقال مقاتل: هي مدنيةُ غيرَ آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾[١] الآية كلها.

وهذه الآية نزلت في قصة وقعت بمكة، ويمكن أن تنزل الآية في ذلك بالمدينة، ولا خلاف في هذه السورة أنها نزلت في يوم بدر وأمر غنائمه.

قوله عز وجل: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾.

«النفَل» و«النفْل» و«النافلة» في كلام العرب: الزيادة على الواجب، وسميت الغنيمة نفلاً؛ لأنها زيادة على القيام بالجهاد وحماية الدين[٢] والدعاء إلى الله عز وجل، ومنه قول لبيد:

إِنَّ تَقْـوَى رَبِّنـا خَيْـرُ نَفَـلْ[٣] .... [المديد]

أي: خير غنيمة، وقول عنترة:

إنَّـا إذا احْمَرَّ الوغَى نـروي القَنَا ونَعِـفُّ عِنْـدَ مَقَاسِـمِ الْأَنْفَالِ[٤] [الكامل]

---

(١) الأنفال: ٣٠، انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٢/ ٩٧).

(٢) في التركية، ونور العثمانية: «الحوزة»، وفي نجيبويه: «حمية الحوزة».

(٣) وعجز البيت: «وبإذن الله رَيْثي وعَجَلْ»، انظر عزوه له في جمهرة أشعار العرب (ص: ٢١)، ومجاز القرآن (١/ ٢٤٠).

(٤) انظر عزوه له في منتهى الطلب لابن المبارك (ص: ٤٨)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٦٢)، وهو في الديوان (ص: ٦٧).

والسؤال في كلام العرب يجيء لاقتضاء معنًى في نفس المسئول، وقد يجيء لاقتضاء مال أو نحوه، والأكثر في هذه الآية أن السؤال إنما هو عن حكم الأنفال، فهو من الضرب الأول، وقالت فرقة: إنما سألوه الأنفال نفسها أن يعطيهم إياها.

واحتجوا في ذلك بقراءة سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود وعلي بن الحسين وأبي جعفر محمد بن علي وزيد بن علي وجعفر بن محمد وطلحة بن مصرِّفٍ وعكرمة والضحاك وعطاء: (يسألونك الأنفال)[١]، وقالوا في قراءة من قرأ ﴿عَنِ﴾: إنها بمعنى «مِن»، فهذا الضرب الثاني من السؤال.

واختلف الناس في المراد بـ﴿الأنفال﴾ في هذه الآية:

فقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وعطاء وابن زيد: هي الغنائم مجملة.

قالوا: وذلك أن سبب الآية ما جرى يوم بدر، وهو أن أصحاب رسول الله ﷺ افترقوا يوم بدر ثلاث فرق: فرقة أقامت مع رسول الله ﷺ في العريش الذي صنع له وحمته وآنسته، وفرقة أحاطت[٢] بعسكر العدو وأسلابهم لما انكشفوا، وفرقة اتبعوا العدو فقتلوا وأسروا.

وقال ابن عباس في كتاب الطبري: وكان رسول الله ﷺ قد حرض الناس قبل ذلك فقال: «من قتل قتيلاً أو أسر أسيراً فله كذا وله كذا»، فسارع الشبان وبقي الشيوخ عند الرايات، فلما انجلت الحرب واجتمع الناس رأت كل فرقة الفضل لنفسها، وقالت: نحن أولى بالمغنم، وساءت أخلاقهم في ذلك، فنزلت الآية بأن الغنائم لله وللرسول فكفُّوا، فقسمه حينئذ رسول الله ﷺ على السواء[٣].

---

(١) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٧٢)، ومختصر الشواذ (ص: ٥٤)، وفي المطبوع: «عن الأنفال» وهو خطأ.

(٢) في المطبوع: «أطاحت».

(٣) تفرد به داود ابن أبي هند واختلف عليه، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٥٦٥٠-١٥٦٥٣) من أربع =

وأسند الطبري وغيره عن أبي أمامة الباهلي، قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا أهلَ بدر نزلت حين اختلفنا وساءت أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسول الله ﷺ وقسمه عليه السلام [بين المسلمين][١] عن بَواء[٢].

قال القاضي أبو محمد: يريد عن سواء.

فكان في ذلك تقوى الله وطاعةُ رسوله ﷺ وصلاح ذات البين.

ومما جرى أيضاً يوم بدر فقيل: إنه سببٌ، ما أسنده الطبري عن سعد بن أبي وقاص، قال:

«لما كان يوم بدر قُتل أخي عميرٌ[٣]، وقَتلتُ سعيدَ بن العاصي[٤] وأخذت سيفَه، وكان يسمى ذا الكثيفة، فجئت به إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هذا السيف قد شفى الله به من المشركين فأعطنيه، فقال: «ليس هذا لي ولا لك، فاطرحه في القبَض»، فطرحته، فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي، قال: فما جاوزت إلا قريباً حتى نزلت عليه سورة الأنفال، فقال: «اذهب فخذ سيفك فإنك سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي فهو لك»[٥].

= طرق عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس بنحوه وليس فيه: «وساءت أخلاقهم في ذلك»، ثلاثة منها موصولة، والرابع عن عكرمة مرسل، والظاهر أن الاضطراب من داود.

(١) من نور العثمانية، والسليمانية، ولالاله.

(٢) منقطع، هذا الحديث أخرجه أحمد (٥/ ٣٢٢)، والطبري (١٥٦٥٥)، والحاكم (٢/ ١٤٨) وغيرهم من طريق محمد بن إسحاق، عن عبد الرحمن، عن سليمان بن موسى، عن مكحول، عن أبي أمامة الباهلي، عن عبادة بن الصامت به، ولا يصح لمكحول سماع من أبي أمامة، قاله أبو حاتم وغيره، على افتراض صحة الطريق إليه.

(٣) هو عمير بن أبي وقاص، أسلم قديماً، وهاجر وشهد بدراً واستُشهد بها رضي الله عنه، قتله عمرو ابن عبد ودّ العامري. الإصابة (٤/ ٦٠٢).

(٤) هو أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية، كان من أشراف قريش، وقتل يوم بدر كافراً. أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ١٤١).

(٥) منقطع، هذا الحديث أخرجه أحمد (١/ ١٨٠-١٥٥٦)، والطبري (١٥٦٥٩) وغيرهم من طريق =

قال القاضي أبو محمد: وفي بعض طرق هذا الحديث، قال سعد: فقلت لما قال لي ضعه في القبَض: إني أخاف أن تعطيه من لم يُبْلِ بلائي، قال: فإذا رسول الله ﷺ خلفي، قال: فقلت أخاف أن يكون نزل فيّ شيء، فقال: «إن السيف قد صار لي» فأعطانيه، ونزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ / عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾[1]. [٢/ ١٩٠]

وأسند الطبري أيضاً عن أبي أسيد مالك بن ربيعة قال: أصبتُ سيف ابن عائد يوم بدر، وكان يسمى المرزبان، فلما أمر رسول الله ﷺ الناس[2] أن يردوا ما في أيديهم من النفل، أقبلت به فألقيته في النفل، وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئاً يُسأله، فرآه الأرقم المخزومي[3] فسأله رسول الله ﷺ فأعطاه إياه[4].

قال القاضي أبو محمد: فيجيء من مجموع هذه الآثار أن نفوس أهل بدر تنافرت ووقع فيها ما يقع في نفوس البشر من إرادة الأثر، لا سيما مَن أبلى، فأنزل الله عز وجل الآية، فرضي المسلمون وسلَّموا، فأصلح الله ذات بينهم ورد عليهم غنائمهم.

وقال بعض أهل هذا التأويل عكرمةُ ومجاهدٌ: كان هذا الحكم من الله لرفع الشغب، ثم نسخ بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنفال: ٤١][5].

= محمد بن عبيد الله الثقفي، عن سعد بن أبي وقاص، به، وسنده منقطع؛ لأن محمد بن عبيدالله لم يدرك سعداً.

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٣٧٢) من طريقين لينين عن مصعب بن سعد، عن أبيه، به.

(٢) من نجيبويه والسليمانية وفيض الله.

(٣) هو الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، صاحب دار الأرقم، أسلم قديماً وشهد المشاهد وتوفي سنة (٥٥هـ). الإصابة (١/ ١٩٧).

(٤) في أسانيده مقال، أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٩٧-١٦٠٥٦)، من طريق عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن أبا أُسيد كان يقول: أصبت يوم بدر سيف ابن عايذ المرزبان، الحديث. وإسناده منقطع؛ لأن عبد الله بن أبي بكر لم يدرك أبا أُسيد، بينهما بعض بني ساعدة كما عند أحمد أيضاً (٣/ ٤٩٧-١٦٠٥٦) والطبري (١٥٦٦٠)، وهذا البعض لا يعرف، وله شاهد بنحوه من حديث الأرقم بن أبي الأرقم أخرجه الطبري (١٥٦٦١) والطبراني في الأوسط (٦٠٣٦) وفي إسناده يحيى بن عمران وهو مجهول.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٣٨١)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٢٦)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ١٢٨).

وقال ابن زيد: لم يقع في الآية نسخ، وإنما أخبر أن الغنائم لله من حيث هي مِلْكُه ورزقه، وللرسول من حيث هو مبين بها أحكام الله والصادع بها، ليقع التسليم فيها من الناس[(١)].

وحكم القسمة نازل خلال ذلك، ولا شك في أن الغنائم وغيرها والدنيا بأسرها هي لله وللرسول.

قال القاضي أبو محمد: وقال ابن عباس أيضاً: ﴿الْأَنفَالِ﴾ في الآية: ما يعطيه الإمام لمن رآه من سيف أو فرس أو نحوه[(٢)]، وهذا أيضا يحسن مع الآية ومع ما ذكرناه من آثار يوم بدر.

وقال علي بن صالح بن حي[(٣)] والحسن فيما حكى المهدوي: ﴿الأَنْفالِ﴾ في الآية ما تجيء به السرايا خاصة[(٤)].

قال القاضي أبو محمد: وهذا القول بعيد عن الآية، غيرُ ملتئم مع الأسباب المذكورة، بل يجيء خارجاً عن يوم بدر.

وقال مجاهد: ﴿الأَنْفالِ﴾ في الآية الخمسُ، قال المهاجرون: لمَ يُخْرَج منا هذا الخمس؟ فقال الله تعالى: هو لله وللرسول[(٥)]، وهذا أيضاً قول قليلُ التناسب مع الآية.

---

(١) انظر: نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (٣/ ١٨٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٣٦٣) من طريق العوفي عن ابن عباس، ومن طريق الزهري واختلف عنه، فقيل: عنه عن ابن عباس مرسلاً، وقيل: عنه عن القاسم بن محمد قال: قال ابن عباس، وقيل: عنه عن القاسم بن محمد سمعتُ رجلاً سأل ابن عباس.

(٣) تحرفت في الأصل إلى: «جني»، وهو علي بن صالح بن حي الهمداني الكوفي، أبو الحسن، من علماء الكوفة، وكان هو والحسن توأمين، روى عن سلمة بن كهيل وسماك وجماعة، وعنه أخوه الحسن ووكيع وآخرون، وثقه أحمد، توفي سنة (١٥٤هـ). تاريخ الإسلام (٩/ ٥٣٠).

(٤) انظر: التحصيل للمهدوي (٣/ ١٥٨)، وقول الحسن في تفسير الماوردي (٢/ ٢٩٢)، وقول علي ابن صالح في تفسير الطبري (١٣/ ٣٦٣).

(٥) تفسير الطبري (١٣/ ٣٦٥)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٢٦)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢٩٢).

وقال ابن عباس وعطاء أيضا: ﴿الأنفال﴾ في الآية: ما شذ من أموال المشركين إلى المسلمين، كالفرس العائر[١]، والعبد الآبق، هو للنبي ﷺ يصنع فيه ما شاء[٢].

وقال ابن عباس أيضاً: ﴿الأنفال﴾ في الآية: ما أصيب من أموال المشركين بعد قسمة الغنيمة، هو لله ورسوله.

قال القاضي أبو محمد: وهذان القولان لا تخرج بهما الآية عن الأسباب التي رويت في يوم بدر، ولا تختص الآية بيوم بدر على هذا، وكأن هاتين المقالتين إنما هما فيما ناله الجيش دون قتال، وبعد تمام الحرب وارتفاع الخوف، وأولى هذه الأقوال وأوضحها القول الأول الذي تظاهرت الروايات بأسبابه، وناسبه الوقت الذي نزلت الآية فيه.

وحكى النقاش عن الشعبي أنه قال: ﴿الأنفال﴾: الأسارى[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا إنما هو على جهة المثال، فيعني[٤] كل ما يغنم.

ويحسن في تفسير هذه الآية أن نذكر شيئاً من اختلاف العلماء في تنفيل الإمام لمن رآه من أهل النجدة والغَناء، وما يجوز من ذلك وما يمتنع، وما لهم في السَّلَب من الاختلاف:

فقالت فرقة: لا نفل بعد النبي ﷺ[٥].

وقال الجمهور: النفل باق إلى يوم القيامة، ينفِّل إمام الجيش ما رآه لمن رآه، لكن بحسب الاجتهاد والمصلحة للمسلمين؛ ليحض الناس على النجدة وينشطهم إلى مكافحة العدو والاجتهاد في الحرب، ثم اختلفوا:

فقال ابن القاسم عن مالك في «المدونة»: إنما ينفِّل الإمام من الخمس لا من

---

(١) في الأصل والحمزوية: «الغائر» بالغين.

(٢) هذا القول والذي بعده راجعان إلى القول السابق الذي مر تخريجه، أوردهم جميعاً الطبري في سياق واحد.

(٣) لم أقف عليه، وفي تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٥٣) عنه أن الأنفال ما أصابت السرايا.

(٤) ساقط من الأصل، وفي نور العثمانية: «فمعنى»، وفي فيض الله والسليمانية: «فيغني».

(٥) قال بذلك عمرو بن شعيب، انظر نسبة القول له في المغني (٩/ ١٨٣).

جملة الغنيمة، وينفل في أول المغنم وفي آخره بحسب اجتهاده[١].

وقالت فرقة: إنما ينفل الإمام قبل القتال، وأما إذا اجتمعت الغنائم فلا نفل[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا إنما يكون على هذا القول بأن يقول الإمام: من قتل قتيلاً فله كذا وكذا[٣]، أو يقول لسرية: إن وصلتم إلى موضع كذا فلكم كذا.

وقال الشافعي وابن حنبل: لا نفل إلا بعد الغنيمة قبل التخميس[٤].

وقال إبراهيم النخعي: ينفل الإمام متى شاء قبل التخميس وبعده[٥].

وقال أنس بن مالك ورجاء بن حيوة ومكحول والقاسم وجماعة منهم الأوزاعي وأحمد وإسحاق وعدي بن عدي: لا نفل إلا بعد إخراج الخمس، ثم ينفل الإمام من أربعة الأخماس، ثم يقسم الباقي بين الناس[٦].

وقال ابن المسيب: إنما ينفل الإمام من خمس الخمس.

وقال مالك رحمه الله: لا يجوز أن يقول الأمير: من هدم كذا من الحصن فله كذا، ومَن بلغ إلى كذا فله كذا، ولا أحب لأحد أن يسفك دماً على مثل هذا.

قال سَحْنون: فإن نزل ذلك لزمه فإنه مبايعة[٧].

---

(١) انظر قول ابن القاسم عن مالك في المدونة (١/ ٥١٧).

(٢) قال بذلك القاسم بن عبد الرحمن والأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز، كما في الاستذكار (٥/ ٦٩،٤٤).

(٣) في نور العثمانية والسليمانية: «فله سلبه».

(٤) انظر قول الشافعي في الأم (٤/ ١٨٣)، وانظر قول أحمد في مسائل أحمد وإسحاق برواية الكوسج (٢٢٥٥).

(٥) وبعده زيادة من الحمزوية والسليمانية، وهي الموافق لما في الأوسط (٦/ ١١٤)، والمغني (٩/ ١٨٧) عنه.

(٦) انظر قول من ذكرهم المؤلف في المغني (٩/ ١٨٧)، والأوسط (٦/ ١١٢).

(٧) في التركية: «فإنها مبالغة»، انظر قول سعيد وقول مالك في الاستذكار (٥/ ٤٥، ٦٠)، وقول سحنون في النوادر (٣/ ٢٣٠).

وقال مالك رحمه الله: لا يجوز أن يقول الإمام لسرية: ما أخذتم فلكم ثلثه، قال سَحْنون: يريد: ابتداءً، فإن نزل مضى ولهم أنصباؤهم في الباقي[١].

وقال سَحْنون: إذا قال الإمام لسرية: ما أخذتم فلا خمس عليكم فيه، فهذا لا يجوز، فإن نزل رددتهُ لأن هذا حكم شاذ لا يجوز ولا يمضى[٢].

ويستحب على مذهب مالك إن نفل الإمام أن ينفل ما يظهر كالعمامة والفرس[٣] والسيف[٤]، وقد منع بعض العلماء أن ينفل الإمام ذهباً أو فضة أو لؤلؤاً أو نحو هذا[٥].

وقال بعضهم: النفل جائز من كل شيء[٦]، وأما السلب فقال مالك رحمه الله: الأسلاب من المغنم تقسم على جميع الجيش إلا أن يشرط الإمام، وقاله غيره[٧].

وقال الليث والأوزاعي والشافعي وأحمد وأبو ثور وأبو عبيد وابن المنذر: السلب حق للقاتل بحكم النبي ﷺ، قال الشافعي وأحمد وأبو عبيد وابن المنذر: قاله الإمام أولم يقله[٨].

وقال مالك: إذا قال الإمام: من قتل قتيلاً فله سَلَبُه، فذلك لازم، ولكنه على قدر

---

(١) انظر: النوادر والزيادات (٣/ ٢٢٤-٢٢٥).

(٢) انظر قول سحنون في مواهب الجليل (٤/ ٥٧١).

(٣) في السليمانية: «والقوس».

(٤) انظر في ذلك النوادر (٣/ ٢٢٦).

(٥) منهم فقهاء الشام كالأوزاعي ومكحول ورجاء بن حيوة وغيرهم، كما في الأوسط (٦/ ١١٥)، والنوادر (٣/ ٢٢٦).

(٦) ممن قال بذلك أحمد وإسحاق، كما في مسائل أحمد وإسحاق رواية الكوسج (٢٢٣١).

(٧) انظر: المدونة (١/ ٥١٧)، والنوادر (٣/ ٢٢٣)، وهو قول الحسن البصري وإبراهيم النخعي، كما في: الأوسط (٦/ ١١٥، ١٢٤).

(٨) انظر قول الشافعي في الأم (٤/ ١٨٤)، وقول أحمد في رواية الكوسج (٢٢٥٥)، والباقين في الأوسط (٦/ ١٢٢-١٢٣).

اجتهاد الإمام وبسبب الأحوال والضيقات[١] واستصراخ الأنجاد[٢].

وقال الشافعي وابن حنبل: تُخرج الأسلاب من الغنيمة ثم تخمَّس بعد ذلك، وتعطى الأسلاب للقتلة، وقال إسحاق ابن راهويه: إن كان السَّلَب يسيراً فهو للقاتل وإن كان كثيراً خمِّس[٣]، وفعله عمر بن الخطاب مع البراء بن مالك حين بارز المرزُبان فقتله، فكانت قيمة منطقته / وسواريه ثلاثين ألفاً، فخمِّس ذلك[٤]، وروي في ذلك حديث عن النبي ﷺ هو حديث عوف بن مالك[٥] في مصنف أبي داود[٦]. [٢/ ١٩١]

وقال مكحول: السلب مغنم وفيه الخمس، وروي نحوه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٧].

---

(١) في الحمزوية: «والصفات». وفي نجيبويه: «والضيفات»، وفي السليمانية: «والضينقات».
(٢) انظر قول مالك في المدونة (١/ ٥١٧).
(٣) انظر قول الشافعي في الأم (٤/ ١٨٣)، وانظر قول أحمد وإسحاق في مسائل أحمد وإسحاق رواية الكوسج (٢٢٥٥).
(٤) اختلف في وصله وإرساله، وصحح الدارقطني المتصل، هذا الخبر رواه محمد بن سيرين واختلف عليه، فروي عن هشام بن حسان وأيوب السختياني وابن عون ـ مفرقين ـ عن محمد بن سيرين عن أنس بن مالك به، وقال عبد الرزاق (٥/ ٢٣٣): عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين قال: بارز البراء بن مالك.. وهذا مرسل، وقال ابن زنجوية في الأموال (٢/ ٤٦٩): حدثنا حميد ثنا النضر ابن شميل، أخبرنا ابن عون، عن ابن سيرين، قال: بارز البراء.. مرسل، وقال أبو عبيد في الأموال (٢٢١٩): قال: حدثنا هشيم، قال: أخبرنا ابن عون، ويونس، وهشام، عن ابن سيرين، قال: بارز البراء..، كذلك أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٢/ ٣٧١)، قال الدارقطني في العلل (٢/ ١٩٩): يرويه ابن عون وهشام بن حسان، عن ابن سيرين، عن أنس، عن عمر، ورواه هشيم، عن ابن عون ويونس وهشام وأشعث، عن ابن سيرين مرسلاً عن عمر، والمتصل صحيح والله أعلم. اهـ.
(٥) زاد في السليمانية: «الأشجعي»، وفي نور العثمانية: «مالك بن عوف الأشجعي»، وهو عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي، أسلم عام خيبر، وشهد الفتح، وكانت معه راية أشجع، وسكن دمشق، مات سنة (٧٣هـ)، الإصابة (٤/ ٦١٧).
(٦) بل أخرجه مسلم (١٧٥٣)، بالإضافة إلى أبي داود (٢٧٢١).
(٧) انظر قول مكحول في سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣١٠)، ومع قول عمر في الأوسط لابن المنذر (١١/ ١١٠).

قال القاضي أبو محمد: يريد: يخمَّس على القاتل وحده.

وقال جمهور الفقهاء: لا يعطى القاتل السلب إلا أن يقيم البيِّنة على قتله[١]، قال أكثرهم: ويجزئ شاهد واحد[٢] بحكم حديث أبي قتادة[٣].

وقال الأوزاعي: يعطاه بمجرد دعواه[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف.

وقال الشافعي: لا يعطى القاتل إلا إذا كان قتيلُه[٥] مقبلًا مشيحاً[٦] مبارزاً، وأما من قَتَل منهزماً فلا، وقال أبو ثور وابن المنذر صاحب «الإشراف»: للقاتل السلب منهزماً كان القتيل أو غيرَ منهزم[٧].

قال القاضي أبو محمد: وهذا أصح؛ لحديث سلمة بن الأكوع في اتباعه ربيئة الكفار في غزوة حنين وأخذه بخطام بعيره وقتله إياه وهو هارب، فأعطاه رسول الله ﷺ سلبه[٨].

وقال ابن حنبل: لا يكون السلب للقاتل إلا في المبارزة فقط[٩].

واختلفوا في السلب: فأما السلاح وكل ما يحتاج للقتال فلا أحفظ فيه خلافاً أنه من السلب، وفرسُه إن قاتل عليه وصرع عنه، وقال أحمد بن حنبل في الفرس: ليس من

---

(١) منهم الشافعي كما في شرح النووي على مسلم (١٢/ ٥٩)، وأحمد كما في المغني (٩/ ١٩٥).

(٢) وبهذا قال الليث وجماعة من أصحاب الحديث، كما في الاستذكار (٥/ ٦٤)، والأوسط (٦/ ١١٨-١١٩).

(٣) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١).

(٤) انظر قول الأوزاعي في الأوسط (٦/ ١١٩).

(٥) في الأصل ونجيبويه: «قتله».

(٦) في المطبوع: «مضحيا» وفي نور العثمانية وفيض الله والسليمانية: «شجيعاً».

(٧) انظر قول الشافعي في الأم (٤/ ١٨٤)، وقول أبي ثور وابن المنذر في الأوسط (٦/ ١٢١-١٢٢).

(٨) أخرجه مسلم (١٧٥٤).

(٩) انظر قول أحمد في مسائل إسحاق (١٦٢٨).

السلب، وكذلك إن كان في هميانه أو منطقته دنانير أو جوهر أو نحو هذا مما يعدُّه فلا أحفظ خلافاً أنه ليس من السلب[١].

واختلف فيما يتزين به للحرب ويهول فيها كالتاج والسوارين والأقراط والمناطق المثقلة بالذهب والأحجار، فقال الأوزاعي: ذلك كله من السلب، وقالت فرقة: ليس من السلب، وهذا كله[٢] مروي عن سَحنون رحمه الله إلا المنطقة فإنها عنده من السلب.

قال ابن حبيب في «الواضحة»: والسواران من السلب[٣].

وتردد[٤] الشافعي: هل هذه كلها من السلب أو لا؟[٥].

قال القاضي أبو محمد: وإذا قال الإمام: من قتل قتيلاً فله سلبه، فقتل ذميٌّ قتيلاً فالمشهور أن لا شيء له، وعلى قول أشهب: يُرضخ لأهل الذمة من الغنيمة؛ يلزم أن يعطى السلب[٦]، وإن قتل الإمام بيده بعد هذه المقالة قتيلًا فله سلبه[٧].

قال القاضي أبو محمد: وأما الصَّفيُّ فكان خالصاً لرسول الله ﷺ.

وقوله عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ معناها في الكلام، اجعل بينك وبين المحذور وقاية.

وقوله: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ تصريح بأنه شجر بينهم اختلاف ومالت النفوس إلى التشاحِّ، و﴿ذَاتَ﴾ في هذا الموضع يراد بها نفس الشيء وحقيقته، والذي يفهم من ﴿بَيْنِكُمْ﴾ هو معنًى يعم جميع الوُصَل والالتحامات والمودات، وذاتُ

(١) نقل عدم الخلاف فيهما أيضاً القرطبي، في تفسيره (٨/ ٩)، وانظر قول أحمد في مسائل أحمد برواية إسحاق بن هانئ (١٦٢٩).

(٢) من نور العثمانية.

(٣) انظر قول الأوزاعي في الأوسط (٦/ ١٣١)، وقول سحنون وابن حبيب في النوادر (٣/ ٢٢٧).

(٤) في الأصل والحمزوية والتركية وفيض الله ونور العثمانية: «ويرجح»، وفي نجيبويه: «وترجح».

(٥) انظر: الأم (٤/ ١٤٢-١٤٣).

(٦) انظر مشهور مذهب مالك في النوادر (٣/ ٢٢٥)، وقول أشهب في النوادر (٣/ ٢٠١).

(٧) انظر في ذلك: النوادر (٣/ ٢٢٩)، والسير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني (٢/ ٦٦٣)، وغيرهما.

ذلك هي المأمور بإصلاحها، أي: نفسُه وعينُه، فحض الله عز وجل على إصلاح تلك الأجزاء، فإذا صلحت تلك حصل إصلاح ما يعمها وهو البين الذي لهم.

وقد تستعمل لفظة الذات على أنها لزيمةٌ[1] ما تضاف إليه وإن لم تكن عينَه ونفسَه، وذلك في قوله: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣]، و﴿ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾ [الأنفال: ٧] فإنها هاهنا مؤنثة، وقولهم: الذئب مغبوط بذي بطنه، وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: إنما هو ذو بطن بنت خارجة[2].

ويحتمل «ذات البين» أن تكون هذه، وقد تقال الذات أيضاً بمعنًى آخر وإن كان يَقْرُب من هذا، وهو قولهم: فعلت كذا ذات يوم، ومنه قول الشاعر

[البسيط] لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ ذَاتَ الْعِشَاءِ وَلَا تَسْرِي أَفاعِيهَا[3]

وذكر الطبري عن بعضهم أنه قال: ﴿ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾: الحال التي لبينكم[4]، كما ذات العشاء: الساعة التي فيها العشاء[5].

قال القاضي أبو محمد: ورجحه الطبري، وهو قول بيِّن الانتقاض.

وقال الزجاج: البينُ هاهنا الوَصْل، ومثله قوله عز وجل: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤][6].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا كله نظر.

(١) لزيمة بمعنى: ملازمة، ومنه قولهم: «إنها لزيم اللحم، إذا كانت مكتنزة». كتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني (ص: ٩٦).

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (١٤٣٨) رواية يحيى بن يحيى، من حديث عائشة.

(٣) عزاه في سيرة ابن هشام (٢/ ١٢٩) لهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وفي المعاني الكبير (١/ ٢٣٣) لجنوب الهذلية أخت عمرو ذي الكلب، وفي بلاغات النساء (ص: ٢٠٣) لرابطة البهرية ترثي أخاها وقتلته هذيل، وفي الحيوان (٢/ ٢٩٠) للهذليّ، وهو أَبُو ذُؤَيْب كما في الحماسة البصرية (٢/ ٣٥٢).

(٤) في الحمزوية ونجيبويه ونور العثمانية: «بينكم»، وهو أحسن.

(٥) تفسير الطبري (١٣/ ٣٨٤).

(٦) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٠٠).

وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ لفظ عام، وسببه: الأمر بالوقوف عند ما يُنْفذه رسول الله ﷺ في الغنائم.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: كاملي الإيمان، كما تقول لرجل: إن كنت رجلاً فافعل كذا، أي: إن كنت كامل الرجولية، وجواب الشرط في قوله المتقدم: ﴿وَأَطِيعُواْ﴾، [هذا عند سيبويه][1]، ومذهب أبي العباس أن الجواب محذوف متأخرٌ يدل عليه المتقدمُ تقديره: إن كنتم مؤمنين أطيعوا، ومذهبه في هذا أن لا يتقدم الجوابُ الشرطَ.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ لفظ لا تفارقه المبالغة والتأكيد حيث وقع، ويصلح مع ذلك للحصر، فإذا دخل في قصة وساعد معناها على الانحصار صح ذلك وترتب، كقوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[2] [الكهف: ١١٠]، وغير ذلك من الأمثلة، وإذا كانت القصة لا تتأتى للانحصار بقيت ﴿إِنَّمَا﴾ للمبالغة والتأكيد فقط، كقوله عليه السلام: «إنما الربا في النسيئة»[3]، وكقولهم: إنما الشجاع عنترة.

وأما من قال: إنما هي لبيان الموصوف، فهي عبارة فاترة؛ إذ بيان الموصوف يكون في مجرد الإخبار دون ﴿إِنَّمَا﴾.

وقوله هاهنا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ظاهرها أنها للمبالغة والتأكيد فقط، أي: الكاملون.

و﴿وَجِلَتْ﴾: معناه فزعت ورقَّت وخافت، وبهذه المعاني فسَّرت العلماء.

وقرأ ابن مسعود: (فَرِقت)، وقرأ أبي بن كعب: (فزعت)[4]، يقال: وجل يوجَل

---

(١) ساقط من المطبوع، وانظر قول سيبويه مع قول المبرد الذي بعده في البحر المحيط (٥/ ٢٧٠).

(٢) لعل المراد: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [طه: ٩٨]، فإن الذي في الآية المذكورة ﴿أَنَّمَا...﴾.

(٣) أخرجه مسلم (١٥٩٦) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٤) وهما شاذتان، انظر الأولى في تفسير الثعلبي (٤/ ٣٢٧)، ومع الثانية في البحر المحيط (٥/ ٢٧٠).

وياجَل وييجَل، وهي شاذة وِييْجَل بكسر الياء الأولى، ووجه هذه: أنهم لما أبدلوا الواو ياء لم يكن لذلك وجه قياس، فكسروا الياء الأولى ليجيء بدلَ الواو ياءٌ لعلة، حكى هذه اللغات الأربع سيبويه رحمه الله(١).

و﴿تُلِيَتْ﴾ معناه: سردت وقرئت، و«الآيات» هنا: القرآن المتلو، وزيادة الإيمان على وجوه كلها خارج عن نفس / التصديق، منها: أن المؤمن إذا كان لم يسمع حكماً من [٢/ ١٩٢] أحكام الله في القرآن فنزل على النبي ﷺ فسمعه فآمن به، زاد إيماناً إلى سائر ما قد آمن به، إذ لكل حكم تصديق خاص، وهذا يترتب فيمن بلغه ما لم يكن عنده من الشرع إلى يوم القيامة، وتترتب زيادة الإيمان بزيادة الدلائل، ولهذا قال مالك: الإيمان يزيد ولا ينقص(٢)، وتترتب بزيادة الأعمال البرة على قول من يرى لفظة الإيمان واقعة على التصديق والطاعات، وهؤلاء يقولون: يزيد وينقص.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ عبارة جامعة لمصالح الدنيا والآخرة إذا اعتُبرت وعُمل بحسبها في أن يمتثل الإنسان ما أُمر به، ويبلغَ في ذلك أقصى جهده دون عجز، وينتظر بعدُ ما تُكفِّل له به من نصر أو رزق أو غيره، وهذه أوصاف جميلة وصف الله بها فضلاء المؤمنين، فجعلها غاية للأمة يستبق إليها الأفاضل، ثم أتبع ذلك وعدهم ووسمهم(٣) بإقامة الصلاة ومدحهم بها حضّاً على ذلك.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال جماعة من المفسرين: هي الزكاة.

قال القاضي أبو محمد: وإنما حملهم على ذلك اقتران الكلام بإقامة الصلاة، وإلا فهو

---

(١) الكتاب (٤/ ١١١-١١٢).

(٢) وقد بين الشيخ زروق الخلاف في ذلك بقوله: زيادة الإيمان ونقصانه مختلف فيه على ثلاثة أقوال، ثالثها: يزيد ولا ينقص، وكلها منقولة عن مالك، وفي «شامل» إمام الحرمين: كل من أطلق الإيمان على فعل الطاعة زاد ونقص، وكان مالك يقول: يزيد، ولا يقول: ينقص، ثم لما سأله ابن نافع عند موته قال: قد أبرمتمونا، وإذا تدبرت هذا الأمر، فما شيء يزيد إلا وهو ينقص، قال ابن رشد: وهو الصحيح، قلت: وهو مذهب البخاري، وقد انتصر له بظواهر القرآن والسنة. انظر شرحه للرسالة (١/ ٧١).

(٣) في التركية: «رسمهم».

لفظ عام في الزكاة ونوافل الخير وصلات المستحقين، ولفظ ابن عباس في هذا المعنى محتمل.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾ يريد: كل المؤمنين، و﴿حَقّٗا﴾ مصدر مؤكد، كذا نص عليه سيبويه[١]، وهو المصدر غير المنتقل، والعامل فيه: أحقُّ ذلك حقّاً.

وقوله: ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ ظاهره ـ وهو قول الجمهور ـ أن المراد مراتب الجنة ومنازلها ودرجاتها على قدر أعمالهم، وحكى الطبري عن مجاهد أنها درجات أعمال الدنيا[٢].

وقوله: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ يريد به مآكل الجنة ومشاربها، و﴿كَرِيمٞ﴾ صفة تقتضي رفع المذامِّ، كقولك: ثوب كريم وحسب كريم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾.

اختلف الناس في الشيء الذي تتعلق به الكاف من قوله: ﴿كَمَآ﴾ حسبما نبيِّن من الأقوال التي أنا ذاكرها بعدُ بحول الله، والذي يلتئم به المعنى ويحسن سرد الألفاظ قولان، وأنا أبدأ بهما:

قال الفراء: التقدير: امض لأمرك في الغنائم ونفِّل من شئت وإن كرهوا، كما أخرجك ربك، هذا نص قوله في «هداية» مكي رحمه الله[٣].

والعبارة بقوله: امض لأمرك ونفِّل من شئت، غير محرَّرة.

وتحرير هذا المعنى عندي أن يقال: إن هذه الكاف شبَّهت هذه القصة التي هي إخراجه من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال، [كأنهم سألوا عن

---

(١) في الكتاب (١/ ٣٧٠).

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٣٨٩).

(٣) الهداية لمكي (٤/ ٢٧٣٤).

النفل][1]، وتشاجروا، فأخرج الله ذلك عنهم، فكانت فيه الخيرة، [كما كرهوا في هذه القصة انبعاث النبي ﷺ، فأخرجه الله من بيته فكانت في ذلك الخيرة][2]، فتشاجُرهم في النفل بمثابة كراهيتهم هاهنا للخروج، وحكم الله في النفل بأنه لله وللرسول دونهم هو بمثابة إخراجه نبيَّه ﷺ من بيته.

ثم كانت الخيرة في القصتين فيما صنع الله، وعلى هذا التأويل يمكن أن يكون قوله: ﴿يُجَـٰدِلُونَكَ﴾ كلاماً مستأنفا يراد به الكفار، أي: يجادلونك في شريعة الإسلام من بعد ما تبين الحق فيها، كأنما يساقون إلى الموت في الدعاء إلى الإيمان.

قال القاضي أبو محمد: وهذا الذي ذكرت من أن ﴿يُجَـٰدِلُونَكَ﴾ في الكفار منصوص.

والقول الثاني: قال مجاهد والكسائي وغيرهما: المعنى في هذه الآية: كما أخرجك ربك من بيتك على كراهية من فريق منهم كذلك يجادلونك في قتال كفار مكة، ويودون غير ذات الشوكة، من بعد ما تبين لهم أنك إنما تفعل ما أُمرت به لا ما يريدون هم[3].

قال القاضي أبو محمد: والتقدير على هذا التأويل: يجادلونك في الحق مجادلةً ككراهتهم إخراج ربك إياك من بيتك، فالمجادلة على هذا التأويل بمثابة الكراهية، وكذلك وقع التشبيه في المعنى، وقائل هذه المقالة يقول: إن المجادلين هم [المؤمنون، وقائل المقالة الأولى يقول: إن المجادلين هم][4] المشركون، فهذان قولان مطردان يتم بهما المعنى ويحسن رصف اللفظ.

وقال الأخفش: الكاف نعت لـ﴿حَقًّا﴾، والتقدير: هم المؤمنون حقّاً كما أخرجك[5].

قال القاضي أبو محمد: والمعنى على هذا التأويل كما تراه لا يتناسق.

---

(١) ساقط من نجيبويه.

(٢) ساقط من المطبوع.

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٣٩٢)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٢٩)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ١٣١-١٣٢).

(٤) ساقط من التركية.

(٥) الهداية لمكي ٤/ ٢٧٣٢.

وقيل: الكاف في موضع رفع، والتقدير: كما أخرجك ربك فاتقوا الله، كأنه ابتداء وخبر[١].

قال القاضي أبو محمد: وهذا المعنى وضعه هذا المفسر، وليس من ألفاظ الآية في وِرْدٍ ولا صَدَرٍ.

وقال أبو عبيدة: هو قسَم، أي: لهم درجات ومغفرة ورزق كريم كما أخرجك، بتقدير: والذي أخرجك، فالكاف في معنى الواو، و(ما) بمعنى الذي[٢].

وقال الزجَّاج: الكاف في موضع نصب، والتقدير: الأنفال ثابتة لك ثباتاً كما أخرجك ربك[٣].

وقيل: الكاف في موضع رفع، والتقدير: لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم هذا وعد حق كما أخرجك.

وقيل: المعنى: وأصلحوا ذات بينكم ذلك خير لكم كما أخرجك، والكاف نعت لخبر ابتداءٍ محذوف.

وقيل: التقدير: قل الأنفال لله والرسول كما أخرجك، [وهذا نحوُ أول قول ذكرتُه.

وقال عكرمة: التقدير: وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين كما أخرجك][٤] ربك؛ أي: الطاعةُ خير لكم كما كان إخراجك خيراً لكم[٥].

وقوله: ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾ يريد: من المدينة يثرب، قاله جمهور المفسرين.

---

(١) الهداية لمكي (٤/ ٢٧٣٢).

(٢) مجاز القرآن (١/ ٢٤٠).

(٣) معاني القرآن وإعرابه له (٢/ ٤٠٠)

(٤) ساقط من نجيبويه.

(٥) تفسير الطبري (١٣/ ٣٩١).

وقال ابن بكير: المعنى: كما أخرجك من مكة وقت الهجرة[١].

وقرأ عبد الله بن مسعود: (في الحق بعد ما بُيِّن)، بضم الباء من غير تاء[٢].

[٢/١٩٣] والضمير في قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾، قيل: هو للمؤمنين / وقيل: للمشركين، فمن قال: للمؤمنين، جعل الْحَق قتال مشركي قريش، ومن قال: للمشركين، جعل الْحَقّ شريعة الإسلام.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ أي: في سَوقهم[٣] إلى القتال، على أن المجادلين المؤمنون، أو في دعائهم إلى الشرع على أنهم المشركون.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ حال تزيد في فزع المسوق[٤]، وتقتضي شدة حاله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ الآية، في هذه الآية قَصَصٌ حسن أنا أختصره إذ هو مستوعب في كتاب سيرة رسول الله ﷺ لابن هشام[٥].

واختصاره: أن رسول الله ﷺ لما بلغه ـ وقيل: أوحي إليه ـ أن أبا سفيان بن حرب قد أقبل من الشام بالعير التي فيها تجارة قريش وأموالها، قال لأصحابه: إن عير قريش قد عنَّت لكم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفِّلَكُموها، قال: فانبعث معه مَن خف، وثقل قوم وكرهوا الخروج، وأسرع رسول الله ﷺ لا يلوي على مَن تعذر ولا ينتظر من غاب ظهره.

فسار في ثلاث مئة وثلاثة عشر من أصحابه بين مهاجريٍّ وأنصاري، وقد ظن الناس بأجمعهم أن رسول الله ﷺ لا يلقى حرباً فلم يكثر استعدادهم، وكان أبو سفيان

---

(١) ورد هذا القول في تفسير ابن أبي زمنين (٢/ ١٦٦)، وتفسير الماوردي (٢/ ٢٩٥)، وتفسير السمعاني (٢/ ٢٤٨)، بلا نسبة.

(٢) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٣).

(٣) في نجيبويه: «تسوقهم».

(٤) في المطبوع: «السوق».

(٥) راجع سيرة ابن هشام (١/ ٦٦٧)، وما بعدها.

في خلال ذلك يستقصي ويَحْذَر، فلما بلغه خروج رسول الله ﷺ بعث ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة يستنفر أهلها، ففعل ضمضم، فخرج أهل مكة في ألف رجل أو نحو ذلك، فلما بلغ رسولَ الله ﷺ خروجُهم، أوحى الله إليه وحياً غير متلو يَعِدُه إحدى الطائفتين، فعرَّف رسول الله ﷺ أصحابه بذلك، فسُرُّوا وودوا أن تكون لهم العير التي لا قتال معها.

فلما علم أبو سفيان بقرب رسول الله ﷺ أخذ طريق الساحل وأبعد وفات ولم يبق إلا لقاء أهل مكة، وأشار بعض الكفار على بعض بالانصراف، وقالوا: هذه عِيرنا قد نجت فلننصرف، فحرَّش أبو جهل ولجَّ حتى كان أمر الوقعة.

وقال بعض المؤمنين: نحن لم نخرج لقتال ولم نستعد له، فجمع رسول الله ﷺ أصحابه وهو بواد يسمى ذفران[١]، وقال: «أشيروا عليَّ أيها الناس»، فقام أبو بكر فتكلم فأحسن وحرَّض على لقاء العدو، فأعاد رسول الله ﷺ الاستشارة، فقام عمر بمثل ذلك، فأعاد رسول الله ﷺ الاستشارة، فتكلم المقداد الكندي فقال: لا نقول لك يا رسول الله: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: إنا معكما مقاتلون، والله لو أردت بنا برك الغماد[٢] ـ قال القاضي أبو محمد: وهي مدينة بالحبشة[٣] ـ لقاتلنا معك من دونها، فسُرَّ رسول الله ﷺ بكلامه ودعا له بخير، ثم قال: «أشيروا علي أيها الناس» فكلمه سعد بن معاذ، وقيل: سعد بن عبادة.

قال القاضي أبو محمد: ويمكن أنهما جميعاً تكلما في ذلك اليوم.

فقال: يا رسول الله، كأنك تريدنا معشر الأنصار؟ فقال النبي ﷺ: «أجل»، فقال:

---

(١) وهو واد قرب وادي الصفراء، كما في معجم البلدان (٣/ ٦)، وفي التركية: «ذقران».

(٢) أخرج نحو قصة المشورة: مسلم (١٧٧٩) من حديث أنس.

(٣) وهو موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل: بلد باليمن دفن عنده عبد الله بن جدعان، معجم البلدان (١/ ٣٩٩).

إنا قد[١] آمنا بك واتبعناك وبايعناك[٢]، فامض لأمر الله، فوالله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك. فقال النبي ﷺ: «امضوا على بركة الله فكأني أنظر إلى مصارع القوم»[٣]، فالتقوا وكانت وقعة بدر.

وقرأ مسلمة بن محارب: (وإذ يَعِدْكم) بجزم الدال[٤]، قال أبو الفتح: ذلك لتوالي الحركات.

وقرأ ابن محيصن: (وإذ يعدكم اللهُ احْدى الطائفتين) بوصل الألف من (اِحْدَى) وصلة الهاء بالحاء[٥].

و﴿ٱلشَّوۡكَةِ﴾ عبارة عن السلاح والحدة، ومنه قول الأعور: إن العَرْفَجَ قد أَدْبَى[٦].

وقرأ أبو عمرو فيما حكى أبو حاتم: ﴿الشَّوْكَة تَّكُونُ﴾ بإدغام التاء في التاء[٧].

ومعنى الآية: وتودون العير وتأبون قتال الكفار.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾، الآية، المعنى: ويريد الله أن يُظهر الإسلام ويعلي دعوة الشرع.

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بخلاف عنهم: (بكلمته) على الإفراد[٨] الذي يراد به

---

(١) من نجيبويه وفيض الله.

(٢) من نور العثمانية والسليمانية وفيض الله.

(٣) مسلم (١٧٧٩) من حديث أنس، وكذا سيرة ابن هشام (١/ ٦٠٧).

(٤) وهي شاذة، انظرها مع التوجيه في المحتسب (١/ ٢٧٣).

(٥) وهي شاذة، انظر: إتحاف فضلاء البشر (ص: ٢٩٦)، وقد تقدم مثلها.

(٦) من كلام لرجل من بني العنبر كان أسيراً في بكر بن وائل، انظر قصته في الأمالي لأبي علي القالي (١/ ٨)، قال أبو علي: «أما قوله: قد أدبى العرفج، فإنه يريد أن الرجال قد استلأموا، أي: لبسوا الدروع». وهذا كناية عن السلاح والاستعداد للحرب.

(٧) وهي رواية السوسي على قاعدته في الإدغام الكبير، انظر: التيسير (ص: ٢٠).

(٨) وهي شاذة، عزاها في مختصر الشواذ (ص: ٥٤)، والشواذ للكرماني (ص: ٢٠٢)، لسلمة بن محارب، ولم أجدها لمن ذكر.

الجمع، والمعنى في قوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ إما أن يريد: بأوامره وأمره[١] للملائكة والنصر لجميع[٢] ما يظهر الإسلام [أن يكون][٣]، وإما أن يريد: بكلماته التي سبقت في الأزل، والمعنى قريب.

و«الدابر»: الذي يَدْبر القومَ، أي: يأتي في آخرهم، فإذا قطع فقد أتى على آخرهم بشرط أن يبدأ الإهلاك من أولهم، وهي عبارة في كل من أتى الهلاك عليه.

قوله عز وجل: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: ليُظْهِر ما يجب إظهاره وهو الإسلام ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: الكفر، ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ أي: وكراهيتُهم واقعة، فهي جملة في موضع الحال.

وقوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ الآية، ﴿إِذْ﴾ متعلقة بفعل، تقديره: واذكر إذ، وهو الفعل الأول الذي عمل في قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾.

وقال الطبري: هي متعلقة بـ﴿لِيُحِقَّ﴾ و(يبطل)[٤].

قال القاضي أبو محمد: ويصح أن يعمل فيها ﴿يَعِدُكُمُ﴾، فإن الوعد كان في وقت الاستغاثة.

وقرأ أبو عمرو بإدغام الذال في التاء، واستحسنها أبو حاتم[٥].

و﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ معناه: تطلبون الغوث[٦]، وليس يَبِين من ألفاظ هذه الآية أن

---

(١) ساقط من المطبوع والتركية.

(٢) في نجيبويه: «بجميع».

(٣) ساقط من المطبوع.

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ٤٠٨).

(٥) انظر قراءة أبي عمرو في التيسير (ص: ٤٢)، وقد وافقه هشام وحمزة والكسائي.

(٦) من نجيبويه ونور العثمانية والسليمانية.

المؤمنين علموا قبل القتال بكون الملائكة معهم، فإنَّ (استجاب) يمكن أن يقع في غيبه تعالى، وقد روي أنهم علموا ذلك قبل القتال، ومعنى التأنيس وتقويةِ القلوب يقتضي ذلك.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنِّي﴾ بفتح الألف، وقرأ أبو عمرو في بعض ما روي عنه وعيسى ابن عمر بخلاف عنه: (إني) بكسر الألف[١]، أي: قال إني.

و﴿مُمِدُّكُم﴾، أي: مكثِّركم ومقوِّيكم، من أمددت.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بِأَلْفٍ﴾.

وقرأ عاصم الجحدري: (بآلُف) على مثل فَلْسٍ وأَفْلُسٍ، فهي جمع أَلْفٍ، والإشارة بها إلى الآلاف المذكورة في آل عمران، وقرأ عاصم الجحدري أيضاً: (بآلاف)[٢].

و﴿مُرْدَفِينَ﴾ معناه: متبَعين، ويحتمل أن يراد بالمردَفين المؤمنين، أي: أُردفوا بالملائكة فـ﴿مُرْدَفِينَ﴾ على هذا حال من الضمير في قوله: ﴿مُمِدُّكُم﴾ / . [٢/ ١٩٤]

ويحتمل أن يراد به الملائكة، أي: أُرْدِف بعضُهم ببعض.

وهذه القراءة بفتح الدال، وهي قراءة نافع وجماعة من أهل المدينة وغيرهم، وقرأ سائر السبعة غير نافع: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بكسر الدال، وهي قراءة الحسن ومجاهد[٣]، والمعنى فيها: تابعٌ بعضُهم بعضاً، وروي عن ابن عباس: خلف كل ملكٍ ملكٌ[٤]، وهذا معنى التتابع، يقال: رَدِفَ وأَرْدَفَ: إذا أَتْبعَ وجاء بعد الشيء، ويحتمل أن يراد: مردِفين المؤمنين.

ويحتمل أن يراد: مردِفين بعضَهم بعضاً، ومن قال: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بمعنى: أن كل ملك أردف ملكاً وراءه، فقولٌ ضعيف لم يأت بمقتضاه رواية.

---

(١) وهي شاذة، انظر عزوها لعيسى في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٩١)، وله ولأحمد عن أبي عمرو مختصر الشواذ (ص: ٥٣).

(٢) انظر عزوهما له في الشواذ للكرماني (ص: ٢٠٢)، وزاد وجهاً ثالثاً: «ألؤف»، على وزن أعلف، وكلها شاذة.

(٣) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٦).

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ٤١٢) بنحوه ومعناه من عدة طرق عن ابن عباس.

وقرأ رجل من أهل مكة رواه عنه الخليل: (مَرَدِّفين) بفتح الراء وكسر الدال وشدها، وروي عن الخليل أنها بضم الراء كالتي قبلها في غير ذلك، وقرأ بعض الناس بكسر الراء مثلهما [في غير][١] ذلك، حكى ذلك أبو عمرو عن سيبويه[٢]، وحكاه أبو حاتم قال: كأنه أراد: مرتدفين، فأدغم وأتبع الحركة، ويحسن مع هذه القراءة كسر الميم، ولا أحفظه قراءة.

وأنشد الطبري شاهداً على أن أردف بمعنى: جاء تابعاً، قولَ الشاعر:

إِذَا الْـجَوْزَاءُ أَرْدَفَـتِ الـثُّـرَيَّـا ظَنَنْـتُ بِـآلِ فَاطِمَـةَ الظُّـنُونَـا[٣] [الوافر]

والثريا تطلع قبل الجوزاء.

وروي في الأشهر أن الملائكة قاتلت يوم بدر، واختلف في غيره من مشاهد رسول الله ﷺ، وقيل: لم تقاتل يوم بدر وإنما وقفت وحضرت، وهذا ضعيف.

وحكى الطبري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: نزل جبريل في ألف ملك على ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف ملك في الميسرة وأنا فيها[٤].

وقال ابن عباس: كانا في خمس مئة خمس مئة[٥].

---

(١) في نجيبويه: «وغير». ومعنى الكلام: أن الراء إذا ضمت فإتباعاً لحركة الميم قبلها، وإذا كسرت فإتباعاً لحركة الراء بعدها.

(٢) انظر الأوجه الثلاثة عن الخليل في المحتسب (١/ ٢٧٣)، وانظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٣)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٩١).

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٤١٤)، والبيت لخزيمة بن نهد، كما في الأغاني (١٣/ ٨٥)، والصحاح (٥/ ٥٠)، وتهذيب اللغة (٩/ ٧١).

(٤) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٥٧٥٦) من طريق عبد العزيز بن عمران، عن الزمعي ـ هو موسى ابن يعقوب ـ، عن أبي الحويرث، عن محمد بن جبير، عن علي رضي الله عنه به، وعبد العزيز متروك.

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ٤٢٣) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مطولاً، وفيه: وأمد الله نبيه بألف من الملائكة، فكان جبريل عليه السلام في خمس مئة من الملائكة مجنبة، وميكائيل في خمس مئة مجنبة.

وقال الزجَّاج: قال بعضهم: إن الملائكة خمسة آلاف، وقال بعضهم: تسعة آلاف[١].

وفي هذا المعنى أحاديث هي مستوعبة في كتاب السير.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ ﴾ الآية، الضمير في ﴿جَعَلَهُ﴾ عائدٌ على الوعد.

قال القاضي أبو محمد: وهذا عندي أمكنُ الأقوال من جهة المعنى.

وقال الزجَّاج: الضمير عائد على المدد، ويحتمل أن يعود على الإمداد، وهذا يحسُن مع قول مَن يقول: إن الملائكة لم تقاتل وإنما آنست بحضورها مع المسلمين.

قال القاضي أبو محمد: وهذا عندي ضعيف ترده الأحاديث الواردة بقتال الملائكة، وما رأى من ذلك أصحابُ النبي ﷺ كابن مسعود وغيره[٢].

ويحتمل أن يعود على الإرداف وهو قول الطبري[٣]، وهذا أيضاً يجري مجرى القول الذي قبله، ويحتمل أن يعود على الألْف وهذا أيضاً كذلك، لأن البشرى بالشيء إنما هي عن ما لم يقع بعد، و«البشرى» مصدر من بَشَرْت، و«الطمأنينة»: السكون والاستقرار.

وقوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ توقيف على أن الأمر كله لله، وأن تكسُّب المرء لا يغني إذا لم يساعده القدر، وإن كان مطلوباً بالجِدِّ كما ظاهَرَ رسول الله ﷺ بين درعين[٤].

---

(١) انظره مع النص الذي بعده عنه في معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٠٣-٤٠٣).

(٢) ذكر ابن هشام في السيرة (١/ ٦٣٢) روايات فيها أن بعض الصحابة شاهدوا الملائكة ببدر، ولم يذكر منهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٤١٧).

(٤) أصح طرقه مرسل صحابي وهو حجة عند الأكثر، روي هذا من حديث السائب بن يزيد وسعد بن أبي وقاص، أما حديث السائب فرواه سفيان بن عيينة عن يزيد بن خصيفة، واختلف على سفيان، فقيل: عنه عن يزيد عن السائب أن النبي...، (النسائي ٥/ ١٧١) وقيل: عن السائب بن يزيد عمن حدثه: عن طلحة بن عبيد الله أن النبي... (أبو يعلى ٢/ ٢٤). وقيل: عن السائب بن يزيد عن رجل قد سماه: أن رسول الله...، (أبو داود ٢٥٩٠). وقيل: عن السائب بن يزيد عن رجل من بني تميم=

وهذه القصة كلها من قصة[1] الكفار وغلبة المؤمنين لهم تليق بها من صفات الله عز وجل العزةُ والحكمة إذا تؤمل ذلك.

قوله عز وجل: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

العامل في ﴿ إِذْ ﴾ هو العامل الذي عمل في قوله: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ﴾ بتقدير تكراره؛ لأن الاشتراك في العامل الأول نفسِه لا يكون إلا بحرف عطف، وإنما القصد أنْ تعدَّد نعمة الله تعالى على المؤمنين في يوم بدر، فقال: واذكروا [إذ فعلنا بكم كذا][2] إذ فعلنا كذا.

وقال الطبري: العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ ﴾[3].

قال القاضي أبو محمد: وهذا مع احتماله فيه ضعف، ولو جُعل العامل في ﴿إِذْ﴾ شيئاً قريباً مما قبلها لكان الأَولى في ذلك أن يعمل في ﴿إِذْ﴾ ﴿ حَكِيمٌ ﴾، لأن إلقاء النعاس عليهم وجَعْلَه أمنة حكمةٌ من الله عز وجل.

= يقال له معاذ: أن رسول الله... (أبو يعلى ٢/ ٢٤). وقيل: عن السائب بن يزيد إن شاء الله أن النبي...، وقاله سفيان مرة فلم يستثن فيه (أحمد في المسند ٣/ ٤٤٩). وقيل: عن السائب بن يزيد، عن رجل من بني تميم، عن طلحة بن عُبَيْد الله أن النبي ﷺ (تاريخ ابن أبي خيثمة ٣/ ٢٧٧)، ذكر الدارقطني الوجه الأول ونسبه لأصحاب ابن عيينة خلافاً لمن رواه على الوجه الثاني، ومال إلى أن الصواب الأول، وهو من رواه من حديث السائب مرفوعاً بلا واسطة بينه وبين النبي ﷺ، وهذا مرسل صحابي، السائب كان طفلاً يوم أحد، وأما حديث سعد فأخرجه البزار (١/ ١٩٨) من طريق: إسحاق بن محمد الفروي قال: نا عبد الله ابن جعفر، عن إسماعيل بن محمد بن سعد، عن عامر بن سعد، عن أبيه سعد أن رسول الله ﷺ، وإسناده لا بأس به لولا الفروي وفيه لين، وضعفه قوم، قال البزار: لا نعلمه عن سعد إلا من هذا الوجه.

(١) في التركية، والسليمانية: «قتل»، وفي نور العثمانية: «قبل»، وهي ساقطة من نجيبويه.

(٢) زيادة من نجيبويه، زاد في الحمزوية والتركية: «وإذ فعلنا كذا» ثالثة.

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٤١٩).

وقرأ نافع: ﴿يُغْشِيكم﴾ بضم الياء وسكون الغين، وهي قراءة الأعرج وأبي حفص وابن نِصَاح، وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر والكسائي: ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ بفتح الغين وشد الشين المكسورة، وهي قراءة عروة بن الزبير وأبي رجاء والحسن وعكرمة وغيرهم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿يَغْشاكم﴾ بفتح الياء وألف بعد الشين، وهي قراءة مجاهد وابن محيصن وأهل مكة: ﴿النعاسُ﴾ بالرفع(١).

وحجة من قرأ: ﴿يَغْشاكم﴾ (٢) إجماعهم في آية أحد على ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وحجة من قرأ ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ أن يجيء الكلام متسقا مع (يُنَـزِّلُ)(٣).

ومعنى ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾: يغطيكم به ويُفْرغه عليكم، وهذه استعارة، و﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ أخف النوم، وهو الذي قد يصيب الإنسان وهو واقف أو ماش، وينص على ذلك قَصَص هذه الآية أنهم إنما كان بهم خفقٌ في الرؤوس، وقول النبي ﷺ: «إذا نعس أحدكم في صلاته»(٤) الحديث.

وينص على ذلك قول الشاعر:

[الكامل]

وَسْنانُ أَقْصَدَهُ النُّعاسُ فرَنَّقتْ ... في عَيْنِهِ سِنَةٌ ولَيْسَ بِنائِم(٥)

وقوله: ﴿أَمَنَةً﴾ مصدر من أمِن الرجل يأمن أمْناً وأَمَنةً وأماناً، والهاء فيها لتأنيث المصدر كما هي في المساءة(٦) والمشقة.

---

(١) وكلها سبعية، انظر: التيسير (ص: ١١٦)، وانظر العزو لغيرهم في البحر المحيط (٥/ ٢٨١)، وأبو حفص لم أعرفه.

(٢) زاد في الحمزوية: «بفتح الياء وألف بعد الشين».

(٣) انظر: الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ١٢٦).

(٤) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٢١٢) ومسلم (٧٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) تقدم في تفسير آية الكرسي (٢٥٥) من سورة البقرة.

(٦) في نجيبويه: «المسارة».

وقرأ ابن محيصن: (أمْنة) بسكون الميم[١].

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: النعاس عند حضور القتال علامةُ أمن من العدو، وهو من الله، وهو في الصلاة من الشيطان[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا طريقُه الوحي، فهو لا محالة إنما يُسنده.

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تعديد أيضاً لهذه النعمة في المطر، فقال بعض المفسرين وحكاه الطبري عن ابن عباس وغيره، وقاله الزجَّاج: إن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليه، وبقي المؤمنون لا ماء لهم، فوجست نفوسهم وعطشوا / وأجنبوا وصلَّوا كذلك، فقال بعضهم في نفوسهم ـ بإلقاء الشيطان إليهم ـ: [٢/ ١٩٥] نزعم أنَّا أولياء الله وفينا رسول الله ﷺ وحالنا هذه والمشركون على الماء؟ فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان حتى سالت الأودية، فشرب الناس وتطهروا وسقوا الظَّهر، وتدمَّثت السَّبخة التي كانت بينهم وبين المشركين حتى ثبتت فيها أقدام المسلمين وقت القتال، وكانت قبل المطر تسوخ فيها الأرجل، فلما نزل الطش[٣] تلبدت[٤].

قالوا: فهذا معنى قوله: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي: من الجنابة، ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: عذابه لكم بوساوسه المتقدمة الذكر، و«الرجز»: العذاب.

وقرأ أبو العالية: (رجس الشيطان) بالسين[٥]، أي: وساوسه التي تُمقت وتُتقذر.

وقرأ ابن محيصن: (رُجز) بضم الراء[٦].

---

(١) وهي شاذة، انظرها في المحتسب (١/ ٢٧٣).

(٢) ضعيف، هذا الأثر أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤٢١٩) والطبري (٨٠٨٣-١٥٧٥٨) وغيرهم من طريق: عاصم، عن أبي رزين، عن عبد الله، وعاصم هو ابن أبي النجود ضعيف.

(٣) في السليمانية وفيض الله: «المطر»، وهما بمعنىً إلا أن الطش أخف.

(٤) معاني القرآن للزجاج (٢/ ٤٠٣-٤٠٤)، وانظر قول ابن عباس في تفسير الطبري (١١/ ٦٤).

(٥) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٧٥).

(٦) وهي شاذة، انظر: تفسير الثعلبي (٤/ ٣٣٣).

وقرأ عيسى بن عمر: (ويُذْهِبْ) بجزم الباء[(١)].

﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ أي: بتنشيطها وإزالة الكسل عنها وتشجيعها على العدو، ومنه قولهم: رابط الجأش، أي: ثابت النفس عند جأشها في الحرب.

﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ أي: في الرملة الدهِسة[(٢)] التي كان المشي فيها صعباً.

قال القاضي أبو محمد: والصحيح من القول وهو الذي في سير ابن إسحاق وغيرها: أن المؤمنين سبقوا إلى الماء ببدر، وفي هذا وقع كلام حباب بن المنذر الأنصاري[(٣)] حين نزل رسول الله ﷺ على أول ماء، فقال له حباب: أبِوَحْي يا رسول الله هذا المنزل فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخرَ عنه، أم هو عندك الرأي والمكيدة؟[(٤)] الحديث المستوعب في السيرة.

قال القاضي أبو محمد: ولكن نزول المطر كان قبل وصولهم إلى الماء، وذلك أن القوم من المؤمنين لحقتهم في سفرهم الجنابات وعدموا الماء قريبَ بدرٍ، فصلَّوا كذلك، فوقع في نفوسهم من ذلك، ووسوس الشيطان لهم في ذلك مع تخويفه لهم من كثرة العدو وقلَّتهم، وهذا قبل الترائي بالأعين، وأيضاً فكانت بينهم وبين ماء بدر مسافة طويلة من رمل دهسٍ لين تسوخ فيه الأرجل، وكانوا يتوقعون أن يسبقهم الكفار إلى ماء بدر فتحرَّضوا[(٥)] هم أن يسبقوهم إليه، فأنزل الله تلك المطرة فسالت الأودية، فاغتسلوا

---

(١) وهي شاذة، عزاها له وللحسن وأبي عمرو الكرماني في شواذ القراءات (ص: ٢٠٣).

(٢) في الحمزوية: «الدمثة»، وفي نجيبويه: «المدهسة»، وفي نور العثمانية والسليمانية: «الدهشة». والدهسة: المكان اللين.

(٣) هو الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري الخزرجي ثم السلمي، شهد بدراً، وهو صاحب الرأي فيها، وهو الذي قال يوم السقيفة: أنا جذيلها المحكَّك وعذيقها المرجَّب، توفي في خلافة عمر وقد زاد على الخمسين، الإصابة (٢/ ٩).

(٤) ضعيف، هذا الحديث أخرجه الحاكم (٣/ ٤٨٣) من طريق أبي حفص الأعشى عمرو بن خالد، عن بسام الصيرفي، عن عامر بن واثلة، عن حباب بن المنذر قال: أشرت على رسول الله ﷺ. قال الذهبي: حديث منكر، وانظر: سيرة ابن هشام (١/ ٦٢٠).

(٥) في التركية وفيض الله: «ويحرصون أن تسبقون». وفي نجيبويه: «ويحرصوا»، وفي السليمانية: و«يحرضون».

وطهَّرهم الله فذهب رجز الشيطان، وتدمثت الطريق وتلبدت تلك الرملة فسهل المشي فيها، وأَمْكَنهم الإسراع حتى سبقوا إلى الماء.

ووقع في السِّير أن ما أصاب المشركين من ذلك المطر بعينه صعَّب عليهم طريقهم، [فسُرَّ المؤمنون][١] وتبينوا من فعل الله بهم ذلك قصد المعونة لهم، فطابت نفوسهم واجتمعت وتشجعت، فذلك الربط على قلوبهم وتثبيتُ الأقدام منهم على الرملة اللينة، فأمكنهم لحاق الماء قبل المشركين[٢].

قال القاضي أبو محمد: هذا أحد ما يحتمله قوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾، والضمير في ﴿بِهِ﴾ على هذا الاحتمال عائد على الماء.

ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿بِهِ﴾ على ربط القلوب، فيكون تثبيت الأقدام عبارةً عن النصر والمعونة في موطن الحرب، وبيِّنٌ أن الرابط الجأش تثبت قدمه عند مكافحة الهول.

قال القاضي أبو محمد: ونزول الماء كان في الزمن قبل تغشية النعاس، ولم يترتب ذلك في الآية إذ القصد فيها تعديدُ النعم فقط.

وحكى أبو الفتح أن الشعبي قرأ: (وينزِّل عليكم من السماء ما) ساكنة الألف (لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ) قال: وهي بمعنى الذي[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف.

وقرأ ابن المسيب: (ليُطْهِركم به) بسكون الطاء[٤].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الآية، العامل في ﴿إِذْ﴾ العامل الأول على ما تقدم فيما قبلها، ولو قدَّرناه قريباً لكان قولَه: ﴿وَيُثَبِّتَ﴾ على تأويل عود

---

(١) ساقط من الأصل، وهي في فيض الله ملحقة في الهامش وعليها تصحيح.

(٢) راجع سيرة ابن هشام (١/ ٦١٩).

(٣) انظر: المحتسب (١/ ٢٧٤)، وهي شاذة، و«الألف» ليس في التركية.

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٣).

الضمير على الربط، وأما على عوده على الماء فيقلق أن تعمل ﴿وَيُثَبِّتَ﴾ في ﴿إِذْ﴾ ووحي الله إلى الملائكة: إما بإلهام، أو بإرسال بعض إلى بعض.

وقرأ عيسى بن عمر بخلاف عنه: (إني معكم) بكسر الألف[١] على استئناف إيجاب[٢] القصة، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنِّي﴾ بفتح الألف على أنها معمولة لـ﴿يُوحِي﴾.

ووجه الكسر أن الوحي في معنى القول.

وقوله: ﴿فَثَبِّتُواْ﴾ يحتمل أن يكون بالقتال معهم على ما روي، ويحتمل بالحضور في حيزهم والتأنيس لهم بذلك، ويحتمل أن يريد: فثبِّتوهم بأقوال مُؤْنسة مقوِّية للقلب، وروي في ذلك أن بعض الملائكة كان في صورة الآدميين، فكان أحدهم يقول للذي يليه من المؤمنين: لقد بلغني أن الكفار قالوا: لئن حمل المسلمون علينا لننكشفن، ويقول آخر: ما أرى الغلبة والظفر[٣] إلا لنا، ويقول آخر: أقدِمْ يا فلان، ونحو هذا من الأقوال المثبِّتة[٤].

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أيضاً أن يكون التثبيت الذي أمر به: ما يلقيه الملك في قلب الإنسان بلَمَّته من توهُّم الظفر واحتقار الكفار، ويُجري عليه من خواطر تشجيعه، ويقوِّي هذا التأويلَ مطابقةُ قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ وإن كان إلقاء الرعب يطابق التثبيت على أيِّ صورة كان التثبيت، ولكنه أشبهُ بهذا إذ هي[٥] من جنس واحد.

قال القاضي أبو محمد: وعلى هذا التأويل يجيء قوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ

---

(١) وهي شاذة، عزاها له الكرماني في شواذ القراءات (ص: ٢٠٣).

(٢) في المطبوع والحمزوية: «إيجاد».

(٣) في نجيبويه: «والظهور».

(٤) راجع تفسير الطبري (١٣/ ٤٢٨)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٣٣).

(٥) في المطبوع: «هما».

كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ مخاطَبةً للملائكة، ثم يجيء قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ لفظُه لفظ الأمر ومعناه الخبر عن صورة الحال، كما تقول إذا وصفتَ حرباً لمن تخاطبه: لقينا القوم وهزمناهم فاضرب بسيفك حيث شئت واقتل وخذ أسيرك، أي: هذه كانت صفةَ الحال.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أن يكون ﴿سَأُلۡقِي﴾ إلى آخر الآية خبراً يخاطِب به المؤمنين عما يفعله في الكفار في المستقبل كما فعله في الماضي، ثم أمرهم بضرب الرقاب والبنان تشجيعاً لهم وحضّاً على نصرة الدين.

وقرأ الأعرج: ﴿الرُّعُب﴾ بضم العين[١]، والناسُ على تسكينها.

واختلف الناس في قوله: ﴿فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾:

فقال الأخفش: ﴿فَوۡقَ﴾ زيادة[٢]، وحكاه الطبري عن عطية أن المعنى: فاضربوا الأعناق[٣]، وقال غيره: هي[٤] بمعنى «على» / . [٢/ ١٩٦]

وقال عكرمة مولى ابن عباس: هي على بابها، وأراد الرؤوس؛ إذ هي فوق الأعناق[٥].

وقال المبرد: وفي هذا إباحة ضرب الكافر في الوجه[٦].

قال القاضي أبو محمد: وهذا التأويل أنبلها، ويحتمل عندي أن يريد بقوله: ﴿فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ وصف أبلغ ضربات العنق وأحكمِها، وهي الضربة التي تكون فوق عظم العنق ودون عظم الرأس في الـمَفْصِل.

ويَنظُر إلى هذا المعنى قول دريد بن الصمة [الجشمي لابن الدَّغِنة][٧] السلمي

---

(١) وهي سبعية، قرأ بها ابن عامر والكسائي كما في التيسير (ص: ٩١)، وقد تقدم.
(٢) راجع معاني القرآن له (١/ ٣٤٦).
(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٤٢٩).
(٤) من التركية.
(٥) تفسير الثعلبي (٤/ ٣٣٤)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٠١)، وتفسير أبن أبي حاتم (٧/ ٣٤).
(٦) مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٣١٢).
(٧) زيادة من المطبوع، وفي نجيبويه زيادة: «لربيعة بن رفيع»، وفي فيض الله: «للسلمي».

حين قال له: «خذ سيفي وارفع به عن العظم واخفض عن الدماغ، فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال»[١].

ومثله قول الشاعر:

[الوافر] جَعلْتُ السَّيْف بيْن الْجِيدِ مِنْهُ … وبيْن أَسيلِ خدَّيْهِ عِذاراً[٢]

فيجيء على هذا ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ متمكناً.

وقال ابن قتيبة: ﴿فَوْقَ﴾ في هذه الآية بمعنى دون[٣]، وهذا خطأ بين، وإنما دخل عليه اللبس من قوله تعالى: ﴿مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] أي: فما دونها.

قال القاضي أبو محمد: وليست ﴿فَوْقَ﴾ هنا بمعنى (دون)، وإنما المراد: فما فوقها في القلة والصغر، فأشبه المعنى (دون).

و«البَنان» [قالت فرقة: هي المفاصل حيث كانت من الأعضاء، فالمعنى على هذا: واضربوا منهم في كل موضع][٤]، وقالت فرقة: البنان الأصابع، وهذا هو القول الصحيح، فعلى هذا التأويل وإن كان الضرب في كل موضع مباحاً فإنما قصد أبلغ المواضع؛ لأن المُقاتل إذا قُطع بنانه استأسر ولم ينتفع بشيء من أعضائه في مكافحة وقتال.

قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا

---

(١) القصة أوردها ابن هشام كاملة في السيرة النبوية (٢/ ٤٥٣).

(٢) البيت لشمعلة، كما في العقد الفريد (٦/ ٤٣)، ونهاية الأرب للنويري (١٥/ ٢٨٩)، وفي بعض ألفاظه اختلاف.

(٣) قاله في آية البقرة، في أدب الكاتب (ص: ٢١١)، وتأويل مشكل القرآن (ص: ١٢٠)، وتابع المؤلف على نقله عنه هنا في البحر المحيط (٥/ ٢٨٦)، وفي زاد المسير (٢/ ١٩٤) عنه أنها هنا بمعنى على، وهو ظاهر كلامه في غريب القرآن (ص: ١٧٧).

(٤) سقط من التركية.

لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

هذا الخطاب للنبي ﷺ، والمؤمنون داخلون فيه بالمعنى، والضمير في (أَنَّهُمْ) عائد على ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

و﴿شَآقُّوا۟﴾ معناه: خالفوا ونابذوا وقطعوا، وهو مأخوذ من الشق وهو القطع والفصل بين شيئين، وهذه مفاعلة، فكأن الله لمَّا شَرَع شرعاً وأمر بأوامر، وكذَّبوا هم وصدوا، تباعد ما بينهم وانفصل وانشق، والشق مأخوذ من هذا لأنه مع شقه الآخر تباعَدَا وانفصلا.

وعبر المفسرون عن قوله: ﴿شَآقُّوا۟﴾ أي: صاروا في شِقٍّ غيرِ شِقِّه.

قال القاضي أبو محمد: وهذا وإن كان معناه صحيحاً، فتحرير الاشتقاق إنما هو ما ذكرناه، والمثال الأول إنما هو الشَّق بفتح الشين.

وأجمعوا على الإظهار في: ﴿يُشَاقِقِ﴾ إتْباعاً لخط المصحف.

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ جواب الشرط تضمن وعيداً وتهديداً.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ المخاطبة للكفار، أي: ذلكم الضرب والقتل وما أوقع الله بهم يوم بدر، فكأنه قال: الأمر ذلكم فذوقوه، وكذا فسره سيبويه[١].

وقال بعضهم: يحتمل أن يكون ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ في موضع نصب، كقوله: زيداً فاضربه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَنَّ﴾ بفتح الألف، فإما على تقدير: وحتمٌ أنَّ، فيقدَّر على ابتداء محذوف تكون (أنَّ) خبرَه[٢]، وإما على تقدير: واعلموا أنَّ، فهي على هذا في موضع نصب.

وروى سليمان عن الحسن بن أبي الحسن: (وإنَّ) على القطع[٣] والاستئناف.

(١) في الكتاب (٣/ ١٢٥).

(٢) في التركية هنا زيادة: «وقال سيبويه: التقدير: الأمر ذلكم».

(٣) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٣)، والكامل للهذلي (ص: ٣٨٥)، دون ذكر سليمان، وفي نجيبويه: «سليم».

وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا ﴾ الآية، ﴿ زَحْفًا ﴾ يراد به: متقابلي الصفوف والأشخاص، أي: يزحف بعضهم إلى بعض، وأصل الزحف: الاندفاع على الأَلْيَة، ثم سمي كلُّ ماش إلى آخر في الحرب رويداً زاحفاً، إذ في مشيته من التماهل والتباطؤ ما في مشي الزاحف، ومن الزحف الذي هو الاندفاع قولهم لنار العَرْفَج وما جرى مجراه في سرعة الاتقاد: نار الزحفتين، ومن التباطؤ في المشي قولُ الشاعر:

[البسيط] كَأَنَّهُنَّ بِأَيْدِي الْقَوْم في كَبَدٍ ... طيْرٌ تكشَّفُ عنْ جُونٍ مَزاحيف[1]

ومنه قول الفرزدق:

[البسيط] عَلى عَمائِمنا تُلْقَى وأَرْحلنا ... عَلى زواحفَ تُزْجَى، مُخُّها رِيرُ[2]

ومنه قول الآخر:

[الكامل] لِمَن الظَّعَائنُ سَيْرُهُنَّ تَزَحُّفُ[3] ... .

ومن التزحُّف بمعنى التدافع قول الهذلي [في صفة منهلٍ][4]:

[الوافر] كَأَنَّ مزاحِف الحيَّاتِ فيهِ ... قُبَيْل الصُّبْح آثارُ السِّيَاطِ[5]

وأمر الله عز وجل في هذه الآية أن لا يولي المؤمنون أمام الكفار، وهذا الأمر

---

(١) البيت لأبي زبيد كما في أمالي القالي (١/ ٢٩)، والصحاح للجوهري (٧/ ٢٢٣)، والمعاني الكبير (٣/ ١٢٠٤).

(٢) انظر عزوه له في مجاز القرآن (٢/ ٢٤١)، والعين (٣/ ١٦٣)، والشعر والشعراء (١/ ٩٠)، وطبقات فحول الشعراء (١/ ١٧)، وأشارا إلى قصة الرواية الأخرى: على زواحف نزجيها محاسير، وعليها درج في المطبوع، وانظر: خزانة الأدب للبغدادي (١/ ٢٣٨).

(٣) عجزه: «عوم السفين إذا تقاعس مجدف»، وهو لأعشى همدان كما في الأغاني (٦/ ٧٤)، والفرج بعد الشدة للتنوخي (٢/ ١٢٣).

(٤) زيادة من الحمزوية والتركية.

(٥) وهو المتنخل ابن عويمر، انظر عزوه له في جمهرة أشعار العرب (ص: ٤٨٥)، والأغاني (٢٤/ ٩٦)، والشعر والشعراء (٢/ ٦٤٧).

مقيد بالشريطة المنصوصة في مثلي المؤمنين، فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة هي ضعف المؤمنة من المشركين فالفرض أن لا يفروا أمامهم، فالفرار هناك كبيرة موبقة بظاهر القرآن والحديث، وإجماعِ الأكثر من الأمة، والذي يراعى العددُ حسب ما في كتاب الله عز وجل، وهذا قول جمهور الأمة.

وقالت فرقة منهم ابن الماجشون في الواضحة: يراعى أيضاً الضعفُ والقوة والعُدَّة[١]، فيجوز على قولهم أن تفر مئة فارس [أمام مئة فارس][٢] إذا علموا أن عند المشركين من العُدَّة والنجدة والبسالة ضعفُ ما عندهم، وأمام [أقل أو أكثر][٣] بحسب ذلك.

وأما على قول الجمهور فلا يحل فرار مئة إلا [أمام ما زاد][٤] على مئتين[٥].

والعبارة بالدُّبر في هذه الآية متمكِّنة الفصاحة، لأنها بشعة على الفار ذامة له.

وقرأ الجمهور: ﴿دُبُرَهُۥٓ﴾ بضم الباء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: (دبْره) بسكون الباء[٦].

واختلف المتأولون في المشار إليه بقوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ فقالت فرقة: الإشارة إلى يوم بدر وما وليه، وفي ذلك اليوم وقع الوعيد بالغضب على من فر، ونُسخ بعد ذلك حكم الآية بآية الضِّعف، وبقي الفرار من الزحف ليس بكبيرة، وقد فر الناس يوم أحد فعفا الله عنهم، وقال فيهم يوم حنين: ﴿ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] ولم يقع على ذلك تعنيف.

---

(١) انظر قول ابن الماجشون في النوادر (٣/ ٥٠).

(٢) ساقط من المطبوع ونجيبويه.

(٣) في الأصل: «قل أو كثر»، وفي نجيبويه: «أقل وأكثر».

(٤) ساقط من الأصل.

(٥) قال به جمهور المالكية كما في النوادر (٣/ ٥١)، والشافعية كما في حاشية عميرة (٤/ ٢١٩)، والحنابلة كما في المغني (٩/ ٢٥٤).

(٦) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٣)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٣٦).

قال القاضي أبو محمد: وقال الجمهور من الأمة: الإشارة بـ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إلى يوم اللقاء الذي يتضمنه قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ﴾ وحكم الآية باق إلى يوم القيامة بشرط الضِّعف الذي بيَّنه الله تعالى في آية أخرى، وليس في الآية نسخ، وأما يوم أحد فإنما فر الناس / من أكثر من ضعفهم ومع ذلك عنِّفوا لكون رسول الله ﷺ فيهم وفرارِهم عنه، وأما يوم حنين فكذلك مَن فر إنما انكشف أمام الكثرة، ويحتمل أن عفو الله عمن فر يوم أحد كان عفواً عن كبيرة. [٢/ ١٩٧]

و﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ يراد به: الذي يرى أن فعله ذلك أنكى للعدو وأَعْوَدُ عليه بالشر، ونصبه على الحال، وكذلك نصب ﴿مُتَحَيِّزًا﴾[(١)]، وأما الاستثناء فهو من المولِّين الذين يتضمنهم (مَنْ)، وقال قوم: الاستثناء هو من أنواع التولي.

قال القاضي أبو محمد: ولو كان ذلك لوجب أن يكون: إلا تحرفاً... وتحيزاً.

و«الفئة» هاهنا: الجماعة من الناس الحاضرةُ للحرب، هذا على قول الجمهور في أن الفرار من الزحف كبيرة[(٢)].

وأما على القول الآخر فتكون الفئة: المدينة والإمام وجماعة المسلمين حيث كانوا، روي هذا القول عن عمر رضي الله عنه، وأنه قال: أنا فئتكم أيها المسلمون[(٣)].

قال القاضي أبو محمد: وهذا منه على جهة الحيطة على المؤمنين، إذ كانوا في ذلك

---

(١) في نور العثمانية والسليمانية: «متحرفاً».

(٢) وهو مذهب المالكية كما في حاشية الدسوقي (٢/ ١٧٩)، وقد حكاه السمعاني في تفسيره عن الجمهور (٢/ ٢٥٤).

(٣) أسانيده لا تخلو من مقال، هذا الأثر أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٥٤٢-٥٤٩) والطبري (١٥٨١٤) من طريق سليمان التيمي، عن أبي عثمان قال: لما قتل أبو عبيد، جاء الخبر إلى عمر فقال: يا أيها الناس، أنا فئتكم. وأبو عثمان مجهول، وأخرجه عبد الرزاق (٥/ ٥٢٥) من طريق: أبي الزبير عن غير واحد أن عمر بن الخطاب قاله، وأخرجه الطبري أيضاً من طريق ابن المبارك، عن معمر وسفيان الثوري وابن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: قال عمر رضي الله عنه: أنا فئة كل مسلم. وهذا مرسل.

الزمن يثبتون لأضعافهم مراراً، [وفي «مسند ابن أبي شيبة»[(١)] من طريق عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال لجماعة فرت في سرية من سراياه: «أنا فئة المسلمين» حين قدموا عليه][(٢)].

وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اتقوا السبع الموبقات»، وعدد فيها الفرار من الزحف[(٣)].

و﴿بَآءَ﴾ بمعنى: نهض متحمِّلاً للثقل المذكور في الكلام، غضباً كان أو نحوه، والغضب من صفات الله عز وجل إذا أُخذ بمعنى الإرادة فهي صفةُ ذاتٍ، وإذا أخذ بمعنى إظهار أفعال الغاضب على العبد فهي صفةُ فعلٍ، وهذا المعنى أشبه بهذه الآية.

و«المأوى»: الموضع الذي يأوي إليه الإنسان.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

هذه مخاطبة للمؤمنين أعلم الله بها أن القتلة من المؤمنين ليسوا هم مستبدين بالقتل، [لأن القتل][(٤)] بالإقدار عليه، والخلق والاختراع في جميع حالات القاتل إنما

---

(١) هو أبو بكر بن أبي شيبة عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي مولاهم الكوفي الحافظ، روى عن شريك وهشيم وابن المبارك وابن عيينة وغندر وخلق، وعنه البخاري ومسلم وأبو داود وخلق، مات سنة (٢٣٥هـ). طبقات الحفاظ للسيوطي (ص: ١٩٢).

(٢) ساقط من التركية. وهي سرية مؤتة حين عيرهم الناس بالفرار، رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٣٦٨٦)، والحميدي في مسنده (٧٠٤)، وأحمد في مسنده (٢/ ٥٨، ٧٠، ٨٦، ١٠٠، ١١٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٢)، وأبو داود (٢٦٤٧)، والترمذي (١٧١٦)، وأبو يعلى في مسنده (٥٥٩٦-٥٧٨١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٩٠٠)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٧٦) وغيرهم من طريق يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن ابن عمر به، ويزيد بن أبي زياد ضعيف.

(٣) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) ساقط من المطبوع.

هي لله تعالى ليس للقاتل فيها شيء، وإنما يشاركه بتكسبه وقصده، وهذه الألفاظ تَرِدُ على من يقول بأن أفعال العباد خلقٌ لهم.

وسبب هذه الآية فيما روي: أن أصحاب رسول الله ﷺ لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل، فقال: قتلت كذا، وفعلت كذا، فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك، فنزلت الآية(١).

وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ يراد به ما كان رسول الله ﷺ فعله يومئذ، وذلك أنه أخذ قبضات من حصًى وتراب، فرمى بها في وجوه القوم وتلقاءهم ثلاث مرات فانهزموا عند آخر رمية، ويروى أنه قال يوم بدر: «شاهت الوجوه»(٢)، وهذه الفعلة أيضاً كانت يوم حنين بلا خلاف(٣)، وروي أن التراب الذي رمى به لم يبق كافر إلا دخل في عينيه منه شيء، وروي أنه رمى بثلاثة أحجار فكانت الهزيمة مع الحجر الثالث(٤).

قال القاضي أبو محمد: فيحتمل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ ما قلناه في قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾، وذلك منصوص في

---

(١) مرسل، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٣/ ٤٤٢) من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد مرسلاً.

(٢) ورد هذا من حديث: إبراهيم بن يحيى الشجري: ثني أبي، عن موسى بن يعقوب الزمعي، عن عبد الله بن يزيد مولى الأسود بن سفيان، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة، عن حكيم بن حزام به، أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٢٠٣)، والشجري وأبوه ضعيفان، والوالد كان يتلقن، ورواه: ابن إسحاق، قال: حدثنا يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، قال: حدثني الزهري، ومحمد ابن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، وغيرهم من علمائنا، فذكر الحديث في يوم بدر.. أخرجه البيهقي في الدلائل (٣/ ٧٨)، وليس هذا الإسناد بالحجة، وجمع الشيوخ وعدم تمييز رواية بعضهم من بعض مظنة الخلل، والله أعلم، والمحفوظ أن هذه العبارة قالها النبي ﷺ في غزوة حنين، كما سيأتي.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٧٧) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

(٤) مرسل، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٣/ ٤٤٤) من طريق سعيد عن قتادة مرسلاً.

الطبري وغيره[١]، وهو خارج في[٢] كلام العرب على معنى: وما رميت الرمي الكافي إذ رميت، ونحوُه قول العباس بن مرداس[٣]:

.... فَلَـمْ أُعْـطَ شـيئاً ولـمْ أُمْنَـعِ[٤] [المتقارب]

أي: لم أُعط شيئا مرضيّاً [وهذا كثير][٥].

ويحتمل أن يريد: وما رميت الرعب في قلوبهم إذ رميت حصياتك، ولكن الله رماه، وهذا أيضاً منصوص في المهدوي وغيره[٦]، ويحتمل أن يريد: وما أغنيت إذ رميت حصياتِكَ ولكن الله رمى، أي: أعانك وأظفرك، والعرب تقول في الدعاء: رمى الله لك، أي: أعانك وصنع لك، وحكى هذا أبو عبيدة في كتاب «المجاز»[٧].

وقرأت فرقة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ بتشديد النون، وفرقة: ﴿ولَكِنِ اللهُ﴾ بتخفيفها ورفع الهاء من ﴿اللهُ﴾[٨].

و(لِيُبْلِي) أي: ليصيبهم ببلاء حسن، فظاهر وصفه بالحسن يقتضي أنه أراد الغنيمة والظفر والعزة، وقيل: أراد الشهادة لمن استُشهد يوم بدر، وهم أربعة عشر رجلاً، منهم

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٤٤٢).

(٢) في المطبوع: «عن».

(٣) هو العباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة بن عبد قيس السلمي، شهد مع النبي ﷺ الفتح وحنيناً، وكان من المؤلفة قلوبهم، وله أبيات يتقالُّ فيها ما ناله من غنائم حنين، وكان شاعراً محسناً مشهوراً بذلك. الاستيعاب (٢/ ٨١٨)، والإصابة (٣/ ٥١٢).

(٤) صدر البيت: «وقد كنتُ في الحرب ذا تُدْرَإٍ»، انظر عزوه له في سيرة ابن هشام (٢/ ٤٩٤)، والشعر والشعراء (٢/ ٧٣٦).

(٥) زيادة من التركية.

(٦) التحصيل للمهدوي (٣/ ١٦٤).

(٧) مجاز القرآن (١/ ٢٤٤).

(٨) وهما سبعيتان، والثانية لابن عامر وحمزة والكسائي، انظر: التيسير (ص: ٧٥).

عبيدة بن الحارث بن المطلب[(١)] ومِهْجَع مولى عمر[(٢)]، ومعاذ وعمرو ابنا عفراء[(٣)]، وغيرهم[(٤)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لاستغاثتكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجه الحكمة في جميع أفعاله [لا إله إلا هو][(٥)].

وحكى الطبري: أن المراد بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾: رميُ رسول الله ﷺ الحربة على أبي بن خلف يوم أحد[(٦)].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف؛ لأن الآية نزلت عقب بدر، وعلى هذا القول تكون أجنبيةً مما قبلها وما بعدها وذلك بعيد.

وحكي أيضاً أن المراد السهم الذي رمى به رسول الله ﷺ في حصن خيبر فصار في الهويِّ حتى أصاب ابن أبي الحقيق فقتله وهو على فراشه[(٧)]، وهذا فاسد، وخيبر فتحُها بعد

---

(١) هو عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف القرشي المطَّلبي، أسلم قديماً هو وأخواه، وكان رأس بني عبد مناف حينئذ، وكان مع النبيّ ﷺ بمكة، ثم هاجر، وشهد بدراً، وبارز فيها واستشهد. الإصابة (٤/ ٣٥٢).

(٢) هو مهجع [بن صالح] العكّي مولى عمر بن الخطاب، قال ابن هشام: أصله من عك، فأصابه سباء فمنَّ عليه عمر فأعتقه، وكان من السّابقين إلى الإسلام، وشهد بدراً، واستشهد بها، وكان أول من قتل ذلك اليوم. الإصابة (٦/ ١٨٢).

(٣) الصواب أن ابني عفراء اللذين استشهدا يومئذ هما عوف ومعوذ كما في سيرة ابن هشام (١/ ٧٠٨)، انظر ترجمة معوذ في الإصابة (٦/ ١٥٢)، وعوف فيها (٤/ ٦١٤)، ويقال فيه: عوذ، وأبوهما الحارث ابن رفاعة بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك بن النجار الأنصاريُّ الخزرجيُّ، قال في الاستيعاب (٣/ ١٤٠٨): قتل عوف ومعوذ ببدر شهيدين، وشهد معاذ بعدَ بدر أحداً، والخندق والمشاهد كلها في قول بعضهم، وذكر أنه عاش إلى زمن عثمان، وقيل: مات في خلافة علي، وأما عمرو فلا ذكر له فيهم أصلاً.

(٤) وعددهم أربعة عشر، انظر أسماءهم في سيرة ابن هشام (١/ ٧٠٨).

(٥) ساقط من الأصل ومن نجيبويه.

(٦) مرسل، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٣/ ٤٤٦) من طريق معمر، عن الزهري مرسلاً.

(٧) غريب، هذا الأثر روي عن عبد الرحمن بن جبير من قوله، واستغربه ابن كثير في التفسير (٢/ ٢٩٧) وقال: «سياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم».

أحد بكثير، والصحيح في قتل ابن أبي الحقيق غير هذا، فهذان القولان ضعيفان لما ذكرناه.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من قتل الله ورميه إياهم، وموضع ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ من الإعراب رفع، قال سيبويه: التقدير: الأمر ذلكم[١]، وقال بعض النحويين: يجوز أن يكون في موضع نصب بتقدير: فَعَلَ ذلك[٢].

و(أَنَّ) معطوف على ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾، ويحتمل أن يكون خبرَ ابتداءٍ مقدَّرٍ تقديره: وحتمٌ وسابقٌ وثابتٌ ونحو هذا.

وقرأت فرقة: (وإن) بكسر الهمزة[٣] على القطع والاستئناف.

و﴿مُوهِنُ﴾ معناه: مضعف مبطل، يقال: وهَن الشيء، مثل وعد يَعِدُ، ويقال: وهِن يهِن[٤]، مثل ولي يلي، وقرئ: (فَما وَهِنُوا لِما أَصابَهُمْ) [آل عمران: ١٤٦][٥] بكسر الهاء.

وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: ﴿مُوهِنٌ كَيدَ﴾ من أوهن، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ﴿موَهِّنٌ كيدَ﴾ من وهن، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾ بكسر الدال والإضافة[٦]، وذكر الزجّاج أن فيها أربعة أوجه فذكر هذه القراءات الثلاث، وزاد: (موهِّنُ كيدِ) بتشديد الهاء والإضافة، إلا أنه لم ينص أنها قراءة[٧].

قوله عز وجل: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

---

(١) الكتاب (٣/ ١٢٥).

(٢) «ذلك» ليست في المطبوع.

(٣) شاذة، لم أجد من ذكرها، وانظر ما في الشواذ للكرماني (ص: ٢٠٣) عن الحسن.

(٤) «يهن» ليست في المطبوع.

(٥) هي قراءة الحسن كما في المحتسب (١/ ١٧٤).

(٦) وكلها سبعية، انظر: التيسير (١/ ١١٤)، والسبعة (ص: ٣٠٤).

(٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٠٧).

قال بعض المتأولين: هذه الآية مخاطبة للمؤمنين الحاضرين يوم بدر، قال الله لهم: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ [أي: تطلبوا الفتح][1] ـ وهو الحكم بينكم وبين الكافرين ـ فقد جاءكم، وقد حكم الله لكم، وإن تنتهوا عما فعلتم من الكلام في أمر الغنائم وما شجر بينكم فيها، وعن تفاخركم بأفعالكم من قتلٍ وغيره فهو خيرٌ لكم، وإن تعودوا لهذه الأفعال نعد لتوبيخكم، ثم أعلمهم أن الفئة وهي الجماعة لا تغني وإن كثرت إلا بنصر الله تعالى ومعونته، ثم آنسهم بقوله وإيجابه أنه مع المؤمنين.

وقال أكثر المتأولين: هذه الآية مخاطبة للكفار أهل مكة، وذلك أنه روي أن أبا جهل كان يدعو أبداً في محافل قريش، ويقول: اللهم أقطعُنا للرحم وآتانا بما لا يُعرف فأهلكه واجعله المغلوب، يريد محمداً ﷺ وإياهم[2]، وروي أن قريشاً لما عزموا على الخروج إلى حماية العير تعلقوا بأستار الكعبة واستفتحوا.

وروي أن أبا جهل قال صبيحة يوم بدر: اللهم انصر أحب الفئتين إليك، وأظهر خير الدينين عندك، اللهم أقطعُنا للرحم فأَحِنْه الغداة[3]، ونحو هذا، فقال لهم الله: إن تطلبوا الفتح [فقد جاءكم][4]، أي: كما ترونه عليكم لا لكم.

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا توبيخ، ثم قال لهم: ﴿ وَإِن تَنتَهُواْ ﴾، عن كفركم وغيّكم ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾، ثم أخبرهم أنهم إن عادوا للاستفتاح عاد بمثل الوقعة يوم بدر عليهم، ثم أعلمهم أن فئتهم لا تغني شيئاً وإن كانت كثيرة، ثم أعلمهم أنه مع المؤمنين.

---

(١) أكمل في المطبوع الآية بذكر: الفتح، وسقط منه ما بين القوسين، والمعنى ثابت في الحمزوية.

(٢) مرسل صحابي صغير، هذا الحديث أخرجه أحمد (٥/ ٤٣١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦٣١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٨) وغيرهم من طريق الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعير به، وعبد الله قيل: له رؤية فقط وهو صغير.

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ٩٢) من قول الضحاك، و«أحنه» أي: أهلكه، من الحَيْن وهو الموت.

(٤) ساقط من المطبوع.

وقالت فرقة من المتأولين: قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾، هي مخاطَبة للمؤمنين، وسائر الآية مخاطبة للمشركين، كأنه قال: وأنتم أيها الكفار إن تنتهوا فهو خير لكم.

وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر وأبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿وإنَّ الله﴾ بكسر الهمزة على القطع، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص: ﴿وَأَنَّ﴾ بفتح الألف[1]، فإما أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداء محذوف، وإما في موضع نصب بإضمار فعل.

وما ذكره الطبري من أن التقدير: لكثرتها ولأن الله مع المؤمنين، محتمل المعنى.

وفي قراءة ابن مسعود: (ولو كثرت والله مع المؤمنين)[2] وهذا يقوي قراءة من كسر الألف من (إنَّ).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية، الخطاب للمؤمنين المصدِّقين، جدِّد عليهم الأمر بطاعة الله والرسول ونُهوا عن التولي عنه، وهذا قول الجمهور، ويكون هذا متناصراً مع قول من يقول: إن الخطاب بقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ هو للمؤمنين، فيجيء الكلام من نمط واحد في معناه.

وأما على قول من يقول: إن المخاطبة بقوله: (إن تنتهوا) هي للكفار، فيرى أن هذه الآية إنما نزلت بسبب اختلافهم في النفل ومجادلتهم في الحق، وكراهيتهم خروجَ رسول الله ﷺ، وتفاخُرِهم بقتل الكفار والنكاية فيهم.

وقالت فرقة: الخطاب بهذه الآية إنما هو للمنافقين، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط.

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٤)، والسبعة (ص: ٣٠٥).

(٢) وهي شاذة، انظر: كتاب المصاحف (ص: ١٧٧)، والحجة لابن خالويه (١/ ١٧٠)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٤١).

قال القاضي أبو محمد: وهذا وإن كان محتملاً على بُعدٍ فهو ضعيف[١] جدّاً، لأجل أن الله وصف من خاطب في هذه الآية بالإيمان، والإيمان التصديق، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء.

وقيل: إن الخطاب لبني إسرائيل، وهذا أجنبي من الآية.

و﴿تَوَلَّوْا﴾ أصله: تتولوا؛ لأن تفعل دخلت عليه تاء المخاطب بالفعل المستقبل فحذفت الواحدة، والمحذوفة هي تاء تَفعَّل، والباقية هي تاء العلامة، لأن الحاجة إليها هنا أمسُّ ليبقى الفعل مستقبلاً.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ يريد دعاءه لكم بالقرآن والمواعظ والآيات، وقوله: ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا﴾ يريد الكفار، فإما من قريش لقولهم: ﴿سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ [الأنفال: ٨]، وإما الكفار على الإطلاق الذين يقولون: سمعنا القرآن وعلمنا أنه سحر أو شعر وأساطير بحسب اختلافهم.

ثم أخبر الله عنهم خبراً نفى به أنهم سمعوا؛ أي: فهموا ووعوا، لأنه لا خلاف أنهم كانوا يسمعون التلاوة بآذانهم ولكن صدورهم مطبَقة لم يشرحها الله عز وجل لتلقي معاني القرآن والإيمان به.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)﴾.

المقصود بهذه الآية أن يبين أن هذه الصنيفة العاتية من الكفار هي شر الناس عند الله عز وجل، وأنها في أخس المنازل لديه، وعبر بالدَّوَابِّ ليتأكَّدَ ذمُّهم، وليفضِّل عليهم

---

(١) في نجيبويه: «بعيد».

الكلب العقور والخنزير ونحوهما من السباع[١]، والخمسُ الفواسقُ وغيرها.

و﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾ كل ما دب، فهو جميع الحيوان بجملته.

وقوله: ﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ﴾ عبارة عما في قلوبهم وقلةِ انشراح صدورهم وإدراك عقولهم، فلذلك وصفهم بالصمم والبكم وسلب العقل، وروي أن هذه الآية نزلت في طائفة من بني عبد الدار[٢]، وظاهرها العموم فيهم وفي غيرهم ممن اتصف بهذه الأوصاف.

ثم أخبر تعالى بأن عدم سمعهم وهداهم إنما هو بما علمه الله منهم وسبق من قضائه عليهم، فخرج ذلك في عبارة بليغة في ذمهم في قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾؛ والمراد: / لأسمعهم إسماع تفهيم وهدًى، ثم ابتدأ عز وجل الخبر عنهم [٢/ ١٩٨] بما هم عليه من حتمه عليهم بالكفر فقال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي: ولو أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ بحكم القضاء السابق فيهم ولأعرضوا عما تبيَّن لهم من الهدى، وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: «المعنيُّ بهذه الآية المنافقون»، وضعفه الطبري[٣]، وكذلك هو ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآية، هذا الخطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف، و﴿ٱسْتَجِيبُوا۟﴾ بمعنى: أجيبوا، ولكن عُرْف الكلام أن يتعدى استجاب بلام ويتعدى أجاب دون لام، وقد يجيء تعدي استجاب بغير لام، والشاهد قول الشاعر:

[الطويل] وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَى ... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيب[٤]

---

(١) في المطبوع وأكثر النسخ: «السبع»، وفي التركية: «السبعة»، وسقطت منها «الخمس»، والمثبت من فيض الله.

(٢) روي من طرق عن مجاهد قال: قال ابن عباس، أخرجها الطبري (١٣/ ٤٦٠).

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٤٦٣).

(٤) تقدم، في تفسير الآية (١٧) من سورة البقرة.

وقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال مجاهد والجمهور: المعنى: للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهٍ[١]، وهذا إحياء مستعار لأنه من موت الكفر والجهل. وقيل: الإسلام، وهذا نحو الأول، ويضعَّف من جهةِ أن من آمن لا يقال له: ادخل في الإسلام.

وقيل: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ معناه: للحرب وجهاد العدو، وهو يحيي بالعزة والغلبة والظفر، فسمي ذلك حياة، كما تقول: حييتْ حالُ فلان: إذا ارتفعت، ويُحيي[٢] أيضاً كما يُحيي الإسلام والطاعة وغير ذلك بأنه يؤدي إلى الحياة الدائمة في الآخرة.

وقال النقاش: المراد: إذا دعاكم للشهادة[٣].

قال القاضي أبو محمد: فهذه صلة حياة الدنيا بحياة الآخرة.

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ يحتمل وجوهاً:

ومنها: أنه لما أمرهم بالاستجابة في الطاعة حضهم على المبادرة والاستعجال، فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ بالموت والقبض، أي: فبادروا بالطاعات، ويلتئم مع هذا التأويل قوله: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، أي: فبادروا بالطاعات وتزودوها ليوم الحشر.

ومنها: أن يقصد بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ إعلام أن قدرة الله وإحاطته وعلمه والجةٌ بين المرء وقلبه، حاصلة هناك حائلة بينه وبين قلبه.

قال القاضي أبو محمد: فكأن هذا المعنى يحض على المراقبة والخوف لله المطلع على الضمائر، ويشبه على هذا التأويل هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، حكي هذا التأويل عن قتادة[٤].

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٤٦٤)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٠٧)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٤٢).

(٢) في نجيبويه: «وتجيء».

(٣) لم أقف عليه.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٤٧١)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٤٣)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٠٨).

ويحتمل أن يريد تخويفهم إن لم يمتثلوا الطاعات ويستجيبوا لله وللرسول بما حل بالكفار الذين أرادهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، لأن حتمه عليهم بأنهم لو سمعوا وفهموا لم ينتفعوا يقتضي أنه قد كان حال بينهم وبين قلوبهم، فكأنه قال للمؤمنين في هذه الأخرى: استجيبوا لله وللرسول ولا تأمنوا إن لم تفعلوا أن ينزل بكم ما نزل بالكفار من الحول [بينهم وبين قلوبهم][1]، فنبه على ما جرى على الكفار بأبلغ عبارة وأعلقها بالنفس.

ومنها: أن يكون المعنى ترجيةً لهم بأن الله يبدل الخوف الذي في قلوبهم من كثرة العدو فيجعله جرأة وقوة، وبضد ذلك الكفار، فإن الله هو مقلِّب القلوب، كما كان قَسَمُ النبي ﷺ[2]، قال بعض الناس: ومنه: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، أي: لا حول عن[3] معصيةٍ ولا قوة على طاعة إلا بالله.

وقال المفسرون في ذلك أقوالاً هي أجنبية من ألفاظ الآية حكاها الطبري، منها: أن الله يحول بين المؤمن [والكفر، وبين الكافر] والإيمان، ونحو هذا[4].

وقرأ ابن أبي إسحاق: (بين المِرء) بكسر الميم، ذكره أبو حاتم[5].

قال أبو الفتح: وقرأ الحسن والزهري: (بين المَرِّ) بفتح الميم وشد الراء المكسورة[6].

و﴿تُحْشَرُونَ﴾ أي: تبعثون يوم القيامة.

---

(١) في نجيبويه: «بينكم وبين قلوبكم».

(٢) صحيح، هذا الحديث أخرجه البخاري (٧٣٩١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) في المطبوع: «على»، وأشار في هامش فيض الله إلى نسخة أخرى فيها: «لا حول عن معصيتك، ولا قوة على طاعتك».

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ٤٧٢)، وهذا لفظه، وفي المطبوع: «والكافر وبين الكفر».

(٥) وهي شاذة، انظرها في البحر المحيط (٥/ ٣٠٣)، وفي مختصر الشواذ (ص: ٢٠٤) عنه ضمُّ الميم.

(٦) كذا في السليمانية وفيض الله: «الزهري»، وهو الموافق لما في المحتسب (١/ ٢٧٦)، والبحر المحيط (٥/ ٣٠٣)، وهي شاذة، وفي المطبوع وباقي النسخ: «الزبيدي».

وروي من طريق مالك بن أنس والنسائي[1] أن رسول الله ﷺ دعا أبيَّ بن كعب وهو في الصلاة فلم يجب وأسرع في بقية صلاته، [فلما فرغ جاءه، فقال][2] له رسول الله ﷺ: «أما سمعت فيما يوحى إلي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾»، فقال أبيٌّ: لا جرم يا رسول الله، لا تدعوني أبداً إلا أجبتك، الحديث بطوله واختلاف ألفاظه[3].

وفي البخاري ومسلم أن ذلك وقع مع أبي سعيد بن المعلّى[4].

وروي أنه وقع نحوه مع حذيفة بن اليمان في غزوة الخندق[5].

---

(١) ساقط من نجيبويه.

(٢) في المطبوع: «فلما جاءه قال».

(٣) في إسناده اضطراب، وهذه العبارة غير محفوظة فيه، رواه بهذا اللفظ: خالد بن مخلد القطواني، حدثني محمد بن جعفر بن أبي كثير وهو أخو إسماعيل، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: مر رسول ﷺ على أبي بن كعب وهو قائم يصلي، أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٢٥٣) ثم قال: ورواه عبد الحميد بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي ابن كعب بمعناه فى قصة «الفاتحة» دون قصة الإجابة، ورواه جهضم بن عبد الله عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة، وخالفهم مالك بن أنس فرواه عن العلاء عن أبي سعيد مولى عامر بن كريز أن رسول الله ﷺ قال لأبي بن كعب، فذكره مرسلاً، ورواه ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. اهـ، ورواه الترمذي (٢٨٧٥) من طريق عبد العزيز الدراوردي، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٥١) من طريق روح بن القاسم، وابن خزيمة (٢/ ٣٧) من طريق روح وحفص بن ميسرة مفرَّقين، جميعاً عن العلاء به، وليس فيه عبارة: «لا جرم لا تدعوني إلا أجبتك»، والحديث قد اختلف في إسناده اختلافاً كثيراً، ومختصراً ومطولاً، ومداره على العلاء بن عبد الرحمن، يراجع العلل للدارقطني (٩/ ١٤) والمحفوظ في هذا الحديث ما يأتي.

(٤) صحيح، أخرجه البخاري (٤٤٧٤) من حديث أبي سعيد بن المعلى، ولم يخرجه مسلم، قال في الإصابة (٧/ ١٤٧): أبو سعد بن أوس بن المعلَّى بن لوذان بن حارثة بن عدي الأنصاري الأوسي، ويقال: اسمه الحارث، توفي سنة (٩٤هـ).

(٥) لم أقف عليه.

قوله عز وجل: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

هذه الآية تحتمِل تأويلات، أسبقُها إلى النفس أن يريد الله أن يحذِّر جميع المؤمنين من فتنة إن أصابت لم تخص الظَّلَمة فقط، بل تصيب الكل من ظالم وبريء.

وهذا التأويلَ تأول فيها الزبيرُ بن العوام رضي الله عنه، فإنه قال يوم الجمل: وما علمت أنّا أُرِدنا بهذه الآية إلا اليوم، وما كنت أظنها إلا فيمن خوطب بها ذلك الوقت[(١)].

وكذلك تأول الحسن البصري، فإنه قال: هذه الآية في علي وعمار وطلحة والزبير[(٢)].

وكذلك تأول ابن عباس، فإنه قال: أمر الله المؤمنين في هذه الآية أن لا يُقروا المنكر بين أظهرهم فيعمَّهم العذاب[(٣)]، وبيَّنه القتبي فيما ذكر مكي عنه بياناً شافياً[(٤)].

قال القاضي أبو محمد: فيجيء قوله: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ على هذا التأويل صفة لـ﴿فِتْنَةً﴾، فكان الواجب إذا قدرنا ذلك أن يكون اللفظ: «لا تصيب»، وتلطف لدخول النون الثقيلة في الخبر عن الفتنة، فقال الزجّاج: زعم بعض النحويين أن الكلام جزاء[(٥)] فيه طرفٌ من النهي، قال: ومثله قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾

---

(١) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٣/ ٤٧٤) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٢) من طريق قبيصة ثنا سفيان، عن أبي شعيب الصلت بن دينار، عن عقبة بن صهبان قال: سمعت الزبير، به. قبيصة ضعف في الثوري، والصلت متروك.

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٤٧٣)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٤٤).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ٤٧٤) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٤) الهداية لمكي (٤/ ٤٧٢٩).

(٥) في التركية ونجيبويه وجار الله وأحمد٣ ونور العثمانية: «أن الكلام جرى»، وفي الأسدية: «أن الكلام خبر»، والمثبت من الأصل والمطبوع، وهو الموافق لما في معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤١٠).

[النمل: ١٨] [فالمعنى: إن تدخلوا لا يحطمنكم][(١)] فكذلك هذا: إِن تَتَّقُوا لا تُصِيبَنَّ، وقال قوم: هو خبر بمعنى الجزاء فلذلك أمكن دخول النون.

[٢/ ١٩٩] وقال المهدوي: وقيل: هو جواب قسم / مقدر تقديره: واتقوا فتنة والله لا تصيبن، ودخلت النون مع (لا) حملاً على دخولها مع اللام فقط[(٢)].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا القول تكرُّهٌ، لأن جواب القسم إذا دخلته «لا» أو كان منفيًّا في الجملة لم تدخل النون، وإذا كان موجَباً دخلته اللام والنون الشديدة، كقوله: والله [لا يقوم زيد، والله][(٣)] ليقومن زيد، هذا هو قانون الباب، ولكن معنى هذه الآية يستقيم مع التكره الذي ذكرناه.

والتأويل الآخر في الآية هو أن يكون قوله: ﴿وَٱتَّقُواْفِتۡنَةً﴾ خطاباً عامّاً لجميع المؤمنين مستقلّاً بنفسه تم الكلام عنده ثم ابتدأ نهي الظلمة خاصةً عن التعرض للظلم فتصيبهم الفتنة خاصة، وأخرج النهي على جهة المخاطبة للفتنة [فهو نهي محوَّل][(٤)]، والعرب تفعل هذا كما قالوا: لا أَرَينَّكَ هاهنا، يريدون: لا تُقِمْ هاهنا فتقعَ مني رؤيتُك، ولم يريدوا نهي الإنسان الرائي نفسَه، فكذلك المراد في الآية: لا يقعْ من ظَلَمتكم ظلمٌ فتقعَ في الفتنة إصابتُهم، نحا إليه الزجّاج، وهو قول أبي العباس المبرد، وحكاه النقاش عن الفراء[(٥)].

ونهي الظلمة هاهنا بلفظ مخاطبة الجمع كما تقول لقوم: لا يفعلْ سفهاؤكم كذا وكذا، وأنت إنما تريد نهي السفهاء فقط.

و﴿خَآصَّةً﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: إصابةً خاصةً، فهي نصب على

---

(١) ساقط من الأسدية ونور العثمانية وجار الله.

(٢) التحصيل للمهدوي (٣/ ١٨٢).

(٣) ساقط من التركية.

(٤) في الأسدية: «فهي نهي قول».

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤١٠).

الحال لما انحذف المصدر، وهي من الضمير في ﴿تُصِيبَنَّ﴾ وهذا الفعل هو العامل.

ويحتمل أن تكون ﴿خَآصَّةً﴾ حالاً من الضمير في ﴿ظَلَمُواْ﴾ ولا يحتاج إلى تقدير مصدر محذوف، والأول أمكن في المعنى.

وقرأ علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبو جعفر محمد بن علي والربيع بن أنس وأبو العالية وابن جَـمَّاز: (لَـتُصيبن)[1] باللام على جواب قسم، والمعنى على هذا وعيد الظلمة فقط.

قال أبو الفتح: يحتمل أن يراد بهذه القراءة: «لا تصيبن» فحذف الألف من «لا» تخفيفاً واكتفاء بالحركة، كما قالوا: أَمَ والله، ويحتمل أن يراد بقراءة الجماعة ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ لتصيبن، فمطلت حركة اللام فحدثت[2] عنها ألف.

قال القاضي أبو محمد: وهذا تنطُّع في التحميل[3].

وحكى النقاش هذه القراءة عن الزبير بن العوام، وهذا خلاف لما حكى الطبري وغيره من تأويل الزبير في الآية.

وحكى النقاش عن ابن مسعود أنه قرأ: (واتقوا فتنةً أن تصيبَ)[4].

وقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وعيد يلتئم مع تأويل الزبير والحسن التئاماً حسناً، ويلتئم مع سائر التأويلات بوجوه مختلفة.

وروي عن علي بن سليمان الأخفش أن قوله: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ هي: لا يصيبن، على معنى الدعاء، ذكره الزهراوي[5].

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لهم مع التوجيه في المحتسب (١/ ٢٧٦) والمتواتر من رواية ابن جماز ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ كقراءة الجماعة.

(٢) في التركية: «فحدث»، وفي الأسدية وأحمد٣: «فحذفت عنها اللام».

(٣) في الأسدية: «العمل»، وفي نور العثمانية: «التحصيل»، وفي أحمد٣: «وهذا يتضح»، بدل «تنطع».

(٤) وهي قراءة شاذة. انظر: البحر المحيط (٥ / ٣٠٥)، وذكرها ابن العربي في الأحكام (٢ / ٣٩٢) بلا نسبة.

(٥) لم أقف عليه، والذي في معاني القرآن للأخفش (١/ ٣٤٧) أنه ليس بجواب ولكنه نَهْيٌ بعدَ أمر.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ الآية، هذه آية تتضمن تعديد[١] نعم الله تعالى على المؤمنين، و﴿إِذْ﴾ ظرف لمعمول ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾، تقديره: [﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾ حالكم الكائنة أو الثابتة][٢] ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾، ولا يجوز أن تكون ﴿إِذْ﴾ ظرفاً للذكر، وإنما يعمل الذكر في ﴿إِذْ﴾ لو قدرناها مفعولة.

واختلف الناس في الحال المشار إليها بهذه الآية، فقالت فرقة هي الأكثر: هي حال مكة في وقت بداءة الإسلام، والناس الذين يُخاف تخطُّفُهم كفار مكة، و«المأوى» على هذا التأويل المدينة والأنصار، و«التأييد بالنصر» وقعة بدر وما انجر معها في وقتها، و﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الغنائم وسائر ما فتح الله عليهم به، وقالت فرقة: الحال المشار إليها هي حال رسول الله ﷺ [وأصحابه في غزوة بدر، والناس الذين يخاف تخطفهم على هذا عسكر مكة وسائر القبائل المجاورة، فإن رسول الله ﷺ][٣] كان يتخوف من بعضهم، و«المأوى» على هذا المدينةُ[٤]، و«التأييد بالنصر» هو الإمداد بالملائكة والتغليبُ على العدو، و﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الغنيمة.

قال القاضي أبو محمد: وهذان قولان يناسبان وقت نزول الآية؛ لأنها نزلت عقب بدر. وقال وهب بن منبه وقتادة: الحال المشار إليها حال العرب قاطبة، فإنها كانت أعرى الناس أجساماً وأجوعهم بطوناً وأقلهم رجالاً[٥] ونعما، والناس الذين يخاف تخطفهم على هذا التأويل: فارس والروم[٦]، والمأوى على هذا هو النبوءة والشريعة، والتأييد بالنصر هو فتح البلاد وغلبة الملوك، والطَّيِّبات هي نعم المآكل والمشارب والملابس.

قال القاضي أبو محمد: وهذا التأويل يرده أن العرب كانت في وقت نزول هذه

---

(١) ساقطة من الأسدية، وفي نجيبويه: «تقرير».

(٢) ساقط من الأسدية.

(٣) ساقط من التركية.

(٤) «المدينة»: زيادة من جار الله.

(٥) في الأصل ونجيبويه: «حالا».

(٦) تفسير الطبري (١٣/ ٤٧٨) بتصرف.

الآية كافرة إلا القليل، ولم تترتب الأحوال التي ذكر هذا المتأول، وإنما كان يمكن أن يخاطب العرب في هذه الآية في آخر زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنْ تمثَّلَ أحد بهذه الآية لحالة العرب فتمثُّله صحيح، وأما أن تكون حالة العرب هي سببَ الآية فبعيد لما ذكرناه.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ترجٍّ بحسب البشر متعلق بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾.

هذا خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة، وهو يجمع أنواع الخيانات كلها قليلها وكثيرها، قال الزهراوي: والمعنى: لا تخونوا بغُلول الغنائم[١].

وقال الزهري وعبدالله بن أبي قتادة: سبب نزولها أمر أبي لبابة[٢]، وذلك أنه أشار لبني قريظة حين سفر إليهم إلى حلقه، يريد بذلك إعلامهم أنه ليس عند رسول الله ﷺ إلا الذبح، أي: فلا تنزلوا، ثم ندم وربط نفسه بسارية من سواري المسجد حتى تاب الله عليه، الحديث المشهور، وحكى الطبري أنه أقام سبعة أيام لا يذوق شيئاً حتى تيب عليه[٣].

وحكي أنه كان لأبي لبابة عندهم مال وأولاد، فلذلك نزلت: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) مرسلان، خبر الزهري رواه الطبري (١٣/ ٤٨١) من طريق أبي سفيان المعمري، عن معمر، عنه، به. وخبر عبد الله بن أبي قتادة رواه الطبري (١٣/ ٤٨٢) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٤) من طريق ابن عيينة قال: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، قال: سمعت عبد الله، به، وفي جار الله والمطبوع: «الزهراوي»، بدل «الزهري»، وفي التركية والأسدية: «ابن قتادة»، دون الكنية.

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٤٨١-٤٨٢).

أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، وقال طاوس وعطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله: سببها أن رجلاً من المنافقين كتب إلى أبي سفيان بن حرب بخبر من أخبار رسول الله ﷺ فنزلت الآية[1].

[٢/ ٢٠٠] فقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ معناه: أظهَروا الإيمان / ، ويحتمل أن يخاطب المؤمنين حقّاً أن لا يفعلوا فعل ذلك المنافق، وحكى الطبري عن المغيرة بن شعبة أنه قال: أنزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه[2].

قال القاضي أبو محمد: يشبه أن يمثَّل بالآية في قتل عثمان رحمه الله، فقد كانت خيانة لله وللرسول والأمانات، و«الخيانة»: التنقُّص للشيء باختفاء، وهي مستعملة في أن يفعل الإنسان خلاف ما ينبغي من حفظ أمرٍ مَّا، مالاً كان أو سرّاً، أو غير ذلك.

والخيانة لله تعالى هي في تنقص أوامره في سر، وخيانة الرسول: تنقص ما استحفظ، وخيانات الأمانات هي تنقصها وإسقاطها.

و«الأمانة»: حال للإنسان يؤمَن بها على ما استُحفظ، فقد اؤتمن على دينه وعبادته وحقوق الغير، وقيل: المعنى: وتخونوا ذوي أماناتكم، وأظن الفارسي أبا علي حكاه.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: يريد أن ذلك لا يضر منه إلا ما كان عن تعمد.

وقوله: ﴿فِتْنَةٌ﴾ يريد: محنة واختباراً وابتلاء ليرى كيف العمل في جميع ذلك.

وقوله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يريد: [فوز الآخرة][3]، فلا تَدَعوا حظكم منه للحيطة على أموالكم وأبنائكم، فإن المدخور للآخرة أعظم قَدْراً من مكاسب الدنيا.

(١) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٣/ ٤٨٠) من طريق شبابة بن سوار قال: حدثنا محمد بن المحرم قال: لقيت عطاء، به، ومحمد متروك منكر الحديث، وذكرُ «طاوس» زيادة من الأسدية.
(٢) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٣/ ٤٨٢) من طريق يونس بن الحارث الطائفي، وهو ضعيف.
(٣) ساقطة من التركية.

وقوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ﴾ قال الطبري: يحتمل أن يكون داخلاً في النهي، كأنه[١] قال: لا تخونوا الله والرسول، ولا تخونوا أماناتكم، فمكانه على هذا جزمٌ[٢].

ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ فذلك خيانة لأماناتكم، فموضعه على هذا نصب على تقدير: وأن تخونوا أماناتكم، كما قال الشاعر:

لا تَنْـهَ عـن خلُـق وتأتـيَ مثلَـه ... عـارٌ عليـك إذا فعلـتَ عظيمُ[٣] [الكامل]

وقرأ مجاهد وأبو عمرو بن العلاء فيما روي عنه أيضاً: (وتخونوا أمانتكم)[٤] على إفراد الأمانة.

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية، وعد للمؤمنين بشرط الاتقاء والطاعة له.

و﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ معناه: فرقاً بين حقكم وباطلِ من ينازعكم، أي: بالنصرة[٥] والتأييد عليهم، والفرقان: مصدر، من: فرق بين الشيئين: إذا حال بينهما، أو خالف حكمهما، ومنه قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] وعبَّر قتادة وبعض المفسرين عن الفرقان هاهنا بالنجاة، وقال السدي ومجاهد: معناه: مخرجاً[٦]، ونحو هذا مما يعمُّه ما

(١) في التركية: «كأنه على هذا جزم».
(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٤٨٤)، بالمعنى، وفي التركية: «فكأنه»، بدل: «مكانه».
(٣) البيت للمتوكل بن عبد الله بن نهشل بن مسافع الليثي كما في الجمل في النحو (ص: ٩٥)، والأغاني (١٢ / ١٨٨)، والعقد الفريد (٢/ ٢٢٩)، وجمهرة الأمثال للعسكري (٢/ ٣٧٧)، وإيضاح الشواهد (١/ ٣٤٨)، ونسب في تاريخ دمشق (٢٤/ ٤٦٧) للطرماح، وفي شرح أبيات سيبويه (٢/ ١٧٨) لحسان، وفي خزانة الأدب (٨/ ٥٦٧) أن سيبويه نسبه للأخطل قال: والصحيح أنه لأبي الأسود الدؤلي.
(٤) نقلها الزمخشري في الكشاف (٢ / ٢١٤) عن مجاهد، ولم ترد عن أبي عمرو في شيء من طرق التيسير ولا النشر.
(٥) في نجيبويه وجار الله ونور العثمانية: «بالنصر».
(٦) انظر القولين في تفسير الطبري (١٣/ ٤٨٩-٤٩٠).

ذكرناه، وقد يوجد للعرب استعمال الفرقان كما ذكر المفسرون، فمن ذلك قول مُزَرِّد ابن ضرار[١]:

[الخفيف] بـادَرَ الأُفْـقَ أن يغيـبَ فلمّـا أظلم اللّيـلُ لـم يجـد فرقانا[٢]

وقال الآخر:

[الرجز] ما لـك من طـول الأسـى فُرقانُ بعـد قَطيـنٍ رحلـوا وبانـوا[٣]

وقال الآخر:

[الطويل] وكيف أرجّي الخلدَ والموتُ طالبي ومالِيَ مـن كأس المنيَّـةِ فرقانُ[٤]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية، يشبه أن يكون قوله ﴿وَإِذْ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾، وهذا تذكير بحال مكة وضيقها مع الكفرة وجميل صنع الله تعالى في جمعها، ويحتمل أن يكون ابتداء كلام، وهذا كله على أن الآية مدنية كسائر السورة، وهذا هو الصواب، وحكى الطبري عن عكرمة ومجاهد أن هذه الآية مكية، وحكي عن ابن زيد أنها نزلت عقب كفاية الله رسولَهُ المستهزئين بما أحلَّه بكل واحد منهم، الحديث المشهور[٥].

ويحتمل عندي قول عكرمة ومجاهد: هذه مكية، أنْ أشارا إلى القصة لا إلى الآية.

و«المكر»: المخاتلة والتَّدَاهي، تقول: فلان يمكر بفلان: إذا كان يستدرجه ويسوقه

---

(١) هو مزرد بن ضرار الغطفاني اسمه يزيد، وهو أخو الشماخ أسنُّ منه، ولقب مزرداً ببيت قاله، وله أشعار وشهرة وكان هجاءً، انظر: معجم الشعراء (ص: ٤٩٦)، وفي الإصابة (٦/ ٦٨) أنه قدم على النبيّ ﷺ وأنشده شعراً.

(٢) نسبه له في البحر المحيط (٥/ ٣٠٨) .

(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٣٩٦)، والبحر المحيط (٥/ ٣٠٨)، بلا نسبة.

(٤) تفسير القرطبي (٧/ ٣٩٦)، والبحر المحيط (٥/ ٣٠٨)، بلا نسبة.

(٥) انظر الإحالتين في تفسير الطبري (١٣/ ٤٩٩-٥٠٢)، والقصة المشار إليها هنا هي قصة مؤامرة قريش على قتل النبي ﷺ.

إلى هوة وهو يظهر جميلاً وتستراً بما يريد، ويقال: أصل المكر الفتل[١]، قاله ابن فورك[٢]، فكأن الماكر بالإنسان يفاتله حتى يوقعه.

ومن المكر الذي هو الفتل قولهم للجارية المعتدلة اللحم: ممكورة[٣].

فمكر قريش بالنبي ﷺ كان تدبيرَهم ما يسوءه، وسعيَهم في فساد حاله وإطفاء نوره، وتدبير قريش على رسول الله ﷺ هذه الخصال الثلاث لم يزل قديماً من لدن ظهوره، لكن إعلانهم لا يسمى مكراً وما استسروا به هو المكر.

وقد ذكر الطبري بسنده أن أبا طالب قال للنبي ﷺ: يا محمد، ماذا يدبِّر[٤] فيك قومك؟، قال: «يريدون أن أقتل أو أسجن أو أخرج»، قال أبو طالب: من أعلمك هذا؟ قال: ربي، قال [أبو طالب: صادق][٥] فاستوصِ به خيراً، فقال النبي ﷺ: «بل هو يا عم يستوصي بي خيراً»[٦].

قال القاضي أبو محمد: وهذا المكر الذي ذكره الله في هذه الآية هو بإجماع من المفسرين إشارةٌ إلى اجتماع قريش في دار الندوة بمحضر إبليس في صورة شيخ نجدي

---

(١) في نجيبويه وجار الله ونور العثمانية في الموضعين: «القتل»، وكذا: «يقاتله»، بدل «يفاتله».

(٢) لم أقف عليه.

(٣) قال في المعاني الكبير (١/ ٢٥٠): يقال: امرأة ممكورة، إذا كانت ممتلئة.

(٤) في نجيبويه: «يريد».

(٥) في نجيبويه وجار الله ونور العثمانية: «إن ربك لرب صدق».

(٦) منكر، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٣/ ٤٩٢) من طريق عبد المجيد بن أبي رواد، عن ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن المطلب بن أبي وداعة: أن أبا طالب، به، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٨) من طريق: هشام بن يوسف، عن ابن جريج: أخبرني عطاء، عن عبيد بن عمير أن أبا طالب، قال ابن كثير في تفسيره (٤: ٤٦، ٤٧): «ذكر أبي طالب في هذا غريب جدّاً، بل منكر؛ لأن هذه الآية مدنية. ثم إن هذه القصة، واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل، إنما كانت ليلة الهجرة سواء. وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين، لما تمكنوا منه واجترؤوا عليه بسبب موت عمه أبي طالب، الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه». اهـ.

على ما نص ابن إسحاق في سِيَره، الحديثَ بطوله، وهو الذي كان خروج رسول الله ﷺ من مكة بسببه، ولا خلاف أن ذلك كان بعد موت أبي طالب، ففي القصة أن أبا جهل قال: الرأي أن نأخذ من كل بطن في قريش فتى قويّاً جلداً، فيجتمعون ثم يأخذ كل واحد منهم سيفاً ويأتون محمداً في مضجعه فيضربونه ضربة رجل واحد، فلا يقدر بنو هاشم على قتال قريش بأسرها، فيأخذون العقل ونستريح منه، فقال النجدي: صدق الفتى، هذا الرأي لا أرى غيره، فافترقوا على ذلك، فأخبر الله بذلك نبيه ﷺ، وأذن له في الخروج إلى المدينة، فخرج رسول الله ﷺ من ليلته، وقال لعلي بن أبي طالب: «التفّ في بردي الحضرميِّ واضطجع في مضجعي فإنه لا يضرك شيء»، ففعل علي، وجاء فتيان قريش فجعلوا يرصدون الشخص، وينتظرون قيامه فيثورون به، فلما قام رأوا عليّاً، فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدري(١).

وفي السير: أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم في طريقه، فطمس الله عيونهم عنه، وجعل على رأس كل واحد منهم تراباً، ومضى لوجهه، فجاءهم رجل فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً، قال: إني رأيته الآن جائياً من ناحيتكم، وهو لا محالة وضع التراب على رؤوسكم، فمد كل واحد يده إلى رأسه، وجاؤوا إلى مضجع النبي ﷺ فوجدوا عليّاً(٢) فركبوا وراءه حينئذ كل صعب وذلول وهو بالغار(٣).

[٢/ ٢٠١] ومعنى ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾: ليسجنوك/ فتُثْبَتَ، قاله السدي وعطاء وابن أبي كثير، وقال ابن عباس(٤) ومجاهد: معناه: ليوثقوك، وقال الطبري: وقال آخرون: المعنى: ليسحروك(٥).

---

(١) في صحته نظر، هذا الأثر أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٦) من طريق محمد بن إسحاق، عن ابن أبي ليلى، عن مجاهد، عن ابن عباس. ولا يُعلم فيه الاتصال في موضعين، والطبري (١٣/ ٤٩٨) من طريق أسباط، عن السدي به. وهذا مرسل.

(٢) «فوجدوا عليا»: ساقطة من الأسدية.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٤).

(٤) أخرجه الطبري (١٣/ ٤٩١) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٥) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١٣/ ٤٩١-٤٩٢).

وقرأ يحيى بن وثاب فيما ذكر أبو عمرو الداني: (لِيُثَبِّتوك)، وهذه أيضا تعدية بالتضعيف، وحكى النقاش عن يحيى بن وثاب أنه قرأ: (ليبَيِّتوك)[١] من البيات[٢]، وهذا أخذ مع القتل، فيضعَّف من هذه الجهة، وقال أبو حاتم: معنى ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ أي: بالجراحة، كما يقال: أثبتتْه الجراحة، وحكاه النقاش عن أهل اللغة، ولم يسم أحداً[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ معناه: يفعل أفعالا، منها: تعذيب لهم وعقوبة[٤]، ومنها: ما هو إبطال لمكرهم ورد له ودفع في صدره حتى لا ينجع، فسمى ذلك كله باسم الذنب الذي جاء ذلك من أجله، ولا يحسن في هذا المعنى إلا هذا، وأما أن ينضاف المكر إلى الله عز وجل على ما يفهم منه في اللغة فغير جائز أن يقال.

وقد ذكر ابن فورك في هذا ما يقرب من هذا الذي ضعَّفناه، وإنما[٥] قولنا ﴿وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ كما تقول في رجل شتم الأمير فقتله الأمير: هذا هو الشتم، فتسمِّي العقوبة باسم الذنب.

وقوله: ﴿خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ أي: أقدرُهم وأعزهم جانباً.

قال القاضي أبو محمد: وفي هذه الجهة ـ أعني القدرة والعزة ـ يقع التفضيل؛ لأن مكَرة الكفار لهم قدرة مّا، فوقع التفضيل لمشاركتهم بها، وأما من جهة الصلاح الذي فيما يعلمه[٦] الله تعالى فلا مشاركة للكفار بصلاح، فيتعذر التفضيل على مذهب سيبويه والبصريين[٧] إلا على ما قد بيناه في ألفاظ العموم مثل خير وأحب ونحو هذا، إذ لا يخلو من اشتراك ولو على معتقَدٍ من فرقة أو من واحد.

---

(١) وهما شاذتان، نقلهما عنه وعن النخعي في الشواذ للكرماني (ص: ٢٠٤)، ونقل الأولى في مختصر الشواذ (ص: ٥٤).

(٢) في الأسدية والتركية: «ليثبتوك من الثبات».

(٣) انظر قول أبي حاتم في تفسير القرطبي (٧/ ٣٩٧)، وقول النقاش لم أقف عليه.

(٤) ساقط من المطبوع.

(٥) في التركية والأسدية: «وأما».

(٦) في التركية والأسدية ونجيبويه وجار الله ونور العثمانية: «يفعله».

(٧) انظر: مشكل إعراب القرآن لمكي (٢/ ٥٢٠).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد على الكفار، و«الآيات» هنا: آيات القرآن خاصة بقرينة قوله ﴿تُتْلَىٰ﴾، و﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ يريد: وقد سمعنا هذا المتلوَّ لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مثله، وقد سمعنا نظيره، على ما روي أن النضر سمع أحاديث أهل الحيرة من العبَّاد، فلو نشاء لقلنا مثله من القصص والأنباء، فإن هذه إنما هي أساطيرُ مَن تقدم، أي: قصصهم المكتوبة المسطورة.

و﴿أَسَٰطِيرُ﴾ جمع أسطورة، ويحتمل أن يكون جمع أسطار.

ولا يكون جمع أسطُرٍ كما قال الطبري[١]، لأنه كان يجيء: أساطر دون ياء، هذا هو قانون الباب، وقد شذ منه شيء كصَيْرَف قالوا في جمعه: صياريف.

والذي تواترت به الروايات عن ابن جريج والسدي وابن جبير: أن الذي[٢] قال هذه المقالة هو النضر بن الحارث[٣]، وذلك أنه كان كثير السفر إلى فارس والحيرة، فكان قد سمع من قصص الرهبان والأناجيل، وسمع من أخبار رستم وإسبنديار، فلما سمع القرآن ورأى فيه من أخبار الأنبياء والأمم، قال: لو شئتُ لقلت مثل هذا، وكان النضر من مردة قريش النائلين من رسول الله ﷺ، ونزلت فيه آيات من كتاب الله، وقتله رسول الله ﷺ صبراً بالصفراء منصَرَفَه من بدر في موضع يقال له: الأثيل[٤].

وكان أَسَرَه المقداد، فلما أمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه قال المقداد: أسيري يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «إنه كان يقول في كتاب الله ما قد علمتم»، ثم أعاد

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٥٠٣).

(٢) «ابن جبير»: ساقط من الأسدية، وفيها: «أن النبي قال».

(٣) تفسير الطبري، (١٣/ ٥٠٣-٥٠٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٩).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٠٠).

الأمر بقتله فأعاد[١] المقداد مقالته، حتى قال رسول الله ﷺ: «اللهم أَغْنِ المقداد من فضلك»، فقال المقداد: هذا الذي أردتُ، فضرب عنق النضر[٢].

وحكى الطبري عن سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ قتل يوم بدر صبراً ثلاثة نفر، المُطْعِم بن عدي، والنضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا وهم عظيم في خبر المطعم، فقد كان مات قبل يوم بدر، وفيه قال النبي ﷺ: «لو كان المطعم حيّاً وكلمني في هؤلاء النَّـتْنَى لتركتُهم له» يعني أسرى بدر[٤].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية، روي عن مجاهد وابن جبير وعطاء والسدي: أن قائل هذه المقالة هو النضر بن الحارث[٥]، الذي تقدم ذكره، وفيه نزلت هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد: وترتب أن يقول النضر بن الحارث مقالةً وينسبها القرآن إلى جميعهم، لأن النضر كان فيهم موسوماً بالنبل والفهم مسكوناً إلى قوله، فكان إذا قال قولاً قاله منهم كثير واتبعوه عليه حسبما يفعله الناس أبداً بعلمائهم وفقهائهم.

والمشار إليه بـ﴿هَٰذَا﴾ هو القرآن وشرعُ محمد ﷺ، والذي حملهم على هذه المقالة هو الحسد، وذلك أنهم استبعدوا أن يكرم الله عليهم محمداً ﷺ هذه الكرامة، وعميت بصائرهم عن الهدى، وصمموا على أن هذا ليس بحق، فقالوا هذه المقالة، كما

---

(١) ساقط من المطبوع.

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٥٠٤) عن سعيد بن جبير مختصراً مرسلًا، وانظر تفصيل ذلك في سيرة ابن هشام (١/ ٧١٠).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ٥٠٤) عن سعيد بن جبير مختصراً مرسلًا، وفي الأسدية: «فنان بن جبير»، بدل: «سعيد».

(٤) صحيح، هذا الحديث أخرجه البخاري (٣١٣٩) (٤٠٢٤) من حديث جبير بن مطعم.

(٥) تفسير الطبري (١٣/ ٥٠٥-٥٠٧).

يقول الإنسان لأمر قد تحقق بزعمه أنه لم يكن: إن كان كذا وكذا ففعل الله بي وصنع.

وحكى ابن فورك أن هذه المقالة خرجت مخرج العناد مع علمهم بأنه حق[١].

وكذلك ألزم بعض أهل اليمن معاوية بن أبي سفيان القصة المشهورة في باب الأجوبة، وحكاه الطبري عن محمد بن قيس ويزيد بن رومان[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا بعيد من التأويل، ولا يقول هذا على جهة العناد عاقل.

ويجوز في العربية رفع ﴿ٱلْحَقَّ﴾ على أنه خبر ﴿هُوَ﴾، والجملة خبر ﴿كَانَ﴾، قال الزجَّاج: ولا أعلم أحداً قرأ بهذا الجائز[٣]، وقراءة الناس إنما هي بنصب ﴿ٱلْحَقَّ﴾ على أن يكون خبر ﴿كَانَ﴾ ويكون ﴿هُوَ﴾ فصلاً، فهو حينئذ اسم وفيه معنى الإعلام بأن الذي بعده خبرٌ ليس[٤] بصفة.

و(أَمْطَرَ) إنما يستعمل في المكروه، ومَطَر في الرحمة، كذا قال أبو عبيدة[٥].

قال القاضي أبو محمد: ويعارض هذا قوله: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] لأنهم ظنوها سحابةَ رحمةٍ، وقولهم: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مبالغة وإغراق، وهذان النوعان اللذان اقترحوهما هما[٦] السالفان في الأمم عافانا الله / وعفا عنا ولا أضلنا [بمَنِّه ويُمْنه][٧]. [٢/ ٢٠٢]

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣١١).

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٥١٢).

(٣) زاد في معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٤١١): ولا اختلاف بين النحويين في إجازتها ولكن القراءَة سُنَّة لا يقرأ فيها إلا بقراءَة مَرْوِيةٍ.

(٤) في أحمد٣ والتركية والأسدية وجار الله ونور العثمانية: «وليس».

(٥) مجاز القرآن (١/ ٤٤).

(٦) «هما»: ساقطة من التركية والأسدية.

(٧) ساقط من جار الله.

قالت فرقة: نزلت هذه الآية كلها بمكة، وقالت فرقة: نزلت كلها بعد وقعة بدر حكاية عما مضى، وقال ابن أَبْزَى: نزل قوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ بمكة إثر قولهم ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ونزل قوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ عند خروج النبي ﷺ عن مكة في طريقه إلى المدينة، وقد بقي بمكة مؤمنون يستغفرون، ونزل فيهم[1] قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾[2] إلى آخر الآية بعد بدر عند ظهور العذاب عليهم[3].

قال القاضي أبو محمد: وأجمع المتأولون على أن معنى قوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾، أن الله عز وجل لم يعذب قط أمة ونبيها بين أظهرها، فما كان ليعذب هذه الأمة وأنت فيهم، بل كرامتك لديه أعظم، قال ـ أُراه عن أبي زيد ـ سمعت من العرب من يقول: ما كان الله لَيعذبهم بفتح اللام، وهي لغة غير معروفة ولا مستعملة في القرآن[4].

واختلفوا في معنى قوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فقال ابن عباس وابن أبزى وأبو مالك والضحاك ومقاتل ما مقتضاه: إن الضمير في قوله ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ يعود على كفار مكة والضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ عائد على المؤمنين الذين بقوا بعد رسول الله ﷺ بمكة[5]، أي: وما كان الله ليعذب الكفار والمؤمنون بينهم يستغفرون[6].

قال القاضي أبو محمد: ويدفع في صدر هذا القولِ أن المؤمنين الذين رُدَّ الضمير عليهم لم يجر لهم ذكر.

وقال ابن عباس أيضاً ما مقتضاه أن يقال: الضميران عائدان على الكفار، وذلك

---

(١) زيادة من الأسدية.

(٢) «ما لهم»: ساقطة من الأسدية.

(٣) تفسير الثعلبي (٤/ ٣٥٢).

(٤) سر صناعة الإعراب (٢/ ١٣).

(٥) انظر تفسير الطبري (١٣/ ٥١٤)، و«مقاتل» زيادة من الأسدية، وسقط منها: «ما مقتضاه».

(٦) كلمة «يستغفرون»: ساقطة من التركية.

أنهم كانوا يقولون في دعائهم: غفرانك، ويقولون: لبيك لا شريك لك، ونحو هذا مما هو دعاء واستغفار، فجعله الله أمنة من عذاب الدنيا[١]، وعلى هذا تركَّب[٢] قول أبي موسى الأشعري وابن عباس: إن الله جعل من عذاب الدنيا أَمَنتين: كونُ الرسول ﷺ مع الناس، والاستغفارُ، فارتفعت الواحدة وبقي الاستغفار إلى يوم القيامة[٣].

وقال قتادة: الضمير للكفار[٤]، وقوله: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾: جملة في موضع الحال أنْ لو كانت، فالمعنى: وما كان الله معذبهم وهم بحال توبة واستغفار من كفرهم أن لو وقع ذلك منهم، واختاره الطبري[٥]، ثم حسن الزجر والتوقيف بعد هذا بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾.

وقال الزجَّاج ما معناه: إن الضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ عائد على الكفار[٦]، والمراد به من قد سبق له في علم الله أن يُسْلم ويستغفر، فالمعنى: وما كان الله ليعذب الكفار وفيهم مَن يستغفر ويؤمن في ثاني حال، وحكاه الطبري عن ابن عباس[٧].

وقال مجاهد في كتاب الزهراوي: المراد بقوله: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ذريةُ المشركين يومئذ الذين سبق لهم في علم الله أن يكونوا مؤمنين، فالمعنى: وما كان الله ليعذبهم وذريتهم

---

(١) إسناده لا بأس به، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٣/ ٥١١) عن أحمد بن منصور الرمادي قال: حدثنا أبو حذيفة قال: حدثنا عكرمة، عن أبي زميل، عن ابن عباس، وأبو حذيفة هو موسى بن مسعود النهدي، وعكرمة هو ابن عمار اليمامي، وأبو زميل هو سماك بن الوليد الحنفي.

(٢) في الأسدية: «ترتب».

(٣) إسناده لا بأس به، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٣/ ٥١١) من طريق عكرمة بن عمار، عن أبي زميل، عن ابن عباس به.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٥١٤)، وفي التركية ونجيبويه وجار الله ونور العثمانية: «الضميران».

(٥) انظر: المصدر السابق (١٣/ ٥١٧).

(٦) انظر: معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٤١٢).

(٧) أخرجه الطبري (١٣/ ٥١٦) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

يستغفرون ويؤمنون، فنسب الاستغفار إليهم، إذ ذريتهم منهم، وذكره مكي ولم ينسبه[(١)].

وفي الطبري عن فرقة أن معنى ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يصلُّون، وعن أخرى: يُسْلمون، ونحو هذا من الأقوال التي تتقارب مع قول قتادة[(٢)].

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ توعدٌ بعذاب الدنيا، فتقديره: وما يُعْلِمهم[(٣)] أو يدريهم، ونحو هذا من الأفعال التي توجب أن تكون أن في موضع نصب.

وقال الطبري: تقديره: وما يمنعهم من أن يعذَّبوا[(٤)].

والظاهر في قوله: ﴿وَمَا﴾ أنها استفهام على جهة التقرير والتوبيخ والسؤال، وهذا أفصح لهم في القول وأقطع لهم في الحجة، ويصح أن تكون (ما) نافية ويكون القول إخباراً، أي: وليس لهم ألا يعذبوا وهم يصدون.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ على التأويلين جملة في موضع الحال.

و﴿يَصُدُّونَ﴾ في هذا الموضع معناه: يمنعون غيرهم، فهو متعدٍّ كما قال:

صَدَدْتِ الكأس عَنَّا أمَّ عَمْرو[(٥)] .... [الوافر]

وقد تجيء صدَّ غير متعدٍّ كما أنشد أبو علي:

صَدَّتْ خُلَيْدةُ عَنَّا مَا تُكَلِّمُنَا[(٦)] .... [البسيط]

---

(١) الهداية (٤/ ٢٨١٠)، وانظر قول مجاهد في تفسير الثعلبي (٤/ ٣٥٣)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ١٥١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٥١٥-٥١٦).

(٣) في الأسدية والتركية: «وما يملكهم». وفي نجيبويه وجار الله: «وما يهلكهم».

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ٥١٧).

(٥) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم، وتمامه: وكان الكأس مجراها اليمينا. انظر الجمل في النحو (ص: ٧١)، والكتاب لسيبويه (١/ ٤٠٤)، وشرح المعلقات التسع (ص: ٣١٠)، ومعجم الشعراء (ص: ٢٠٥)، والأمثال لابن سلام (ص: ٢٨٢).

(٦) هكذا جاء في الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي (٤/ ١٤٧) غير منسوب، ويقرب منه قول =

والضمير في قوله ﴿أَوۡلِيَآءَهُۥٓ﴾ عائد على الله عز وجل من قوله ﴿يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾، أو على ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، كل ذلك جيد، روي الأخير عن الحسن[١]، والضمير الآخر تابع للأول.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ معناه: لا يعلمون أنهم ليسوا بأوليائه بل يظنون أنهم أولياؤه، وقوله: ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾، ونحن نجد كلَّهم بهذه الصفة، لفظ خارج إما على أن تقول: إنه لفظُ خصوص أريد به العموم، وهذا كثير في كلام العرب، ومنه حكى سيبويه من قولهم: قلَّ مَن يقول ذلك، وهم يريدون: لا يقوله أحد[٢].

وإما أن تقول: إنه أراد بقوله ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ أن يُعْلم ويُشعر أن بينهم وفي خلالهم قوماً قد جنحوا إلى الإيمان ووقع لهم علم وإن كان ظاهرهم الكفر، فاستثناهم من الجميع بقوله: ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ وكذلك كانت حال مكة وأهلها، فقد كان فيهم العباس وأم الفضل وغيرهما، وحكى الطبري عن عكرمة قال الحسن بن أبي الحسن: إن قوله ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾، ناسخ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾[٣].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا نظر، لأنه خبر لا يدخله نسخ.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾.

قرأ الجمهور: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ﴾ بالرفع ﴿عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ﴾ بالنصب ﴿وَتَصۡدِيَةٗ﴾ كذلك.

وروي عن عاصم أنه قرأ: (صلاتَهم) بالنصب (إلا مكاءٌ وتصديةٌ) بالرفع، ورويت عن سليمان الأعمش بخلاف عنه فيما حكى أبو حاتم.

= الأعشى في معلقته: صدت هريرة عنا ما تكلِّمنا... جهلاً بأم خليد حبلَ مَن تَصِل، انظر: شرح المعلقات التسع (ص: ٢٣)، والصناعتين (ص: ٨٤).

(١) لم أقف على هذا القول للحسن.

(٢) الكتاب لسيبويه (٢/ ٣١٤).

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٥١٧)، وفيه: «عن عكرمة والحسن».

وذكر أبو علي عن الأعمش أنه قال في قراءة عاصم: أفإن لحن عاصم تلحن أنت؟ قال أبو الفتح: وقد روي الحرف كذلك عن أبان بن تغلب[١].

قال قوم: وهذه القراءة خطأ لأنه جعل الاسم نكرة والخبر معرفة، قال أبو حاتم: فإن قيل: إن المكاء والتصدية اسم جنس، واسم الجنس/ معرفاً ومنكَّراً واحد في التعريف، قيل: إن استعماله هكذا لا يجوز إلا في ضرورة الشعر، كما قال حسان: [٢/ ٢٠٣]

كأنَّ سبيئَةً من بيت رأْسٍ يكونُ مِزاجَها عَسلٌ وماءُ[٢] [الوافر]

ولا يقاس على ذلك، فأما أبو الفتح فوجَّهَ هذه القراءة بما ذكرناه من تعرُّف اسم الجنس، وبعد ذلك يرجح قراءة الناس[٣].

قال أبو علي الفارسي: وإنما ذهب من ذهب إلى هذه القراءة لمَّا رأى الصلاة مؤنثة ورأى الفعل المسند إليها ليس فيه علامة تأنيث، فأراد تعليقه بمذكَّر وهو المكاء، وأخطأ في ذلك، فإن العرب تعلق الفعل لا علامة فيه بالمؤنث، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: ٦٧]، وقوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾ [النمل: ٥١] و﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦-١٠٣]، [النمل: ١٤] ونحو هذا مما أسند فيه الفعل دون علامة إلى المؤنث[٤].

و«المكاء» على وزن الفُعال: الصفير، قاله ابن عباس[٥] والجمهور، فقد يكون

---

(١) انظر كلام أبي الفتح في المحتسب (١ / ٢٧٨)، وكلام أبي علي في الحجة (٤/ ١٤٥)، وكلام أبي حاتم في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٩٧)، وانظر أيضاً: السبعة لابن مجاهد (ص: ٣٠٥)، والهداية لمكي (٤/ ٢٨١٤)، ومشكل إعراب القرآن (١ / ٣١٥) وهي شاذة.

(٢) انظر عزوه له في الكتاب لسيبويه (١/ ٤٩)، ومعاني القرآن للفراء (٣/ ٢١٥)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٤٢٢).

(٣) المحتسب لابن جنى (١ / ٢٧٨).

(٤) انظر: الحجة (٤/ ١٤٥).

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ٥٢٢) من طريق علي بن أبي طلحة والعوفي –مفرقين ـ عن ابن عباس.

بالفم، وقد يكون بالأصابع والكف في الفم، قاله مجاهد وأبو سلمة بن عبد الرحمن[(١)]، وقد يشارك الأنف، يقال: مكا يمكو، إذا صَفَر، ومنه قول عنترة:

[الكامل] وحَليلِ غانيةٍ تركتُ مُجدَّلاً تَمكُو فَريصَتُهُ كشدْقِ الأعلَمِ[(٢)]

ومنه قول الشاعر:

[مجزوء الكامل] .... فكأنَّما يمْكُو بأعصَمَ عاقِل[(٣)]

يصف رجلاً فر له حيوان، ومنه قول الطِّرِمَّاح:

[الكامل] فَنَحَا لأُولاها بِطَعْنَةِ مُحْفَظٍ تَمْكُو جَوَانِبُهَا مِنَ الإنْهَارِ[(٤)]

ومكت استُ الدابة: إذا صفرت، يقال: ولا تمكو إلا استٌ مكشوفة، ومن هذا قيل للاست: مَكْوَة، قال أبو علي: فالهمزة في ﴿ مُكَآءً ﴾ منقلبة عن واو[(٥)].

قال القاضي أبو محمد: ومن هذا قيل للطائر: المُكَّاء؛ لأنه يمكو أي: يَصْفِر في تغريده، ووزنه فُعَّال بشد العين كخُطَّاف، والأصوات في الأكثر تجيء على فُعَال بتخفيف العين كالبكاء والصراخ والدعاء والجؤار والنباح ونحوه.

وروي عن قتادة أن المكاء صوت الأيدي[(٦)]، وذلك ضعيف.

وروي عن أبي عمرو أنه قرأ: (إلا مكاً) بالقصر[(٧)].

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٥٢٤)، وفي المطبوع: «وقال مجاهد...» إلخ.

(٢) انظر عزوه له في جمهرة أشعار العرب (ص: ٢٣)، والعين (٢/ ١٥٢)، وشرح المعلقات التسع (ص: ٢٣٨)، والحيوان (٣/ ١٤٨).

(٣) استشهد به بلا نسبة في مجاز القرآن (١/ ٢٤٦)، والبيت بتمامه عنده:

ومكا بها فكأنما يمكو بأعصم عاقل

(٤) انظر عزوه له في المعاني الكبير (٢/ ٩٨٣)، وتفسير الطبري (١٣/ ٥٢١).

(٥) الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ١٤٦).

(٦) تفسير الطبري (١٣/ ٥٢٦)، وفي التركية والأسدية وجار الله ونور العثمانية: «ضرب الأيدي».

(٧) هي شاذة، لم ترد هذه القراءة عنه في شيء من طرق التيسير ولا النشر، وقد نقلها عنه اللباب في علوم =

و«التصدية» عبَّر عنها أكثر الناس بأنها التصفيق، وقتادة بأنه الضجيج والصياح، وسعيد بن جبير بأنها الصد والمنع[(١)]، ومن قال: إنها التصفيق، قال: إنما كان للمنع[(٢)] عن ذكر الله ومعارضة لقراءة رسول الله ﷺ للقرآن، والتصدية يمكن أن تكون من صدى يصدى: إذا صوَّت، والصَّدى: الصوت، ومنه قول الطِّرِمَّاح يصف الأروية:

لهَا كلَّمَا رِيعَتْ صَدَاةٌ ورَكْدَةٌ ... بِمُصْدانَ أَعْلى ابنيْ شَمام البَوائن[(٣)] [الطويل]

فيلتئم على هذا الاشتقاق قول من قال: هو التصفيق، وقول من قال: هو الضجيج، ولا يلتئم عليه قول من قال: هو الصدُّ والمنع، إلا أن يجعل التصويت[(٤)] إنما يقصد به المنع، ففسر اللفظ بالمقصود لا[(٥)] بما يخصه من معناه

ويمكن أن تكون التصدية من صدَّ يَصُد، استعمل الفعل مضعَّفًا للمبالغة والتكثير، لا ليعدى، فقيل: صدَّد، وذلك أن الفعل الذي يتعدَّى إذا ضعف فإنما يضعف للتكثير، إذ التعدي حاصل قبل التضعيف، وذلك نحو قوله: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ [يوسف: ٢٣]، والذي يضعف ليعدى هو كقولهم علَّم وغرَّم، فإذا قلنا في صدَّ: صدَّدَ، ففعَّل في الصحيح يجيء[(٦)] مصدرُه في الأكثر على تفعيل، وفي الأقل على تفعلة، مثل كمَّل تكميلا وتكملة وغير ذلك، بخلاف المعتل فإنه يجيء في الأكثر على تفعلة، مثل عزَّى وتعزية، وفي الشاذ على تفعيل، مثل قول الشاعر:

= الكتاب (٩/ ٥١١)، والدر المصون في علم الكتاب المكنون (١/ ٢١٠٥)، وأوردها البيضاوي (١/ ١٠٦) بلا نسبة.

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٥٢٦).

(٢) في الأصل: «المنع».

(٣) انظر عزوه له في سيرة ابن هشام (١/ ٦٧٠)، وتهذيب اللغة (١٠/ ٦٨)، وفي المطبوع: «مصران»، وفي نجيبويه: «وركضة»، بدل «ركدة».

(٤) في الأسدية ونجيبويه: «التصدية».

(٥) في الأصل: «وبما يخصه من معناه».

(٦) في الأسدية: «هي»، بدل: «يجيء».

[الرجز] بـــات يُـنـزِّي دلوهـا تَـنْـزِيّـا[1] ....

وإذا كان فعل في الصحيح يتسق فيه المِثْلان رُفض فيه تَفْعِلة مثل قولنا: تصدية، وصِيْر إلى قوله: تفعيل، لتَحُول الياء بين المِثْلين، كتخفيف وتشديد، فلما سلكوا في مصدر صدَّد المسلك المرفوض أُصلِح ذلك بأن أبدل أحد المثلين ياء، كبدلهم في تظَنَّنْتُ ونحوِه، فجاء تصدية، فعلى هذا الاشتقاق يلتئم قول من قال: التصدية: الصد عن البيت والمنع.

ويمكن أن تكون التصدية من صدَّ يصِد بكسر الصاد في المستقبل، إذا ضج[2]، ويبدل أيضاً على هذا أحد المثلين، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] بكسر الصاد، ذكره النحاس[3].

وذهب أكثر المفسرين إلى أن المكاء والتصدية إنما أحدثها الكفار عند مبعث رسول الله ﷺ لتقطع عليه وعلى المؤمنين قراءتهم وصلاتهم ويخلِّط عليهم، فكان المصلي [إذا قام يقرأ من المؤمنين][4] اكتنفه من الكفار عن يمينه وشماله من يمكو ويصدي حتى تختلط عليه قراءته، فلما نفى الله تعالى ولايتهم للبيت أمكن أن يعترض معترض بأن يقول: وكيف لا نكون أولياءه ونحن نسكنه ونصلي عنده؟ فقطع الله هذا الاعتراض بأن قال: وما كان صلاتهم عند البيت إلا المكاء والتصدية، وهذا كما يقول رجل: أنا أفعل الخير، فيقال له: ما فعلك الخير إلا أن تشرب الخمر وتقتل، أي: هذه عادتك وغايتك.

قال القاضي أبو محمد: والذي مر بي من أمر العرب [في غير ما ديوانٍ أن المكاء والتصدية كان من فعل العرب][5] قديماً قبل الإسلام على جهة التقرب به والتشرع.

---

(١) بلا نسبة في تهذيب اللغة (٦/ ٥٣)، وهو في العين (٣/ ٤٠١)، وأمالي القالي (١/ ٢٠) وغيرهما بلفظ: باتت تنزي. وبعده: كما تنزِّي شهلة صبيّا.

(٢) في التركية والأسدية وجار الله ونور العثمانية: «صح»، والمثبت هو الموافق للمصدر.

(٣) معاني القرآن للنحاس (٦/ ٣٧٦).

(٤) في نجيبويه: «من المؤمنين إذا قام يقرأ».

(٥) ساقط من الأسدية.

ورأيت عن بعض أقوياء العرب أنه كان يمكو على الصفا فيسمع من جبل حراء، وبينهما أربعة أميال، وعلى هذا يستقيم تعييرهم[١] وتنقُّصهم بأن شرعهم وصلاتهم[٢] وعبادتهم[٣] لم تكن رهبة ولا رغبة، إنما كانت مكاء وتصدية من نوع اللعب، ولكنهم كانوا يتزيدون فيها وقت النبي ﷺ ليشغلوه وأمته عن القراءة والصلاة.

وقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ إشارة إلى عذابهم ببدر بالسيف، قاله ابن جريج والحسن والضحاك[٤]، فيلزم من هذا أن هذه الآية الأخيرة نزلت بعد بدر ولا بد.

قال القاضي أبو محمد: والأشبه أن الكل نزل بعد بدر حكايةً عما مضى، والله ولي التوفيق برحمته.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قال بعض الرواة منهم / ابن أبزى وابن جبير والسدي ومجاهد: سبب نزول هذه الآية أن أبا سفيان أنفق في غزوة أحد على الأحابيش وغيرهم أربعين أوقية من الذهب أو نحو هذا، وأن الآية نزلت في ذلك[٥]. [٢/ ٢٠٤]

وقال ابن شهاب، ومحمد بن يحيى بن حَبَّان، وعاصم بن عمر بن قتادة[٦]،

(١) في الأسدية والتركية ونور العثمانية: «تعبيرهم».
(٢) في التركية: «ضلالهم».
(٣) ساقطة من نجيبويه.
(٤) تفسير الطبري (١٣/ ٥٢٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٩٧)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣١٦).
(٥) تفسير الطبري (١٣/ ٥٣١)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٥٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٨٤)، وفي التركية: «ابن جريج»، بدل «ابن جبير».
(٦) عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان الظفري، المدني، روى عن جابر، ومحمود بن لبيد، وعنه بكير ابن الأشج، ومحمد بن عجلان، وجماعة، وكان ثقة عارفاً بالمغازي، واسع العلم، وثقه أبو زرعة والنسائي، توفي سنة (١٢٠هـ). تاريخ الإسلام (٧/ ٣٨٩).

والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ[١]: إنه لما قُتل مَن قُتل ببدر اجتمع أبناؤهم وقرابتهم وقالوا لمن خلص ماله في العير: إن محمداً قد نال منا ما ترون، ولكن أعينونا بهذا المال[٢] الذي كان سبب الواقعة، فلعلنا أن ننال منه ثأراً، ففعلوا، فنزلت الآية في ذلك[٣].

قال القاضي أبو محمد: وعلى القولين فإنما أُنفق المال في غزوة أحد، فأخبر الله تعالى في هذه الآية خبراً لفظه عام في الكفار، والإشارة به إلى مخصوصين، أنهم ينفقون أموالهم يقصدون بذلك الصد عن سبيل الله والدفع في صدر الإسلام.

ثم أخبر خبراً يخص المشار إليهم أنهم ينفقونها ثم تكون عليهم حسرة، إذ لا تتم لهم إرادةٌ ويذهب المال باطلاً، و«الحسرة»: التلهف على الفائت، ويحتمل أن تكون الحسرة في يوم القيامة، والأول أظهر، وإن كانت حسرة القيامة راتبةً عليهم.

ثم أخبر أنهم يُغلبون بعد ذلك كله، بأن تكون الدائرة عليهم، وهذا من إخبار القرآن بالغيوب لأنه أخبر بما يكون قبل أن يكون، فكان كما أخبر، قال ابن سلام: بيَّن الله عز وجل أنهم يَغلبون قبل أن يقاتلوا بسنة، حكاه الزهراوي[٤].

ثم أخبر تعالى عن الكافرين أنهم يُجمعون إلى جهنم، و«الحشر»: جمع الناس والبهائم، إلى غير ذلك مما يجمع ويُحضَر، ومنه قوله: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ [الأنعام: ١١١].

ومنه في التفسير: أن السلوى طائر كانت الجَنوب تحشره على بني إسرائيل[٥].

---

(١) هو الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، ويكنى أبا محمد، الأنصاري الأشهلي المدني من أهلها، تابعي ثقة قليل الحديث، روى عن ابن عباس وأنس، وعنه ابنه محمد وابن إسحاق ويحيى بن صالح، توفي سنة (١٢٦هـ). التحفة اللطيفة (١/ ٢٩٨).

(٢) في الأسدية: «أعينونا بقوة وبهذا امال».

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٨٦).

(٤) لم أقف عليه.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٩٦)، وتفسير الماوردي (١/ ١٢١)، وتفسير ابن أبي زمنين (١/ ١٣).

والقوم الذين جلبهم أبو سفيان وأنفق المال عليهم هم الأحابيش من كنانة، ولهم يقول كعب بن مالك:

[الطويل]

وَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ البَحْرِ وَسْطَه ... أَحَابِيشُ، مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمُقَنَّعُ

ثَلاثَةُ آلافٍ، ونَحْنُ نَصِيَّةٌ ... ثَلاثُ مِئِينَ إن كَثُرْنَ، فَأَرْبَعُ[1]

وقال الضحاك وغيره: إن هذه الآية نزلت في نفقة المشركين الخارجين إلى بدر، الذين كانوا يذبحون يوماً عشراً ويوماً تسعاً من الإبل[2]، وحكى نحو هذا النقاش[3].

قوله عز وجل: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر: ﴿لِيَمِيزَ﴾ بفتح الياء وكسر الميم، وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر وشيبة بن نِصَاحٍ وشِبْلٍ وأبي عبد الرحمن والحسن وعكرمة ومالك بن دينار، تقول: مِزْتُ الشيء، والعرب تقول[4]: مزته فلم يتميز لي، حكاه يعقوب[5]، وفي شاذ القراءة: (وانمازوا اليوم)[6]، وأنشد أبو زيد:

---

(١) انظر عزوهما له في سيرة ابن هشام (٢/ ١٣٤)، وطبقات فحول الشعراء (١/ ٢٢٠)، وفي نور العثمانية: «عصيبة»، وفي الأسدية: «قصيبة».

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٥٣٣)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣١٦).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) «والعرب تقول»: ساقطة من الأسدية.

(٥) هو ابن السكيت، كما تقدم في تفسير الآية (١٧٩) من آل عمران.

(٦) وهي قراءة شاذة في قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ الآية (٥٩) من يس، وسيأتي الكلام عليها في محله.

[البسيط] لمَّـا ثَـنَـى اللهُ عنـي شـرَّ عَـدْوتـه وانمزت لا منشئاً ذُعْراً ولا وجلا[١]

وهو مطاوع[٢] ماز، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿لِيُمَيِّزَ﴾ بضم الياء [وفتح الميم وشد الياء][٣]، وهي قراءة قتادة وطلحة بن مصرِّفٍ والأعمش والحسن أيضاً وعيسى البصري[٤]، تقول: ميَّزْتُ أميِّز: إذا فرقتَ بين شيئين فصاعداً، وفي القرآن: ﴿تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨]، فهو مطاوع ميَّز، ومعناه: تتفصل.

وقال ابن عباس رضي الله عنه والسدي: المعنيُّ بـ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ الكفار وبـ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾ المؤمنون[٥].

قال القاضي أبو محمد: واللام على هذا التأويل من قوله: ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلقة بـ﴿يُحْشَرُونَ﴾، والمعنى أن الله يحشر الكافرين إلى جهنم ليميز الكافرين من المؤمنين بأن يجمع الكافرين جميعاً فيلقيهم في جهنم، ثم أخبر عنهم أنهم الخاسرون، أي: الذين خابت سعايتهم وتبَّت أيديهم وصاروا إلى النار.

وقال ابن سلام والزجَّاج: المعنيُّ بـ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾: المال الذي أنفقه المشركون في الصد عن سبيل الله، و﴿ٱلطَّيِّبِ﴾: هو ما أنفقه المؤمنون في سبيل الله[٦].

قال القاضي أبو محمد: واللام على هذا التأويل من قوله: ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلقة بـ﴿يُغْلَبُونَ﴾، والمعنى: أن الكفار ينفقون أموالهم فتكون عليهم حسرة ثم يغلبون مع نفقتها، وذلك ليميز الله الفرق بين الخبيث والطيب فيخذل أهل الخبيث وينصر أهل الطيب.

---

(١) استشهد به هكذا الفارسي في الحجة (٣/ ١١٠)، وهو لمالك بن الريب كما في الأغاني (٢٢/ ٢٩٤) بلفظ: رقدت لا مثبتاً ذعراً، لا بعلاً، وفي المطبوع وأحمد٣: «شر دعوته».

(٢) في نجيبويه وأحمد٣ وجار الله: «مضارع»، وفي نور العثمانية: «ميز»، بدل «ماز».

(٣) ساقط من التركية.

(٤) وهما قراءتان سبعيتان، كما تقدم في تفسير الآية (١٧٩) من آل عمران، وسقط ذكر شبل من التركية.

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ٥٣٤) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: فميز أهل السعادة من أهل الشقاوة.

(٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤١٢)، وهذا القسم من تفسير يحيى بن سلام لم يطبع.

وقوله تعالى على هذا التأويل: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ مترتب على ما روي عن رسول الله ﷺ: «أن الله تعالى يخرج من الأموال ما كان صدقة أو قربة يوم القيامة[١] ثم يأمر بسائر ذلك فيلقى في النار»[٢].

وحكى الزهراوي عن الحسن أن الكفار يعذبون بذلك المال، فهي كقوله: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقاله الزجّاج[٣].

وعلى التأويلين فقوله: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ إنما هي عبارة عن جمع ذلك وضمه وتأليف أشتاته وتكاثفه بالاجتماع.

و(يَرْكُمَهُ) في كلام العرب: يكثفه، ومنه: سحاب مركوم وركام، ومنه قول ذي الرمة:

.... زُعْ بالزِّمام وجَوْزُ اللَّيل مَرْكومُ[٤] [البسيط]

وقوله: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ﴾ بمعنى: يلقي، قاله أبو علي[٥]، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ على هذا التأويل يراد به المنافقون من الكفار، ولفظة الخسارة تليق بهم من جهة المال وبغير ذلك من الجهات.

وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الآية، أمر من الله عز وجل لنبيه ﷺ أن يقول للكفار هذا المعنى الذي تضمنته ألفاظ قوله: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾.

وسواء[٦] قاله النبي ﷺ في هذه العبارة أو غيرها.

---

(١) في نجيبويه وأحمد٣ ونور العثمانية وجار الله وردت عبارة «يوم القيامة» بعد قوله: «يخرج».

(٢) لم أقف عليه.

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤١٣)، وكلام الزهراوي لم أقف عليه..

(٤) صدره: ومائلٍ فوقَ ظهرِ الرّحْلِ قلتُ له، عزاه له في العين (٢/ ٢٠٧)، وإصلاح المنطق (ص: ١٨٥)، وأدب الكاتب (ص: ٣٤٦).

(٥) الحجة للفارسي (٣/ ٤٠٥).

(٦) في الأسدية: «وهذا».

ولو كان الكلام كما ذكر الكسائي أنه في مصحف ابن مسعود: (قل للذين كفروا إن تنتهوا[١] يغفر لكم)[٢] لمَا تأدت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها، هذا بحسب ما تقتضيه الألفاظ.

وقوله: ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ يريد به: عن الكفر ولا بد، والحامل على ذلك جواب الشرط: ﴿يُغْفَرْ / لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لمنْـتَهٍ عن الكفر. [٢/ ٢٠٥]

وقوله: ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ يريد به: إلى القتال؛ لأن لفظة عاد يعود إذا جاءت مطلقة فإنما تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان الإنسان عليها ثم تنقّل عنها.

ولسنا نجد في هذه الآية لهؤلاء الكفار حالة تشبه ما ذكرنا إلا القتال، ولا يصح أن يتأول ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ إلى الكفر؛ لأنهم لم ينفصلوا عنه وإنما قلنا في «عاد»: إذا كانت مطلقة؛ لأنها قد تجيء في كلام العرب داخلة على الابتداء والخبر بمنزلة صار، وذلك كما تقول: عاد زيد ملكاً تريد: صار، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

[البسيط] تلكَ المـكارمُ لا قعبـانِ منْ لبنٍ ... شِـيبَا بماءٍ، فعـادا بعد أبـوالا[٣]

وهذه لا تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان العائد عليها قبلُ، لكنها مقيدة بخبرها لا يجوز الاقتصار دونه، فحكمها حكم صار.

وقوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عبارة تجمع الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله حين صدَّ في وجه نبيه، وبمن هلك في يوم بدر بسيف الإسلام والشرع، والمعنى: فقد رأيتم ببدر وسمعتم عن الأمم ما حل.

قال القاضي أبو محمد: والتخويف عليهم بقصة بدر أشد، إذ هي القريبة منهم

(١) كتبت في المطبوع: «ينتهوا».
(٢) نقلها عنه الزمخشري في الكشاف (٢/ ٢١٩).
(٣) تقدم في تفسير الآية (٨٧) من سورة الأعراف، وهو منسوب هنا في أكثر النسخ لأبي الصلت، وفي الأسدية لابنه أمية.

والمعايَنة عندهم، وعليها نص ابن إسحاق والسدي[١].

وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الآية، أمر من الله عز وجل فرض به على المؤمنين أن يقاتلوا الكفار، و«الفتنة»: قال ابن عباس وغيره: معناها الشرك[٢].

وقال ابن إسحاق: معناها: حتى لا يفتن أحد عن دينه، كما كانت قريش تفعل بمكة بمن أسلم كبلال وغيره[٣]، وهو مقتضى قول عروة بن الزبير في جوابه لعبد الملك بن مروان حين سأله عن خروج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً[٤].

وقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: لا يشرك معه صنم ولا وثن ولا يعبد غيره، وقال قتادة: حتى تستوسق[٥] كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله[٦].

قال القاضي أبو محمد: وهذه المعاني تتلازم كلها.

وقال الحسن: حتى لا يكون بلاء[٧].

وهذا يلزم عليه القتال في فتن المسلمين الفئةَ الباغية، وعلى سائر ما ذكرناه من الأقوال يكون المعتزل في فسحة، وعلى هذا جاء قول عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أما نحن فقد قاتلنا حتى لم تكن فتنةٌ، وأما أنت وأصحابك فتريدون أن [نقاتل حتى] تكون فتنةٌ[٨].

قال القاضي أبو محمد: فمذهب ابن عمر أن الفتنة الشركُ في هذه الآية، وهو

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٥٣٧).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ٥٣٨) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٧٠١).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٦٧).

(٥) في التركية: «يستوسق». وفي نجيبويه: «تستوثق».

(٦) تفسير الطبري (١٣/ ٥٣٨)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٥٦).

(٧) تفسير الطبري (١٣/ ٥٣٨).

(٨) صحيح، هذا الأثر أخرجه البخاري (٤٥١٣) عن ابن عمر، وما بين المعكوفتين ساقط من الأسدية، وفي نجيبويه: «تقاتلوا».

الظاهر، وفسر هذه الآيةَ قولُ النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا[١]: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»[٢].

ومن قال: المعنى: حتى لا يكون شركٌ، فالآية عنده يراد بها الخصوص فيمن لا يقبل منه جزية، قال ابن سلام: وهي في مشركي العرب[٣].

قال الله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ أي: عن الكفر فإن الله بصير بعملهم مُجازٍ عليه، عنده ثوابه وجميل المعاوضة[٤] عليه.

وقرأ يعقوب بن إسحاق وسلام بن سليمان[٥]: ﴿بما تعملون﴾ بالتاء[٦]، أي: في قتالكم وجِدِّكم وجِلادكم[٧] عن دينه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ الآية، معادل لقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾، والمعنى: فإن انتهوا عن الكفر فالله مجازيهم، أو مجازيكم على قراءة ﴿تعملون﴾، وإن تولوا [ولم ينتهوا][٨] فاعلموا أن الله ينصركم عليهم، وهذا وعد محض بالنصر والظفر، أي: فجدُّوا.

و«المولى» هاهنا: المُوالي والمُعِين، والمولى في اللغة على معان هذا هو الذي يليق بهذا الموضع منها، والمولى الذي هو السيد المقترن بالعبد يعم المؤمنين والمشركين.

---

(١) في الأصل: «يقاتلوا»، وهو تصحيف واضح.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٢٥) (٣٩٢) (١٣٩٩) (٢٩٤٦) (٦٩٢٤) (٧٢٨٤) ومسلم (٢٠-٢٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) تفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢٣٢).

(٤) في المطبوع وأحمد٣: «المقارضة».

(٥) في الأسدية: «سليمان بن يسار»، بدل: «سلام بن سليمان»، ويعقوب هو الحضرمي أحد العشرة، وسلام هو الطويل تقدم التعريف به.

(٦) تابعه في البحر المحيط (٥/ ٣١٩)، وهي عشرية من رواية رويس عن يعقوب كما في النشر (٢/ ٢٧٦).

(٧) في جار الله ونجيبويه: «وجدالكم». مع الإشارة في الهامش إلى أن في نسخة أخرى عبارة: «وجلادكم»، وفي نور العثمانية: «خلافهم».

(٨) ساقط من المطبوع.

قوله عز وجل: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١﴾.

موضع (أنَّ) الثانية رفع، التقدير: فحكمُه أنَّ، فهي في موضع خبر الابتداء، و«الغنيمة» في اللغة: ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي، من ذلك قول الشاعر:

وقـد طَوَّفْـتُ فـي الآفـاقِ حَتـى ... رَضيتُ مِـنَ الغَنيمَـةِ بالإيابِ[1] [الوافر]

وقال آخر:

ومُطْعَمُ الغُنْمِ يـومَ الغُنْم مُطْعَمُهُ ... أَنَّى تَوَجَّهَ والمحْرومُ مَحْرُومُ[2] [البسيط]

ومنه قول النبي ﷺ في الرهن: «له غُنْمُه وعليه غُرمه»[3]، وقوله: «الصيام في الشتاء هو الغنيمة الباردة»[4]، فالشيء الذي يناله المسلمون من عدوهم بالسعي

---

(١) البيت لامرئ القيس في مجاز القرآن (٢/ ٢٢٤)، والبيان والتبيين (٣/ ١٧٠)، والشعر والشعراء (١/ ١١٤)، والكامل (٢/ ١٠٦).

(٢) البيت لعلقمة الفحل كما في المفضليات (ص: ٤٠١)، والحيوان (٧/ ٨٧)، وجمهرة اللغة (١/ ٥٢٢)، والاختيارين (ص: ٦٤٠).

(٣) في المطبوع: «مخرجه»، وهذا الحديث روي متصلاً ومرسلاً، والمحفوظ المرسل، قال ابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٤٣٠): «هذا الحديث عند أهل العلم بالنقل مرسل، وإن كان قد وصل من جهات كثيرة فإنهم يعللونها» وقال أيضاً (٦/ ٤٢٦): «اختلف في قوله «له غُنمه وعليه غرمه» فقيل: هي مدرجة من قول سعيد بن المسيب، قال: ورفعها ابن أبي ذئب ومعمر وغيرهما مع كونهم أرسلوا الحديث، على اختلاف على ابن أبي ذئب، ووقفها غيرهم. وقد روى ابن وهب هذا الحديث فجوده وبين أن هذه اللفظة من قول ابن المسيب، وكذا أبو داود في المراسيل [رقم ١٨٦] قوى أنه من قوله» .اهـ. ويراجع في تخريجه كتاب البدر المنير (٦/ ٦٣٧).

(٤) مرسل وصح عن أبي هريرة من قوله، هذا الحديث أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٥)، والترمذي (٧٩٧)، وابن خزيمة (٢١٤٥) من طريق: أبي إسحاق، عن نمير بن عريب، عن عامر بن مسعود مرفوعاً، قال أبو عيسى: هذا حديث مرسل، عامر بن مسعود لم يدرك النبي ﷺ. اهـ. ونقله الترمذي عن البخاري كما في ترتيب العلل (٢١٨). ونمير لا يعرف إلا في هذا الحديث ولم يوثق توثيقاً معتبراً. =

وإيجاف الخيل والركاب غنيمة، ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتى صار عُرفاً له.

و«الفيء»: مأخوذ من فاء يفيء إذا رجع، وهو كل ما دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجاف، كخراج الأرض وجزية الجماجم وخُمس الغنيمة ونحو هذا.

قال القاضي أبو محمد: والزكوات أيضاً مالٌ على حِدَته، أحكامه منفردة دون أحكام هذين، قال سفيان الثوري وعطاء بن السائب: «الغنيمة ما أخذ عنوةً والفيء ما أخذ صلحاً»، وهذا قريب مما بيناه.

وقال قتادة: الفيء والغنيمة شيء واحد فيهما الخمس، وهذه الآية التي في الأنفال ناسخة لقوله في سورة الحشر: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾[٧]، وذلك أن تلك كانت الحكمَ أولاً، ثم أعطى الله أهلها الخمس فقط وجعل الأربعة الأخماس في المقاتلين[(١)].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول ضعيف نص العلماء على ضعفه، وأنْ لا وجه له من جهات: منها أن هذه السورة نزلت قبل سورة الحشر، هذه ببدر، وتلك في بني النضير [وقرى عرينة، ولأن الآيتين متفقتان وحكم الخمس وحكم تلك الآية واحد لأنها نزلت في بني النضير][(٢)] حين جلوا[(٣)] وهربوا، وأهل فدك حين دعوا إلى صلح ونال المسلمون مالهم دون إيجاف، وحكى ابن المنذر عن الشافعي أن في الفيء الخمس، وأنه كان في قرى عرينة زمن النبي / ﷺ، وأن أربعة أخماسها كان للرسول ﷺ خاصة دون المسلمين يضعها حيث شاء[(٤)]. [٢/ ٢٠٦]

= وله شاهد عند ابن أبي عاصم والطبراني وغيرهما من حديث سعيد بن بشير عن قتادة عن أنس مرفوعاً، وسعيد ضعيف عند أكثرهم وقد رواه همام عن قتادة فجعله عن أنس عن أبي هريرة موقوفاً، أخرجه البيهقي وأبو نعيم وعبد الله بن أحمد وهو أصح. انظر: المقاصد الحسنة (١/ ٤٠٣).

(١) انظر أقوالهم في تفسير الطبري (١٣/ ٥٤٥)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣١٩)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٥٧).

(٢) ساقط من التركية، وفي نجيبويه: «قرى عربية».

(٣) في الأسدية والتركية: «حلوا».

(٤) انظر: الأوسط (٦/ ٤٢٣-٤٢٤)، وانظر أيضاً: الأم (٤/ ١٧٦-١٧٧).

وقال أبو عبيد: هذه الآية ناسخة لقوله في أول السورة: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، ولم يخمِّس رسول الله ﷺ غنائم بدر، فنسخ حكمه في ترك التخميس بهذه الآية[١].

قال القاضي أبو محمد: ويظهر من قول علي بن أبي طالب في البخاري: كانت لي شارفٌ من نصيبي من المغنم ببدر، وشارف أعطانيها رسول الله ﷺ من الخمس حينئذ[٢]، أن غنيمة بدر خمَّست، فإن كان ذلك فسد قول أبي عبيدة.

ويحتمل أن يكون الخمس الذي ذكره علي بن أبي طالب من إحدى الغزوات التي كانت بين بدر وأحد، فقد كانت غزوة بني سليم وغزوة السَّوِيق وغزوة ذي أَمَر وغزوة بُحران[٣] ولم يحفظ فيها قتال، ولكن يمكن أن غُنمت فيها غنائم، والله أعلم.

وقوله في هذه الآية: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ ظاهره عام ومعناه الخصوص، فأما الناضُّ والمتاع والأطفال والنساء وما لا يؤكل لحمه من الحيوان ويصح تملُّكه فليس للإمام في جميع ذلك ـ ما كثر منه وما قل كالخائط والمخيط ـ إلا أن يأخذ الخمس ويقسم الباقي في أهل الجيش[٤]، وأما الأرض فقال فيها مالك: يقسمها[٥] الإمام إن رأى ذلك صواباً، كما فعل النبي ﷺ بخيبر، ولا يقسمها إن أداه اجتهاده إلى ذلك كما فعل عمر بأرض مصر وسواد الكوفة[٦].

قال القاضي أبو محمد: لأن فعل عمر ليس بمخالف لفعل النبي ﷺ، إذ ليست النازلة واحدة بحسب قرائن الوقتين وحاجة الصحابة وقلتهم، وهذا كله انعكس في زمان عمر.

---

(١) الناسخ والمنسوخ لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص: ٢١٧)، وفي المطبوع: «أبو عبيدة» في الموضعين، وهو خطأ.

(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٢٠٨٩) (٣٠٩١) (٤٠٠٣)، ومسلم (١٩٧٩).

(٣) «بحران» من المطبوع وجار الله، وفي باقي النسخ: «نجران»، وهو خطأ. وبُحران: موضع بناحية الفُرع، وبين الفرع والمدينة ثمانية برد.

(٤) في التركية: «الخمس».

(٥) في الأسدية: «يضمها».

(٦) انظر قول مالك في البيان والتحصيل (٢/ ٥٣٩).

وأما الرجال ومن شارف البلوغ من الصبيان، فالإمام عند مالك وجمهور العلماء مخيَّر فيهم على خمسة أوجه:

منها: القتل، وهو مستحسن في أهل الشجاعة والنكاية.

ومنها: الفداء، وهو مستحسن في ذي المنصب الذي ليس بشجاع ولا يخاف منه رأي ولا مكيدة؛ لانتفاع المسلمين بالمال الذي يؤخذ منه.

ومنها: المن، وهو مستحسن فيمن يرجى أن يحنو على أسرى المسلمين ونحو ذلك من القرائن.

ومنها: الاسترقاق، ومنها ضرب الجزية والترك في الذمة[١].

وأما الطعام والغنم ونحوهما مما يؤكل فهو مباح في بلد العدو، ويأكله الناس، فما بقي منه كان في المغنم[٢].

قال القاضي أبو محمد: وأما أربعة أخماس ما غنم فيقسمه الإمام على الجيش، ولا يختص بهذه الآية ذكر القسمة فأنا أختصره هنا.

وأما الخمس فاختلف العلماء فيه، فقال مالك رحمه الله: الرأي فيه للإمام يلحقه ببيت الفيء، ويعطي من ذلك البيت لقرابة رسول الله ﷺ ما رآه، كما يعطي منه اليتامى والمساكين وغيرهم، وإنما ذُكر مَن ذُكر على وجه التنبيه عليهم لأنهم من أهم من يدفع إليه[٣]، قال الزجَّاج محتجّاً لمالك: قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[٤].

---

(١) انظر ما عزاه لمالك والجمهور في بداية المجتهد (١/ ٣٠٦).

(٢) انظر حكاية الإجماع على ذلك في الاستذكار (٥/ ٥١-٥٢).

(٣) انظر قول مالك في البيان والتحصيل (٣/ ٨٠).

(٤) البقرة (٢١٥)، وانظر الاحتجاج المذكور في معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤١٦).

وللرجل[١] بإجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك[٢].

وقالت فرقة: كان الخمس يقسم على ستة أقسام: قسم لله وهو مردود على فقراء المسلمين أو على بيت الله، وقسم للنبي ﷺ، وقسم لقرابته، وقسم لسائر من سمي، حكى القول منذر بن سعيد، ورُد عليه[٣].

قال أبو العالية الرياحي: كان النبي ﷺ يقبض من خمس[٤] الغنيمة قبضة فيجعلها للكعبة فذلك لله، ثم يقسم الباقي على خمسة، قسْم له وقسم لسائر مَن سُمي[٥].

وقال الحسن بن محمد[٦] وابن عباس[٧] وإبراهيم النخعي وقتادة والشافعي[٨]: قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ استفتاح كلام، كما يقول الرجل لعبده: قد أعتقك الله وأعتقتك[٩]، على جهة التبرك وتفخيم الأمر، والدنيا كلها لله، وقسم الله وقسم الرسول واحد.

وكان الرسول ﷺ يقسم الخمس على خمسة أقسام كما تقدم.

وقال ابن عباس أيضاً فيما روى عنه الطبري: الخمس مقسوم على أربعة أقسام، وسهم الرسول ﷺ، لقرابته وليس لله ولا للرسول شيء[١٠].

---

(١) في المطبوع: «وللإمام».

(٢) انظر الإجماع عليه في الإقناع (٣/ ١٠٥٦).

(٣) لم أقف عليه، وقد حكاه ابن المنذر في الأوسط (٦/ ٨٧) عن بعض أهل الكلام لم يسمهم.

(٤) ساقط من نجيبويه.

(٥) مرسل، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٣/ ٥٥٠، ٥٥١) عنه، وهو مرسل.

(٦) «بن محمد»: ليس في الأسدية، وهو الحسن بن محمد بن الحنفية أبو محمد، كان هو المقدم في الهيئة والفضل، وهو أول من تكلم في الإرجاء، وكان من ظرفاء بني هاشم وعقلائهم، وقال العجلي: هو تابعي ثقة، توفي سنة (٩٥هـ). تاريخ الإسلام (٦/ ٣٣١).

(٧) إسناده تالف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٣/ ٥٤٨-٥٤٩) بإسناد تالف، فيه نهشل بن سعيد.

(٨) كذا في جميع النسخ، ولعله الشعبي، انظر نسبة هذا القول للشعبي والحسن بن محمد بن الحنفية وعطاء في الأوسط (٦/ ٨٦).

(٩) سقطت من نجيبويه.

(١٠) أخرجه الطبري (١٣/ ٥٥١) من طريق معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وفيه مقال.

وقالت فرقة: قسم [الرسول ﷺ، بعد موته][1] مردود على أهل الخمس؛ القرابةِ وغيرها.

وقالت فرقة: هو مردود على الجيش أصحاب الأربعة الأخماس[2].

وقال علي بن أبي طالب: يلي الإمامُ سهمَ الله ورسوله[3].

وقالت فرقة: هو موقوف لشراء العُدَد والكُرَاع[4] في سبيل الله، وقال إبراهيم النخعي: وهو الذي اختاره أبو بكر وعمر فيه[5]، وقال أصحاب الرأي: الخمس بعد النبي ﷺ، مقسوم ثلاثة أقسام: قسم لليتامى، وقسم للمساكين وقسم لابن السبيل، ورسول الله ﷺ لم يورث، فسقط سهمه وسهم ذوي القربى، وحجتهم فيه منع أبي بكر وعمر وعثمان لذوي القربى[6].

قال القاضي أبو محمد: ولم يثبت المنع، بل عُورض بنو هاشم بأن قريشاً قربى، وقيل: لم يكن في مدة أبي بكر مغنم.

وقال الشافعي: يعطى أهل الخمس منه ولا بد، ويفضِّل الإمام أهل الحاجة ولكن لا يحرم صنفاً منهم حرماناً تامّاً[7].

وقول مالك رحمه الله: إن للإمام أن يعطي الأحوجَ وإن حَرَم الغير[8].

---

(١) ساقط من الأسدية.

(٢) انظر قول الفرقتين في الأوسط (٦/ ٩٤-٩٥)، ولم يسم ابن المنذر أحداً من هاتين الفرقتين.

(٣) انظر قول علي رضي الله عنه في تفسير الطبري (١٣/ ٥٥٨)، وهو من طريق عمران بن ظبيان، وهو ضعيف لا يحتج به.

(٤) في الأصل: «وللكراء».

(٥) انظر قول هذه الفرقة في الأوسط (٦/ ٩٦)، وانظر قولها وقول إبراهيم في تفسير الطبري (١٣/ ٧٥٧).

(٦) انظر ما نسبه لأصحاب الرأي من قول واحتجاج في أحكام القرآن للجصاص (٤/ ٢٤٥-٢٤٧).

(٧) انظر مذهب الشافعي في الحاوي للماوردي (٨/ ٤٣٧-٤٣٩).

(٨) انظر مذهب مالك في المسألة في البيان والتحصيل (٣/ ٨٠).

قال القاضي أبو محمد: وكان رسول الله ﷺ مخصوصاً من الغنيمة بثلاثة أشياء: كان له خمس الخمس، وكان له سهم رجل في سائر الأربعة الأخماس، وكان له صَفِيٌّ يأخذه قبل القسمة، دابةٌ، أو سيف، أو جارية، ولا صَفيَّ لأحد بعده بإجماع، إلا ما قال أبو ثور من أن الصفيَّ باق للإمام، وهو قول معدود في شواذ / الأقوال[1]. [٢/ ٢٠٧]

و«ذوو القربى»: قرابة رسول الله ﷺ، فقال علي بن الحسين [وعبد الله بن الحسن][2] وعبد الله بن عباس: هم بنو هاشم فقط[3]، فقال مجاهد: كان آل محمد ﷺ لا تحل لهم الصدقة، فجعل لهم خمس الخمس[4]، [قال ابن عباس: ولكن أبى ذلك علينا قومنا، وقالوا: قريش كلها قربى][5]، وقال الشافعي: هم بنو هاشم وبنو المطلب فقط[6]، وقد قال رسول الله ﷺ لعثمان بن عفان وجبير بن مطعم في وقت قسمة سهم ذوي القربى من خيبر على بني هاشم وبني المطلب: إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، ما فارقونا في جاهلية ولا في الإسلام[7].

قال القاضي أبو محمد: كانوا مع بني هاشم في الشعب.

---

(١) انظر حكاية الإجماع وخلاف أبي ثور في الإقناع (٣/ ١٠٥٥-١٠٥٦)، والأوسط (٦/ ٩٧).

(٢) ساقط من نور العثمانية، وفي الأصل: «الحسين» بدل «الحسن»، وهو عبد الله بن حسن بن حسن ابن علي ابن أبي طالب، وأمه فاطمة بنت حسين بن علي، ثقة من العبَّاد، وكان له شرف وعارضة وهيبة ولسان شديد، توفي سنة (١٤٤هـ). تاريخ الإسلام (٩/ ١٩١).

(٣) تفسير الثعلبي (٤/ ٣٥٨).

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ٥٥٣).

(٥) ساقط من التركية، والأثر ضعيف، أخرجه الطبري (١٣/ ٥٥٥) من طريق عبد الله بن نافع، عن أبي معشر، عن سعيد المقبري قال: كتب نجدة إلى ابن عباس يسأله عن ذي القربى، قال: فكتب إليه ابن عباس...، عبد الله بن نافع هو الصائغ، وأبو معشر هو نجيح السندي.

(٦) انظر قول الشافعي في الأم (٤/ ١٤٧).

(٧) صحيح، هذا الحديث أخرجه البخاري (٣١٤٠) (٣٥٠٢) (٤٢٢٩)، وقد سقط أول الحديث من التركية.

وقالت فرقة: قريش كلها[١] ذوو قربى، وروي عن علي بن الحسين وعبد الله بن محمد بن علي أنهما قالا: الآية كلها في قريش، والمراد يتامى قريش ومساكينها[٢].

وقالت فرقة: سهم القرابة بعد النبي ﷺ موقوف على قرابته، وقد بعثه إليهم عمر ابن عبد العزيز، إلى بني هاشم وبني المطلب فقط.

وقالت فرقة: هو لقرابة الإمام القائم بالأمر، وقال قتادة: كان سهم ذوي القربى طعمة لرسول الله ﷺ ما كان حيّاً، فلما توفي جُعل لولي الأمر بعده، وقاله الحسن بن أبي الحسن البصري[٣]، وحكى الطبري أيضاً عن الحسن أنه قال: اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة النبي ﷺ، فقال قوم: سهم النبي ﷺ للخليفة، وقال قوم: سهم النبي ﷺ لقرابة النبي ﷺ، وقال قوم: سهم القرابة لقرابة الخليفة، فاجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعُدَّة، فكان على ذلك مدة أبي بكر رضي الله عنه، قال غير الحسن: وعمر[٤].

و(اليتامى): الذين فقدوا آباءهم من الصبيان، واليتم في بني آدم من قِبَل الآباء وفي البهائم من قِبَل الأمهات، [وفي الطيور من قِبَل الأبوين][٥].

و(المساكين): الذين لا شيء لهم، وهو مأخوذ من السكون وقلة الحراك.

و(ابن السبيل): الرجل المجتاز[٦] الذي قد احتاج في سفر، وسواء كان غنيّاً في بلده أو فقيراً فإنه ابن السبيل، يسمى بذلك إما لأن السبيل تُبْرِزه فكأنها تَلِدُه، وإما لملازمة السبيل

(١) في التركية وأحمد٣: «بأسرها»، وفي نحيبويه: «بأسرها كلها ذوو قربى».
(٢) لم أقف على هذا القول لهما، وهو خلاف ما تقدم عنهما.
(٣) انظر قول قتادة في تفسير الطبري (١٣/ ٥٥٧)، وانظر قول الحسن في مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٧٠٠).
(٤) تفسير الطبري (١٣/ ٥٥٨)، وروى أنها كانت في زمن عمر عن الحسن أيضاً.
(٥) زيادة من الأسدية، وقد تقدم مثله مكرراً.
(٦) في نجيبويه: «المحتاج».

كما قالوا: ابن ماء، وأخو سفر، ومنه قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة ابن زنًى»[(١)]، وقد تقدم هذا.

قال القاضي أبو محمد: وقد اقتضبتُ فقه هذه الآية حسب الاختصار والله المستعان.

و(ما) في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ بمعنى الذي، وفي قوله: ﴿غَنِمْتُم﴾ ضمير يعود عليها، وحكي عن الفراء أنه جوَّز أن تكون (ما) شرطيةً بتقدير: أنه ما، وحذفُ هذا الضمير لا يجوز عند سيبويه إلا في الشعر[(٢)]، ومنه:

إنَّ مَـنْ يدخـلِ الكنيسـةَ يوماً[(٣)] .... [الخفيف]

قرأ الجمهور: ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ ﴾ بفتح الهمزة، وقرأ الجعفي عن أبي بكر عن عاصم، وحسين عن أبي عمرو: (فإن) بكسر الهمزة[(٤)].

وقرأ الحسن: (خُمْسَه) بسكون الميم[(٥)].

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ الآية، قال الزجّاج عن فرقة: المعنى: فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم، و﴿إِن﴾ متعلقة بهذا الوعد، وقال أيضاً عن فرقة: إنها متعلقة بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾[(٦)].

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو الصحيح، لأن قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ يتضمن الأمر

---

(١) لا يصح، هذا الحديث روي عن أبي هريرة من طريق مجاهد، واختلف على مجاهد فيه اختلافاً كثيراً، وقد ساق النسائي هذا الخلاف في السنن الكبرى (٣/ ١٧٧). وروي أيضاً عن عبد الله بن عمرو، أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٢٥٧) من طريق سالم عن نبيط، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، وذكر البخاري أيضاً الاختلاف في إسناده، وأعله بالانقطاع في مواضع.

(٢) في نجيبويه زيادة: «ضرورة»، والمراد مذهبهما في مثل هذا، ومثله في البحر المحيط (٥/ ٣٢٦).

(٣) تمامه: يَلْقَ فيها جآذراً وظباءَ، وهو للأخطل كما في خزانة الأدب (١/ ٤٥٨) عن ابن السِّيد في شرح أبيات الجمل.

(٤) عزاها الهذلي في الكامل (ص: ٥٥٩) وغيره لرواية هارون، والجعفي، واللؤلؤي، وخارجة عن أبي عمرو، ولم أجدها لعاصم.

(٥) انظر عزوها له في الشواذ للكرماني (ص: ٢٠٥).

(٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤١٦).

بانقياد وتسليم لأمر الله في الغنائم، فعلق ﴿إِن﴾ بقوله: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ ﴾، على هذا المعنى، أي: إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلِّموا لأمر الله فيما أَعْلَمَكم به من حال قسمة الغنيمة.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ عطف على قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾، والمشار إليه بـ(ما) هو النصر والظهور الذي أنزله الله يوم بدر على نبيه وأصحابه، أي: إن كنتم مؤمنين بالله وبهذه الآيات العظائم الباهرة التي أنزلت يوم بدر، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى قرآن نزل يوم بدر أو في قصة يوم بدر على تكرُّهٍ في هذا التأويل الأخير.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أن يكون المعنى: واعلموا أنما غنمتم يوم الفرقان يوم التقى الجمعان فإنَّ خمسه لكذا وكذا إن كنتم آمنتم، أي فانقادوا لذلك وسلِّموا، وهذا تأويل حسن في المعنى، ويُعترض فيه الفصلُ بين الظرف وما تعلق به بهذه الجملة الكثيرة من الكلام.

و﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾: معناه: يوم الفرق بين الحق والباطل بإعزاز الإسلام وإذلال الشرك.

و﴿ٱلۡفُرۡقَانِ﴾: مصدر من فَـرَق يَفْرُق.

و﴿ٱلۡجَمۡعَانِ﴾: يريد: جمع المسلمين وجمع الكفار، وهو يوم الوقعة التي قتل فيها صناديد قريش ببدر، ولا خلاف في ذلك، وعليه نص ابن عباس(١) ومجاهد ومقسم والحسن بن علي وقتادة وغيرهم(٢)، وكانت يوم الجمعة السابعَ عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة هذا قول جمهور الناس.

وقال أبو صالح: لتسع عشرة، وشك في ذلك عروة بن الزبير، وقال: لتسع عشرة أو لسبع عشرة(٣)، والصحيح ما عليه الجمهور.

وقوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، يعضد أن قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ

---

(١) أخرجه الطبري (١٣/ ٥٦١) من طريق علي بن أبي طلحة والعوفي ـ مفرقين ـ عن ابن عباس.
(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٥٦٢)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ١٥٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٧٠٦).
(٣) انظر قول أبي صالح وعروة في تفسير الطبري (١٣/ ٥٦١).

عَبۡدِنَا﴾ يراد به النصر والظفر، أي: الآيات والعظائم من غلبة القليل الكثيرَ، وذلك بقدرة الله تعالى الذي هو على كل شيء قدير.

قوله عز وجل: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ٤٢﴾.

العامل في ﴿إِذۡ﴾ قوله: ﴿ٱلۡتَقَى﴾، و(الْعُدْوَة): شفير الوادي وحرفُه الذي يتعذر المشي فيه بمنزلة رحا[1] البئر؛ لأنها عَدَتْ ما في الوادي من ماء ونحوه أن يتجاوز الوادي، أي: منعته، ومنه قول الشاعر:

[الوافر]

عَدَتْنِي عَنْ زِيَارَتِكِ العَوَادِي وَحَالَتْ دُونَهَا حَرْبٌ زَبُونُ[2]

[٢/ ٢٠٨]

ولأنها ما عدا الوادي، أي: جاوزه، وتسمى الضَّفةُ والفضاء / المسايرُ للوادي عدوةً للمجاورة، وهذه هي العدوة التي في الآية.

وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ﴾، بضم العين، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿بالعِدوة﴾، بكسر العين[3]، [وهما لغتان.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن وقتادة وعمرو: (بالعَدْوة) بفتح العين][4]، ويمكن أن تكون تسميةً بالمصدر، قال أبو الفتح: الذي في هذا أنها لغة ثالثة كقولهم: في اللبن رَغْوة ورُغْوة ورِغْوة، وروى الكسائي: كلَّمته بحَضرة فلان وحُضرته وحِضرته، إلى سائر نظائرَ ذكر أبو الفتح كثيراً منها[5].

---

(١) في المطبوع والتركية: «رجا»، وفي نجيبويه: «رجاء».

(٢) البيت للنابغة كما في سمط اللآلي (١/ ٥٨)، وهو في أمالي القالي (١/ ١٢) بلا نسبة.

(٣) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٦)، والسبعة في القراءات (ص: ٣٠٦).

(٤) انظر عزوها لهم في المحتسب (١ / ٢٧٩)، ولم ينسب عمراً، وهو في أحمد٣: «عمر»، وما بين المعكوفتين ساقط من الأسدية.

(٥) انظر: المحتسب (١/ ٢٨٠).

وقوله: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْقُصْوَىٰ﴾: إنما هو بالإضافة إلى المدينة.

وفي حرف ابن مسعود: (إذ أنتم بالعدوة العليا وهم بالعدوة السفلى)[(١)].

ووادي بدر آخذ بين الشرق والقبلة منحرفٌ إلى البحر الذي هو قريب من ذلك الصُّقع، والمدينة من الوادي من موضع الوقعة منه في الشرق وبينهما مرحلتان، حدثني أبي أنه رأى هذه المواضع على ما وصفتُ، وقال ابن عباس: بدر بين مكة والمدينة[(٢)].

و«الدُّنْيا» من الدنوِّ، و«الْقُصْوى» من القصوِّ، وهو البعد، وكان القياس أن تكون: القصيا، لكنه من الشاذ، وقال الخليل في «العين»: شذت لفظتان وهما القصوى والفتوى، وكان القياس فيهما بالياء كالدنيا والعليا[(٣)].

و(الرَّكْبُ) بإجماع من المفسرين: عِير أبي سفيان، ولا يقال: ركب، إلا لركاب الإبل وهو من أسماء الجمع، وقد يجمع راكب عليه، كصاحب وصحب، وتاجر وتجر، ولا يقال ركبٌ لما كثر جداً من الجموع، وقال القتبي: الركب العشرة ونحوها[(٤)]، وهذا غير جيد لأن النبي ﷺ، قد قال: «والثلاثة ركب»[(٥)] الحديث.

---

(١) انظر: تفسير الماتريدي (٥/ ٢٢٤).

(٢) قاله العوفي عن ابن عباس، أخرجه الطبري (١٣/ ٥٦٢).

(٣) كتاب العين (٥ / ١٨٧).

(٤) أدب الكاتب (ص: ١٧٥)، والقتبي هو ابن قتيبة، ويقال أيضاً: القتيبي، وفي الأسدية: العتبي. وفي التركية: العتيبي، وكلاهما خطأ.

(٥) إسناده مختلف في الاحتجاج به، هذا الحديث أخرجه مالك في الموطأ (٦٠٥)، وأحمد (٢/ ١٨٦) (٦٧٤٨) من طريق: مسلم بن خالد، يعني الزنجي. وأبو داود (٢٦٠٧) والترمذي (١٦٧٤) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦٦) من طريق مالك، كلاهما ـ مالك ومسلم ـ عن: عبد الرحمن بن حرملة، وأخرجه ابن خزيمة (٢٥٧٠) من طريق ابن عجلان، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، وفي الاحتجاج بهذا الإسناد خلاف معروف، وقد أخرجه أحمد (٢/ ٢١٤) (٧٠٠٧) من طريق: إسماعيل بن عياش، عن عبد الرحمن ابن حرملة، عن عمرو بن شعيب، قال: سمعت أبي يحدث عن أبيه، أنه سمع النبي ﷺ، =

وقوله: ﴿أَسۡفَلَ﴾ في موضع خفض تقديره في مكان أسفل كذا قال سيبويه، قال أبو حاتم: نصب ﴿أَسۡفَلَ﴾ على الظرف، ويجوز: الركبُ أسفلُ، على معنى: وموضع الركب أسفلُ، أو الركبُ مستقراً أسفلُ[(١)].

قال القاضي أبو محمد: وكان الركب، ومدبر أمره أبو سفيان بن حرب، قد نكّب عن بدر حين نُذر بالنبي ﷺ، وأخذ سِيف البحر، فهو أسفلُ بالإضافة إلى أعلى الوادي من حيث يأتي.

وقال مجاهد في كتاب الطبري: أقبل أبو سفيان وأصحابه من الشام تجاراً لم يشعروا بأصحاب بدر، ولم يشعر أصحاب محمد ﷺ بكفار قريش، ولا كفار قريش بمحمد ﷺ وأصحابه، حتى التقوا على ماء بدر [من يسقي لهم كلهم]، فاقتتلوا فغلبهم أصحاب محمد ﷺ فأسروهم[(٢)].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا تعقب، وكان مِن هذه الفرق شعور يَبين من الوقوف على القصة بكمالها.

وقوله: ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ قال الطبري وغيره: المعنى: لو تواعدتم على الاجتماع ثم علمتم كثرتهم وقلتكم لخالفتم ولم تجتمعوا معهم[(٣)].

وقال المهدوي: المعنى: أي لاختلفتم بالقواطع والعوارض القاطعة بين الناس[(٤)].

قال القاضي أبو محمد: وهذا أنبل وأصح[(٥)]، وإيضاحه: أن المقصد من الآية

= يقول... الحديث، ورواية إسماعيل عن غير الشاميين فيها نكارة، وعبد الرحمن مدني، وقوله: عن أبيه، هو محمد جد عمرو بن شعيب، ولم يسمع من النبي ﷺ، فقوله في الإسناد: أنه سمع النبي ﷺ، وهم.

(١) انظر كلام سيبويه في الكتاب لسيبويه (٣/ ٢٨٩)، وأبو حاتم غير متوفر.

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٥٦٤)، وما بين المعكوفتين ساقط من الأسدية.

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٥٦٥) بتصرف.

(٤) التحصيل للمهدوي (٣/ ١٨٧).

(٥) في الأسدية: «وأوضح».

تبيين نعمة الله وقدرته في قصة بدر، وتيسيرِه ما يسر من ذلك، فالمعنى: إذ هيأ الله لكم هذه الحال، ولو تواعدتم لها لاختلفتم إلا مع تيسير الله الذي تمم ذلك، وهذا كما تقول لصاحبك في أمر سناه الله دون تعب كثير: ولو بنينا على هذا وسعينا فيه لم يتم هكذا.

ثم بين تعالى أن ذلك إنما كان بلطف الله عز وجل؛ ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا﴾؛ أي: ليُنفِذ ويظهر أمراً قد قدره في الأزل؛ ﴿مَفْعُولاً﴾ لكم بشرط وجودكم في وقت وجودكم، وذلك كله معدوم عنده.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْۢ بَيِّنَةٍ﴾ الآية، قال الطبري: المعنى: ليُقتل من قُتل من كفار قريش وغيرهم ببيان من الله وإعذار بالرسالة، ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ أيضاً ويعيش من عاش عن بيان منه أيضاً وإعذارٍ لا حجة لأحد عليه، فالهلاك والحياة على هذا التأويل حقيقتان، وقال ابن إسحاق وغيره: معنى ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ أي: ليكفر، ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ أي: ليؤمن[1]، فالحياة والهلاك على هذا مستعارتان، والمعنى: أن الله تعالى جعل قصة بدر عبرة وآية ليؤمن من آمن عن وضوح وبيان ويكفر أيضاً من كفر عن مثل ذلك.

وقرأ الناس: ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ بكسر اللام الثانية، وقرأ الأعمش: (ليَهْلَك) بفتح اللام، ورواها عصمة عن أبي بكر عن عاصم[2]، والبينة صفة، أي: عن قضيةٍ[3] بينة.

واللام الأولى في قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ رد على اللام في قوله: ﴿لِّيَقْضِيَ﴾.

وقرأ ابن كثير في رواية قنبل وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: ﴿مَنْ حَيَّ﴾ بياء واحدة مشددة.

وقرأ نافع وابن كثير في رواية البَزِّي وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿مَن حَيِيَ﴾ بإظهار الياءين وكسر الأولى وفتح الثانية[4].

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٥٦٨)، بتصرف، وفي التركية: «أبو إسحاق»، وهو خطأ.

(٢) انظر عزوها لرواية عصمة في الكامل للهذلي (ص: ٥٥٩)، وللأعمش في الشواذ للكرماني (ص: ٢٠٦).

(٣) في الأسدية: «من صفة».

(٤) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٦)، والسبعة في القراءات (ص: ٣٠٦).

فمن قرأ ﴿حَيَ﴾ فلأن الياء قد لزمتها الحركةُ فصار الفعل بلزوم الحركة لها مشبَّهاً بالصحيح، مثل: عضَّ وشمَّ وهمَّ وكرَّ[١] ونحوه، ألا ترى أن حذف الياء من جَوَارٍ ونحوِه في الجر والرفع لا يطرد في حال النصب إذا قلت: رأيت جواريَ؛ لمشابهتها بالحركة سائر الحروف الصحاح، ومنه قوله: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ [القيامة: ٢٦].

وعلى نحو «حيّ» جاء قول الشاعر:

عَـيُّـوا بـأَمْـرِهِـمُ كَـمـا عَـيَّـتْ بِـبَـيْـضَتِهـا الحَـمـامَـه[٢] [مجزوء الكامل]

ومنه قول لبيد:

سَـأَلـتنِـي جـارتي عَـن أمـتِي وَإِذا مَـا عـيَّ ذُو اللـب سـأَلْ[٣] [الرمل]

وقول المتلمِّس:

فهـذا أوانُ العِـرض حَـيَّ ذُبابُـهُ زنابيـره والأزرقُ المتلمِّـسُ[٤] [الطويل]

ويروى: جُنَّ ذبابُه، قال أبو علي وغيره: هذا أن كل موضع تلزم الحركةُ فيه ياء مستقبلية فالإدغام [في ماضيه جائز، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، [القيامة: ٤٠] لا يجوز الإدغام][٥] فيه لأن حركة النصب غير لازمة، ألا ترى أنها تزول في الرفع وتذهب في الجزم، ولا يلتفت إلى ما أنشد بعضهم لأنه بيت مجهول:

---

(١) «همَّ»: زيادة من الأسدية، و«كرَّ» ساقطة من المطبوع والأصل..

(٢) البيت لعبيد الأبرص كما في الحيوان (٣/ ٩٤)، وأدب الكاتب (ص: ٦٧)، والأغاني (٩/ ١٠٠)، وإيضاح شواهد الإيضاح (٢/ ٨٩٨)، والمفصل في صنعة الإعراب (ص: ٥٤٢)، ونسبه في الصحاح (٦/ ٢٣٢٣) لابن مفرغ، ولعله خطأ إذ لم يتابع عليه.

(٣) لم أجد من عزاه للبيد، وهو منسوب في شرح أدب الكاتب (ص: ٩١)، والحماسة البصرية (١/ ٢٧١) للنَّابِغَة الجعدي.

(٤) انظر عزوه له في طبقات فحول الشعراء (١/ ١٥٦)، والحيوان (٣/ ١٨٦)، والشعر والشعراء (١/ ١٧٩)، والاشتقاق (ص: ٣١٧).

(٥) ساقط من التركية.

[الكامل] وكأنها بين النساءِ سَبيكةٌ تَمْشِي بِسُدَّةِ بَيْتِها فَتُعِيّ[(١)]

[٢/ ٢٠٩] قال أبو علي: وأما في قراءة من / قرأ: ﴿حيي﴾، فبَيَّنَ ولم يُدغم، فإن سيبويه قال: أخبرنا بهذه اللغة يونس، قال: وسمعنا بعض العرب يقول: أحيياء، قال أبو حاتم: القراءة إظهار الياءين والإدغام حسن، فاقرأ كيف تعلمت فإن اللغتين مشهورتان في كلام العرب، والخط فيه ياء واحدة[(٢)].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذه اللفظة استوعب أبو علي القول فيما تَصَرَّف من حيي، كالحي الذي هو مصدر منه وغيرِه.

قوله عز وجل: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

قال المهدوي: ﴿إِذْ﴾ نصب بتقدير: واذكر[(٣)].

قال القاضي أبو محمد: أو بدل من ﴿إِذْ﴾ المتقدمة وهو أحسن.

وتظاهرت الروايات أن هذه الآية نزلت في رؤيا رآها رسول الله ﷺ، رأى فيها عدد الكفار قليلاً فأخبر بذلك أصحابه، فقويت نفوسُهم وحرصوا على اللقاء، فهذا معنى قوله: ﴿فِى مَنَامِكَ﴾ أي: في نومك، قاله مجاهد وغيره[(٤)].

وروي عن الحسن: أن معنى قوله: ﴿فِى مَنَامِكَ﴾ أي: في عينك، إذ هي موضع

---

(١) البيت بلا نسبة في معاني القرآن للفراء (١/ ٤١٢)، وتهذيب اللغة (٣/ ١٦٥)، وانظر جهالته في معاني القرآن للزجاج (٢/ ٤١٨).

(٢) الحجة للقراء للفارسي (٤/ ١٤٣)، وقوله: «قال أبو علي» ساقط من نور العثمانية.

(٣) التحصيل للمهدوي (٣/ ١٨٧).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٧٠٩)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ١٦٠).

النوم[١]، وعلى هذا التأويل تكون الرؤية في اليقظة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا القول ضعيف، وعليه فسر النقاش وذكره عن المازني[٢].

والضمير على التأويلين من قوله: ﴿يُرِيكَهُمُ﴾ عائد على الكفار من أهل مكة، ومما يضعف ما روي عن الحسن: أن معنى هذه الآية يتكرر في التي بعدها، لأن النبي ﷺ مخاطب في الثانية أيضاً، وقد تظاهرت الرواية أن النبي ﷺ انتبه وقال لأصحابه: «أبشروا فلقد نظرت إلى مصارع القوم»[٣]، ونحو هذا، وقد كان علم أنهم ما بين التسع مئة إلى الألف، فكيف يراهم ببصره بخلاف ما علم، والظاهر أنه رآهم في نومه قليلاً قدرُهم وحالُهم وبأسُهم مهزومين مصروعين.

ويحتمل أنه رآهم قليلا عددُهم، فكان تأويل رؤياه انهزامهم، فالقلة والكثرة على الظاهر مستعارة في غير العدد، كما قالوا: «المرء كثير بأخيه»، إلى غير ذلك من الأمثلة.

و«الفشل»: الخَوَر عن الأمر، إما بعد التلبس، وإما بعد العزم على التلبس.

و(لتنازعتم) أي: لتخالفتم، و﴿فِي ٱلْأَمْرِ﴾ يريد: في اللقاء والحرب[٤].

و﴿سَلَّمَ﴾ لفظ يعم كل متخوف[٥] اتصل بالأمر أو عرض في وجهه، فسلم الله من

---

(١) تفسير الماوردي (٢/ ٣٢٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٧٠٩)، وفي الأسدية: «إذ هي موضع الغمة من النوم».

(٢) انظر: البحر المحيط (٥/ ٣٣٠).

(٣) صحيح، هذا الحديث أخرجه مسلم (٢٨٧٣) من طريق: سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس عن عمر، بلفظ: «مصارع أهل بدر».

وروي عن عبد الله بن مسعود، أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ١٨٧) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٤٧) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣٢)، وغيرهم من طريق: أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله به.

(٤) في نجيبويه: «وفج الحرب».

(٥) في الأسدية: «منحرف»، وفي أحمد٣ وجار الله: «مخوف».

ذلك كله، وعبر بعض الناس أن قال: سلَّم لكم أمركم، ونحو هذا مما يندرج فيما ذكرناه.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بإيمانكم وكفركم، فيجازي بحسب ذلك.

وقرأ الجمهور من الناس: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ بشد النون ونصب المكتوبة.

وقرأت فرقة: (ولكنِ اللهُ) برفع المكتوبة[١].

وقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ الآية، و﴿إِذِ﴾: عطف على الأولى، وهذه الرؤية هي في اليقظة بإجماع، وهي الرؤية التي كانت حين التقوا ووقعت العين على العين، والمعنى: أن الله تعالى لما أراد من إنفاذ قضائه في نصرة الإسلام وإظهاره قلَّل كل طائفة في عيون الأخرى، فوقع الخلل في التخمين والحَزْرِ الذي يستعمله الناس في هذا [لتجسر كل طائفة على الأخرى وتتسبَّبَ أسبابُ الحرب، وروي في هذا][٢] عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «لقد قلت ذلك اليوم لرجل إلى جنبي: أتظنهم سبعين؟ قال: بل هم مئة، قال: فلما هزمناهم أسرنا منهم رجلاً، فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً[٣].

قال القاضي أبو محمد: ويَرِدُ على هذا المعنى في التقليل ما روي أن رسول الله ﷺ حين سأل عما ينحرون كل يوم، فأُخبر أنهم يوماً عشراً ويوماً تسعاً، قال: «هم ما بين التسع مئة إلى الألف»[٤]، فإما أن عبد الله ومن جرى مجراه لم يعلم بمقالة رسول الله ﷺ، وإما أن نفرض التقليل الذي في الآية تقليلَ القَدْرِ والمهابة والمنزلة من النجدة.

---

(١) وهي لفظ الجلالة، والقراءة شاذة، عزاها في مختصر الشواذ (ص: ٥٥) لمسلم بن جندب.

(٢) ساقط من الأسدية، وفي الأصل بدل «لتجسر»: «لتسجر»، وهو سبق قلم، وفي المطبوع: «التجسس»، وهو خطأ.

(٣) أخرج ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢١) من طريق أبي إسحاق، عن أبي عبيدة بن عبد الله، عن أبيه قوله: لما أسرنا القوم يوم بدر قلنا: كم كنتم؟ قالوا: كنا ألفاً.

(٤) لا بأس به، هذا الحديث أخرجه أحمد (٩٤٨) وغيره من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة ابن مضرب عن علي به. وروي عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير مرسلاً، أخرجه الطبري في التفسير (٦/ ٢٣٥٢٣٦). وروي عن يزيد بن رومان من قوله كما في دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٢).

وتقدم القول في مثل قوله: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، و«الأمر» المفعول المذكور في الآيتين هو للقصة بأجمعها، وذهب بعض الناس إلى أنهما لمعنيين من معاني القصة، والعمومُ أولى.

وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ تنبيه على أن الحول بأجمعه لله، [وأن كل][1] أمر فله وإليه.

وقرأ الحسن وعيسى بن عمر والأعمش: ﴿تَرْجِع﴾ بفتح التاء وكسر الجيم، قال أبو حاتم: وهي قراءة عامة الناس.

وقرأ الأعرج وابن كثير وأبو عمرو ونافع وغيرهم: ﴿تُرْجَعُ﴾ بضم التاء وفتح الجيم[2].

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾.

هذا أمر بما فيه داعية النصر وسبب العز، وهي وصية من الله متوجهة بحسب التقييد[3] الذي في آية الضعف، ويجري مع معنى الآية قول النبي ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاثبتوا»[4].

---

(١) في الأسدية: «وإن كان»، وفي التركية: «ورد كل».

(٢) لم أجد من نقل كلام أبي حاتم، ولعله يقصد قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]، خاتمة هود، وإلا فلا، والقراءتان هنا سبعيتان، بقي عليه من أهل الثانية عاصم، والأولى للباقين، كما مر في البقرة، انظر: السبعة (ص: ١٨١)، والتيسير (ص: ٨٠).

(٣) في الأسدية: «التفسير».

(٤) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٢٩٦٦) (٧٢٣٧) ومسلم (١٧٤٢) بنحوه.

قال القاضي أبو محمد: وهكذا ينبغي أن يكون المسلم في ولاية الإمارة والقضاء لا يطلب ولا يتمنى، فإن ابتلي صبر على إقامة الحق، و«الفئة»: الجماعة، أصلها: فِئْوَة، وهي من فَأَوْتُ أي: جمعت، ثم أمر الله تعالى بإكثار ذكره هنالك إذ هو عصمة المستنجد ووَزَرُ المستعين، قال قتادة: افترَضَ الله ذكره عند [أشغل ما يكونون، عند] الضراب بالسيوف[1].

قال القاضي أبو محمد: وهذا الذكر خفي؛ لأن رفع الأصوات في موطن القتال رديء مكروه إذا كان إلغاطاً[2]، فأما إن كان من الجمع عند الحملة[3] فحسن فاتٌّ في عضد العدو، وقال قيس بن عُبَادٍ[4]: كان أصحاب رسول الله / ﷺ يكرهون الصوت عند ثلاث: عند قراءة القرآن، وعند الجنازة، وعند القتال[5]. [٢/ ٢١٠]

وقال النبي ﷺ: «اطلبوا إجابة الدعاء عند القتال وإقامةِ الصلاة ونزولِ الغيث»[6].

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٥٧٤)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٦٣)، وما بين المعكوفتين ساقط من الأسدية، و«أشغل»: ساقطة من التركية.

(٢) في المطبوع وأحمد٣: «ألفاظا».

(٣) في الأصل وأحمد٣: «الجملة».

(٤) في الأسدية: «عباده»، وهو قيس بن عباد أبو عبد الله القيسي الضُّبعي البصري، روى عن: عمر، وعلي، وأبي، وروى عنه: الحسن، وابن سيرين، كان كثير العبادة والغزو، ولكنه شيعي، قال ابن سعد: كان ثقة قليل الحديث، قتل قبيل المئة. تاريخ الإسلام (٦/ ١٧٣)

(٥) مرسل، أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ٨٣) وعنه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٤٧٤) عن همام، عن قتادة، عن الحسن، عن قيس بن عباد، ووقع في الزهد: عبادة، خطأ، وقيس مخضرم ليست له صحبة، وأخرج عبد الرزاق (٣/ ٤٥٣) عن معمر عن قتادة عن الحسن قال: أدركت أصحاب رسول الله ﷺ يستحبون خفض الصوت عند الجنائز وعند قراءة القرآن وعند القتال، وبه نأخذ.

(٦) لا يصح، هذا الحديث أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣ / ٣٦٠) من طريق الوليد بن مسلم، عن عفير بن معدان، حدثنا سليم بن عامر، عن أبي أمامة سمعه يحدث عن رسول الله ﷺ بنحوه. وعفير ضعيف باتفاق، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٣٤١) من طريق عبد العزيز بن عمرهو ابن عبد العزيز الأموي، حدثني يزيد بن يزيد بن جابر، عن مكحول، عن بعض أصحاب النبي ﷺ به، ومكحول كثير الإرسال.

وقال ابن عباس: يكره التلثم عند القتال[١].

قال القاضي أبو محمد: ولهذا والله أعلم يَتسنَّن[٢] المرابطون بطرحه عند القتال على ضنانتهم به.

و﴿تُفۡلِحُونَ﴾ معناه: تنالون بغيتكم وتبلغون آمالكم، وهذا مثلُ قول لبيد:

أَفْلِحْ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُبْلَغُ بالضْـ ضَعفِ وقد يُخدَعُ الأرِيبُ[٣] [مخلع البسيط]

وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية، استمرار على الوصية لهم والأخذِ على أيديهم في اختلافهم في أمر بدر وتنازعهم، و﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾ نصب بالفاء في جواب النهي.

قال أبو حاتم في [كتابه عن إبراهيم][٤]: (فتفشِلوا) بكسر الشين، وهذا غير معروف[٥].

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَتَذۡهَبَ﴾ بالتاء من فوق ونصب الباء.

وقرأ هبيرة[٦] عن حفص عن عاصم: (وتَذهبْ ريحُكم) بالتاء وجزم الباء.

وقرأ عيسى بن عمر: (ويَذهبْ) بالياء من تحت وبجزم (يذهبْ).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٣٤٧) من طريق وكيع، عن سفيان، عن عطاء بن السائب قال: كان يكره التلثم في ثلاث: في القتال، وفي الجنائز، وفي الصلاة. ولم أجده من كلام ابن عباس.

(٢) في المطبوع: «يتيمن».

(٣) لم أجد من نسبه له، والصواب أنه لعبيد الأبرص، من معلقته، انظر: جمهرة أشعار العرب (ص: ٣٨٢)، وشرح المعلقات التسع (ص: ١٠٥)، ومجاز القرآن (١/ ٣٠)، وغريب الحديث للقاسم ابن سلام (٤/ ٣٨)، والحيوان (٣/ ٤٣)، والشعر والشعراء (١/ ٢٦١).

(٤) في الأصل والتركية: «كتاب عن إبراهيم»، وفي نور العثمانية: «كتابي إبراهيم»، وفي المطبوع: «كتاب إبراهيم».

(٥) نقله عنه في البحر المحيط (٥/ ٣٣٢)، وعزاها في مختصر الشواذ (ص: ٥٥) للحسن، وهي شاذة.

(٦) هو هبيرة بن محمد التمار الأبرش، قرأ القرآن على حفص صاحب عاصم، وتصدر للإقراء، قرأ عليه: حسنون بن الهيثم الدويري، والخضر بن الهيثم الطوسي، وأحمد بن علي الخزاز، وغيرهم، كنيته أبو عمر. تاريخ الإسلام (١٧/ ٣٨٨).

وقرأ أبو حيوة: (ويَذهبَ) بالياء من تحت ونصب الباء، ورواها أبان وعصمة عن عاصم[١].

والجمهور على أن الريح هنا مستعارةٌ والمراد بها النصر والقوة، كما تقول: الريح لفلان، إذا كان غالباً في أمر، ومن هذا المعنى قول الشاعر وهو عبيد بن الأبرص:

[البسيط] كَمَا حَمَيْنَاكَ يَوْمَ النَّعْفِ مِنْ شَطَبٍ وَالفَضْلُ لِلقَوْمِ مِنْ رِيحٍ وَمِنْ عَدَدِ[٢]

وقال مجاهد: الريح: النصر والقوة، وذهبت ريح أصحاب محمد ﷺ حين نازعوه يوم أحد[٣]، وقال زيد بن علي: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ معناه: الرعبُ من قلوب عدوكم[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا حسن بشرط أن يَعلم العدو بالتنازع، وإذا لم يعلم فالذاهب قوةُ المتنازعين فينهزمون، وقال شاعر الأنصار:

[البسيط] قَدْ عوَّدَتْهم ظُباهم أَنْ تَكُونَ لَهُمْ رِيحُ الْقِتَالِ وَأَسْلَابُ الَّذِينَ لَقُوا[٥]

ومن استعارة الريح قولُ الآخر:

[الوافر] إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَاغْتَنِمْهَا فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونُ[٦]

وهذا كثير مستعمل.

---

(١) ثلاث قراءات شاذة، انظر الأولى في جامع البيان (٣/ ١١٣٨)، والثالثة لأبان وعصمة في الكامل للهذلي (ص: ٥٥٩)، والكل في البحر المحيط (٥/ ٣٣٢)، وانظر: الشواذ للكرماني (ص: ٢٠٦)، وما بين المعكوفتين ساقط من الأسدية.

(٢) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٣/ ٥٧٥)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٦٤)، ومعجم البلدان (٣/ ٣٤٣).

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٥٧٦)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٦٣)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ١٦٢).

(٤) تفسير الثعلبي (٤/ ٣٦٣).

(٥) البيت لضرار بن الخطاب الفهري، كما في سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٥)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٢٤/ ٣٩٩)، وليس أنصاريّاً.

(٦) بلا نسبة في تفسير الثعلبي (٤/ ٣٦٤)، والتمثيل والمحاضرة (ص: ٢٤١)، ومحاضرات الأدباء (١/ ٢٢١).

وقال ابن زيد وغيره: الريح على بابها[١]، وروي في ذلك أن النصر لم يكن قط إلا بريح تهب فتضرب في وجوه الكفار، واستند بعضهم في هذه المقالة إلى قوله ﷺ: «نصرت بالصبا»[٢]، وقال الحكم: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ يعني الصبا، إذ بها نصر محمد ﷺ وأمته[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا إنما كان في غزوة الخندق خاصة.

وقوله: ﴿وَاصْبِرُوا﴾ إلى آخر الآية، تتميم في الوصية وعِدَةٌ مُؤْنِسة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم﴾ الآية، آية تتضمن الطعن على المشار إليهم وهم كفار قريش، وخرج ذلك [على طريق النهي عن سلوك سبيلهم، والإشارة هي إلى كفار قريش][٤] بإجماع.

و«البطر»: الأشر، وغمط[٥] النعمة، والشغل بالمرح[٦] فيها عن شكرها، و«الرياء»: المباهاة، والتصنُّع بما يراه غيرك، وهو فِعَال من راءى يرائي سهِّلت همزته.

وروي أن أبا سفيان لما أحس أنه قد تجاوز بعيره الخوف من النبي ﷺ وأصحابه، بعث إلى قريش فقال: إن الله قد سلم عيركم التي خرجتم إلى نصرتها، فارجعوا سالمين قد بلغتم مرادكم، فأتى رأي الجماعة على ذلك، فقال أبو جهل: والله لا نفعل حتى نأتي بدراً ـ وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب لها يوم موسم ـ فننحرَ عليها الإبل، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القِيَان، ويسمع بنا العرب ويهابنا الناس[٧].

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٥٧٧)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٦٣)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٢٤).

(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (١٠٣٥) (٣٢٠٥) (٣٣٤٣) (٤١٠٥) ومسلم (٩٠٠٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تفسير القرطبي (٨/ ٢٥).

(٤) ساقط من التركية.

(٥) في نجيبويه: «وغمص».

(٦) في نجيبويه: «بالمزح».

(٧) مرسل، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٣/ ٥٧٣) من طريق أبان هو ابن يزيد العطار، عن هشام بن عروة، عن عروة به مرسلاً، ثم رواه عن ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثني ابن إسحاق =

قال القاضي أبو محمد: فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «اللهم إن قريشاً أقبلت بفخرها وخيلائها تحادُّك وتكذِّب رسولك، اللهم فأَحِنْها الغداة»[١]، وقال محمد بن كعب القرظي: خرجت قريش بالقِيَان والدفوف[٢].

وقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: غيرَهم.

قال القاضي أبو محمد: لأنهم أحرى بذلك من أن يقتصِر صدُّهم على أنفسهم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ آية تتضمن الوعيد والتهديد لمن بقي من الكفار، ونفوذَ القدَر فيمن مضى بالقتل.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

التقدير: واذكروا إذ، والضمير في ﴿لَهُمُ﴾ عائد على الكفار، و﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: إبليس نفسه.

وحكى المهدوي وغيره: أن التزيين في هذه الآية وما بعده من الأقوال هو بالوسوسة والمحادثة في النفوس[٣].

قال القاضي أبو محمد: ويضعِّف هذا القول أن قوله: ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ ليس مما يلقى بالوسوسة.

= في حديث ذكره، قال: حدثني محمد بن مسلم، وعاصم بن عمر، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا، عن ابن عباس به، والأول أصح.

(١) هو بالإسناد السابق، وقد رواه البيهقي في الدلائل (٣/ ٤)، ومعنى «أحنها»: أهلكها.

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٥٨١).

(٣) هذا القول حكاه المهدوي على سبيل التوهين والتضعيف، انظر: التحصيل (٣/ ١٩).

وقال الجمهور في ذلك بما روي وتظاهر: أن إبليس جاء كفار قريش ـ ففي السير لابن هشام أنه جاءهم بمكة، وفي غيرها أنه جاءهم وهم في طريقهم إلى بدر ـ وقد لحقهم خوف من بني بكر وكنانة لحروب كانت بينهم، فجاءهم إبليس في صورة سراقة ابن مالك بن جُعْشُمٍ وهو سيد من ساداتهم، فقال لهم: إني جار لكم، ولن تخافوا من قومي، وهم لكم أعوان على مقصدكم، ولن يغلبكم أحد، فسُرُّوا عند ذلك ومضوا لطيتهم(١)، وقال لهم: أنتم تقاتلون عن دين الآباء ولن تعدموا نصراً(٢).

فروي أنه لما التقى الجمعان كانت يده في يد الحارث بن هشام، فلما رأى الملائكة نكص، فقال له الحارث: أتفر يا سراقة؟ فلم يلو عليه، ويروى أنه قال له ما تضمنت الآية(٣).

وروي أن عمير بن وهب أو الحارث بن هشام قال له: أين يا سُرَاق؟ فلم يلو، [ومَثَلَ عدو الله، ودفع في صدر الحارث](٤)، / فذهب، ووقعت الهزيمة، فتُحُدِّث أن [٢/ ٢١١] سراقة فر بالناس، فبلغ ذلك سراقة بن مالك، فأتى مكة فقال لهم: والله ما علمت بشيء من أمركم حتى بلغتني هزيمتكم، ولا رأيتكم ولا كنت معكم(٥).

وحكى الطبري عن ابن عباس أنه قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايتُه في صورة رجل من بني مُدْلج، فقال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ الآية(٦).

و﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف، والعامل فيه معنى نفي الغلبة، ويحتمل أن يكون العامل متعلَّق ﴿لَكُمُ﴾، وممتنع أن يعمل ﴿غَالِبَ﴾ لأنه كان يلزم أن يكون: لا غالباً.

---

(١) في الأسدية: «لطلبتهم»، والطية: النية والحاجة.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٦٦٣).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٦٦٣)، وتفسير الطبري (١٣/ ٧).

(٤) «ودفع في صدر الحارث» زيادة من المطبوع، وما قبلها ساقط منه.

(٥) سيرة ابن هشام (١/ ٦٦٣).

(٦) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٣/ ٧) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس.

وقوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ معناه: فأنتم في ذمتي وحماي.

و﴿تَرَآءَتِ﴾: تفاعلت من الرؤية، أي: رأى هؤلاء هؤلاء.

وقرأ الأعمش وعيسى بن عمر: (ترأَت) مقصورة، وحكى أبو حاتم عن الأعمش أنه أمال والراء مرققة ثم رجع عن ذلك[١].

وقوله: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ معناه: رجع من حيث جاء، وأصل النكوص في اللغة: الرجوع القهقرى، وقال زهير:

[البسيط] هم يضرِبُـون حَبِيكَ البَيْضِ إذْ لَحِقُوا لَا يَنْكُصُون إِذَا مَا استُلحِمُوا وحَمُوا[٢]

كذا أنشد الطبري، وفي رواية الأصمعي: إذا ما استلأموا، وبذلك فسر الطبري هذه الآية[٣]، وفي ذلك بعدٌ، وإنما رجوعه في هذه الآية مشبَّه بالنكوص الحقيقي.

وقال اللغويون: النكوص: الإحجام عن الشيء، يقال: أراد أمراً ثم نكص عنه.

وقال تأبّط شرّاً:

[البسيط] لَيْسَ النُّكُوصُ عَلَى الْأَدْبَارِ مَكْرُمَةً إنَّ الْمَكَارِمَ إِقْدَامٌ عَلَى الْأَسَلِ[٤]

قال القاضي أبو محمد: فليس هنا قهقرى بل هو فرار.

وقال مؤرِّجٌ: نكص هي رجع بلغة سليم[٥].

قال القاضي أبو محمد: وقوله: ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ يبين أنه إنما أراد الانهزام والرجوع في ضد إقباله[٦].

---

(١) عزاها الكرماني في شواذ القراءات (ص: ٢٠٦) لعيسى بلفظ: «ترايت»، ولم أجد فيها للأعمش شيئاً.

(٢) انظر عزوه له في مسائل نافع بن الأزرق (ص: ١٧٣)، وتفسير الطبري (١٣/ ١١).

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ١١).

(٤) انظر عزوه له في البحر المحيط (٥/ ٣٢٢). والأسل: الرماح والنبل.

(٥) تفسير القرطبي (٨/ ٢٧).

(٦) في الأسدية: «في صد أفعاله».

وقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ هو خذلانه لهم وانفصاله عنهم.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ يريد الملائكة، وهو الخبيث إنما شرط أن لا غالب من الناس، فلما رأى الملائكة وخَرْقَ العادة خاف وفرَّ.

وفي «الموطأ» وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «ما ريء الشيطان في يوم أقلَّ ولا أحقر ولا أصغر منه في يوم عرفة، لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رأى يوم بدر»، قيل: وما رأى يا رسول الله؟ قال: «رأى الملائكة يَزَعُها جبريل»[١].

وقال الحسن: رأى إبليس جبريل يقود فرسه بين يدي النبي ﷺ، وهو معتجرٌ ببردة وفي يده اللجام[٢].

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ قيل: إن هذه معذرة منه كاذبةٌ، ولم تلحقه قط مخافة، قاله قتادة وابن الكلبي[٣]، وقال الزجّاج وغيره: بل خاف مما رأى من الأمر وهَوْلِهِ وظن[٤] أنه يومه الذي أُنظر إليه[٥]، ويقوي هذا أنه رأى خرق العادة ونزول الملائكة للحرب، وحكى الطبري بسنده أنه لما انهزم المشركون يوم بدر، حين رمى رسول الله ﷺ بقبضة من التراب وجوه الكفار، أقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رآه إبليس ـ وكانت يده في يد رجل من المشركين ـ انتزع يده ثم ولى مدبراً، فقال له الرجل: أيْ سراقةُ، تزعم أنك لنا جار؟ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ الآية[٦]، ثم ذهب.

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية، العامل في ﴿إِذۡ﴾: ﴿زَيَّنَ﴾ أو ﴿نَكَصَ﴾، لأن ذلك الموقف كان ظرفاً لهذه الأمور كلها.

---

(١) مرسل، أخرجه مالك في الموطأ (٩٤٤) عن إبراهيم بن أبي عبلة عن طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلًا.
(٢) تفسير الطبري (١٣/ ١١).
(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٩)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٦٦).
(٤) «وظن»: زيادة من الأسدية.
(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٢١)، بتصرف.
(٦) أخرجه الطبري (١٣/ ٧) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس.

وقال المفسرون: إن هؤلاء الموصوفين بالنفاق ومرض القلوب إنما هم من أهل عسكر الكفار لمَّا أشرفوا على المسلمين ورأوا قلتهم وقلة عددهم، قالوا مشيرين إلى المسلمين: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾ أي: اغتروا فأدخلوا نفوسهم فيما لا طاقة لهم به.

قال القاضي أبو محمد: والنفاق أخص من مرض القلب، لأن مرض القلب مطلق على الكافر، وعلى من اعترضته شبهة، وعلى من بينهما.

وكنَّى بالقلوب عن الاعتقادات، إذ القلوب محلُّها، وروي في نحو هذا التأويلِ عن الشعبي: أن قوماً ممن كان الإسلام داخَلَ قلوبَهم خرجوا مع المشركين إلى بدر، منهم من أُكره ومنهم من داجى[(١)] وداهن، فلما أشرفوا على المسلمين ورأوا قلتهم ارتابوا واعتقدوا أنهم مغلوبون، فقالوا: غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ[(٢)]، قال مجاهد: منهم قيس ابن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكِهِ بن المغيرة، والحارث بن زَمْعةَ بن الأسود، وعلي بن أمية بن خلف، والعاصي بن منبِّه[(٣)].

قال القاضي أبو محمد: ولم يُذكر أحدٌ ممن شهد بدراً بنفاق، إلا ما ظهر بعد ذلك من معتِّب بن قُشيرٍ أخي بني[(٤)] عمرو بن عوف، فإنه القائل يوم أحد: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقد يحتمل أن يكون منافقو المدينة لما وصلهم خروج قريش في قوة عظيمة قالوا عن المسلمين هذه المقالة، فأخبر الله بها نبيه في هذه الآية.

ثم أخبر الله عز وجل بأن من توكل على الله واستند إليه، فإن عزة الله تعالى وحكمته كفيلة بنصره وشد أعضاده[(٥)]، وخرجت العبارة عن هذا المعنى بأوجز لفظ وأبلغه.

---

(١) ساقط من نجيبويه، وفي جار الله: «ذابن»، وفي أحمد٣: «جا وداهن»، قال في القاموس المحيط (ص: ١٢٨٢): والمداجاة: المداراة.

(٢) انظر تفسير الطبري (١٣/ ١٣).

(٣) في الأصل: «أمية»، وهو خطأ، وانظر: تفسير الطبري (١٣/ ١٣).

(٤) ساقط من المطبوع.

(٥) في نجيبويه: «أعضائه».

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

هذه الآية تتضمن التعجيب مما حل بالكفار يوم بدر، قاله مجاهد وغيره[1]، وفي ذلك وعيد لمن بقي منهم، وحذفُ جواب (لَوْ) إبهام بليغ.

وقرأ جمهور السبعة والناس: ﴿يَتَوَفَّى﴾ بالياء، فأُسند فعلٌ فيه علامة التذكير إلى مؤنث في اللفظ، وساغ ذلك إذ التأنيث غير حقيقي، وارتفعت ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ بـ﴿يَتَوَفَّى﴾، وقال بعض من قرأ هذه القراءة: إن المعنى: إذ يتوفى الله الذين كفروا، و﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ رفعٌ بالابتداء، و﴿يَضْرِبُونَ﴾ خبره، والجملة في موضع الحال.

قال القاضي أبو محمد: ويضعِّف هذا التأويلَ سقوطُ واو الحال، فإنها في الأغلب تلزم مثل هذا.

وقرأ ابن عامر من السبعة والأعرج: ﴿تَتوفى﴾ بالتاء[2] على الإسناد إلى لفظ الملائكة.

و﴿يَضْرِبُونَ﴾: في موضع الحال.

وقوله: ﴿وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ قال جمهور المفسرين: يريد أستاههم، ولكن الله كريم كنى.

وقال ابن عباس والحسن: أراد ظهورهم وما أدبر منهم، ومعنى هذا/ أن الملائكة كانت [٢/ ٢١٢] تلحقهم في حال الإدبار فتضرب أدبارهم، فأما في حال الإقبال فبيِّنٌ تمكُّنُ ضرب الوجوه[3]،

---

(١) راجع تفسير الطبري (١٣/ ١٦).

(٢) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٦).

(٣) «الحسن» ليست في الأصل والمطبوع، والأثر أخرجه الطبري (١٣/ ١٦) من طريق حجاج، عن ابن جريج، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو منقطع.

وروى الحسن أن رجلاً قال: يا رسول الله، رأيت في ظهر أبي جهل مثل الشراك، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك ضرب الملائكة»[١].

وعبر بجمع الملائكة، وملكُ الموت واحد، إذ له على ذلك أعوان من الملائكة.

وقوله: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ قيل: كانوا يقولون للكفار حينئذ هذا اللفظ، فحذف يقولون اختصاراً، وقيل: معناه: وحالهم [يوم القيامة][٢] أن يقال لهم هذا.

و﴿ٱلْحَرِيقِ﴾: فعيل من الحرق.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يحتمل أن يكون من قول الملائكة في وقت توفيهم[٣] لهم على الصورة المذكورة، ويحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً تقريعاً من الله عز وجل للكافرين حيِّهم وميتهم.

و(أنّ): يصح أن تكون في موضع رفع على تقدير: والحكمُ أنَّ، ويصح أن تكون في موضع [خفض عطفاً على (ما) في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾، وقال مكي والزهراوي: ويصح أن تكون في موضع] نصب بإسقاط الباء، تقديره: وبأنَّ، فلما حذفت الباء حصلت[٤] في موضع نصب[٥].

قال القاضي أبو محمد: وهذا غير متجه ولا بيِّنٍ إلا أن تنصب بإضمار فعل.

وقوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية، «الدأب»: العادة في كلام العرب، ومنه قول امرئ القيس:

---

(١) هذا مرسل، أخرجه الطبري عقب رواية ابن جريج عن ابن عباس السابقة.

(٢) ساقط من المطبوع.

(٣) في الأصل والمطبوع: «توفيتهم»، وسقطت «وقت» من جار الله.

(٤) في التركية: «دخلت»، وفي جار الله: «حلت»، وفي هامشها: «جعلت»، وما بين المعكوفتين ساقط من التركية.

(٥) انظر: مشكل إعراب القرآن لمكي (١ / ٣١٧)، والتحصيل للمهدوي (٣/ ١٩٩).

كدأبِكَ من أمِّ الْحُوَيْرِثِ قبْلها وجَارَتِها أمِّ الرَّبابِ بِمَأسَلِ[١] [الطويل]

ويروى: كدينك، ومنه قول خِراش بن زهير العامري:

وما زالَ ذاكَ الدَّأْبُ حتَّى تَخَاذَلَتْ هَوَازِنُ وارْفَضَّتْ سُلَيْمٌ وعَامِرُ[٢] [الطويل]

وهو مأخوذ من دَأَبَ على العمل: إذا لزمه، ومنه قول النبي ﷺ، لصاحب الجمل الذي هش إليه وأقبل نحوه وقد ذل ودمعت عيناه: «إنه شكا إليَّ أنك تُجيعه وتُدْئبه»[٣].

فكأن العادة دُؤوبٌ مَّا.

وقال جابر بن زيد وعامر الشعبي ومجاهد وعطاء: المعنى: كسَنَن آل فرعون[٤].

ويحتمل أن يراد: كعادة آل فرعون وغيرهم، فتكون عادة الأمم بجملتها لا على انفراد أمة، إذ آل فرعون لم يكفروا وأهلكوا مراراً بل لكل أمة مرةٌ واحدة.

ويحتمل أن يكون المراد: كعادة الله فيهم، فأضاف العادة إليهم إذ لهم نسبة إليها كما يضاف المصدر إلى الفاعل وإلى المفعول.

والكاف من قوله: ﴿كَدَأْبِ﴾ يجوز أن يتعلق بقوله: ﴿وَذُوقُواْ﴾ وفيه بعدٌ، والكاف على هذا في موضع نصب نعت لمصدر محذوف، [ويجوز أن تتعلق بقوله: ﴿قَدَّمَتْ

---

(١) تقدم في تفسير سورة الفاتحة.

(٢) انظر عزوه له في مجاز القرآن (١/ ٢٤٨)، والأغاني (٢٢/ ٧٤)، وفي المفضليات (ص: ٣٦٤) والأصمعيات (ص: ٢١٧) أنه لعوف بن الأحوص.

(٣) هذا الحديث أخرجه أحمد (١٧٥٤)، وأبو داود (٢٥٥١)، والحاكم (٢/ ١٠٩)، وغيرهم من طرق عن: مهدي بن ميمون، وأحمد أيضاً من طريق جرير بن حازم، كلاهما عن محمد بن عبد الله بن أبي يعقوب، عن الحسن بن سعد مولى الحسن بن علي، عن عبد الله بن جعفر قال: أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم فأسر إليَّ حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس... وفيه قصة الجمل، والحديث أخرجه مسلم (٣٤٢)، والدارمي (٦٦٩و٧٦١)، وابن ماجه (٣٤٠)، وابن خزيمة (٥٣)، من طرق أخرى عن مهدي به، وليس فيها قصة الجمل.

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ١٩).

﴿أَيۡدِيكُمۡ﴾ وموضعها أيضاً على هذا نصب كما تقدم][1]، ويجوز أن يكون معنى الكلام: الأمرُ مثل دأب آل فرعون، فتكون الكاف في موضع خبر الابتداء.

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ معناه: أهلكهم وأتى عليهم، بقرينة قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾.

ثم ابتدأ الإخبار بقوة الله تعالى وشدة عقابه.

قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٥٤ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضع رفعٍ على خبر الابتداء، تقديره عند سيبويه: الأمر ذلك، ويحتمل أن يكون التقدير: وجب ذلك، والباء باء السبب.

وقوله: ﴿لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا﴾ جزم بـ﴿لَمۡ﴾ وجزمه بحذف النون، والأصل: «يكون»، فإذا دخلت «لم» جاء: لم يكنْ، ثم قالوا: لم يكُ مغيراً، كأنهم قصدوا التخفيف فتوهَّموا دخول «لم» على «يكن» فحذفت النون للجزم، وحسُن ذلك فيها لمشابهتها حروف اللين التي تحذف للجزم، كما قالوا: لم أُبال، ثم قالوا: لم أُبل، فتوهموا دخول لم على أبال.

ومعنى هذه الآية: الإخبار بأن الله عز وجل إذا أنعم على قوم نعمة، فإنه بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغييرها وتكديرها حتى يجيء ذلك منهم، بأن يغيِّروا حالهم التي تراد وتحسُن[2] منهم، فإذا فعلوا ذلك، وتلبسوا بالتكسُّب للمعاصي أو الكفر الذي يوجب عقابهم، غيَّر الله نعمته عليهم بنقمته منهم.

---

(١) ساقط من الأصل.

(٢) في جار الله: «يراد أن يحسن»، وفي أحمد٣: «تراد أو تحسن».

ومثال هذا نعمة الله على قريش بمحمد ﷺ، فكفروا وغيروا ما كان يجب أن يكونوا عليه، فغيَّر الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار، وأحل بهم عقوبته.

وقوله: ﴿وَأَنَّ﴾ عطف على الأولى.

و﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: لكل وبكل ما يقع من الناس في تغييرِ ما بأنفسهم لا يخفى عليه من ذلك سر ولا جهر.

وقوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية، الكاف من ﴿كَدَأْبِ﴾ في هذه الآية متعلقة بقوله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ﴾، وهذا التكرير هو لمعنًى ليس للأول، إذ الأول دأب في أن هلكوا لما كفروا، وهذا الثاني دأب في أن لم تغيَّر نعمتهم حتى غيروا ما بأنفسهم.

وقد ذكرنا متعلقات الكاف في الآية الأولى.

والإشارة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوم هود وصالح ونوح وشعيب وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ إلى ﴿يَتَّقُونَ﴾؛ المعنى المقصود تفضيل الدواب الذميمة كالخنزير والكلب العقور على الكافرين الذين حتم[1] عليهم بأنهم لا يؤمنون، وهذا الذي يقتضيه[2] اللفظ، وأما الكافر الذي يؤمن فيما يستأنفه من عمره فليس بشر الدواب.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ يحتمل أن يريد أن الموصوف بـ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ هم الذين لا يؤمنون المعاهدون من الكفار، فكانوا شر الدواب على هذا بثلاثة أوصاف: الكفر، والموافاة عليه، والمعاهدة مع النقض، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ على هذا بدل البعض من الكل.

ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ﴾: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأولى، فتكون بدلَ الشيء

---

(١) في الأسدية والتركية وأحمد٣ ونجيبويه: «ختم».

(٢) في الأسدية: «لا يقتضيه».

من الشيء وهما لعيْن واحدة، والمعنى على هذا: الذين عاهدتَ فرقةً أو طائفة منهم.

ثم ابتدأ يصف حال المعاهدين بقوله: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾.

و«المعاهدة» في هذه الآية: / المسالمة وترك الحرب. [٢/ ٢١٣]

وأجمع المتأولون أن الآية نزلت في بني قريظة، وهي بعدُ تعم كلَّ من اتصف بهذه الصفة إلى يوم القيامة، ومن قال: إن المراد بالدَّوَابّ الناس؛ فقول لا يستوفي المذمة، ولا مِرْية في أن الدواب تعم الناس وسائر الحيوان، وفي تعميم اللفظة في هذه الآية استيفاء المذمة.

وقوله: ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ يقتضي أن الغدر قد كان وقع منهم وتكرر ذلك.

وحديث قريظة هو أنهم عاهدوا رسول الله ﷺ على ألا يحاربوه ولا يُعِينوا عليه عدوّاً من غيرهم، فلما اجتمعت الأحزاب على النبي ﷺ بالمدينة غلب على ظن بني قريظة أن النبي ﷺ مغلوب ومستأصَل، وخدع حيي بنُ أخطب النضريُّ كعبَ بن أسد القرظيَّ صاحبَ عقد بني قريظة وعهدِهم، فغدروا ووالوا قريشاً وأمدوهم بالسلاح والأدراع، فلما انجلت تلك الحال عن النبي ﷺ، أمره الله بالخروج إليهم وحربهم، فاستُنزلوا، وضربت أعناقهم بحكم سعد بن معاذ، واستيعابُ القصة في سيرة ابن هشام[1].

وإنما اقتضبتُ منها ما يخص تفسير الآية.

قوله عز وجل: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

دخلت النون مع (إما) تأكيداً، ولتفرِّق بينها وبين (إما) التي هي حرف انفصال، في قولك: جاءني إما زيد وإما عمرو.

---

(١) راجع سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٩-٢٤٠).

و﴿ تَثْقَفَنَّهُمْ ﴾ معناه: تأسرهم وتحصِّلهم في ثقافك، أو: تلقاهم بحالٍ ضعفٍ تقدر عليهم فيها وتغلبهم، وهذا لازم من اللفظ لقوله: ﴿فِي ٱلْحَرْبِ﴾، وقيل: ثقف: أخذ بسرعة، ومن ذلك قولهم: رجل ثَقِفٌ لَقِفٌ[١]، وقال بعض الناس: معناه: تصادفنهم، إلى نحو هذا من الأقوال التي لا ترتبط في المعنى، وذلك أن المصادف[٢] قد يُغلب فيمْكِن التشريد[٣] به، وقد لا يُغلب، والثِّقاف في اللغة: ما تشد به القناة ونحوها، ومنه قول الشاعر:

إن قَنـاتـي لنَبْـعٌ مـا يـؤيِّسُـها عضُّ الثِّقاف ولا دهْـنٌ ولا نَارُ[٤] [البسيط]

وقال آخر:

تَدْعُو قُعَيْناً وَقَدْ عَضَّ الْحَدِيدُ بِهَا عَضَّ الثِّقَافِ عَلَى صُمِّ الْأَنابِيبِ[٥] [البسيط]

وقوله: ﴿فَشَرِّدْ﴾ معناه: طرِّد وخوِّف وأبعده عن مثل فعلهم، والشريد: المبعد عن وطن أو نحوه، والمعنى: بِفعْلٍ تفعَله بهم من قتل أو نحوه، يكون تخويفاً لمن خلفهم، أي: لمن يأتي بعدهم بمثل ما أتوا به، وسواء كان معاصراً لهم أم لا، وما تقدم الشيء فهو بين يديه، وما تأخر عنه فهو خلفه، فمعنى الآية: فإن أسرت هؤلاء الناقضين[٦] في حربك لهم فافعل بهم من النقمة ما يكون تشريداً لمن يأتي خلفهم في مثل طريقتهم.

والضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ عائد على الفرقة المشردة.

وقال ابن عباس: المعنى: نكِّل بهم مَن خلفهم[٧].

---

(١) قال في العين (٥/ ١٦٤): رجل لَقْفٌ ثَقْفٌ، أي: سريع الفهم لما يرمى إليه من كلام.

(٢) في الأسدية: «الصاحب».

(٣) في الأسدية: «النصر».

(٤) البيت للطريف العنبري كما في أمالي القالي (١/ ٧٢).

(٥) تقدم في تفسير الآية (١١٣) من سورة آل عمران.

(٦) في الأسدية وجار الله: «المنافقين». وفي نجيبويه: «المناقضين».

(٧) أخرجه الطبري (١٤/ ٢٣) من طريق علي بن أبي طلحة والعوفي ـ مفرقين ـ عن ابن عباس.

وقالت فرقة: (شرد بهم) معناه: سمِّع بهم، حكاه الزهراوي عن أبي عبيدة[١]، والمعنى متقارب لأن التسميع بهم في ضمن ما فسرناه أولاً.

وفي مصحف عبد الله: (فشرذْ) بالذال منقوطة، وهي قراءة الأعمش[٢]، ولم يحفظ (شرذ) في لغة العرب، ولا وجه لها، إلا أن تكون الذال المنقوطة تبدل من الدال، كما قالوا: لحم خراديل وخراذيل.

وقرأ أبو حيوة ـ وحكاها المهدوي عن الأعمش بخلاف عنه ـ : (مِنْ خَلْفِهِم) بكسر الميم من قوله: (مِن)، وخفض الفاء من قوله: (خلفِهم)[٣].

والترجي في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بحسب البشر، و﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: معناه: يتعظون.

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ الآية، قال أكثر المؤلفين في التفسير: إن هذه الآية هي في بني قريظة، وحكاه الطبري عن مجاهد[٤].

والذي يظهر[٥] من ألفاظ القرآن أن أمر بني قريظة قد انقضى عند قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، ثم ابتدأ تبارك وتعالى في هذه الآية بأمره بما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانة إلى سالف الدهر، وبنو قريظة لم يكونوا في حدِّ مَن تُخاف خيانته فتُرتَّبَ فيهم هذه الآية، وإنما كانت خيانتهم ظاهرةً مشتهِرة، فهذه الآية هي عندي فيمن يُستقبل حاله من سائر الناس غير بني قريظة.

---

(١) لم أقف عليه، ولفظ أبي عبيدة معمر في مجاز القرآن (١/ ٢٤٨): فأخِفْ واطرد بهؤلاء الذين تثقفنهم الذين بعدهم، وفرّق بينهم.

(٢) انظر عزوها لابن مسعود في تفسير الثعلبي (٤ / ٣٦٩)، والكشاف للزمخشري (٢ / ٢١٩)، وللأعمش في المحتسب (١ / ٢٧٩).

(٣) نقلها عن أبي حيوة في الكشاف (٢ / ٢١٩)، وعن الأعمش الثعلبي (٤ / ٣٦٩)، وانظر: التحصيل للمهدوي (٣/ ١٩٩).

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٢٦).

(٥) في نجيبويه زيادة: «لي».

و«خوف الخيانة» هو بأن تبدو جنادع الشر[١] من قبل المعاهدين، وتتصلَ عنهم أقوال، وتُتحسَّسَ من تلقائهم مبادئ الغدر، فتلك المبادئ معلومة، والخيانةُ التي هي غايتهم مخوفةٌ لا متيقَّنة، وحينئذ ينبذ إليهم على سواء، فإن التزموا السلم على ما يجب وإلا حوربوا، وبنو قريظة نبذوا العهد مرتين[٢].

وقال يحيى بن سلام: (تخاف) في هذه الآية بمعنى: تعلم[٣].

قال القاضي أبو محمد: وليس كذلك.

وقوله: ﴿خِيَانَةً﴾ يقتضي حصول عهد، لأن من ليس بينك وبينه عهد فليست محاربته لك خيانة، فأَمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ إذا أحس من أهل عهد ما ذكرنا، وخاف خيانتهم، أن يلقي إليهم عهدهم، وهو النبذ.

ومفعول قوله: ﴿فَٱنۢبِذۡ﴾ محذوف تقديره: فانبذ إليهم عهدَهم.

قال القاضي أبو محمد: وتقتضي قوة هذا اللفظ الحضَّ على حربهم ومناجزتهم[٤] إن لم يستقيموا.

وقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ قيل: معناه: حتى يكون الأمر في بيانه والعلم به على سواء منك ومنهم، فتكونون فيه ـ أي: في استشعارٍ للحرب ـ سواءً، وقيل: معنى قوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: على مَعْدَلة، أي: فذلك هو العدل والاستواء في الحق، قال المهدوي: معناه: جهراً لا سرّاً[٥].

قال القاضي أبو محمد: وهذا نحو الأول.

وقال الوليد بن مسلم: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾: معناه: على مهل، كما قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ

---

(١) جنادع الشر: أوائله، ومقدماته.

(٢) في نجيبويه وأحمد٣ وجار الله ونور العثمانية: «مبتدئين»، وأشار لها في هامش المطبوع.

(٣) البحر المحيط (٥/ ٣٤٠).

(٤) ساقط من التركية، وزاد في الأسدية: «ومناحرهم».

(٥) التحصيل للمهدوي (٣/ ١٩٥).

ﭐللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ١-٢][(١)].

قال القاضي أبو محمد: واللغة تأبى هذا القول، وذكر الفراء أن المعنى: انبذ إليهم [على اعتدال وسواء][(٢)] من الأمر[(٣)]، أي: بيِّن لهم على قَدْر ما ظهر منهم، لا تُفرِطْ ولا تَفْجَأْ بحرب، بل افعل بهم مثلما فعلوا بك.

قال القاضي أبو محمد: يعني موازنةً ومقايسة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ يحتمل أن يكون طعناً على الخائنين من الذين عاهدهم النبي ﷺ، ويحتمل أن يريد: فانبذ إليهم على سواء حتى تَبعد عن الخيانة، فإن الله لا يحب الخائنين / ، فيكون النبذ على هذا التأويل لأجل أن الله لا يحب الخائنين. [٢/ ٢١٤]

و«السواء» في كلام العرب قد يكون بمعنى العدل والمعدلة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران ٦٤] ومنه قول الراجز:

[الرجز] فَاضْرِبْ وُجُوهَ الْغُدَّرِ الْأَعْدَاءِ حَتَّى يُجِيبُوك إِلَى السَّوَاءِ[(٤)]

وقد يكون بمعنى الوسَط، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥].

ومنه قول حسان بن ثابت:

[الكامل] يَا وَيْحَ أَنْصارِ النبيّ وَرَهْطِهِ بَعْدَ المُغَيَّبِ فِي سَواءِ المُلْحَدِ[(٥)]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم والكسائي: ﴿ولا تَحسِبَن﴾ بالتاء مخاطبةً للنبي ﷺ، وبكسر السين

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٢٦)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٢٨)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٦٩).
(٢) ساقط من الأسدية.
(٣) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ٨٦).
(٤) الرجز لظبيان بن عمارة كما في تاريخ الطبري (٤/ ٥٧٠).
(٥) تقدم في تفسير الآية (١٠٤) من سورة البقرة.

غيرَ عاصم فإنه فتحها[1]، و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مفعول أول، و﴿سَبَقُوٓا۟﴾ مفعول ثان، والمعنى: فاتوا بأنفسهم وأنجوها ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بكسر ألف (إنَّ) على القطع[2] والابتداء.

و﴿يُعْجِزُونَ﴾: معناه: مفلتون ويُعْجِزون طالبهم، فهو معدَّى عَجَز بالهمزة، تقول: عَجَزَ زيد وأعجزه غيره وعجَّزه أيضاً، قال سويد:

وأعْـجَـزَنَــا أبـو ليـلَـى طُـفيـلٌ صحيحَ الجِلد من أثرِ السِّلاحِ[3] [الوافر]

وروي أن الآية نزلت فيمن أفلت من الكفار في حرب النبي ﷺ، كقريش في بدر وغيرهم، فالمعنى: لا تظنهم ناجين بل هم مدرَكون.

وقيل: معناه: لا يعجزون في الدنيا، وقيل: المراد: في الآخرة.

قـال أبـو حاتم: وقرأ مجاهد وابن كثير وشـبلٌ: (ولا تِحْسـبَن) بكسـر التاء[4]، وقـرأ الأعـرج وعاصم وخالد بـن إلياس[5]: ﴿تَحسَـبن﴾ بفتح التاء مـن فوق وبفتح السين[6].

---

(١) انظر: السبعة لابن مجاهد (١ / ٣٠٧) ومثله للداني في التيسير (ص ٨٤) بالمفهوم، إلا حفصاً عن عاصم فإنه بالياء كما سيأتي.

(٢) في الأسدية: «على الوصل».

(٣) تابعه في البحر المحيط (٥/ ٣٤١)، والصواب أنه للشويعر، على اختلاف في اسمه، انظر المؤتلف والمختلف (ص: ١٨٢)، العمدة في محاسن الشعر (١/ ١١٥)، البيان والتبيين (٢/ ٩)، وفي حماسة الخالديين (ص: ٩٤) له أو لعمر بن لَجَأٍ، وفي أكثر المصادر: وأفلتنا.

(٤) لم أجد من نقلها عنهم، وليست في شيء من طرق التيسير، وقد تقدمت قراءات هذا الحرف في أول ورود له بآل عمران.

(٥) هو خالد بن إلياس أبو الهيثم العدوي المدني، روى عن صالح مولى التوأمة، والمقبري، وجماعة، القعنبي، والواقدي، وأحمد ابن يونس، قال أبو حاتم: منكر الحديث، ضعيف، وقال النسائي: متروك، من الطبقة السابعة عشرة، تاريخ الإسلام (١٠/ ١٦٤).

(٦) هذه رواية أبي بكر عن عاصم وهي سبعية، وقد تقدمت الإشارة إليها، ولعل هذا العزو من بقية كلام أبي حاتم لذلك تكررت ....

وقرأ الأعمش: (ولا يَحسَب) بفتح السين والياء من تحت وحذف النون[١].

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وأبو عبد الرحمن وابن محيصن وعيسى: (ولا يَحسِبنّ) بياء من تحت وسين مكسورة ونون مشددة[٢].

وقرأ حفص عن عاصم وابنُ عامر وحمزةُ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء على الكناية عن غائب وبفتح السين[٣]، فإما أن يكون في الفعل ضمير النبي ﷺ، أو يكونَ التقدير: ولا يحسبن أحد، ويكونُ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مفعولاً أولاً و﴿سَبَقُوٓا۟﴾ مفعولاً ثانياً.

وإما أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم الفاعلون[٤]، ويكون المفعول الأول مضمراً، و﴿سَبَقُوٓا۟﴾ مفعول ثان، وتقدير هذا الوجه: ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا.

وإما أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هو الفاعل وتُضمر «أن» فيكون التقدير: ولا يحسبن الذين كفروا أنْ سبقوا، وتسد «أنْ سبقوا» مسد المفعولين، قال الفارسي: ويكون هذا كما تأوله سيبويه في قوله عز وجل قال: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ [الزمر: ٦٤] التقدير: أن أعبد[٥].

قال القاضي أبو محمد: ونحوه قول الشاعر:

[الطويل] أَلا أَيُّهذا الزَّاجِري أحضُرُ الوَغى[٦] ....

---

(١) هذه قراءة ابن مسعود كما سيأتي، وتابعه في عزوها للأعمش في البحر المحيط (٥/ ٣٤٢).

(٢) هذه القراءة بهذا التركيب شاذة، ليست في شيء من طرق النشر، وانظر عزوها لمن ذكر في البحر المحيط (٥/ ٣٤٢).

(٣) هذه أيضاً سبعية، ووافق المذكورين أبو جعفر، وبقيت ثالثة سبعية بالتاء وكسر السين للجمهور، وقد تقدمت في أول الكلام، وانظر التيسير (ص: ١١٧).

(٤) هكذا في جميع النسخ بالرفع، وله وجه في العربية، ولكن الأولى النصب.

(٥) «التقدير أن أعبد»: ساقطة من التركية والأسدية، وانظر الكتاب لسيبويه (١ / ١٩٧)، والحجة لأبي علي (٤/ ١٥٥).

(٦) هو لطرفة من معلقته، وتمامه: وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي، انظر: شرح المعلقات التسع (ص: ٦٣)، والمقتضب (٢/ ٨٥).

قال أبو علي: وقد حذفت[١] «أنْ»، وهي مع صلتها في موضع الفاعل، وأنشد أحمد ابن يحيى في ذلك:

وَمَا رَاعنا إلَّا يسيرُ بشرطةٍ وعهدي بِهِ قَيناً يَفُشُّ بِكيرِ[٢] [الطويل]

وقرأ ابن عامر وحده من السبعة: ﴿أَنهم لا يعجزون﴾ بفتح الألف من ﴿أنهم﴾[٣]، ووجهُه: أن يقدر بمعنى: لأنهم لا يعجزون، أي: لا تحسبن عليهم النجاة لأنهم لا ينجون.

وقرأ الجمهور: ﴿يُعۡجِزُونَ﴾ بسكون العين.

وقرأ بعض الناس فيما ذكر أبو حاتم: (يُعَجِّزون) بفتح العين وشد الجيم[٤].

وقرأ ابن محيصن: (يُعْجِزونِ) بكسر النون[٥] [ومنحاها: يعجزوني][٦] بإلحاق الضمير.

قال الزجَّاج: الاختيار فتح النون، ويجوز كسرها على أن المعنى: أنهم لا يعجزونني، وتحذف النون الأولى لاجتماع النونين[٧]، كما قال الشاعر:

تراه كالثَّغَام يُعَلُّ مِسْكاً يسوء الفالياتِ إذا فَلَيْنِي[٨] [الوافر]

قال القاضي أبو محمد: البيت لعمرو بن معد يكرب.

وقال أبو الحسن الأخفش في قول متمِّم بن نُويرة:

---

(١) في التركية: «حذف».

(٢) البيت لرجل من بني أسد يقال له: معاوية بن خليل النصري، كما في خزانة الأدب (٨/ ٥٨٤).

(٣) انظر: التيسير (ص: ١١٧).

(٤) لم أقف عليه، وهي شاذة، عزاها الكرماني في شواذ القراءات (ص: ٢٠٧) لابن محيصن وجها.

(٥) عزاها له الكرماني في شواذ القراءات (ص: ٢٠٧).

(٦) ساقط من التركية.

(٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٢٢).

(٨) البيت لعمرو بن معد يكرب كما في الكتاب لسيبويه (٣/ ٥٢٠)، ومعاني القرآن للفراء (٢/ ٩٠)، ومجاز القرآن (١/ ٣٥٢).

[الكامل] ولقـد علمـتُ ولا محالـة أنني لِلحادِثـاتِ فهلْ تَرَيْنِـي أَجْزَعُ[١]

هذا يجوز على الاضطرار، فقال قوم: حَذَف النونَ الأولى، وحذفُها لا يجوز لأنها موضع الإعراب، وقال أبو العباس المبرد: أرى فيما كان مثلَ هذا حذفَ الثانية، وهكذا كان يقول في بيت عمرو بن معد يكرب[٢].

وفي مصحف عبد الله: (ولا يَحسَب الذين كفروا أنهم سبقوا إنهم لا يعجزون)[٣]، [قال أبو عمرو الداني: بالياء من تحت وبغير نون في (يحسب)][٤].

قال القاضي أبو محمد: وذكرها الطبري بنون[٥].

قوله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾.

المخاطبة في هذه الآية لجميع المؤمنين، والضمير في قوله: ﴿لَهُم﴾ عائد على الذين يُنبذ إليهم العهد، أو على الذين لا يعجزون على تأويل مَن تأول ذلك في الدنيا.

ويحتمل أن يعيده على جميع الكفار المأمور بحربهم في ذلك الوقت، ثُمَّ استمرت الآية في الأمة عامة، إذ الأمر قد توجه بحرب جميع الكفار.

وقال عكرمة مولى ابن عباس: القوة: ذكور الخيل، والرباط: إناثها[٦]، وهذا قول ضعيف.

---

(١) انظر عزوه له في المفضليات (ص: ٥٣)، والوساطة بين المتنبي وخصومه (ص: ٣١٩).
(٢) لم أجد من نقل هذا عنهما.
(٣) انظر المصاحف (ص: ١٧٧)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٠٢)، والهداية لمكي (٤/ ٢٨٦٠).
(٤) ساقط من الأسدية.
(٥) تفسير الطبري (١٤/ ٢٨).
(٦) تفسير الطبري (١٤/ ٣٤)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٢٩)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٦٩).

وقالت فرقة: القوة الرمي، واحتجت بحديث عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي» ثلاثاً[١].

وقال السدي: القوة السلاح، وذهب الطبري إلى عموم اللفظة، وذكر عن مجاهد أنه رُئي يتجهز وعنده جُوالق فقال: [هذا من القوة[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو الصواب.

والْخَيْل والمركوب في الجملة]، والمحمولُ عليه من الحيوان، والسلاح كلُّه، والملابس الباهية[٣]، والآلات والنفقات، كلها داخلة في القوة، وأُمر المسلمون بإعداد ما استطاعوا من ذلك.

ولما كانت الخيل هي أصلَ الحروب وأوزارَها، والتي عقد الخير في نواصيها، وهي أقوى القوة وحصونُ الفرسان، خصها الله بالذكر تشريفاً، على نحو قوله / : ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] وعلى نحو قوله: ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] وهذا كثير. [٢/ ٢١٥]

ونحوه قول رسول الله ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»، هذا في البخاري وغيره[٤]، وقال في صحيح مسلم: «جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً»[٥].

فذكرت التراب على جهة التحفي به إذ هو أعظم أجزاء الأرض مع دخوله في عموم الحديث الآخر.

---

(١) رواه البخاري (٤٣٨) ومسلم (٥٢١).

(٢) انظر قول الطبري وقولي مجاهد والسدي في تفسير الطبري (١٤/ ٣٤).

(٣) ما بين القوسين ساقط من أحمد٣.

(٤) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٤٣٨) ومسلم بنحوه (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٥) مسلم رقم (٥٢٢) بلفظ: «وجعلت تربتها لنا طهوراً».

ولما كانت السهام من أنجع ما يتعاطى في الحرب، وأنكاه في العدو، وأقربه تناولاً للأرواح، خصها رسول الله ﷺ بالذكر والتنبيه عليها، وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يدخل بالسهم الواحد الثلاثة من المسلمين الجنة، صانعه، والذي يحتسب في صنعته، والذي يرمي به»[١]، وقال عمرو بن عبسة[٢]: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن رمى بسهم في سبيل الله أصاب العدو أو أخطأ فهو كعتق رقبة»[٣].

---

(١) في إسناده خلاف كثير، وروي مرسلاً، هذا الحديث أخرجه أحمد (٤/ ١٤٤) (٤/ ١٤٨)، والدارمي (٢٤١٠)، وابن ماجه (٢٨١١)، والترمذي (١٦٣٧)، وابن خزيمة (٢٤٧٨) من طريق: أبي سلام وزيد ابن سلام مفرقين عن عبد الله بن زيد الأزرق عن عقبة بن عامر الجهني مرفوعاً، وقد وقع فى إسناد هذا الحديث اختلاف، واختلف في الراوي عن عقبة: هل اسمه خالد أو عبد الله؟ وفي أبيه: هل هو زيد أو يزيد؟ وأخرجه أحمد (٤/ ١٤٦) (٤/ ١٤٨)، وأبو داود (٢٥١٣)، والنسائي (٦/ ٢٨) (٦/ ٢٢٢)، والحاكم (٢/ ٩٥) من طرق عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، قال: ثني أبو سلام الدمشقي، عن خالد بن زيد الجهني عن عقبة بن عامر مرفوعاً، تراجع ترجمة خالد بن زيد ـ ويقال: ابن يزيد ـ الجهني من تهذيب الكمال ففيها ذكر الخلاف مفصلاً، وعلى كل حال فالراوي عن عقبة لا يعرف حاله، والحديث أخرجه الترمذي (١٦٣٧) من طريق: محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين: أن رسول الله ﷺ، مرسل.

(٢) في الأصل ونجيبويه: «عنبسة»، وهو خطأ، فهو عمرو بن عبسة بن خالد السلمي، أبو نجيح، أسلم قديماً بمكة، ثم رجع إلى بلاده، إلى أن هاجر بعد خيبر، فشهد ما بعدها، وتوفي في أواخر خلافة عثمان. الإصابة (٤/ ٥٤٥).

(٣) لا بأس به في الجملة، روي من عدة طرق عن عمرو بن عبسة، بعضها مرسلة، هذا الحديث أخرجه النسائي (٦ / ٢٧) من طريق خالد بن زيد أبي عبد الرحمن الشامي، عن شرحبيل بن السمط، عن عمرو بن عبسة به مرفوعاً. وشرحبيل روايته عن عمرو مرسلة قاله المزي في التهذيب، وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٢٣٨) من طريق يزيد بن السمط، عن النعمان بن المنذر، عن مكحول، عن عمرو بن عبسة به مرفوعاً. مكحول كثير الإرسال ولا يعرف سماعه من عمرو، وفي (٢/ ١٤٠) من طريق الوليد بن مسلم، عن حريز بن عثمان، عن سليم بن عامر، عن عمرو بن عبسة مرفوعاً: «من رمى بسهم في سبيل الله أخطأ أو أصاب كان له كعتق رقبة من ولد إسماعيل». وزيادة: «من ولد إسماعيل» منكرة، وأخرجه ابن ماجه (٢/ ٩٤٠) وغيره من طريق عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن سليمان بن عبد الرحمن القرشي، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن عمرو =

وقال رسول الله ﷺ: «ارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إليَّ من أن تركبوا»[١].

و﴿رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾: جمع ربْط ككلب وكلاب، ولا يكثر ربطها إلا وهي كثيرة.

ويجوز أن يكون الرباط مصدراً من ربط، كصاح صياحاً، ونحوِه؛ لأن مصادر الثلاثي غيرِ المزيد لا تنقاس، وإن جعلناه مصدراً من رابط فكأن ارتباط الخيل واتخاذها يفعله كل واحد لفعلِ آخَرَ له، فترابَطَ المؤمنون بعضهم بعضاً، فإذا ربط كل واحد منهم فرساً لأجل صاحبه فقد حصل بينهم رباط، وذلك الذي حضَّ في الآية عليه، وقد قال ﷺ: «من ارتبط فرساً في سبيل الله فهو كالباسط يده بالصدقة لا يقبضها»[٢]، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وقرأ الحسن وعمرو بن دينار وأبو حيوة: (ومن رُبُط) بضم الراء والباء[٣]، وهو جمع

= ابن عبسة مرفوعاً، وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٤/ ٥٠) من طريق إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين، عن شهر بن حوشب أنه لقي أبا أمامة الباهلي فسأله عن حديث عمرو بن عبسة السلمي حين حدث شرحبيل بن السمط وأصحابه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول... قال شهر: فحدثني أبو أمامة عن عمرو بن عبسة بهذا الحديث سمعه من رسول الله ﷺ، قال ابن عبد البر: إسماعيل بن عياش أجمعوا أنه ليس بحجة فيما ينفرد به.

(١) هو جزء من حديث عقبة بن عامر الذي مر.

(٢) لم أجده بهذا السياق، وإنما المعروف بلفظ: «الخيل معقود في نواصيها الخير، وأهلها معانون عليها، والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة»، أخرجه ابن حبان (٤٦٧٤)، والحاكم (٢/ ١٠٠) وغيرهما من طريق معاوية بن صالح قال: حدثني نعيم بن زياد أنه سمع أبا كبشة صاحب النبي ﷺ به مرفوعاً. وبلفظ: «المنفق على الخيل كالباسط يده بالصدقة لا يقبضها»، أخرجه أبو داود (٤٠٨٩) من طريق: هشام بن سعد عن قيس بن بشر التغلبي قال: أخبرني أبي قال: كان بدمشق رجل من أصحاب النبي ﷺ يقال له: ابن الحنظلية... مر بنا ونحن عند أبي الدرداء فقال له أبو الدرداء كلمة تنفعنا ولا تضرك... فقاله مرفوعاً، وهشام لا يحتج به، والحديث متفق عليه بلفظ: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم»، أخرجه البخاري (٢٨٥٢) و(٣١١٩) ومسلم (١٨٧٣) دون ما بعده من الزيادة.

(٣) عزاها للحسن في مختصر الشواذ (ص: ٥٥)، وللثلاثة الكرماني في شواذ القراءات (ص: ٢٠٧).

رباط، ككتاب وكتب، كذا نصَّه المفسرون، وفي جمعه وهو مصدر غير مختلف نظر.

و﴿تُرۡهِبُونَ﴾: معناه: تُفزِعون وتُخَوِّفون، والرهبة الخوف، قال طُفَيل الغَنَوي:

[البسيط] وَيْـلُ امِّ حَـيٍّ دَفَعْتُـمْ فِـي نُحُورِهِمُ بَنِي كِلابٍ غَدَاةَ الرُّعْبِ والرَّهَبِ[1]

ومنه راهب النصارى، يقال: رهب إذا خاف، فـ﴿تُرۡهِبُونَ﴾ معدًّى بالهمزة.

وقرأ الحسن ويعقوب: ﴿تُرَهِّبون﴾ بفتح الراء وشد الهاء [معدًّى بالتضعيف][2]، ورويت عن أبي عمرو بن العلاء، قال أبو حاتم: وزعم عمرو أن الحسن قرأ: (يرهبون) بالياء من تحت وخففها، [فهو على هذا المعدَّى بالتضعيف][3].

وقرأ ابن عباس وعكرمة (تخزون به عدو الله)[4].

قال القاضي أبو محمد: ذكرها الطبري تفسيراً لا قراءة، وأثبتها أبو عمرو الداني قراءةً.

وقوله: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ ذكر الصفتين، وإن كانت متقاربة، إذ هي متغايرة المنحى، وبذكرهما يتقوى الذم وتتضح وجوه بغضنا لهم.

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: (عدُوّاً للهِ) بتنوين (عدو) وبلام في المكتوبة[5].

والمراد بهاتين الصفتين من قَرُبَ وصاقب[6] من الكفار وكانت عداوته متحركة بعد.

(١) انظر عزوه له في مجاز القرآن (١/ ٢٤٩)، وتفسير الطبري (١٤/ ٣٥).

(٢) ساقط من التركية وجار الله ونور العثمانية، وهي عشرية من رواية رويس عن يعقوب كما في النشر (٢/ ٢٧٧)، أما روح فالمتواتر عنه التخفيف كالجماعة، وعزاها ليعقوب والحسن ويموت عن أبي عمرو الكرماني في شواذ القراءات (ص: ٢٠٧).

(٣) ساقط من التركية، وهي شاذة، عزاها له في الشواذ للكرماني (ص: ٢٠٧)، أما عمرو المذكور فلم أعرفه.

(٤) وهي شاذة مخالفة للرسم، انظرها في تفسير الطبري (١٤/ ٣٥).

(٥) وهي شاذة، انظر عزوها له في مختصر الشواذ (ص: ٥٥)، والشواذ للكرماني (ص: ٢٠٧).

(٦) في نجيبويه: «وصافت»، وصاقَبَ بمعنى قارب ووزنها.

ويجوز أن يراد بها جميع الكفار، ويَبين هذا من اختلافهم في قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ الآية، قال مجاهد: الإشارة بقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ إلى قريظة، وقال السدي: الإشارة إلى أهل فارس، وقال ابن زيد: الإشارة إلى المنافقين[١]، وقالت فرقة: الإشارة إلى الجن، وقالت فرقة: هم كل عدو للمسلمين غير الفرقة التي أمر النبي ﷺ أن يشرد بهم من خلفهم.

قال القاضي أبو محمد: وهذا الخلاف إنما ينبغي أن يترتب على ما يَتوجه من المعنى في قوله ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ فإذا حملنا قوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ على عمومه، ونفينا علم المؤمنين بهذه الفرقة المشار إليها جملة واحدة، وكان العلم بمعنى المعرفة لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد، لم يثبت من الخلاف في قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ إلا قولُ من قال: الإشارة إلى المنافقين، وقولُ من قال: الإشارة إلى الجن.

وإذا جعلنا قوله: [﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ مجازاً بيِّناً][٢] أو نحو هذا مما نقيِّد[٣] به نفيَ العلم عنهم، حسنت الأقوال، وكان العلم متعدِّياً إلى مفعولين.

قال القاضي أبو محمد: هذا الوجه أشبه عندي، ورجح الطبري أن الإشارة إلى الجن، وأسند في ذلك ما روي من أن «صهيل الخيل ينفِّر الجن، وأن الشيطان لا يدخل داراً فيها فرس للجهاد»[٤]، ونحو هذا، وفيه على احتماله نظر.

وكان الأهم في هذه الآيات أن يبرز معناها في كل ما يقوي المسلمين على عدوهم من الإنس، وهم المحاربون والذين يدافعون[٥] على الكفر، ورهبتُهم من المسلمين هي النافعة للإسلام وأهله، ورهبة الجن وفزعهم لا غَناء له في ظهور الإسلام، [بل هو

(١) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١٤/ ٣٥-٣٦)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٣٠)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٣٦٩).

(٢) في نجيبويه بدله: «لا تعلمونهم بمعنى لا تعلموهم محاربين».

(٣) في الأصل: «نغير»، وفي المطبوع: «نفيد»، وفي الحمزوية: «يبعد»، وفي السليمانية: «يعيد».

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٣٧).

(٥) في نجيبويه: «يراجعون».

تابع لظهور الإسلام][١] وهو أجنبي جدّاً، والأَولى أن يتأول أن المسلمين إذا ظهروا وعزُّوا هابهم مَن جاورهم من العدو المحارب لهم، فإذا اتصلت حالُهم تلك بمن بَعُدَ من الكفار داخلته الهيبة وإن لم يقصد المسلمون إرهابهم، فأولئك هم الآخرون.

ويحسن أن يقدر قوله: ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾ بمعنى: لا تعلمونهم فازعين راهبين، ولا تظنون ذلك بهم، والله تعالى يعلمهم بتلك الحالة، ويحسن أيضاً أن تكون الإشارة إلى المنافقين على جهة الطعن عليهم والتنبيه على سوء حالهم، وليستريب بنفسه كلُّ من يعلم منها نفاقاً إذا سمع الآية، ولفزعهم ورهبتهم غناءٌ كثير في ظهور الإسلام وعلوه.

وقوله: ﴿مِن دُونِهِمۡ﴾ بمنزلة قولك: دون أن يكون هؤلاء، فـ«دون» في كلام العرب و«من دون» يقتضي عدم المذكور بعدها من النازلة التي هي فيها القول، ومنه المثل: «وأمرٌّ دون عبيدة الوذمُ»[٢].

ثم تفضل تعالى بعِدَة المؤمنين على إنفاقهم في سبيل الله بأن النفقة لا بد أن توفى، أي: تجازى ويثاب عليها، ولزوم هذا هو في الآخرة، وقد يمكن أن يجازي الله تعالى بعض المؤمنين في الدنيا مجازاةً مضافةً إلى مجازاة الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ الآية، الضمير في ﴿جَنَحُواْ﴾ هو للَّذين نبذ إليهم على سواء، وجنح الرجل إلى الأمر: إذا مال إليه وأعطى يده فيه، ومنه قيل للأضلاع: جوانح؛ لأنها مالت على الحشوة، وللخِباء: جناح، وجنحت الإبل: إذا مالت أعناقُها في السير، وقال ذو الرُّمة / : [٢/ ٢١٦]

[الطويل] إِذا مَال فَوق الرَّحْـل أَحْييْتِ روحه ... بِذِكْراك والعِيسُ المَراسيلُ جُنَّحُ[٣]

---

(١) ساقط من المطبوع

(٢) أصله عجز بيت لطرفة بن العبد، وصدره: ولقد هممتُ بذاك إذ حُبستْ، كما تقدم في تفسير الآية (٢٨) من سورة آل عمران.

(٣) انظر عزوه له في الشعر والشعراء (١/ ٢٢)، وتهذيب اللغة (٤/ ٩٤)، وحماسة الخالديين (ص: ٨١)، وأساس البلاغة (٢/ ٢٣٣).

وجَنح الليل: إذا أقبل وأمال أطنابه على الأرض، ومنه قول النابغة:

جَوَانِح قَدْ أَيْقَنَّ أَنَّ قَبِيلَهُ ... إذَامَاالتَقَى الجمْعانِأَوَّلُغَالِبِ[١] [الطويل]

أي: موائل، وقال لبيد:

جُنُوح الْهَالِكِيّ عَلَى يَدَيْهِ ... مُكِبّاً يَجْتَلِي نُقَبَ النِّصَالِ[٢] [الوافر]

وقرأ جمهور الناس: ﴿لِلسَّلْمِ﴾ بفتح السين وشدها، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿لِلسِّلْمِ﴾ بكسرها وشدها[٣] وهما لغتان في المسالمة.

ويقال أيضاً: السَّلَم بفتح السين واللام، ولا أحفظها قراءة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَاَجْنَحْ﴾ بفتح النون وهي لغة تميم، وقرأ الأشهب العقيلي: (فاجنُح)[٤]، وهي لغة قيس بضم النون، قال أبو الفتح: وهذه القراءة هي القياس، لأن «فَعَلَ» إذا كان غيرَ متعد فمستقبله «يفعُل» بضم العين أقيس: قعَد يقعُد، أقيس من جلس يجلِس.

وعاد الضمير في ﴿لَهَا﴾ مؤنثاً إذ (السلم) بمعنى المسالمة والهدنة، وقيل: (السلم) مؤنثةٌ كالحرب ذكره النحاس، وقال أبو حاتم: يذكَّر السلم[٥].

وقال قتادة والحسن بن أبي الحسن وعكرمة وابن زيد: هذه الآية منسوخة بآيات القتال في براءة[٦].

قال القاضي أبو محمد: وقد يحتمل ألا يترتب نسخها بها بأن يُعنى بهذه مَن تجوز مصالحته، وتبقى تلك التي في براءة في عبدة الأوثان، وإلى هذا ذهب الطبري.

---

(١) انظر عزوه له في الحيوان (٦/ ٤٨٣)، والشعر والشعراء (١/ ١٦٧)، وتفسير الطبري (١٤/ ٤٠)، وعيار الشعر (ص: ٤٤).

(٢) انظر عزوه له في العين (٥/ ٢٨٤)، وسيرة ابن هشام (١/ ٦٧٤)، وتهذيب اللغة (٤/ ٩٣).

(٣) وهما سبعيتان، انظر: التيسير للداني (ص: ١١٧).

(٤) وهي شاذة، انظر عزوها له مع التوجيه في المحتسب (١ / ٢٧٩).

(٥) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٠٣).

(٦) انظر: قولهم في تفسير الطبري (١٤/ ٤١)، مع قول الطبري الآتي.

وما قالته الجماعة صحيح أيضاً إذْ كان الجنوح إلى سلم العرب مستقرّاً في صدر الإسلام، فنسخت ذلك آية براءة ونُبذت إليهم عهودهم.

وروي عن ابن عباس أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ الآية [محمد: ٣٥][١].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول بعيد من أن يقوله ابن عباس رضي الله عنه، لأن الآيتين مدنيتان[٢].

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أمر في ضِمْنِه وعد[٣].

قوله عز وجل: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟﴾ عائد على الكفار الذين قيل فيهم: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟﴾.

وقوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ يريد: بأن يظهروا له السلم ويبطنوا الغدر والخيانة، أي: فاجنح وما عليك من نياتهم الفاسدة.

﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيك ومعطيك نصرةً وإظهاراً، وهذا وعد محض.

و﴿أَيَّدَكَ﴾ معناه: قوَّاك، ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد: بالأنصار، بقرينة قوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، وهذه إشارة إلى العداوة التي كانت بين الأوس والخزرج في

---

(١) لم أجده.

(٢) في الأصل: «مبينتان»، وفي نجيبويه: «منبئتان»، وفي الحمزوية: «مثبتتان».

(٣) في المطبوع: «وعيد».

حروب بُعاث، فألف الله تعالى قلوبهم على الإسلام وردهم متحابين في الله، وعدِّدت هذه النعمة تأنيساً لمحمد ﷺ، أي: كما لطف بك ربك أولاً فكذلك يفعل آخِراً.

وقال ابن مسعود: نزلت هذه الآية في المتحابين في الله(١).

[وقال مجاهد: إذا تراءى المتحابان](٢) فتصافحا وتضاحكا تحاتَّتْ خطاياهما، فقال له عَبْدة بن أبي لُبابة(٣): إن هذا ليسير(٤)، فقال له: لا تقل ذلك، فإن الله يقول: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾، قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني(٥).

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله تمثُّل حسن بالآية، لا أن الآية نزلت في ذلك، بل تظاهرت أقوال المفسرين أنها في الأوس والخزرج كما ذكرنا، ولو ذهب ذاهب إلى عموم المؤمنين في المهاجرين والأنصار، وجعل التأليف ما كان من جميعهم من التحابِّ حتى تكون ألفة الأوس والخزرج جزءاً من ذلك لساغ ذلك، وكل تألُّف في الله فتابعٌ لذلك التألف الكائن في صدر الإسلام.

وقد روى سهل بن سعد عن النبي ﷺ، أنه قال: «المؤمن مألفةٌ، لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلَف»(٦).

---

(١) إسناده صحيح، أخرجه الطبري (١٤/ ٤٧) من طريق عبيد الله بن موسى قال: حدثنا فضيل بن غزوان قال: أتيت أبا إسحاق فسلمت عليه فقال: حدثني أبو الأحوص، عن عبد الله، قال: نزلت هذه الآية في المتحابين في الله: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ .اهـ، وإسناده صحيح.

(٢) ساقط من الأصل.

(٣) عبدة بن أبي لبابة الأسدي ثم الغاضري مولاهم، أبو القاسم الكوفي التاجر أحد العلماء الأثبات، حدث عن ابن عمر وسويد بن غفلة وعلقمة وأبي وائل وزر بن حبيش، وعنه الأوزاعي وشعبة والسفيانان وآخرون، توفي سنة (١٢٨هـ). تاريخ الإسلام (٨/ ١٧١).

(٤) تحرفت في نجيبويه إلى: «لعسير».

(٥) تفسير الطبري (١٤/ ٤٦).

(٦) الأشبه أنه من قول ابن مسعود، روي هذا الحديث عن أبي حازم، واختلف عليه؛ فرواه مصعب بن ثابت، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ، ورواه أبو صخر، عن أبي حازم، عن أبي =

قال القاضي أبو محمد: والتشابه هو سبب الألفة، فمن كان من أهل الخير ألف أشباهه وألفوه.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: قال النقاش: نزلت هذه الآية بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال[(١)]، وحكي عن ابن عباس أنها نزلت في الأوس والخزرج خاصة، قال: ويقال: إنها نزلت حين أسلم عمر وكمل المسلمون أربعين، قاله ابن عمر وأنس[(٢)].

قال القاضي أبو محمد: فهي على هذا مكية.

و﴿حَسْبُكَ﴾ في كلام العرب وشَرْعُكَ بمعنى: كافيك ويكفيك، والمُحْسِب[(٣)]: الكافي.

وقالت فرقة: معنى هذه الآية: يكفيك الله ويكفيك من اتبعك من المؤمنين، فـ (مَن) في هذا التأويل [رفع عطفاً على اسم الله عز وجل.

وقال عامر الشعبي وابن زيد: معنى الآية: حسبك الله وحسبُ مَن اتبعك من

= صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ، فذكره، ورواه عبد الرحمن المسعودي وغيره، عن أبي حازم، عن عون بن عبد الله قال: قال عبد الله بن مسعود، فذكره مرسلاً موقوفاً، ورواه عبد العزيز ابن أبي حازم، عن أبي حازم، عن عون من قوله، قاله البيهقي في الآداب (١٥٩)، وذكر الدارقطني (٥/ ٢٣٢) نحواً من هذا الخلاف في العلل، ثم قال: أشبهها بالصواب حديث ابن مسعود. اهـ. يعني الموقوف، وكذلك فهم عنه ونقله ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٢٥٨)، وفي التركية: «سهل عن سعد»، بدل «بن» وهو خطأ.

(١) تفسير الثعالبي (٢/ ١٠٩).

(٢) وفي التركية: «قاله عمر»، وأثر أنس وابن عمر لم أجده، لكن أخرج الطبراني في الكبير (١٢/ ٦٠) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/ ٤٠) من طريق: إسحاق بن بشر الكاهلي، ثنا خلف بن خليفة، عن أبي هاشم الرماني، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أسلم مع النبي ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة، وأسلم عمر تمام الأربعين، فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. وهذا خلاف ما نسبه المصنف لابن عباس، فإني لم أجده، وإسحاق بن بشر تالف، اتهم بالكذب.

(٣) في نجيبويه: «والمحاسب».

المؤمنين[١]، فـ (مَن) في هذا التأويل][٢] في موضع نصب عطفاً على موضع الكاف، لأن موضعها نصب على المعنى ليكفيك التي سدَّت ﴿حَسْبُكَ﴾ مسدّها.

ويصح أن تكون (مَن) في موضع خفضٍ بتقدير محذوف، كأنه قال: وحسبُ، وهذا كقول الشاعر:

أكُلَّ امرئٍ تَحْسَبِينَ امْرَأً ... ونارٍ تَوَقَّدُ بالليْلِ نارَا[٣] [المتقارب]

التقدير: وكلَّ نار، وهذا الوجه من حذف المضاف مكروه، بابه ضرورة الشعر، ويروى البيت: ونارا، ومن نحو هذا قول الشاعر:

إذَا كَانَتِ الهَيْجَاءُ وانْشَقَّتِ العَصَا ... فَحَسْبُكَ والضَّحَّاكَ سَيْفٌ مُهَنَّدُ[٤] [الطويل]

يروى: الضحاكُ مرفوعاً، والضحاكَ منصوباً، والضحاكِ مخفوضاً.

فالرفع عطف على قوله: سيف، بِنِية التأخير كما قال الشاعر:

.... عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ السَّلامُ[٥] [الوافر]

ويكون الضحاك على هذا مُحسِباً للمخاطب.

[والنصبُ عطفاً على موضع الكاف من قوله: «حسبك»، والمهند على هذا مُحْسِبٌ للمخاطب][٦].

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٤٩).

(٢) ساقط من التركية.

(٣) البيت لأبي دؤاد كما في الكتاب لسيبويه (١/ ٦٦)، والأصمعيات (ص: ١٩١)، ونسبه في الكامل (١/ ٢٢٩) لعدي بن زيد.

(٤) البيت لجرير كما في ذيل الأمالي (ص ١٤٠).

(٥) نسبه في الجيم (١/ ١٢٠) للأصبغ الكلبي، وصدره عنده: أَلَا يا أَيُّها المَحجوبُ عَنَّا، وفي أكثر المصادر أن صدره: ألا يا نخلة من ذات عرق، وهذا الأخير قال في خزانة الأدب (١/ ٤٠١): لا يعرف قائله، وقيل: هو للأحوص.

(٦) ساقط من نجيبويه.

والخفضُ[(١)] على تقدير محذوف كأنه قال: فحسبك وحسبُ الضحاكِ.

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن / مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ۝٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٦٦﴾. [٢/ ٢١٧]

قوله: ﴿حَرِّضِ﴾ معناه: حُثَّهم وحُضَّهم.

قال النقاش: وقرئت: (حرِّص) بالصاد غير منقوطة، والمعنى متقارب[(٢)].

والحارض: الذي هو القريب من الهلاك لفظةٌ مباينة لهذه ليست منها[(٣)] في شيء، وقالت فرقة من المفسرين: المعنى: حرض على القتال حتى يَبين لك فيمن تركه أنه حارض.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول غير ملتئم ولا لازمٍ من اللفظ، ونحا إليه الزجَّاج[(٤)].

و﴿ٱلۡقِتَالِ﴾ مفترضٌ على المؤمنين بغير هذه الآية، وإنما تضمنت هذه الآية أمر النبي ﷺ بتحريضهم على أمر قد وجب عليهم من غير هذا الموضع.

وقوله: ﴿إِن يَكُن﴾ إلى آخر الآية في لفظ خبرٍ ضمنه وعدٌ بشرطٍ؛ لأن قوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ بمنزلة أن يقال: إن يصبر منكم عشرون يغلبوا، وفي ضمنه الأمر بالصبر.

وكسرت العين من ﴿عِشۡرُونَ﴾ لأن نسبة عشرين من عشرة نسبة اثنين من واحد،

---

(١) في الأصل والمطبوع: «والضحاكِ»، بدل «والخفض»، فتضبط بالجر.

(٢) لم أجد من نقله عنه، والقراءة بالصاد عزاها أبو حيان في البحر المحيط (٤/ ٥١٢) للأعمش.

(٣) في نجيبويه: «من هذه».

(٤) راجع معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٤٢٣).

فكما جاء أول اثنين مكسوراً كسرت العين من عشرين، ثم اطَّرد في جموع أجزاء العشرة، فالمفتوح كأربعة وخمسة وسبعة فُتِح أول جمعه، والمكسورُ كستة وتسعة كُسر أول جمعه، هذا قول سيبويه، وذهب غيره إلى أن عشرين جمع عِشْرِ الإبل وهو وِردُها للتسع، فلما كان في عَشرةٍ وعَشرةٍ: عِشرٌ وعِشرٌ ويومان من الثالث، جمع ذلك على عِشْرِين، كما قال امرؤ القيس:

.... ثَلَاثُونَ شهراً فِي ثَلَاثَة أَحْوَالِ[١] [الطويل]

لما كان في الثلاثين حولٌ وحولٌ وبعضُ الثالث.

وتظاهرت الروايات عن ابن عباس وغيره من الصحابة بأن ثبوت الواحد للعشرة كان فرضاً من الله عز وجل على المؤمنين، ثم لما شقَّ ذلك عليهم حُط الفرض إلى ثبوت الواحد للاثنين.

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو النسخ؛ لأنه رفعُ حكمٍ مستقرٍّ بحكمٍ آخر شرعي، وفي ضمنه التخفيف، إذ هذا من نسخ الأثقل بالأخف.

وذهب بعض الناس إلى أن ثبوت الواحد للعشرة إنما كان على جهة ندب المؤمنين إليه، ثم حُط ذلك حين ثقل عليهم إلى ثبوت الواحد للاثنين، وروي أيضاً هذا عن ابن عباس[٢].

قال كثير من المفسرين: وهذا تخفيفٌ لا نسخٌ، إذ لم يستقر لفرض العشرة حكم شرعي.

قال مكي: وإنما هو كتخفيف الفطر في السفر، وهو لو صام لم يأثم وأجزأه[٣].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا نظر، ولا يمتنع كون المنسوخ مباحاً، [من

---

(١) تقدم في تفسير الآية (١٩٧) من سورة البقرة.

(٢) رواه العوفي وحده عن ابن عباس، أخرجه الطبري (١٤/ ٥٣) وهو مخالف لما استفاض عن ابن عباس وحكاه المصنف قبله.

(٣) الهداية لمكي (٤/ ٢٨٧٥).

أن يقال][1]: نسخ، واعتُبِر ذلك في صدقةِ النجوى[2]، وهذه الآية؛ التخفيفُ فيها نسخٌ للثبوت للعشرة، وسواء كان الثبوت للعشرة فرضاً أو ندباً؛ هو حكم شرعي على كل حال.

وقد ذكر القاضي ابن الطيب أن الحكم إذا نُسخ بعضُه أو بعضُ أوصافه أو غُيِّر عددُه فجائز أن يقال له: نسخٌ، لأنه حينئذ ليس بالأول بل هو غيره، وذكر في ذلك خلافا[3].

قال القاضي أبو محمد: والذي يظهر في ذلك أن النسخ إنما يقال حينئذ على الحكم الأول مقيَّداً لا بإطلاقٍ، واعتُبر ذلك في نسخ الصلاة إلى بيت المقدس.

وقرأ حمزة والكسائي وعاصم: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ﴾ في الموضعين بياء، على تذكير العلامة، ورواها خارجة عن نافع.

قال القاضي أبو محمد: وهذا بحسب المعنى؛ لأن الكائن في تلك المئة إنما هم رجال، فذلك في الحمل على المعنى كقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، [إذ أمثالها حسنات][4].

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: ﴿إن تكن منكم مئة﴾ بالتاء في الموضعين على تأنيث العلامة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا بحسب اللفظ والمقصد، كأنه قال: إن تكن فرقة عددها مئة.

وقرأ أبو عمرو بالياء من تحت في صدر الآية، وبالتاء من فوق في آخرها، ذهب في الأولى إلى مراعاة ﴿يَغْلِبُواْ﴾، وفي الثانية إلى مراعاة ﴿صَابِرَةٌ﴾[5].

---

(١) في نجيبويه: «وأن يقال».

(٢) إشارة إلى الآية (٩) من سورة المجادلة.

(٣) لم أقف على قول الباقلاني بلفظه، انظر في هذا الموضوع: المسودة في أصول الفقه (١/ ١٨٧).

(٤) ساقط من نور العثمانية، وهي في جار الله ملحقة في الهامش.

(٥) وكلها سبعية، انظر: التيسير (ص: ١١٧)، ورواية خارجة في السبعة (ص: ٣٠٨)، وقوله: «من فوق» و«من تحت» زيادة من الأسدية.

قال أبو حاتم: وقرأ: (إن تكن) بالتاء من فوق (منكم عشرون صابرون) الأعرج، وجعلها كلها على التاء[(١)].

قال القاضي أبو محمد: إلا قوله: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ﴾ فإنه لا خلاف في الياء من تحت.

قوله: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ معناه: لا يفهمون مراشدهم ولا مقصدَ قتالهم، لا يريدون به إلا الغلبة الدنياوية، فهم يخافون الموت إذا صبر لهم، ومن يقاتل ليَغلب أو يُستشهَد[(٢)] فيصيرَ إلى الجنة أثبت قدماً لا محالة.

وروى المفضَّل عن عاصم: (وعُلِم) بضم العين وكسر اللام على البناء للمفعول[(٣)].

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وابن عمرو[(٤)] والحسن والأعرج وابن القعقاع وقتادة وابن أبي إسحاق: ﴿ضُعْفًا﴾ بضم الضاد وسكون العين.

وقرأ عاصم وحمزة وشيبة وطلحة: ﴿ضَعْفًا﴾ بفتح الضاد وسكون العين، وكذلك اختلافهم في سورة الروم[(٥)].

وقرأ عيسى بن عمر: (ضُعُفا) بضم الضاد والعين، وذكره النقاش[(٦)].

وهي مصادر بمعنًى واحد، قال أبو حاتم: مَن ضم الضاد جاز له ضم العين وهي

---

(١) انظر: البحر المحيط في التفسير (٥/ ٣٥١)، وفي التركية: «على ثناه»، وفي الأسدية: «على ما».

(٢) في جار الله: «واستشهد».

(٣) انظر الكامل للهذلي (ص: ٥٦٠).

(٤) في جار الله ونور العثمانية وأحمد٣: «ابن عمر».

(٥) الآية (٥٤)، كما سيأتي ذلك في محله إن شاء الله تعالى، وهما سبعيتان، نقل الضم عن الخمسة الأولين والفتح عن حمزة وعاصم الداني في التيسير (ص: ١١٧)، ونقل الكل أبو حيان في البحر المحيط (٥/ ٣٥١) إلا عن شيبة وطلحة فلم أقف على شيء لهما هنا، ونقلها عن أبي جعفر بن القعقاع بالفتح أيضاً الثعلبي (٤/ ٣٧١)، وليس ذلك في شيء من طرقه، بل المتواتر عنه «ضعفاء» بالمد كما سيأتي.

(٦) نقلها عن عيسى ابن عادل في اللباب (٩/ ٥٦٥).

لغة، وحكى سيبويه: الضَّعف والضُّعف لغتان بمنزلة الفَقر والفُقر[١]، حكى الزهراوي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: ضم الضاد لغة أهل الحجاز، وفتحها لغة تميم، ولا فرق بينهما في المعنى[٢]، وقال الثعالبي[٣] في كتاب «فقه اللغة» له: الضَّعف بفتح الضاد في العقل والرأي، والضُّعف بضمها في الجسم[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول تردُّه القراءة، وذكره أبو غالب بن التيَّاني غير منسوب[٥].

وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع أيضا: ﴿ضُعَفَاءَ﴾ بالجمع، كظريفٍ وظرفاء، وحكاها النقاش عن ابن عباس[٦].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ لفظُ خبر في ضمنه وعدٌ وحضٌّ على الصبر، ويلحظ منه وعيد لمن لم يصبر بأنه يُغلب.

قوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾.

[٢/ ٢١٨] / هذه الآية تتضمن عندي معاتبةً من الله عز وجل لأصحاب نبيه ﷺ، والمعنى:

---

(١) الكتاب لسيبويه (١ / ٣٤١)، وكلام أبي حاتم لم أجده.

(٢) نقله عن أبي عمرو: النحاس في إعراب القرآن (٢ / ١٠٤)

(٣) هو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبو منصور الثعالبي النيسابوري، الأديب الشاعر، صاحب التصانيف الأدبية، توفي سنة (٤٣٠هـ). تاريخ الإسلام (٢٩/ ٢٩١).

(٤) فقه اللغة (١ / ٣٣)، ولفظة «بضمها» زيادة من المطبوع.

(٥) لم أقف عليه، وهو أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التَّيَّانيّ الأندلسيّ المرسيّ اللغويّ، كان إماماً في اللغة، ثقة في إيرادها، مذكوراً بالديانة والعفّة والورع، وله كتاب مشهور فى اللغة، لم يؤلّف مثله اختصاراً أو إكثاراً، توفي (٤٣٦هـ). إنباه الرواة (١/ ٢٩٤).

(٦) فهي قراءة عشرية عزاها له في النشر (٢ / ٢٧٧)، وانظر نقل النقاش في اللباب (٩ / ٥٦٥).

ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي أسرى قبل الإثخان، ولهم هو الإخبار، ولذلك استمر الخطاب بـ﴿تُرِيدُونَ﴾، والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قط عَرَض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب، وجاء ذكر النبي ﷺ مشيراً في الآية إلى دخول النبي ﷺ في العتب حين لم ينه عن ذلك حين رآه من العريش، وأنكره سعد بن معاذ، ولكنه ﷺ شغله بغت الأمر وظهور النصر، فترك النهي عن الاستبقاء، ولذلك بكى هو وأبو بكر حين نزلت هذه الآية.

ومر كثير من المفسرين على أن هذا التوبيخ إنما كان بسبب إشارة مَن أشار على النبي ﷺ بأخذ الفدية، وذلك أن رسول الله ﷺ لما جمع أسرى بدر استشار فيهم أصحابه، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، هم قرابتك، ولعل الله أن يهديهم بعدُ إلى الإسلام، ففادهم واستَبْقِهم ويتقوى المسلمون بأموالهم، وقال عمر بن الخطاب: لا يا رسول، الله بل نضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر، وقال عبد الله بن رواحة: بل نجعلهم في وادٍ كثير الحطب [ثم نضرمه عليهم ناراً][١]، وقد كان سعد بن معاذ قال ـ وهو مع رسول الله ﷺ في العريش، وقد رأى الأسر ـ : لقد كان الإثخان في القتل أحبَّ إليَّ من استبقاء الرجال، فأخذ رسول الله ﷺ بقول أبي بكر ومال إليه[٢]، فنزلت هذه الآية مخبرة أن الأَولى والأهْيَبَ على سائر الكفار كان قتلَ أسرى بدر.

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية والمسلمون قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم نزل في الأسر: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤٧][٣].

وذكر الطبري وغيره أن رسول الله ﷺ لما تكلم أصحابه في الأسرى بما ذكر دخل ولم يجبهم، ثم خرج، فقال: «إن الله تعالى يلين قلوب رجال، ويشدد قلوب رجال

---

(١) ساقط من الأسدية.

(٢) صحيح، هذا الحديث أخرجه مسلم (١٧٦٣) من طريق عكرمة بن عمار قال: ثنا سماك الحنفي أبو زميل قال: حدثني عبد الله بن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب به.

(٣) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٥٩) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مَثَلك يا أبا بكر مَثَلُ إبراهيم، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ومَثَلُ عيسى، قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، ومثلُك يا عمر مثل نوح، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ومثل موسى، قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]»، ثم قال رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم عالةٌ، فلا يُفلتن منهم رجل إلا بفدية أو ضرب عنق»[١]، وفي هذا الحديث قال عمر: فهوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلتُ[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذه حجة على ذكر الهوى في الصلاح.

وقرأت فرقة: (ما كان للنبيِّ) معرَّفا[٣]، وقرأ جمهور الناس: ﴿لِنَبِيٍّ﴾.

وقرأ أبو عمرو بن العلاء وحده: ﴿أن تكونَ﴾ على تأنيث العلامة مراعاة لِلَفظ الأسرى، وقرأ باقي السبعة وجمهورُ الناس: ﴿أن يَكون﴾ بتذكير العلامة مراعاة لمعنى الأسرى[٤].

وقرأ جمهور الناس والسبعة: ﴿أَسْرَىٰ﴾، وقرأ بعض الناس: ﴿أُسَارَى﴾، ورواها المفضل عن عاصم، وهي قراءة أبي جعفر[٥].

والقياس والباب أن يجمع أسير على أسْرى، وكذلك كلُّ فعيل بمعنى مفعول، [وشُبه به فعيل وإن لم يكن بمعنى مفعول][٦]، كمريض ومرضى، إذا كانت أيضاً أشياء سبيلُ الإنسان أن يُجبر عليها وتأتيه غلبةً فهو فيها بمنزلة المفعول.

---

(١) فيه انقطاع، هذا الحديث أخرجه أحمد (٣٦٣٢ - ٣٦٣٤)، والحاكم (٣: ٢١، ٢٢)، والطبري (١٤/ ٦١) من طريق الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، ولم يسمع منه، ولفظ: «عالة» زيادة من التركية.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) وهي شاذة قال في البحر المحيط (٥/ ٣٥٢): وبها قرأ أبو الدرداء وأبو حيوة.

(٤) فهما سبعيتان. انظر: التيسير للداني (ص: ١١٧).

(٥) وهي عشرية، انظر: النشر (٢ / ٢٧٧)، وانظر رواية المفضل في جامع البيان للداني (٣/ ١١٤٤).

(٦) ساقط من التركية.

وأما جمعه على أسَارى فشبيه بكُسالى في جمع كسلان، وجُمِع أيضاً كسلان على كسْلى تشبيهاً بأسْرى في جمع أسير، قاله سيبويه[١]، وهما شاذان، وقال الزجّاج: أسارى جمع أسرى فهو جمع الجمع[٢].

وقرأ جمهور الناس: ﴿يُثْخِنَ﴾ بسكون الثاء، وقرأ أبو جعفر ويحيى بن يعمر ويحيى بن وثَّاب: (يُثَخِّن) بفتح الثاء وشد الخاء[٣]، ومعناه في الوجهين: يبالغ في القتل، والإثخان إنما يكون في القتل والجراحة وما كان منها.

ثم أمر مخاطبةً أصحابَ النبي ﷺ فقال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مالها الذي يعنُّ ويَعْرِض، والمراد: ما أُخذ من الأسرى من الأموال، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ أي: عَمَلَ الآخرة، فحُذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

وقرأ ابن جمَّاز: (الآخرةِ) بالخفض[٤] على تقدير المضاف، ويَنظر ذلك لقول الشاعر:

أكُلَّ امرئٍ تَحْسَبِينَ امْرَأً ... ونارٍ تَوَقَّدُ باللَّيْلِ نارَا[٥] [المتقارب]

على تقدير: وكلَّ نار، وذكر الطبري وغيره أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إن شئتم أخذتم فداء الأسرى ويقتل منكم سبعون في الحرب على عددهم، وإن شئتم قُتلوا وسلمتم»، فقالوا: نأخذ المال ويُستشهَد منا سبعون[٦].

---

(١) الكتاب لسيبويه (٣/ ٦٥٠).
(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٢٥).
(٣) وهي شاذة، نقلها في الكامل (ص: ٥٦٠) عن أبي جعفر من رواية ميمونة والقورسي، وعن الباقين في البحر المحيط (٥/ ٣٥٢).
(٤) نقلها عنه ابن جنى في المحتسب (١ / ٢٨٠)، والسمين في الدر المصون (١ / ٢١٣٩)، وليست في شيء من طرق النشر.
(٥) تقدم قريباً.
(٦) مرسل، أخرجه (٧/ ٣٧٥) من طريق: ابن سيرين عن عبيدة السلماني مرسلًا.

وذكر عبد بن حميد بسنده أن جبريل نزل على النبي ﷺ بتخيير الناس هكذا[١].

قال القاضي أبو محمد: وعلى الروايتين فالأمر في هذا التخيير[٢] من عند الله، فإنه إعلام بغيب، وإذا خيِّروا فكيف يقع التوبيخ بعدُ بقوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، والذي أقول في هذا إن العتب لأصحاب النبي ﷺ بقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ إنما هو على استبقاء الرجال وقت الهزيمة رغبةً في أخذ المال منهم، وجميع العتب إذا نظر فإنما هو للناس، وهناك كان عمر يقتل ويحض على القتل ولا يرى الاستبقاء، وحينئذ قال سعد بن معاذ: الإثخان أحب إليَّ من استبقاء الرجال، وبذلك جعلهما رسول الله ﷺ ناجِيَيْنِ من عذاب أن لو نزل.

ومما يدل على حرص بعضهم على المال قول المقداد حين أمر رسول الله ﷺ بقتل عقبة بن أبي معيط: أسيري يا رسول الله[٣]، وقول مصعب بن عمير للَّذي يأسر أخاه: شد يدك عليه فإن له أما موسرة[٤]، إلى غير ذلك من قصصهم.

---

(١) اختلف في هذا الحديث وصلاً وإرسالاً، هذا الحديث أخرجه الترمذي (١٦٥٧)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٠٠)، والطبري (٧/ ٣٧٦) من طريق ابن أبي زائدة، عن الثوري، عن هشام، عن ابن سيرين عن عبيدة السلماني، عن علي مرفوعاً، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من حديث الثوري لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة، وروى أبو أسامة عن هشام عن ابن سيرين عن عبيدة عن علي عن النبي ﷺ نحوه، وروى ابن عون عن ابن سيرين عن عبيدة عن النبي ﷺ مرسلاً. اهـ. وقد سبق عن ابن سيرين عن عبيدة مرسلاً بدون ذكر جبريل عليه السلام، فالظاهر أن المحفوظ في هذا الخبر هو الإرسال كما قال الدارقطني في العلل (٤/ ٢١): المرسل أشبه بالصواب.

(٢) في نجيبويه: «التأخير».

(٣) مرسل، هذا الحديث أخرجه أبو داود في المراسيل (٣٣٧)، وابن زنجويه في الأموال (١/ ٤٤٢) من طريق: هشيم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير به مرفوعاً مرسلاً.

(٤) ضعيف، ذكره الزيلعي في نصب الراية (٣/ ٤٠٣) نقلًا عن الواقدي في المغازي قال: حدثني أيوب بن النعمان، قال: وأسر يومئذ أبو عزيز بن عمير، وهو أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه، وقع في يد محرز بن فضلة، فقال مصعب لمحرز: اشدد يديك به، فإن له أمّاً بمكة كثيرة المال، فقال له أبو عزيز: هذه وصاتك بي يا أخي؟ فقال: إن محرزاً أخي دونك، فبعثت أمه عنه بأربعة آلاف، وهذا إسناد لا تقوم به حجة فهو ضعيف معضل.

فلما تحصَّل الأسرى وسيقوا إلى المدينة / ، وأنفذ رسول الله ﷺ القتلَ في النضر [٢/ ٢١٩] وعقبة[(١)]، والمنَّ في أبي عَزة[(٢)] وغيره، وجعل يرتئي في سائرهم، نزل ذلك التخيير من الله تعالى، فاستشار رسول الله ﷺ حينئذ، فمر عمر رضي الله عنه على أول رأيه في القتل، ورأى أبو بكر رضي الله عنه المصلحة في قوة المسلمين بمال الفداء، ومال رسول الله ﷺ إلى رأي أبي بكر، وكلا الرأيين اجتهاد بعد تخيير، فلم ينزل على شيء من هذا عتب، وذكر المفسرون أن الآية نزلت بسبب هذه المشورة والآراء، وذلك معترض بما ذكرته.

وكذلك ذكروا في هذه الآيات تحليل المغانم [لهذه الأمة][(٣)]، ولا أقول ذلك، لأن حُكم الله تعالى بتحليل المغنم لهذه الأمة قد كان تقدم قبل بدر، وذلك في السرية التي قتل فيها عمرو بن الحضرمي، وإنما المبتدَع في بدرٍ استبقاءُ الرجال لأجل المال، والذي مَنَّ[(٤)] الله به فيها إلحاق فدية الكافر بالمغانم التي قد تقدم تحليلها.

ووجه ما قال المفسرون: أن الناس خُيِّروا في أمرين، أحدهما غير جيد على جهة الاختبار لهم، فاختاروا المفضول، فوقع العتب، ولم يكن تخييراً في مستوِيين، وهذا كما أُتي رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بإناءين فاختار الفاضل[(٥)].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ١٣٥) من طريق حصين بن نمير، عن سفيان بن حسين، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قتل رسول الله ﷺ يوم بدر ثلاثة صبراً... وقال: لم يرو هذا الحديث عن أبي بشر إلا سفيان بن حسين، تفرد به حصين بن نمير. اهـ. وحكاه الشافعي وابن إسحاق بلا إسناد.

(٢) مشهور في كتب السير وليس له إسناد صحيح، قصة المن على أبي عزة أخرجها البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٦٥) عن سعيد بن المسيب به مرسلاً، وفي إسناده الواقدي، وذكرها الشافعي عن بعض من أدركه من أهل العلم بالمغازي، وذكرها ابن إسحاق حكاية من قوله، ولم أقف لها على إسناد يصح، وهو أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي، منَّ عليه رسول الله ﷺ يوم بدر، وكان فقيراً ذا عيال وحاجة، ثم حرض على المسلمين في غزوة أحد فهدر دمه، وقتل يومئذ كافراً، انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦١).

(٣) من المطبوع.

(٤) في التركية: «سن».

(٥) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٣٨٨٧) ومسلم (١٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

و﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان من قِبل الآية؛ لأن بالعزة والحكمة يتم مراده على الكمال والتوفية.

وقال أبو عمرو بن العلاء: الأسرى هم غير الموثَّقين عندما يؤخذون، والأسارى هم الموثقون ربطاً(١).

قال القاضي أبو محمد: وحكى أبو حاتم أنه سمع هذا من العرب، وقد ذكره أيضاً أبو الحسن الأخفش، وقال: العرب لا تعرف هذا، وكلاهما عندهم سواء(٢).

وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية، قالت فرقة: الكتاب السابق هو القرآن، والمعنى: لولا الكتاب الذي سبق فآمنتم به وصدَّقتم لمسكم العذاب؛ لأَخْذِكم هذه المفاداةَ، وقال سعيد بن جبير ومجاهد والحسن أيضاً وابن زيد: الكتاب السابق هو مغفرة الله لأهل بدر ما تقدم من ذنوبهم أو تأخر(٣).

وقال الحسن وابن عباس وأبو هريرة وغيرهم: الكتاب هو ما قد كان الله قضاه في الأزل من إحلال الغنائم والفداء لمحمد ﷺ وأمته، وكانت في سائر الأمم محرَّمة(٤).

وقالت فرقة: الكتاب السابق هو عفو الله عنهم في هذا الذنب معيناً.

وقالت فرقة: الكتاب السابق هو أن الله عز وجل قضى أن لا يعاقب أحداً بذنب أتاه بجهالة، وهذا قول ضعيف تعارضه مواضع من الشريعة.

وذكر الطبري عن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب أن الكتاب السابق هو أن لا يعذب أحداً بذنب إلا بعد النهي عنه، ولم يكونوا نُهوا بعد(٥).

وقالت فرقة: الكتاب السابق هو ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر.

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (١/ ٣٣٧)، وتفسير الثعلبي (١/ ٢٣٠)، وذكر عن النقاش أن الأصمعي أنكره.
(٢) انظر كلامه في معاني القرآن له (١/ ١٤٠).
(٣) انظر أقوالهم وقول الحسن الآتي في تفسير الطبري (١٤/ ٦٩-٧٠)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٣٢).
(٤) رواه العوفي عن ابن عباس، وروي عن أبي هريرة بإسناد تالف، أخرجهما الطبري (١٤/ ٦٥-٦٦).
(٥) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٧٠).

وذهب الطبري إلى دخول هذه المعاني كلها تحت اللفظ وأنه يعمها، ونكَّب عن تخصيص معنًى دون معنًى[١].

واللام في ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ جواب ﴿لَّوْلَا﴾.

و﴿كِتَٰبٌ﴾ رفع بالابتداء، والخبر محذوف، وهكذا حال الاسم الذي بعد ﴿لَّوْلَا﴾، وتقديره عند سيبويه: لولا كتاب من الله سابق تدارككم[٢].

و(مَا) من قوله: ﴿فِيمَآ﴾ يراد بها إما الأسرى وإما الفداء، وهي موصولة، وفي ﴿أَخَذْتُمْ﴾ ضمير عائد عليها، ويحتمل أن تكون مصدرية فلا تحتاج إلى العائد.

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «لو نزل في هذا الأمر عذاب لنجا منه عمر بن الخطاب»، وفي حديث آخر: «وسعد بن معاذ»[٣]، وذلك أن رأيهما كان أن يُقتل الأسرى.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية، نصٌّ على إباحة المال الذي أخذ من الأسرى وإلحاقٌ له بالغنيمة التي كان تقدَّم تحليلها.

وقوله: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ حالان من (ما) في قوله: ﴿مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾، [ويصح أن يكونا من الضمير الذي في ﴿غَنِمْتُمْ﴾][٤] ويحتمل أن يكون ﴿حَلَٰلًا﴾ مفعولًا بـ(كلوا).

و(اتقو الله) [معناه في التشرع[٥] حسب إرادة البشر وشهوته في نازلة أخرى.

وجاء قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾][٦] اعتراضاً فصيحاً في أثناء الكلام، لأن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هو متصل بالمعنى بقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٧٠، ٧١).

(٢) إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٠٥).

(٣) أخرجهما الطبري (١٤/ ٧١) الأولى عن ابن زيد، والثانية عن ابن إسحاق، وكلاهما منقطع.

(٤) ساقط من الأصل.

(٥) في المطبوع وأحمد٣ وجار الله: «التسرع».

(٦) ساقط من نور العثمانية وهو ملحق في هامش جار الله.

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١﴾.

روي أن الأسرى ببدر أعْلموا رسول الله ﷺ أنهم لهم ميلٌ إلى الإسلام وأنهم يؤمِّلونه، وأنهم إن فُدوا ورجعوا إلى قومهم التزموا جلبهم إلى الإسلام وسعوا في ذلك ونحو هذا الغرض، ففي ذلك نزلت هذه الآية، وقال ابن عباس: الْأَسْرى في هذه الآية عباس وأصحابه، قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت به، وأشهد إنك لرسول الله، لننصحن لك على قومنا، فنزلت هذه الآية[1].

وقرأ جمهور الناس: ﴿مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾، وقرأ أبو عمرو وحده من السبعة: ﴿من الأُسَارى﴾ وهي قراءة أبي جعفر[2]، وقتادة ونصر بن عاصم وابن أبي إسحاق، واختلف عن الحسن بن أبي الحسن وعن الجحدري[3].

وقرأ ابن محيصن: (من لَّسْرى) بالإدغام[4].

ومعنى الكلام: إن كان هذا عن جِدٍّ منكم وعلم الله من نفوسكم الخير والإسلام فإنه سيجبر عليكم أفضل مما أَعطيتم فديةً، وسيغفر لكم جميع ما اجترحتموه.

وقرأ الأعمش: (يُثِبْكُم خيراً)[5].

---

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ٧٤) من طريق: حجاج، عن ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس. وعطاء لم يدرك ابن عباس.

(٢) انظر: التيسير للداني (ص: ١١٧)، والنشر (٢ / ٢٧٧).

(٣) انظر عزوها لهؤلاء في تفسير البحر المحيط (٥ / ٣٥٦)، وفي الأصل: «الحجازي»، بدل «الجحدري».

(٤) وهي شاذة، انظرها في الكامل (ص: ٣٨٠)، وتقدمت لها نظائر، وفي البحر المحيط (٥/ ٣٥٦) عنه: «من أسرى»، منكراً.

(٥) وهي شاذة مخالفة للرسم، انظر: الكشاف (٢/ ٢٣٨)، ومختصر الشواذ (ص: ٥٦)، وفي الأصل: «يثيبكم».

وقرأ جمهور الناس: ﴿أُخِذَ﴾ بضم الهمزة وكسر الخاء، وقرأ شيبة بن نِصَاحٍ وأبو حيوة: (أَخَذ) بفتحها[١]، وروي أن أسرى بدر افتدُوا بأربعين أوقية، أربعين أوقية، إلا العباس فإنه افتدي بمئة أوقية[٢]، قال القاضي أبو محمد: والأوقية أربعون درهماً.

وقال قتادة: فادَوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف، وقال عَبيدة السَّلْماني: كان فداء أسرى بدر مئة أوقية، والأوقية أربعون درهماً، ومن الدنانير ستة دنانير[٣].

وروي أن العباس بن عبد المطلب قال: فيَّ وفي أصحابي نزلت هذه الآية، وقال حين أعطاه رسول الله ﷺ من مال البحرين ما قدر أن يُقِلَّ: هذا خير مما أُخِذ مني، وأنا أرجو بعدُ[٤] أن يغفر الله لي، وأسند الطبري أيضاً إلى العباس أنه قال / : فيَّ نزلت حين [٢/ ٢٢٠] أعلمت رسول الله ﷺ بإسلامي، وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذت مني قبل المفاداة، فأبى وقال: «ذلك فيءٌ»، فأبدلني الله من ذلك عشرين عبداً كلهم تاجر بمالي[٥].

وروي عن العباس أنه قال: ما أود أن هذه الآية لم تنزل ولي الدنيا بأجمعها، وذلك أن الله قد آتاني خيراً مما أخذ مني، وأنا أرجو أن يغفر لي[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية، قولٌ أُمر أن يقوله للأسرى ويُورِد معناه عليهم، والمعنى: إن أخلصوا فُعل بهم كذا، وإن أبطنوا خيانةَ ما

---

(١) وهي شاذة عزاها الهذلي في الكامل (ص: ٣٨٦) لهما وللقورسي، والأنطاكي عن أبي جعفر، وابن أبي عبلة، وأبالة عن عاصم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١١٢)، وذكره ابن إسحاق من قوله، كما في دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٤٨)، لكن روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كان العباس أسر يوم بدر، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، أخرجه الطبري (١٤/ ٧٤).

(٣) تفسير الطبري (١٤/ ٦٧).

(٤) زيادة من نجيبويه وجار الله ونور العثمانية.

(٥) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٧٣) من طريق ابن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: قال العباس.

(٦) ذكره سعيد عن قتادة، رواه الطبري (١٤/ ٧٣).

رغبوا[١] أن يؤتمنوا عليه من العهد فلا يَسُرُّهم ذلك، ولا يسكنوا إليه، فإن الله بالمرصاد لهم الذي خانوه قبلُ بكفرهم وتركهم النظر في آياته، وهو قد بينها لهم [وجعل لهم][٢] إدراكاً يحصِّلونها به، فصار ذلك كعهد متقرِّرٍ، فجَعل جزاءَهم على خيانتهم إياه أن مَكَّن منهم المؤمنين وجعلهم أسرى في أيديهم.

وقوله: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان مناسبتان، أي: عليم بما يُبطنونه من إخلاص أو خيانة، حكيم فيما يجازيهم به.

قال القاضي أبو محمد: وأما تفسير قتادة هذه الآية بقصة عبد الله بن أبي سَرْحٍ فينبغي أن يحرَّر، فإنْ جُلبت قصة عبد الله بن أبي سرح على أنها مثال كما يمكن أن تجلب أمثلة في عصرنا من ذلك فحسنٌ، وإن جلبت على أن الآية نزلت في ذلك فخطأ، لأن ابن أبي سرح إنما تبين أمره في يوم فتح مكة، وهذه الآية نزلت عقيب بدر[٣].

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾.

مقصد هذه الآية وما بعدها تبيينُ منازل المهاجرين والأنصار والمؤمنين الذين لم يهاجروا، والكفارِ والمهاجرين بعد الحديبية، وذكرُ نسب بعضهم من بعض، فقدم أولاً ذكر المهاجرين وهم أصل الإسلام، وانظر تقديم عمر لهم في الاستشارة.

و(هاجر) معناه: هجر أهله وقرابته وهجروه.

و(جاهدوا) معناه: أجهدوا أنفسهم في حرب مَن أجهد نفسه في حربهم.

---

(١) في المطبوع وأحمد٣: «زعموا».

(٢) سقط من المطبوع.

(٣) هذا رد على قول قتادة، وهو في تفسير الطبري (١٤/ ٧٦)، ولفظة «قتادة» ليست في المطبوع.

﴿وَالَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾: هم الأنصار، وآوى معناه: هيأ مأوًى وهو الملجأ والحرز، فحكم الله على هاتين الطائفتين بأن بَعْضَهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ، فقال كثير من المفسرين: هذه الموالاة هي المؤازرة والمعاونة واتصال الأيدي، وعليه فسر الطبري الآية[١]، وهذا الذي قالوا لازم من دلالة اللفظ، وقال ابن عباس[٢] وقتادة ومجاهد وكثير منهم: إن هذه الموالاة هي في الميراث، وذلك أن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار، وكانت بين الأنصار أخوة النسب، وكانت أيضاً بين بعض المهاجرين، فكان المهاجريُّ إذا مات ولم يكن له بالمدينة وليٌّ مهاجريٌّ ورثه أخوه الأنصاري، وإن كان له وليٌّ مسلم لم يهاجر، [وكان المسلم الذي لم يهاجر][٣] لا ولاية بينه وبين قريبه المهاجري، لا يرثه، قال ابن زيد: واستمر أمرهم كذلك إلى فتح مكة، ثم توارثوا بعد ذلك لما لم تكن هجرة[٤].

قال القاضي أبو محمد: فذهبت هذه الفرقة إلى أن هذا هو مقصد الآية، ومن ذهب إلى أنها في التآزر والتعاون فإنما يحمل نفي الله تعالى ولايتهم عن المسلمين على أنها صفة الحال، لا أن الله حكم بأنْ لا ولاية بين المهاجرين وبينهم جملةً واحدة، وذلك أن حالهم إذا كانوا متباعدي الأقطار تقتضي أن بعضهم إن [حَزَبه حازب][٥] لا يجد الآخر ولا ينتفع به. فعلى هذه الجهة نفي الولاية، وعلى التأويلين ففي الآية حضٌّ للأعراب على الهجرة، قاله الحسن بن أبي الحسن[٦].

ومن رأى الولاية في الموارثة فهو حكم من الله بنفي الولاية في الموارثة، قالوا: ونسخ ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

---

(١) راجع التفسير (١٤/ ٧٧-٧٨).
(٢) أخرجه الطبري (١٤/ ٧٨) من طريق علي بن أبي طلحة والعوفي -مفرقين- عن ابن عباس.
(٣) ساقط من التركية.
(٤) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١٤/ ٧٩)، وما بعدها، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٣٤).
(٥) في نجيبويه: «حربه حارب» وكذا نور العثمانية.
(٦) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٨٠).

وقرأ جمهور السبعة والناس: ﴿وَلَٰيَتِهِم﴾ بفتح الواو، و﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ [الكهف: ٤٤] أيضاً بالفتح، وقرأ الكسائي: ﴿وَلايتهم﴾ بفتح الواو و﴿الوِلاية﴾ بكسر الواو، [وقرأ الأعمش وابن وثاب: ﴿وِلايَتهم﴾، و﴿الوِلاية﴾ بكسر الواو](١)، وهي قراءة حمزة(٢).

قال أبو علي: والفتح أجود لأنها في الدين، قال أبو الحسن الأخفش: والكسر فيها لغة، وليست بذلك، ولحَّن الأصمعيُّ الأعمشَ(٣)، وأخطأ عليه لأنها إذا كانت لغة فلمَ يلحَّن؟

قال القاضي أبو محمد: لا سيما ولا يظن به إلا أنه رواها.

قال أبو عبيدة: الولاية بالكسر هي من: ولَّيتُ الأمر إليه، فهي في السلطان، والوَلاية هي من المولى(٤)، يقال: مولًى بيِّن الوَلاية، بفتح الواو.

وقوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ يعني إن استدعى هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا نصركم على قوم من الكفرة فواجب عليكم نصرُهم، إلا إن استنصروكم على قوم كفار قد عاهدتموهم أنتم وواثقتُموهم على ترك الحرب فلا تنصروهم عليهم؛ لأن ذلك غدر ونقض للميثاق وتركٌ لحفظ العهد والوفاءِ به، والقراءة: ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ برفع الراء، ويجوز: فعليكم النصرَ على الإغراء، ولا أحفظه قراءة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، على مخاطبة المؤمنين، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي والأعرج: (بما يَعملون) بالياء على [الذِّكر، يعني] ذكر الغائب(٥).

---

(١) ساقط من الأسدية، وسقط «ابن وثاب» من نجيبويه.

(٢) القراءات سبعية، انظر: التيسير (ص ١١٧)، وإعراب القرآن للنحاس (٢ / ١٠٦)، وسيأتي الكلام على آية الكهف.

(٣) انظر ذلك كله في الحجة للفارسي (٤/ ١٦٦)، وانظر: معاني القرآن للأخفش (١/ ٣٥٢).

(٤) مجاز القرآن (١ / ٤٥).

(٥) وهي شاذة، انظر: الشواذ للكرماني (ص: ٢٠٧)، وما بين المعكوفتين زيادة من الأسدية.

قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾.

هذا حكمٌ بأن الكفار وَلايتهم واحدة، وذلك بجمع الموارثة والمعاونة والنصرة، وهذه العبارة ترغيب / وإقامة للنفوس، كما تقول لمن تريد أن يستطلع: عدوك مجتهد، [٢/ ٢٢١] أي: فاجتهد أنت، وحكى الطبري في تفسير هذه الآية عن قتادة أنه قال: أبى الله أن يقبل إيمان من آمن ولم يهاجر، وذلك في صدر الإسلام، وذلك أيضاً مذكور مستوعَبٌ في تفسير قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[١].

والذي يظهر من الشرع أن حكم المؤمن التارك للهجرة مع علمه بوجوبها حكمُ العاصي لا حكمُ الكافر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إنما هي فيمن قتل مع الكفار، وفيهم قال رسول الله ﷺ: «أنا بريء من مسلم أقام بين المشركين، لا تراءى نارهما»[٢] الحديث، على اختلاف ألفاظه، وقول قتادة إنما هو فيمن كان يقيم[٣] متربصاً يقول: من غلب كنت معه، وكذلك ذكر في كتاب الطبري والكَشِّي[٤].

---

(١) النساء: ٩٧، وانظر معنى ما قال في تفسير الطبري (٩/ ١٠٧).

(٢) مرسل، هذا الحديث أخرجه أبو داود (٢٦٤٧)، والترمذي (١٦٠٤، ١٦٠٥)، والنسائي (٢ / ٢٤٥) من حديث قيس بن أبي حازم، عن جرير، ورجحوا جميعا المرسل، ونقله الترمذي عن البخاري كما في ترتيب العلل الكبير له (٤٨٣) وكذا الدارقطني كما في علله (١٣/ ٤٦٦)، وفي نجيبويه: «لا تتراءى نارا»، وفي الأصل: «الحرب» بدل «الحديث»، والتصحيح من النسخ الأخرى.

(٣) في المطبوع: «يقوم».

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٨٥)، والكشي هو عبد بن حميد، تقدم التعريف به، ولم أقف على تفسيره هذا.

والضمير في قوله: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ قيل: هو عائد على الموارثة والتزامها.

قال القاضي أبو محمد: وهذا لا تقع الفتنة عنه إلا عن بُعدٍ وبوساطةٍ كثيرة، وقيل: هو عائد على المؤازرة والمعاونة واتصال الأيدي، وهذا تقع الفتنة عنه عن قرب، فهو آكد من الأول، ويظهر أيضاً عودُه على حفظ العهد والميثاق الذي يتضمنه قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾، وهذا إن لم يفعل فهي الفتنة نفسها، ويظهر أن يعود الضمير على النصر للمسلمين المستنصِرين في الدين، ويجوز أن يعود الضمير مجملاً على جميع ما ذكر.

و«الفتنة»: المحنة بالحرب وما انجرَّ[1] معها من الغارات والجلاء والأسر.

و«الفساد الكبير»: ظهور الشرك.

وقرأ جمهور الناس: ﴿كَبِيرٌ﴾ بالباء المنقوطة واحدة، وقرأ أبو موسى الحجازي[2] عن الكسائي بالثاء منقوطة مثلثة[3].

وروى أبو حاتم المدني[4] أن رسول الله ﷺ قرأ: (وفساد عريض)[5].

---

(١) في المطبوع: «وما أُنجز».

(٢) هو عيسى بن سليمان المعروف بالشيزري الحنفي، مقرئ عالم نحوي معروف، كان من قدماء أصحاب الكسائي وكان نحويّاً عالماً بوجوه القراءات، وكان محدثاً أيضاً. غاية النهاية (١/ ٦٠٨).

(٣) وهي شاذة، انظر عزوها له في مختصر الشواذ (ص: ٥٦)، والشواذ للكرماني (ص: ٢٠٩).

(٤) كذا في جميع النسخ، ولعل الصواب: أبو حاتم المزني قال في الإصابة (٧/ ٦٨): قال الترمذيّ وابن حبّان وابن السّكن: له صحبة؛ وأورده أبو داود في المراسيل، فهو عنده تابعي، وزعم ابن قانع أن اسمه عقيل بن مقرن.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٩٩) وغيره من طريق: عبد الله بن مسلم بن هرمز عن محمد بن عبيد وسعيد بن عبيد عن أبي حاتم المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، وإلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض». اهـ، وعبد الله بن هرمز ضعيف، وأبو حاتم المزني اختلف في صحبته، فأثبتها البخاري والترمذي وقدم ذلك ابن حجر ونفاها أبو زرعة وكذا صنع أبو داود حينما أخرج هذا الحديث في المراسيل إلا أن الإمام الترمذي حسنه في الجامع (١٠٨٤) ويظهر أنه حسنه بشاهده عن أبي هريرة مع أن الراجح فيه الإرسال، لا بهذا السند وحده. ويراجع ترتيب علل الترمذي للقاضي (١/ ١٥٤).

وقرأت فرقة: (والذين كفروا بعضهم أولى ببعض)[1].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ ﴾ الآية، آية تضمنت تخصيص المهاجرين والأنصار وتشريفهم بهذا الوصف العظيم.

و﴿حَقًّا﴾ نصب على المصدر المؤكِّد لما قبله، ووصفُ الرزق بالكريم، معناه أنه لا يستحيل نجواً[2]، والمراد به طعام الجنة، كما ذكر الطبري وغيره[3]، ولازِمُ اللفظ نفيُ المذمات عنه، وما ذكروه فهو في ضمن ذلك.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ يريد به: من بعد الحديبية وبيعة الرضوان، وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقلَّ رتبة من الهجرة قبل ذلك، وكان يقال لها: الهجرة الثانية، لأن الحرب وضعت أوزارها نحو عامين، ثم كان فتح مكة، وبه قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»[4].

وقال الطبري: المعنى: من بعد ما بينْتُ لكم حكم الولاية[5].

قال القاضي أبو محمد: فكان الحاجز بين الهجرتين نزول الآية، فأخبر الله تعالى في هذه الآية بأنهم من الأولين في المؤازرة وسائر أحكام الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾ لفظ يقتضي أنهم تبعٌ لا صَدْرٌ، وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡ﴾ كذلك، ونحوه قول النبي ﷺ: «مولى القوم منهم، وابنُ أخت القوم منهم»[6].

---

(١) تابعه في البحر المحيط (٥/ ٣٥٨)، وهذا مخالف للمصحف، وليس بقراءة، بل لعله التباس وغلط.

(٢) في التركية: «بجوار»، وفي الأسدية: «نحوا»، والنجو: ما يخرج من البطن.

(٣) تفسير الطبري (١٤/ ٨٨).

(٤) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٢٧٨٣) (٢٨٢٥) ومسلم (١٨٦٤).

(٥) تفسير الطبري (١٤/ ٨٩).

(٦) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٣٥٢٨) (٦٧٦٢) ومسلم (١٠٥٩) بلفظ: «ابن أخت القوم منهم»، وأخرجه البخاري أيضاً (٦٧٦١) بلفظ: «مولى القوم من أنفسهم»، أما لفظ: «مولى القوم منهم» فأخرجه أبو داود (١٦٥٠) والنسائي (٢/ ٥٨) من حديث أبي رافع، وحكى الدارقطني في العلل (٧/ ١٢) الخلاف في وصله وإرساله.

وقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ إلى آخر السورة، قال مَن تقدم ذكره: هي في المواريث، وهي ناسخةٌ للحكم المتقدم ذكرُه من أن يرث المهاجريُّ الأنصاريَّ، ووجب بهذه الآية الأخيرة أن يرث الرجل قريبه وإن لم يكن مهاجراً معه.

وقالت فرقة منها مالك بن أنس رحمه الله: إن الآية ليست في المواريث، وهذا فرار عن توريث الخال والعمة ونحو ذلك[(١)].

وقالت فرقة: هي في المواريث إلا أنها نسخت بآية المواريث المبينة.

وقوله: ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾، معناه: القرآن، أي: ذلك مثبت في كتاب الله، وقيل: المعنى: في كتاب الله السابق في اللوح المحفوظ.

و﴿عَلِيمٌ﴾ صفة مناسبة لنفوذ هذه الأحكام. [والله أعلم][(٢)].

كمل تفسير سورة الأنفال.

* * *

(١) انظر مذهب مالك في الموطأ (٢/ ٥١٧)، ووافقه زيد بن ثابت كما في الأوسط (٦/ ٥٨٧)، والشافعي كما في الأم (٤/ ٨٠-٨١).
(٢) زيادة من الأسدية.



تفسير سورة براءة

هذه السورة مدنية إلا آيتين: قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخرها.

وتسمى: سورة التوبة، قاله حذيفة وغيره، وتسمى: الفاضحة، قاله ابن عباس، وتسمى: الحافرة لأنها حفرت عن قلوب المنافقين، قال ابن عباس: مازال ينزل ومنهم، ومنهم، حتى ظن أنه لا يبقى أحد[١].

وقال حذيفة: هي سورة العذاب[٢]، قال ابن عمر: كنا ندعوها: المقشقشة[٣].

قال الحارث بن يزيد: كانت تدعى: المبعثِرة، ويقال لها: المثيرة، ويقال لها: البَحُوث[٤].

وقال أبو مالك الغِفاري: أول آية نزلت من براءة: ﴿انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١][٥].

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٥/ ٢٣٢) من طريق هشيم، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة، قال: بل هي الفاضحة ما زالت تنزل ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى أحد منهم إلا ذكر فيها. اهـ، وهشيم مدلس ولم يصرح بالسماع.

(٢) هذا الأثر أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦١) والطبراني في الأوسط (٢/ ٨٦) من طريق: الأعمش عن عبد الله بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن حذيفة، وعبد الله بن سلمة الظاهر أنه المرادي الكوفي، وقد ضَعُف وتَغير.

(٣) لم أقف عليه مسنداً، وفي الأسدية: «أبو هريرة» بدل «ابن عمر»، وفي الأصل والأسدية: «المشققة».

(٤) تكرر هذا الاسم في التابعين، ولم أقف على نسبة القول له، لكن نقله الثعلبي (٥/ ٦٤) والبغوي (٢/ ٣٦٥)، عن قتادة.

(٥) انظر: معاني القرآن للنحاس (٣/ ٢١١)، وفي التركية: «مالك» دون كنية.

وقال سعيد بن جبير: كانت براءة مثل سورة البقرة في الطول[١].

واختلف لمَ سقط سطر: «بسم الله الرحمن الرحيم» من أولها، فقال عثمان بن عفان: أشبهت معانيها معاني الأنفال، وكانت تُدعى القرينتين[٢] في زمن رسول الله ﷺ، فلذلك قرنْتُ بينهما، ولم أكتب «بسم الله الرحمن الرحيم»، ووضعتها في السبع الطول[٣].

وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنه: بسم الله الرحمن الرحيم أمان وبشارة، وبراءة نزلت بالسيف ونبذ العهود، فلذلك لم تبدأ بالأمان[٤].

قال القاضي أبو محمد: ويعزى هذا القول للمبرد، وهو لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وهذا كما يبدأ المخاطب الغاضب: أما بعد، دون تقريظ ولا استفتاح بتبجيل.

وروي أن كتبة المصحف في مدة عثمان اختلفوا في الأنفال وبراءة: هل هي سورة واحدة أو هما سورتان؟ [فتركوا فصلاً بينهما مراعاة لقول من قال: هما سورتان][٥]، ولم يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» مراعاة لقول من قال منهم: هما واحدة، فرضي جميعهم بذلك.

قال القاضي أبو محمد: وهذا القول يضعِّفه النظر أن يختلف في كتاب الله هكذا.

---

(١) تفسير السمعاني (٢/ ٢٨٤).

(٢) في الأسدية: «العويلتين».

(٣) ضعيف، هذا الأثر أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ (ص٤٧٨) بإسناده وفيه يزيد الفارسي وهو مجهول.

(٤) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣١) وابن الأعرابي في معجمه (٢/ ٥٧) من طريق محمد بن زكريا الغلابي، عن يعقوب بن جعفر بن سليمان الهاشمي، نا جعفر بن سليمان، عن أبيه سليمان بن علي الهاشمي، عن علي بن عبد الله بن عباس ـ وليس علي بن أبي طالب ـ، عن أبيه به، ومحمد بن زكريا الغلابي ضعيف جدّاً.

(٥) ساقط من الأسدية.

وروي عن أبيّ بن كعب أنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بوضع بسم الله الرحمن الرحيم في أول كل سورة، ولم يأمرنا في هذا بشيء، فلذلك لم نضعه نحن[١].

وروي عن مالك [أنه قال: بلغنا][٢] أنها كانت نحو سورة البقرة، ثم نسخ ورفع كثير منها وفيه البسملة، فلم يروا بعدُ أن يضعوه في غير موضعه[٣].

وسورة براءة من آخر ما نزل على النبي ﷺ، وحكى عمران بن حُدَيرٍ[٤] أن أعرابيّاً سمع سورة براءة، فقال: أظن هذه من آخر ما أنزل الله على رسوله، فقيل له: لم تقول ذلك؟ فقال: أرى أشياء تنقض وعهوداً تنبذ[٥] / . [٢/ ٢٢٢]

قوله عز وجل: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾.

﴿بَرَآءَةٌ﴾: رفع على خبر ابتداء مضمر تقديره: هذه الآيات براءة، ويصح أن ترتفع بالابتداء، والخبرُ في قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ وجاز الابتداء بالنكرة لأنها موصوفة فتعرفت تعريفاً مّا، وجاز الإخبار عنها.

---

(١) لم أقف عليه ولا على الذي قبله.

(٢) ساقط من نجيبويه.

(٣) هذا قول ابن عجلان، نقله عنه ابن العربي في أحكام القرآن (٢/ ٤٤٥)، بعد أن نقل عن مالك أنه لما سقط أولها سقطت معه.

(٤) هو عمران بن حدير أبو عبيدة السَّدوسي البصري، سمع عبد الله بن شقيق وأبا عثمان النهدي وأبا مجلز وجماعة، وعنه الحمادان ومعتمر بن سليمان ووكيع ويزيد بن هارون، قال أحمد: بخ بخ، ثقة، مات سنة (١٤٩هـ). تاريخ الإسلام (٩/ ٢٣٢).

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ١٨٩).

وقرأ عيسى بن عمر: (براءةً) بالنصب[١] على تقدير: التزموا براءةً، ففيها معنى الإغراء.

و﴿ بَرَآءَةٌ ﴾: معناها: تخلُّص وتبرؤ من العهود التي كانت بينكم وبين الكفار البادئين بالنقض، تقول: برئت إليك من كذا، فبرئ الله تعالى ورسوله بهذه الآية إلى الكفار من تلك العهود التي كانت ونقَضَها الكفار.

وقرأ أهل نجران: (مِنِ) بكسر النون مِن (مِنْ)[٢].

وهذه الآية حكمٌ من الله عز وجل بنقض العهود والموادَعات التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين طوائف المشركين الذين ظهر منهم أو تُحسِّسَ من جهتهم نقض، ولما كان عهد رسول الله ﷺ لازماً لجميع أمته حسن أن يقول: ﴿عَـٰهَدتُّم ﴾.

قال ابن إسحاق وغيره من العلماء: كانت العرب قد وافقها رسول الله ﷺ عهداً عامّاً على أن لا يُصَدَّ أحد عن البيت الحرام ونحو ذلك من الموادعات، فنقض ذلك بهذه الآية وأَجَّلَ لجميعهم أربعة أشهر:

فمن كان له مع النبي ﷺ عهدٌ خاص وبقي منه أقلُّ من الأربعة الأشهر بلغ به تمامها[٣].

ومن كان أمده أكثر من أربعة أشهر أتم له عهده، إلا إن كان ممن تُحسس منه نقض فإنه قُصر على أربعة أشهر.

ومن لم يكن له عهد خاص فُرضت له الأربعة الأشهر، يسيح فيها في الأرض[٤]، أي

---

(١) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٦).

(٢) نقلها في المحتسب (١ / ٢٨٢) وقال: حكاها سيبويه، وفي الأسدية: «الكوفة» بدل «نجران».

(٣) في الأسدية: «عامها».

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٥٤٣)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٦).

يذهب مسرَّحاً آمناً كالسيح[1] من الماء، وهو الجاري المنبسط، ومنه قول طرفة بن العبد:

لَـوْ خِفْـتُ هَـذَا مِنْـكَ مَـا نِلْتَنِـي حَتَّى تَـرَى خَيْلاً أَمَامِي تَسِيحْ[2] [السريع]

وهذا ينبئ عن أن رسول الله ﷺ استشعر من الكفار نقضاً وتربصاً به إلا من الطائفة المستثناة.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: أول الأشهر الأربعة شوال، وحينئذ نزلت الآية، وانقضاؤها عند انسلاخ الأشهر الحرم وهو انقضاء المحرم بعد يوم الأذان بخمسين يوماً فكان أجل من له عهد أربعةَ أشهر من يوم نزول الآية، وأجل سائر[3] المشركين خمسون ليلة من يوم الأذان[4].

قال القاضي أبو محمد: اعترض هذا بأن الأجل لا يلزم إلا من يوم سُمع، ويحتمل أن البراءة قد كانت سمعت من أول شوال، ثم كرِّر إشهارها مع الأذان يوم الحج الأكبر.

وقال السدي وغيره: بل أولها يوم الأذان وآخرها العشر[5] من ربيعٍ الآخِر[6].

وهي الحُرُم، استعير لها الاسم لهذه الحرمة والأمن الخاص الذي رسمه الله وألزمه فيها، وهي أجل الجميع ممن له عهدٌ وتُحسِّسَ منه نقضٌ وممن لا عهد له.

وقال الضحاك وغيره من العلماء: كان من العرب من لا عهد بينه وبين رسول الله ﷺ جملة، وكان منهم من بينه وبينهم عهدٌ وتحسس منهم النقض، وكان منهم من بينه وبينهم عهد ولم ينقضوا، فقوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ هو أجل ضربه لمن

---

(١) في التركية: «كالمسيح».

(٢) انظر عزوه في البحر المحيط (٥/ ٣٦٧).

(٣) في الأسدية: «نزول». وسقطت من نجيبويه.

(٤) لم أقف عليه مسنداً.

(٥) في الأصل والمطبوع: «العشرون»، وفي أحمد٣ ونجيبويه: «العشر الأول»، والمثبت من النسخ الأخرى، وهو الموافق لما في المصدر.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٤٦).

كان بينه وبينهم عهد وتحسس منهم نقضه، وأول هذا الأجل يوم الأذان وآخِرُه انقضاء العشر الأول من ربيع الآخر[١].

وقوله: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، هو حكم مباين للأول حكم به في المشركين الذين لا عهد لهم البتة، فجاء أجلُ تأمينهم خمسين يوماً، أولها يوم الأذان وآخرها انقضاء المحرم.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم﴾ يريد به الذين لهم عهد ولم ينقضوا ولا تُحسِّس منهم نقض، وهم فيما روي: بنو ضَمْرةَ من[٢] كنانة عاهد لهم المخشي[٣] بن خويلد، وكان تبَقَّى من عهدهم يوم الأذان تسعةُ أشهر.

وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: إنما أجَّل الله أربعة أشهر مَن كان عهده ينصرم عند انقضائها أو قبله[٤]، والمعنى: فقل لهم يا محمد: سيحوا، وأما من كان له عهد يتمادى بعد الأربعة الأشهر فهم الذين أمر الله لهم بالوفاء لهم[٥].

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾، معناه: واعلموا أنكم لا تُفلتون[٦] الله ولا تُعجزونه هرباً من عقابه.

ثم أعلمهم بحكمه بخزي الكافرين، وذلك حتم إما في الدنيا وإما في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ الآية، و(أذانٌ) معناه: إعلام وإشهار، و﴿ٱلنَّاسِ﴾ هاهنا عام في جميع الخلق.

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٩٨)، بتصرف.

(٢) في الأسدية: «ابن».

(٣) في الأسدية: «الحسن»، وفي المطبوع: «المحشر»، وفي الأصل: «المخش»، وفي نجيبويه: «المحمش»، والذي في جمهرة أنساب العرب لابن حزم (١/ ١٨٥)، وأنساب الأشراف للبلاذري (١١/ ١٢٠) أنه عمارة بن مخشي بن خويلد.

(٤) في الأسدية: «بكره».

(٥) تفسير الطبري (١٤/ ٩٨)، بتصرف.

(٦) في المطبوع وأحمد٣: «تغلبون».

و﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب على الظرف والعاملُ فيه (أَذانٌ)، وإن كان قد وصف فإن رائحة الفعل باقية، وهي عاملة في الظرف، وقيل: لا يجوز ذلك إذ قد وُصف المصدر فزالت عنه قوة الفعل. ويصح أن يعمل فيه فعل مضمر تقتضيه الألفاظ، وقيل: العامل فيه صفة الأذان، وقيل: العامل فيه ﴿مُخْزِى﴾.

قال القاضي أبو محمد: وهذا بعيد.

و﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾: قال عمر(١) وابن عمر وابن المسيب وغيرهم: هو يوم عرفة(٢)، وقاله علي(٣).

وروي عنه أيضاً أنه يوم النحر(٤)، وروي ذلك عن أبي هريرة وجماعة غيرهم(٥).

وروي ذلك عن النبي ﷺ(٦).

---

(١) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ١١٤) من طريق عمر بن الوليد الشني قال: حدثنا شهاب بن عباد العصري، عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب. وإسناده لا يحتج به.

(٢) قول ابن عمر لم أقف عليه.

(٣) أخرجه الطبري (١٤/ ١١٣) من طريق: حيوة بن شريح قال: أخبرنا أبو صخر: أنه سمع أبا معاوية البجلي من أهل الكوفة يقول: سمعت أبا الصهباء البكري وهو يقول: سألت علي بن أبي طالب، والإسناد ليس بذاك القوي.

(٤) صحيح، أخرجه الطبري (١٤/ ١١٣) من طريق أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي، و(١٤/ ١١٨) من طريق شعبة، عن الحكم قال: سمعت يحيى بن الجزار يحدث عن علي، و(١٤/ ١٢١) من طريق هشيم، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن علي.

(٥) صحيح، أخرجه البخاري (٣١٧٧) من حديث: حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه فيمن يؤذن يوم النحر بمنى: «لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان». ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر. وقوله: «ويوم الحج الأكبر هو يوم النحر..» إلخ هو من قول حميد بن عبد الرحمن كما في رواية البخاري (٤٦٥٧) ورواية مسلم (١٣٤٧).

(٦) أخرجه أبو داود (١٩٤٥) وغيره من طريق هشام بن الغاز الجرشي، عن نافع، عن ابن عمر مرفوعاً، وقد علقه البخاري في الصحيح (١٧٤٢) بصيغة الجزم فقال: وقال هشام بن الغاز: فذكره، وأخرجه النسائي (٢/ ٤٤٤) وغيره من طريق شعبة، عن عمرو بن مرة، عن مرة الهمداني، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ مرفوعاً.

وقال منذر بن سعيد وغيره: كان الناس يوم عرفة مفترقين، [إذ كانت الحمس تقف بالمزدلفة، وكان الجمع يوم النحر بمنى، فلذلك كانوا يسمونه الحج الأكبر، أي: من الأصغر الذي هم فيه مفترقون][١].

قال القاضي أبو محمد: وهذا زال في حجة أبي بكر لأنه لم يقف أحد بالمزدلفة.

وقد ذكر المهدوي: أن الحمس ومن اتبعها وقفوا بالمزدلفة في حجة أبي بكر[٢].

والذي تظاهرت به الأحاديث في هذا المعنى: أن عليا أذَّن بتلك الآية يوم عرفة إثر خطبة أبي بكر، ثم رأى أنه لم يَعلم الناس بالإسماع فتتبعهم بالأذان بها يوم النحر، وفي ذلك اليوم بعث معه أبو بكر من يعينه بالأذان بها كأبي هريرة وغيره[٣]، وتتبعوا بها أيضاً أسواق العرب كذي المجاز وغيره.

فمن هنا يترجح قول سفيان: إن ﴿يَوۡمَ﴾ في هذه الآية بمعنى أيام[٤].

وبسبب ذلك قالت طائفة: ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ عرفة، حيث وقع أول الأذان، وقالت طائفة أخرى: هو يوم النحر حيث وقع إكمال الأذان، واحتجوا أيضاً بأنه من فاته الوقوف يوم عرفة فإنه يجزيه الوقوف ليلة النحر[٥]، فليس يوم عرفة على هذا يوم الحج الأكبر.

[٢/ ٢٢٣] قال القاضي أبو محمد / : ولا حجة[٦] في هذا.

---

(١) ساقط من الأسدية، وانظر: البحر المحيط (٥/ ١٠).

(٢) التحصيل للمهدوي (٣/ ٢٢٣).

(٣) روي تأذين أبي هريرة بأسانيد جيدة، لكن في بعضها أن عهد من له عهد مع رسول الله ﷺ إلى أربعة أشهر، وهو وهم كما نبه عليه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ١٠٥)، لأن المحفوظ أن عهد كل معاهد إلى الأجل المضروب له.

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ١٢٧)، تفسير الماوردي (٢/ ٣٣٩)، تفسير الثعلبي (٥/ ١٠).

(٥) انظر: المبسوط للسرخسي (٤/ ٥٥)، ومواهب الجليل (٤/ ١٣١-١٣٢)، ومغني المحتاج (١/ ٤٩٨)، والمغني (٣/ ٢١١).

(٦) في الأصل: «والحجة».

وقال سفيان بن عيينة: المراد أيام الحج كلها، كما تقول: يوم صِفِّين، ويوم الجمل، يريد جميع أيامه، وقال مجاهد: ﴿ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ﴾: أيام منى كلها، ومجامع المشركين حيث[1] كانوا بذي المجاز وعكاظ ومجنة حين نودي فيهم ألا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا[2].

قال القاضي أبو محمد: وهذا كما قال عثمان لعمر حين عرض عليه زواج حفصة: إني قد رأيت ألا أتزوج يومي هذا[3]، وكما ذكر سيبويه: أنك تقول لرجل: ما شغلك اليوم؟ وأنت تريد: في أيامك هذه[4].

واختلف لم وُصف بالأكبر؟ فقال الحسن بن أبي الحسن وعبد الله بن الحارث بن نوفل: لأنه حج ذلك العام المسلمون والمشركون، وصادف أيضاً عيد اليهود والنصارى[5].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف أن يصفه الله في كتابه بالكبر لهذا.

وقال الحسن أيضاً: إنما سمي أكبر لأنه حج فيه أبو بكر ونُبذت فيه العهود[6].

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو القول الذي يشبه نظر الحسن، وبيانه: أن ذلك اليوم كان المفتتحَ بالحق وإمارة الإسلام بتقديم رسول الله ﷺ، ونبذت فيه العهود، وعَزَّ فيه الدين وذل الشرك، ولم يكن ذلك في عام ثمان حين ولى رسول الله ﷺ الحجَّ عتابَ ابن أسيد، بل كان أمر العرب على أوله، فكل حج بعد حج أبي بكر فمتركِّب عليه، فحقه لهذا أن يسمى أكبر.

وقال عطاء بن أبي رباح وغيره: الحج أكبر بالإضافة إلى الحج الأصغر، وهي

(١) سقطت من جار الله، وفي الأسدية وأحمد٣ ونجيبويه ونور العثمانية: «حين».
(٢) تفسير الطبري (١٤/ ١٢٧)، تفسير الثعلبي (٥/ ١٠).
(٣) صحيح، هذا الأثر أخرجه البخاري (٤٠٠٥) (٥١٢٢) (٥١٢٩) من حديث ابن عمر.
(٤) لم أجد من نقل عنه هذا المثال هكذا.
(٥) تفسير الطبري (١٤/ ١٢٨)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٣٩)، وتفسير الثعلبي (٥/ ١٠).
(٦) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ١٢٩).

العمرة، وقال الشعبي: بالإضافة إلى العمرة في رمضان فإنها الحج الأصغر، وقال مجاهد: الحج الأكبر القران والأصغر الإفراد[١]، وهذا ليس من هذه الآية في شيء، وقد تقدم ما ذكره منذر بن سعيد، ويتجه أن يوصف بالأكبر على جهة المدح لا بإضافة إلى أصغرَ معيَّنٍ، بل يكون المعنى: الأكبر من سائر الأيام فتأمله.

واختصار ما تحتاج إليه هذه الآية على ما ذكر مجاهد وغيره من صورة تلك الحال: أن رسول الله ﷺ افتتح مكة سنة ثمان، فاستعمل عليها عتاب بن أسيد، وقضى أمر حنين والطائف وانصرف إلى المدينة فأقام بها حتى خرج إلى تبوك، ثم انصرف من تبوك في رمضان سنة تسع فأراد الحج، ثم نظر في أن المشركين يحجون في تلك السنة ويطوفون عراة، فقال: لا أريد أن أرى ذلك، فأمر أبا بكر على الحج بالناس وأنفذه، ثم أتبعه علي بن أبي طالب على ناقته العضباء، وأمره أن يؤذن في الناس بأربعة أشياء، وهي: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، [وفي بعض الروايات: ولا يدخل الجنة كافر][٢]، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته، وفي بعض الروايات: ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فأجله أربعة أشهر يسيح فيها، فإذا انقضت فَإِنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ.

قال القاضي أبو محمد: وأقول: إنهم كانوا ينادون بهذا كله، فهذا للَّذين لهم عهد وتُحسس منهم نقضُه، والإبقاء إلى المدة لمن لم يُخبر منه نقض، وذكر الطبري أن العرب قالت يومئذ: نحن نبرأ من عهدك وعهد ابن عمك إلا من الطعن والضرب، فلام بعضهم بعضاً وقالوا: ما تصنعون وقد أسلمت قريش؟ فأسلموا كلهم ولم يسح أحد[٣].

قال القاضي أبو محمد: وحينئذ دخل الناس في دين الله أفواجاً.

---

(١) انظر الأقوال الثلاثة في تفسير الطبري (١٤/ ١٢٩)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٣٩).

(٢) ساقط من الأسدية.

(٣) تفسير الطبري (١٤/ ١٠٩).

وكان رسول الله ﷺ قد أمر عليا أن يقرأ على الناس الأربعين آيةً صدر سورة براءة[١]، وقيل: ثلاثين، وقيل: عشرين، وفي بعض الروايات: عشر آيات، وفي بعضها: تسع آيات، ذكرها النقاش[٢]، وقال سليمان بن موسى الشامي: ذلك ثمان وعشرون آية[٣].

فلحق عليٌّ أبا بكر في الطريق، فقال له أبو بكر: أمير أو مأمور؟، فقال: بل مأمور، فنهضا حتى بلغا الموسم، فلما خطب أبو بكر بعرفة قال: قم يا علي فأدِّ رسالة رسول الله ﷺ، فقام علي ففعل، قال: ثم وقع في نفسي أن جميع الناس لم يشاهدوا خطبة أبي بكر، فجعلت أتتبع الفساطيط يوم النحر[٤].

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ﴾ بفتح الألف على تقدير: بأن الله.

وقرأ الحسن والأعرج: (إِن الله) بكسر الألف[٥] على القطع، إذ الأذان في معنى القول.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ بالرفع على الابتداء [وحذف الخبر، وتقديره: ورسولُه بريء منهم، وهو عند شيخنا الفقيه الأستاذ أبي الحسن بن الباذش رحمه الله معنى العطف على الموضع، أي: تُؤنِّس بالجملة الأولى التي هي من ابتداء وخبر فعطفت عليها هذه الجملة، وقيل: هو معطوف على موضع المكتوبة قبل دخول ﴿أَنَّ﴾ التي لا تغير معنى الابتداء][٦]، بل تؤكده، وإذ قد قرئت بالكسر لأنه لا يعطف على موضع ﴿أَنَّ﴾ بالفتح.

---

(١) ضعيف، هذا الحديث أخرجه الدارمي (١/ ١٤١)، والنسائي (٥/ ٢٤٧)، وابن حبان (٦٦٤٥) وغيرهم من طريق: ابن جريج قال: حدثني عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر به مرفوعاً. لكن ليست فيه بعض الألفاظ، وضعفه النسائي بعد إخراجه بابن خثيم.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) تفسير الطبري (١٤/ ١١٢)، وسليمان تقدم التعريف به في سورة النساء.

(٤) أخرج الطبري (١٤/ ١٠٧) نحوه بإسناد لين، وقول علي الآتي لم أقف عليه.

(٥) وهي شاذة، انظرها في مختصر الشواذ (ص: ٥٦)، والشواذ للكرماني (ص: ٢٠٩).

(٦) ساقط من الأسدية، وانظر كلام أبي الحسن في البحر المحيط (٥/ ٣٦٧)، وقد سبق التعريف به.

وانظره فإنه مختلَف في جوازه، لأن حكم «أنَّ» رفعُ حكم الابتداء إلا في هذا الموضع وما أشبهه، وهذا قول أبي العباس وأبي علي رحمهما الله[١].

ومذهب الأستاذ على مقتضى كلام سيبويه: أنْ لا موضع لما[٢] دخلت عليه، إذ هو معرب قد ظهر فيه عمل العامل، ولأنه لا فرق بين «أنَّ» وبين «ليت» و«لعل»، والإجماع على أنْ لا موضع لما دخلت عليه هذه.

وقيل: هو عطف على الضمير المرفوع الذي في ﴿بَرِيٓءٌ﴾، وحسَّن ذلك أن المجرور قام مقام التوكيد، كما قامت (لا) في قوله تعالى: ﴿مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر: (رسولَه) بالنصب[٣] عطفاً على لفظ المكتوبة.

وبهذه الآية امتحن معاويةُ أبا الأسود حتى[٤] وضع النحو، إذ جعل قارئاً يقرأ بخفض: (ورسولِه)[٥]، والمعنى في هذه الآية: بريء من عهودهم وأديانهم براءةً عامة تقتضي المحارجة[٦] وإعمال السيف.

وقوله ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ أي: عن الكفر، ووعدهم مع شرط التوبة وتوعَّدهم مع شرط التولي، وجاز أن تدخل البشارة في المكروه لمَّا جاء مصرحاً به مرفوع الإشكال.

قوله عز وجل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾.

---

(١) راجع مشكل إعراب القرآن لمكي (١ / ٣٢٣).

(٢) في الأسدية: «لأن لا موضع لها».

(٣) وهي شاذة عزاها لهما النحاس في إعراب القرآن (٢ / ١٠٩).

(٤) في التركية: «حين».

(٥) انظر تفصيل القصة في المحكم في نقط المصاحف (ص: ٣).

(٦) في التركية والأسدية: «المخارجة»، وفي أحمد٣: «المحاربة».

هذا هو الاستثناء / الذي تقدم ذكره في المشركين الذين بقي من عهدهم تسعة [٢/ ٢٢٤] أشهر وكانوا قد وفوا بالعهد على ما يجب.

وقال قتادة: هم قريش الذين عوهدوا زمن الحديبية[١].

قال القاضي أبو محمد: وهذا مردود بإسلام قريش في الفتح قبل الأذان بهذا كله.

وقال ابن عباس: قوله: ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾: إلى الأربعة الأشهر التي في الآية قبلُ[٢].

وقرأ الجمهور: ﴿يَنقُصُوكُمْ﴾ بالصاد غير منقوطة.

وقرأ عطاء بن يسار وعكرمة وابن السميفع: (ينقضُوكم)[٣] بالضاد من النقض، وهي متمكِّنة مع العهد[٤]، ولكنها قلقة في تعديها إلى الضمير، ويحسِّن ذلك أن النقض نقض وفاء وحق للمعاهد، وكذلك تعدِّي (أتمُّوا) بـ(إلى) لما كان العهد في معنى ما يؤدى ويبرأ[٥] به، وكأنهم ينقضون العهد.

و﴿يُظَٰهِرُواْ﴾: معناه: يعاونوا، و«الظهير»: المعين، وأصله من الظهر، كأن هذا يُسند ظهره إلى الآخر والآخر كذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تنبيه على أن الوفاء بالعهد من التقوى.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ الآية، الانسلاخ: خروج الشيء عن الشيء

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٣٣)، وتفسير الثعلبي (٥/ ١٣).

(٢) أخرج الطبري (١٤/ ١٣٣) من طريق العوفي عن ابن عباس قوله: مدةُ من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل «براءة» أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من شهر ربيع الآخر، وذلك أربعة أشهر. فإن نقض المشركون عهدهم وظاهروا عدوّاً فلا عهد لهم، وإن وفوا بعهدهم الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، ولم يظاهروا عليه عدوّاً، فقد أمر أن يؤدي إليهم عهدهم ويفي به. اهـ. و«قبل»: زيادة من الأسدية والتركية وجار الله.

(٣) عزاها لعطاء النحاس في معاني القرآن (٣/ ١٨٥)، ولعكرمة في المحتسب (١/ ٢٨٢)، وللثلاثة في البحر المحيط (٥/ ٣٧١).

(٤) في المطبوع: «العمل».

(٥) في الأسدية: «ويراد».

المتلبس به، كانسلاخ الشاة عن الجلد والرُّجل عن الثياب، ومنه قوله تعالى: ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يسٓ: ٣٧] فشبه انصرام الأشهر بأسمائها وأحكامها من الزمن[١] بذلك.

وقد تقدم القول فيمن جُعل له انقضاء الأشهر الحرم أجلاً، وما المعني بالْأَشْهُر الْحُرُم، بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾: أمر بقتال المشركين، فخرج الأمر بذلك بلفظ (اقتلوا) على جهة التشجيع وتقوية النفس، أي: هكذا يكون أمركم معهم.

وهذه الآية نسخت كل موادعة في القرآن أو مهادنة وما جرى مجرى ذلك، وهي على ما ذكر مئة آية وأربع عشرة آية.

وقال الضحاك والسدي وعطاء: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤٧]، وقالوا: لا يجوز قتل أسير البتة صبراً[٢] إما أن يمن عليه، وإما أن يفادى، وقال قتادة ومجاهد، وغيرهما: قوله: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ منسوخ بهذه الآية، وقالوا: لا يجوز المن على أسير ولا مفاداته، ولا شيء إلا القتل، وقال ابن زيد: هما محكمتان[٣].

قال القاضي أبو محمد: ولم يفسر أكثر من هذا، وقوله هو الصواب، والآيتان لا يشبه معنى واحدة معنى الأخرى، وذلك أن هذه الآية قوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ﴿وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾ أفعال إنما تُمتثل مع المحارب المرسل المناضل، وليس للأسير فيها ذكر ولا حكم، وإذا أُخذ الكافر خرج عن درجات هذه الآية وانتقل إلى حكم الآية الأخرى، وتلك الآية لا مدخل فيها لغير الأسير، فقول ابن زيد هو الصواب.

وقوله: ﴿وَخُذُوهُمۡ﴾ معناه الأسر.

---

(١) في التركية: «المؤمن».

(٢) «صبرا» سقطت من الأصل.

(٣) انظر نسبة الأقوال لهم في الناسخ والمنسوخ للنحاس (ص: ٤٩٤)، و(ص: ٦٧١)، والهداية لمكي (٤/ ٢٩٣٢).

وقوله: ﴿كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ معناه: في مواضع الغِرَّة حيث يُرصدون، وقال النابغة:

أَعَـاذِلُ إنَّ الجَهْلَ مـن لَذَّةِ الفتى ... وإنَّ المَنَايَا للنُّفـوس بِمَرْصَدِ[1] [الطويل]

ونصب ﴿كُلَّ﴾ على الظرف، وهو اختيار الزجّاج، أو بإسقاط الخافض التقدير: في كلِّ مرصد، أو على كلِّ مرصد، وحكى سيبويه: ضُرِبَ الظَّهرَ والبطنَ[2].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ يريد: من الكفر، فهي متضمنة الإيمان، ثم قرن بها إقامة الصلاة [وإيتاء الزكاة تنبيهاً على مكان الصلاة][3] والزكاة من الشرع.

وقوله: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾ تأمين، وقال أنس بن مالك: كذا هو دين الله الذي جاءت به الرسل، وهو من آخر ما نزل قبل اختلاف الأهواء، وفيه قال النبي ﷺ: «من فارق الدنيا مخلصاً لله تعالى مطيعاً له لقي الله وهو عنه راض»[4]، ثم وعد بالمغفرة في صيغة الخبر عن أوصافه تعالى.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ۝٦ كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٧﴾.

أُمر رسول الله ﷺ في هذه الآية بعد الأمر بقتال المشركين بأن يكون متى طَلب

---

(١) لم أجده له، بل هو لعدي بن زيد كما في جمهرة أشعار العرب (ص: ٣٩١)، والزاهر (٢/ ١٧)، وفيهما: «للرجال» بدل «للنفوس».

(٢) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢ / ٢٠٣).

(٣) ساقط من الأسدية.

(٤) ضعيف، هذا الحديث أخرجه ابن ماجه (٧٠)، والحاكم (٢/ ٣٦٢)، والبزار (٢/ ٢٩٢) وغيرهم من طريق: أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أنس بن مالك. والربيع بن أنس ضعيف، قال ابن حبان في الثقات: الناس يتقون حديثه ما كان من رواية أبي جعفر عنه لأن في أحاديثه عنه اضطراباً كثيراً. اهـ.

مشرك عهداً يأمن به حتى يسمع القرآن ويرى حال الإسلام أن يعطيه ذلك، وهي الإجارة، وهو من الجوار، ثم أمر بتبليغه المأمن إذا لم يرض الإسلام ولم يُهْدَ إليه، قال الحسن: هي محكمة سنَّة إلى يوم القيامة، وقاله مجاهد.

وقال الضحاك[(١)] والسدي: هذا منسوخ بقوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقال غيرهما: هذه الآية إنما كان حكمها مدة الأربعة الأشهر التي ضربت لهم أجلاً[(٢)].

وقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن، وهي إضافة صفة إلى موصوف، لا إضافة خَلْق إلى خالق، والمعنى: ويفهمَ أحكامه وأوامره ونواهيه، فذكر السماع بالأذان إذ هو الطريق إلى الفهم، وقد يجيء السماع في كلام العرب مستعملاً بمعنى الفهم، كما تقول لمن خاطبته فلم يقبل منك: أنت لم تسمع قولي، تريد: لم تفهمه، وذلك في كتاب الله تعالى في عدة مواضع.

و﴿أَحَدٌ﴾ في هذه الآية مرتفع بفعل يفسره قوله: ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ ويضعَّف فيه الابتداء؛ لولاية[(٣)] الفعل لـ(إنْ).

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى هذا اللطف في الإجارة والإسماع وتبليغ المأمن.

و﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾ نفي علمهم بمراشدهم في اتباع محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية لفظ استفهام وهو على جهة التعجب والاستبعاد، أي: على أيِّ وجه يكون للمشركين عهد وهم قد نقضوا وجاهروا بالتعدي؟ ثم استثنى من عموم المشركين القومَ الذين عوهدوا عند المسجد الحرام، أي: في ناحيته وجهته.

وقال ابن عباس فيما روي عنه: المعنيُّ بهذا قريش[(٤)].

---

(١) في الأصل: «والضحاك» دون لفظ «قال».

(٢) انظر: تفسير الثعلبي (٥/ ١٣)، الهداية لمكي (٤/ ٢٩٣٢).

(٣) في نجيبويه: «الدلالة».

(٤) أخرجه الطبري (١٤/ ١٤٣) من طرق عن ابن عباس.

وقال السدي: المعنيُّ بنو خزيمة[1] بن الدئل، وقال ابن إسحاق: هي قبائل بني بكر، [كانوا دخلوا وقت الحديبية في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فلم يكن نَقَضَ إلا قريشٌ وبنو الدئل من بني بكر][2]، فأُمر المسلمون بإتمام العهد لمن لم يكن نَقَض.

وقال قوم: المعني خزاعة، قاله مجاهد[3]، وهو مردود بإسلام خزاعة عام الفتح.

وقال بعض من قال: إنهم قريش: إن هذه الآية نزلت فلم يستقيموا بل نقضوا، فنزل تأجيلهم أربعة أشهر بعد ذلك، وحكى الطبري هذا القول عن ابن زيد، وهو ضعيف متناقض، لأن قريشاً وقت الأذان / بالأربعة الأشهر لم يكن منهم إلا مسلم، [٢/ ٢٢٥] وذلك بعد فتح مكة بسنة، وكذلك خزاعة، قاله الطبري وغيره[4].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يريد به المُوفين بالعهد من المؤمنين، فلذلك جاء بلفظ مغترق[5] الوفاء بالعهد متضمن الإيمان.

قوله عز وجل: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

بعد ﴿كَيْفَ﴾ في هذه الآية فعل مقدر ولابد، يدل عليه ما تقدم، فيحسن أن يقدر: كيف يكون لهم عهد ونحوه قول الشاعر:

---

(١) في الأصل «جزيمة»، وفي جار الله ونور العثمانية والمطبوع: «جذيمة».

(٢) ساقط من الأسدية.

(٣) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١٤/ ١٤١)، بتصرف، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٤٢).

(٤) انظر القولين في تفسير الطبري (١٤/ ١٤٣) بتصرف.

(٥) في الأسدية: «مستغرق».

[الطويل] وخَبَّرتُماني أَنما المَوْتُ بالقُرى فكيفَ وهاتا هَضْبَةٌ وقَلِيبُ[١]

وفي ﴿كَيْفَ﴾ هنا تأكيد للاستبعاد الذي في الأولى.

و﴿لَا يَرْقُبُواْ﴾ معناه: لا يراعوا ولا يحافظوا، وأصل الارتقاب بالبصر، ومنه الرَّقيب في الميسر وغيره، ثم قيل لكل من حافظ على شيء وراعاه: راقبه وارتقبه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿إِلًّا﴾، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس بياء بعد الهمزة خفيفة اللام: (إِيلاً)، وقرأت فرقة: (أَلّاً) بفتح الهمزة[٢].

فأما من قرأ ﴿إِلًّا﴾ فيجوز أن يراد به الله عز وجل، قاله مجاهد وأبو مجلز[٣]، وهو اسمه بالسريانية وعُرِّب، ومن ذلك قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين سمع كلام مسيلمة فقال: هذا كلام لم يخرج من إِلٍّ[٤]، ويجوز أن يراد به العهد، [والعرب تقول للعهد][٥] والحلف والجوار ونحو هذه المعاني إِلًّا، ومنه قول أبي جهل:

[الطويل] لِإِلٍّ عَلَيْنَا وَاجِبٍ لَا نُضِيعُهُ أَمِين قُوَاهُ غَيْر مُنْتَكِثِ الْحَبْلِ[٦]

ويجوز أن يراد به القرابة، فإن القرابة في لغة العرب يقال لها: إِلٌّ، ومنه قول ابن مُقْبِلٍ:

[الرمل] أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خَلَفُوا قَطَعُوا الإِلَّ وَأَعْرَاقَ الرَّحِمْ[٧]

---

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي، كما في الكتاب لسيبويه (٣/ ٤٨٧)، والأصمعيات (ص: ٩٧)، والحيوان (٣/ ٢٦).

(٢) انظر قراءة عكرمة في المحتسب (١ / ٢٨٢)، والقراءة الأخرى عزاها في مختصر الشواذ (ص: ٥٦) للكلبي.

(٣) تفسير الطبري (١٤/ ١٤٦).

(٤) لم أقف عليه مسنداً.

(٥) ساقط من الأسدية والتركية.

(٦) انظر عزوه له في سيرة ابن هشام (١/ ٥٩٧)، وأبو جهل هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي، قتل يوم بدر كافراً.

(٧) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٤/ ١٤٨)، وفي نور العثمانية: «أعناق»، بدل «أعراق».

أنشده أبو عبيدة على القرابة[١]، وظاهره أنه في العهود، ومنه قول حسان:

لَعَمْرُك إنّ إلَّكَ في قُرَيشٍ كإلّ السَّقْب من رَأْل النَّعامِ[٢] [الوافر]

وأما من قرأ: (ألّاً) بفتح الهمزة فهو مصدر من فعل الإل الذي هو العهد.

ومن قرأ (إيلاً) فيجوز أن يراد به الله عز وجل، فإنه يقال: (إلٌّ) و(إيل)، وفي البخاري قال[٣]: جَبْرَ، ومِيْكَ، وسَرَافِ: عبد بالسريانية، وإيل: الله عز وجل[٤]، ويجوز أن يريد (إِلّاً) المتقدمَ فأبدل من أحد المثلين ياء، كما فعلوا ذلك في قولهم: أمَّا وأيما، ومنه قول سعد بن قُرْطٍ يهجو أمه:

يَا لَيْتَمَا أُمُّنَا شَالَتْ نَعَامَتُهَا أَيْمَا إِلَى جَنَّةٍ أَيْمَا إِلَى نَارِ[٥] [البسيط]

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

رأتْ رَجُلاً أيْمَا إذا الشَّمْسُ عارَضَتْ فيَضْحَى وأيْمَا بالعشِيِّ فيَخْصَرُ[٦] [الطويل]

وقال آخر:

لَا تُفسِدُوا آبَالَكُمْ أيما لنا أيما لَكُمْ[٧] [مجزوء الرجز]

---

(١) لم أجده في كتبه المتوفرة.

(٢) انظر عزوه له في الحيوان (٤/ ٤٣٥)، الشعر والشعراء (١/ ٣٥١)، تفسير الطبري (١٤/ ١٤٩).

(٣) في المطبوع وجار الله زيادة: «الله».

(٤) صحيح البخاري في كتاب التفسير قبل حديث (٤٤٨٠)، باب: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ عن عكرمة.

(٥) انظر عزوه له في المحتسب (١/ ٢٨٤)، والحماسة بشرح التبريزي (٢/ ٤١١)، وسماه في أشعار النساء (ص: ٩٠): النحيف، قال: وهو من بني جذيمة، وكان شريراً ضعيفاً، وكان بها عاقاً، ونسبه في الصحاح للجوهري (٦/ ٢٢٧٢) للأحوص.

(٦) انظر عزوه له بهذا اللفظ في الكامل للمبرد (١/ ٦١)، وتفسير ابن أبي حاتم (١١/ ٢٥)، وإعراب القرآن للنحاس (١/ ٤٠).

(٧) أنشده في المحتسب (١/ ٢٨٤) بلا نسبة، وقال: رويناه عن قطرب.

قال أبو الفتح: ويجوز أن يكون مأخوذاً من آل يؤول: إذا ساس[١].

قال القاضي أبو محمد: كما قال عمر بن الخطاب: قد أُلنا وإيل علينا[٢].

فكأن المعنى على هذا: لا يرقبون فيكم سياسة ولا مداراة ولا ذمة، وقلبت الواو ياء لسكونها والكسرة قبلها.

و«الذمة» أيضاً بمعنى المتات[٣] والحلف والجوار، ونحوه قول الأصمعي: الذمة كل ما يجب أن يحفظ ويحمى[٤]، ومن رأى في الإل أنه العهد جعلها لفظتين مختلفتين لمعنًى واحد أو متقارب، ومن رأى الإل لغير ذلك فهما لفظان لمعنيين.

﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ معناه: تأبى أن تذعن لما يقولونه بالألسنة، وأبى يأبَى شاذ، لا يحفظ فعَل يفعَل بفتح العين في الماضي والمستقبل، وقد حُكي ركَن يركَن.

وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ يريد به الكل، أو يريد استثناء من قُضي له بالإيمان، كل ذلك محتمل.

وقوله تعالى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآية، اللازم من ألفاظ هذه الآية أن هذه الطائفة الكافرة الموصوفة بما تقدم، لما تركت آياتِ الله ودينه، وآثرت الكفر وحالَها في بلادها، كان[٥] ذلك كالشراء والبيع، لمَّا كان تركاً لمَا قد مكِّنوا منه وأخذاً لما يمكن نبذه، وهذه نزعة مالك رحمه الله في منع اختيار المشتري فيما تختلف آحاد جنسه ولا يجوز التفاضل فيه، وقد تقدم ذكر ذلك في سورة البقرة[٦].

---

(١) المحتسب لابن جني (١ / ٢٨٢).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) بتاءين، من مت إليه بكذا يمُت، وفي نور العثمانية: «الثبات»، وفي المطبوع وأحمد٣: «المتاب».

(٤) انظر البحر المحيط (٥/ ٣٦٤)، وفي غريب الحديث للقاسم بن سلام (١/ ٤٢) عنه: الذمة: القليلة الماء.

(٥) في المطبوع: «كل».

(٦) انظر المسألة في: المدونة (٣/ ١٣٤)، وتفسير ابن عرفة (١/ ١٥٥).

وقوله: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ يريد: صدوا أنفسهم وغيرهم، ثم حكم عليهم بأن عملهم سيئ، و﴿سَآءَ﴾ في هذه الآية إذ لم يذكر مفعولُها يحتمل أن تكون مضمنة كبئس، فأما إذا قلت: ساءني فعل زيد، فليس تضمين بوجه، وإن قدرت في هذه الآية مفعولاً زال التضمين، وروي أن أبا سفيان بن حرب جمع بعض العرب على طعام، وندبهم إلى وجه من وجوه النقض، [فأجابوا إلى ذلك] فنزلت الآية، وقال بعض الناس: هذه في اليهود[١].

قال القاضي أبو محمد: وهذا القول وإن كانت ألفاظ هذه الآية تقتضيه، فما قبلها وما بعدها يرده ويتبرأ منه، ويختلُّ أسلوب القول به.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾ الآية، وصف لهذه الطائفة المشترية يضعف ما ذهب[٢] إليه من قال إن قوله: ﴿ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هو في اليهود.

وقوله تعالى: ﴿فِى مُؤْمِنٍ﴾ إعلام بأن عداوتهم إنما هي بحسب الإيمان فقط، وقوله أولا: ﴿فِيكُمْ﴾ كان يحتمل أن يظن ظانٌّ أن ذلك للإحَن التي وقعت، فزال هذا الاحتمال بقوله: ﴿فِى مُؤْمِنٍ﴾، ثم وصفهم تعالى بالاعتداء، والبداءة[٣] بالنقض للعهود، والتعمق في الباطل.

قوله عز وجل: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿تَابُواْ﴾ رجعوا عن حالهم، والتوبة منهم تتضمن الإيمان، ثم قرن تعالى بإيمانهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، قال ابن عباس: حرمت هذه / الآية دماء أهل القبلة[٤]. [٢/ ٢٢٦]

(١) روى نحوه الطبري (١٤/ ١٥١) من طريقين عن مجاهد بلفظ: أطعم حلفاءه، وما بين القوسين ساقط من الأسدية.

(٢) في الأسدية: «يضعف بخلاف ما دسه إليه...» إلخ.

(٣) في الأسدية: «البراءة».

(٤) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ١٥٢) من طريق ليث هو ابن أبي سليم، عن رجل، عن ابن عباس.

وقال ابن زيد: قرن الله الصلاة بالزكاة ولم يرض بإحداهما دون الأخرى[١].

قال القاضي أبو محمد: وعلى هذا مر أبو بكر رضي الله عنه وقت الردة.

و«الأخوة في الدين» هي أخوة الإسلام، وجمع الأخ منها إخوان، وجمعه من النسب إخوة، قاله بعض اللغويين، وقد قيل إن الأخ من النسب يجمع على إخوان أيضاً، وذلك ظاهر من قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ﴾ [النور: ٦١] ويبين ذلك قوله تعالى في آخر الآية: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾، وكذلك قوله في هذه السورة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٤] فأما الأخ من التوادِّ ففي كتاب الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال أبو هريرة في البخاري: كان إخوتي من المهاجرين يشغلهم الصفق بالأسواق[٢].

فيصح من هذا كله أن الأخ يجمع إخوة وإخواناً، سواء كان من نسب أو مودة، وتفصيل الآية: بيانها وإيضاحها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم﴾ الآية، «النكث»: النقض، وأصله في كل ما فُتل[٣] ثم حُل، فهي في الأيمان والعهود مستعارة.

وقوله: ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ أي: بالاستنقاص والحرب وغير ذلك مما يفعله المشرك.

وهذه استعارة، ومنه قول النبي ﷺ حين أمر أسامة: «إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل»[٤]، الحديث.

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٥٣)، بتصرف.

(٢) متفق عليه، هذا الأثر أخرجه البخاري (١١٨) ومسلم (٢٤٩٣).

(٣) في المطبوع: «قبل».

(٤) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٤٢٥٠) ومسلم (٢٤٢٦).

قال القاضي أبو محمد: ويليق هنا ذكر شيء من طعن الذمي في الدين، فالمشهور من مذهب مالك رحمه الله أنه: إذا فعل شيئاً من ذلك؛ مثل تكذيب الشريعة وسبِّ النبي ﷺ ونحوه قُتل، وقيل: إذا كفر وأعلن[١] بما هو معهود من معتقده وكفره أدِّب على الإعلان وترك، وإذا كفر بما ليس من معهود كفره كالسب ونحوه قتل[٢]، وقال أبو حنيفة في هذا: إنه يستتاب[٣].

واختلف إذا سب الذمي النبي ﷺ ثم أسلم تَقيَّة القتل فالمشهور من المذهب أنه يترك[٤]، وقد قال ﷺ: «الإسلام يجبُّ ما قبله»[٥]، وفي «العُتْبية» أنه يقتل[٦]، ولا يكون أحسن حالاً من المسلم.

وقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي: رؤوسهم وأعيانهم الذين يقودون الناس إليه، وقال قتادة: المراد بهذا أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وغيرهما[٧].

قال القاضي أبو محمد: وهذا إن لم يُتأول أنه ذكرهم على جهة المثال ضعيف؛ لأن الآية نزلت بعد بدر بكثير، وروي عن حذيفة أنه قال: لم يجئ هؤلاء بعدُ[٨].

---

(١) في الأسدية: «وأمكن أن يكون ما هو معهود...» إلخ.
(٢) انظر ما عزاه المؤلف لمذهب مالك في التاج والإكليل (٣/ ٣٨٥).
(٣) انظر قول أبي حنيفة في بدائع الصنائع (٧/ ١١٣).
(٤) انظر ذلك في التاج والإكليل (٣/ ٣٨٥).
(٥) في الصحيح بغير هذا اللفظ، هذا الحديث روي بهذا اللفظ من حديث عمرو بن العاص، رواه يزيد بن أبي حبيب، واختلف عليه فيه على ثلاثة أوجه، يراجع مسند أحمد (٤/ ١٩٨) (٤/ ٢٠٤) (٤/ ٢٠٥) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٢٣)، وأخرج مسلم (١٢١) حديث عمرو بلفظ: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله»، وكثير من الفقهاء وغيرهم يعزون هذا الحديث باللفظ الأول لمسلم (١٢١) وهو غلط.
(٦) انظر ما عزاه للعتبية في النوادر (١٤/ ٥٢٧).
(٧) تفسير الطبري (١٤/ ١٥٤).
(٨) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ١٥٦) من طريق: حبيب بن حسان، عن زيد بن وهب قال: كنت عند حذيفة.. وحبيب بن حسان، هو حبيب بن أبي الأشرس، وهو منكر الحديث متروك.

قال القاضي أبو محمد: يريد لم ينقرضوا، فهم يحيون أبداً ويقاتلون، وأصوب ما في هذا أن يقال: إنه لا يعنى بها معين، وإنما وقع الأمر بقتال أئمة الكفر الناكثين بالعهود من الكفرة إلى يوم القيامة دون تعيين، واقتضت حال [الكفار ـ أعني][(١)] كفار العرب ومحاربي رسول الله ﷺ ـ أن تكون الإشارة إليهم أولاً بقوله: ﴿أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ وهم حصلوا حينئذ تحت اللفظة، إذ الذي يتولى قتال النبي ﷺ والدفعَ في صدر شريعته هو إمام كل من يكفر بذلك الشرع إلى يوم القيامة، ثم تأتي في كل جيل من الكفار أئمة خاصة بجيل جيل.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿ أيمة ﴾ بهمزة واحدة وبعدها ياء مكسورة، وقد روي عن نافع مد الهمزة، وروى عنه ابن أبي أويس: أئمة بهمزتين وأصلها: أأممة وزنها أفعلة جمع إمام كعماد وأعمدة، نقلت حركة الميم إلى الهمزة التي هي فاء الفعل وأدغمت الميم في الميم الأخرى، وقلبت الهمزة ياء لانكسارها ولاجتماع همزتين من كلمة واحدة.

وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿أَئِمَّةَ ﴾ والتعليل واحد، إلا أنهم لم يقلبوا الهمزة ياء، وقرأ المسيبي عن نافع: ﴿ آئمة ﴾ بهمزة ممدودة، وقرأ هشام عن ابن عامر بمدة بين الهمزتين[(٢)].

وقرأ الناس الجمُّ الغفير: ﴿لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ ﴾ على جمع يمين، وليس المراد نفي الأيمان جملة، وإنما المعنى: لا أيمان لهم يوفى بها ويُبر، وهذا المعنى يشبه الآية، وقرأ الحسن وعطاء وابن عامر وحده من السبعة: ﴿ لا إيمان لهم﴾[(٣)]، وهذا يحتمل وجهين، أحدهما: لا تصديق[(٤)]، قال أبو علي: وهذا غير قوي لأنه تكرير، وذلك أنه

(١) زيادة من الأسدية.

(٢) وكلها سبعية، انظر: التيسير (ص: ١١٧)، والسبعة (ص: **٣١٢**)، وفي المطبوع: «عن أبي عامر»، وهو سبق قلم.

(٣) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٧)، والسبعة (ص: **٣١٢**).

(٤) في التركية: «أحدهما التصديق».

وصف أئمة الكفر بأنهم لا إيمان لهم، فالوجه في كسر الألف أنه مصدر من آمنه[١] إيماناً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤] فالمعنى أنهم لا يؤمَّنون كما يؤمَّن أهل الذمة الكتابيون، إذ المشركون لم يكن لهم إلا الإسلام أو السيف، قال أبو حاتم: فسر الحسن قراءته: لا إسلام لهم[٢].

قال القاضي أبو محمد: والتكرير الذي فر أبو علي منه متجه؛ لأنه بيانُ المُهِم الذي يوجب قتلهم.

قوله عز وجل: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾ عَرْض وتحضيض.

وقوله: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: قال الحسن بن أبي الحسن: المراد: من المدينة[٣]، وهذا مستقيم كغزوة أحد والأحزاب وغيرهما، وقال السدي: المراد: من مكة[٤]، فهذا على أن يكون المعنى: همُّوا وفعلوا، أو على أن يقال: هموا بإخراجه بأيديهم فلم يصلوا إلى ذلك بل خرج بأمر الله عز وجل، وهذا يجري مع إنكار النبي ﷺ على أبي سفيان بن الحارث قوله:

.... ورَدَّنِي إِلَى اللهِ مَنْ طَرَّدْتُ كُلَّ مُطَرَّدِ[٥] [الطويل]

---

(١) في التركية ونجيبويه وجار الله: «أمنته».

(٢) البحر المحيط (٥/ ٣٨١)، ومثله عن الحسن في تفسير الطبري (١٤/ ١٥٧).

(٣) تفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢٤٣).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ١٥٩).

(٥) تقدم في تفسير الآية (١٩٥) من سورة آل عمران، وجاء أول البيت في نجيبويه: «هداني هاد غير نفسي» إلخ، وفيه روايات أخرى.

ولا ينسب الإخراج إليهم إلا إذا كان الكلام في طريق تذنيبهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وقوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣] والأول هو على أن ما فعلوا به من أسباب الإخراج هو الإخراج.

وقوله: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قيل: يراد أفعالهم بمكة بالنبي ﷺ وبالمؤمنين، وقال مجاهد: يراد به ما بدأت به قريش / من معونة بني بكر حلفائهم على خزاعة حلفاء [٢/ ٢٢٧] رسول الله ﷺ، فكان هذا بدء النقض، وقال الطبري: يعني فعلهم يوم بدر[١].

وقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ استفهام على معنى التقرير والتوبيخ.

وقوله: ﴿فَٱللَّهُ﴾ مرتفع بالابتداء و﴿أَحَقُّ﴾ خبره، و﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾ بدل من اسم الله بدلَ اشتمال، أو في موضع نصب على إسقاط خافض تقديره: بأن تخشوه، ويجوز أن يكون ﴿ٱللَّهُ﴾ ابتداء و﴿أَحَقُّ﴾ ابتداء ثان و﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأول.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كما تقول: افعل كذا إن كنت رجلاً، [أي: رجلاً][٢] كاملاً، فهذا معناه: إن كنتم مؤمنين كاملي الإيمان، لأن إيمانهم قد كان استقر.

وقوله: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية، قررت الآيات قبلها أفعال الكفرة، ثم حضض على القتال مقترناً بذنوبهم[٣] لتنبعث الحمية مع ذلك، ثم جزم الأمر بقتالهم في هذه الآية مقترناً بوعد وكيد يتضمن النصرة عليهم والظفر بهم.

وقوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾ معناه: بالقتل والأسر، وذلك كله عذاب.

و(يخزهم) معناه: يذلهم على ذنوبهم، يقال: خَزِي الرجل يَخْزَى خِزْياً: إذا ذل من حيث وقع في عار، وأخزاه غيره وخزِي خَزاية: إذا استحيا.

وأما قوله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الكلام يحتمل أن يريد [جماعة

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٥٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٦٢).
(٢) ساقط من نجيبويه.
(٣) في الأسدية: «ببعذهم».

المؤمنين، لأن كل ما يهدُّ من الكفر هو شفاء من هم صدورهم، أعني صدور المؤمنين.

ويحتمل أن يريد][١] تخصيص قوم من المؤمنين، وروي أنهم خزاعة، قاله مجاهد والسدي[٢].

ووجه تخصيصهم أنهم الذين نقض فيهم العهد ونالتهم الحرب، وكان يومئذ في خزاعة مؤمنون كثير، ويقتضي ذلك قول الخزاعي المستنصر بالنبي ﷺ:

ثُمَّتَ أَسْلَمْنا فلَم نَنْزِع يَدَا .... [الرجز]

وفي آخر الرجز:

وقَتَّلُونَا رُكَّعاً وَسُجَّدَا[٣] .... [الرجز]

وقرأ جمهور الناس: ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [على إسناد الفعل إلى الله عز وجل.

وقرأت فرقة: (ويَذهَب غيظُ قلوبهم)[٤] على إسناد الفعل إلى الغيظ.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيَتُوبُ ﴾ بالرفع على القطع مما قبله، والمعنى: أن الآية استأنفت الخبر بأنه قد يتوب على بعض هؤلاء الكفرة الذين أمر بقتالهم.

قال أبو الفتح: وهذا أمر موجود سواء قوتلوا أو لم يقاتلوا، فلا وجه لإدخال التوبة في جواب الشرط الذي في ﴿قَتِلُوهُمْ ﴾ على قراءة النصب، وإنما الوجه الرفع على الاستئناف والقطع[٥].

---

(١) ساقط من التركية، وقوله: «صدورهم أعني» زيادة من الأسدية.

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ١٦٠)، تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٦٣).

(٣) الأبيات لعمرو بن سالم الخزاعي، انظر: جمهرة أشعار العرب (ص: ٣٨)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٣٩٤)، وتاريخ الطبري (٣/ ٤٥).

(٤) وهي شاذة، نقلها الكرماني في شواذ القراءات (ص: ٢١٠) عن ابن عمير.

(٥) المحتسب (١/ ٢٨٥).

وقرأ الأعرج وابن أبي إسحاق وعيسى الثقفي وعمرو بن عبيد وأبو عمرو فيما روي عنه: (ويتوبَ) بالنصب[(١)] على تقدير: وأن يتوب، ويتوجه ذلك عندي إذا ذهبت إلى أن التوبة إنما يراد بها هنا أن قتل الكافرين والجهاد في سبيل الله هو توبة لكم أيها المؤمنون وكمالٌ لإيمانكم، فتدخل التوبة على هذا في شرط القتال.

و﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان نسبتهما إلى الآية واضحة.

قوله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ في هذه الآية ليست المعادلة، وإنما هي المتوسطة في الكلام، وهي عند سيبويه التي تتضمن إضراباً عن اللفظ الأول لا عن معناه، واستفهاماً، فهي تسد مسد بل وألف الاستفهام، وهي التي في قولهم: إنها لإبل أم شاءٌ، التقدير: بل أهي شاء.

وقوله: ﴿أَن تُتْرَكُوا۟﴾ يسد عند سيبويه مسد مفعولي حَسِبَ، وقال المبرد: ﴿أَن﴾ وما بعدها مفعول أول والثاني محذوف[(٢)].

قال القاضي أبو محمد: كأن تقديره: مهمَلِينَ، أو سُدىً ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَلَمَّا﴾ هي (ما) دخلت عليها (لم) وفيها مبالغة، ومعنى الآية: أظننتم أن تتركوا دون اختبار وامتحان؟ فـ(لَمَّا) في هذه الآية بمنزلة قول الشاعر:

[الطويل]
بأَيْدِي رِجالٍ لم يَشِيمُوا سُيوفَهُمْ ... ولم تَكْثُرِ القَتْلَى بها حِينَ سُلَّتِ[(٣)]

---

(١) انظر عزوها لهم مع التوجيه في المحتسب (١/ ٢٨٥)، قال في النشر (٢/ ٢٧٨): وانفرد بها ابن العلاف عن النخاس عن رويس.

(٢) انظر: مشكل إعراب القرآن لمكي (١ / ٣٢٥).

(٣) البيت للفرزدق كما في المعاني الكبير (٢/ ٨٩٩)، والكامل للمبرد (١/ ٢٤٤)، والحجة للفارسي =

قال القاضي أبو محمد: والمراد بقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾: لما يعلم ذلك موجوداً كما علمه أزلاً[1] بشرط الوجود، ولما يظهر فعلكم واكتسابكم الذي يقع عليه الثواب والعقاب، ففي العبارة تجوُّزٌ، وإلا فحتمٌ أنه قد علم الله في الأزل الذين وصفهم بهذه الصفة مشروطاً وجودهم، وليس يحدث له علم تبارك وتعالى عن ذلك.

و﴿وَلِيجَةً﴾: معناه: بطانة ودخيلة، وقال عبادة بن صفوان الغنوي:

وَلَائِجُهُمْ فِي كُلِّ مَبْدًى وَمَحْضَرٍ إِلَى كُلِّ مَنْ يُرْجَى وَمَنْ يَتَخَوَّفُ[2] [الطويل]

وهو مأخوذ من الولوج، فالمعنى: أمراً باطناً مما ينكره الحق، وهذه الآية مخاطبة للمؤمنين معناها أنه لا بد من اختبارهم، فهي كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ [البقرة: ٢١٤] وكقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢].

وفي هذه الآية طعن على المنافقين الذين اتخذوا الولائج لا سيما عندما فرض القتال.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء على المخاطبة، وقرأ الحسن ويعقوب في رواية رويس وسلام بالياء[3] على الحكاية عن الغائب.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، معناه: ما كان للمشركين بحق الواجب أن يعمروا، وهذا هو الذي نفى الله عز وجل، وإلا فقد عَمَروا مساجده قديماً وحديثاً وتغلباً وظلماً.

= (٤/ ٢٩٥)، ونسبه في الاستيعاب (١/ ٣٩٤) لسليمان بن قتة الخزاعي، في رثاء الحسين بن علي، قال: وقيل: إنها لأبي الرميح الخزاعي، واشار في هامش أحمد٣ إلى أن في نسخة: «الأعشى» بدل «الشاعر»، ولعلها خطأ، إذ لم نجد من نسبه له.

(١) في الأسدية وأحمد٣: «أولا»، وكذا في نجيبويه مع الإشارة في الهامش للنسخة الأخرى.

(٢) انظر عزوه له في البحر المحيط (٥/ ٣٨٤)، وعبادة بن صفوان هذا لم أقف له على ترجمة.

(٣) وهي شاذة عزاها لهم إلا سلاماً في البحر المحيط (٥/ ٣٨٥)، وعزاها الهذلي في الكامل (ص: ٥٦١) لعباس عن أبي عمرو، والوليد بن حسان عن يعقوب، والكرماني في شواذ القراءات (ص: ٢١٠) للحسن والحسن بن عمران وعباس، وليست في شيء من طرق النشر.

وقرأ حماد بن سلمة[1] عن ابن كثير والجحدري: (مسْجدَ الله) بالإفراد في الموضعين، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي والأعرج وشيبة وأبو جعفر ومجاهد وقتادة وغيرهم: ﴿مَسَٰجِدَ ﴾ بالجمع في الموضعين، وقرأ ابن كثير أيضا وأبو عمرو: ﴿مسْجد﴾ بالإفراد في هذا الموضع الأول و﴿مَسَٰجِدَ ﴾ بالجمع في الثاني[2]، كأنه ذكر أولاً الذي فيه النازلة ذلك الوقت، ثم عُمت المساجد ثانياً في الحكم الثابت ما بقيت الدنيا، ولفظ الجمع يقتضي عموم المساجد كلها، ويحتمل / أن يراد به المسجد الحرام في الموضعين وحده على أن يقدَّر كلُّ موضعِ سجودٍ فيه مسجداً ثم يُجمع. [٢/ ٢٢٨]

ولفظ الإفراد في الموضعين يقتضي خصوص المسجد الحرام وحده، ويحتمل أن يراد به الجنس فيعم المساجد كلَّها، ولا يمنع من ذلك إضافته كما ذهب إليه من لا بصر له.

وقال أبو علي: الثاني في هذه القراءة يراد به الأول، وسائر المساجد كلها حكمها حكم المسجد الحرام[3].

وقوله: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِ﴾ إشارة إلى حالهم، إذ أقوالهم وأفعالهم تقتضي الإقرار بالكفر والتحلي به، وقيل: الإشارة إلى قولهم في التلبية: إلا شريكاً هو لك، ونحو ذلك، وحكى الطبري عن السدي أنه قال: الإشارة إلى أن النصراني كان يقول: أنا نصراني، واليهودي كذلك، والوثني يقول: أنا مشرك[4].

قال القاضي أبو محمد: وهذا لم يحفظ، ثم حكم الله تعالى عليهم بأن أعمالهم حَبِطَتْ أي: بطلت، ولا أحفظها تستعمل إلا في السعي[5] والعمل، ويشبه أن يكون من

---

(١) في نجيبويه: «أبي سليمان»، وفي الأسدية: «ابن أبي سلمة»، وقد سبق التعريف به.

(٢) انظر الوجه الأول لابن كثير في السبعة (ص: ٣١٣)، والكامل للهذلي (ص: ٥٦١)، والأخيرتان سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٨)، و«ابن عامر»: ساقطة من الأسدية.

(٣) الحجة للقراء السبعة للفارسي (٤/ ١٧٩).

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ١٦٦)، بتصرف.

(٥) في الأسدية: «المعنى».

الحَبَط وهو داء قاتل يأخذ السائمة إذا رعت وبيلاً، وهو الذي في قول رسول الله ﷺ: «إن مما يُنبت الربيع ما يقتل حَبطاً أو يُلِمُّ»[١] الحديث.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

المعنى في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ بالحقِّ لهم والواجب، ولفظ هذه الآية الخبر وفي ضمنها أمرُ المؤمنين بعمارة المساجد.

وقد قال بعض السلف: إذا رأيتم الرجل يعمر المسجد فحسِّنوا به الظن[٢].

وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»[٣]، وقد تقدم القول في قراءة مسجد.

وقوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يتضمن الإيمان بالرسول إذ لا يتلقى ذلك إلا منه.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ حذفت الألف من «يخشى» للجزم، قال سيبويه: واعلم أن الأخير إذا كان يسكن في الرفع حذف في الجزم لئلا يكون الجزم بمنزلة الرفع[٤].

ويريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، وهذه مرتبة العدل بين الناس، ولا محالة أن

---

(١) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (١٤٦٥) (٢٨٤٢) ومسلم (١٠٥٢) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ٩٠).

(٣) ضعيف، هذا الحديث أخرجه الترمذي (٢٦١٧ و٣٠٩٣) وابن ماجه (٨٠٢) من طريق رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن درَّاج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري به مرفوعاً. وهو إسناد ضعيف.

(٤) الكتاب لسيبويه (١/ ٢٣).

الإنسان يخشى غيره ويخشى[(١)] المحاذير الدنياوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه، و«عسى» من الله واجبة حيثما وقعت في القرآن، ولم يرجِّ اللهُ بالاهتداء إلا مَن حصل في هذه المرتبة العظيمة من العدالة، ففي هذا حض بليغ على التقوى.

وقرأ الجمهور: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

وقرأ ابن الزبير وأبو وجزة ومحمد بن علي وأبو جعفر القارئ: ﴿أجعلتم سُقاة الحاجِّ وعَمَرة المسجد الحرام﴾[(٢)].

وقرأها كذلك ابن جبير إلا أنه نصب (المسجد) على إرادة التنوين في (عمرة)[(٣)].

وقرأ الضحاك وأبو وجزة وأبو جعفر القارئ: (سُقاية الحاج) بضم السين (وعمرة)[(٤)].

فأما من قرأ: ﴿سِقَايَةَ ... وَعِمَارَةَ﴾ ففي الكلام عنده محذوف إما في أوله وإما في آخره[(٥)]، فإما أن يقدر: أجعلتم أهل سقاية، وإما أن يقدر: كفعلِ مَن آمن بالله.

وأما من قرأ: ﴿سُقاة... وعَمَرة﴾ فنمط قراءته مستوٍ.

وأما قراءة الضحاك فجمع ساقٍ إلا أنه ضُمَّ أولُه كما قالوا: عِرْف وعُراف وظِئر وظُؤار، وكان قياسه أن يقال: سُقاء، وإن أُنث كما أنث من الجموع حجارة وغيره،

---

(١) في الأسدية: «ولا يخشى».

(٢) انظر عزو الأولى لأبي جعفر في النشر (٢/ ٢٧٨) حيث قال: انفرد بها الشطوي عن ابن هارون في رواية ابن وردان،.. وهي رواية ميمونة والقورسي عن أبي جعفر، وأحمد بن جبير الأنطاكي عن ابن جماز، وعزاها له وللباقين في المحتسب (١/ ٢٨٥).

(٣) وهي شاذة عزاها له في مختصر الشواذ (ص: ٥٦).

(٤) انظر عزوها للضحاك في الشواذ للكرماني (ص: ٢١١)، وليست في طرق النشر، وفي الأسدية: «أبو وفرة»، بدل «وجزة».

(٥) في جار الله: «إما في أوله بتقدير أجعلتم أهل سقاية...».

[فكان القياس سقية[١] من أول مرة[٢] على التأنيث، قاله ابن جني][٣].

وسِقايَةُ الْحاجِّ كانت في بني هاشم، وكان العباس يتولاها، قال الحسن: ولما نزلت هذه الآية قال العباس: ما أراني إلا أترك السقاية، فقال النبي ﷺ: «أقيموا عليها فإنها لكم خير»[٤].

و(عِمارَةُ الْمَسْجِدِ) [قيل: هي حفظه من الظلم فيه ويقول هُجْرا، وكان ذلك إلى العباس، وقيل][٥]: هي السِّدانة خدمةُ البيت خاصةً، وكانت في بني عبد الدار، [وكان يتولاها عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، واسم أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عبد الدار][٦]، وشيبة بن عثمان بن أبي طلحة المذكور، هذان هما اللذان دفع إليهما رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة في ثاني يوم الفتح بعد أن طلبه العباس وعلي رضي الله عنهما، وقال ﷺ لعثمان وشيبة: «يوم وفاء وبر، خذوها خالدة تالدة لا ينازعكموها إلا ظالم»[٧].

قال القاضي أبو محمد: يعني السدانة، واختلف الناس في سبب نزول هذه الآية فقيل: إن كفار قريش قالوا لليهود: إنَّا نسقي الحجيج ونعمر البيت، أفنحن أفضل أم

---

(١) في التركية ونجيبويه وجار الله ونور العثمانية: «سقاية».

(٢) في التركية والأسدية وجار الله ونور العثمانية: «أمره».

(٣) المحتسب (١/ ٢٨٦)، وما بين المعكوفتين ساقط من المطبوع، وكذا من أحمد٣ من قوله: «وقراءة الضحاك».

(٤) مرسل، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ١٧١) من طريق عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر، عن عمرو، عن الحسن قال: نزلت في علي، وعباس، وعثمان، وشيبة، تكلموا في ذلك...، وعمرو هو ابن دينار، والحسن هو ابن محمد بن على بن أبي طالب، وهذا مرسل.

(٥) ساقط من التركية، في نجيبويه: «أيقول عجرا»، بدل «هجرا».

(٦) ساقط من الأسدية، والمعروف أنه عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، انظر: نسب قريش (١ / ٨٠).

(٧) هذا الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ١٥٥) من حديث عبد الله بن المؤمل عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس مرفوعاً، وابن المؤمل ضعيف، وأورده ابن عدي في ترجمته من الكامل (٤/ ١٣٧).

محمد (ﷺ) ودينه؟ فقالت لهم أحبار اليهود: بل أنتم، فنزلت الآية في ذلك.

وقيل: إن الكفار افتخروا بهذه الأشياء فنزلت الآية في ذلك[١].

وأسند الطبري إلى النعمان بن بشير[٢] أنه قال: كنت عند منبر النبي ﷺ في نفر من أصحابه، فقال أحدهم: ما أتمنى بعد الإسلام إلا أن أكون ساقي الحاج، وقال الآخر: إلا أن أكون خادم البيت وعامره، وقال الثالث: إلا أن أكون مجاهداً في سبيل الله، فسمعهم عمر بن الخطاب فقال: اسكتوا حتى أدخل على النبي ﷺ فأستفتيه، فدخل عليه فاستفتاه فنزلت الآية في ذلك[٣].

وقال ابن عباس والضحاك: إن المسلمين عيروا أسرى بدر بالكفر، فقال العباس: بل نحن سقاة الحاج وعمرة البيت، فنزلت الآية في ذلك[٤].

وقال مجاهد: أمروا بالهجرة فقال العباس: أنا أسقي الحاج، وقال عثمان بن طلحة: أنا حاجب للكعبة فلا نهاجر، فنزلت: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾[٥]، وقال مجاهد: وهذا كله قبل فتح مكة[٦]، وقال محمد / بن كعب: إن العباس وعلياً وعثمان بن طلحة تفاخروا، فقال العباس: أنا ساقي الحاج، وقال عثمان: أنا عامر البيت ولو شئت بتُّ فيه، وقال علي: أنا صاحب جهاد الكفار مع النبي ﷺ، والذي آمنت وهاجرت قديماً، فنزلت الآية في ذلك[٧]. [٢/ ٢٢٩]

---

(١) قاله بنحوه: قتادة، أخرجه الطبري (٨/ ٤٧٠) عنه قال: «ذكر لنا».

(٢) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجيّ، مشهور. له ولأبيه صحبة، كان أوّل مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة بأربعة عشر شهراً، استعمله معاوية على الكوفة، ثم نقله معاوية إلى حمص، ولما مات معاوية بن يزيد، دعا إلى ابن الزّبير ثم دعا إلى نفسه، فواقعه مروان بن الحكم بعد أن واقع الضّحاك بن قيس، فقتل النّعمان، وذلك في سنة (٦٥هـ). الإصابة (٦/ ٣٤٦)

(٣) صحيح، هذا الحديث أخرجه مسلم (١٨٧٩)، وانظر: تفسير الطبري (١٤/ ١٧٠).

(٤) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ١٧٠) من طريقين ضعيفين عن ابن عباس.

(٥) تفسير الطبري (١٤/ ١٧٦).

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ١٧٦)، وتفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢٤٤).

(٧) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ١٧١) من طريق ابن وهب قال، أخبرتُ عن أبي صخر =

قوله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

لما حكم الله تعالى في الآية المتقدمة بأن الصنفين لا يستوون، بَيَّن ذلك في هذه الآية الأخيرة وأوضحه، فعدَّد الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس، وحكَمَ أن أهل هذه الخصال أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ الله من جميع الخلق، ثم حكم لهم بالفوز برحمته ورضوانه، و«الفوز»: بلوغ البغية إما في نيل رغبته أو نجاة من مهلكة، ويَنظر إلى معنى هذه الآية الحديث الذي جاء: «دعوا لي أصحابي، فلو أن أحدَكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلَغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه»[١].

قال القاضي أبو محمد: لأن أصحاب هذه الخصال على سيوفهم انبنى الإسلام، وهم رَدوا الناس إلى الشرع.

وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ الآية، هذه آية وعد، وقراءة الناس: [﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ بضم الياء وكسر الشين المشددة، وقرأ الأعمش وطلحة بن مصرِّف وحميد بن هلال][٢]: ﴿يَبْشُرهم﴾ بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين خفيفة[٣].

= قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يقول: افتخر طلحة... ولم يذكر ابن وهب من أخبره، ولا ذُكر سماع محمد بن كعب القرظي للخبر.

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤٠) بلفظ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم...» بمثله.

(٢) ساقط من التركية، وهو حميد بن هلال العدوي عدي تميم، بصري نبيل، روى عن عبد الله بن مغفل، وأنس بن مالك، وعنه أيوب، وشعبة، وجرير بن حازم، ما كان بالبصرة أحد أجل منه، وموته قريب من موت قتادة. تاريخ الإسلام (٧/ ٣٥١).

(٣) «خفيفة» ليست في نجيبويه، والقراءتان سبعيتان، والثانية لحمزة والكسائي على قاعدتها، كما تقدم في =

وأسند الطبري إلى جابر بن عبد الله أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله عز وجل: أعطيتكم أفضل من هذا[١]، فيقولون: ربنا أيُّ شيء أفضلُ من هذا؟ قال: رضواني»[٢]، وفي البخاري في كتاب السنة منه: «فلا أسخط عليكم أبدا»[٣].

وقرأ الجمهور: ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ بكسر الراء، وقرأ عاصم وعمرو: ﴿ورُضوان﴾ بضم الراء[٤]، وقرأ الأعمش بضم الراء والضاد جميعاً، قال أبو حاتم: لا يجوز هذا.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ﴾ الآية، ظاهر هذه المخاطبة أنها لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة، وروت فرقة أن هذه الآية إنما نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفر، فالمخاطبة على هذا هي للمؤمنين الذين كانوا في مكة وغيرها من بلاد العرب، خوطبوا بأنْ لا يوالوا الآباء والإخوة فيكونون لهم تبعاً في سكنى بلاد الكفر.

ولم يذكر الأبناء في هذه الآية إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التبع للآباء، و«إخوان» في هذه الآية جمع أخ النسب، وكذلك هو في قوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

وقرأ عيسى بن عمر: (أَن استحبوا) بفتح الألف من (أنْ)[٥]، وقرأ الجمهور: ﴿إِنِ﴾ بكسر الألف على الشرط.

= آل عمران، انظر: التيسير (ص: ٨٧)، فما ذكر هنا إبعاد للنجعة، وقد تابعه عليه في البحر المحيط (٥/ ٣٩٠)، وما هناك تخليط.

(١) في نجيبويه وجار الله زيادة: «كله».

(٢) رواه الطبري موقوفاً على جابر (١٤/ ١٧٦)، وروي مرفوعاً، ويغني عنه ما أخرجه الشيخان بنحوه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٦٥٤٩) (٧٥١٨) ومسلم (٢٨٢٩).

(٤) تقدم أن ضم الراء رواية شعبة في كل القرآن عدا الحرف الثاني من المائدة، انظر: التيسير (ص: ٨٦)، وتقدم أيضاً أن قراءة الأعمش بضم الضاد شاذة.

(٥) وهي شاذة، عزاها له وهو الهمداني ولعبيد بن عمير الكرماني في شواذ القراءات (ص: ٢١١).

و﴿ ٱسۡتَحَبُّواْ ﴾ متضمَّنة معنى: فضلوا وآثروا، ولذلك تعدت بـ﴿ عَلَى ﴾، ثم حكم الله عز وجل بأن من والاهم واتبعهم في أغراضهم فإنه ظالم، أي: واضع للشيء غير موضعه، وهذا ظلم المعصية لا ظلم الكفر.

قوله عز وجل: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤ ﴾.

هذه الآية تقوِّي مذهب من رأى أن هذه والتي قبلها إنما مقصودها الحض على الهجرة.

وفي ضمن قوله: ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ وعيد بيِّن.

وقوله: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ قال الحسن: الإشارة إلى عذاب أو عقوبة من الله، وقال مجاهد: الإشارة إلى فتح مكة[1]، والمعنى: فإذا جاء الله بأمره فلم تسلبوا ما يكون لكم أجرا ومكانة في الإسلام.

قال القاضي أبو محمد: وذُكر الأبناء في هذه الآية لَمَّا جَلبت ذكرَهم المحبة، والأبناء صَدْرٌ في المحبة، وليسوا كذلك في أنْ [يتبعهم آباؤهم في آرائهم][2] كما في الآية المتقدمة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾.

وقرأ عاصم وحده بخلاف عنه وأبو رجاء وأبو عبد الرحمن وعصمة: ﴿وعشيرَاتُكم﴾[3].

---

(١) انظر قول مجاهد في تفسير الطبري (١٤/ ١٧٨)، والقولين في تفسير الماوردي (٢/ ٣٤٩).
(٢) في الأصل ونجيبويه ونور العثمانية وجار الله: تتبع آراؤهم، وفي التركية وأحمد٣: تتبعهم آباؤهم.
(٣) وهي سبعية من رواية شعبة كما في التيسير (ص: ١١٨)، وغير حفص كما في جامع البيان (٣/ ١١٥٠)، عزاها لأبي رجاء في تفسير الثعلبي (٥/ ٢١)، وللسلمي في الدر المصون (٦/ ٣٤).

وحَسُن هذا الجمع إذ لكل أحد عشيرة [تختص به، ويحسِّن الإفراد أن أبا الحسن الأخفش قال: إنما تجمع العرب عشائر][١]، ولا تكاد تقول: عشيرات[٢].

و﴿ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾: معناه: اكتسبتموها، وأصل الاقتراف والمقارفة: مقارَبة الشيء.

﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا﴾ بيِّن في أنواع المال، وقال ابن المبارك: الإشارة إلى البنات اللواتي لا يتزوجن ولا يوجد لهن خاطب[٣].

و(مساكن) جمع مسكن بفتح الكاف مَفعل من السكنى، وما كان من هذا معتلَّ الفاء فإنما يأتي على مِفعل بكسر العين كموعد وموطن، والمساكن: القصور والدور.

و﴿أَحَبَّ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وكان الحجاج بن يوسف يقرؤها: (أحبُّ) بالرفع، وله في ذلك خبر مع يحيى بن يَعْمَرَ، سأله الحجاج: هل تسمعني ألحن؟ قال: نعم، في هذا الحرف، وذكر له رفع (أحب) فنفاه[٤].

قال القاضي أبو محمد: وذلك خارج في العربية على أن يضمر في «كَانَ» الأمر والشأن، ولم يقرأ بذلك.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ عموم لفظ يراد به الخصوص فيمن يوافي على فسقه، أو عموم مطلق على أنه لا هداية من حيث الفسق.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ

---

(١) ساقط من التركية.

(٢) تفسير البغوي (٢/ ٣٢٨)، وزاد المسير (٢/ ٢٤٥).

(٣) تفسير السمعاني (٢/ ٢٩٨).

(٤) انظر القراءة في الشواذ للكرماني (ص: ٢١١)، والقصة في طبقات فحول الشعراء (١/ ١٣)، وتاريخ دمشق (١٢/ ١٥١).

جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

هذه مخاطبة لجميع المؤمنين يعدِّد الله نعمه عليهم.

و﴿مَوَاطِنَ﴾ جمع موطِن بكسر الطاء، و«الموطن»: موضع الإقامة أو الحلول؛ لأنه أول الإقامة، والمواطن المشار إليها: بدر والخندق والنضير وقريظة، ولم يصرِف ﴿مَوَاطِنَ﴾ / لأنه جمع، ونهايةُ جمع[1]. [٢/ ٢٣٠]

و(يوم): عطفٌ على موضع قوله: ﴿فِى مَوَاطِنَ﴾، أو على لفظِهِ بتقدير: وفي يوم، فانحذف حرف الخفض، و﴿حُنَيْنٍ﴾: واد بين مكة والطائف قريبٌ من ذي المَجاز، [وصرف حين][2] أريد به الموضع والمكان، ولو أريد به البقعة لم يصرف، كما قال الشاعر:

[الكامل]
نـصـروا نبِيَّهـمُ وشَـدُّوا أَزْرَهُ   بِحُنَيْـنَ يـوم تـواكُلِ الأبْطَـالِ[3]

وقوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ روي أن رسول الله ﷺ قال حين رأى جملته اثني عشر ألفاً قال: «لن نُغلب اليوم من قلة»، وروي أن رجلاً من أصحابه قالها[4]،

(١) «جمع»: ساقطة من الأسدية.

(٢) في نجيبويه: «وصرف حنين لأنه».

(٣) البيت لحسان كما في معجم ما استعجم (٢/ ٤٧٢)، والإنصاف لابن الأنباري (٢/ ٤٠٤).

(٤) لا يصح، لم أجد هذا القول منسوباً للنبي ﷺ إلا هكذا، والمنقول في هذا أنه من قول بعض المسلمين، ومع ذلك لا يثبت، أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسلاً: أن رجلا قال يوم حنين: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على رسول الله، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، ورواه البزار (١٣/ ١٢٨) من طريق علي بن عاصم، حدثنا سليمان التيمي، عن أنس، قال: قال غلام منا من الأنصار يوم حنين: لن نهزم اليوم من قلة، فما هو إلا أن لقينا عدونا فانهزم القوم، قال البزار: وهذا الحديث لا نعلم أحداً رواه بهذا اللفظ إلا سليمان التيمي، عن أنس، ولا نعلم رواه عن سليمان إلا علي بن عاصم. اهـ. وعلي بن عاصم بن صهيب ضعيف، وروى الطبري (١٤/ ١٨١) من طريق: أحمد بن المفضل قال: حدثنا أسباط، عن السدي: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ الآية: أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين قال: يا رسول الله، لن نغلب اليوم من قلة... وهذا مرسل.

فأراد الله إظهار العجز، فظهر حين فر الناس، ثم عطف القَدَر بنصره.

وقوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: بقَدْرِ ما هي رحبة واسعة لشدة الحال وصعوبتها، فـ(ما) مصدرية.

وقوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ يريد فرار الناس عن النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد: واختصار هذه القصة: أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة وكان في عشرة آلاف من أصحابه، وانضاف إليه ألفان من الطلقاء فصار في اثني عشر ألفاً، سمع بذلك كفار العرب فشق عليهم، فجمعت له هَوازنُ وألفافُها وعليهم مالك ابن عوف النَّصْري[١]، وثَقيفٌ وعليهم عبد ياليل بن عمر[٢]، وانضاف إليهم أخلاط من الناس حتى كانوا ثلاثين ألفاً، فخرج إليهم رسول الله ﷺ حتى اجتمعوا بحنين، فلما تصافَّ الناس حمل المشركون من مجاني الوادي، فانهزم المسلمون.

قال قتادة: ويقال: إن الطلقاء من أهل مكة فروا وقصدوا إلقاء الهزيمة في المسلمين[٣].

وكان رسول الله ﷺ على بغلة شهباء[٤]، وقال أبو عبد الرحمن الفهري[٥]: كنت مع النبي ﷺ يومئذ، وكان على فرس قد اكتنفه العباسُ عمه، وابنُ عمه أبو سفيان بن الحارث بن

---

(١) تحرفت في أحمد٣ إلى: «النضري»، وفي الأسدية إلى: «النظري».

(٢) هو عبد يالِيل بن عمرو بن عُمير بن عوف الثقفي كان أبوه عظيم القريتين، وسيد ثقيف، يكنى أبا مسعود، وهو أبو كنانة وحبيب وعمرو، وعمُّ عروة، انظر خبره في الجوهرة في نسب النبي ﷺ (١/ ٤١٠)، وأنساب الأشراف للبلاذري (١٣/ ٤٤٠).

(٣) «في المسلمين»: ساقطة من الأسدية.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ١٨٠).

(٥) هو يزيد بن أنيس بن عبد الله الفهري القرشي المحاربي، أبو عبد الرحمن، مشهور بكنيته، وقيل: اسمه عبد. وقيل: كردوس. وقيل: الحارث، صحابي شهد فتح مصر، واختط بها، وله بها عقب، ولا رواية له بمصر، وروى عنه أبو همام. الإصابة (٦/ ٥٠٨).

عبد المطلب، وبين يديه أيمن بن أم أيمن[١]، وثَمَّ قتل رحمه الله[٢]، فلما رأى رسول الله ﷺ شدة الحال نزل عن بغلته إلى الأرض، قاله البراء بن عازب[٣]، واستنصر الله عز وجل، فأخذ قبضة من تراب وحصىً، فرمى بها وجوه الكفار، وقال: «شاهت الوجوه»[٤].

وقال أبو عبد الرحمن: تطاول من فرسه فأخذ قبضة التراب ونزلت الملائكة لنصره، ونادى رسول الله ﷺ: يا للأنصار، وأمر رسول الله ﷺ العباس[٥] أن ينادي: أين أصحاب الشجرة؟ أين أصحاب سورة البقرة؟ ، فرجع الناس عُنُقاً واحداً وانهزم المشركون[٦].

قال يعلى بن عطاء[٧]: فحدثني أبناؤهم عن آبائهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا دخل في عينيه من ذلك التراب[٨]، واستيعاب هذه القصة في كتاب السير.

وظاهر كلام النحاس أن رسول الله ﷺ كان في أربعة عشر ألفاً[٩]، وهذا غلط.

و﴿مُّدْبِرِينَ﴾ نصب على الحال المؤكِّدة، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١]، والمؤكِّدة: هي التي يدل ما قبلها عليها كدلالة التولي على الأدبار.

---

(١) هو أيمن بن عبيد بن زيد بن عمرو الخزرجي، وقيل: الحبشي، أخو أسامة بن زيد لأمّه، استشهد يوم حنين: الإصابة (١/ ٣١٦).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٣٠) ومسلم (١٧٧٦).

(٤) صحيح، هذا الحديث أخرجه مسلم (١٧٧٧).

(٥) كلمة «العباس»: ساقطة من الأسدية.

(٦) صحيح، هذا الحديث أخرجه النسائي (٥/ ١٩٤، ١٩٧) من طريق الزهري عن كثير بن العباس بن عبد المطلب، عن أبيه. وأخرجه مسلم (١٧٧٥) بلفظ: «أين أصحاب السمرة».

(٧) هو يعلى بن عطاء العامري الطائفي نزيل واسط، روى عن: أبيه، ووكيع بن عدس، وعمارة بن حديد، وعمرو بن الشريد، وجماعة، وعنه: شعبة، وحماد بن سلمة، وشريك، وأبو عوانة، وهشيم، وثقه أحمد، توفي سنة (١٢٠هـ). تاريخ الإسلام (٧/ ٥٠٧).

(٨) تفسير الثعلبي (٥/ ٢٣)، وانظر القصة كاملة في سيرة ابن هشام (١/ ٦٢٨).

(٩) معاني القرآن للنحاس (٣/ ١٩٤).

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ ﴾ الآية: ﴿ ثُمَّ ﴾ هاهنا على بابها من الترتيب، و«السكينة»: النصر الذي سكنت إليه ومعه النفوس والحال، والإشارة بالمؤمنين إلى الأنصار على ما روي، وذلك أن رسول الله ﷺ نادى في ذلك اليوم: «يا معشر الأنصار»، فانصرفوا(١) وهم رَدُّوا الهزيمة، والجنود: الملائكة، والرعب: قال أبو حاجر يزيد بن عامر(٢): كان في أجوافنا مثلُ ضربة الحجر في الطَّسْت من الرعب(٣).

و«عذاب الذين كفروا»: هو القتل الذي استحرَّ فيهم، والأسرُ الذي تمكن في ذراريهم، وكان مالك بن عوف النَّصْري قد أخرج الناس بالعيال والذراري ليقاتلوا عليها، فخطأه في ذلك دريد بن الصمة، وقال لمالك بن عوف: راعي ضأن، وهل يردُّ المنهزم شيء؟(٤).

وفي ذلك اليوم قتل دريد بن الصمة القِتْلَةَ المشهورة، قتله ربيعة بن رفيع بن أهبان السلمي، ويقال: ابن الدَّغِنَّة(٥).

وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ إعلامٌ بأن من أسلم وتاب من الكفار الذين نجوا ذلك اليوم فإنهم مقبولون مسلمون موعودون بالغفران والرحمة.

قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨ ﴾.

---

(١) أي: عادوا وكروا على جيش المشركين.

(٢) هو يزيد بن عامر بن الأسود بن حبيب بن سواءة بن عامر بن صعصعة، أبو حاجر السّوائي، له صحبة، روى عن النبيِّ ﷺ في الصَّلاة، وكان شهد حنيناً مع المشركين ثم أسلم، الإصابة (٦/ ٥٢٣).

(٣) روى نحوه عبد بن حميد في مسنده (٤٣٩) والبخاري في التاريخ الكبير (٨/ ٣١٦) من طريق سعيد بن السائب الطائفي، قال: حدثنا أبي السائب بن يسار، قال: سمعت يزيد بن عامر السوائي به، والسائب ترجمه البخاري (٤/ ١٥٥) بهذه الرواية، ولم أر من وثقه.

(٤) انظر القصة كاملة في شأن غزوة حنين في سيرة ابن هشام (٢/ ٤٣٧)، و«راعي ضأن»: ساقط من التركية.

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤٥٢)، وفي الأصل: «الدغية»، وهو خطأ، وهو ربيعة بن رفيع بن ثعلبة ابن ضبيعة السلميّ، كان يقال له: ابن الدغنّة، وهي أمُّه، وهو الذي قتل دريد بن الصمة في غزوة حنين. الإصابة (٢/ ٣٨٦).

قال قتادة ومعمر بن راشد وغيرهما: صفة المشرك بالنجس إنما كانت لأنه جُنُب، إذ غُسله من الجنابة ليس بغسلٍ[١]، وقال ابن عباس وغيره: بل معنى الشرك هو الذي نجَّسه كنجاسة الخمر[٢]، قال الحسن البصري: مَن صافح مشركاً فليتوضأ[٣].

قال القاضي أبو محمد: فمن قال: بسبب الجنابة، أوجب الغسل على مَن يُسلم من المشركين، ومَن قال بالقول الآخر لم يوجب الغسل[٤]، والمذهب كله على القول بإيجاب الغسل إلا ابن عبد الحكم فإنه قال: ليس بواجب[٥].

وقرأ أبو حيوة: (نِجْس) بكسر النون وسكون الجيم[٦].

ونص الله تعالى في هذه الآية على المشركين وعلى المسجد الحرام، فقاس مالك رحمه الله وغيره جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم على المشركين، وقاس سائرَ المساجد على المسجد الحرام، ومنع من دخول الجميع في جميع المساجد، وكذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله، ونزع في كتابه بهذه الآية[٧]، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦].

وقال الشافعي: هي عامةٌ في الكفار خاصةٌ في المسجد الحرام، فأباح دخول اليهود

---

(١) انظر قول قتادة ومعمر في تفسير الطبري (١٤/ ١٩١)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٧).

(٢) أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٧٧٥) من طريق بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ قال: النجس: الكلب والخنزير. وهذا الإسناد واهٍ. قال الطبري (١٤/ ١٩١): وقال آخرون: معنى ذلك: ما المشركون إلا رجس خنزير أو كلب، وهذا قول روي عن ابن عباس من وجه غير حميد، فكرهنا ذكره.

(٣) انظر قول الحسن في مصنف ابن أبي شيبة (٥/ ٢٤٧)، في المصافحة عند السلام من رخص فيها.

(٤) للتوسع في أقوال العلماء في المسألة انظر: المغني (١/ ١٣٢).

(٥) انظر مذهب مالك في الكافي (١/ ١٥٢)، وانظر قول ابن عبد الحكم في تفسير القرطبي (٨/ ١٠٣).

(٦) وهي شاذة ذكرها في البحر المحيط (٥/ ٣٩٨)، وعزاها الكرماني في شواذ القراءات (ص: ٢١١) للحسن بن عمران.

(٧) انظر ما عزاه لمالك وقول عمر بن عبد العزيز في المسألة في شرح البخاري لابن بطال (٢/ ١١٧).

والنصارى والوثنيين في سائر المساجد[١]، ومن حجته حديث ربط ثُمامة بن أُثال[٢].

وقال أبو حنيفة: هي خاصةٌ في عبدة الأوثان وفي المسجد الحرام، فأباح دخول اليهود والنصارى في المسجد الحرام وغيره، ودخول عبدة الأوثان في سائر المساجد[٣].

[٢/ ٢٣١] وقال عطاء: وصفُ المسجد بالحرام ومنع القرب منهم / يقتضي منعهم من جميع الحرم[٤].

قال القاضي أبو محمد: وقوة قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا﴾ يقتضي أمر المسلمين بمنعهم، وقال جابر بن عبد الله وقتادة: لا يقرب المسجدَ الحرام مشركٌ إلا أن يكون صاحبَ جزية أو عبداً لمسلم[٥]، وعبدة الأوثان مشركون بإجماع[٦]، واختلف في أهل الكتاب: فمذهب عبد الله بن عمر وغيره أنهم مشركون، وقال جمهور أهل العلم: ليسوا بمشركين[٧]، وفائدة هذا الخلاف تتبين في فقه مناكحهم وذبائحهم وغير ذلك.

وقوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ يريد: بعد عام تسع من الهجرة، وهو عام حجَّ أبُو بكر بالناس وأذَّن عليٌّ بسورة براءة.

وأما قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ قال عمرو بن فائد: المعنى: وإذ خفتم[٨].

قال القاضي أبو محمد: وهذه عُجمة، والمعنى بارع بـ(إن).

(١) انظر ما عزاه للشافعي من قول واحتجاج في الحاوي للماوردي (٢/ ٢٦٩).
(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٤٦٢) (٤٦٩) (٢٤٢٢) ومسلم (١٧٦٤) من حديث أبي هريرة.
(٣) أحكام القرآن للجصاص (٤/ ٢٧٩).
(٤) تفسير الطبري (١٤/ ١٩١).
(٥) انظر ما عزاه لجابر وقتادة في الحاوي للماوردي (١٤/ ٣٣٤).
(٦) انظر الإجماع على ذلك في الإقناع (٣/ ١٠٧٣).
(٧) انظر قول ابن عمر والجمهور في الاستذكار (٥/ ٤٧٦).
(٨) تفسير الطبري (١٤/ ١٩٣).

وكان المسلمون لما مَنَع المشركون من الموسم، وهم كانوا يجلبون الأطعمة والتجارات، قذف الشيطان في نفوسهم الخوف من الفقر، وقالوا: من أين نعيش؟ فوعدهم الله بأن يغنيهم من فضله، قال الضحاك: ففتح عليهم باب أخذ الجزية من أهل الذمة، بقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[١].

وقال عكرمة: أغناهم بإدرار المطر عليهم[٢].

قال القاضي أبو محمد: وأسلمت العرب فتمادى حجهم وتَجْرهم، وأغنى الله من فضله بالجهاد والظهور على الأمم.

و«العيلة»: الفقر، يقال: عال الرجل يعيل عيلة: إذا افتقر، قال الشاعر:

وَمَـا يَـدْرِي الفَقِيـرُ مَتَـى غِنَـاهُ وَمَا يَـدْرِي الغَنِـيُّ مَتَـى يَعِيلُ[٣] [الوافر]

وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود: (عَائِلة)[٤]، وهو مصدر كالقائلة من قال يَقيل، وكالعاقبة والعافية، ويحتمل أن تكون نعتاً لمحذوف تقديره: حالاً عائلة، وحكى الطبري أنه يقال: عال يعول، إذا افتقر[٥].

قوله عز وجل: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

هذه الآية تضمنت قتال أهل الكتاب من اليهود والنصارى حتى يُقتلوا أو يؤدوا الجزية، قال مجاهد: وعند نزول هذه الآية أخذ رسول الله ﷺ في غزو الروم، ومشى

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٩٥)، وتفسير الثعبي (٥/ ٢٥)، بتصرف.
(٢) تفسير الطبري (١٤/ ١٩٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٧٧).
(٣) البيت لأحيحة بن الجلاح كما في جمهرة أشعار العرب (ص: ٥١٧)، وجمهرة اللغة (١/ ٥٩)، وحماسة الخالديين (ص: ٢٠).
(٤) وهي شاذة، نقلها عنه النحاس في معاني القرآن (٣/ ١٩٦) عن مصحف ابن مسعود.
(٥) تفسير الطبري (١٤/ ١٩٣).

نحو تبوك[١]، ومَن جعل أهل الكتاب مشركين فهذه الآية عنده ناسخة بما فيها من أخذ الجزية لقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥].

ونفى عنهم الإيمان بالله واليوم الآخر من حيث تركوا شرع الإسلام الذي يجب عليهم الدخولُ فيه، فصار جميع ما لهم في البعث وفي الله عز وجل من تخيلات واعتقادات لا معنى لها، إذ تلقوها من غير طريقها، وأيضاً فلم تكن اعتقاداتهم مستقيمةً لأنهم تشعبوا وقالوا: عزيرٌ ابن الله، والله ثالث ثلاثة، وغير ذلك، ولهم أيضاً في البعث آراء كشراء منازل الجنة من الرهبان، وقول اليهود في النار: نكون فيها أياماً بعد[٢]، ونحو ذلك.

وأما قوله: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فبيِّن، ونصٌّ على مخالفتهم لمحمد ﷺ.

وأما قوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ﴾ فمعناه: ولا يطيعون ويمتثلون، ومنه قول عائشة: ما عقلت أبوي إلا وهما يدينان الدِّين[٣]، والدينُ في اللغة لفظة مشتركة، وهي هاهنا الشريعة، وهي مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وأما قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فنص في بني إسرائيل وفي الروم، وأجمع الناس على ذلك[٤]، وأما المجوس فقال ابن المنذر: لا أعلم خلافاً في أن الجزية تؤخذ منهم[٥].

قال القاضي أبو محمد: ورُوي أن رسول الله ﷺ قال: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب»[٦]، فقال كثير من العلماء: معنى ذلك في أخذ الجزية منهم، وليسوا أهل

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٢٠٠)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٨).
(٢) في نجيبويه: «تعد»، وفي نور العثمانية: «معدودات»، وفي المطبوع وأحمد٣: «بعدد»، وكلها صواب.
(٣) صحيح، هذا الحديث أخرجه البخاري (٤٧٦) (٢٢٩٧) (٣٩٠٥) (٦٠٧٩).
(٤) انظر الإجماع على أخذ الجزية ممن ذكرهم المؤلف في الإقناع (٣/ ١٠٧١).
(٥) انظر قول ابن المنذر في الإجماع (١/ ٦٢).
(٦) منقطع ومعناه صحيح، أخرجه مالك في الموطأ (٩٦٨) قال: عن جعفر بن محمد بن علي، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم. فقال عبد الرحمن بن عوف: =

الكتاب[١]، فعلى هذا لم يتعدَّ التشبيه إلى ذبائحهم ومناكحهم، وهذا هو الذي ذكره ابن حبيب في «الواضحة»[٢]، وقال بعض العلماء: معناه: سنوا بهم سنة أهل الكتاب إذ هم أهل كتاب، فعلى هذا يتجه التشبيه في ذبائحهم وغيرها، والأول هو قول مالك وجمهور أصحابه[٣]، وروي أنه قد كان بعث في المجوس نبي اسمه زرادشت[٤].

وأما مجوس العرب فقال ابن وهب: لا تقبل منهم جزية، ولا بد من القتال أو الإسلام، وقال سَحْنون وابن القاسم وأشهب: تؤخذ الجزية من مجوس العرب والأمم كلها[٥].

وأما عبدة الأوثان من العرب فلم يستثن الله فيهم جزية، ولا بقي منهم على الأرض بشر، قال ابن حبيب: وإنما لهم القتال أو الإسلام، وهو قول أبي حنيفة[٦].

قال القاضي أبو محمد: ويوجد لابن القاسم أن الجزية تؤخذ منهم، وذلك أيضاً في «التفريع» لابن الجلاب وهو احتمال لا نص[٧]، وأما أهل الكتاب من العرب فذهب

= أشهد لسمعت من رسول الله ﷺ يقول... قال ابن عبد البر في التمهيد (٢/ ١١٤): هذا حديث منقطع؛ لأن محمد بن علي لم يلق عمر ولا عبد الرحمن بن عوف، رواه أبو علي الحنفي عن مالك فقال فيه: عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده، وهو مع هذا أيضاً منقطع؛ لأن علي بن حسين لم يلق عمر ولا عبد الرحمن بن عوف، قال أبو الحسن علي بن عمر: لم يقل في هذا الإسناد عن جده ممن حدث به غير أبي علي الحنفي، وكان ثقة، وهو في الموطأ: جعفر عن أبيه أن عمر. قال أبو عمر: وهو مع هذا كله منقطع، ولكن معناه متصل من وجوه حسان. اهـ.

(١) قد نقل ابن عبد البر إجماع العلماء على هذا القول، انظر: التمهيد (٢/ ١١٦).

(٢) انظر ما عزاه لابن حبيب في: النوادر (٣/ ٣٥٥).

(٣) انظر ما عزاه لمالك وجمهور أصحابه في: الاستذكار (٣/ ٢٤٢).

(٤) تفسير القرطبي (٨/ ١١١).

(٥) انظر هذه الأقوال مجتمعة في: النوادر (٣/ ٤٣).

(٦) انظر قول ابن حبيب في: النوادر (٣/ ٣٥٥)، ومذهب أبي حنيفة في: مختصر اختلاف العلماء للطحاوي (٣/ ٤٨٤).

(٧) انظر: التفريع (١/ ٣٦٣)، وانظر ما نسبه لابن القاسم في: النوادر (٣/ ٤٣).

مالك رحمه الله إلى أن الجزية تؤخذ منهم[١]، وأشار إلى المنع من ذلك أبو حنيفة[٢].

وأما السامرة والصابئون فالجمهور على أنهم من اليهود والنصارى تؤخذ منهم الجزية وتؤكل ذبائحهم، وقالت فرقة: لا تؤكل ذبائحهم، وعلى هذا لا تؤخذ الجزية منهم، ومنع بعضهم الذبيحة مع إباحة أخذ الجزية منهم.

وأما عبدة الأوثان والنيران وغير ذلك فجمهور العلماء على قبول الجزية منهم، وهو قول مالك في «المدونة»[٣]، وقال الشافعي وأبو ثور: لا تؤخذ الجزية إلا من اليهود والنصارى والمجوس فقط[٤].

ومذهب مالك رحمه الله: أن الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال البالغين الأحرار العقلاء، وهو قول الشافعي وأبي حنيفة، ولا تضرب على الصبيان والنساء والمجانين[٥]، ولا تضرب على رهبان الديارات والصوامع المنقطعين، قال مالك في «الواضحة»: وأما إن كانت قد ضربت عليهم ثم انقطعوا بعد ذلك فلا تسقط عنهم، وأما رهبان الكنائس فتضرب عليهم[٦]، واختلف في الشيخ الفاني، ومن راعى أن علتها / الإذلال أمضاها في الجميع. [٢/ ٢٣٢]

وقال النقاش: العقوبات الشرعية تكون في الأموال والأبدان، فالجزية من عقوبات الأموال[٧].

---

(١) انظر ما نسبه لمالك في: التمهيد (٢/ ١١٨).

(٢) المعروف عنه هو القول بجواز أخذ الجزية من كتابيي العرب، كما في: أحكام القرآن للجصاص (٤/ ٢٨٣).

(٣) المدونة (١/ ٤٩٦).

(٤) انظر قول الشافعي في: الحاوي للماوردي (١٤/ ١٥٢)، وانظر قول أبي ثور في: المهذب (٢/ ٤٤).

(٥) وهذا محل إجماع من العلماء، كما في المغني (٩/ ٢٧٠)، والإقناع (٣/ ١٠٧٩).

(٦) انظر قول مالك في النوادر (٣/ ٣٥٩).

(٧) قول النقاش هذا لم أقف على من ذكره غير المؤلف.

وأما قَدْرُها فذهب مالك رحمه الله وكثير من أهل العلم على ما فرضه عمر رضي الله عنه[١]، وذلك أربعة دنانير على أهل الذهب وأربعون درهماً على أهل الفضة، وفَرَضَ عمر رضي الله عنه ضيافة وأرزاقاً وكسوة، قال مالك في «الواضحة»: ويُحط ذلك عنهم اليوم لمَا حدث عليهم من اللوازم[٢]، فهذا أحد[٣] ما ذكر عن عمر، وبه أخذ مالك[٤]، قال سفيان الثوري: رُويت عن عمر ضرائب مختلفة[٥].

قال القاضي أبو محمد: وأظن ذلك بحسب اجتهاده رضي الله عنه في يُسرهم وعسرهم، وقال الشافعي وغيره: قدر الجزية دينار على الرأس[٦]، ودليل ذلك أمر رسول الله ﷺ معاذاً بذلك وأخذه جزية اليمن كذلك، أو قيمته مَعافِرَ، وهي ثياب[٧].

وقال كثير من أهل العلم: ليس لذلك في الشرع حدٌّ محدود، وإنما ذلك إلى اجتهاد الإمام في كل وقت وبحسب قوم قوم، وهذا كله في العنوة، وأما الصلح فهو ما صولحوا عليه من قليل أو كثير، واختلف في المذهب في العبد الذي يعتقه الذمي أو

---

(١) وهذا القدر مجمع على إجزائه في قدر الجزية، واختلف فيما دونه، انظر ذلك في: الإقناع (٣/ ١٠٧٥).
(٢) انظر قول مالك المنسوب للواضحة في: النوادر (٣/ ٣٥٨).
(٣) في جار الله ونور العثمانية: «آخر».
(٤) انظر قول مالك بموافقة عمر في: الاستذكار (٣/ ٢٤٥).
(٥) انظر قول الثوري في: الاستذكار (٣/ ٢٤٦).
(٦) انظر ما عزاه للشافعي في: الحاوي للماوردي (١٤/ ٦٦٢).
(٧) اختلف في اتصاله وانقطاعه، هذا الحديث أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٠)، والدارمي (١٦٣٠)، وأبو داود (١٥٧٧)، والترمذي (٦٢٣)، والنسائي (٥/ ٢٥)، وابن خزيمة (٢٢٦٧) من طريق: أبي وائل، وإبراهيم ـ مفرقين ـ عن مسروق عن معاذ به، ورواه أحمد (٥/ ٢٣٣) من طريق: أبي بكر ابن عياش، و(٥/ ٢٤٧) والدارمي (١٦٣١) (١٦٣٢) وأبو داود (١٥٧٦) و(٣٠٣٨) والنسائي (٥/ ٢٦) و(٥/ ٤٢) من طريق: عاصم، والأعمش ـ مفرقين ـ عن أبي وائل، عن معاذ، فذكره ليس فيه «مسروق»، وحكى الدارقطني الخلاف في العلل (٦/ ٦٦) وقال: «المحفوظ عن أبي وائل: عن مسروق، عن معاذ، و: عن إبراهيم مرسلاً». اهـ. وفي سماع مسروق من معاذ خلاف، والأكثر على عدم إثباته، يراجع البدر المنير لابن الملقن (٥/ ٤٢٩).

المسلم: هل تلزمه جزية أم لا؟ [١]، وقال ابن القاسم: لا ينقص أحد من أربعة دنانير كان فقيراً أو غنيّاً[٢]، وقال أصبغ: يُحط الفقير بقدر ما يرى من حاله[٣]، وقال ابن الماجشون: لا يؤخذ من الفقير شيء[٤].

و﴿ٱلْجِزْيَةَ﴾ وزنها فِعلة، من جزى يجزي: إذا كافى عن ما أسدي إليه، فكأنهم أعطوها جزاءَ ما منحوا من الأمن، وهي كالقِعْدة والجِلْسة، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

[الكامل]

يَجْزِيـك أو يُثْنِـي عليـكَ وإنَّ مَـنْ ... أثْنى عليك بما فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى[٥]

وقوله تعالى: ﴿عَن يَدٍ﴾ يحتمل تأويلات:

منها: أن يريد سَوق الذِّمي لها بيده لا مع رسول، ليكون في ذلك إذلالٌ له.

ومنها: أن يريد: عن نعمة منكم قِبَلهم في قبولها منهم وتأمينهم، واليد في اللغة النعمة والصنع الجميل.

ومنها: أن يريد: عن قوة منكم عليهم وقهر [لا تبقى لهم معه راية ولا معقل][٦]، واليد في كلام العرب: القوة، يقال: فلان ذو يد، ويقال: ليس لي بكذا وكذا يد، أي: قوة.

ومنها: أن يريد أن ينقدوها ولا يؤخَّروا بها، كما تقول: بعته يداً بيد.

---

(١) انظر الاختلاف في عتق الذمي للعبد في: الذخيرة للقرافي (٣/ ٤٥٢)، وانظر الاختلاف في عتق المسلم له في: النوادر (٣/ ٣٥٩).

(٢) انظر قول ابن القاسم في: تفسير القرطبي (٨/ ١١٢).

(٣) ما نسبه المؤلف لأصبغ لم أقف عليه.

(٤) انظر قول ابن الماجشون في: النوادر (٣/ ٣٥٩).

(٥) البيت لورقة بن نوفل كما في جمهرة نسب قريش (ص: ٤١٠)، وأنساب الأشراف (٩/ ٤٥٧)، وسمط اللآلي (١/ ٢٠٦)، ونسبه في الشعر والشعراء (١/ ٣٦٩)، والعقد الفريد (١/ ٢٣٥) لزهير بن جناب، وفي الأغاني (٣/ ١٠٨) الصحيح أنه لغريض اليهودي وهو السموأل بن عادياء أو لابنه سعية بن غريض، وقيل: إنه لزيد بن عمرو بن نفيل، وقيل: لورقة، وقيل: لزهير، وقيل: لعامر بن المجنون الجرمي.

(٦) ساقط من التركية.

ومنها: أن يريد: عن استسلام منهم وانقياد، على نحو قولهم: ألقى فلان بيده، إذا عجز واستسلم.

وقوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ لفظ يعم وجوهاً لا تنحصر لكثرتها، ذُكر منها عن عكرمة: أن يكون قابضُها جالساً والدافع من أهل الذمة قائم[1]، وهذا ونحوه داع إلى صَغارهم.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

الذي كثر في كتب أهل العلم أن فرقة من اليهود تقول هذه المقالة، وروي أنه لم يقلها إلا فنحاص، وقال ابن عباس: قالها أربعة من أحبارهم: سلام بن مِشْكم، ونعمان ابن أَوْفَى[2]، وشاس بن قيس، ومالك بن الصَّيف[3].

وقال النقاش: لم يبق يهودي يقولها بل انقرضوا[4].

قال القاضي أبو محمد: فإذا قالها واحد فيتوجه أن يَلزم الجماعةَ شنعةُ المقالة لأجل نباهة القائل فيهم، وأقوال النبهاء أبداً مشهورة في الناس يُحتج بها، فمن هنا صح أن تقول الجماعة قول نبيها[5].

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٢٠٠)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٥١)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٣٠).

(٢) في نجيبويه: «أويس»، وهو نعمان بن أوفى بن عمرو من بني قينقاع، وكان ممن تعوذ بالإسلام، ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق، من أحبار يهود. سيرة ابن هشام (١/ ٥٢٧).

(٣) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٢٠٢) من طريق: محمد بن إسحاق قال، حدثني محمد ابن أبي محمد مولى زيد بن ثابت قال، حدثني سعيد بن جبير، أو عكرمة، عن ابن عباس، وهو إسناد لا تقوم به حجة وقد مر الكلام عليه مراراً.

(٤) البحر المحيط (٥/ ٤٠٢).

(٥) تحرفت في المطبوع إلى: «نبيها».

وقرأ عاصم والكسائي: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ بتنوين ﴿عُزَيْرٌ﴾، [والمعنى أن ابناً على هذا خبر ابتداء عن ﴿عُزَيْرٌ﴾][١]، وهذا هو أصح المذاهب لأن هذا هو المعنى المنعيّ[٢] عليهم، و«عُزَيْرٌ» ونحوه ينصرف عجميّاً كان أو عربيّاً.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر: ﴿عزيرُ[٣] ابن الله﴾ دون تنوين ﴿عزير﴾، فقال بعضهم: ﴿ابن﴾ خبر عن ﴿عزيرُ﴾، وإنما حذف التنوين من ﴿عزيرُ﴾ لاجتماع الساكنين، ونحوه قراءة من قرأ: (أَحَدُ الله الصَّمَدُ)[٤]، قال أبو علي: «وهو كثير في الشعر»[٥]، وأنشد الطبري في ذلك:

[الرجز]

لَتَجِدَنِّي بِالأَمِيرِ بَرّاً وَبِالقَنَاةِ مِدْعَساً مِكَرَّا

إذَا غُطَيْفُ السُّلَمِيُّ فَرَّا[٦]

قال القاضي أبو محمد: فالألف على هذه القراءة والتأويل ثابتة في «ابن».

وقال بعضهم: ﴿ابن﴾ صفة لـ﴿عزيرُ﴾، كما تقول: زيد بن عمرو، وجعلت الصفة والموصوف بمنزلة اسم واحد، وحذف التنوين إذا جاء الساكنان كأنهما التقيا من كلمة واحدة، والمعنى: عزيرُ ابن الله معبودنا وإلهنا، أو المعنى: معبودنا أو إلهنا عزير ابن الله.

قال القاضي أبو محمد: وقياس هذه القراءة والتأويل أن يحذف الألف من ﴿ابن﴾ لكنها تثبت في خط المصحف، فيترجح من هذا كله أن قراءة التنوين في ﴿عُزَيْرٌ﴾ أقواها.

---

(١) ساقط من التركية.

(٢) تحرفت في نجيبويه إلى: «المنفي».

(٣) وهما سبعيتان، وحمزة بالثانية، انظر: التيسير (ص: ١١٨).

(٤) الإخلاص: ١، ٢، وسيأتي الخلاف فيها في محله.

(٥) وهي شاذة عزاها ابن خالويه في مختصر الشواذ (ص: ١٨٣) لنصر بن عاصم وأبي عمرو، ورويت عن عمر.

(٦) الأبيات بلا نسبة في تفسير الطبري (١٤/ ٢٠٥)، ومعاني القرآن للفراء (١/ ٤٣١)، وجمهرة اللغة (٢/ ٦٤٤).

وحكى الطبري وغيره أن بني إسرائيل أصابتهم فتن وجلاء[١]، وقيل: مرض، وأذهب الله عنهم التوراة في ذلك ونسوها، وكان علماؤهم قد دفنوها أول ما أحسوا بذلك البلاء، فلما طالت المدة فُقدت التوراة جملة فحفَّظها الله عزيراً كرامة منه له، فقال لبني إسرائيل: إن الله قد حفَّظني التوراة، فجعلوا يدرسونها من عنده، ثم إن التوراة المدفونة وجدت، فإذا هي مساوية لما كان عزير يدرِّس، فضلوا عند ذلك وقالوا: إن هذا لن يتهيأ لعزير إلا وهو ابن الله.

وظاهر قول النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ أنها بنوة النسل كما قالت العرب في الملائكة، وكذلك يقتضي قولُ الضحاك والطبري وغيرهما[٢]، وهذا أشنع في الكفر، قال أبو المعالي: أطبقت النصارى على أن المسيح إله، وأنه ابن الإله[٣].

قال القاضي أبو محمد: ويقال: إن بعضهم يعتقدها بنوة حُنُوٍّ[٤] ورحمة، وهذا المعنى أيضاً لا يحل أن تطلق البنوة عليه، وهو كفر لمكان الإشكال الذي يدخل [من جهة][٥] التناسل.

وكذلك كفرت اليهود في قولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ /، وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ﴾[٦]، وإنما توجد في كلام العرب استعارة البنوة عبارة عن نِسب وملازمات تكون بين الأشياء إذا لم يُشْكل الأمر وكان أمر النسل [بيِّن الاستحالة][٧]، من ذلك قول عبد الملك [٢/ ٢٣٣]

---

(١) في المطبوع: «بلاء».

(٢) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٩).

(٣) انظر قول أبي المعالي في: تفسير القرطبي (٨/ ١١٧).

(٤) في نجيبويه: «دنو».

(٥) ساقط من نجيبويه.

(٦) في نجيبويه زيادة: «وأحباؤه».

(٧) «بين»: ساقطة من الأصل، وفيه: «لاسحالة».

ابن مروان: «وقد زبنتنا الحرب وزبنَّاها[(١)]، فنحن بنوها وهي أمنا»[(٢)]، يريد: للملازمة، ومن ذلك [قول حُريث بن مخفض[(٣)]:

[الطويل] بَنُـو الْمَجْـدِ لَمْ تَقْعُـدْ بِهِـمْ أُمَّهَاتُهُمْ وَآبَاؤُهُـمْ آبَـاءُ صِـدقٍ فَأَنْجَبُـوا[(٤)]

ومن ذلك][(٥)]: ابن نعش[(٦)]، وابن ماء، وابن السبيل، ونحو ذلك، ومنه قول الشاعر:

[الكامل] والْأَرْضُ تحملنـا وَكَانَـتْ أُمَّنَـا[(٧)] ....

ومنه أحد التأويلات في قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة ابن زناً»[(٨)] أي: مُلازِمُه، [والتأويل الآخر أن[(٩)] لا يدخلها مشكِلُ الأمر][(١٠)]، والتأويلان في قول النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، كما تقدم من الصفة والخبر، إلا أن شَغَب التنوين ارتفع هاهنا.

و﴿عُزَيْرٌ﴾: نبي من أنبياء بني إسرائيل.

وقوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يتضمن معنيين:

أحدهما: إلزامهم المقالة والتأكيد في ذلك كما قال: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]، وكقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨].

---

(١) في الأصل: «زينتنا الحرب وزيناها».

(٢) نقله عنه في أمالي القالي (١/ ١١)، وفي جار الله قول الشاعر بدل «عبد الملك».

(٣) في المطبوع: «محصن»، وحُرَيْث شاعر مخضرم، له في الجاهلية أشعار، طبقات فحول الشعراء (١/ ١٩٢)، واختلف في اسم أبيه، وصحح ابن دريد أنه: «محفِّض» بالحاء المهملة والفاء المشددة المكسورة، والضاد المعجمة. وقد روي في ذلك قصة انظرها في خزانة الأدب (٦/ ٣٣).

(٤) انظر عزوها له في طبقات فحول الشعراء (١/ ١٩٤)، وفي المطبوع: «أبناء صدق».

(٥) ساقط من التركية.

(٦) في التركية والأسدية: «يعش»، ولعله يقصد بنات نعش.

(٧) البيت لأمية بن أبي الصلت، وتمامه: فيها معايشنا ومنها نولد، انظر: تفسير الثعلبي (١/ ١٢٧)، والمخصص (٤/ ١١٧)، وفيهما: «معقلنا».

(٨) سبق تخريجه عند الآية رقم (٢٤٣) من سورة البقرة.

(٩) سقطت «أن» من نجيبويه

(١٠) ساقط من التركية.

والمعنى الثاني في قوله: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: هو ساذج لا حجة عليه ولا برهان، غايةُ بيانه أن يقال بالأفواه قولاً مجرداً [نفس دعوى][1].

و﴿يُضاهُونَ﴾: قراءة الجماعة، ومعناه: يحاكون ويبارون ويماثلون.

وقرأ عاصم وحده من السبعة وطلحة بن مصرِّفٍ: ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ بالهمز على أنه من ضاهأ، وهي لغة ثقيف، بمعنى: ضاهى[2].

قال القاضي أبو محمد: ومن قال: إن هذا مأخوذ من قولهم: امرأة ضهياء[3]، وهي التي لا تحيض، وقيل: التي لا ثدي لها، سميت بذلك لشبهها بالرجال، فقوله خطأ، قاله أبو علي[4]؛ لأن الهمزة في ضاهأ أصلية وفي ضهياء زائدة، كحمراء.

وإن كان الضمير في ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ لليهود والنصارى جميعاً فالإشارة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ هي إما لمشركي العرب إذ قالوا: الملائكة بنات الله، وهم أول كافر، وهو قول الضحاك[5]، وإما لأمم سالفة قبلهما، وإما للصدر الأول من كفرة اليهود والنصارى، ويكون ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ لمعاصري محمد ﷺ، وإن كان الضمير في ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ للنصارى فقط كانت الإشارة بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ إلى اليهود، وعلى هذا فسر الطبري، وحكاه الزهراوي عن قتادة[6].

وقوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاء عليهم عامٌّ لأنواع الشر، ومعلوم أن من قاتله الله فهو المغلوب المقتول، وحكى الطبري عن ابن عباس أن المعنى: لعنهم الله[7].

---

(١) ساقط من نجيبويه.

(٢) والقراءتان سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٨)، والسبعة في القراءات (ص: ٣١٤).

(٣) في التركية: «ضيهاء»، في الموضعين.

(٤) الحجة للقراء السبعة (٤/ ١٨٧).

(٥) البحر المحيط (٥/ ٤٠٣).

(٦) في نجيبويه: «وقتادة»، انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٢٠٥)، وفيه أيضاً قول قتادة (١٤/ ٢٠٦)، ولم أقف على ما حكاه الزهراوي.

(٧) أخرجه الطبري (١٤/ ٢٠٧) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

و﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: مقصده أنى توجَّهوا، أو أنى ذهبوا، وبدل[١] مكان هذا الفعل المقصود فعل سوء [يحق لهم][٢]، وذلك فصيح في الكلام كما تقول: لعن الله الكافر أنى هلك، كأنك تحتم عليه بهلاك، وكأنه حتم عليهم في هذه الآية بأنهم يؤفكون، ومعناه: يحرمون ويصرفون عن الخير، والأرض المأفوكة: التي لم يصبها مطر.

قال أبو عبيدة: ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ معناه: يُحدُّون[٣].

قال القاضي أبو محمد: يريد من قولك: رجل محدود، أي: محروم لا يصيب خيراً، وكأنه من الإفك الذي هو الكذب، فكأن المأفوك هو الذي تكذبه أراجيه فلا يَلقى خيراً.

ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ ابتداءَ تقريرٍ، أي: بأي سبب ومن أيِّ جهة يصرفون عن الحق بعد ما تبين لهم، و«قاتل» في هذه الآية بمعنى: قتل، وهي مفاعلة من واحد وهذا كله بيِّن.

قوله عز وجل: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٣٢) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾.

واحد الأحبار: حِبر بكسر الحاء، ويقال: حَبر بفتح الحاء، والأول أفصح، ومنه مداد الحِبر، [والحبر بالفتح: العالم][٤]، وقال يونس بن حبيب: لم أسمعه إلا بكسر

---

(١) «بدل»: ساقطة من الأسدية، وفي نجيبويه: و«يدل».

(٢) في المطبوع: «يحل بهم».

(٣) انظر: مجاز القرآن (١/ ٢٥٧).

(٤) في نجيبويه وأحمد٣ وجار الله ونور العثمانية بدلًا منه: «أي مداد العالم».

الحاء، وقال الفراء: سمعت فتح الحاء وكسرها في العالِم، وقال ابن السكيت: الحبر بالكسر: المداد، والحبر بالفتح: العالم[(١)].

و«الرهبان»: جمع راهب وهو الخائف، من الرهبة، وسماهم أَرْباباً هم لا يعبدونهم لكن من حيث تلقوا الحلال والحرام من جهتهم، وهو أمر لا يُتلقى إلا من جهة الله عز وجل، ونحوُ هذا قال ابن عباس[(٢)] وحذيفة بن اليمان[(٣)] وأبو العالية[(٤)].

وحكى الطبري أن عدي بن حاتم قال: جئت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب ذهب، فقال: «يا عدي، اطرح هذا الصليب من عنقك»، فسمعته يقرأ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، فقلت: يا رسول الله، وكيف [ذلك ونحن][(٥)] لم نعبدهم؟ فقال: «أليس تستحلُّون ما أَحَلَّوا وتحرِّمون ما حرَّموا»، قلت: نعم، قال: «فذاك»[(٦)].

و(المسيح) عطف على الأحبار والرهبان، و﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه فعلٌ من المعنى لأنه ليس من لفظ سبحان فعل، والتقدير: أنزِّهه تنزيهاً، فمعنى ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهاً له.

واحتج مَن يقول: إن أهل الكتاب مشركون، بقوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾،

---

(١) انظر قولي يونس والفراء في تفسير الطبري (١٤/ ٢٠٨، ٢٠٩)، وقول ابن السكيت في إسفار الفصيح (٢/ ٦٦٩).

(٢) أخرجه الطبري (١٤/ ٢١٢) من طريق العوفي والسدي عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (١٤/ ٢١١) من طريق سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي البختري، عن حذيفة. وهو منقطع.

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٢١٢)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٣٤).

(٥) ساقط من الأصل والمطبوع والحمزوية.

(٦) إسناده لين، هذا الحديث أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) وغيره من طريق عبد السلام بن حرب، عن غطيف بن أعين، عن مصعب بن سعد، عن عدي بن حاتم. وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث. اهـ.

والغير يقول: إن اتخاذ هؤلاء الأرباب ضربٌ ما من الإشراك، وقد يقال في المُرائي: إنه أشرك، وفي ذلك آثار.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ الآية، نُور الله في هذه الآية: هداه الصادر[1] عن القرآن والشرع المثبت في قلوب الناس، فمن حيث سماه نوراً سمَّى محاولةَ إفساده والصدِّ في وجهه إطفاءً، وقالت فرقة: «النور»: القرآن.

قال القاضي أبو محمد: ولا معنى لتخصيص شيء مما يدخل تحت المقصود بالنور.

وقوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ عبارة عن قلة حيلتهم وضعفها، أخبر عنهم أنهم يحاولون مقاومة أمر جسيم بسعي ضعيف، فكان الإطفاء بنفخ الأفواه، ويحتمل أن يراد: / [٢/ ٢٣٤] بأقوال لا برهان عليها، فهي لا تجاوز الأفواه إلى فهم سامع.

وقوله: ﴿وَيَأْبَى﴾ إيجاب يقع بعده أحياناً «إلا»، وذلك لوقوعه هو موقعَ الفعل المنفي، لأن التقدير: ولا يريد الله إلا أن يتم نوره، وقال الفراء: هو إيجاب فيه طرف من النفي، ورد الزجاج على هذه العبارة وبيانه ما قلناه[2].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الآية، ﴿رَسُولَهُۥ﴾ يراد به محمد ﷺ، وقوله: ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ يعم القرآن وجميع الشرع، وقوله: ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ إشارة إلى الإسلام والملة بجمعها، وهي الحنيفية.

وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ قال أبو هريرة[3] [وأبو جعفر محمد][4] بن علي وجابر بن

---

(١) في المطبوع: «هو الصادر».

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء (١/ ٤٣٣)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٤٤).

(٣) أخرج الطبري (١٤/ ٢١٥) عن محمد بن بشار عن يحيى بن سعيد القطان قال: حدثنا شقيق قال: حدثني ثابت الحداد أبو المقدام، عن شيخ، عن أبي هريرة في قوله: ﴿ليظهره على الدين كله﴾، قال: حين خروج عيسى ابن مريم. وأخرج مثله في (٢٣/ ٣٦١) عن ابن حميد، قال: ثنا مهران، عن سفيان، عن أبي المقدام ثابت بن هرمز، عن أبي هريرة، وأخشى أن يكون شقيق في الإسناد الأول صوابه سفيان كما في الإسناد الثاني، وهو الثوري، والإسناد الأول هو الأصح، بذكر الشيخ عن أبي هريرة، وهو مبهم.

(٤) في جار الله: «جعفر بن محمد».

عبد الله ما معناه: إن الضمير عائد على الدين، وإظهاره عند نزول عيسى ابن مريم، وكونِ الأديان كلِّها راجعةً إلى دين الإسلام، فذلك إظهاره[1].

قال القاضي أبو محمد: فكأن هذه الفرقة رأت الإظهار على أتم وجوهه، أي: حتى لا يبقى معه دين آخر، وقالت فرقة: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ﴾ أي: ليجعله أعلاها وأظهرها، وإن كان معه غيره كان دونه.

قال القاضي أبو محمد: فهذا لا يحتاج إلى نزول عيسى، بل كان هذا في صدر الأمة، وهو حتى الآن إن شاء الله، وقالت فرقة: الضمير عائد على الرسول، ومعنى ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾: ليطلعه ويعلِّمه الشرائع كلها والحلال والحرام.

قال القاضي أبو محمد: وهذا التأويل وإن كان صحيحاً جائزاً فالآخر أبرع منه وأليق بنظام الآية، وأجرى مع كراهية المشركين.

وخُصَّ الْمُشْرِكُونَ هنا بالذكر لما كانت كراهيةً مختصةً بظهور دين محمد ﷺ، فذكر العُظم والأول ممن كره ذلك وصَدَّ فيه، وذُكِر الكافرُون في الآية قبلُ لأنها كراهيةُ إتمام نور الله في قديم الدهر وفي باقيه، فعم الكفرة من لدن خلق الدنيا إلى انقراضها إذ قد وقعت الكراهية والإتمام مراراً كثيرة.

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

المراد بهذه الآية بيان نقائص المذكورين، ونهيُ المؤمنين عن تلك النقائص

(١) أخرج سعيد بن منصور في سننه (٥/ ٢٤٦) عن عمرو بن ثابت عن أبيه عن أبي جعفر عن جابر بن عبد الله مثله، وعمرو بن ثابت هو ابن هرمز الحداد متروك الحديث، وانظر: تفسير الطبري (١٤/ ٢١٤).

مترتب ضمن ذلك، واللام في ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾ لام التأكيد، وصورة هذا الأكل هي بأنهم يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضاً باسم الكنائس والبيع، وغير ذلك مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف[١] إلى الله، وهم خلال ذلك يحتجبون[٢] تلك الأموال، كالذي ذكره سلمان في كتاب السير عن الراهب الذي استخرج كنزه[٣].

وقيل: كانوا يأخذون منهم من غلَّاتهم وأموالهم ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع، وقيل: بل[٤] كانوا يرتشون في الأحكام، ونحو ذلك.

قال القاضي أبو محمد: وقوله تعالى: ﴿بِٱلْبَـٰطِلِ﴾، يعم هذا كلَّه.

وقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾، الأشبه هنا أن يكون معدًّى، أي: يصدون غيرهم، وهذا الترجيح إنما هو لنباهة منازلهم في قومهم، وصدَّ يستعمل واقفاً ومتجاوزاً[٥]، ومنه قول الشاعر:

[الوافر] صَـدَدتِ الـكأسَ عَنّـا، أُمَّ عَمـرٍ وكانَ الكأسُ مَجراهـا اليَمِينَا[٦]

و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: الإسلام وشريعة محمد ﷺ، ويحتمل أن يريد: ويصدون عن سبيل الله في أكلهم الأموال بالباطل، والأول أرجح.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ابتداء، وخبره: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾، ويجوز أن يكون ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوفاً على الضمير في قوله: (يأكلون) على نظر في ذلك، لأن الضمير لم يؤكد.

وأسند أبو حاتم إلى علباء بن أحمر أنه قال: لما أمَر عثمان بكتب المصحف

---

(١) في الأسدية: «التألف».
(٢) في نجيبويه: «يحتجنون»، وكذا في المطبوع.
(٣) هذه قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه. سيرة ابن هشام (١/ ٢١٥).
(٤) زيادة من الأسدية.
(٥) أي: لازماً ومتعدياً، فاللازم: صدَّ صدوداً، أي: أعرض، والمتعدي: صده صدّاً، أي: منعه وصرفه.
(٦) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته، انظر: جمهرة أشعار العرب (ص: ٢٧٤)، والجمل (ص: ٧١)، والكتاب لسيبويه (١/ ٤٠٤).

أراد أن ينقص الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾ فأبى ذلك أبي بن كعب، وقال: لتُلحِقنَّها أو لأضعن سيفي على عاتقي فألحقها[١].

قال القاضي أبو محمد: وعلى إرادة عثمان يجري قول معاوية: إن الآية في أهل الكتاب، وخالفه[٢] أبو ذر فقال: بل هي فينا، فشكاه إلى عثمان، فاستدعاه من الشام ثم خرج إلى الرَّبَذة[٣].

والذي يظهر من الألفاظ أنه لما ذكر نقص[٤] الأحبار والرهبان الآكلين المال بالباطل، ذكر بعد ذلك [بقول عام نقص الكافرين][٥] المانعين حق المال.

وقرأ طلحة بن مصرف: (الذين يكنزون) بغير واو[٦].

و﴿يَكۡنِزُونَ﴾ معناه: يجمعون ويحفظون في الأوعية، ومنه قول المنخل الهذلي[٧]:

لا دَرَّ دَرِّيَ إنْ أَطْعَمْتُ نَازِلَهُمْ قِرْفَ الْحَتِيِّ وعِنْدِي الْبُرُّ مَكْنُوزُ[٨] [البسيط]

أي: محفوظ في أوعيته، وليس من شروط الكنز الدفنُ لكن كثر في حَفَظة المال أن يدفنوه حتى تعورف في المدفون اسم الكنز، ومن اللفظة قولهم: رجل مكتنز الخلق، أي: مجتمع، ومنه قول الراجز:

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٧٩) لابن الضريس ولم يذكر إسناده.

(٢) في نجيبويه: «وخالف».

(٣) أخرجه البخاري (١٤٠٦).

(٤) في الحمزاوية والمطبوع وجار الله ونور العثمانية: «بعض».

(٥) في التركية والأسدية وجار الله: «بقول عام بعض الكافرين»، وفي نجيبويه: «بقول عام نقص الكانزين»، وفي نور العثمانية: «قول عاص بعض الكافرين»، وفي المطبوع وأحمد٣: «مقولة نقص الكانزين».

(٦) وهي مخالفة للرسم، تابعه عليها في البحر المحيط (٥/ ٤١١)، والدر المصون (٦/ ٤١).

(٧) لعل الصواب المتنخل، كما تقدم، أما المنخل فيشكري.

(٨) عزاه له في المعاني الكبير (١/ ٣٨٤)، وجمهرة اللغة (١/ ٦٧)، والكتاب لسيبويه (٢/ ٨٩)، وفي الحيوان (٥/ ١٥٤) أنه أبو ذؤيب.

[الرجز] بَاتَ يُنَـزِّينِـي علـى أوفَـازِ ... على شَـديـدٍ لـحـمُـهُ كِـنَـاز[1]

والتوعد في الكنز إنما وقع على منع الحقوق منه، ولذلك قال كثير من العلماء: الكنز هو المال الذي لا تؤدى زكاته وإن كان على وجه الأرض، وأما المدفون إذا أخرجت زكاته فليس بكنز[2]، كما قال رسول الله ﷺ: «كل ما أديتَ زكاته فليس بكنز»[3]، وهذه الألفاظ مشهورة عن ابن عمر[4].

وروي هذا القول عن عكرمة والشعبي والسدي ومالك[5] وجمهور أهل العلم[6].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أربعة آلاف درهم فما دونها نفقة، وما زاد عليها فهو كنز وإن أديت زكاته[7]، وقال أبو ذر وجماعة معه: ما فَضَل من مال الرجل عن حاجة نفسه فهو كنز[8]، وهذان القولان يقتضيان أن الذم في حبس المال لا في منع زكاته فقط، ولكن قال عمر بن عبد العزيز: هي منسوخة بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣] فأتى فرضُ الزكاة على هذا كله[9].

---

(١) البيتان من رجز لأبي نخيلة يمدح خباز سليمان بن صعصعة، انظر بقيته في الأغاني (٢٠/ ٤١٦).

(٢) انظر: الاستذكار (٣/ ١٧٢)، وما بعدها.

(٣) لا يصح مرفوعاً، هذا الحديث روي من حديث ابن عمر وجابر وأم سلمة، أما الأولان فالمحفوظ فيهما الوقف عليهما، قاله البيهقي في حديث ابن عمر (السنن الكبرى ٤/ ٨٣) وقاله أبو زرعة في حديث جابر (علل الرازي ٦٤٧). وأما حديث أم سلمة فأخرجه أبو داود (١٥٦٦) من طريق ثابت ابن عجلان عن عطاء عن أم سلمة، وثابت فيه لين، وعطاء بن أبي رباح لم يسمع من أم سلمة، قاله أحمد وابن المديني، وهذا الكلام ثبت من قول ابن عمر كما سيأتي.

(٤) صحيح، هذا الأثر أخرجه البخاري (١٤٠٤) عن ابن عمر بلفظ: «من كنزها ـ يعني الذهب والفضة ـ فلم يؤد زكاتها فويل له».

(٥) في الأسدية: «قتادة»، بدل: «مالك».

(٦) نقله ابن عبد البر عن جماهير العلماء، انظر: الاستذكار (٣/ ٣٧٢-٣٧٤).

(٧) إسناده صالح وهو غريب، هذا الأثر أخرجه عبد الرزاق (٤/ ١٠٩) والطبري (١٤/ ٢١٩) من طريق: أبي حصين، عن أبي الضحى، عن جعدة بن هبيرة، عن علي. وإسناده مستقيم، لكن قال ابن كثير (٤/ ١٣٩): غريب.

(٨) انظر قول أبي ذر في الاستذكار (٣/ ١٧٣).

(٩) تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٨٩).

قال القاضي أبو محمد: كان مضمن الآية: / لا تجمعوا مالاً فتعذَّبوا، فنسخه التقرير الذي في قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾. [٢/ ٢٣٥]

والضمير في قوله: ﴿يُنفِقُونَهَا﴾ يجوز أن يعود على الأموال والكنوز التي يتضمنها المعنى، ويجوز أن يعود على الذهب والفضة إذ هما أنواع، وقيل: عاد على الفضة، واكتُفي بضمير الواحد عن ضمير الآخر إذا فهم المعنى، وهذا نحو قول الشاعر:

نَحْـنُ بِمَـا عِنْدَنَـا، وأَنْـتَ بِمَـا عِنْدَكَ رَاضٍ، والرَّأْيُ مُخْتَلِفُ[١] [المنسرح]

ونحو قول حسان:

إِنَّ شَرْخَ الشَّـبَابِ والشَّعَرَ الأَسْـ ـوَدَ مَـا لَـمْ يُعَـاصَ كانَ جُنُونَا[٢] [الخفيف]

وسيبويه يكره هذا في الكلام، وقد شبَّه كثير من المفسرين هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]، وهي لا تشبهها، لأن ﴿أَوْ﴾ قد فصَلت التجارة عن اللهو وحسَّنت عود الضمير على أحدهما دون الآخر.

و«الذهب» تؤنث وتذكر، والتأنيث أشهر، وروي أن أصحاب النبي ﷺ قالوا: قد ذم الله كسب الذهب والفضة، فلو علمنا أيَّ المال خير حتى نكسبه، فقال عمر: أنا أسأل لكم رسول الله ﷺ عن ذلك، فسأله، فقال: «لسان ذاكر، وقلب شاكر، وزوجة تُعين المؤمن على دينه»[٣]، وروي أن النبي ﷺ قال لما نزلت الآية: «تبّاً للذهب تبّاً

---

(١) البيت لعمرو بن امرىء القيس من الخزرج كما في جمهرة أشعار العرب (ص: ٥٣٠)، ومجاز القرآن (١/ ٣٩)، والبيان والتبيين (٣/ ٦٩)، وشرح أبيات سيبويه (١/ ١٨٦) عن سيبويه، وفي الكتاب نسبته (١/ ٧٤) لقيسِ بن الخَطيم، والقولان في إيضاح الشواهد (١/ ١٦٧)، ونسب لمرار الأسدي في معاني القرآن للفراء (٢/ ٣٦٣)، ولدِرْهَم بن زيد الأنصاريّ في الإنصاف (١/ ٧٩).

(٢) البيت لحسّان بن ثابت كما في مجاز القرآن (١/ ٢٥٨)، والإبل (ص: ٨٣)، والكنز اللغوي (ص: ٩١)، والجراثيم (١/ ١٤٨)، والكامل للمبرد (٣/ ٨٤)، وجمهرة اللغة (١/ ٩٢)، والحيوان (٣/ ٥٥)، وقال: أو لابنه عبد الرحمن بن حسّان.

(٣) منقطع، هذا الحديث أخرجه أحمد (٥/ ٢٨٢) من طريق وكيع: حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة، عن أبيه، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان مرفوعاً، وفي (١٤/ ٢٢١) عن ابن بشار قال: حدثنا مؤمل قال =

للفضة»[١]، فحينئذ أشفق أصحابه وقالوا ما تقدم.

[والفاء في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾ جواب لما في قوله][٢]: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ من معنى الشرط، وجاءت البشارة مع العذاب لما وقع التصريح بالعذاب، وذلك أن البشارة تقيَّد بالخير والشر، فإذا أطلقت لم تحمل إلا على الخير فقط، وقيل: بل هي أبداً للخير، فمتى قيدت بشرٍّ فإنما المعنى: أقم لهم مقام[٣] البشارة عذاباً أليماً، وهذا نحو قول الشاعر:

[الوافر]

وخيلٍ قد دلَفتُ لها بخيلٍ تحيةُ بينِهم ضربٌ وَجيعُ[٤]

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا﴾ الآية ﴿يَوۡمَ﴾ ظرف والعامل فيه ﴿أَلِيمٖ﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يُحۡمَىٰ﴾ بالياء بمعنى: يحمى الوقود.

= حدثنا إسرائيل، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان، بمثله، وأخرجه الترمذي (٣٠٩٤) في كتاب التفسير، من طريق عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن منصور، بنحوه، وقال: هذا حديث حسن. سألت محمد بن إسماعيل (البخاري) فقلت له: سالم بن أبي الجعد سمع ثوبان؟ فقال: لا. اهـ، قال ابن كثير في التفسير (٤/ ١٣٩): ولهذا رواه بعضهم عنه مرسلاً. اهـ، وأخرجه الطبري (١٤/ ٢٢٠) عن محمد بن بشار قال: حدثنا مؤمل قال: حدثنا: سفيان، عن منصور، عن الأعمش وعمرو بن مرة، عن سالم بن أبي الجعد... قال عمر...، وسالم لم يدرك عمر.

(١) في صحته نظر، روي هذا الحديث عن ثوبان وعلي وصاحبٍ لعبد الله بن الهذيل، أما عن ثوبان فقد جاء هذا اللفظ في بعض طرق حديثه السابق، وقد سبق تخريجه، وأما حديث الصاحب فأخرجه أحمد (٥/ ٣٦٦) من طريق شعبة: حدثني سالم بن عبد الله، أخبرنا عبد الله بن أبي الهذيل، حدثني صاحب لي أن رسول الله ﷺ قال...، قال: وحدثني صاحبي أنه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله...، وأما عن علي فأخرجه عبد الرزاق، عن الثوري، عن أبي حصين، عن أبي الضحى، عن جعدة بن هبيرة، عن علي رضي الله عنه مرفوعاً، عزاه إلى عبد الرزاق: الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٧١)، وقال بعد أن أورد هذه الروايات السابقة: الحاصل أنه حديث ضعيف لما فيه من الاضطراب.

(٢) ساقط من الأسدية.

(٣) سقط من المطبوع.

(٤) تقدم في تفسير الآية (٢٠٤) من سورة البقرة.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: (تحمى) بالتاء من فوق[١]، بمعنى: تحمى النار، والضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ عائد على الكنوز أو الأموال حسبما تقدم.

وقرأ قوم: (جباهُّم) بالإدغام، وأَشمُّوها الضمَّ، حكاه أبو حاتم[٢].

ووردت أحاديث كثيرة في معنى هذه الآية من الوعيد، لكنها مفسَّرة في منع الزكاة فقط لا في كسب المال الحلال وحفظه، ويؤيد[٣] ذلك حالُ الصحابة وأموالهم رضي الله عنهم.

فمن تلك الأحاديث قوله ﷺ: «من ترك بعده كنزاً لم يؤدِّ زكاته مثِّل له يوم القيامة شجاعا أقرع»[٤] الحديث.

وأسند الطبري قال: كان نعل سيف[٥] أبي هريرة من فضة، فنهاه أبو ذر، وقال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها»[٦].

وأسند إلى أبي أمامة الباهلي قال: مات رجل من أهل الصفة فوجد في برده دينار، فقال رسول الله ﷺ: «كية»، ثم مات آخر، فوجد له ديناران، فقال رسول الله ﷺ: «كيتان»[٧].

---

(١) وهي شاذة، عزاها له الكرماني في شواذ القراءات (ص: ١١٢)، وعزاها في الكامل (ص: ٥٦٢) لعبد الحميد بن بكار عن ابن عامر.

(٢) لم أقف عليه، ونقل الإدغام في مختصر الشواذ (ص: ٥٦) عن رواية لأبي عمرو.

(٣) في المطبوع: «يؤدي».

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري (١٤٠٣) (٤٥٦٥) (٤٦٥٩) (٦٩٥٧) من حديث أبي هريرة، ومسلم (٩٨٨) من حديث جابر مطولاً.

(٥) «سيف»: ساقطة من التركية.

(٦) فيه نظر، هذا الحديث أخرجه البخاري في تاريخه (٦/ ٥٩) ترجمة: عبد الواحد الثقفي، والطبري في تهذيب الآثار (١/ ٢٥٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٤٤)، من طريق شعبة، وقد وقع في اسم شيخ شعبة خلاف، ساقه البخاري وقال في ترجمته: فيه نظر.

(٧) اختلف في إسناده، هذا الحديث أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ١٢٦) من طريق سعيد وشيبان ـ مفرقين ـ عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة به، وأخرجه أحمد (٣٦/ ٥٠٧) والطبراني =

قال القاضي أبو محمد: وهذا إما لأنهما كانا يعيشان من الصدقات وعندهما التبر، وإما لأن هذا كان في صدر الإسلام، ثم قرر الشرع ضبط المال وأداء حقه، ولو كان ضبط المال ممنوعاً لكان حقه أن يخرج كله لا زكاتُه فقط، وليس في الأمة مَن يُلزم هذا.

وقوله: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ﴾ إشارة إلى المال الذي يكوى به، ويحتمل أن تكون إلى الفعل النازل بهم، أي: هذا جزاء ما كنزتم.

وقال ابن مسعود: «والله لا يمس دينار ديناراً بل يُمَدُّ الجلد حتى يُكوى بكل دينار وبكل درهم»[١].

وقال الأحنف بن قيس: دخلت مسجد المدينة وإذا رجل خشن الهيئة رثُّها، يطوف في الخلق وهو يقول: «بشر أصحاب الكنوز بكيٍّ في جباهم وجنوبهم وظهورهم»، ثم انطلق يتذمر وهو يقول: وما عسى تصنع في قريش[٢].

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

= (٨/ ٢٦٠) من طريق: شعبة عن قتادة قال: سمعت أبا الجعد مولى بني ضبيعة يحدث عن أبي أمامة به، ورواه أبو بكر بن أبي شيبة (٣/ ٣٧٢) وأحمد في مسنده (٣٦/ ٥١٥) وغيرهما من طريق شعبة عن عبد الرحمن من أهل حمص من بني العداء من كندة قال: سمعت أبا أمامة، وروى جعفر بن سليمان عن عتيبة عن بريد بن أصرم قال: سمعت علياً، به مرفوعاً، ذكره البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ١٤٠): وقال: إسناده مجهول.

(١) رجاله رجال الصحيح، أخرجه الطبري (١٤/ ٢٣٣) وغيره من طريق الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، وقد رواه ابن مرْدُويه، عن أبي هريرة مرفوعاً، ولا يصح رفعه، قاله ابن كثير في التفسير (٤/ ١٤١).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (١٤٠٧)، ومسلم (٩٩٢). والمراد بالرجل أبو ذر.

هذه الآية والتي بعدها تتضمن ما كانت العرب شَرَعته في جاهليتها من تحريم شهور الحِل [وتحليلِ شهور الحرمة][١]، وإذا نص ما كانت العرب تفعله تَبيَّنَ معنى الآيات: فالذي تظاهرت به الروايات وينفك عن مجموع ما ذكر الناس، أن العرب كانت لا عيش لأكثرها إلا من الغارات وإعمال سلاحها، فكانوا إذا توالت عليهم حرمة ذي القعدة وذي الحجة والمحرم صعب عليهم وأملقوا.

وكان [بنو فقيم من كنانة][٢] أهل دين في العرب وتمسك بشرع إبراهيم عليه السلام، فانتدب منهم القلمَّس وهو حذيفة بن عبد فقيم[٣]، فنسأ الشهور للعرب، ثم خلفه على ذلك ابنه عباد بن حذيفة، ثم خلف ابنه قلع بن عباد، ثم خلفه ابنه أمية بن قلع، ثم خلفه ابنه عوف بن أمية، ثم خلفه ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف وعليه قام الإسلام[٤]، وذكر الطبري وغيره أن الأمر كان في عدوان قبل بني مالك بن كنانة[٥].

وكانت صورة فعلهم: أن العرب كانت إذا فرغت من حجها جاء إليه من شاء منهم مجتمعين، فقالوا: أنسئنا شهراً، أي: أخِّر عنا حرمة المحرم فاجعلها في صفر، فيُحل لهم المحرم، فيُغِيْرون فيه ويعيشون، ثم يلتزمون حرمة صفر ليوافقوا عدة الأشهر الأربعة[٦].

قال مجاهد: ويسمون ذلك الصفر: المحرم، ثم يسمون ربيعاً الأول صفراً، وربيعاً الآخر ربيعاً الأول، وهكذا في سائر الشهور يستقبلون سنتهم من المحرم الموضوع لهم، فيسقط على هذا حكم المحرم الذي / حلل لهم، وتجيء السنة من ثلاثة عشر شهراً أولها [٢/ ٢٣٦]

---

(١) ساقط من الأسدية.

(٢) ورد مكانه في الأسدية: «وكان بنو معب». وورد في نجيبويه: «بنو فقيم وكنانة».

(٣) في نجيبويه وأحمد٣: «بن فقيم»، وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة.

(٤) انظر نسب القلمس وتوارث ذلك في أبنائه بهذا الترتيب في سيرة ابن هشام (١/ ٤٤).

(٥) راجع تفسير الطبري (١٤/ ٢٤٦)، ولم أجد فيه كلمة: «عدوان».

(٦) في نجيبويه زيادة: «الحرم».

المحرم المحلل، ثم[1] المحرم الذي هو في الحقيقة صفر، ثم استقبال السنة كما ذكرنا[2].

ففي هذا قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ أي: ليست ثلاثة عشر شهراً، قال الطبري: حدثني ابن وكيع[3]، عن عمران بن عيينة[4]، عن[5] حصين[6]، عن أبي مالك قال: كانوا يجعلون [السنة ثلاثة عشر شهراً، قال مجاهد: ثم كانوا يحجون][7] في كل شهر عامين وِلاءً، وبعد ذلك يبدلون فيحجون عامين وِلاءً، ثم كذلك حتى كانت حجة أبي بكر في ذي القعدة حقيقة، وهم يسمونه ذا الحجة، ثم حج رسول الله ﷺ سنة عشر في ذي الحجة حقيقة[8]، فذلك قوله: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرُمٌ: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»[9].

وفي حديث ابن عمر: أن رسول الله ﷺ خطب في حجة الوداع، فساق الحديث فقال

---

(١) «ثم»: ساقطة من الأسدية.

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ٢٤٧).

(٣) هو أبو محمد، سفيان بن وكيع بن الجراح، الرؤاسي، الكوفي، شيخ الطبري، توفي سنة (٢٤٧هـ)، من العاشرة، كان صدوقاً، إلا أنه ابتلي بوراقه، فأدخل عليه ما ليس من حديثه فنُصح فلم يقبل، فسقط حديثه. المعجم الصغير لرواة الطبري (١/ ٢٠٤).

(٤) هو عمران بن عيينة بن أبي عمران، أبو الحسن الهلالي الكوفي، أخو سفيان الإمام، روى عن: حصين بن عبد الرحمن، وعطاء بن السائب، وعنه زيد بن الحراش، وآخرون، قال ابن معين: صالح الحديث، وضعفه أبو حاتم وأبو زرعة. تاريخ الإسلام (١٣/ ٣٢١).

(٥) تحرفت في المطبوع إلى: «بن».

(٦) هو حصين بن عبد الرحمن، تقدم التعريف به.

(٧) ساقط من الأسدية.

(٨) تفسير الطبري (١٤/ ٢٤٩).

(٩) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٣١٩٧) (٤٤٠٦) (٥٥٥٠) (٧٤٤٧) ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة.

فيه: «أولهن رجب مضر الذي بين جمادى وشعبان وذو القعدة وذو الحجة والمحرم»[١].

قال القاضي أبو محمد: ويجيء في أكثر الكتب أنهم كانوا يجعلون حرمة المحرم في صفر، ويُسكت عن تمام القصة، والذي ذكرناه هو بيانها، وأما كون المحرم أول السنة العربية الشرعية[٢]، وكان حقه ـ إذ التاريخ من الهجرة ـ أن يكون أولُ السنة في ربيع الأول، فإن ذلك فيما يرون لأن عمر بن الخطاب دوَّن ديوان المسلمين، وجعل تاريخه المحرم، إذ قبله انقضاء الموسم والحج، فكان الحج خاتمة للسنة، واعتدَّ بعام الهجرة، وإن كان قد نقص من أوله شيء.

ولما كانت سَنةُ العرب هلاليةً بُدِئ العامُ من أول شهرٍ، ولم يكن في الثاني عشر من ربيع الأول الذي هو يوم دخول النبي ﷺ المدينة، ولا كان عند تمام الحج لأنه في كسرِ شهرٍ.

وأما الأربعة الحرم فهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، ومعنى قول النبي ﷺ: «ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»[٣]، قصد التفريق بينه وبين ما كانت تفعله قبائل ربيعة بأسرها، فإنها كانت تجعل رجبها رمضان وتحرمه ابتداعاً منها، وكانت قريش ومن تابعها في ذلك من قبائل مضر على الحق، فقرَّ رسول الله ﷺ ذلك ونسبه إلى مضر إذ كان حكمه وتحريمه إنما كان من قِبَل قريش، وفي المفضليات لبعض شعراء الجاهلية:

وشَـهْرِ بَنِـي أُمَيَّـةَ والهَدَايَـا[٤] .... [الوافر]

البيتَ، قال الأصمعي: يريد رجباً[٥].

---

(١) ضعيف، هذا الحديث أخرجه البزار (١٢/ ٢٩٨)، وعبد بن حميد (١/ ٢٧٠) بسند فيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف.

(٢) كلمة «العربية» سقطت من نجيبويه، وكلمة «الشرعية» ساقطة من المطبوع.

(٣) سبق تخريجه قريباً.

(٤) المفضليات (ص: ١٧٣)، والبيت لعوف بن الأحوص، كما تقدم في تفسير أول سورة المائدة.

(٥) لم أجده، وتقدم مثله عن أبي عبيدة في المائدة.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿اثنا عْشر شهراً﴾ بسكون العين وذلك تخفيف لتوالي الحركات، [وكذلك قرأ: ﴿أحد عْشر﴾ [يوسف: ٤] و﴿تسعة عْشر﴾[المدثر: ٣٠]][١].

وقوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: فيما كتبه وأثبته في اللوح المحفوظ أو غيره، فهي صفةُ فعلٍ مثل خلقه ورزقه وليست بمعنى قضائه وتقديره لأن تلك هي قبل خلق السماوات والأرض، والكتاب الذي هو المصدر هو العامل في ﴿يَوْمَ﴾.

و﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ متعلقة بـ: مستقرةً أو ثابتةً ونحوِه، ويقلق[٢] أن يكون الكتاب القرآن في هذا الموضع، وتأمل، ولا يتعلق[٣] ﴿فِي﴾ بـ﴿عِدَّةَ﴾ للتفرقة بين الصلة والموصول بخبر ﴿إِنَّ﴾.

وقوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ نص على تفضيل هذه الأربعة وتشريفها، قال قتادة: اصطفى الله من الملائكة والبشر رسلاً، ومن الشهور المحرم ورمضان، ومن البقع المساجد، ومن الأيام الجمعة، ومن الليالي ليلة القدر، ومن الكلام ذكرَه، فينبغي أن يعظَّم ما عظَّم الله[٤].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾: قالت فرقة: معناه: الحساب المستقيم، وقال ابن عباس فيما حكى المهدوي: معناه: القضاء المستقيم[٥].

قال القاضي أبو محمد: والأصوب عندي أن يكون ﴿ٱلدِّينُ﴾ [٦] هاهنا على أشهَر وجوهه، أي: ذلك الشرع والطاعة لله.

---

(١) وهي عشرية، انظر: النشر (٢/ ٢٧٩)، وما بين القوسين ساقط من الأسدية، وفي الأسدية زيادة: «وسبعة عشر»، وجاءت في التركية بدل: «تسعة عشر»، وذلك كله خطأ.

(٢) في الأسدية: «ويعلق».

(٣) في الأسدية: «ولا يتأول».

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٢٣٩).

(٥) التحصيل للمهدوي (٣/ ٢٤٨).

(٦) في الاسدية: «المعنى».

و﴿ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أي: القائم المستقيم، وهو مِن قام يقوم بمنزلةِ سيدٍ مِن ساد يسود، أصله: قَيْوِم.

وقوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ الضمير عائد على الاثْنا عَشَرَ شَهْراً، أي: لا تظلموا أنفسكم بالمعاصي في الزمن كله، وقال قتادة: الضمير عائد على الأربعة الأشهر[(١)].

ونُهي عن الظلم فيها تشريفاً لها بالتخصيص والذكر، وإن كان منهيّاً عنه في كل الزمن، وزعم النحاة أن العرب تكني عما دون العشرة من الشهور: فيهن، وعما فوق العشرة: فيها، وروي عن الكسائي أنه قال: إني لأتعجب من فعل العرب هذا، وكذلك يقولون فيما دون العشرة من الليالي: خلون، وفيما فوقها: خلت[(٢)].

وقال الحسن: معنى ﴿ فِيهِنَّ ﴾ أي: بسببهن ومن جرَّاهن في أن تُحلوا حرامها وتبدلوه بما لا حرمة له[(٣)]، وحكى المهدوي أنه قيل: لا تظلموا فيهن أنفسكم بالقتل[(٤)]، ثم نُسخ بفرض القتال في كل زمن[(٥)]، قال سعيد بن المسيب في كتاب الطبري: كان رسول الله ﷺ، يحرم القتال في الأشهر الحرم بما أنزل الله في ذلك حتى نزلت براءة[(٦)].

قال القاضي أبو محمد: وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ معناه: فيهن، فأحرى في غيرهن.

وقوله: ﴿ كَآفَّةً ﴾: معناه: جميعاً، وهو مصدر في موضع الحال، قال الطبري: كالعاقبة والعافية[(٧)].

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٢٣٨)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٦٠).

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ١٣٥)، وانظر القاعدة في معاني القرآن للفراء (١/ ٤٣٥)، وأدب الكاتب (ص: ٢٧١).

(٣) تفسير الطبري (١٤/ ٢٣٩) وتفسير الماوردي (٢/ ٣٦٠) بتصرف.

(٤) في نجيبويه: «بالقتال».

(٥) التحصيل للمهدوي (٣/ ٢٤٦)، وفيه: «بالقتال».

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٢٣٦).

(٧) تفسير الطبري (١٤/ ٢٤٢).

فهو على هذا كما تقول: خاصةً وعامةً، ويظهر أيضاً أنه من كفَّ يكُف، أي: جماعة تكفُّ مَن عارضها، وكذلك نقل الكافة، أي: تكفُّ من خالفها، فاللفظة على هذا اسم فاعل.

وقال بعض الناس: معناه: يكف بعضهم بعضاً عن التخلُّف، وما قدمناه أعم وأحسن.

وقال بعض الناس: كان الفرض بهذه الآية قد توجه على الأعيان ثم نسخ ذلك بعد وجعل فرض كفاية.

قال القاضي أبو محمد: وهذا الذي قالوه لم يُعلم قط من شرع النبي ﷺ، أنه ألزم الأمة جميعاً النَّفْر، وإنما معنى الآية الحضُّ على قتالهم[1] والتحزب عليهم وجمع الكلمة، ثم قيدها بقوله: ﴿كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ فبحسب قتالهم واجتماعهم لنا[2] يكون فرض اجتماعنا لهم، وأما الجهاد الذي ينتدب إليه فإنما هو فرض على الكفاية، إذا قام به بعض الأمة / سقط عن الغير[3]. [٢/ ٢٣٧]

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ خبر في ضمنه أمرٌ بالتقوى، ووعدٌ عليها بالنصر والتأييد.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿ٱلنَّسِىٓءُ﴾ على وزن فعيل مصدر بمعنى التأخير، تقول العرب: أنسأ الله في أجَلك، ونسأ في أجلك، ومنه قول النبي ﷺ: «مَن سرَّه النَّسَأ في الأجل والسعة في الرزق فليصل رحمه»[4].

---

(١) في المطبوع «قتلاهم».

(٢) في الأسدية: «لئلا»، وفي جار الله: «لما».

(٣) انظر الإجماع على ذلك في: الإقناع (٣/ ١٠١٣).

(٤) متفق عليه بغير هذا اللفظ، هذا الحديث أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٧٩ (٢٢٧٦٣) من طريق =

وقرأ جمهور الناس والسبعة: ﴿ٱلنَّسِىٓءُ﴾، كما تقدم.

وقرأ ابن كثير فيما روي عنه وقوم معه في الشاذ: ﴿النسِيُّ﴾ مشدد الياء[1].

وقرأ فيما روي عنه، وجعفر[2] بن محمد والزهري: (النَّسْء).

وقرأ أيضاً فيما روي عنه: (النِّسْءُ) على وزن النسع[3]، وقرأت فرقة: (النَّسْي)[4].

فأما ﴿ٱلنَّسِىٓءُ﴾ بالمد والهمز فقال أبو علي: هو مصدر مثل النذير والنظير والنكير وعذير الحي، ولا يجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول؛ لأنه يكون المعنى: إنما المؤخَّر زيادة، والمؤخَّر الشهر ولا يكون الشهر زيادةً في الكفر[5].

قال القاضي أبو محمد: وقال أبو حاتم: هو فعيل بمعنى مفعول، وينفصل عن إلزام أبي علي بأن يقدر مضاف، كأن المعنى: إنما إنساء النسيء، وقال الطبري: هو من معنى الزيادة، أي: زيادتهم في الأشهر، وقال أبو وائل: كان النسيء رجلاً من بني كنانة[6].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف.

= ميمون أبي محمد المزني التميمي: حدثنا محمد بن عباد المخزومي، عن ثوبان مرفوعاً، وأخرجه أبو يعلى في مسنده (٦/ ٢٩٢) من طريق: يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك مرفوعاً، ويزيد ضعيف وميمون فيه كلام، والحديث أخرجه البخاري (٢٠٦٧) (٥٩٨٥) ومسلم (٢٥٥٧) بلفظ: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه».

(١) هذه قراءة سبعية من رواية ورش عن نافع، كما في التيسير (ص: ١١٨)، وانظر عزوها لابن كثير في السبعة (ص: ٣١٤).

(٢) في المطبوع وجار الله: «فيما روى عنه جعفر...»، ولعله خطأ، وسقط هو والزهري من نور العثمانية.

(٣) في التركية: «على وزن المنع».

(٤) هذه ثلاث قراءات شاذة، عزا الثانية لابن كثير في مختصر الشواذ (ص: ٥٦)، وعزا له الأولى أيضاً، وعزاها الثعلبي (٥/ ٤٤) لأبي عبد الرحمن وطلحة والأشهب وشبل، ولم أجدها لمن ذكر المؤلف لكن عزا لهم الكرماني في شواذ القراءات (ص: ١١٣) الثالثة.

(٥) الحجة لأبي علي (٤/ ١٩٣)، وليست فيه كلمة: النظير، وهي زيادة فقط من نجبويه وجار الله.

(٦) انظر قول الطبري وأبي وائل في تفسير الطبري (١٤/ ٢٤٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٩٤)، وقول أبي حاتم في الدر المصون (٦/ ٤٦).

وأما ﴿النسيُّ﴾ فهو الأول بعينه خففت الهمزة، وقيل: قلبت الهمزة ياء وأدغمت الياء في الياء.

وأما (النَّسْء) فهو مصدر من نسأ: إذا أخَّر.

وأما (النَّسْي) فقيل: تخفيف همزة النسيء، وذلك على غير قياس، وقال الطبري: هو مصدر من نسي ينسى إذا ترك[١].

قال القاضي أبو محمد: والنسيء هو فعل العرب في تأخيرهم الحرمة.

وقوله: ﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ أي: جارٍ مع كفرهم بالله وخلافٌ منهم للحق، فالكفر متكثر بهذا الفعل الذي هو باطل في نفسه.

قال القاضي أبو محمد: ومما وجد في أشعارها من هذا المعنى قول بعضهم:

[مجزوء الرمل] .... وَمِنَّا مُنْسِئُ الشَّهْرِ الْقَلَمَّسْ[٢]

وقال الآخر:

[الكامل] نسؤوا الشهورَ بها وكانوا أهلَها مِن قبلكم والعزُّ لم يتحوَّلِ[٣]

ومنه قول جذل الطعان[٤]:

[الوافر] لَقَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ أَنَّ قَوْمِي كِرَامُ النَّاسِ أَنَّ لَهُمْ كِرَامَا

---

(١) في جار الله: «إذا أخر»، وهي الموافق لما في تفسير الطبري (١٤/ ٢٤٣)؛ أنه يعني الزيادة، أو التأخير.

(٢) بلا نسبة في تفسير الطبري (١٤/ ٢٥٠)، بلفظ: «الشهور»، وكذا هي في أكثر النسخ الخطية، إلا أنها غير مستقيمة في الوزن.

(٣) عزاه في سمط اللآلي (١/ ١٢) لأميّة بن الأسكر الليثي شاعر جاهلي إسلامي، قال: وقيل: إنه للشويعر ربيعة بن عبس الليثي.

(٤) هو عمير بن قيس أحد بني فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة، انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٥)، ومعجم الشعراء (ص: ٢٤٣)، وأنساب الأشراف (١١/ ٨٩)، قال: وهو جذل الطعان، أي: أصله، ويقال: شبه بأصل الشجرة لثباته للطعان.

فَــأَيُّ الـنَّــاسِ فَـاتُـونَـا بِـوِتْـرٍ وَأَيُّ الـنَّـاسِ لَـمْ نُـعْلِـكْ لِجَامَا
أَلَـسْـنَـا النَّـاسِـئِـينَ عَـلَى مَعَـدٍّ شُـهُورَ الْحِـلِّ نَجْعَلُهَـا حَرَامَا[١]

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر: ﴿يَضِل﴾ بفتح الياء وكسر الضاد.

وقرأ ابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة وعمرو بن ميمون: ﴿يُضِل﴾ بضم الياء [وكسر الضاد[٢]، فإما على معنى: يُضِل الله، وإما على معنى: يضل به الذين كفروا أتباعهم، فـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في التأويل الأول في موضع نصب، وفي الثاني في موضع رفع.

وقرأ عاصم أيضا وحمزة والكسائي وابن مسعود فيما روي عنه: ﴿يُضَلُّ﴾ بضم الياء][٣] وفتح الضاد على المفعول الذي لم يسم فاعله[٤]، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ﴾ للتناسب في اللفظ.

وقرأ أبو رجاء: (يَضَل)[٥] من ضل يَضَلُّ على وزن فَعُل بكسر العين يَفْعَل بفتحها، وهي لغتان، يقال: ضل يضِل وضل يضَل، والوزن الذي ذكرناه يفرق بينهما، وكذلك يروى قول النبي ﷺ: «حتى يضل الرجل أن يدريَ كم صلى»[٦]، بفتح الضاد وكسرها.

وقوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ معناه: عاماً من الأعوام، وليس يريد أن

---

(١) انظر عزو الأبيات له في سيرة ابن هشام (١/ ٤٥)، والأوائل للعسكري (ص: ٥٦)، وسمط اللآلي (١/ ١١).

(٢) وهي عشرية ليعقوب، كما في النشر (٢/ ٢٧٩)، وانظر عزوها للحسن وأبي رجاء في مختصر الشواذ (ص: ٥٦)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١١٨)، ولهما ولقتادة ومجاهد في تفسير الثعلبي (٥/ ٤٥)، وللكل في البحر المحيط (٥/ ٤١٧).

(٣) ما بين المعقوفين سقط من الأصل.

(٤) وهي والأولى سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٨)، والسبعة في القراءات (ص: ٣١٤).

(٥) وهذه شاذة، انظر عزوها له في الشواذ للكرماني (ص: ٢١٤).

(٦) المشهور والمعروف في هذا الحديث: «يظل» بالظاء المشالة، كذا هو عند البخاري (٦٠٨) (١٢٣١) ومسلم (٣٨٩) وحكى الداودي أنها رويت بالضاد. يراجع المنتقى شرح الموطأ (١/ ١٦٠).

تلك كانت مداولة في الشهر بعينه عام حلال وعام حرام.

قال القاضي أبو محمد: وقد تأول بعض الناس القصة أنهم كانوا إذا شق عليهم توالي الأشهر الحرم أُحل لهم المحرم وحرم عليهم صفر بدلاً منه، ثم مشت الشهور مستقيمة على أسمائها المعهودة، فإذا كان من قابل حُرم المحرم على حقه وأحل صفر، ومشت الشهور مستقيمة، ورأت هذه الطائفة أن هذه كانت حالة القوم.

قال القاضي أبو محمد: والذي قدمناه قبلُ أليق بألفاظ الآيات، وقد بينه مجاهد وأبو مالك، وهو مقتضى قول النبي ﷺ: «إن الزمان قد استدار»[1] مع أن هذا الأمر كلَّه قد تَقضَّى، والله أعلم أيَّ ذلك كان[2].

وقوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ معناه: ليوافقوا، و«المواطأة»: الموافقة، تواطأ الرجلان على كذا: إذا اتفقا عليه، ومعنى ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾: ليحفظوا في كل عام أربعة أشهر في العدد.

قال القاضي أبو محمد: فأزالوا الفضيلة التي خص الله بها الأشهر الحرم وحدها بمثابة أن يفطر أحد رمضان ويصوم شهراً من السنة بغير مرض أو سفر.

وقوله: ﴿زُيِّنَ﴾ يحتمل هذا التزيين أن يضاف إلى الله عز وجل والمراد به خلقه لكفرهم وإقرارهم عليه وتحبيبه لهم، ويحتمل أن يضاف إلى مُغويهم ومضلِّهم من الإنس والجن، ثم أخبر تعالى أنه لا يهديهم ولا يرشدهم، وهو عموم معناه الخصوص في الموافين، أو عموم مطلق لكن لا هداية من حيث هم كفار[3].

قال القاضي أبو محمد: وذكر أبو علي البغدادي في أمر النسيء أنه كان إذا صدر الناس من منى قام رجل يقال: له نعيم بن ثعلبة، فيقول: أنا الذي لا أُعاب ولا يردُّ لي

---

(١) في نجيبويه زيادة: «كهيئته» وهي في جار الله ملحقة في الهامش وعليها علامة صح، والحديث تقدم تخريجه قريباً.

(٢) من هنا إلى قوله: «من الصدقة»، في تفسير الآية: (٦٠)، سقط ما يقابله من الأسدية في التصوير.

(٣) في نجيبويه: «كافرون».

قضاء، فيقولون: أنسئنا شهراً، أي: أخِّر عنا حرمة المحرم فاجعلها في صفر[١].

قال القاضي أبو محمد: واسم نعيم لم يعرف في هذا، وما أرى ذلك إلا كما حكى النقاش من بني فقيم كانوا يسمَّون القَلامِس؛ واحدهم قَلَمَّس، وكانوا يُفْتون العرب في الموسم، يقوم كبيرهم في الحِجْر، ويقوم آخر عند الباب، ويقوم آخر عند الركن، فيفتون.

قال القاضي أبو محمد: فهم على هذا عِدَّة، منهم نعيم وصفوان، ومنهم ذرية القلمس حذيفة وغيرهم.

قال القاضي أبو محمد: وقال رسول الله ﷺ: «لا عَدْوَى ولا هامَةَ ولا صَفَرَ»[٢]، فقال بعض الناس: إنه يريد بقوله: «لا صفر» هذا النسيء، وقيل غيرُ ذلك.

قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ / وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾. [٢/ ٢٣٨]

هذه الآية هي بلا اختلاف نازلة عتاباً على تخلُّفِ مَن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وكانت سنةَ تسع من الهجرة بعد الفتح بعام، غزا فيها الرومَ في عشرين ألفاً بين راكب وراجل، وتخلف عنه قبائل من الناس ورجال من المؤمنين كثير ومنافقون، فالعتاب في هذه الآية هو للقبائل وللمؤمنين الذين كانوا بالمدينة، وخص الثلاثة كعب ابن مالك ومُرَارة بن الربيع[٣] وهلال بن أمية[٤] بذلك التذنيب الشديد بحسب مكانهم

---

(١) الأمالي لأبي علي القالي (١/ ٤)، وهو البغدادي.

(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٥٧١٧) (٥٧٥٧) (٥٧٧٠) ومسلم (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) مرارة بن الربيع الأنصاري الأوسيّ من بني عمرو بن عوف، ويقال: إن أصله من قضاعة، صحابي مشهور، شهد بدراً على قول، هو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم. انظر: الإصابة (٦/ ٥٢).

(٤) هو هلال بن أميّة بن عامر الأنصاريّ الواقفيّ، شهد بدراً وما بعدها، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم. الإصابة (٦/ ٤٢٨).

من الصحبة إذ هم من أهل بدر وممن يُقتدى بهم، وكان تخلفهم لغير علة حسب ما يأتي.

وقوله: ﴿مَا لَكُمۡ﴾ استفهام بمعنى التقرير والتوبيخ.

وقوله: ﴿قِيلَ﴾، يريد النبي ﷺ، إلا أن صرفه الفعل [لما لم يسمَّ][(١)] فاعله يقتضي إغلاظاً ومخاشنة مّا، و«النَّفْر»: هو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث، يقال في ابن آدم: نفر إلى الأمر يَنْفِر نفيراً ونَفْراً، ويقال في الدابة: نفرت تنفُر بضم الفاء نفوراً.

وقوله: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ أصله: تثاقلتم، أدغمت التاء في الثاء فاحتيج إلى ألف الوصل، كما قال: ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ﴾ [البقرة: ٧٢] وكما تقول: ازَّيَّن، وكما قال الشاعر:

[البسيط] تُولِي الضجيعَ إِذَا ما استافها خَصِرا عَذْبَ المذاقِ إِذَا ما اتَّابع الْقُبَلُ[(٢)]

وقرأ الأعمش فيما حكى المهدوي وغيره: (تَثَاقلتم) على الأصل[(٣)]، وذكرها أبو حاتم: (تَتَثاقلتم) بتاءين ثم ثاء مثلثة، وقال: هي خطأ أو غلط، وصوَّب (تثاقلتم) بتاء واحدة وثاء مثلثة أنْ لو قرئ بها[(٤)].

وقوله: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ عبارة عن تخلفهم ونكولهم وتركهم الغزو لسكنى ديارهم والتزام نخلهم وظلالهم، وهو نحو من ﴿أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وقوله: ﴿أَرَضِيتُم﴾ تقرير، يقول: أرضيتم نَزْرَ الدنيا على خطير الآخرة وحظها الأسعد.

ثم أخبر فقال: إن الدنيا بالإضافة إلى الآخرة قليلٌ نزرٌ، فتعطي قوة الكلام التعجب من ضلال من يرضى النزر الفاني[(٥)] بدل الكثير الباقي.

---

(١) في المطبوع: «لا يسمى».

(٢) البيت بلا نسبة في معاني القرآن للفراء (١/ ٤٣٨)، وتفسير الطبري (٢/ ٢٢٤).

(٣) التحصيل للمهدوي (٣/ ٢٥٨)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧١) وهي شاذة.

(٤) لم أجده.

(٥) زيادة من نجيبويه.

وقوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾ الآية، ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ﴾ شرط وجواب، وقوله: ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ لفظ عام يدخل تحته أنواع عذاب الدنيا والآخرة، والتهديدُ[١] بعمومه أشد تخويفاً.

وقالت فرقة: يريد: يعذبكم بإمساك المطر عنكم، وروي عن ابن عباس أنه قال: استنفر رسول الله ﷺ قبيلة من القبائل فقعدت، فأمسك الله عنها المطر وعذبها به[٢].

و(أليم) بمعنى: مُؤْلِم، بمنزلة قول عمرو بن معد يكرب:

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعي السَّمِيعُ[٣] .... [الوافر]

[بمعنى: المسمع][٤].

وقوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ توعُّد بأن يبدل لرسول الله ﷺ قوماً لا يقعدون عند استنفاره إياهم.

والضمير في قوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ عائد على الله عز وجل، أي: لا ينقص ذلك من عزه وعز دينه، ويحتمل أن يعود على النبي ﷺ وهو أليق.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: على كل شيء مقدور، وتبديلُهم منه ليس بمحال[٥] ممتنع.

قوله عز وجل: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ

---

(١) في الأصل: «في التهديد».

(٢) ضعيف، هذا الحديث أخرجه أبو داود (٢٥٠٨)، والطبري (١٤/ ٢٥٣)، والحاكم (٢/ ١١٤) من طريق: زيد بن الحباب قال: حدثني عبد المؤمن بن خالد الحنفي قال: حدثني نجدة الخراساني قال: سمعت ابن عباس به. ونجدة فيه جهالة.

(٣) تقدم في تفسير الآية (١٠) من سورة البقرة.

(٤) سقط من المطبوع، وفي الأصل والحمزوية: «المستمع».

(٥) في نجيبويه: بحال.

ﭐلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

هذا أيضاً شرط وجواب، والجواب أيضاً[١] في الفاء من قوله: ﴿فَقَدۡ﴾ وفيما بعدها.

قال النقاش: هذه أول آية نزلت من سورة براءة[٢].

ومعنى الآية: أنكم إن تركتم نصره فالله متكفل به، إذ قد نصره في موضع القلة والانفراد وكثرة العدو، فنصرُه إياه اليوم أحرى منه حينئذ.

وقوله: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يريد: فعلوا من الأفاعيل ما أدَّى إلى خروجه، وأسند الإخراج إليهم إذ المقصودُ تذنيبهم، ولما كان مقصد أبي سفيان بن الحارث الفخر[٣] في قوله: مَنْ طَـرَّدْتُ كُلَّ مُطَـرَّدِ[٤]، لم يقرِّره النبي ﷺ[٥].

والإشارة إلى خروج رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة وفي صحبته أبو بكر، واختصار القصة: أن رسول الله ﷺ كان ينتظر أمر الله عز وجل في الهجرة من مكة [إلى المدينة][٦]،

---

(١) زيادة من جار الله وأحمد٣.

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ١٤٢).

(٣) سقط من الأصل.

(٤) هذا جزء من بيت لأبي سفيان بن الحارث رضي الله عنه تقدم التعليق عليه في تفسير الآية (١٩٥) من سورة آل عمران.

(٥) صححه الحاكم على شرط مسلم، هذا الحديث أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٥١) من طريق عبيد الله ابن موسى قال: أخبرنا عمرو بن أبي زائدة، عن أبي إسحاق قال: كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجو أصحاب رسول الله...، وهذا مرسل، ثم أخرجه من طريق علي بن عيسى النوفلي عن أبيه عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث عن أبيه عبد الله بن الحارث بن نوفل أن أبا سفيان بن الحارث كان يشبه بالنبي ﷺ، وأنه كان أتى الشام، والحاكم في المستدرك (٣/ ٤٦) من طريق: ابن إسحاق قال: حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله عنه: قال: مضى رسول الله ﷺ وأصحابه عام الفتح... قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. اهـ.

(٦) زيادة من نجيبويه.

وكان أبو بكر حين ترك ذمة ابن الدَّغِنَّة قد أراد الخروج من مكة، فقال له رسول الله ﷺ: «اصبر فلعل الله أن يسهل في الصحبة»، فلما أذن الله لرسوله في الخروج تجهز من دار أبي بكر وخرجا، فبقيا في الغار الذي في جبل ثور في غربي مكة ثلاث ليال، وخرج المشركون في أثرهم حتى انتهوا إلى الغار فطمس عليهم الأثر، وقال أبو بكر للنبي ﷺ: [يا رسول الله](١)، لو نظر أحدهم لقدمه لرآنا، فقال له النبي ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»(٢).

ويروى أن العنكبوت نسجت على باب الغار، ويروى أن الحمامة عششت عند باب الغار، ويروى أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يجعل ثماماً في باب الغار، فتخيله المشركون نابتاً وصرفهم الله عنه(٣)، ووقع في «الدلائل» في حديث النبي ﷺ أنه نبتت على باب الغار راءة أمرها الله بذلك في الحين(٤)، قال الأصمعي: جمعها راء، وهي من نبات السهل(٥).

وروي أن أبا بكر لما دخل الغار خرق رداءه فسدَّ به كوى(٦) الغار لئلا يكون فيها حيوان يؤذي النبي ﷺ، وروي أنه بقيت واحدة فسدَّها برجله فوقى الله تعالى(٧)، وكان يروح عليهما باللبن عامر بن فُهَيْرَةَ مولى أبي بكر(٨).

---

(١) زيادة من التركية وجار الله ونور العثمانية.

(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٤٦٦٣) ومسلم (٢٣٨١) من حديث أنس عن أبي بكر.

(٣) ذكر العنكبوت والحمام في حديث الغار لا يصح سنداً ومتناً، تراجع السلسلة الضعيفة للألباني (١١٢٨، ١١٢٩).

(٤) ليس في المطبوع منه، ولم أجده لغير المؤلف.

(٥) غريب الحديث لإبراهيم الحربي (٢/ ٧٨٦)، تهذيب اللغة (١٥/ ٢٣٥).

(٦) كتبت في المطبوع: «كواء».

(٧) ضعيف، هذا الحديث أخرجه الدينوري في المجالسة (٢٢٣٨) وعزاه في كنز العمال (٣٥٦١٥) لأبي الحسين بن بشران في فوائده، والبيهقي في الدلائل، واللالكائي في السنة، وابن عساكر، وهو من طريق: الفرات بن السائب، عن ميمون بن مهران، عن ضبة بن محصن العنزي، قال: قلت لعمر ابن الخطاب...، والفرات متروك منكر الحديث.

(٨) صحيح، هذا الحديث أخرجه البخاري (٣٩٠٥) (٤٠٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقوله: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ معناه: أحد اثنين، وهذا كثالث ثلاثة، ورابع أربعة، فإذا اختلف اللفظ فقلت: رابع ثلاثة، فالمعنى: صيَّر الثلاثة بنفسه أربعة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ بنصب الياء من ﴿ثَانِيَ﴾، قال أبو حاتم: لا نعرف / غير[1] هذا. [٢/ ٢٣٩]

وقرأت فرقة: (ثانيْ اثنين) بسكون الياء [من (ثانيْ)، قال أبو الفتح: حكاها أبو عمرو بن العلاء، ووجهُها أنه سكن الياء][2] تشبيهاً لها بالألف.

قال القاضي أبو محمد: فهذه كقراءة الحسن[3]: (ما بقيْ من الربا)، وكقول جرير:

[البسيط] هُـوَ الْخَلِيفَـةُ فَارْضَـوْا مَا رَضَـيْ لَكُمُ ... مَاضي الْعَزِيمَةِ مَا فِي حُكْمِهِ جَنَفُ[4]

وصاحبه: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وروي أن أبا بكر الصديق قال يوماً وهو على المنبر: أيكم يحفظ سورة التوبة، فقال رجل: أنا، فقال: اقرأ، فقرأ، فلما انتهى إلى قوله: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بكى وقال: أنا والله صاحبه[5].

وقال الليث: ما صحب الأنبياءَ مثلُ أبي بكر الصديق.

وقال سفيان بن عُيينةَ: خرج أبو بكر بهذه الآية من المعاتبة التي في قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾[6].

---

(١) ساقطة من نجيبويه.

(٢) ساقط من التركية، والقراءة شاذة انظرها مع التوجيه في المحتسب (١/ ٢٨٩).

(٣) زيادة من التركية وجار الله ونور العثمانية.

(٤) تقدم عزوه له في تفسير الآية (٢٧٨) من سورة البقرة.

(٥) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٢٦٠) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠٠) من طريق ابن وهب، قال: أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبيه: أن أبا بكر الصديق رحمة الله تعالى عليه حين خطب... وظاهره الإرسال.

(٦) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ١٤٣).

قال القاضي أبو محمد: أقول بل خرج منها كلُّ مَن شاهد غزوة تبوك ولم يتخلف، وإنما المعاتبة لمن تخلف فقط، أمَا إن هذه الآية منوِّهةٌ بأبي بكر حاكمة بقدمه[١] وسابقته في الإسلام رضي الله عنه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ يريد به النصر والإنجاء واللطف.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ الآية، قال حبيب بن أبي ثابت: الضمير في ﴿عَلَيۡهِ﴾ عائد على أبي بكر، لأن النبي ﷺ لم يزل ساكن النفس ثقةً بالله عز وجل[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قولُ مَن لم ير السكينة إلا سكون النفس والجأش.

وقال جمهور الناس: الضمير عائد على النبي ﷺ، وهذا أقوى.

و«السكينة» عندي إنما هي ما ينزله الله على أنبيائه من الحياطة لهم، والخصائصِ التي لا تصلح إلا لهم، كقوله تعالى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ إلى آخر الآية يراد به ما صنعه الله لنبيه إلى وقت تبوك من الظهور والفتوح، لا[٣] أن تكون هذه الآية تختص بقصة الغار والنجاة إلى المدينة، فعلى هذا تكون الجنود الملائكة النازلين ببدر وحنين.

ومن رأى أن الآية مختصة بتلك القصة قال: الجنود ملائكة بشروه بالنجاة وبأن الكفار لا ينجح لهم سعي.

وفي مصحف حفصة: (فأنزل الله سكينته عليهما وأيدهما)، وقرأ مجاهد: (وآيده) بألفين[٤]، والجمهور: ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ بشد الياء.

---

(١) في المطبوع: «وتقدمه».

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠١).

(٣) في التركية: «إلا».

(٤) انظر قراءة حفصة في تفسير السمعاني (٢/ ٣١٢)، وقراءة مجاهد في تفسير الثعلبي (٥/ ٤٨)، كتبت في جار الله: «آيدهما».

وقوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ يريد بإدحارها ودحضها وإذلالها.

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ قيل: يريد «لا إله إلا الله»، وقيل: الشرع بأسره.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَكَلِمَةُ﴾ بالرفع على الابتداء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ويعقوب: ﴿وكلمةَ﴾ بالنصب[١] على تقدير وجَعَل كلمةَ، قال الأعمش: ورأيت في مصحف أنس بن مالك المنسوبِ إلى أبيِّ بن كعب: (وجعل كلمتَه هي العليا)[٢].

قوله عز وجل: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

هذا أمر من الله عز وجل لأمة محمد ﷺ بالنفْر إلى الغزو، فقال بعض الناس: هذا أمر عام لجميع المؤمنين تَعَيَّن به الفرض[٣] على الأعيان في تلك المدة، ثم نسخه الله عز وجل بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]، روي ذلك عن الحسن وعكرمة[٤].

وقال جل الناس: بل هذا حضٌّ، والأمر في نفسه موقوف على فرض الكفاية، ولم يُقصد بالآية فرضُه على الأعيان.

وأما قوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فنصبٌ على الحال من الضمير في قوله: ﴿ٱنفِرُواْ﴾،

---

(١) وهي قراءة عشرية، انظر عزوها ليعقوب في النشر (٢/ ٢٧٩)، وموافقة الحسن والمطوعي في إتحاف فضلاء البشر (ص: ٣٠٤).

(٢) وهي مخالفة للمصحف، تابعه عليها في البحر المحيط في التفسير (٥/ ٤٢٢).

(٣) في المطبوع وأحمد٣: «فعبر عنه بالفرض».

(٤) ورد في الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/٥٠٣) أن الحسن وعكرمة قالا: إن قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال نسختها ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ الآية. ولم أجد لهما غير هذا.

ومعنى الخفة والثقل هنا مستعار لمن يمكنه السفر بسهولة ومن يمكنه بصعوبة، وأما من لا يمكنه كالعُمْي ونحوهم فخارج عن هذا.

وروي أن ابن أم مكتوم جاء إلى النبي ﷺ فقال: أعليّ أن أنفر؟ فقال له: «نعم»، حتى نزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١][١].

وذكر الناس من معاني الخفة والثقل أشياءَ لا وجه لتخصيص بعضها دون بعض، بل هي وجوه متفقة:

فقيل: الخفيف: الغني، والثقيل: الفقير، قاله مجاهد.

وقيل: الخفيف: الشاب، والثقيل: الشيخ، قاله الحسن وجماعة.

وقيل: الخفيف: النشيط، والثقيل: الكاسل، قاله ابن عباس[٢] وقتادة[٣].

وقيل: المشغول ومن لا شغل له، قاله الحكم بن عيينة وزيد بن علي[٤].

وقيل: الذي له ضيعة[٥] هو الثقيل ومن لا ضيعة له هو الخفيف، قاله ابن زيد[٦].

وقيل: الشجاع هو الخفيف، والجبان هو الثقيل، حكاه النقاش[٧].

وقيل: الراجل هو الثقيل، والفارس هو الخفيف، [قاله الأوزاعي][٨].

قال القاضي أبو محمد: وهذان الوجهان الآخران ينعكسان، وقد قيل ذلك ولكنه بحسب وطأتهم على العدو، فالشجاع هو الثقيل، وكذلك الفارس، والجبان

---

(١) لم أقف عليه مسنداً، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٦١).

(٢) أخرجه الطبري (١٤/ ٢٦٦) من طريق العوفي عن ابن عباس.

(٣) انظر أقوال مجاهد والحسن وقتادة في تفسير الطبري (١٤/ ٢٦٦)، وانظر: تفسير الماوردي (٢/ ٣٦٥).

(٤) تفسير الثعلبي (٥/ ٤٩). وفيه الحكم بلا نسبة والظاهر أنه بن عتيبة، وفي جميع النسخ ابن عيينة ولعله خطأ، وقد تقدم مثله.

(٥) في جار الله: صنعة في الموضعين.

(٦) تفسير الطبري (١٤/ ٢٦٦)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٤٩).

(٧) تفسير القرطبي (٨/ ١٥٠).

(٨) ساقط من التركية، وانظر: تفسير الماوردي (٢/ ٣٦٥).

هو الخفيف، وكذلك الراجل، وكذلك ينعكس الفقير والغني، فيكون الغني هو الثقيل بمعنى صاحب الشغل، ومعنى هذا أن الناس أُمروا جملة.

وهذه الأقوال إنما هي على معنى المثال في الثقل والخفة.

وقال أبو طلحة: ما أسمع اللهَ عذر أحداً، وخرج إلى الشام فجاهد حتى مات[١].

وقال أبو أيوب[٢]: ما أجدني أبداً إلا ثقيلًا أو خفيفاً[٣].

وروي أن بعض الناس رأى في غزوات الشام رجلاً سقط حاجباه على عينيه من الكبر، فقال له: يا عم، إن الله قد عذرك، فقال: يا ابن أخي، إنَّا قد أمرنا بالنفر خفافاً وثقالاً[٤].

وأسند الطبري عمن رأى المقداد بن الأسود بحمص وهو على تابوت صرَّافٍ وقد فَضَل على التابوت من سِمَنه وهو يتجهز للغزو، فقال له: لقد عذرك الله، فقال: أتت علينا سورة البعوث: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[٥]، وروي: سورة البحوث.

وقوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ وصفٌ لأكمل ما يكون من الجهاد

---

(١) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٢٦٢) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٩/ ٤٢٢) من طريق ابن عيينة، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أنس، عن أبي طلحة. وابن جدعان ضعيف، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٠٩) إلى جماعة من المصنفين.

(٢) في جار الله: «أبو الدرداء».

(٣) أخرجه الطبري (١٤/ ٢٦٢) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٩/ ٤٢٢) من طريق ابن عيينة، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أنس، عن أبي طلحة. وابن جدعان ضعيف.

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٢٦٤).

(٥) إسناده فيه جهالة، أخرجه الطبري (١٤/ ٢٦٧) من طريق: الوليد بن مسلم قال: حدثنا حريز بن عثمان، عن راشد بن سعد، عمن رأى المقداد بن الأسود، ثم رواه من طريق: بقية بن الوليد قال: حدثنا حريز قال: حدثني عبد الرحمن بن ميسرة قال: حدثني أبو راشد الحبراني قال: وافيت المقداد ابن الأسود، والوليد بن مسلم مقدم على بقية، وراشد بن سعد كثير الإرسال، ولم يسم من روى عنه.

وأنفعِه[١] عند الله تعالى، فحض على كمال الأوصاف، وقدِّمت الأموال في الذكر إذ هي أول مَصْرِفٍ وقت التجهُّز فرتب الأمر كما هو في نفسه، ثم أخبر أن ذلك لهم خير للفوز برضى الله وغلبة العدو ووراثة الأرض.

وفي قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تنبيه وهزٌّ للنفوس.

وقوله: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ الآية، ظاهر هذه الآية وما يحفظ من قصة تبوك: أن الله لما أمر رسوله بغزو الروم ندب الناسَ، وكان ذلك في شدة من الحر وطيب من الثمار والظلال، فنفر / المؤمنون، واعتذر منهم لا محالة فريق لا سيما من القبائل المجاورة [٢/ ٢٤٠] للمدينة، ويدل على ذلك قوله في أول هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، لأن هذا الخطاب ليس للمنافقين خاصة بل هو عام، واعتذر المنافقون بأعذار كاذبة، وكانوا بسبيلِ كسلٍ مُفْرِطٍ وقصدٍ للتخلف، وكانت أعذار المؤمنين حقيقة ولكنهم تركوا الأَولى من التحامل[٢]، فنزل ما سلف من الآيات في عتاب المؤمنين، ثم ابتدأ من هذه الآية ذكر المنافقين وكشف ضمائرهم، فيقول: لو كان هذا الغزو لعرض ـ أي: لمال وغنيمة تنال قريباً بسفرٍ قاصد يسير ـ لبادروا إليه، لا لوجه الله ولا لظهور كلمته، ولكن بعدت عليهم الشقة في غزو الروم، أي: المسافة الطويلة.

وذكر أبو عبيدة أن أعرابيّاً قدم البصرة، وكان قد حمل حَمالةً فعجز عنها، وكان معه ابن له يسمى الأحوص فبادر الأحوص، أباه بالقول، فقال: إنَّا مَن تعلمون وأبناء سبيل، وجئنا من شُقَّة ونطلب في حق وتُنطوننا ويجزيكم الله، فتهيأ أبوه ليخطب، فقال له: يا إياك، إني قد كفيتك[٣].

قال القاضي أبو محمد: «يا» تنبيهٌ، و«إياك» نهي.

---

(١) في الأصل والحمزوية: «وأنفسه».

(٢) في نجيبويه: «التجامل».

(٣) مجاز القرآن (١/ ٢٦٠)، وفيه: «الأخوص الرياحي» بدل «الأحوص»، ولم أعرفه.

وقرأ عيسى بن عمر: (الشِّقة) بكسر الشين[١].

وقرأ الأعرج: (بعِدت) بكسر العين[٢]، وحكى أبو حاتم أنها لغة بني تميم في اللفظتين[٣].

وقوله: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ يريد المنافقين، وهذا إخبار بغيب، وقوله: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ يريد: عند تخلفهم [مجاهرةً وكفرِهم][٤]، فكأنهم يوجبون على أنفسهم الحتم بعذاب الله.

ثم أخبر أن الله الذي هو أعدل الشاهدين يعلم كذبهم، وأنهم كانوا يستطيعون الخروج ولكنهم تركوه كفراً ونفاقاً، وهذا كله في الجملة لا بتعيينِ شخص، ولو عيِّن لقتل بالشرع.

وقرأ الأعمش على جهة التشبيه بواو ضمير الجماعة: (لوُ استطعنا) بضم الواو، ذكره ابن جني، ومثَّله بقوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٨]، ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ [البقرة: ٩٤]، ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾ [البقرة: ١٦][٥] وما أشبهه.

قوله عز وجل: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

هذه الآية في صنفٍ مبالغٍ في النفاق، واستأذنوا دون اعتذار، منهم عبد الله بن أبيٍّ والجدُّ بن قيس ورفاعة بن التابوت ومَن اتبعهم، فقال بعضهم: إيذن لي ولا تفتني،

---

(١) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٨)، في نور العثمانية: «قال» بدل «قرأ».

(٢) وهي شاذة، انظر: الشواذ للكرماني (ص: ٢١٤)، وزاد أبان بن تغلب.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في نجيبويه: «بمجاهرة كفرهم»، وفي نور العثمانية: «مجاهدة وكفرهم».

(٥) انظر القراءة وتوجيهها في المحتسب (١/ ٢٩٢).

وقال بعضهم: إيذن لنا في الإقامة، فأذن لهم رسول الله ﷺ استيفاءً[١] منه ﷺ، وأخذاً بالأسهل من الأمور، وتوكُّلاً على الله، وقال مجاهد: إنَّ بعضهم قال: نستأذنه، فإن أذن في القعود قعدنا وإلا قعدنا، فنزلت الآية في ذلك[٢].

وقالت فرقة: إن رسول الله ﷺ، أذن لهم دون أن يؤمر بذلك، فعفي عنه ما يلحق من هذا، وقدِّم له ذكر العفو قبل العتاب إكراماً له ﷺ، وقال عمرو بن ميمون الأودي[٣]: إن رسول الله ﷺ صدع[٤] برأيه في قصتين دون أن يؤمر فيهما بشيء: هذه، وأمر أسارى بدر، فعاتبه الله فيهما[٥].

وقالت فرقة: بل قوله في هذه الآية: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ استفتاح كلام، كما تقول: أصلحك الله وأعزك الله، ولم يكن منه ﷺ ذنبٌ يُعفى عنه فيه، لأن صورة الاستنفار وقبول الإعذار مصروفة إلى اجتهاده، وأما قوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ﴾ فهي على معنى التقرير.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ يريد في استئذانك، وأنك لو لم تأذن لهم خرجوا معك.

وقوله: ﴿وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ يريد في أنهم استأذنوك يظهرون لك أنهم يقفون عند حدك وهم كذبة قد عزموا على العصيان أذنت لهم أو لم تأذن، وقال الطبري: معناه حتى تعلم الصادقين في أن لهم عذرا والكاذبين في أن لا عذر لهم[٦].

قال القاضي أبو محمد: وعلى هذا التأويل يختلط المتعذِّرون، وقد قدمنا أن فيهم مؤمنين كالمستأذنين وهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، والأول أصوب والله أعلم.

---

(١) في المطبوع: «استبقاء منه عليهم». وفي نجيبويه ونور العثمانية: «استبقاء منه».
(٢) تفسير الطبري (١٤/ ٢٧٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠٥).
(٣) في نور العثمانية: «الأزدي»، وفي السليمانية: «الأسدي»، وفي نجيبويه: «الأوجه».
(٤) في نور العثمانية: «صرح».
(٥) تفسير الطبري (١٤/ ٢٧٣)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٥٠).
(٦) تفسير الطبري (١٤/ ٢٧٣)، بتصرف.

وأدخل الطبري أيضاً في تفسير هذه الآية عن قتادة أن هذه الآية نزلت بعدها الآية الأخرى في سورة النور: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢][1].

قال القاضي أبو محمد: وهذا غلط، لأن آية النور نزلت سنة أربع من الهجرة في غزوة الخندق في استئذان بعض المؤمنين رسولَ الله ﷺ في بعض شأنهم في بيوتهم في بعض الأوقات، فأباح الله له أن يأذن، فتباينت الآيتان في الوقت والمعنى.

وقوله: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ الآية، نفى عن المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله ﷺ في التخلف دون عذر كما فعل الصنف المذكور من المنافقين.

وقوله: ﴿أَن يُجَـٰهِدُواْ﴾ يحتمل أن تكون ﴿أَن﴾ في موضع نصب على معنى: لا يستأذنون في التخلف كراهيةَ أن يجاهدوا، قال سيبويه: ويحتمل أن تكون في موضع خفض[2].

قال القاضي أبو محمد: على معنى: لا يحتاجون إلى أن يستأذنوا في أن يجاهدوا بل يمضون قدماً، أي: فهم أحرى ألا يستأذنوا في التخلف.

ثم أخبر بعلمه تعالى بالمتقين، وفي ذلك تعيير للمنافقين وطعن عليهم بيِّن.

قوله عزَّ جلّ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

هذه الآية تنص على أن المستأذنين إنما هم مخلصون للنفاق، ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ معناه: شكّت، والريب نحو الشك، و﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يتحيرون لا يتجه لهم هدًى، ومن هذه الآية نزعَ أهلُ الكلام في حدِّ الشَّك أنه ترددٌ بين أمرين.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٢٧٣).

(٢) لعله يقصد أن هذا مذهبه في مثل هذا، أما هذه الآية فلم أجد له فيها شيئاً خاصّاً بها.

والصواب في حده أنه توقف بين أمرين، والتردد في الآية إنما هو في ريب هؤلاء المنافقين؛ إذ كانوا تخطر لهم صحة أمر النبي ﷺ أحياناً، وأنه غير صحيح أحياناً، ولم يكونوا شاكِّين طالبين للحق؛ لأنه كان يتضح لهم لو طلبوه، بل كانوا مذبذبين لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء كالشاة العائرة[1] بين الغنمين، وأيضاً فبين الشك والريب فرقٌ مّا، وحقيقة الريب إنما هو الأمر يستريب به الناظر فيخلط عليه عقيدته، فربما أدى إلى شكٍّ وحيرةٍ، وربما أدَّى إلى علم ما في[2] النازلة التي هو فيها، ألا ترى أن قول الهذلي:

كَـأَنَّـنِـي أَرَبْـتُـهُ بِـرَيْـبِ[3] [الرجز]

لا يتجه أن يفسر بشك.

قال الطبري: وكان جماعة من أهل العلم يرون أنَّ هاتين الآيتين منسوختان بالآية التي ذكرنا في سورة النور، وأسند عن الحسن وعكرمة أنهما قالا في قوله: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٤٤] إلى قوله: ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾: نسختها الآية التي في النور: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢][4].

قال القاضي أبو محمد: وهذا غلطٌ وقد تقدَّم ذكره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ الآية، حجةٌ على المنافقين، أي: ولو

---

(١) تحرفت في نجيبويه إلى: «العائدة».

(٢) «ما» في ساقطة من المطبوع.

(٣) البيت لخَالِد بن زُهَيْر الهذلي كما في جمهرة اللغة (١/ ٣٣٢)، وأمالي القالي (٢/ ٢٠٨)، وتفسير الطبري (١٥/ ٣٧٠).

(٤) انظر ما عزاه للطبري من قول وإسناد عن الحسن وعكرمة في تفسيره (١٤/ ٢٧٦).

أرادوا الخروج بنياتهم لنظروا في ذلك واستعدوا له قبل كونه، والعُدَّة: ما يُعَدُّ للأمر ويروى له من الأشياء.

وقرأ جمهور الناس: ﴿عُدَّةً﴾ بضم العين وتاء تأنيث.

وقرأ محمد بن عبد الملك بن مروان وابنه معاوية بن محمد[١]: (عُدَّهُ) بضم العين وهاء إضمار[٢]، يريد: عدته، فحذفت تاء التأنيث لما أضاف، كما قال: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، يريد: وإقامة الصلاة، هذا قول الفراء[٣]، وضعفه أبو الفتح، وقال: إنما حذف تاء التأنيث وجعل هاء[٤] الضمير عوضاً منها[٥].

وقال أبو حاتم: هو جمع عُدَّة على عُدٍّ، كبُرَّةٍ وبُرٍّ، ودُرةٍ ودُرٍّ، والوجه فيه: عددٌ، ولكن لا توافق خط المصحف[٦].

وقرأ عاصم فيما روى عنه أبان، وزر بن حبيش: (عِدَّه) بكسر العين وهاء[٧] إضمار، وهو عندي اسم لما يُعدُّ كالذِّبح والقِتل؛ لأن العدو سمي قِتلاً إذ حقُّه أن يقتل، هذا في معتقد العرب حين سمته.

و﴿ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ نفوذهم لهذه الغزوة.

و«التثبيط»: التكسيل، وكَسْرُ العزم.

---

(١) محمد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو جعفر الواسطي الدمشقي، روى عن يزيد بن هارون، وغيره، وعنه: أبو داود، وابن ماجه، وجماعة، ووثقه الدارقطني وأبو حاتم، توفي سنة (٢٦٦هـ). تاريخ الإسلام (٢٠/ ١٧٢)، ومعاوية ابنه لم أجد له ذكراً.

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لمحمد في المحتسب (١/ ٢٩٢)، وعزاها في مختصر الشواذ (ص: ٥٨) لمعاوية بن أبي سفيان.

(٣) انظر: معاني القرآن للفراء (٣/ ٢١٣).

(٤) في نجيبويه: «هذا».

(٥) انظر: المحتسب لابن جني (١/ ٢٩٢).

(٦) البحر المحيط في التفسير (٥/ ٤٢٨).

(٧) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٨).

وقوله: ﴿وَقِيلَ﴾ يحتمل أن يكون حكاية عن الله تعالى، أي: قال الله في سابق قضائه: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

ويحتمل أن يكون حكاية عنهم، أي: كانت هذه مقالة بعضهم لبعض إمَّا لفظاً وإمَّا معنًى، فحكي في هذه الألفاظ التي تقتضي لهم مذمة إذ القاعدون النساء والأطفال.

ويحتمل أن يكون عبارة عن إذن محمد ﷺ لهم في القعود، أي: لما كره الله خروجهم يسَّر أن قلت لهم: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾، و«القعود» هنا: عبارة عن التخلف والتراخي، كما هو في قول الشاعر:

.... وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي[1] [البسيط]

وليس للهيئة في هذا كله مدخل، وكراهيةُ الله انبعاثهم رفقٌ بالمؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ﴾ الآية، خبر بأنهم لو خرجوا لكان خروجهم مضرة، وقوله: ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ استثناء من غير الأول، وهذا قول من قدَّر أنه لم يكن في عسكر رسول الله ﷺ خبال فيزيدَ المنافقون فيه، فكأن المعنى: ما زادوكم قوة ولا شدة لكن خبالاً.

ويحتمل أن يكون الاستثناء غير منقطع، وذلك أنَّ عسكر رسول الله ﷺ في غزوة تبوك كان فيه منافقون كثير، ولهم لا محالة خبال، فلو خرج هؤلاء لالتأموا مع الخارجين فزاد الخبال، والخبال: الفساد في الأشياء المؤتلفة الملتحمة، كالمودات وبعض[2] الأجرام، ومنه قول الشاعر:

أَبَنِي لُبَيْنَى لَسْتُمُ بِيَدٍ إِلَّا يَداً مَخْبُولَةَ الْعَضُدِ[3] [السريع]

---

(١) صدره: دع المكارم لاترحل لبغيتها، وهو للحطيئة كما في العين (١/ ١٤٣)، والعقد الفريد (٢/ ٣٣٥)، والأغاني (٢/ ١٧٧).

(٢) في التركية: «نقص».

(٣) البيت لأوس بن حجر، كما في تهذيب اللغة (٧/ ١٨١)، ومجمل اللغة لابن فارس (ص: ٣١٢)، وأساس البلاغة (١/ ٢٣٠).

وقرأ ابن أبي عبلة: (ما زادكم) بغير واو[١].

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ﴾ ومعناه: لأسرعوا السير.

و﴿خِلَٰلَكُمۡ﴾ معناه: فيما بينكم من هنا إلى هنا سداً لموضع[٢] الخلة بين الرجلين، و«الإيضاع»: سرعة السير. وقال الزجَّاج: ﴿خِلَٰلَكُمۡ﴾ معناه: فيما يُخِلُّ بكم[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيفٌ، وماذا يقول في قوله: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥]؟.

وقرأ مجاهد ـ فيما حكى النقاش عنه ـ : (ولأوفضوا)[٤]، وهو أيضاً بمعنى الإسراع، ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

وحكي عن الزبير أنه قرأ: (ولأرقصوا)[٥]، قال أبو الفتح: هذه من رَقَصَ البعير: إذا أسرع في مشيه، رَقَصاً ورَقَصاناً، ومنه قول حسان بن ثابت:

[الكامل]
بِزُجَاجَـةٍ رَقَصت بِمَا فِـي قَعْرِهَا ... رَقَصَ القَلُوصِ بِرَاكِبٍ مُسْتَعْجِلِ[٦]

ووقعت: (ولا أوضعوا)، بألف بعد (لا) في المصحف، وكذلك وقعت في قوله: ﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ [النمل: ٢١][٧]، قيل: وذلك لخشونة هجاء الأولين.

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها له في الشواذ للكرماني (ص: ٢١٥).
(٢) في المطبوع والأصل ونور العثمانية: «يسد الموضع الخلة».
(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٥١).
(٤) وهي شاذة، انظرها في: البحر المحيط (٥/ ٤٣٠)، ونقلها الكرماني (ص: ٢١٥) عن ابن الزبير في أحد أوجهه.
(٥) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٩٣)، مع التوجيه، وفي الحمزاوية والمطبوع وأحمد٣: «ولأرفضوا»، وكذلك «رفضاً ورفضاناً» فيهن وفي نور العثمانية.
(٦) انظر عزوه له في العين (٥/ ٦٢)، وجمهرة اللغة (٢/ ٧٤٢)، والأغاني (١٧/ ١٧٧)، وسقط الشطر الأول من الأصل.
(٧) انظر: المحكم في نقط المصاحف للداني (١/ ١٧٤).

قال الزجَّاج: وإنما وقعوا في ذلك؛ لأن الفتحة في العبرانية وكثيرٍ من الألسنة تكتب ألفاً[١].

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أن تُمطل حركة اللام فيحدثَ[٢] ألف بين اللام والهمزة التي من (أوضع).

وقوله: ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ أي: يطلبون لكم الفتنة.

وقوله: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ﴾ قال سفيان بن عيينة، والحسن، ومجاهد، وابن زيد[٣]: معناه: جواسيس يستمعون الأخبار وينقلونها إليهم، ورجحه الطبري[٤].

قال النقاش: بناء المبالغة يضعِّف هذا القول[٥].

وقال جمهور المفسرين: معناه: وفيكم مطيعون سامعون لهم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ توعدٌ لهم ولمن كان من المؤمنين على هذه الصفة.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٥١).

(٢) في التركية ونجيبويه: «فتحذف».

(٣) في نجيبويه: «ابن ربيعة» بدل «ابن زيد».

(٤) انظر قول سفيان بن عيينة في: تفسير السمعاني (٢/ ٣٨)، وانظر قول الحسن في: النكت للماوردي (٢/ ٣٦٩)، وانظر قول مجاهد وابن زيد وترجيح الطبري له في: تفسير الطبري (١٤/ ٢٨١-٢٨٢).

(٥) لم أقف عليه.

في هذه الآية تحقيرُ شأنِهم، وذلك أنه أخبر أنهم قديماً[(١)] سعوا على الإسلام فأبطل الله سعيهم / ، ومعنى قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ ما كان من حالهم من وقت هجرة رسول الله ﷺ ورجوعهم عنه في أحد وغيرها، ومعنى ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾: دبَّروها ظَهراً لبطن، ونظروا في نواحيها وأقسامها وسعوا بكل حيلة. [٢/ ٢٤٣]

وقرأ مسلمة بن مُحاربٍ[(٢)]: (وقلَبوا لك) بالتخفيف في اللام[(٣)].

و﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾: الإسلام ودعوته، وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي﴾ نزلت في الجَدِّ بن قيس، وذكر أن رسول الله ﷺ، لما أمر بالغزو إلى بلاد الروم حرض الناس فقال للجد بن قيس: «هل لك العامَ في جِلَاد بني الأصفر؟»[(٤)]، وقال له وللناس: «اغزوا تغنموا بنات الأصفر»، فقال له الجد بن قيس: ائذن لي في التخلف ولا تفتنِّي بذكر بنات الأصفر، فقد علم قومي أني لا أتمالك عن النساء إذا رأيتهن[(٥)]، ذكر ابن إسحاق نحو هذا من القول الذي فيه فتور كثير وتخلُّف في الاعتذار.

وأسند الطبري أن رسول الله ﷺ قال: «اغزوا تبوك تغنموا بنات الأصفر»، فقال الجد: ائذن لي ولا تفتنا بالنساء[(٦)].

---

(١) في الأصل: «ربما»، بدل «قديماً».

(٢) في التركية: «مسيلمة»، وهو خطأ، وقد تقدم التعريف به قريباً في سورة الأنفال.

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٨).

(٤) ضعيف، أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٩٦٠٠)، من طريق عبد الرحمن بن بشير، عن محمد ابن إسحاق، ثنا سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً به، وعبد الرحمن بن بشير ـ وهو أبو أحمد الشيباني ـ: منكر الحديث، يروي عن ابن إسحاق غير حديث منكر قاله أبو حاتم، ثم إنه خولف فيه، فقد رواه سلمة بن الفضل الرازي، عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، وغيره من مشايخه، به معضلاً، أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ٢٨٧) عن ابن حميد، عن سلمه به، وسلمة بن الفضل هذا تكلموا فيه، لكن ثبتوه في ابن إسحاق، والحديث يُروى من طرق أخرى كلها مراسيل ومعضلات، ولا يصح منها شيء.

(٥) ضعيف، هذا الأثر أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ٢٨٧) من طريق مجاهد به مرسلًا.

(٦) ضعيف، وهو الأثر نفسه المتقدم آنفاً.

وهذا منزعٌ غير الأول إذا نظر، وهو أشبه بالنفاق والمحادَّة.

وقال ابن عباس: إنَّ الجد قال: ولكني أعينك بمالي[١].

وتأول بعض الناس قوله: ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ أي: لا تصعِّب عليَّ حتى أحتاج إلى مواقعة معصيتك ومخالفتك، فسهِّل أنت عليّ ودعني غير مجلح[٢]، وهذا تأويل حسن واقف مع اللفظ، لكن تظاهر ما روي من ذكر بنات الأصفر، وذلك معترض في هذا التأويل.

وقرأ عيسى بن عمر: (ولا تُفتنِّي) بضم التاء الأولى[٣]، قال أبو حاتم: هي لغة بني تميم. والأصفر: هو الروم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وكان أصفر اللون، فيقال للروم: بنو الأصفر، ومن ذلك قول أبي سفيان: أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر[٤]، ومنه قول الشاعر:

وَبَنُـو الأَصْفَـرِ الْكِرَامُ مُلُـوكُ الرْ   رُومِ لَـمْ يَبْـقَ مِنْهُـمُ مَذْكُـورُ[٥]   [الخفيف]

وذكر النقاش والمهدوي أن الأصفر رجلٌ من الحبشة وقع ببلاد الروم، فتزوج وأنسل بناتٍ لهنَّ جمالٌ[٦] وهذا ضعيفٌ.

---

(١) ضعيف، أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ٢٨٧) من طريق ابن جريج، عن ابن عباس رضي الله عنهما به، وهذا منقطع.

(٢) في التركية: «ملجلج»، وفي هامش أحمد٣: «غير محتاج».

(٣) وهي شاذة، انظر عزوها له مع قول أبي حاتم في البحر المحيط (٥/ ٤٣١)، ونسبها في مختصر الشواذ (ص: ٥٨) لإسماعيل المكي.

(٤) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه.

(٥) البيت لعدي بن زيد العبادي كما في الشعر والشعراء (١/ ٢١٩)، والعقد الفريد (٣/ ١٤١)، والأغاني (٢/ ١٣١).

(٦) انظر: التحصيل للمهدوي (٣/ ٢٥٣)، وقول النقاش لم أقف عليه.

وقوله: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْ﴾ أي: في الذي أظهروا الفرار منه بما تبين لك وللمؤمنين من نفاقهم، وصح عندكم من كفرهم وفسد مما[1] بينكم وبينهم.

و﴿سَقَطُواْ﴾ عبارة منبئة عن تمكن وقوعهم، ومنه: على الخبير سقطت، ثم قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وهذا توعُّدٌ شديدٌ لهم؛ أي: هي مآلهم ومصيرهم، كيف ما تقلبوا في الدنيا فإليها يرجعون، فهي محيطة بهذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ﴾ الآية أخبر تعالى عن معتقدهم وما هم عليه، والحسنة ـ هنا بحسب الغزوة ـ: هي الغنيمة والظفر، والمصيبة: الهزم[2] والخيبة، واللفظ عام بعد ذلك في كل محبوب ومكروه.

ومعنى قوله: ﴿قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ أي: قد حزمنا نحن في تخلفنا ونظرنا لأنفسنا.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ﴾ الآية أمر الله عز وجل نبيه ﷺ في هذه الآية أن يردَّ على المنافقين ويفسد عليهم فرحهم، بأن يُعْلمهم أن الشيء الذي يعتقدونه مصيبةً ليس كما اعتقدوه، بل الجميع مما قد كتبه الله عز وجل للمؤمنين، فإما أن يكون ظفراً وسروراً في الدنيا، وإما أن يكون ذخراً للآخرة.

وقرأ طلحة بن مصرِّفٍ: (قُلْ هَلْ يُصِيبنَا)، ذكره أبو حاتم[3]، وعند ابن جني: وقرأ طلحة بن مصرف وأَعْيَنُ قاضي الري[4]: (قل لن يُصيِّبنا) بشد الياء التي بعد الصاد

---

(١) في التركية، وأحمد٣، والمطبوع: «ما»، وفي نجيبويه: «في» بدل «مما».

(٢) في نجيبويه: «الندم».

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها له في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٢٢)، تفسير الثعلبي (٥/ ٥٣)، وعزاها لمصحف ابن مسعود.

(٤) هو أعين بن عبد الله قاضي الري، روى عن أبي الطفيل، روى عنه عمرو بن أبي قيس، قال أبو محمد: أعين بن زيد الرازي السوي روى عن أبي ثور وإبراهيم بن المنذر روى عنه علي بن الحسين وسمعت منه وهو صدوق. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٢/ ٣٢٥).

وكسرها، كذا ذكر أبو الفتح[١] وشَرَح ذلك، وهو وهمٌ، والله أعلم.

قال أبو حاتم: قال عمرو بن شقيق[٢]: سمعت أعين قاضي الري يقرأ: (قل لن يصيبنَّا) النون مشددة، قال أبو حاتم: ولا يجوز ذلك؛ لأنَّ النون لا تدخل مع (لن)، ولو كانت لطلحة بن مصرف لجازت؛ لأنها مع (هل)، قال الله عز وجل: ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾[٣].

وقوله: ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ يحتمل أن يريد: ما قضى وقدَّر.

ويحتمل أن يريد: ما كتب الله لنا في قرآننا وأنزله علينا من أنَّا إما أن نظفر بعدونا، وإما أن نُستشهَد فندخل الجنة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا الاحتمال يرجع إلى الأول، وقد ذكرهما الزجَّاج[٤].

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ معناه: مع سعيهم وجِدِّهم، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا قول أكثر العلماء، وهو الصحيح، والذي فعله رسول الله ﷺ مدة عمره، ومنه مظاهرته بين درعين[٥].

وتَخبَّطَ الناسُ في معنى التوكل في الرزق، فالأشهر والأصح أن الرجل الذي يمكنه التحرُّفُ الحلال المحض الذي لا تدخله كراهية ينبغي له أن يمتثل منه ما يصونه

---

(١) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٩٤)، وكذا في مختصر الشواذ (ص: ٥٦)، والشواذ للكرماني (ص: ٢١٥).

(٢) كذا في نور العثمانية: بن شقيق، وهو أبو حبيب، السدوسي، البصري، سمع شقيق بن عبد الله، سمع منه محمد بن المثنى، انظر: التاريخ الكبير للبخاري (٦/ ٣٤٣)، وفي المطبوع وأكثر النسخ الخطية: بن شفيق، ولم أجد له ترجمة، وانظر: البحر المحيط (٥/ ٤٣٢).

(٣) الحج: ١٥، وانظر مثل هذا في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٢٢).

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٥٢).

(٥) ضعيف، أخرجه الطبري (٧/ ٣٠٨-٣٠٩)، من طريق ابن إسحاق، عن عدد من مشايخه، به. وهذا إسناد ضعيف لإعضاله.

ويحمله، كالاحتطاب ونحوه، وقد قرن الله تعالى الرزق بالتسبب، ومنه: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥]، ومنه قول النبي ﷺ في الطير: «تغدو خماصاً»[(١)] الحديثَ، ومنه قوله: «قيِّدها وتوكل»[(٢)].

وذهب بعض الناس إلى أنَّ الرجلَ القويَّ الجلدَ إذا بلغ من التوكلِ إلى أن يدخلَ غاراً أو بيتاً يجهل أمرَه فيه، ويبقى في ذكر الله متوكلاً، يقول: إن كان بقي لي رزقٌ فسيأتي الله به، وإن كان رزقي قد تمَّ متُّ. أن ذلك حسن بالغ [عند قوم][(٣)].

---

(١) صحيح، هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٣٢)، والترمذي (٢٣٤٤)، وغيرهما من طريق حيوة بن شريح، قال: أخبرني بكر بن عمرو، أنه سمع عبد الله بن هبيرة، يقول: إنه سمع أبا تميم الجيشاني يقول: سمع عمر رضي الله عنه يقول، فذكره مرفوعاً. وهذا إسناد صحيح.

(٢) جوده العراقي والذهبي وحسنه جماعة، هذا الحديث روي عن أنس وابن عمر وعمرو بن أمية الضمري، أما عن أنس فأخرجه الترمذي (٢٥١٧) عن عمرو بن علي: حدثنا يحيى بن سعيد القطان: حدثنا المغيرة بن أبي قرة السدوسي قال سمعت أنس بن مالك يقول: قال رجل يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل»، قال عمرو بن علي: قال يحيى: وهذا عندي حديث منكر، قال الترمذي: وهذا حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد روي عن عمرو بن أمية الضمري عن النبي ﷺ نحو هذا. وأما حديث أنس فرواه الخطيب في غرائب مالك من طريق محمد بن عبد الرحمن بن بحير بن ريسان، نا إسحاق بن محمد البيروتي، نا مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر قال: قلت: يا رسول الله أرسل وأتوكل؟ فقال: «قيد وتوكل»، قال الخطيب: غير محفوظ عن مالك، وابن ريسان متروك، ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (٨/ ٢٧٩)، وأما حديث عمرو بن أمية الضمري فأخرجه ابن حبان (٧٣١)، والحاكم (٣/ ٧٢٢، رقم ٦٦١٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٨٠، رقم ١٢١٠) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٢١٥، رقم ٩٧٠) من طريق حاتم بن إسماعيل قال: حدثنا يعقوب بن عبدالله، عن جعفر بن عمرو بن أمية، عن أبيه قال: قال رجل للنبي ﷺ: أرسل ناقتي وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل»، قال ابن حبان: «يعقوب هذا: هو يعقوب بن عمرو بن عبدالله بن عمرو بن أمية الضمري من أهل الحجاز مشهور مأمون». وهذا الإسناد جوده العراقي والذهبي وحسنه جماعة.

(٣) في التركية ونور العثمانية ونجيبويه: «أعلى الدرجات»، وهذا المذهب نسبه النووي في شرح مسلم (٣/ ٩١) لبعض السلف والمتصوفة.

وحدثني أبي رضي الله عنه أنه كان في الحرم رجل ملازم يُخرج من جيبه المرةَ بعد المرة بطاقة ينظر فيها ثم يصرفها، ويبقى على حاله حتى مات في ذلك الموضع، فقرأت البطاقة فإذا فيها مكتوب: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨][(١)].

قال القاضي أبو محمد: وهذه الطريقة لا يراها جلُّ أهل العلم، بل ينبغي أن يسعى الرجل لقدر القوت سعياً جميلاً لا يواقع فيه شبهة، فإن تعذر عليه جميع ذلك وخرج إلى حد الاضطرار، فحينئذ إن تسامَحَ في السؤال وأكل الميتة وما أمكنه من ذلك فهو له مباح[(٢)]، وإن صبر واحتسب نفسه كان في أعلى رتبة عند قوم، ومن الناس من يرى أن فرضاً عليه إبقاء رمقه[(٣)].

/ وأمَّا من يختار الإلقاء باليد ـ والسعيُ ممكن ـ فما كان هذا قط من خلق الرسول ﷺ ولا الصحابة ولا العلماء[(٤)]، والله سبحانه الموفق للصواب. [٢/ ٢٤٤]

ومن حجج من يقول بالتوكل: حديث النبي ﷺ في قوله: «يدخل الجنة سبعون ألفا من أمتي بلا[(٥)] حساب، وهم الذين لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطببون، وعلى ربهم يتوكلون»[(٦)].

وفي هذا الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لعكاشة بن محصن أن يكون منهم، فقيل: ذلك لأنه عرف منه أنه معدٌّ لذلك، وقال للآخر: «سبقك بها عكاشة»، وردَّت الدعوة،

---

(١) وقد أورد الغزالي في الإحياء (٤/ ٧٣) قريبا من هذه القصة عن رجل دون أن يسميه أو يحدد مكانه.

(٢) انظر الإجماع على ذلك في: الإقناع (٢/ ٩٨٠).

(٣) ممن قال بذلك ابن حزم وغيره، انظر في ذلك: المراتب لابن حزم (ص: ١٥٥).

(٤) انظر: شرح النووي على مسلم (٣/ ٩١).

(٥) في التركية: بغير.

(٦) متفق عليه، أخرجه الإمام البخاري (٥٣٧٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم (٣٧١) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

فقيل: ذلك لأنه كان منافقاً، وقيل: بل عرف منه أنه لا يصح لهذه الدرجة من التوكل.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

فالمعنى في هذه الآية: الردُّ على المنافقين في معتقدهم في المؤمنين، وإزالةُ ظنهم أن المؤمنين تنزل بهم مصائب، والإعلام بأنها حسنى كيف تصرَّفتْ.

و﴿تَرَبَّصُونَ﴾ معناه: تنتظرون، و«الحسنيان»: الشهادة والظفر.

وقرأ ابن محيصن: (إلا احدى الحسنيين) بوصل ألف (إِحْدَى)[1].

قال القاضي أبو محمد: وهذه لغة ليست بالقياس، وهذا مثل قول الشاعر:

[الكامل] يَا ابَا الْمُغِيـرَةِ رُبَّ أَمْرٍ مُعْضِلٍ[2] ....

وقول الآخر:

[الرجز] إِنْ لَـمْ أُقَاتِـلْ فَالْبِسِينِي بُرْقُعَا[3] ....

وقوله: ﴿بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ يريد الموت بأخذات الأسف، ويحتمل أن يكون توعُّداً بعذاب الآخرة.

وقوله: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ يريد القتل، وقيل: ﴿بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ يريد أنواع المصائب والقوارع.

وقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ وعيدٌ وتهديدٌ.

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٩٥).

(٢) عجزه: فرجتُه بالنكر مني والدّها، وهو لأبي الأسود كما في الحجة للقراء السبعة (٣/ ٣٠٧)، وإيضاح الشواهد (١/ ٢٧٤).

(٣) تقدم في تفسير الآية (٢٠) من سورة النساء.

وقوله: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ سببها: أنَّ الجدَّ بنَ قيس حين قال: ائْذَنْ لِي ولا تَفْتِنِّي، وقال: إني أعينك بمال، فنزلت هذه الآية فيه[١]، وهي عامةٌ بعده، والطوع والكره يعمان كلَّ إنفاق.

وقرأ ابن وثاب والأعمش: ﴿كُرها﴾ بضم الكاف[٢].

قال القاضي أبو محمد: ويتصل هاهنا ذكر أفعال الكافر إذا كانت بِرّاً، كصلة القرابة، وجبر الكسير[٣]، وإغاثة المظلوم: هل ينتفع بها أم لا؟:

فاختصار القول في ذلك: أن في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال: «إن ثواب الكافر على أفعاله البَرَّة هو في الطُّعمة يُطْعَمها»[٤] ونحو ذلك، فهذا مقنعٌ لا يحتاج معه إلى نظر.

وأَمَّا ما ينتفع بها في الآخرة فلا، دليلُ ذلك أنَّ عائشةَ أمَّ المؤمنين قالت للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرأيت عبد الله بن جُدْعان[٥]، أينفعه ما كان يُطْعِم ويصنع من خير؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يوماً: ربِّ اغفرْ لي خطيئتي يوم الدين»[٦]،

ودليلٌ آخر في قول عمر رضي الله عنه لابنه: ذاك العاصي بنُ وائل، لا جزاه الله خيرا[٧]، وكان هذا القول بعد موت العاصي... الحديثَ بطوله.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٢٩٤)، من طريق ابن جريج عن ابن عباس، وهو منقطع.
(٢) وهي قراءة متواترة سبعية لحمزة والكسائي، انظر: السبعة (ص: ٢٢٩)، والتيسير (ص: ٩٥).
(٣) في التركية ونور العثمانية: «الكسر».
(٤) مسلم، أخرجه (٢٨٠٨) من حديث أنس بن مالك، مرفوعاً: «إن الكافر إذا عمل حسنة أُطعم بها طعمة من الدنيا».
(٥) هو عبد الله بن جدعان التيمي سيد قريش في الجاهلية، وأحد الأجواد، وفي داره كان حلف الفضول. نسب قريش (ص: ٢٩١).
(٦) مسلم، هذا الحديث أخرجه مسلم (٢١٤) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
(٧) ضعيف، هذا الأثر ذكره ابن هشام في السيرة ص (٣٠٨)، قال: «وحدثني بعض أهل العلم...»، فذكره، وهذا معضل.

ودليل ثالث في حديث حكيم بن حزام على أحد التأويلين: أعني في قول النبي ﷺ: «أسلمتَ على ما سلف لك من خير»[١]، ولا حجة في أمر أبي طالب وكونه في ضحضاح من نار؛ لأن ذلك إنما هو بشفاعة محمد ﷺ، وبأنه وجده في غمرة من النار فأخرجه[٢].

ولو فرضنا أن ذلك بأعماله لم يحتج إلى شفاعة، وأَمَّا أفعالُ الكافرِ القبيحةُ فإنها تزيد في عذابه، وبذلك هو تفاضلهم في عذاب جهنم[٣].

وقوله: ﴿أَنفِقُواْ﴾ أمرٌ في ضمنه جزاءٌ، وهذا مستمرٌّ في كلِّ أمرٍ معه جوابٌ، فالتقدير: إن تنفقوا لم[٤] يتقبل منكم، وأَمَّا إذا عري الأمرُ من جواب فليس يصحبه تضمن الشرط.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

يحتمل أن يكون معنى الآية: وما منعهم الله من أن تقبل إلا لأجل أنهم كفروا بالله، فـ ﴿أَن﴾ الأولى على هذا في موضع خفضٍ نَصَبها الفعل حين زال الخافض، و(أَنَّ) الثانية في موضع نصب مفعول من أجله.

ويحتمل أن يكون التقدير: وما منعهم الله قبولَ نفقاتهم إلا لأجل كفرهم، فالأُولى

---

(١) متفق عليه، هذا الحديث البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (١٩٤) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٣٦٧٠)، ومسلم (٣٥٧) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(٣) انظر حكاية الإجماع على ذلك في: شرح النووي على مسلم (٣/ ٨٧).

(٤) في التركية ونور العثمانية ونجيبويه: «لن».

على هذا في موضع نصب، ويحتمل أن يكون المعنى: وما منعهم قبولَ نفقاتهم إلا كفرُهم، فالثانية في موضع رفعٍ فاعلةٌ[١].

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم: ﴿أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ﴾ بالتاء.

وقرأ حمزة والكسائي ونافع فيما روي عنه: ﴿أن يقبل منهم نفقاتهم﴾ بالياء[٢].

وقرأ الأعرج بخلاف عنه: (أن تقبل منهم نفقتُهم) بالتاء من فوق وإفراد النفقة[٣].

وقرأ الأعمش: (أن يقبل منهم صدقاتهم)[٤].

وقرأت فرقة: (أن نقبل منهم نفقتهم) بالنون ونصب النفقة[٥].

و﴿كُسَالَىٰ﴾ جمع كسلان، وكسلان إذا كانت مؤنثته كَسْلَى فهو لا ينصرف بوجه، وإن كانت مؤنثته كسلانة فهو ينصرف في النكرة.

ثم أخبر عنهم تعالى أنهم لا ينفقون نفقة[٦] إلا على كراهية؛ إذ لا يقصدون بها وجه الله ولا محبة المؤمنين، فلم يبق إلا فقدُ المال وهو من مكارههم لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ الآية، حقر هذا اللفظُ شأنَ المنافقين، وعلل إعطاء الله لهم الأموالَ والأولاد بإرادته تعذيبَهم بها.

واختلف في وجه التعذيب:

---

(١) انظر الاحتمالين في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٢٣).

(٢) وهما سبعيتان وبقي عليه أبو عمرو ممن قرأ بالتاء، انظر: التيسير (ص: ١١٨)، وأما الياء عن نافع فمن رواية أبي عبيد عنه وعن عاصم كما في جامع البيان (٣/ ١١٥٣)، قال: وهو غلط منه عليهما.

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٨).

(٤) مخالفة للمصحف، وقد عزاها الكرماني في شواذ القراءات (ص: ٢١٦) لابن مسعود بالإفراد، أما الأعمش فعزا له مثل ما للأعرج.

(٥) وهي شاذة، انظر البحر المحيط (٥/ ٤٣٥) ولم ينسبها لمعين.

(٦) في الأصل: «دومة».

فقال قتادة: في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، فالمعنى: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة.

وقال الحسن: الوجه في التعذيب أنه بما ألزمهم فيها من أداء الزكاة والنفقة في سبيل الله.

قال القاضي أبو محمد: فالضمير في قوله: ﴿بِهَا﴾ عائدٌ في هذا القول على الأموال فقط.

وقال ابن زيد وغيره: التعذيب هو بمصائب الدنيا ورزاياها، هي لهم عذابٌ؛ إذ لا يؤجرون عليها[1].

وهذا القول وإن كان يستغرق قولَ الحسن، فإنَّ قولَ الحسن يتقوى تخصيصُه بأن تعذيبهم بإلزام الشريعة أعظم من تعذيبهم بسائر الرزايا، وذلك لاقتران الذلة والغلبة بأوامر الشريعة لهم / . [٢/ ٢٤٥]

قوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ يحتمل أن يريد: ويموتون على الكفر، ويحتمل أن يريد: وتزهق أنفسهم من شدة التعذيب الذي ينالهم.

وقوله: ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ جملةٌ في موضع الحال على التأويل الأول، وليس يلزم ذلك على التأويل الثاني.

وقوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ الآية أخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم يحلفون أنهم من المؤمنين في الدين والشريعة، ثم أخبر تعالى عنهم على الجملة لا على التعيين أنهم ليسوا من المؤمنين، وإنما هم يفزعون منهم فيُظهرون الإيمان وهم يبطنون النفاق.

و«الفَرَق»: الخوف، والفَرُوقة: الجبان، وفي المثل: [أو فَرَقٌ خيرٌ من حُبين][2].

---

(١) انظر أقوال كل من قتادة والحسن وابن زيد في: تفسير الطبري (١٤/ ٢٩٦، ٢٩٥).

(٢) «أو» ليست في المطبوع، وفي نجيبويه: «فروق»، وفي الفاخر (ص: ٢٩٦) أن الحجاج قال للغضبان ابن القبعثرى الشيباني: أتحبني يا غضبان؟ قال: أو فرق خير لك من الحب. فذهبت مثلاً، في قصة مشهورة، وانظر الأمثال لابن سلام (ص: ٣٠٩).

قوله عز وجل: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾.

«الملجأ» من لجأ يلجأ: إذا أوى واعتصم.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ﴾ بفتح الميم.

وقرأ سعيد بن عبد الرحمن بن عوف: (أو مُغارات) بضم الميم[1]، وهي الغِيْران في أعراض الجبال، ففتحُ الميم من غار الشيء: إذا دخل، كما تقول: غارت العين، إذا دخلت في الحِجَاج، وضمُّ الميم من أغار الشيء غيرَه: إذا أدخله، فهذا وجه من اشتقاق اللفظة، وقيل: إن العرب تقول: غار الرجل وأغار بمعنًى واحد؛ أي: دخل.

قال الزجّاج: إذا دخل الغور فيحتمل أن تكون اللفظة أيضاً من هذا[2].

قال القاضي أبو محمد: ويصح في قراءة ضم الميم أن تكون من قولهم: حبلٌ[3] مُغار؛ أي: مفتول[4]، ثم يستعار ذلك في الأمر المحكم المبروم، فيجيء التأويل على هذا: لو يجدون عصرة أو أموراً مرتبطةً مشددةً تعصمهم منكم أو مدخلاً لولوا إليه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ أصله: مُفْتَعل، وهو بناء تأكيد ومبالغة،

---

(١) وهي قراءة شاذة، عزاها في مختصر الشواذ (ص: ٥٨)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٥٤)، لعبد الرحمن ابن عوف، وعزاها في المحتسب (١/ ٢٩٥) لابنه سعد بن عبد الرحمن بن عوف، وهو أبو إبراهيم المشهور، وأما سعيد فلم أقف له على ذكر.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٥٤).

(٣) في الأصل ونجيبويه ونور العثمانية والسليمانية: «جبل».

(٤) في الأصل: «مقبول».

ومعناه: السَّرَب والنفق في الأرض، وبما ذكرناه في الملجأ والمغارات والمدخل، فسَّر ابنُ عباس رضي الله عنه [١].

وقال الزجَّاج: المدخل معناه: قوماً يُدخلونهم في جملتهم [٢].

وقرأ مسلمة بن محارب والحسن وابن أبي إسحاق وابن محيصن وابن كثير بخلاف عنه: (أو مَدْخَلاً) [٣] فهذا من دخل.

وقرأ قتادة وعيسى بن عمر والأعمش: (أو مدَّخَّلاً) بتشديدهما [٤].

وقرأ أبي بن كعب: (مندخلاً) بنون [٥].

قال أبو الفتح: هذا كقول الشاعر:

[البسيط] ولا يَدِي في حَمِيتِ السَّمْنِ تَنْدَخِلُ [٦] ....

قال القاضي أبو محمد: وقال أبو حاتم: قراءة أبيٍّ بنِ كعب: (متَدخَّلاً) بتاء مفتوحة [٧]، وروي عن الأعمش وعيسى: (مُدْخَلًا) بضم الميم [٨] فهو من أدخل.

---

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ٢٩٧) من طريق علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٥٥).

(٣) أورد المؤلف هنا خمس قراءات شاذة: هذه هي الأولى وهي بفتح الميم، لقوله «من دخل»، عزاها في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٢٣) للحسن وابن أبي إسحاق وابن محيصن، وتفسير الثعلبي (٥/ ٥٥) للحسن، وتابعه على الباقين في البحر المحيط (٥/ ٤٣٨).

(٤) وهي القراءة الثانية، عزاها لهم في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٢٣).

(٥) وهي القراءة الثالثة، انظر: المحتسب (١/ ٢٩٥)، وفي التركية: «منداخلا»، و«بنون»: ساقطة من الأصل.

(٦) البيت للكميت كما في أدب الكاتب (ص: ٤٥٦)، والمعاني الكبير (٣/ ١٢٥٨)، وفي نجيبويه: «صميت»، وفي نور العثمانية والتركية: «الشمس» بدل «السمن».

(٧) وهي القراءة الرابعة. انظرها في مختصر الشواذ (ص: ٥٨)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٢٣)، وتفسير الكشاف (٢/ ٢٨١).

(٨) وهي القراءة الخامسة، ذكرها بلا نسبة الزجاج في معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٤٥٥)، ونقلها عنه النحاس في إعراب القرآن (٢/ ١٢٣)، ومكي في الهداية (٤/ ٣٠٣٣)، وعزاها للمذكورَيْن ولمحبوب عن الحسن في البحر المحيط (٥/ ٤٣٨).

وقرأ الناس: ﴿لَّوَلَّوْا﴾، وقرأ جدُّ أبي عبيدة بنِ قرمل[١]: (لوالوا)[٢] من الموالاة، وأنكرها سعيد بن مسلم[٣]، وقال: أظن: (لوألوا) بمعنى: للجؤوا[٤].

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَجْمَحُونَ﴾ معناه: يسرعون مصمِّمين غير منثنين، ومنه قول مهلهل:

لَقَدْ جَمَحْتُ جِمَاحاً فِي دِمَائِهِمُ ... حتَّى رَأَيْتُ ذَوِي أَحْسَابِهِمْ خَمَدُوا[٥] [البسيط]

وقرأ أنس بن مالك: (يَجْمِزون)[٦]، ومعناه: يهربون، ومنه قولهم في حديث الرجم: «فلما أذلقته الحجارة جمز»[٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ الآية الضمير في قوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ عائدٌ على المنافقين.

وأسند الطبري إلى أبي سعيد الخدري أنه قال: جاء ابن ذي الخُوَيْصِرة

(١) هو معاوية بن قرمل بفتح القاف والميم بينهما راء ساكنة، المحاربي، قال أبو عمر: مذكور في الصحابة، وقال ابن السكن وابن مندة: يقال له صحبة، وذكرا أنه كان مع خالد بن الوليد حين غزا الشام، الإصابة (٦/ ١٢٥).

(٢) وهي شاذة، نقلها في المحتسب (١/ ٢٩٨)، عن ابن أبي عبيدة بن معاوية بن قرمل، عن أبيه، عن جده وكانت له صحبة، وعزاها في تفسير الثعلبي (٥/ ٥٥) للأعمش والعقيلي، وفي مختصر الشواذ (ص: ٥٨) عن معاوية بن عبد الكريم: (لوالّوا) بالمد والتشديد.

(٣) في نجيبويه: «بن أسلم»، ولعله سعيد بن مسلم، القرشي البصري، عن: محمد بن زياد الجمحي، وعبد الله بن سلام، وعنه: موسى بن إسماعيل، ومحمد بن سليمان، لوين، محله الصدق. تاريخ الإسلام (١٠/ ٢٢١)، والله أعلم.

(٤) في نجيبويه: «لنجوا»، وانظر اعتراض سعيد هذا في البحر المحيط (٥/ ٤٣٨).

(٥) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٤/ ٢٩٨)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٥٥).

(٦) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٩٦)، والكشاف (٢/ ٢٨١).

(٧) صحيح البخاري (٥٢٧٠) وغيره.

التميمي[١] رسولَ الله ﷺ يقسم قسماً فقال: اعدل يا محمد... الحديث المشهور بطوله، وفيه قال أبو سعيد: فنزلت في ذلك: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[٢].

وروى داود ابن أبي عاصم[٣]: أنَّ النبي ﷺ أتي بصدقة فقسمها، ووراءه[٤] رجلٌ من الأنصار، فقال: ما هذا بالعدل، فنزلت الآية[٥].

قال القاضي أبو محمد: وهذه نزعةُ منافقٍ، وكذلك روي من غير ما طريق أنَّ الآيةَ نزلت بسبب كلام المنافقين؛ إذ لم يعطوا بحسب شطط آمالهم.

و﴿يَلْمِزُكَ﴾ معناه: يَعيبك ويأخذ منك في الغِيبة، ومنه قول الشاعر:

[البسيط] إِذَا لَقَيْتُكَ تُبْدِي لِي مُكَاشَرَةً ... وَإِنْ أُغَيَّبْ فَأَنْتَ الْهَامِزُ اللُّمَزَه[٦]

ومنه قول رؤبة:

[الرجز] فِي ظِلِّ عَصْرَيْ بَاطِلِي وَلَمْزِي[٧]

والهمز أيضاً في نحو ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

وقيل لبعض العرب: أتهمز الفأرة؟ فقال: إنما تهمزها الهرة[٨].

---

(١) كذا في جميع النسخ، والصواب أنه ذو الخويصرة نفسه، واسمه حرقوص بن زهير انظر الإصابة (٢/ ٣٤٣).

(٢) البخاري، أخرجه بهذا اللفظ (٦٥٣٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) هو داود بن أبي عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي الطائفي ثم المكي، روى عن: ابن عمر، وسعيد ابن المسيب، وعنه قتادة، وابن جريج، وقيس بن سعد، وآخرون، وثقه أبو زرعة وغيره، علق له البخاري في صحيحه. تاريخ الإسلام (٧/ ٧٤).

(٤) في التركية: «ورآه».

(٥) ضعيف، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٣٠٢) من طريق داود بن أبي عاصم، به مرسلًا.

(٦) البيت لزياد الأعجم كما في مجاز القرآن (٢/ ٣١١)، تفسير الطبري (٢٤/ ٥٩٥)، إعراب القرآن للنحاس (٤/ ١٤٢).

(٧) البيت لرؤبة كما في سيرة ابن هشام (١/ ٣٥٧)، وتفسير الطبري (١٤/ ٣٠٠).

(٨) عيون الأخبار (٢/ ١٧٣)، وفي الكامل (١/ ٣٠٦) أن الأصمعي سأل أعرابيّاً فأجابه بذلك.

قال أبو علي: فجعل الأكل همزاً، وهذه استعارة، كما استعار حسان بن ثابت الغرث في قوله:

.... وتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ[1] [الطويل]

تركيباً على استعارة الأكل في الغيبة[2].

قال القاضي أبو محمد: ولم يجعل الأعرابي الهمز الأكل، وإنما أراد ضربها إياها بالناب والظفر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ بكسر الميم، وقرأ ابن كثير فيما روى عنه حماد بن سلمة: ﴿يلمُزك﴾ بضم الميم، وهي قراءة أهل مكة وقراءة الحسن وأبي رجاء وغيرهم[3].

وقرأ الأعمش: (يلمِّزك)[4]، وروى أيضاً حماد بن سلمة عن ابن كثير: (يلامزك)[5]، وهي مفاعلة من واحد؛ لأنه فعل لم يقع من النبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية، وصفٌ للحال التي ينبغي أن يكون عليها المستقيمون، يقول تعالى: ولو أن هؤلاء المنافقين رضوا قسمة الله الرزق لهم، وما أعطاهم على يدي رسوله، ورجَوا أنفسهم فضل الله ورسوله، وأقروا بالرغبة إلى الله، لكان خيراً لهم وأفضل مما هم فيه، وحُذف الجواب من الآية لدلالة ظاهر الكلام عليه، وذلك من فصيح الكلام وإيجازه.

---

(١) انظر عزوه له في سيرة ابن هشام (٢/ ٣٠٦)، جمهرة اللغة (١/ ٥٤٣)، العقد الفريد (٤/ ١٣١)، الأغاني (٤/ ١٥٩). وورد ضمن خبر في صحيح البخاري (٤١٤٦)، ومسلم (٢٤٨٨)، وصدره: حصانٌ رزانٌ ما تُزنُّ بريبة.

(٢) الحجة للفارسي (٤/ ١٩٧).

(٣) هذه قراءة عشرية ليعقوب كما في النشر (٢/ ٢٧٩)، وانظر عزوها لرواية حماد في السبعة لابن مجاهد (ص: ٣١٥)، والكامل للهذلي (ص: ٥٦٣)، وللحسن والأعرج وأبي رجاء وسلام في تفسير الثعلبي (٥/ ٥٦).

(٤) وهي شاذة، انظر عزوها له في مختصر الشواذ (ص: ٥٨).

(٥) وهي شاذة، انظر عزوها له في الحجة للفارسي (٤/ ١٩٦)، والشواذ للكرماني (ص: ٢١٧).